

\$20

REIMPRIMATUR

† FR. EUGENIUS LUDOVICUS-MARIA LION
SACRI ORDINIS PRÆDICATORUM

ARCHIEPISCOPUS DAMIATENSIS ET SANCTÆ SEDIS DELEGATUS APOSTOLICUS
PRO MESOPOTAMIA
KURDISTANO ET ARMENIA MINORI.

الخطبة الاولى

تضمن بيان عظم جسارة من يعلم أنه في كل دقيقة قابل الموت .
ومع ذلك يستمر ولو دقيقة واحدة في حال الخطأ المميت

القسم الاول

اذكري يا انسانا انك تراب والى التراب تعود * كذا
قال الله لآدم في سفر التكوين *

انني قد اقبلت نحوكم الان ايها السامعون المكرمون لكي اندركم بقضية هي
مزعجة ومحنة جدا . واقتر لديكم معترفا اني بصعوبة عظيمة تقدمت الى الانذار
بها . لانه قد ثقل علي جدا ان اورد على سماعكم من ابتداء النهار ما يكدر
خواطركم كدرا ليس باليسير * ولعمري ان افتكاري في ما انا قائلة لكم على ما احس
في نفسي هو وحده قد جمد الدم في عروقي لفرط الخوف والارتعاب . ولكن ماذا
فيعدني الصمت . واية منفعة تحصل من المحاباة * فما اني اخاطبكم . ولا اوارى
واقول : اننا نحن المجتمعين هاهنا كلنا اجمعين سواء كنا شبابا او شيوخا . وسادات
او خداما . وشرفاء او فقراء . فكلنا مائتون . والى باب القبر جميعا داخلون *
« انه قد حتم على الناس ان يموتوا مرة واحدة » كقول القديس بولس الى
الغلاطيين ١ : ٢٧ * غير اني لمتعجب جدا مما اراه واعاينه . لكوني لم اجد احدا
منكم قد اضطرب لخبر مثل هذا غريب مرعب . ولا تبدلت الوان الكثيرين .
ولم اصادف احدا منكم قد تغيرت سحنة وجهه . آه واسفاه * على انني ارى شيئا
قد جرى خلافا لما كنت ارجو . وذلك اني عوضا عن الخوف الذي ظننت انه

يشملكم عند استماعكم هذا الخبر المفزع . ها انا مستشعرٌ بانكم شرعتم في داخلكم
تهزؤون بي كما يهزأ بن رام ان يذيع خبراً يظنه بديعاً جديثاً وهو قد اشتهر وتداولته
افواه الناس * ونقولون لي بلسان الحال : من من الناس يا ابانا حتى الآن لا
يعرف أننا جميعاً مائتون «ومن هو الانسان الذي يجيا ولا يعاين الموت» (مزامير
١٨ : ٤٩) * طالما سمعنا من منابر الوعظ هذا القول الذي تاتينا به حتى امتلأت
منه آذاننا . بل كثيراً ما قرأناه على مقابر الاموات . حتى انه يُنادى به علينا مناداةً
متصلة من جثث الموتى مع كونها خرساء : نعم أننا نعرفه * فان كنتم تعرفونه حقاً .
فقولوا لي كيف اصدق ذلك . واجيبوني جواباً شافياً * اليس انتم الذين كنتم
بالاس تجولون في المدينة فرحين مسرورين . وكان بعضكم متظاهراً بشكل العشاق .
ومنكم من كان يستبين في حال الهائمين . ومنكم من كان يوجد في حال الشرهين
والسكّيرين * اليس انتم الذين كنتم ترقصون بما لا مزيد عليه من الفخفة والتغطرس
في محافل الصفاء * اما انتم الذين كنتم مستغرقين بهيام عظيم في الولايم والمادب *
اما انتم الذين قد كنتم مطوّحين انفسكم بغاية ما يكون من الانصباب في عوائد
الوثنيين الجاهليين * اوليس انتم الذين قد كنتم جالسين في اماكن اللهو مسرورين
مبتهجين . اما انتم الذين كنتم ماتهين بخطاياكم وطغيانكم . تطربون في اماكن
المهياة والمصنوعة في الشوارع والازقة بسمع مثل هذه الاباطيل * اجيبوني : اليس
انتم الذين قضيتم بجهور وفرح الليلة البارحة المتقدمة على رش الرماد المبارك .
وصرفتموها في المهازبي والملاعب والحديث الفارغ والاغاني والملاهي الباطلة والتغزل
الدنس . وباليتم لم تصرفوها ايضاً في الملاهي والملذات المحرمة * ليت شعري هل
يسوغ لي ان اصدق انكم انتم الذين انهمكتم في مثل هذه الاشياء تعرفون يقيناً انكم
سوف تموتون * يا لظلام هذا العمى ما اكثفه . يا لجنون لا شفاء له . يا لجهل وغباوة
يرثي لها * لقد كنت افكر اني بانذارى لكم بالموت اورد لكم سبباً قوياً مقنعاً
يجذبكم جميعاً الى التوبة والبكاء . ولاجل ذلك اتيت الى هنا بمنزلة مبشر مرسل

ن قَبِلَ اللهُ آتِيَا فِيمَا بَيْنَ ضَبَابٍ وَأَمْطَارٍ وَرِيَّاحٍ عَاصِفَةٍ وَغَدْرَانٍ وَثَلْجٍ وَنَهْرٍ وَجَلِيدٍ .
 سُرُورًا بِالمَشَقَّاتِ الَّتِي اسْتَخَفَّتْهَا . ظَانًا بِنَفْسِي أَنَّهُ لَا بَدَّ لِي مِنْ أَنْ اكَتَسِبَ وَلَوْ نَفْسًا
 حِدَةً بِإِيرَادِي لِلخَطَاةِ ذَكَرَ مَوْتَهُمْ * وَلَكِنْ قَدْ خَابَ أَمَلِي أَنَا الْمَسْكِينُ وَأَخْفَقَ
 مَعَايَ جَدًّا . حَيْثُ أَنْتُمْ مَعَ السَّبَبِ القَوِيِّ الَّذِي أَبْدَيْتُهُ بِأَزَائِكُمْ لَكِي تَنْتَبَهُوا وَتَتُوبُوا .
 مَكْتَمٌ فِي الخَطَاةِ وَالجَهْلِ أَوْفَرِ انْهَاكٍ غَيْرِ مُسْتَحِينٍ . بَلْ فَاعْلَمِينَ نَظِيرَ العَنْزَةِ الشَّرْهَةِ
 قَلْقَلَةٌ الَّتِي مِنْ شَانِهَا أَنْ لَا تَهْلُ سَاعَةً أَنْ تَرعى وَتَقْفِرَ وَتَمْرَحَ فِي السَّهْلِ جَارِيَةً إِلَّا
 تَتِي مَا أَحْسَتْ بِقُدُومِ رِيحٍ عَاصِفٍ شَدِيدَةٍ أَوْ نَوْثٍ ثَقِيلٍ * فَإِذَا مَا الَّذِي يَنْبَغِي لِي
 لَأَنْ أَنْ أَفْعَلَ : أَيْلِقُ لِي أَنْ أَصْمِتَ وَأَسْتَسَلِمَ كَجَبَانٍ . أَمْ الأُولَى بَانَ أَوْلَى رَاجِعًا
 تَهْتَفِرًا . أَمْ هَلْ يَجُوزُ لِي أَنْ أَتْرَكَكُمْ مَتَوَعِّلِينَ فِي وَهْدَةِ الخَطِيئَةِ * لَا لِعَمْرِي . وَلَكِنْ أَسْأَلُ
 اللهُ تَعَالَى أَنْ يَأَيِّدَ أَفْكَارِي وَيَعْضِدَهَا بِمَقْدَارِ مَا أَنَا أَوْمَلُ أَنْ أَرْجِيكُمْ لَهُ تَعَالَى * وَهِيَ أَنَا
 سَأَلْتُكُمْ فَاجِيبُونِي : أَمَا تَسْلُمُونَ أَنْتُمْ مَجْبُولُونَ مِنْ تَرَابٍ سَرِيعِ الفَسَادِ وَاللَّيْلِ . أَلَيْسَتْ
 هَذِهِ الحَقِيقَةُ صَادِقَةً . أَمَا عَرَفْتُمُوهَا وَقَرَأْتُمُوهَا . أَمَا تُقَرُّونَ بِهَا مُعْتَرِفِينَ مِنْ دُونِ أَنْ
 يَكْرُرَ عَلَيْكُمْ أَحَدُ الآيَةِ الَّتِي ابْتَدَأْنَا بِهَا الخَطَابَ وَيَقُولُ : اذْكَرْ يَا إِنْسَانًا أَنَّكَ تَرَابٌ *
 أَلَا هَذَا هُوَ الَّذِي أَرْجُو مِنْكُمْ أَنْ تُقَرُّوا بِهِ . وَعَالِيٌّ الآنَ أَنْ أَيْبِنَ لَكُمْ عَظْمَ جَهْلِ
 القَوْمِ الَّذِينَ مَعَ فَهْمِ الحَقِيقَةِ المَذْكُورَةِ يَعِيشُونَ وَلَوْ لِحِظَةً مِنَ الزَّمَانِ فَقَطْ فِي حَالِ
 الخَطِيئَةِ المَمِيئَةِ * وَلَكِنْ مَا لِي أَقُولُ جَهْلٌ . إِنَّ الأَجْدَرِيَّ أَنْ أَسْمِيَهُ جَسَارَةً بَلْ وَقَاحَةً
 مِنْ بَابِ الجُنُونِ . وَهِيَ أَنَا مُبْرَهَنٌ لَكُمْ عَلَى ذَلِكَ * غَيْرَ أَنِّي أَوَّلًا التَّمَسُّ المَعُونَةَ قَائِلًا :
 يَا أَيُّهَا المَلَائِكَةُ الجَمَالِسُونَ حَذَاءَ هَوْلَاءِ السَّامِعِينَ المَكْرَمِينَ لِحِرَاسَتِهِمْ . يَا أَيُّهَا
 القُدِّيسُونَ الرَاقِدُونَ وَالمَدْفُونُونَ تَحْتَ مَذَاجِ هَذِهِ الكَنِيسَةِ المَشْرِفَةِ لَدَيْكُمْ . أَنِّي
 اسْتَعِينُ بِكُمْ مِنْذُ الآنَ عَنْ كُلِّ مَرَّةٍ أَصْعَدُ إِلَى هَذَا المَنْبَرِ مُتَضَرِّعًا وَمَتَوَسِّلًا إِلَيْكُمْ
 أَنْ تَجْعَلُوا فِي كَلَامِي الرِّصَانَةَ والقُوَّةَ اللَّتَيْنِ لَا يَبْلُغُ إِلَيْهَا لِسَانِي * ثُمَّ بَكَتِ اسْتَغِيثَ
 خَاصَّةً أَيُّهَا العِذْرَاءُ المَعْظُمَةُ الَّتِي مَجَى لَكَ أَنْ تَسْمِيَ وَالبَقِيَّةَ الكَلِمَةَ الأَلَهِيَّةَ . وَقَدْ حَبَلَتْ
 بِهِ فِي مُسْتَوْدَعِكَ البَتُولِيِّ بِشَوْقٍ عَظِيمٍ إِلَى سَعْدِنَا وَوَلَدَتِهِ بِمُخْصَبٍ عَظِيمٍ لِلعَالَمِ

لاجل خير الجميع . وبعد ان كان خفياً مكنوناً جعلته مشتهراً ومصطباً وملهوساً
بالحواس ايضاً . فأنعمي عليّ بشفاعتك بان اتصرف بالكلمة الالهية كل يوم في مدة
هذا الصوم باحترام عظيم . كيلا اشينها باقوال باطله . ولا ادنسها بشقشقة ذميمة . ولا
ابلبلها بتفاسير معوجة او تاويل كاذبة . بل اهليلني لكي اسكبها في قلوب السامعين
صافية نقية حسبما خرجت من اعماق حشاك الطاهرة * لقد اتيت يا سيدتي
مفتقراً وخالياً من كل سند . سوى الامل الوافر في تايدك . ولاجل ذلك ارجو
منك ان تجمعي افكاري . وتطلقي لساني . وتدبري حركاتي . وان تجعلي كلامي منتظماً
على نسق حسن لياول الى تسبيح الله تعالى ومجده الاعظم وبنيان القريب وفائدته .
وان يكون لي انا ايضاً لنيل الاستحقاق . ولا يتحول الى مادة الهلاك . آمين *

ان الانسان من ذات طبعه مائل غالباً الى الخوف في حال المخاطر الباهظة
اكثر مما هو مستعد الى الامان بها * ولاجل ذلك نرى انه لم يكن في سفينة يونان
احد حاصل على سلامة سوى ذاك النبي العديم الطاعة وحده . لانه كان راقداً
براحة وهدوء في حال ضجيج الرعود وفورة الزوابع * واما الآخرون فبعضهم كانوا
يصرخون او ينوحون . وبعضهم يستشيرون . وغيرهم يتعبون مجدين ليلسوا من الغرق
المشرفين هم عليه * وهذا هو ما قاله ايضاً القديس توما الاكوييني في المسئلة ٢٧ من
تفسيره اصحاح ١٨ من بشارة متى حيث قال : ان الانسان مائل الى الارتياح الذي
به يجنب الشرور اكثر مما يرغب في الجسارة التي بها يقتحم الشرور * غير اننا نرى
ان هذه الحقيقة انما تصح حينما تكون المخاطر دنيوية فقط مع انها في ذاتها هي اقل
إرهاباً وشدة . لانهما يكون الخطر أخروبياً وهو اكثر هولاً ولا علاج له * ومن ذا
الذي يصدق ان الناس في مثل هذا الخطر فقط يميلون غالباً الى السكون
والامان . فلا يخشون الخطر ولا يبالون به بل يستخفون ولا يتداركونه * ألا يا ايها
الخطاة ما تقولون في حالكم هذه . اجيبوني * ان من المؤكد انكم تعلمون انه اول ما
اكلتم خطيتكم بالفكر او بالقول او بالفعل . حتم عليكم حالاً بالقضاء الخوف بالهلاك

الابدي. ولا يرام هذا القضاء عليكم لا حاجة الى تعب جزيل. لان النيران التي ستكون سيركم في الآخرة الى الابد هي منقذة منذ اجيال عديدة من غير ان تطفأ كما قال الكتاب « اشعلت النار في رجلي هكذا يقول الله وتلهب عليكم » (ار ١٥: ١٤) * والعذابات معدة. والمعذبون واقفون ينتظرون * ليت شعري اي شيء بقي لينجز القضاء بالفعل * لعمرى انه لم يبق الا ان ينقطع الخيط الذي انتم به معلقون فوق هوة الحميم العميقة. وكما قال الكتاب المقدس « فوق بر العمق » (رويا ٢: ٢) * ومع ذلك كله أفلا ترهبون خائفين. وكيف تستطيعون ان تتناولوا اليوم طعاماً عند المساء ملتذين ومترفهين. وهل تستطيعون ان تحدثوا وتعاشروا غيركم متزهين ومطمانين. وهل يمكنكم ان تنطلقوا الى المنام وتلتسوا النوم والراحة آمنين غير خائفين * ان الحق ان لا ندعو هذا الامان الأجرارة ووقاحة شنيعة فظيعة. والأفليت شعري باي اسم نسميه. فانه لا ريب في ان خيط هذه الحياة الذي انتم به الآن معلقون قد يمكن ان يكون متيناً وثابتاً. وقد يمكن ايضاً ان لا يكون كذلك. بل يكون قد قرب من الزوال والقطع * وان كان ذلك كذلك. فهل يسوغ لكم عند هذا الارتباب العظيم ان تمسكوا برأي يفضي بكم الى الامل الكاذب المخطر المهلك في امر يتعلق بأخركم. وتتركوا الراي السليم الامين الذي ينبهكم على الخوف الخلاصي المفيد لارواحكم *

غير أنني اقول الحق ولا اكذب: أنني غلطت بقولي: عند الارتباب العظيم * واي شيء في الدنيا يمكنه ان يعدكم وعداً أكيداً محققاً بدقة واحدة من الحياة. اترى البادزهر الشرقي. ام اللؤلؤ المسحوق. ام الذهب المحلول. ام المعاجين الفاخرة المركبة من دقيق الجواهر والحجارة الثمينة * لا لعمرى. ان هذه الاشياء ادوية اخترعتها الكبرياء والخيلاء ليضي موت الحكام وذوي المناصب الدنيوية موت الجاه والعزاً ايضاً * وان تأملنا من جهة اخرى. نرى انه يوجد اشياء كثيرة تستطيع ان تستأصل حياتكم في كل دقيقة * لقد كان الوثنيون القدماء ضالين في نفوسهم بهذا الراي.

وهو ان العلل التي تفني حياة البشر هي ثلاث فقط * ولكن سينكا الفيلسوف لم يكن متمسكاً بهذا الضلال . بل كان يرى انها كثيرة جداً غير معدودة . ولذلك قال : لا يوجد شيء في العالم الا ويمكنه ان يفني حياة الانسان * وان شئتم تحقيق ذلك . فلاحظوا كل ما يوجد من المخلوقات في العالم . فتروها جميعاً عللاً للموت . وكأنها حاملةٌ جميعاً بايديها اسلحةً وسيوفاً . اعني انها باجمعها ناهضة علينا . وهي قادرة على قتلنا بل مستعدة له * وما عدا ما اوردته فاقول : من ذا لا يعلم ان الانسان لكي يموت فلا يحتاج الى ان ينتظر الموت لياته من خارج . لانه يوجد في داخلنا مقدار ما يكفي لقتلنا * على انه كما ان الحديد يربي في نفسه الصدا . والخشب يحوي السوس . والصفوف العث . هكذا الانسان يربي الموت من نفسه في نفسه . من غير ان يشعر به اصلاً * وجاء في الاخبار ان قائد جيش يقال له كلدورس كان مشتهراً في البسالة والشجاعة والقوة في الحرب جداً . وكان حياً في الجيل الماضي وقد عاش يسر وسعد لم ينله غيره ممن يمارسون الحروب والمعركات . وبلغ من العمر خمساً وسبعين سنة * وفيما كان يوماً يتخطر فرحاً مسروراً في الهجاء تجاه جيشه مفتخراً بانه لم ينزل الى ذلك الحين معتدلاً في تركيبه ونشيطاً في قواه وغض الجسم نظير من له من العمر خمس وعشرون سنة . اذا انقطع في تلك الساعة عينها فخره . وزالت حياته من بغته . وذلك بانحدار نقطة على قلبه اذاقته العطب . وقد ابان لنا بهذا الموت الفجائي كم يكون الانسان عديم الخبرة والمعرفة بما يجري داخل عمق حشاه * وبعد هذا كله كيف تجسرون ايها السامعون وانتم في هذا الارتباب المربع ان تعيشوا ولو لحظة واحدة فقط في الخطأ الميت * اهذا هو اذا الحرص الذي به تجتهدون على نفوسكم . اهذا هو الاعتبار الذي به تعتبرون غايتكم . اهذا هو الاهتمام الذي تهتمون به لربح سعادتكم الابدية * يا للعجب . كيف تعلمون انكم حاصلون في وسط أخطار كثيرة باهظة . ومع ذلك لا تجزعون * ان من الناس من يتجرب جداً من ايلياء النبي كيف استطاع ان يرقد مستريحاً في

الصحراء كقول الكتاب المقدس «اضجع ونام تحت ظلال العرعر» (امل ١٩: ٥) * مع
 انه كان ثم امة من المقتدرين تطارده لتقتله * ولكني انا لست اعجب من ذلك .
 ليس من المحقق ان ايليا كان باراً قديساً . فمن ثم جاز له ان يرقد مستريحاً * ولكني
 اعجب من مشاهدتي شاول واليفانا وسييرا نياما مع كونهم ناموا داخل الخيم . ولم
 يفتكروا ماذا تكون آخرتهم اذا ضربهم حينئذ من كان يقصدهم ليبيدهم * اللهم
 نسالك ان لاتسمع ان نعائين كل يوم تجدد امثال هؤلاء في الشعب المسيحي . لعمرى
 انه يوجد كثيرون جداً يذهبون الى مفارشهم في حال الخطية المميتة . وهم غير ملتفتين
 الى المخاطر المرعبة الكثيرة التي يمكن ان تفاجئهم من نرف دمير بغتة . او من اشتباك
 بلغم على صدورهم . او من انحدار نقطة على قلوبهم . او من لدغ دويبة مسممة * فهل
 يسوغ لمثل هؤلاء ان يغضوا اعينهم فقط ولو برهة يسيرة من الزمان * يا لها من
 غباوة مذمومة ما افجها . ويا لجنون كثيف ما اشنعها *

ذكر انه يوجد في بلاد افريقية نوع من الوحوش الضارية تسمى ثياثل .
 تشبه بهيئتها الثيران البرية * فهذه تركزن مطانة بنفسها وتأمين على حياتها من
 كل عائلة . حتى انها ترقد في وسط اشراك الصيادين غير خائفة * ومع انها لاتسمع
 من كل جهة سوى صهيل الخيل ونبح الكلاب . لا تفر ولا تفر لتنجو من الاشراك .
 بل لا تبرح من مكانها البتة . اليست هذه جسارة عظيمة مذهلة * فعلى هذا النحو
 ارى انا ايضا جسارة الخطاة . ولكن ما بالي اقول ارى . والحال ان ذلك محقق
 تحقياً لا يشوبه ريب اصلاً * فاسمعوا حقيقة من فم اشعياء النبي القائل « رقدوا
 في رؤس جميع الشوارع مثل الثيثل المشتبك الملو من غضب الرب (٢٠ : ١٥) » *
 فهل يمكن ان يقال اوضح من هذه الآية النبوية عن اولئك المفعمين اثماً ونفاقاً .
 المملوئين من غضب الرب . الذين لا يفارقون العشرات المحرمة . والذين لا يردون
 المال الحرام الى اصحابه . والذين يابون ان يصلحوا ما ثلبوا به صيت قريبهم
 بنبيتهم . والذين يحفظون في قلوبهم البغضة والحقد على القريب * ان هؤلاء جميعاً

يعلمون جيداً انهم ساقطون في اشراك الشيطان المرعبة الجهنية . ولكن ما هو الذي يفعلونه . هل ينترحون عن حالهم . ام هل يحزنون عليها او يسعون في ان يخرجوا منها عاجلاً في اوان مناسب * كلاً . لكن يرقدون فيها زماناً طويلاً مطمئنين نظير الثيشل كقول الكتاب « رقدوا مثل الثيشل المشتبك » * يا له من رقاد غريب « رقدوا مثل الثيشل المشتبك » يا للعجب كيف يمكن لمثل هؤلاء ان يبلغوا الى امان وارتياح * من ذا الذي يوكد لكم ايها المساكين ان الله تعالى لم يحتم على جميع المخلوقات ان تنهض الى اقتناصكم وانتم راقدون في هذه الاشراك المخوفة . او انه لم ياذن للخيول والكلاب الجهنية ان تنهشكم وتفترسكم وانتم نائمون * ومع ذلك اترقدون وانتم مطمئنون ومستريحون . وترقدون في اي مكان كان من غير خوف حتى في رؤس جميع الشوارع . بل ترقدون مثل شمشون باثم لا يوجد اعظم منه اي في احضان الزواني . وكما قال النبي « تنامون في اسرة من عاج . وتنعمون في مضاجعكم » (عاموس ٦ : ٤) *

وينبغي لكم ايها السامعون ان تعتبروا هنا هذه القضية اليقينة . وهي انه ان كان لا يقدر احد منا ان يضمن لنفسه ساعة واحدة من الحيوة (لكون غيره الله في الاستبداد بمعرفة الزمان لنفسه عظيمة جداً . ولجل ذلك فمن دون جميع السلطات خصص لنفسه السلطة على الازمنة والاقوات) فكيف يستطيع الخاطي النائم في الخطية المميتة ان يضمنها لنفسه * ليت شعري من لا يعلم ان الخطية هي التي ادخلت الموت الى العالم كقول الرسول « ودخل الموت بالخطية » (رومية ٥ : ١٢) * والذاكم السبب قد اتخذت الخطية هذه القوة المرعبة على الدوام وهي ان تعجل الموت وتجعله ان ياتي قبل اوانه بزمان كثير * وعندنا برهان على ذلك من مواضع كثيرة لا تحصى من الكتاب المقدس . قال الكتاب « لا تكن مسيئاً كثيراً ولا تكون جاهلاً » كذا قيل في سفر الجامعة (٧ : ١١) . اي لا تعط نفسك فرسة لللاثم . ولا تستسر سيرة روحية غير مضبوطة كما انت سائر . ولا تجعل كما يقال في مثل العامة

من كل حشيش حزمة فيقول: لا تكن مسيئاً كثيراً ولا تكونن جامعاً. ولائي سبب:
«لئلا تموت في غير وقتك» كما قال الحكيم في الجامعة. اي لئلا تموت قبل الوقت
المخنوم لك من قبل الله تعالى * وقال ايضاً ايوب الصديق «الايام قبل يومه يتوفى»
(١٥: ٢٢) * واعاد معنى كلامه هذا في موضع آخر بقوله «الائمة في غير حينهم قبض
عليهم» (٢٢: ١٦) * ومثله قال ايضاً ابن سيراح «من يبغض التوبخ. نُقل حياته»
(١٩: ٥) * وكذلك سليمان الحكيم اقر علانية في امثاله ان اعمار المنافقين العاملين
الشرور تقصر بقوله «سنو المنافقين تتناقص» (١٠: ٢٧) * وذلك لانهم يسقطون مثل
الخرنوب الذي يسقط من شجرته اخضر او قبل ان ينضج. او نظير حشيشة الزوان
التي تُقلع من بين الحنطة قبل ان تيبس * ولتحقيق ذلك كله اسمعوا ما اصاب
الملك انسطاسيوس المنافق حسماً اخبرنا عنه برونيوس في المجلد ٦ من التواريخ
البيعية قائلًا: ان هذا الملك بينما كان نائمًا ليلة من الليالي مضطرباً من سوء اخلاقه
التي كانت تعلقه في الليل اكثر مما في النهار تارة بأشباح مخيفة مرعبة. وتارة بأفكار
الغضب والقساوة. اذا برجل مخيف المنظر ترأى له حاملاً بيده اليمنى قلماً
وباليسرى كتاباً. وقال له بصوت هائل: انظر اني لاجل آثامك احمو من حياتك
اربع عشرة سنة * فانتبه لصوته ذلك الملك الشقي مرتعباً وحائراً في امره. ولم يكن
يعلم اكان ذلك رؤيا فيخافها. ام حلاً فلا يعبا به * غير انه بعد ايام قليلة اخذ الجو
يظلم من بغته مع انه كان صاحباً. وغشي بسحاب متلبد كثيف. ثم شرعت البروق
تلمع مع اصوات الرعود وانقراض الصواعق * فهاب انسطاسيوس وارتعب. وفهم
في نفسه انه هو الذي من سببه حدث ذلك النو. وطلق يجري مرتعشاً في
قصره مثل قايين ويهرب مستخفياً من خباء الى خباء * ولكن لم ينج بذلك. لانه
انقضت بغته من العلاء ساعة محرقة. وسارت باستقامة الى مخدع سري كان فيه
مستخفياً مكباً الى الارض نظير الارنب في غارها. وهناك احرقته وجعلته رماداً وهباء *
ومما حل به قد عرفنا معرفة وانحة انه لا الصولجان الملكي ولا الناج يجهبان راس

المنافق من صواعق الموت المهلكة * فما هو رأيكم الآن . اليس صحيحاً صادقاً ان سني
المنافق تنافق . فلا تطأئوا اذا ايها السامعون . ولا تضلوا في نفوسكم * لانه وان
رايتم الموت راكباً على فرسٍ اصفر ضعيفاً مخيفاً نظير ما رآه يوحنا الانجيلي في جليانه
في برية بطوس . لكن مع ذلك ان وجدت معه الشوكة . فانها تجعله يجري كجري
السلاهب * وهل تعلمون ما الشوكة : انما هي الخطية . كذا هتف القديس بولس
الرسول قائلاً « اما شوكة الموت فهي الخطية » (١ فور ١٥ : ٥٦) *

ان قوماً من الائمة الضالين يخذعون انفسهم ويورطونها باعتقادهم ان شوكة الموت
هي التقشف وامانة الجسد . ولاجل ذلك اذا ابصروا واحداً من رفقاءهم اتبه لنفسه
وشرع يخطي وينفرد مبتعداً عن ملاهي الدنيا وابطيلها . وجعل يسير قليلاً السيرة
الروحية . فللوقت يظهرون على انفسهم انهم يشفقون عليه ويرقون له بقولهم له : يا ايها
المغفل الارعن . ما بالك سائراً في هذا الطريق الضيق . الا ترى انك تقصد ان تقتل
نفسك وتموت حيرة ومشقة * يا لهذا الجهل الفظيع : فاعذروني الآن ايها السامعون
اذا انتهرتكم وعنتكم تعنيفاً مرّاً : وهل يجوز لكم ان تدعوا هذا الشخص مغفلاً ارعن
وانتم هم المغفلون بل المجانين . لانكم ما عرفتم الى الآن ما هي شوكة الموت * لانه ليس
الصوم هو الذي ياتي بالموت عاجلاً وقبل آجله . ولا التقشفات . بل بعكس ذلك
قد يوجد في الكتاب المقدس ان الله تعالى وعد الصائمين بطيلة العمر بقوله « الفروع
يزداد حياة » (سير ٢٢ : ٢٤) * كلاً . ان عمر الانسان لا يقصره الجلد . ولا السكوت . ولا
السهر في الصلوة . ولا المفارش اليابسة * ولو تبعنا رأيكم . لنهض علينا في الحال رومولدس
العظيم الذي عاش عيشة قشفية شديدة في الغاية مدة مائة سنة . وكذبنا مغضباً *
ومثله يكذبنا هيرونمس وانطونيوس وارسانيوس وغيرهم كثيرين لا يحصى عددهم من
الرببان والنسك الذين مع كونهم عاشوا بحال التقشف والتشدد على اجسادهم .
عاشوا عمراً اطول من عمر كل منرفه او ذي سيرة رخيّة شهوانية * فيجب علينا
ان لانهم بشوكة الموت سوى الخطية لا غير اي التجاديف التي نسمها تخرج

كل يوم من افواه كثيرين بوقاحة عظيمة . والسرقه . والمكر . وظلم المساكين .
والاعترافات الكاذبه . واخذ الاسرار بالنفاق . وانكارنا احسان من جاد علينا
بالحيوة * فهذه الخطايا وما يضارعها هي ما ينصف ايام الانسان ويتصر اجله . لانه
في كل الشرائع منحوم بالعدل ان يتزع من التصرف بالملك المستاجر والمكربى من لا
يؤدى الاكرام الواجب لصاحبه الشرعي *

اولا ضيعة الوقت . لاسهبت في الكلام . وبرهنت لكم على سعة من اخبار كل
الازمنة ان الخطاة غالبا يموتون قبل اجلهم كما قلنا . بل ربما يموتون موت الفجأة *
ولكن لنحصر كلامنا كله في ما ورد في الكتاب الالهى . انكم اذا قرأتم الكتاب
المقدس وفحصتموه كله . لا تجدون على ظني صديقا من الصديقين الذين لا يرتاب
بخلاصهم مذكورا عنه انه مات موتا فجائيا . سوى اولاد ايوب البار . قتلوا بغتة
تحت ردم حجارة البيت الساقط عليهم * ولكن في اي وقت داهمتهم هذه الضربة :
ان من المعلوم انها انما فاجأتهم حينما كانوا جالسين على وليمة ياكلون ويشربون
وبستانسون ويشرحون صدورهم . وكان ابوهم بحكمة يخاف على اولاده من الولايم
والملاهي ان يلتحق بهم منها نقص * وذلك ان ذلك البار كان يفهم جيدا ان لا
شيء اسهل لسقوط الشباب في خطية الدنس من وجودهم في المادب والولايم *
واما ان نظرت الى الاشخاص المتقدمين في البر والقداسة مثل ابراهيم وهارون
واسحق ويعقوب ويوسف وبشوع : بن نون وسموئيل وموسى ومثيا وطوبيا وغيرهم
من امثالهم . ترونهم قد توفوا بهناء وراحة على اسرتهم . مخافين وصايا سالحة مقدسة
لاولادهم وبني جنسهم * وبالعكس ذلك اذا اردتم ان تعتبروا موت الخطاة الائمة المدونة
اخبارهم في الكتاب المقدس . فانكم ترونهم قد ماتوا باشنع الميتات * فان بعضهم قد
خطفوا ولم يوجد لهم اثر . ومنهم من مات غريقا بالماء . ومنهم حريقا بالنار . ومنهم
من افترسته الوحوش . والبعض فارقوا الحيوة بانواع اخر من الميتات المختلفة
الهائلة التي لم تكن تنتظر * ولما تأمل احوالهم هذه الشقية داود الملك والنبى . ارتعب

منها وهنك قائلاً «كيف صاروا الى الخراب بغتة. هلكوا وبادوا من اجل اثمهم»
(مزمور ٧٣: ١٩) * قد مات بغتة فرعون المتكبر مع كل جيشه وقد ابتلعتة اغوار
البحر الاحمر. ومات فجأة اولئك اليهود الشرهون الذين تاقوا متشوقين الى لحوم
مصر. ومات بغتة اولئك المتواثقون الذين ذموا ارض الميعاد. ومثلهم مات فجأة
غيرهم كثيرون لا يحصى عددهم من المدونة اخبارهم في الكتاب الالهي * فجميع هؤلاء
قد قضاوا اوطارهم على حدٍ سوى وهلكوا بغتة. وهم كلهم قد اجرموا جرائم تشبه
بعضها بعضاً. ولاجل ذلك «هلكوا وبادوا من اجل اثمهم» * ولكن ما النتيجة التي
اروم ان استنتجها مما اوردته لكم الى الان ايها السامعون. هل قصدي ان استلزم ان
الخطاة فقط هم الذين يُخطفون من هذه الحيوه بموت مخرف هكذا اي بالموت
الفجائي. لا لعمرى. بل ان هذا غلط صريح * ان الله جلت احكامه الغامضة التي لا
تُدرك يريد ان يُصاب القديسون ايضاً احياناً في هذه الارض بمصائب الخطاة
لأسباب. اي إما لتطهيرهم وأما لامتحانهم. او لئلا يظن ظان انه في هذه الحيوه الدنيا
تتبي مجازاة كل انسان حسب اعماله * بل انما مرامي وقصدي هو هذا. وهو انه ان
اطلعتنا على الاخبار الواضحة المذكورة في الكتاب المقدس. نشاهد عياناً ان صنف
هذا الموت الذريع اي الموت العاجل او الفجائي مجل بالخطاة اكثر مما مجل بالابرار *
اسمعوا في هذا المعنى قولاً مرعباً مخوفاً من فم سليمان الحكيم حيث قال في
امثاله «الانسان الذي يعنق غليظ يهين من. يوجبهُ فياتي عليه الهلاك بغتة»
(امثال ١: ٢٩) * وتوجد ايضاً ما عدا شهادة الكتاب المقدس أسباب طبيعية تثبت
ما نحن في صدده. منها ان الخطاة كثيراً ما يجلبون على رؤوسهم الموت العاجل
بشراحتهم في المآكل والمشارب التي يمتلي منها الجوف فتضايق المعدة. وكثيراً ما
بانها كهم في الشهوة الدنسة التي بها تبدد الارواح وتنقص الحرارة الغريزية الضرورية
لحفظ قوى الجسم وعافيته. وربما بالسب والشتم والنيمه التي بها يشنرون لهم اعداء
يرصدون حياتهم ليقنطوهم. وربما بخصاماتهم في اللعب. او بغيرتهم بعضهم من بعض

في أمر العشق الدنس الذي به يجلبون على انفسهم غيرة رفقاءهم العشاق مثلهم وعدوانهم .
او بجمل الاغراض في الدعاري الصعبة . او بالحزن الذي يستحوذ عليهم اِما من
الحسد واما من مشاهدتهم غيرهم قد تقدموا عليهم بالوظائف والكرامات . او بغيرها
من الاسباب التي توجب الضعف بل الموت نفسه * ولا يعيش خالبا من هذه
الاسباب ونائبا عنها غير مبالٍ بها سوى الانسان الصالح الواثق بربه الذي يسوع
ان نقول فيه حسنا بان كل شيء يؤول وينتهي الى خيره وفائدته . كقول الرسول
الاهلي «ان الذين يحبون الله . تعينهم كل الاشياء الى الخير» (رومية ٨ : ٢٨) * على
ان ما يستعملونه من التفتشات عينها وامانة اجسادهم نفسها تفيدهم مرات كثيرة
لابعاد الموت عنهم * وفي الاجمال اصغوا لما اورده على ساعكم قائلا : ان الله تعالى
يفعل بالناس في هذه القضية التي نحن في صددها كما يفعل التجارون عند ما
يقصدون قطع الخشب من الغاب * فان هولا اذا ذهبوا الى الغاب ليقطعوا
خشباً لعل من الاعمال . اي اما ليعلموا منه مائدة او كرسيًا او بابا او غير ذلك من
الامتعة . فلا يشرعون في القطع من اي خشبة وجدوا . لكن ياتون بجذر واحترار .
ويجتنون عن الخشب الذي لا يقبل الفساد . ويرصدون الاوقات الملائمة للقطع اعني
نقص القمر . خوفاً من ان يفسد اذا قطعوه في غير هذا الوقت * ولكن اذا راموا
ان يقطعوا الخشب ليوقدوه بالنار فقط . فلا ياتون بهذا الاحتراز . بل يذهبون
ويقطعونه في اي وقت كان ومن اي خشب صادفوه من غير اكرات * ولا
ريب في ان الخطاة المتصلبين في الشر هم من نوع الخشب الذي يكون مادة للنار .
ومن لا يعلم ذلك بعد ان اخبر عنهم الانجيل الطاهر نفسه فقال «تقطع وتلقى في
النار» (لوقا ٢ : ١٠) * ومن ثم يقطعون من هذه الحيوه من غير اكرات وفي اي وقت
كان وقبل اوان قطعهم اي موتهم *

فان كان ممكنا ان يدهمكم انتم ايضا ايها الخطاة مثل هذا الموت السيئ

الذي يمكن ان يفاجمكم في وقت لا تتظرونه فيه . مثلاً في حين رقادكم بالراحة .

او في حين التهاكم باللعب . او في وقت الذ تذرهانكم بالمنادمة والماكل . فاسالكم
 بالله ان تنطقوا بالحق وتقولوا : اليست الاقامة في حال الخطية الميته ولو لحظة
 من الزمان هي جسارة ووقاحة جنونية لا مثل لها * ليت شعري اية حجة لكم . ام
 اي علة . ام اي وثيقة على انه لا يصيبكم مثلها اصاب غيركم من الكثيرين الذين
 « يفنون بالتنعم ايامهم » مثقلين جرم خطاياهم بقلة خوفهم منها « وبسرعة الى الهاوية
 يهبطون » (ايوب ٢١ : ١٣) * لان وقر خطاياهم الثقيل يجذبهم الى اسفل سريعاً * ام لعل
 الله تعالى اوحى اليكم بنعمة خصوصية بساعة موتكم . ام لعله عن وجل وعذكم
 انه سيرسله اليكم ليس كمثل اللص الذي يمشي بخفة ورشاقة ليلاً تنبهاوا من الرقاد
 لكن كمثل الساعي الذي يصرخ بالبوق من بعد لتفتحوا المنزل وتعدوه له * فما هي
 الاسباب وما هي الحجج التي تجعلكم تركنون آمنين غير خائفين « لماذا يفخر بالامان .
 كذا اقول لكم مع القديس غريغوريوس : لماذا يفخر بالامان من حياته معلقة
 على عدم الامان » * ان اهل نينوى لما سمعوا ان مدينتهم سوف تُخسف بعد اربعين
 يوماً . ليسوا من ساعتهم المسوح وذرروا على رؤوسهم الرماد . وشرعوا بعمل التوبة
 من غير ان ينتظروا ان ياتيهم امرٌ بذلك من ملكهم . وهو كان (كما يجري غالباً)
 آخر من سمع بهذا الخبر المرعب . وذلك اِماً لانه لم يكن معتاداً ان ياذن للناس
 في الدخول عليه الا نادراً . واما لان كل واحد من اهل المدينة اعترأه الخوف
 والذهول . حتى صار كل واحد لا يفكر الا في خلاصه فقط * ليت شعري لماذا
 اسرعوا هذه السرعة كلها في عمل التوبة . والحال انهم كانوا قد سمعوا وتحققوا من
 نبي صادق ان مدة المهلة كانت اربعين يوماً . لانه كان ينذر قائلاً « من الآن الى
 اربعين يوماً » (يونان ٣ : ٤) * فلماذا لم يقولوا : لنؤخرن ايضاً قليلاً اهداء غضب
 الله . لان ذلك لا يقتضي ساعات كثيرة . بل تكفي دقيقة واحدة من الزمن . لاننا
 اذا تندمنا على خطايانا ندامة كاملة عند بزوغ صباح النهار الاربعيني . كفانا ذلك
 للخلاص * فكان يمكنهم ان يقولوا هكذا لا محالة . ويكفوا غداءهم اذا كانوا جالسين

على المائة . او يتموا نهارهم في الصفاء والفرح اذا كانوا مشغولين بذلك * فلو كانوا يقولون هذا القول . ترى اي حكم كنتم تحكمون عليهم * انما كنتم تقولون ان هولاء ائمة جسورون . اغبياء وقحون . وفي خطاياهم متصلبون . غير مستحقين اذلك الغفران الذي نالوه بسرعة توبتهم * آه وأسفاه على خطاة عصرنا هذا . ما افسح شرهم وما افضح اباحتهم * على ان اهل نينوى كانوا يستطيعون على القليل على وجه العموم ان يعدوا انفسهم باربعين يوماً من الحيوة التي وعدهم الله بها لعل التوبة . ومن ثم فلاجل انه كان لهم علم بهذا الامهال الذي لم يكن فيه شك لو استمروا على خطاياهم مصرين قليلاً من الزمان ايضاً . لكانت جسارتهم اخف * ولكن ماذا اقول فيكم انتم ايها الخطاة الذين لا تقدر ان تضمنوا لانفسكم ادنى جزء من الزمان ولا علم لكم به اصلاً . لان الرب قال « لا تعلمون متى يكون الزمان » (مرقس ١٣ : ٣٢) * لقد يمكن ان يكون انهدام جسدكم قريباً بل موافياً على رؤوسكم . ويمكن ان يكون في هذا الاسبوع الذي دخلناه . او في هذا النهار الحاضر . او في هذه الساعة . لان الموت يجول متسلحاً بالسيف والقوس في كل حين حسبما تكلم عنه الملك والنبى قائلاً « انه يصقل سيفه واوتر قوسه » (مزامير ٧ : ١٣) * اما بالسيف فيضرب الشيوخ الذين لم يعد لهم قوة لينجوا من ضربته . ويضرب المتعجبين المترهبين . ويضرب العاجزين الضعفاء * واما بالقوس فيضرب الشبان الذين يرجون الهرب منه مفتخرين بقوتهم وعافيتهم * فكيف يستطيعون ان شبرأوا من الجهل اذا تأخرتم عن عمل التوبة زماناً ولو يسيراً * ماذا تقولون . وماذا تجيبون . وبأي شيء تعتذرون عن جسارتكم في هذا الخطب العظيم * ان الصياد لا يستطيع ان يملك الصقر ويحمله بسهولة ومن غير اذى على يديه ان لم يعصب عينيه قبلاً باستيثاق * فعلى هذا النسق فعل الشيطان معكم . فانه اخراه الله عصب اعين انفسكم ايها السامعون واوثقها جيداً . لئلا تبصروا الحق . ومن ثم يفعل بكم ما يهوى * غير انني اظن انه يوجد لكم سبيل واحد فقط يمكنكم ان تجعلوه سبباً للاعندار

عن غباوتكم . وهو قولكم : نعم اننا لا نستطيع ان نعرف بتحقيق كم يطول عمرنا . ولكن
 لنا ايضاً ان نرجو اننا نعيش عيشة مستطيلة * واثباتاً لرجائكم هذا توردون
 القياس مما شاهدونه في غيركم من الخطاة قائلين : انه مع جميع الاخطار التي اتينا
 الى الآن بذكرها يوجد كثيرون من الخطاة والائمة يعيشون عمراً مستطيلاً ويتنعمون
 ويسمنون ويثخنون . حتى انهم يبلغون الى شيخوخة هرمة . واخيراً يموتون على اسرتهم
 براحة وسلامة بجميع حواسهم * ومن هنا نخذون انتم سبباً ان ترجوا حظاً سعيداً
 نظيرهم . لا ان تياسوا وتخافوا من نحس ياتكم خلافاً لما تنتظرون وتاملون * فاجيبكم
 على ذلك قائلاً : لا تعجلوا بايراد القياسات ليتوافر طمعكم في الزمان الذي اعطاكم
 ربكم للتوبة . لانه ان تكلمتم وتفلسفتم هكذا كما ذكرتم . تلزموني بان اظن فيكم انكم نسيتم
 الموضوع الذي خطابنا فيه * انتم تعلمون ان كلامنا انما هو في خلاص النفس .
 وليس كلامنا في النفس التي لغيركم بل التي لكم اي في النفس التي كل ما لكم من
 الخير والراحة والسعادة والمقتنى هو فيها . التي هي واحدة . التي هي غير مائة . التي
 اذا خسرتها فليس لخسارتها عوض * او بعد هذا كله تتكلمون انتم هكذا عن هذه
 النفس بقلة الاهتمام وبالاستخفاف * فالي الا ان اقول لكل واحد منكم مع القديس
 يوحنا الذهبي الفم « اذكر ايها المسيحي ان كلامك هو عن النفس » . ليت شعري
 هل النفس هي عندهم قليلة القيمة والاعتبار رذيلة حقيرة حتى انه يباج لكم ان
 تطوحوها في اي صدفة اتفتت * ولكن هبوا ان الامر يمكن ان يجري لكم على مرامكم .
 وان جرى خلافاً لما تؤملون وترجون . فكيف تكون آخرتكم * اني لست الوهم
 اذا عرضتم احبائنا عن ان تضعوا خيراتكم الاخرى عدا النفس في الامان والسلامة .
 واني اقبل عنركم اذا خاطرتم في بضاعتكم او في مالكم او في صيتكم او في عافيتكم .
 لان هذه الاشياء وما يضاهاها هي كالبضائع التي اذا سقطت في الماء لقلة الاعتناء
 يمكن ان تنشل منه بعد الغرق * ولكن النفس ليست هي من جملة الاشياء التي لا
 تستحق احتراساً واهتماماً جزيلاً . لانه حيث تكون الخسارة لاعلاج لها فمن لا يرى

ان عدم التدبير فيها باحترار بليغ هو ضرب عظيم من السخافة والغباوة *
ومع ذلك فيا لجهل بني البشر وحمافتهم . ترى اي خير من الخيرات
الدينيّة لا تحترس عليه الناس اكثر جدّا من احتراسهم على الخير الابدي * ان
ادريانس الملك لاجل انه سمع صنما ينطق بالفأل قائلاً : ان ملوك رومية ياتيهم
النحس والشقاء اذا جازوا نهر الفرات . اعاد الى الفرس برضاة كل بلاد ارمينية
والشام والجزيرة التي كان طرايانس الملك قد فتحها بجيشه وسلاحه . وذلك خوفاً
ان يصدق الفأل ويجري براسه شيء من النحس بعبوره مياه الفرات * ولاجل
ذلك جعل حدود مملكة رومية على شاطئ ذلك النهر قاصداً السلامة والامان
لحياته وحياة خلفائه * ولكن ما بالي اجول وانطلب اخباراً معظمة من الوثنيين .
والحال انكم انتم تعلمون من نفوسكم بكم من الحكمة والاحتراس تندبرون في اشغال
منازلكم الخصوصية مها كانت يسيرة * فانه اذا مرض احد منكم وانطرح على فراشه .
فلا يتمهل عن الارسال في طلب الطبيب . ولا يقول : لعل الحى تنصرف عني بلا
دواء * وكذلك اذا التزمت الامر بالذهاب الى الحرب . لا تقولون : فلنبق كتاب
الوصية . لانه يمكن ان ارجع سالماً غانماً * وكذلك اذا اقرضتم صديقكم مبلغاً من المال .
فلا تأمنون مطمئنين . بل تقتدون بطوبيا البار حيث انه مع علمه بجاييل انه رجل
وافٍ نقيّ امين . لم يقرضه الفضة الا بوثيقة منه شرعية كقول الكتاب المقدس
« اقرضه الوزنات العشر المذكورة فكتب عليه وثيقة واعطاه اياها » (طوبيا ١ : ١٧) *
وكذلك اذا اردتم ان تررعوا زرعاً . تميزون الايام المناسبة * وهكذا في دعاويكم
الشرعية تخنارون الوكلاء المجيدين علماً وخبرة . وفي متاجرتم تستحبون الشركاء الامينين
الصادقين * وفي الاجمال اقول انه لا يوجد غرض من اغراضكم الجسدية ترضون
ان تضعوه (كما يقال عند العامة) تحت هوى الصدفة والاتفاق متى امكنكم ان
تسلكوا فيه بامان وتاكيد * وبعد هذا كله اسالكم : كيف تجسرون ان تلقوا لاي
حادث يحدث الغرض الاعظم المفضل على كل مهات الدنيا وهو تدبير نفوسكم

نظراً الى الأبدية. ومع كونكم الآن قادرين على عمل التوبة. فتأخرونها قائلين: ليس
 الآن اوانها. لأنه يمكن ان يتوفق لنا فيما بعد وقت لتتوب * واهاً يا ايها المسيحيون.
 حقاً انني استُ استطيع ان افهم كيف امكن ان يعترىكم هذا الضلال المهلك. وقد
 اخذني الاضطراب حتى لا امتلك نفسي من ان اهتف مع الذهبي فتمه مرتاعاً
 ومندهشاً لإفراط الهول والذهول وقائلاً لكل من الخطاة كما قال القديس المذكور
 في خطبته الثالثة والعشرين «افتسلم نفسك للحوادث غير الموكدة. او تسلم نفسك
 للعوارض المرتاب فيها» * انك يا انساناً لا تشاء ان تستودع الى الاتفاق والعوارض
 امراً من امورك او ودعة ما اوربجاً آخرها كان طفيفاً. وبعد ذلك تطوح بنفسك
 التي لا تموت تحت امل معلق بخيط الشك والارتباب * تحيّر ايها السموات.
 وليذهل سكانك عند استماعهم هذه الوقاحة المتوغل بها الخطاة. لأنه من المحقق
 عندي أنه لا يمكن في العالم اختراع وقاحة اعظم منها. ويسوغ لي ان اتعجب مع ارميا
 النبي قائللاً «من سمع مثل هذه: امراً يقشع منه عمت عذراء اسرائيل» (ارميا
 ١٨ : ١٢) * ومع ذلك من لا يرى ان وقاحة هؤلاء الخطاة لو صدرت منهم طمعاً في
 ربح جزيل باهظ. لكان يحتمل ان يبلى عذرهم * لعمرى ان راي الفيلسوف ايبانس
 قد اجمع عليه الحكماء في ما يتعلق بجميع المعاملات البشرية حيث قال «ان التطوح
 في خطر جسيم رغبة في نيل اشياء زهيدة خسيصة هو ضرب من جنون عظيم» *
 ومن ثم فلا ينبغي لاحد ان ينتخب لنفسه خطراً عظيماً من اجل ربح دني حثير.
 لان ذلك يكون نظير فعل من يصطاد السمك بسنارة ذهبية. وهي ان فقدت لا
 تعوض خسارتها بالغنمية المرجوة بها * فاذا راينا فلاحاً يخاطر فيري في الارض
 امداداً كثيرة من البذار. وشاهدنا تاجراً يخاطر بمبلغ جزيل من الفضة في عهود
 المتاجرة. او صاحب دعوى شرعية ينفق نفقة جزيلة من ماله في ارشاء القضاة.
 لا نوجب عليهم اللوم والمذمة. لان الفائدة التي يرجونها هي اعظم بكثير من راس
 المال الذي يخاطرون فيه * وكذلك اذا فتشنا كل التواريخ القديمة. لا نرى في

اخبار احد النوتية انه بلغت منه الغباوة او خبال العقل الى حد ان يسافر الى
 بلاد الهند الشاسعة متكبداً حول البحار وعواصف رياح التيمن والشمال. ليجلب من
 هناك في سفينه رملًا او مدرًا عوضًا عن الفضة والذهب * وانتم ايها المسيحيون
 ماذا تفعلون. ولجل اي رج تعيشون تحت هذا الخطر العظيم. حيث انكم به تلتفون
 انفسكم وتخسرونها الى الابد * العالمك توهمون ان الخير الذي ترجونه بعيشتم في
 الخطأ اذا وضع في ميزان العدل يرجح على الضرر الذي يلحق بكم اذا متم في
 الخطأ. فلو كنتم لا تموتون في حال الخطأ الميت. لحق لكم ان تمتعوا بتلك اللذة
 الشهوانية او ان تجمعوا بالحرام ذاك المال. او ان ترتقوا بالمكر الى تلك الوظيفة. او
 ان تبلغوا الى الانتقام من خصمكم * ولكن اذا متم بالخطية. فاذا يجري منكم انكم
 لا شك ستهبطون حالًا الى اسفل دركات جهنم. وهناك يلحق بكم القصاص عن
 زلة وقتية او شهوة يسيرة ببكاء ونحيب مر لا ينتهي في مرور الدهور كلها الى ابد
 الآبدن * ليت شعري هل يمكنكم بعد هذا ان تحتسبوا الخير الذي تفوزون به
 بسيرتكم المبللة يساوي البلاء الذي تسقطون فيه عند وفاتكم * فيا ما اظلمكم يا
 ايها الناس ويا ما ابعدم عن الصواب * لقد صح فيكم نبوة الملك والني حيث
 قال «ابناء البشر كاذبون. هم في الموازين الى فوق» (مزمير ٦١: ١٠) * كيف يمكن ان
 يرجح عندكم على الدوام خير دنيوي زائل فارغ باطل على شر آبدن * لعمرى انه
 لا يمكن ان يوجد في بيت احد الغاشين موازين تكذب كذبًا باعظا هكذا ان لم
 يكذبها رغما عنها الوزنون: ولجل ذلك لم يقل النبي كاذبة الموازين في بني البشر.
 بل قال ابناء البشر كاذبون في الموازين * لانكم انتم الذين تصيرون عقولكم تضل
 وتطغى بحب هواكم ومشيتكم. وذلك بعصيانكم الاختياري على كل نور العقل ولو
 كان واضحًا. وذلك على موجب شهادة الكتاب الالهي القائل «اوائك كانوا بين
 الماردين على النور» (ايوب ٢٤: ١٢) *

لا تغفروا اذا بنفوسكم ايها السامعون اكثر مما مضى. وارعوا لخطاير يسوع

المسيح * اسمعوا وصية ربكم على لسان ارمياء النبي القائل «لا تضلوا انفسكم» (ارميا
 ٢٧ : ٢) * استيقظوا وانتبهوا لخلاصكم . وابتدئوا من الآن ان تخلوا داخل قلوبكم
 وتعاملوا قليلاً ما هي الفائدة التي تستفيدونها من هذه الحال الشقية الحاصلين انتم
 فيها * واذا رايتم انها تزيد على الخسارة . فلا تصدقوا حينئذ بكل ما قلته لكم الى
 الآن * ولكن اذا رايتوها اقل جداً بلا قياس من الخسارة . فاسالكم ان ترجعوا
 انفسكم * انترضون بان تقضوا ايامكم باللهو واتباع هوى الجسد . ثم يوافقكم بعد
 ذلك يوم تلتزمون فيه ان تبكوا وتأسفوا قائلين مع ارمياء النبي «صيداً صادني
 مثل طائر اعدائي مجاناً» (مراثي ٢ : ٥٢) * ما اعظم ما تكون حينئذ حسرتكم . وما اوفر
 عذابكم وحزنتكم * ان ارميا النبي يتكلم ههنا بالهام الالهي بدلاً عن الخاطئ ويخجل
 بتأمله نفسه انه صيد كالطائر الذي يدع الصيادين ان يصيدوه صيداً شنيعاً
 باختياره * وذلك بلا طمع يذكر بل مجاناً اي بلا شيء بل طمعاً في حبة
 واحدة من الزمن التي هي كلاشيء «صيداً صادني مثل طائر اعدائي مجاناً» *
 فهكذا انتم ايها المسيحيون تهوون ان تكونوا من عدد هؤلاء الاغبياء * ولكن ترى
 ما هي قيمة جميع الخيرات الارضية بالمقابلة الى اصغر البلايا الابدية التي تطوِّحون
 بها نفوسكم بخطاياكم : انما هي تعادل حبة واحدة بل ذلك كثير عليها * ومن اجل
 هذا القليل اليسير الحقيق تحبون ان تخطئوا متنعين تجاه اعداء ارواحكم المرعبين
 الكثيري العدد تحت عظم الخطر في ان يصيدوكم ويزجركم معهم في هاوية العذاب
 الى ابد الدهور * فيا «ايتها الجسارة الخبيثة . من اين تدحرجت» (سيراخ ٢٧ : ٢) .
 هكذا يجب ان اصبح واقول مع الحكيم ابن سيراخ * لعمرى انه ليس لي حواس
 تكفيني لامقت مثل هذه الجسارة المستغربة المستهجنة . ولاجل ذلك فالاولى بي ان
 البت ههنا في التعجب منها مندهلاً متخيبراً *

القسم الثاني

أنه بعد ان تقرّر ان الانسان هو كالتراب الذي يمكن ان يتبدد مع كل نسمة ريح. ومن ذلك برهنا ان الاستمرار في الخطايا المميتة ولو لحظة واحدة من الزمان هي جسارة عظيمة جدا. بقي ان اقول آية حجة يسوع لكم ان توردوا لي اليوم احتجاجا عن انفسكم يا ايها الخطاة الذين يعيشون في مثل هذا الخطأ المميت لا بعض الدقائق بل اياما واسابيع بل شهورا وسنين * افترون سلوككم هذا سلوك حكمة. واي دليل لكم على انكم لا تهلكون * قال سينكا الفيلسوف «لا يستطيع احد ان يلقي نفسه في اخطار كثيرة وبسلام دائما» * وذكر سبب ذلك قائلًا: لان الذي يجوز في الاخطار كثيرا. ترميه الصدف احيانا. فاذا جاز الواحد مرة واحدة على فم هوة ولم يسقط. او داس مرة واحدة وسط الشرك ولم يتعرقل. او امتص دفعة واحدة سمانا قعا ولم يمّ. فليس في ذلك عجب عظيم. لانه يمكن ان يكون قد سلم صدفه وانفاقا او بتأيد من السماء * ولكن من سمع قطا انه لم يمّ من امتلا من شرب سم قاتل كشربه الماء. او انه لم يتعرقل من فصد ان يلعب في وسط الاشراك كأنها زهور. او انه لم يتهور من رام ان يرقص على فم هوة كأنه على ارض ثابتة * فان كان تطوح النفس مرة واحدة ولحظة واحدة فقط في خطر الهلاك جسارة جنونية فظيمة. فليت شعري ماذا نقول في الاستمرار فيه زمانا مديدا. حتى انه ان اعتبرنا ايام السنة التي انتم فيها حاصلون بلا شك في مثل هذا الخطر. فنراها اكثر جدا من الايام التي يمكن ان تكونوا فيها سالمين منه * قد جالت بين العلماء المسيحيين مسألة في عدد الراجحين من ابناء الكنيسة في الآخرة وعدد الخاسرين منها. ايهم اكثر * اما انا فلا ارى الآن ان ادخل في هذه المناورة الدقيقة واورد فيها رأيا. غير انه لو كان لي ان اقول ما هو رأيي. لكنت اميل الى القول بان الراجحين المنتخبين لمجد الملكوت من الكاثليكيين عموما

اكثر من الهالكين الكاتليكين ايضا * ولكن مع ان كثيرا من العلماء يتبعون هذا
 الراي ايضا. فلست اعلم هل يمكنكم ان تجدوا من جميع العلماء اللاهوتيين المتأخرين او
 المتقدمين واحدا فقط يزعم ان غالب الخطاة المتلكة فيهم عادة الخطية ينالون
 الخلاص * بل ان القديسين غريغوريوس واوغستينس وامبروسوس وهيرونيمس
 الذين هم من اعظم ملائنة بيعة الله تعالى قد ارتأوا باجماع خلافا لذلك. اي
 ان عدد الخطاة المتعتقين في الخطية الهالكين ينيف جدا على عدد مثل هؤلاء
 الخطاة الذين ينالون الخلاص * وقد رايت كلام القديس هيرونيمس المحرر في
 رسالته الى دمسوس اوضح معنى واقوى عبارة. وهو هذا «بالصعوبة يستحق المغفرة
 من الله واحد من مائة الف خاطي من الناس الاشرار الذين داوموا على السيرة
 الذميمة» * ولا يتعجب احد من ذلك. لان الانسان غالبا يموت مثلما عاش * على
 ان الشجرة اذا قطعت. لا تسقط الا نحو الجهة المائلة هي اليها. فان كانت مائلة الى
 جهة الشمال. فهناك تسقط. وان كانت مائلة الى اليمين. فالى جهة اليمين تسقط *
 فالخطاة الذين يسرون سيرة قبيحة وهم مائلون على الدوام الى جهة اليسار لا سبيل
 لهم ان يرجوا متى قطعهم الموت ان يسقطوا نظير الصالحين من جهة اليمين *
 لعمرى انهم يجناجون حينئذ اي في ساعة موتهم ان تهب عليهم نعمة قوية خصوصية
 من الله تعالى فعالة حتى انها تدفعهم بعزم شديد كريح عاصف الى الجهة المخالفة *
 ولكن من منهم قط استحق هذه النعمة القوية. «بالصعوبة من كل مائة الف»
 يستحق واحد كقول القديس هيرونيمس المقدم ذكره * وبعد ذلك كيف تجسرون
 ايها الخطاة ان تلبثوا مصرين على خطاياكم مدة من الزمن مع معرفتكم انكم في
 حال شقية ينتج منها ما هو قريب الحدوث وهو ان تُحصوا في عدد الخاسرين
 اسهل من ان تكونوا من عدد الراجحين * وهبوا ان الراجحين من الخطاة الشبهيين
 بكم اكثر من الهالكين. فمع ذلك ينبغي لكم ان تخافوا دائما من ان تصيبكم قرعة
 هؤلاء الهالكين الاشقياء ولو افترضنا انهم قليلون * ولكن بعد ان نقرر ان الراجحين

اقل من الخاسرين بكثير . فإذا ترى يحل بكم * حكي ان ارلفس امير فلندرة كان
 ذات يوم معذباً بعسر البول عذاباً اليماً جداً . فتشاور الاطباء والجراحون فيما بينهم
 في امره . واجمعوا اخيراً على ان يعالجوه بالشق * فاراد الامير ان يرى التجربة في
 غيره قبلاً . ولذلك فتشوا على كل من كان مبلباً بدائه في ولايته ووجدوا منهم
 عشرين شخصاً . فعالجهم اولئك الجراحون جميعاً بالشق وداواهم اولئك الاطباء
 باحترار واجتهاد بليغ * ولم يمُت من العشرين شخصاً سوى واحد فقط . وشفيت
 التسعة عشر * ثم عاد الاطباء فرحين مسرورين الى الامير وشاروا عليه بالشق
 لبراً * غير انه لما علم منهم انه من العشرين شخصاً لم يمُت سوى واحد فقط . فعوضاً
 عن ان يفرح ويتشجع لقبول الشق ويرجو الشفاء خاف واصفر لونه آيساً . واجابهم
 قائلاً : من منكم يضمن لي ان حظي لا يكون نظير حظ هذا المسكين الذي مات
 من الشق * فازداد خوفاً من موته ذاك الشخص اكثر مما رجا البرء من شفاء
 التسعة عشر . ولم يرتض ان يلقي نفسه في الخطر * ثم لو فرضنا الآن انه من العشرين
 شخصاً مات تسعة عشر . وسلم واحد فقط . ما كان ذلك الامير الحكيم يقول
 ويفعل : انه بلا شك كان من ساعته يطرد من امامه اولئك الاطباء والجراحين
 مغضباً عليهم . ولم يرتض بالشق رجاءً ان يكون حظُّه نظير حظ ذلك الواحد
 الذي شفي وسلم * فيا ايها المسيحيون المحبوبون اعلموا ان تلك الجسارة التي تستبين
 في تدبير الجسد قيحة شنيعة هي صورة الجسارة التي ترتكبونها انتم في تدبير النفس *
 قد سمعتم ما حرره القديس هيرونس قائلاً « انه من كل مائة الف من الخطاة
 المتألمة فيهم عادة الخطية ميهات ان يخلص واحد فقط » ولم يقل من كل
 عشرين او من كل ثلاثين واحد * فكيف يسوغ لكم ان تثقوا آمنين . بخلاص خاطي
 واحد فقط اكثر مما تخافون من هلاك تسعة وتسعين الفاً وتسعمائة وتسعين
 خاطياً * ان اولئك الاخوة الذين قصدوا الى يوسف في مصر ليتباعوا لم قحماً .
 كانوا عشرة . ومع ذلك لما بلغهم ان واحداً منهم لا بد من ان يبقى في مصر

محبوساً . خافوا وحزنوا كلهم * وهكذا نقول عن التلاميذ المجتمعين مع السيد المسيح في العشاء السري قبل آلامه وموته . فقد كانوا اثني عشر . ومع ذلك لما سمعوا ان واحداً منهم كان عنيداً ان يخون معلمه ويسلمه للموت . اغتموا كلهم * وانتم ايضاً قد سمعتم وتحققتم ان الخطاة السائرين مثلكم غالبهم سيهلكون . وان الذين يخلصون قليلون جداً جداً . فلم لا تخافون . وماذا لا تجزعون * فلا ريب اذا في انه يصح في الخاطئ الكلام الذي حرره ايوب قائلاً « اعطاه الله ذماماً فيتوكل بكبريائه » (ايوب ٢٤ : ٢٣) * يا لها من كبرياء عظيمة ما افطعها . لانه منها ينشوا الامل في الخطاة بانهم سوف يكونون من حظ ذلك الواحد الذي يخلص من جملة خلق كثير لا يحصى عدده من الهالكين . الذي انعم الله عليه بنعمة خصوصية لا يستحقها . الذي سوف ياتي وقت (وهو يوم الحشر) فيه جميع اهل الملكوت يشيرون اليه بالاصابع قائلين : هذا واحد من الوف الخاسرين صار من الراجحين باية واعجوبة مستغربة الهية « كما نلت في يوم الحرب » حسب قول الحكيم بن سيراخ (٧ : ٤٠) * ألا ان هذا الامل في الخطاة هو اثم الكبرياء والجسارة . ولا يوجد اثم اشنع منه . ولكن دعوني الآن انطرح جاثياً امام هذا المصلوب . واكشف له ما في قلبي من التوجع علي حال الخطاة ولاسيما المتصلبين في آثامهم قائلاً :

ألا يا سيدي يسوع الجليل من اين هذه الوقاحة الحاصلة في قلوب البشر . من ذا الذي صبرهم ساهين ذاهلين عدي الحس بهذا المقدار . ومن اضاع فيهم الحكمة والمشورة * يا للعجب انهم لا يجدون لذة الا في ان يسخطوك ويهينوك . حتى انهم يهون عليهم ان يخسروا انفسهم في جهنم على ان يغبطوك ومجزنوك * فعلمني يا الهى اية طريقة اسلك في هذا الصوم لاذلهم قليلاً واصيرهم بشراً . واجعلهم لك جميعاً * ان اردت مني ان اقبل اليهم بالضراعة واللين والصبر والناة . فعلت ذلك * وان احببت ان انصحهم واعزهم . نصحتهم وعزرتهم * وان امرتني ان ارهبهم . فعلي ترهبهم * وان رمت ان انتهرهم واوخبهم واعنفهم . انتهرتهم ووجتتهم وعنفتهم * اني بين يديك

هاهنا بأسري . فأمرني وتحكم علي بكل ما تشاء . فأنني مستعد ان افعل كل ما تريد
بعونك الالهية * لست اطلب يا الهى حمداً وثناءً لي . ولا اشتهي مجداً وكرامةً لنفسي .
بل غاية منيتي هي ان ارضيك فقط * من يعلم هل هذا الصوم هو الزمن الاخير
من حياتي . ومن ثم ها انا حامل الرماد على راسي . واريد ان اذهب واهتف علانية
نيابةً عنك واقول : توبوا ايها الناس وارجعوا الى ربكم . لا تتباطأوا ايضاً عن ان
تطهروا من دنس آثامكم . لا تتأخروا ايضاً عن استئصال الاحقاد من قلوبكم . لا
تتهلوا ايضاً عن البكاء والنحيب على الخصال الرديئة * ليت شعري هل انتم بعد
في نيتكم ان تضلوا انفسكم في ما ياتي وتبتعدوا عن التوبة . فان كان الامر هكذا .
فها انا احاكمكم مشتكيناً الى هذا الرماد المذري على رؤوسنا . فها هو ههنا . فلنكشفه
من على رؤوسنا ونظيره : افليس نعاينه في هذا الصباح مرشوشاً سواً على الشعور
التي شابت من الهموم وعلى الشعور الرائقة بالشبوية * فليتكلم هذا الرماد الذي
اشكو اليه حالكم في هذا اليوم ويحكم . ويقل هل يمكن ان يوجد في العالم جسارة افضح
من جسارة البشر هذه حيث يامنون على انفسهم ويطمئننون ولو دقيقة واحدة في
الخطية المميتة مع اقرارهم بانهم في كل دقيقة مائتون * فليأهلنا الله تعالى ان نتب
على انفسنا ونتوب توبةً نصوحاً مرضيةً لعزته الالهية بنعمة الاب والابن وروح
القدس الاله الواحد . آمين *

الخطبة الثانية

في بيان ان الله تعالى هو صديق امين اكثر
جدا مما يفعله الناس

القسم الاول

«فلما سمع يسوع تعجب وقال للذين يتبعونه: الحق اقول لكم. انني لم
اجد مثل هذا الايمان في اسرائيل نفسه» (متى ١٠: ١) *

ان الذي لا يتعجب اليوم اعظم التعجب من تعجب المسيح ربنا. يظهر عن
نفسه انه ساهي القلب ليس فيه حس ولا اشعار. لانه يشير واضحا انه لا يفهم ما هو
التعجب في من هو الحكمة غير المتناهية * اسمعوا ما الخطب العظيم الغريب الذي
اتي به قائد المائة حتى استحق ان يسمع من فم المسيح الاله مدحا وثناء غريبا جدا *
ما الذي فعل: هل استاق جنوده خاضعين امام قدميه تعالى باعلام ملتفة
وارماح منكسة ليجدوا له السجود اللائق لرب الجنود الاعظم وينتدبوه بطبول
مطربة وابواق شجية على انه هو الملك القدير ذو السلطة العظمى * ام هل انشا له
هياكل. او نصب له نصبة. او قرب له ذبائح ومحرقات * ام هل نزع من عن راسه
تاج النصر والقاء امام قدميه المقدستين ساجدا * ام هل اتي بالغنائم والعبيد الذين
اغنمهم في الحروب وقدمهم له نذرا لعرفته اياه انه هو الاله الظفر * لا لعمرى. انه
لم يفعل شيئا من هذه اصلا * فاما هو الذي صنعه مع يسوع من الاكرام والاعتبار
العظيم * انما هو هذا وهو انه اتكل على يسوع راكنا اليه. وآمن انه قادر على ان
يشني له عبده حتى من بعد ايضا من دون ان يتكلف شيئا سوى ان يلاحظ بكلمة

واحدة فقط قائلاً «قل كلمة فقط . فيبراً فتاي» (متى ١ : ١) ولكن اتري سيدنا يسوع الاله من اجل هذه فقط اظهر امارات التعجب العظيم التي لم يكن قد اعزادها . او لاجل هذه فقط اثني على فائد الماية بكل هذا الشناء الغريب وشرفه شرفاً لم يجزه احدٌ غيره . او من اجل هذه فقط بلغ الرب يسوع الى مقدار من المبالغة لا يمكن ان يكون اعظم منه حيث اقسم واكد لكل احد انه لم يجد مثله في كل امة اسرائيل قائلاً «الحق اقول لكم . انني لم اجد مثل هذا الايمان في اسرائيل نفسه» * نعم الامر هو هكذا . الا ان قلة امانة البشر جعلت ان يُحَسَب آيةً واعجوبة عظيمة وجود رجل يامن الله راكناً اليه ركونا تاماً حتى في الاشياء التي لدى قدرته الالهية هي زهيدة وسهلة جداً * ان من الواضح ان الانسان لا يامن الله ولا يثق به كثيراً . وليس ذلك فقط . بل يوجد الآن من يامن صديقاً ارضياً ويتكل عليه اكثر من اتكاله على ربه . وذلك اما لاجل انه يعتبر قدرته الالهية اعتباراً قليلاً . واما لاجل انه يرتاب كثيراً في مشيئته * ساحني يا الهي واغفر لي لاني اليوم قد اضطرت ان افعل شيئاً يتصل منه الى رببيتك امانة غير قليلة * وذلك اني انزمت ان اناشد هذه الجماعة التي تستمع لي الآن ان ترضى بان تركز الى عظمتك الالهية مصدقة انك امين صادق * آه واسفاه كيف يسوغ لك يا ايها المسيحي ان تجعل ثقتك باصدقاء ارضيين وتلقي اتكالك كانه عليهم حتى انك تنجذب وراهم منعطفاً . واليهم توجه جميع طلباتك . ونحرم تشير دالاً انهم هم غاية املك وراس مالك . ولا تامن الصديق الالهي الذي هو ذات الامانة ولا تثق به * آه واسفاه من لي بان انتزع اليوم من انفس المسيحيين هذا الضلال الباطل . فنشاهدهم عند ذلك يواظبون الكنائس اكثر مما يواظب قصور الاشرف . ويترددون الى الهياكل اكثر من ترددهم في ابواب المحاكم * ولكن مها حدث لي من تعليمي . فاني لا اريد ان اخالف ما انا ملتزم به . بل اريد (عن اذن كل من يدعي في الدنيا بانه امين وصادق) ان ابين مبرهنات انه لا يوجد صديق نستطيع ان نامن اليه ونثق به اصلاً غير الله تعالى فقط * فليذهب

اهل الدنيا ويلتمسوا لهم اصدقاء امينين من حيث ارادوا. وأما انا فاقول ان الله وحده هو الصديق الواد على الارض. والخليل الصدوق والخذن الوحيد * وهذا هو المعنى الذي قصدت ان ابينه لكم اليوم. وسوف ترون ما انا مزعم ان اورده لكم كم يستحق الاستغراب وجود من لا يامن الله مسلماً له تعالى تسليماً تاماً وعدم وجود من يامن اليه ويثق به نظير امانة قائد المائة الذي مدحه السيد المسيح الاله لحسن امانته * فاصغوا اذا حسناً الى كلامي. ولنبتدئن بايراد البراهين في بيان موضوع عظمتنا هذه ونقول:

انه لا ريب في ان الاصدقاء الدنيويين اسخياء كريمون جداً نظراً الى شغفهم اللسان وبهرجة الكلام. فتسمعونهم يتكلمون في اداء الواجب والادب معكم. ويقدمون لكم خدمتهم بفحامة الالفاظ وتحسين العبارات. ويعرضون عليكم اموالهم. ويلتمسون منكم اوامرهم * وما هو ابلغ من ذلك انهم يظهرون لكم حرماً وغيظاً اذا لم تكلفوهم بقضاء حاجة لهم او لم تستخدموهم * فاذا كنتم انتم سريعي التصديق وصدقتم اقوالهم هذه المبهرجة. فللوقت ترون انفسكم واقعين في خديعتهم. وتشاهدون لابان صديقكم الذي وعدكم براحيل المحسنة مقدماً لكم لياً. وشاول صديقكم الذي كان وعدكم بميروب ابنته البكر يعطيكم عوضها مخال * انه لا شيء سالك في ايماننا هذه عند البشر كمثل المواعيد الكثيرة والوفاء القليل * هل تعلمون لمن يحاكي هؤلاء: لا ريب انهم يحاكون السحاب الصيفي الذي يظهر في الجو بعد يبس كثير في الارض ويستبين كثيفاً متلبداً كأنه ممتلئ ماءً يكفي ليروي الارض وتجري منه السواقي والانهر * فاذا رآه الفلاحون المشتاقون الى الحيا. يسرعون باخراج او عيتمهم ليقتبلوا الماء. وفي الآخر يرون انفسهم قد انخدعوا. لان ذاك السحاب المتكاثف ينحل اخيراً من غير ان يبيل وجه الارض * ولكن الله تعالى ليس هكذا. بل انه جل ثناؤه يستطيع ان يقول بحق وصدق: انني لست ابطل ما يخرج من شفتي * وهذا يستبين لكم عياناً. لانه ان كان غيره بعد اكثر جداً مما يفعل. فانه هو جلت قدرته بعكس

ذلك يفعل أكثر جداً مما يعد * فقد كان تقدس اسمه قد وعد حزقيا ملك
 بان لا يدع جيش سنخاريب الملك المتكبر المخوف ان يطمأ ارض اورشليم ولا ان
 يرمي فيها سهماً ولا بهجم عليها ولا يحاصرها . لأنه تعالى خاطبه قائلاً « لا يدخل اعني
 جيش سنخاريب) هذه المدينة . ولا يرمي فيها سهماً . ولا يتقدم عليها بترس . ولا يقيم
 عليها مترسة » (٢ ملوك ١٩ : ٢٢) : فهذا ما وعد الله به حزقيا ملك يهوذا * ولكي ينجز
 وعده هذا فقد كان يكفي ان يضع في قلوب الاثوريين الخوف والرعدة بمصيبة
 تصادفهم في الطريق ويرجعوا الى الوراء هلعين خائفين . او كان يكفي ان يأمر بان
 يعنري القائد قلق واضطراب ما . او كان يكفي ان ياذن بان ثور فتنة ما بين
 رؤساء العسكر . او ان ينشأ قتال وخصام في الجنود * غير انه سبحانه وتعالى ما
 اراد ان يكفي باحد هذه الامور المذكورات . بل فعل غير ذلك . فانه ارسل في
 تلك الليلة ملاكاً . فدخل المعسكر بسيف مجرد . وجعل من الجيش مقتلة عظيمة
 تشتمل على مائة وخمسة وثمانين الف جثة طرحها على الحضيض وجعلها مأكلاً للطيور *
 ولضيف الى ذلك ما جرى بسليمان الحكيم . اما كان الله تعالى يكفيه لانجاز وعده
 له ان يمنحه الحكمة فقط التي قد طلبها منه ليعرف ان يدبر شعبه حسناً . ومع ذلك
 فقد زاد عليها جلت مكارمه الغنى والثروة * وكذلك يهوشافاط ملك يهوذا اما
 كان يكفيه لحسن مجازاته ان يعطيه فقط الماء الذي استمدّه من كربه الالهي
 ليشرب عسكره ويروي ظمائه . ومع ذلك فقد منحه ايضاً النصر على اعدائه * وهكذا
 ان اعتبرت التوراة كلها وسائر كتب التواريخ . ترون ان الله سبحانه فضلاً عن انه
 يوفي بوعدِه يفعل ذلك بيد سخية وجود فائض جداً حسبما أكد لنا ذلك ايضاً
 القديس يوحنا الذهبي الثم في مقالته الحادية والتسعين التي قالها في تفسير سفر
 الخليقة *

نعم ايها السامعون ان هذه الامانة المنتسبة لله تعالى لمختلفة جداً عن امانه
 اصدقائكم الدنيويين . ولكن من اين يصدر هذا الاختلاف العظيم . تعرفون من

اين صادر * انه صادر من هذا فقط ، وهو ان اولئك الذين يدعون انهم لكم
 اصدقاء . لا يحبونكم ليعطوكم ما هو لهم . لكن يحبونكم لينزعوا منكم ما هو لكم * وقد
 يمكن ان يظهر كلامي هذا لديكم مبهما . فها انا اوضحه لكم قائلًا : ليت شعري اي
 الناس تظنون انهم يجب ان يحسبوا اصدقائكم الصادقين : آ الذين صاهرتوهم . ام
 الذين يمدقون بكم بزيد التعظيم والاحترام والاجلال وزخرفة الكلام * هل تظنون
 مثل هؤلاء يحبونكم حقًا * انكم لفي وهم عظيم ان اعنقدتم ذلك . لان هؤلاء لا يحبون
 اشخاصكم . بل منهم من يحب ذاك المهر الوافر الذي كتبه الواحد منكم لابنته
 لتجهز به وتحظى بزواج لائق بشانكم وقيمتكم . ومنهم من يحب تلك الوظيفة التي
 تنتدرون ان تبلغوا اليها من تحبونه . وغيرهم يحبون تلك النعمة التي يرجونها منكم .
 او يحبون السعد الذي انتم به فائزون * وعلى الاطلاق اقول انهم يحبونكم كحب
 النخل للزهور ليحتموا منها اعذب الحلاوات . او كحب الحشيشة المدعوة العاشقة
 انجق المحور لتصعد عليها باعلى مقام * واما الله عز وجل فهو وحده يجب ان
 يكون صديقًا لنا ليعطينا ما هو له * فانه يرغب ان يصرف علينا كل ما يتمتع به .
 وهو الذي اراد ان يكون بيننا زينة شركة التساوي في ما لنا وفي ما له وذلك
 بموجب نص الشريعة المشهورة القائل « كل ما للاصدقاء مشاع لهم » * ولكن في
 اي شيء قائمة هذه الشركة : اسمعوا وافهموا هل سمع قط شركة مثلها * ان الله تعالى
 لم يعطينا ما هو له الا الغنى والمجد . ولم ياخذ منها هو لنا سوى الفقر والهوان * انه
 اعطانا ما يخلصنا بالوهيته من العز والعضمة . واتخذ لنفسه من ما لنا من الدناءة
 والمحقرة * قد منحنا فضله واخذ الامنا وعقوباتنا التي استحقناها بخطايانا * قد منحنا
 عدم الموت . واتخذ ميتوتنا * قد اعطانا سعادة ملكه . واتخذ اوجاع منفانا * واقول
 بالاجمال مع القديس بطرس خرسولفس في عظمة الخمسين « انه اتى لياخذ
 ضعفنا ويعطينا قوته . وليطلب منا البشريات ويهدي لنا الاهيات ولياخذ منا
 الهوان ويهب لنا السلامة » * فهل يمكنكم ايها الاخوة الاحبياء ان تجدوا صديقًا

آخر يشترط عليكم مثل هذه الشروط المنقصة حته . إذ أنه لا يطلب منكم شيئاً سوى ذلتكم وفاقنكم كي تشركوا في أفراحه ونعيمه *

ولنتقدمن الى قدام ايضاً . ونأمل من هم الذين يبين الله تعالى باوفر البيان أنه صديقهم الخاص الخاص الحب لهم . ألا تعرفون من هم * هم المساكين وذوو العادات والمظلومون والمعبرون * قال الله على لسان اشعيا (٢: ٦٦) « لمن انظر الا الى المسكين » ولنا أسوة في هذا الامر في الاسرائيليين . لان الله جلت مراحته لم يظهر لهم صداقته ومودته باعظم البيان الا حينما ابصر ملك مصر بظلمهم ويجعلهم يحبون في الظلم كأنهم ضفادع منقنة * ولكن هل تظنون أن آل اسرائيل وحدهم اخبروا مودته تعالى وصداقته : كلاً . بل ان ايلىا النبي ايضاً لم يصنع الله تعالى معه اغرب الآيات الا لما رآه ساقطاً تحت غضب الحكام وبغضهم . فحينئذ اطر بسببه النار من السماء * وكذلك الشاع النبي . فان الله عز اسمه لم يهتم بجايته وصونه بنوع خصوصي الا لما رآه قد اضحى سخرة وهزئة للعامّة حتى الصبيان . فانه عند ذلك اطلق لاجله من الغاب الوحوش الضارية * وان لاحظنا لعازر اخا مرتا ومريم المجدلية . نرى انه لم يستين أنه كان محبوباً لدى المسيح وعزيزاً عليه الا بعد ان اضحى مكروهاً لدى الناظرين اليه حتى لدى اخنيه . والفي تحت الثرى . فحينئذ اظهر يسوع امارات محبته العظيمة له . حتى انها اذهلت اليهود انفسهم فقالوا « انظروا كيف كان مجبّه » (يوحنا ١١ : ٢٦) * ولكن الاصدقاء الارضيين لا يفعلون لعمرى كذا . بل انهم اذا رأوكم قد سقطتم في شقاء وذل وعسر . فللوقت يرتدون الى الراء . ويا ليتهم يرتدون فقط . فانهم يولون هارين منكم ايضاً بعار عظيم . وحيث كانوا في أيام اقبالكم يلقونكم ويلطفونكم حتى انهم يسجدون لكم . فتراهم في أيام احوالكم يظهرن انهم لا يعرفونكم * حاشاي ان ارغب ايها السامعون المكرمون ان تخبروا بالفعل صدق كلامي هذا . بل بعكس ذلك اطلب لكم من الله تعالى كل خير ابدى وكل سعادة دائمة * غير انني انصحكم قائلاً : لا تتخذوا بصداقة اصدقاء

العالم: لأنه إذا ابتدأ سقف بيت احدكم ان يتقوض ويدنو من الدثار. فترون
عيانا السنونو ايضا المعششة فيه والصارئة من اهل البيت تفر هاربة. وكذلك هم
الاصدقاء الاخصون من اهل الدنيا * واحسرتاه على ايوب. ترى ما الذي لم يفعله
من الخير والاحسان ليستحق في وقت الضيقة الاسعاف من رجل امين * كم من
ارامل سترهن. وكم من يتامى قام بأودهم. وكم من عراة كساهم وجياع اطعمهم. ومع
ذلك كبه لما سقط في البلايا العظيمة المعلومه عند الجميع. تركه كل الناس تركا
تامًا. حتى أنه لعدم وجوده من يؤوبه برهة من الزمن في زاوية احد البيوت او
بعيره فراشا ولو رثا او رداً خلقاً يستر به. احوجنه الفاقة البليغة الى ان ينطرح
راقداً على مزبلة مثل كلب ميت قائلًا « إخواني غدروا كمثل الغدير. ومثل
ساقية الودية يعبرون » ايوب (٦: ١٥) * وان قلتم قد وجد في تلك الشدة ثلاثة
اصدقاء قصدوا اليه كي يعزوه. ولما راوه علي ما كان فيه. طفقوا يتحسرون عليه
ويندبونهُ حتى أنهم لتفاقم الاسف عليه ذروا التراب على رؤوسهم حتى تغيرت
الوانها. اجبتكم: حسنا قلتم. ولكن مع هذا كله فإن مثل هؤلاء اصدقاء الثلاثة يعضد
المعنى الذي قصدته اكثر ما يكون * ما نقولون فيهم: اليس انهم مع شدة تأسفهم على ايوب
تركوه مع مسكنته في ذاك العري الذي راوه فيه * وهل تصدقوا عليه بفلس واحد.
ام هل أسوه بقطعة من ثوب بال يستر بها عريه * لا لعري. بل جرى امرهم معه
بالعكس. واسمعوا ما خاطبهم به ايوب قائلًا « فالآن قد صرتم اياها. واذ رأيتم
بليتي فزعتم » (ايوب ٦: ٢١) * ترى من اي شيء فزع هؤلاء الامراء الثلاثة عند
مشاهدتهم صديقهم في هذه البلية: العلم خافوا من ان تصيبهم بلية نظير بليته. ام
هل اشفقوا ان يدهم داء عضال مثله * ان العلامة ليرانس الجميل يجيب هنا
بعقل وحنافة قائلًا: أنه ليس هذا هو سبب فزعهم. بل انما سببه كان التوهم الذي
ادترام في اول مشاهدتهم اياه ان يطلب منهم صدقة وافرق من مالهم ليسد فاقته
العظيمة * ولكن يمكن انكم تستهجنون ايها السامعون هذا التفسير. الا أنه لا يجوز.

لاحد منكم ان يهزأ به كأنه اختراع مزين غير ثابت ولا صادق. لانَّ ايوب نفسه بحتفه
 لنا بكلام فيه. فإنه بعد ان قال لاصدقائه اولئك الثلاثة «الآن قد صرتم اياما.
 واذ رأيتم بليتي فزعتم» اردف حالاً كلامه بقواه «العلي قلت لكم: هبوا لي او من
 اموالكم ارشوا بدلي» (ايوب ٦: ٢٢) «فمن قوله لم هذا يستبين واضحاً انه لم يكن
 سبب لخوفهم سوى ان يطالب منهم ان يفتحوا هياكلهم ويعطوه شيئاً من الفضة. ومن
 هنا أستنتج فاقول: انه ان كان الاصدقاء الاعظم رافةً والافر شفقةً نظير اصدقاء
 ايوب المذكورين الذين بكوا وتأسفوا لما اصابه من البلاء لم ينفعه شيئاً. فليس لنا
 ان نرجو منهم بوجه عام عوناً ما. الاً كلاماً فارغاً فقط. وما الذي سبيلنا ان نرجوه
 من الاصدقاء الاقل رقةً: هل يكونون قد ابتدعوا امراً حديثاً ان باينونا نتقلب
 في شدايدنا ولم يلتفتوا الى ان يرحمونا ولو بكلمة واحدة من التعزية او بسلام
 واحد او بلحظة واحدة ودادية. لعمرى ان مثل هؤلاء لا يبعدون ان يجرمونا من
 التعزية بما لا يوصف من الجفاء والقساوة. بل ربما يتفقون ايضاً على الشتمة بنا
 ويزيدونا حزناً والهاً بأقوالهم او بافعالهم. ومثلهم مثل القوم الذين يقضون ايام
 الصيف في الصفاء بالاكل والشرب والرقص واللعب والمنادمة بطرب جزيل
 تحت ظل شجرة ظليلة. فاذا دخل الشتاء. ورأوا تلك الشجرة دنت من الانتشار
 واليبس. يكونون هم اول من يضع يده على الفاس. وابتدئون في كسحها ثم ياتون الى
 قطعها من غير مداراة. ولكن هبوا انكم لفيتم اصدقاء كراماً طبعاً ورفاقاً قلباً وندباءً
 الى اغاثتكم في حين الشدة. غير اني اسالكم ان تنطقوا بالحق: من منهم اذا اصطنع
 معكم جيلاً جليلاً لا يُظنه لكم بكبرياء ولا يكلّمكم فيه متشامخاً. فلا يبيعكم اياه غالياً
 بل باغلى قيمة. وما لي قلتُ جيلاً جليلاً. والحال انه على التحقيق لا يمكن ان يوجد
 احد في هذا الزمن ينال معروفاً من احد ولو طفيفاً. او رفاً ولو زهيداً. ما لم يستر
 قبلاً وجهه برداء الحياء. لانه يلزمه ان يقر له بالمعروف ويعترف بانه غريق فضله
 ابداً سرمداً. وفي الاجمال لا يوجد الآن احد يحسن الينا ومحب ان يكون كرمه

نظير الأنهر الجارية تحت الأرض بقنوات خفية غير منظورة * وقد حصر ابن سيراخ الحكيم كلامنا هذا كله بقول وجيز. فقال في الصديق الدنيوي هكذا. «يعطي يسيراً. ويمن كثيراً. ويفتح فمه كأنه مناد» (سيراخ ٢٠: ١٥) * هذه هي شيم الأصدقاء من أولي الدنيا * وأما الله جلَّت محامدُه فلا يفعل كذلك * قال القديس اوكاربوس: أنه تعالى يعطي كثيراً من غير أن يشعر احد. وليست جودته في العطاء سرّاً باقل مما هي في العطاء جهاراً * «ان النعم التي يسبغها علينا سرّاً وعلى الدوام من دون ان نشعر بوصولها اليها تسمو على كل عدده. واذا ما جاد علينا بشيء منها وجعلنا نلفظ بها. يفعل ذلك معنا باحشام وهدوء عظيم. كأنه يجد سعادة في ان يمنحنا ما هو له * ولقد تلوت مرات شتى الانجيل المقدس وهذنت فيه مدققاً. ومع ذلك لم أجد نعمة انعم بها يسوع على احد الا ونسبها بلياقة ولطافة الى فضيلة من كان يستدّها * من ذلك امر الكنعانية. فانه لما انعم بالشفاء على ابنتها. قال لها «عظيم هو ايمانك. ليكن لك كما اردت» (متى ١٥: ٢٨) * ولما اوقف جري الدم عن نزيفه الدم. قال لها «ثقي يا ابنة. ايمانك خلصك» (متى ٩: ٢٢) * ولما فتح عيني الاعى وجعله يبصر. قال له «اذهب. ايمانك خلصك» (مرقس ١٠: ٥٢) * وحينما طهر الابرس من برصه. قال له «قم وامض. ايمانك خلصك» (لوقا ١٧: ١٩) * وعندما منح المجدلية غفران خطاياها. قال لها «ايمانك خلصك. اذهبي بسلام» (لوقا ٧: ٥٠) * فبهذا السبيل الوضع كان الرب يسجل دائماً النعم التي كان ينعم بها اعني قوله «ايمانك خلصك». وكان يشير بذلك اتضاعاً منه الى ان النعم التي كان يجود بها على المحتاجين كأنها تصدر من فضل الطالبين لا من جودته ورحمته * ولكن الذي انا مزعم ان اخاطبكم به في هذا الصدد ايضاً هو اعجب مما ذكرت. فاسمعوا * ان يسوع طلب ذات يوم ليتنازل ويمضي الى بيت اجد رؤساء الجماعة كانت ابنته قد ماتت ليرد لها الحيوة. فاجاب جل ذكره الى الطلبة. ومضى مسرعاً * ولكن ما اكثر المصانعة المقدسة التي دبرها حينئذٍ ليخفي عن الناس قدرته

الالهية: فلنعدل عن طرده حالاً من البيت تلك الزمرة المجتمعة فيه والنساء اللاتي كن يولون على المائة. وغلقة الباب. وطلبه الخفاء. وامره بالصمت والسكوت عن اشاعة الخبر. ولحسن التدقيق في ما فعله عند دنوه من جنة المتوفاة * انه حينئذ لكي ينقص امام والديها قيمة نعمته المبادر الى افتعالها. طفق يخاطبها بالتباس الهي في الكلام ويبشرها بعدم موتها قائلاً « ان الصبية لم تمت. بل هي نائمة » (مرقس ٥: ٢١) * لعمرى انه لو كان حينئذ ذلك المحسن انساناً آخر غير يسوع الاله. وكان ذا قدرة على ان يفعل ما يقدر عليه يسوع. لظاهر قبلاً واثبت بشهود الحال وبصك شرعي ان الفتاة قد ماتت حقاً. ولكن بلا شك يقول للحاضرين: تعالوا الى ههنا وانظروا وتفرسوا. هل يوجد فيها نسمة الحياة. جعوا نبضها. هل فيه حركة. ضعوا ايديكم على قلبها. هل بقي فيه خفتان. انعموا النظر في حدقتي عينيها. هل يرى فيها اثر من الحركة. اوما ترونها قد غارتا وطمستا. ارقبوا شفيتها. هل يهب منها ادنى نفس. المسوا جسمها. هل بقي فيه ادنى حرارة. اكشفوا عنها الاغطية وانظروا. اما التخت كلها بالاصفرار وغبار الموت * فحسب ظني هكذا كان يفعل لو كان يروم ان يعظم آية الشفاء اوفر التعظيم ويوضح قدرته وشدة احتياج والديها اليه ابغ الايضاح * ولكن سيدنا يسوع المسيح لم يفعل شيئاً من ذلك. بل اراد ان يظهر للحاضرين عن نفسه انه لا يفعل فعلاً اعظم من فعل من ينبه صبية نائمة. وقصد بذلك (على ما ارى) ان يجزي اولئك المتعجرفين الذين يعظمون معروفهم الى قريبهم ولو كان زهيداً جزئياً. حيث انه تبارك اسمه قصد ان يقلل قيمة خيراتہ وانعاماته العظيمة بصنائع وفنون هكذا عذبة * ولنصف الى ما قلناه ما نوردہ الآن على ساعكم ونقول: انكم قد سمعتم تلاوة الانجيل الشريف مرات متعددة. فهل وجدتم انه تعالى قد اذن لواحد ممن صنع معهم الآيات والعجائب المعجزة ان يتبعه ويصير له تلميذاً ورسولاً او صديقاً او نديماً. كلاً. بل حينما ابراً مستسقياً في بيت الفريسي. اوصاه للوقت ان ينصرف ذاهباً * ولما شفى ابرص

في نواحي الناصرة. ارسله من ساعته الى بيته * ولما اقام من المدة شاباً ميتاً عند باب مدينة نائين. دفعه حالاً الى امه * ولم يصنع ايضاً خلاف ذلك مع المجنون الذي حله من القيود في تخوم الجرجسيين. لان ذلك الرجل مع كونه طلب اليه متضرعاً وملحاً بالسؤال ان يأذن له في ان يتبعه ويرافقه الى حيثما يمضي براً وبحراً. لم يجب ان يجيب الى طلبته. لكن اوصاه ان يذهب الى بيته وادله حسب نص الانجيل القائل «فلم يدعه». بل قال له: اذهب الى بيتك والى اهلك» (مرقس ١٩:٥) * ومن هذه الآية الشريفة يستبين ان الرب يسوع كان يفعل نظير الشمس التي تفيض من نورها على النجوم. ومع ذلك لا تريد ان تسير معها وترافقها مكافاة لها. بل انها تخنى حيث هي تشرق * فاقولكم الآن يا ايها السامعون: هل تجدون في العالم صديقاً يفعل على هذا المنوال * لا لعمرى. بل بالعكس. لانه ان كان صديقكم يصنع معكم معروفات يستحق الذكر. فللوقت يطلب ان ترافقه كل يوم في مسيره. وتسدوه عندما يركب. وتخدموه في مخدعه. ويطلب ان تفنوا انفسكم لاجله وبعدكم حرثكم وان تعيروا له اسارى. ويقتضي منكم ان تنصبوا في منازلكم رايته واسمه او تمثاله او صورته. ليعرف كل احد انه هو ولي نعمتكم كان الوجود والحياة ايضاً حزقوها من جوده وسخائه العيم *

وهات لتقدمن يسيراً ونسلم بوجود اصدقاء في الدنيا منضلين ومحتشمين لا يتباهون بحسناتهم وعطاياهم. ولا يطلبون منكم ثناء ومدحاً لجميلهم. ومع ذلك اقول لكم: انكم بهذا ايضاً لم تحصوا على اصدقاء امينين * وان اردتم ان تعلموا السبب. فاسمعوا ما اخاطبكم به. وافهموه حسناً * انه من الممكن وما قد يتفق ان مثل هؤلاء يقاطعونكم وينبذون محبتهم لكم حتى بلا ذنب يصدر منكم * انه كان فرعون الملك قد طرح في السجن وحبس برهة مديدة من الزمن اثنين من اولي دولته الخاصة لانها اخطا اليه. وكان احدهما رئيس السقاة والآخر رئيس الخبازين حسبما نجبرنا الكتاب الالهى بقوله «وحدث بعد هذه الامور ان ساقى ملك مصر

والخباز اجرما الى سيدهما» (تكوين ٤٠: ١) * ولكن ان كان احدٌ منكم يعرف سبب ذلك . فليقل لي ما هو الجرم العظيم الثقيل الذي ارتكبه هذان الاثنان المذكوران الى ملكهما * العلمما انتمرا على ان يسقياه سما ليميتاه . ام لعلها دبرا عليه مكايده وخاناه في امر باهظ . او رميا الفتنة والعصيان في عبيده ورعيته * حاشا وكلا . لكن على ما جاء في نقل اليهود القدماء انما كان جرمها عرضاً وانفاقاً . وذلك ان جرم الساقى كان حينما تناول منه الملك ذات يوم الكاس ليشرّب . شاهد برغشة ساقطة فيها . واما جرم الخباز فكان ان الملك اذ كان يمضغ الخبز . شعر بحصوة صغيرة تحت اُصراسه * هل كانت هاتان الهفوتان الطفيفتان سبباً حتماً ليعدما رضى سيدهما ويلقيا في السجن : نعم هاتان الهفوتان الجزئيتان اللتان لا طائل تحتها فيهما كفاية لتقطعا محبة البشر * ولكن ما بالي اقول هفوات جزئية . والحال انه يوجد ايضاً ما هو ابلغ من ذلك . ابي ان محبتهم تزول غالباً بلا هفوة . ولايثبات ذلك ما انا اسالكم . فاجيبوني : اما يمكن ان يعتري صديقكم شكٌ خفيف فيكم واو كان خالياً من سبب . فيصيرهُ ان يبتعد عنكم * ومثل ذلك تهمة باطلة تُتهمون بها لديه تبطل محبته . كما ابطلت محبة فوطيفار ليوسف تهمة امراته الزانية الكاذبة (تكوين ٢٩) * ومثله اذا اتراه الحسد من قبلكم حسبا جرى لداود حيث عدم نعمة شاول الملك ومحبته عندما سمع اولئك النساء الاسرائيليات يعظن داود عليه ويصفنه بالقوة والبسالة . (١ سموئيل ١١) * وقد يبطل محبة صديقكم ايضاً نقلاب الطبع والمزاج . لانه من خواص طبيعة البشر ان تنقلب احيانا كثيرة في اعطاف القلب . وربما يبطلها خصام يسير في اللعب . او كلمة خفيفة فرطت منكم مزاحاً ولعباً . او طمع ما في الرجح او جدالٌ ما حدث بينكم في قضية من القضايا او دعوى شرعية * وعمل سمع قطٌ محبةٌ وُجدت ما بين الاصدقاء نظير المحبة التي كانت ما بين اوط و ابراهيم وابيالك واسحق . ومع هذا فلما صدرت الخصومة فيما بين رعاهم من قِبل المرعى والماء . التزم حينئذ كلٌ منهم بان يفترق من صديقه و يبتعد بعضهم عن بعض * وان

اردتم ان تَحَقَّقُوا في هذا اليوم باعظم التحقيق كم يسهل على الطمع ان يبعد عنا
 الاصدقاء. فاسمعوا في بيان ذلك خبراً مشهوراً جداً ورد في سفر القضاة المقدس
 (اصح ١٧) ان رجلاً شريفاً نبيلاً اسمه ميخا شيد له في منزله هيكلًا صغيراً حسناً فخماً
 لاثنًا. وانتخب له كاهناً عبرانياً من سبط اللاويين ليقضي فيه شعائر العبادة. واجبه
 كثيراً كواحد من اولاده. واعطاه داراً حسنة يسكن فيها. وكساه اثواباً فاخرة
 مضاعفة. وجعل له رزقاً وافراً يجري عليه كل يوم فوق الحاجة. واذ اراد ان يكون
 معه على الدوام دراهم ينفقها على هواه. ملأ ميخا يده على ما ذكر الكتاب المقدس.
 ومن قبل هذا الاحسان احب الكاهن ميخا ايضاً حباً زائداً. ولجل ذلك لما ابصر
 ذات يوم جنوداً من سبط دان دخلوا الهيكل ليسلبوا ما فيه. نهض مسرعاً من
 غير ان يخشى سيوفهم وارماحهم. واقبل نحوهم وانتهرهم وعنفهم. وتهبأ وحده للحمامة
 عن اواني الهيكل وتحفه قائلاً لهم بصوت عالٍ وبلا خوف: ما هذا الذي تصنعون
 (قضاة ١٨: ١٨). ثم كرره قائلاً: ما هذا الذي تصنعون؟ فمن لا يتعجب من مثل
 هذه الشجاعة الغربية العظيمة. ولا يحكم انها صادرة عن قوة قلب فريد. لكن
 اسمعوا ما صنع فيما بعد. وذلك ان الجنود لما ابصروا مقاومته هذه القوية. قالوا له:
 شانك ان تصمت. الا ترى انك هنا بمقام كاهن فقير خادم قرية صغيرة ويجب
 ان يضحك منك ومن قرينتك؟ افعل ما يحسن براينا. وارتض بان تصمت وتلتحق
 بنا. ونحن نعطيك رعية تخدمها احسن من هذه جداً «كف وضع يدك علي فيك
 والحقنا. فتكون لنا اباً وحبراً. اي الامرين خير لك. ان تكون حبراً في بيت رجل
 واحد. ام ان تكون حبراً في سبط وقبيلة في اسرائيل» (قضاة ١٨: ١٩) * من منكم
 يصدق ان هذا الرجل الصالح لما سمع اسم مقام اعلى شرفاً ووظيفة اوفر ثروة.
 صمت ولم يوججهم. بل فعل ما كانت الجنود طلبته منه. بل طفق هو ابتداءً ينهب
 يده المذبح ويعري الحيطان. وينزع الخزانات. ويخطف المباخر ويخلس الأصنام.
 ثم ولى هارباً جارياً سريعاً مع الشرط * ولما بلغ ميخا ما قد جرى. لحقه مسرعاً.

واذ ابصره من بعد هارباً مع الجند . اخذ يهتف به قائلاً : يا صاح يا صاح اهكذا
 تخذاني . اهكذا تركني . اهكذا تطوي كشك عني * ولكن ليهتف مني وليصرخ
 بقدر ما يشاء . لان كاهنه وامينه قد نأى عنه بعيداً . فلا يسمعه * ما هو راىكم الآن
 ايها السامعون : ما الذي كان يجب علي مني ان يصنع من الاحسان الى ذلك
 الكاهن ليلزمه بالمحبة والامانة له اكثر مما فعل ولم يفعل * اما عاملة بلطف عظيم
 وشرف جليل . او ما احبه واعزه كأحد ابنائه . او ما اعطاه وملاً يده من المال
 والفضة * نعم قد فعل كل ذلك . الا ان هذه الخلة كانت قديماً من شيم اصدقاء
 الدنيا . وهي ان يميلوا منعطين الى من يطعمهم في حالة اجل واحسن * فهم بماكون
 الذئب التي تجري الى من تكون وليته اوفر دسماً . والحمام التي تطير الى حيث
 يذرها حب انتي * ولكن يا ليت شعري العلل هذه الصفة ليست من شيم اهل
 عصرنا هذا : هنا يجب علي ايها السامعون ان اصمت . لئلا اصير سبباً لخطيئتهم وخزيهم *
 فلنعد الآن الى موضوعنا قائلين : اي اهل يسوع لنا ان نبني على الاصدقاء
 الارضيين بعد ان عرفنا انه يمكن ان نخسر محبتهم من غير ذنب وبلا سبب
 البتة . وما بالي اقول من غير ذنب وبلا سبب . فسبيلنا ان نقول ابلغ من ذلك
 وهو ان ما نصنعه مع صديقنا من الاحسان او المودة التي نظهرها له تصير احياناً
 سبباً لنفقد محبته * قال سينكا الفيلسوف « ان غباوة البشر بلغت غايتها حتى انه
 صار خطراً لنا ان نحسن الى غيرنا » انتهى * والسبب في ذلك انه اذا كان الذي
 نال منا احساناً ليس له قدرة على مكافأتنا . يتدئ رويداً رويداً ان ينظر الينا
 بعين الغدر . كما تنظر اصحاب الديون الى بعضهم بعض . ثم يتدئ ان يهرب من
 مواجهتنا . ويكره مخاطبتنا والتردد معنا خجلاً منا . حتى ربما يبلغ به نكران الجميل
 الى ان يصير خصماً لنا . وذلك لانه يرى عاراً عليه ان يكون لنا صديقاً عاجزاً
 عن المكافاة * فهذه هي المحبة البشرية ايها السامعون التي لا تستحق ان تسمى محبة
 صادقة ثابتة مكينة *

ولناتِ الآن الى ان نتكلم في الله تعالى على سبيل المقابلة بينه وبين الاصدقاء
الديويين . ولتر هل يوجد لكم سبب لتخافوا منه تعالى في شيء ما مما قلناه آناً *
قوالى الى : ما هو الشيء الذي لكم ان تخافوه في محبة الله وصداقته معكم * اترى تخافون
من أنه قدس اسمه يمنعكم محبته ومودته من غير ذنب يصدر منكم . او أنه يشتم
منكم واور كتم صالحين . او أنه يستنكف منكم حينما تطلبون مودته : حاشا وكلاً .
بل العجب فيه تعالى يا ايها السامعون هو هذا . وهو أننا نحن مطاقوا الارادة
ومستطيعون ان نتركه من غير ذنب يصدر منه . وأما هو جئت رحمة فبالخلاف .
اي هو غير قادر على ان يتركنا الا لذنوب نرتكبه ونسيء به اليه * فاذا لا يتركنا ما
لم نتركه نحن . فليس لنا ان نخاف من ان تبطل محبته لنا من قبل نطلب راي فيه
او من حقدٍ وغيظٍ او من تهمة نتهم بها لديه . او من خصومة . او من وهمٍ يسترهب
فيها . او من سبب آخر سوى الذي يصدر منا تعدياً واختياراً . ولاجل ذلك لا سبيل
لنا ان نخاف الا من انفسنا * ان الرسول الالهي رفع صوته ذات يوم وهتف قائلاً :
انه لا شيء البتة في العالم يستطيع ان يزيجه عن محبة يسوع لا الملائكة ولا السلاطين
ولا القوات ولا شيء آخر سواي كان من العلام من الأسفل . قوياً او ضعيفاً . حاضراً
او مستقبلاً * وهذا هو نص كلامه « إني انا لواقف أنه لا موت . ولا حياة . ولا
الملائكة . ولا الرؤساء . ولا القوات . ولا هذه الاشياء الحاضرة . ولا المستقبل . ولا علو .
ولا عمق . ولا خليفة اخرى تقدر ان تفرقنا من محبة الله (رومية ٨ : ٢٨ و ٢٩) * ان
القدس برنردس نطق بمذاقة بليغة في عظمة على العماذ الثاني قائلاً : اعتبر يا
من يتلو كلام هذا الرسول أنه عدد اشياء كثيرة غير قادرة ان تفرقنا من محبة
الله ولم يعدد فيها انفسنا قائلاً « ولا نحن تقدر ان نفرق انفسنا من محبة الله » .
ولاي سبب ذلك . لأننا نحن فقط نستطيع ان نترك الله بارادتنا . وما عدا ارادتنا
لا يوجد شيء البتة يجب ان نخشاه : انتهى * ومن هنا نقول أننا نحن وحدنا نستطيع
ان نسيء الى انفسنا اساءة لا يستطيع الله نفسه مع قدرته المرهوبة ان يسيء اليها *

وان كان ذلك كذلك. افما تكون هذه سعادة عظيمة جداً. وني انه لا يحق لنا ان نشكو احداً الا انفسنا اذا ما خسرننا لسوء حظنا هذا الصديق الالهي الجواد الكريم *
يا تعزية فائقة. ويا لراحة وامان لا مثيل لها باكتساب مودة الله تعالى وصدقاته *
اننا اذا احببنا انساناً من الناس. فينبغي لنا ان نتوقى الف شخص خرفاً من ان يفرقوه منا. واذا احببنا الله عز اسمه. فليس لنا ان نتوقى احداً سوى انفسنا * ومن ثم وان قدم له غيرنا هدايا جليلة واموالاً وافرة واثواباً وزينات بهية ملكية. فلا يوجد بذلك خطر من ان يفضل علينا احداً ولو كنا نحن افقر من غيرنا واذل بشرط ان تكون محبتنا له اعظم * وايس مثله تعالى كمثل كاهن ميخا المقدم ذكره آنفاً. فلا يميل منعناً الى من يطعمه طمعاً اكثر. ولكن ينعطف مائلاً الى من يجبه حبه اعظم * وهكذا نرى انه جلت قداسته صنع مع الرسل تلاميذ الاطهار. لانه لما رام ان ينتخب واحداً منهم الى الحبرية والنيابة عنه في الارض. لم ينتخب من هجر لاجله ثروة وافرة. ولو كان الامر كذلك. لوجبت هذه الوظيفة لمي الرسول. لكن انتخب لها من احبه اشزر حب اعني به بطرس (يوحنا ٢١: ١٥) * وكذلك لما التزم ان يفضل بالمدح والثناء واحدة من الاخنين اللتين اضافناه عندهما في البيت. لم يفضل تلك التي صنعت باوفر الاهتمام ما ينبغي لتصف له وليمة فاخرة اعني بها مرتا. لكن فضل تلك التي كانت ذائبة هائمة بحبه وصبايته وهي مريم (لوقا ١٠: ٤٢) * ومثل ذلك اولئك الاغنياء الموسرون الذين رموا ذهباً كثيراً في خزانه الهيكل. فلم يستحقوا بسنائمهم هذا الزاخر ان يخدمهم تعالى او يشبههم بتلك الارملة المسكينة التي مجهد عظيم القوت فلسين لا غير (١٢: ٤٢) * وذلك لان الله جلت قدرته لا يرشي ولا يلقى بالهدايا كما قلنا اننا. ولا يعتبر الاحبياء نظراً الى ما يعطونه. بل نظراً الى ما هم عليه في انفسهم. اذ انه تعالى من شأنه ان يلاحظ القلب لا اليد. وحسن النية لا الفعل *

ولا يظن ظان ان الخاصة المذكورة كائنه في الله تعالى من قبيل انه تعالى

كل بشر لا يحب ان يرى نفسه ملزوماً لغيره . بل ان الامر بخلاف ذلك . لانه تبارك اسمه يفرح بمشاهدته اولئك الذين يلتزم ان يعطيهم . اكثر مما نفرح نحن باولئك الذين من شاننا ان نأخذ منهم * وهذا هو رأي القديس يوحنا في الذهب في مقاله السابعة التي قالها في تفسير رسالة الرومانيين حيث يقول « ان صاحب الدين لا يسر بغرمائه بمدار ما يسر الله تعالى بالذين هو مدينون لهم » ولكي تفهموا هذا المعنى العذب المكنون في مقال هذا القديس الجليل . اعنبروا جيداً هذا الاختلاف الحاصل فيما بين الله تعالى والبشر * وذلك انه من كان من البشر حاصلًا على حال الذل والاحتياج . وطلب صدقة سراً من اشخاص احط منه حساباً ونسباً . ثم اتفق انه ارتقى الى حال سعيدة وعاش في المال والرزق بارغد العيش . فيعتبر به الحياء والنجل من مشاهدة اولئك الاشخاص الذين كان قد ذهب الى منازلهم قديماً ليسأل معاشه . ولا يعود ايضاً شيء يضايق قلبه ويؤلم فؤاده كمثلما يؤلمه استماعه واحداً منهم يتكلم متقصداً مذلتة او التكبر عليه . وذلك بقوله : انظروا الى هذا الذي يعيش اليوم عيشاً رخياً . لقد عاينته فيما سلف اتي مراراً متعددة الى منزله ليسأل صدقة في حب الله * ولكن كيف الحال من هذا القبيل في ربنا والهنا * انه عز وجل سوف يجمع بصوت البوق في اليوم الاخير العالم كله . وذلك لكي يعرف كل احد كل فلس اخذه منا سراً وخفية . ولا ينجل مستحياً في حال مجده ذاك العظيم الشأن من ان يوجه خطابه الى الذين اغاثوه قديماً فرداً فرداً . ويظهر على نفسه مقراً انه في حال فقره على الارض نال من هذا ثوباً استتر به . ومن هذا رغيف خبز . ومن هذا نوعاً من الفاكهة . ومن هذا كاس ماء حسب نص الانجيل القائل « اذا جاء ابن الانسان في مجده » ماذا يقول ايها السامعون : يقول « جمعت فاطموني . وعطشت فسقيتموني » . وما يتلوهُ (متى : ٢٥ : ٢١) *

فيا له من صديق . لعبري انه هو وحده امين في العالم * يا لوفور خلوص ود غريب . يا لنقاوة قلب الهى لا تشيل له ولا نظير * اما انضح لديكم ايها المسحيون

أني بحقٍ وصدقٍ قد فنّدتُ صداقة كلِّ أحدٍ ما خلا صداقة ذاك الآله الذي
 آمن إليه قائد المائة الحكيم مسلماً وراكناً كما مرَّ ذكره في افتتاح عظمتنا هذه * وما أنا
 مخاطبكم يا معشر السامعين . فاجيبوني بالصدق من غير تحاباة : أما اتفق لكم أحياناً
 أن حصلتم في شدةٍ بالغةٍ حتى اخرجتكم أن تهتفوا قائلين مع الحكيم « أما الرجل
 الأمين فمن يجد » (امثال ٢٠ : ٦) * والحاصل من ذلك أنه لا يوجد في الدنيا
 صديق يمكننا أن نضع عليه ثقتنا ورجاءنا * العلم ما جربتم بالفعل أن غالبهم يخدعوننا
 ويخونوننا . وكانهم بواشق حرصهم في الخطف والنهب . يفرون من أيدينا هاربين
 حينما نظنُّ بهم أننا قد امتلكناهم مطانين * فاحفظوا إذاً في بالكم كلُّ ما قلناه أنما
 إلى أن استريح قليلاً . واستعدوا في هذه المهلة لتجيبوني على سؤالٍ سامٍ سأعرضه الآن
 عليكم لفائدتكم *

القسم الثاني

إن السؤال العظيم الذي عزمْتُ أن أعرضه عليكم أيها الأبناء الاحببَاء . ليس
 هو سوى ما أوردته الآن . وهو أن كان الله تعالى وحده . يستحقُّ أن يدعى الصديق
 الصادق وذلك من باب العدل والصواب وأما غيره فهو قليل الأمانة أو كثير
 الخيانة . فكيف إذاً يمكن أن يوجد من يغيظ الله سبحانه ليرضي صديقاً دنيوياً * إلا
 تجيبون بشيءٍ أيها السامعون : تكلموا ولا تخشوا . من بالكم صامتين * ولكن يمكن أني لم
 أورد السؤال بعبارة توضّحه بالكفاية . فهأنذا أكرره عليكم قائللاً : قلتُ كيف يمكن
 لواحد منا إذا أراد أن يرضي ذاك الصديق أو يقبل تلك الدعوة الحبيبة أو يرتضي
 بتلك المشورة أو يطابق هوى ذاك الانسان السيء يغيظ ربه ويهينه ويخنقته ويضحي
 بذلك اميناً مع من يخونه وخائناً مع من هو في الحق امين اي ربه وخالفه * ليت
 شعري أما هذا سؤال لائق بعقولكم الذكية . فإذا تقرّرون : إما حلوا اعتراضي أو

فندرة . او ارضوني بجواب يكون له شبه الحق * واهأ منك يا قلوب المسيئين
 الفاسية الناكرة الجميل والمعريف * انه على ما ارى ما من احد يجسر ان يفتح فاه .
 لانه ليل الجميع هم ملطخون بهذا الاثم الفظيع اي تفضيل رضى الاصدقاء الارضيين
 وحبهم على رضى الله تعالى ومودته * ولا ريب ان انصبابنا الى الباطيل ونقص رأينا
 وقلة نظام سريرتنا المبلبله حسب نور الايمان تستاقنا الى الاثم المذكور الذي يحق له
 ان يبرقع وجوهنا بالحياء والنجل العظيم * قد مدح كثيرون فرقليس قائد جيوش
 اليونانيين الوثنيين بمدينة اثيناس . لانه لما طلب اليه واحد من اصدقائه ان يحلف
 بسببه حلفاً كاذباً . اجابه قائلاً : حاشاي ان افعل هذا النفاق : نعم انت صديقي
 والجميع عارفون بذلك . غير أنك صديقي في كل مكان الا مذبج العبادة * نعم ان
 كثيرين مدحوه لحسن جوابه هذا . الا ان بلوطرخس الفيلسوف الوثني قد ذمه
 في كتابه الذي الفه في الحياء المذموم . وعنه قائلاً « لقد بلغت متورطاً كثيراً ايها
 الغي حياً لصديقك . افاذا هو صديقك في كل مكان الا المذبج . انك لقد افطمت
 في ما اكرمته به » * ولا ريب في ان بلوطرخس هذا قد اصاب بدمه له . لانه من
 حيث قد تعمق مع صديقه في العشرة تعمقاً زائداً . فمن ثم صارت له دالة الى ان
 يطلب منه حلفاً كاذباً * فانتجوا انتم من ذلك كم يكون مبالغ الآثام التي كان قد
 تنازل بها فرقليس قبل ذلك كرامة لصديقه ذاك * ولكن اسمعوا ايضاً ما اقوله لكم
 ايها السامعون المكرمون : انه لا يجب ان تتصل المودة البشرية الى المذبج فقط . لان
 هذا كثير بافراط . لكن لا يجب ان تتصل الى اعناب الهيكل ايضاً . حتى لا يبقى
 سبيل لرفقائكم واصدقائكم ان يجربوكم بخطية * اللهم حتى الآن لم يتصلوا الى ان
 يعرفوا انكم تفضلون رضى الله تعالى على رضاهم . اتري يمكنهم ان يرتابوا بهذا ايضاً * ما
 اعظم الاهانة التي تهينون بها صديقاً جليلاً بل ذا الجلالة الفائقة اعني به ربكم ان
 كنتم حتى الآن ما اوضحتم لهم بالعمل ان خاطر ربكم الشريف اعز لديكم من خاطرهم
 المذموم *

وبعد هذا باي وجه تجسرون ان تظهروا امامه تعالى وتطلبوا منه ان يسد حاجاتكم * لعمرى انه يستطيع حينئذ ان يطردكم من قدامه مغضبا وساخطا عليكم ويقول لكم: امضوا واستجدوا باصدقائكم الذين كانوا لديكم افضل واعز مني، اليس انكم املتم اليهم كل حبهكم . ووضعتهم فيهم ثقتم واملكم . فليخروكم الآن من الموت وليستخروكم الشفاء . وليدخلوكم الى ملكوت السماء . وليستلوكم من الغرق في اسفل الحج « ابن آلهتم الاقوياء الذين كانوا يتكلمون عليهم * فليقوموا ويعينوكم . ويكونوا لكم ساترين » (تشبيه ٢٢ : ٢٧ و ٢٨) * وباي شيء تجيبونه انتم ايها المسيئون . العلمك وانتم بان سوف يشفع فيكم لدى الله اصدقائكم هؤلاء الذين بسببهم تغيطونه تعالى وتجاوزون وصاياه . او ان يعتذروا اليه محتجين عنكم باعترافهم اليه بانهم هم المذنبون والمخطئون وانتم ابرياء غير مذنبين . وقبلوا عنكم القصاص المحكوم به عليكم * لا لعمرى . بل سوف يجري الامر بعكس ذلك . لانه من الاقرب الى التصديق انهم سيكونون اول من يؤجلكم ويخلكم . ويشكونكم لاتباعكم هوام الردى * خبرنا الكتاب الالهى عن ايشالوم انه لما كسره جيش يواب وهزمه . وكان هاربا من وجهه بعنان طليق في غاب مدغل . اصابته يابوى عظيمة . وذلك ان شعر راسه من عصف الريح وعزم الجري التف على اخصان شجرة . وازداد جواده خوفا ومر هاربا من تحته . فبقي ايشالوم معلقا بشعره في الجو لا يستطيع ان يجره او يجره * فابصره واحد من الجنود في هذه الحال . فاسرع واخبر يواب به . فقال له يواب : لماذا لم تطعنه بريح وتلقه على الارض ميتا حيث رايتة . فكنت اعطيك في الاقل عشرة مثاقيل فضة * فقال الجندى : حاشا لي ان افعل ذلك ولو اعطيتني الف مثقال . لان الملك اوصى ان يحفظ بايشالوم حيا * ولو اني تجاسرت وتورطت في قتله . لاحتمى الملك غضبا علي وكنيت انت وقتئذ تحابي معه كالموف عادة حواشي ارباب الدولة خوفا او حياء منه . ونحكتم علي بالذنب قبل الجميع . « ولو كان ذلك . لعلت زورا لنفسي . لانه لا يخفى عن الملك شيء لا . وكنيت انت نكف قبالي » (سموئيل ١٨ : ١٢) * ما احسن ما تكلم هذا الجندى الامين . وما

اجل ما احتج به . كأنه قال : انت يا يواب الذي تشير علي بان ارتكب هذا الاثم من المخالفة للملكي ومولاي . لو كنت ارتكبت ما تريد مني . لما كنت انت تشفع في لدى الملك . بل كنت تعنفي قدامة . كأنني واحد من العصاة الوثقين الذين لا يعرفون قيمة موالهم . وتساعد في ان أقتل عاجلاً « وكنت انت نفق قبالي » *

فهكذا ينبغي لكم ايها السامعون ان تخاطبوا انفسكم حينما يتلتم احد من اندادكم . او يحثكم علي ارتكاب سيئة مما يخالف وصايا ربكم * واياكم ان تصدقوه . او تسلوا له مدعين . بل تحققوا وتيقنوا تيقناً تاماً انه اذا ما حضرتم امام العرش الالهي الهيب للدينونة . فهو يكون اعظم شاك عليكم وخصماً أقوى من جميع اخصامكم * نعم انه الآن يدعوكم بحجة المودة الي ان تدخلوا ذاك المحفل المذنب . ولكنه سوف يقوم قبالتكم . ويلقي الذنب عليكم مدعياً بانكم انتم الذين حرصتموه على ذلك بفرط حبكم وهيامكم الذي اظهرتموه بالملاعب والملاهي * فالآن يكافكم بسبب المعاشرة ان تصحبوه الي ذلك البيت الحاوي خطراً يخسركم الآخرة . لكن سيقوم فيما بعد عليكم ويشكوكم قائلاً بانكم انتم قدتم له السبب مما شاهدت فيكم من الانعطاف المفرط نحو امارات العشق الذي هو داب الشباب الجهلة * انه الآن يغريكم بعله المحبة لتعقدوا ذاك العهد المحرم في المتاجرة . لكن سيقوم عليكم ويبري نفسه ويخصمكم مدعياً بانه انما اجندبكم الي ذلك العمل من تلقاء انفسكم لافراط ما اخبر فيكم من الطمع في المكاسب حتى غير المحللة * وهكذا يفعل بكم في غيرها من الخطايا . اي انه سيبذل كل جهده وجده في ان يحول عليكم ذنوبه ويلطمحكم بها * فهل يسوغ لكم الآن ان تاذنوا لمثل هؤلاء الاصدقاء الخبيثاء الخائنين ان يستاقومكم الي الخطأ والى ان تغضوا الهكم ومولاكم الفريد * يا له من عبي كئيف ما اعظمه . ويا لهذيان غريب ما اشنعته * ترى اي فضل لهؤلاء المنافقين . ام اي حق . ام اي حجة لهم عندكم حتى انكم بسببهم تولون مدبرين عن ذلك الذي سوف تلتزمون يوماً ان تلتجئوا الي رافته في ضيقتكم القصوى اعني به ربكم وسيدكم الاعظم *

هل تعينون ايها السامعون هذا المصلوب المعلق. الممتلئ جسمه جراحات:
سيروا اينما شئتم. وطوفوا اي مكان اردتم. فامامه اخيراً نلتزم ان نحضر ونلتقي معه
ضرورة* وسوف تاتي تلك الساعة التي نكون فيها مضطربين بالمرض وقد تركنا
الاطباء لقطعهم الرجاء من شفائنا. ولا يبقى معنا شيء من هذه الحياة الدنيا سوى
التأسف والحسرات العظيمة على اننا تصرفنا فيها باطلاً في ما مضى* وحينئذ من
من الأصدقاء يفتقدنا لكي يعزينا في ذلك الضيق الأخير* وان جاء واحد. فاننا
يحي* لأنه يرجو ان تكتبوا اسمه في كتاب الوصية لا غير. لكون رائحة البيت المفعم
نتناً من كثرة اختلاف الادوية وسهك عرق جسمنا المنتهك من المرض ونتانة
انفاسنا المنبعثة من فساد الجوف تبعد عنا كل انسان. وهيهات ان تدع راهباً
من ذوي الغيرة العظيمة ان يلدنو من فراشنا* فلا يبقى عندنا حينئذ سوى المصلوب
الذي يكون في يدنا فقط. وهو وحده جلت مراحته لا يستكره من ان نلسه ونحنضه
ونقبله في احوالنا تلك الكريهة المستقبحة* ولكن يا ليت شعري ماذا يحل بنا ان
كان ضميرنا حينئذ يلدغنا ويشكونا باننا قد استهنا حتى ذلك الحين بقيمة هذا
المصلوب الالهي* اللهم ما اكثر ما تعظم احزاننا في تلك الساعة. وما اوفر ما
تشتد حسراتنا. وما اسخن العبرات التي تدرها عيوننا. وما اعظم الخيب الذي
يستحوذ علينا* لعلمي ان مشاهدتنا انفسنا مهين قد تركنا وابتعد عنا كل احد
ومعرفتنا اليقينية وقتئذ باننا لم يعد لنا ايضاً رجاء في احد سوى الله تعالى وحده.
وانه ليس تعزية الا فيه واننا لا يوجد خير في غيره. نلتزمنا ان نخاطبه بتدليل
عظيم معترفين باننا قد اغضبناه لنرضي البشر ونعمل بحسب هواهم. فنلتزم ايضاً
ان نطلب منه ان يمد حياتنا في الاقل بسنة واحدة فقط لنعرف الجميع اننا
عدنا عن الأصدقاء الارضيين ولم نعد نبالي بهم ايضاً* وما اكثر المقاصد الصالحة
التي نقصدتها حينئذ. وما اجل النذورات التي ننذرنا لننال من الله تعالى مطلوبنا
هذا* ولكن ماذا يفيدنا هذا كله. وقد باغنا الى النسمة الاخيرة من حياتنا

ووجب بان نموت * فافتكروا اذا ايها السامعون بكم من المرارة والمخجل وبكم من
 الانتباض والتألم تتفردس وتشد في هذا المصلوب الذي اهاناه واحقرناه * ثم لا
 سمح الله تعالى بان تقوى علينا تجربة العدو في قطع الرجاء ويلقينا بعد ذلك في
 الهلاك الابدي * فما الذي ينبغي لنا ان نفعله لننجو متجردين من هذه المخاطر المرعبة :
 انه ليس لنا الا ان نعزم من الآن عزماً ثابتاً ان نجعل الله تعالى وحده صديقنا
 الاعظم . ولا نطلب مودة احد آخر سواه * وليكن اقرباؤنا عزيزين لدينا ولكن
 اقل من الله . ونحبهم ورفقاءنا واصدقائنا لكن بعد الله . ولنكر من اكابرنا ونعمل
 بمشيئتهم ولكن ليس باسوة الله . ولا نستعين من ان نقول امام الدين يطلبون منا ان
 نفضلهم على الله « اهي عليك توكلت . فلا اخزي » (مزمور ٢٤ : ٢) * ولكن من ذا
 الذي يغتاظ منا اذا اخرنا محبته على محبة من خلقنا وانقذنا وسيشركنا في سعاده
 الابدية * واذا اتفق ان يوجد من هو هكذا . فيجب علينا اصلاً بان نتركه ونستهين
 به . لانه غير اهل لنوده ونعاشره . لكونه يظهر على نفسه انه اثم منافق . اجارنا الله
 تعالى من صديق هذا شانه . آمين *

الخطبة الثالثة

تضمن ايراد حجج واسباب بشرية واهلية لاقتناع من يابي ان يغفر لعدوه
والا فيسيء الى نفسه بعدم غفرانه له اكثر مما يسيء الى عدوه

القسم الاول

«واما انا فاقول لكم: احبوا اعداءكم» (متى ٥: ٤٤) *

لقد تكلم حسنا القديس غريغوريوس الحبر الاعظم. وبدقة عقل ذكي قال
مفسرا ان يسوع المسيح ربنا دعا الصيادين الى وظيفة الرسالة حينما «كانا على
شاطئ بحر الجليل يلتقيان شبكا في البحر» (متى ٤: ١٨ ومرقس ١: ١٦) * ولم يقل كانوا
يجذبونها بعد الصيد. ليدل بذلك على انه ليس المطلوب من الواعظ الانجيلي
ان يكون قد ربح الانفس ويردها. بل يكون قد جاهد الجهاد الضروري والمفيد لهذه
الغاية الجليلة * فينبغي له ان يلقي من على المنبر شبك الكلمة الالهية. غير مبال
بالتعيب المديد والعرق المتصبب من جبهته * واذا ما ابصر الخطاة يجيدون عن
الاشراك نظير اخبث السمك. ويكرهون تجرع الطعم. فلا يجوز له ان يحزن كثيرا
ايضا. بل ليذكر ان كل احد ينال في اليوم الاخير الثواب المساوي لتعبه لا لفائدة
تعبه حسب نص الرسول الالهي القائل « وكل واحد سيأخذ اجرته على قدر تعبته »
(اقور ٣: ١) * قال على قدر تعبته ولم يقل على قدر نفعه وثمرته: وعلى الحقيقة اولا
ذلك. لما كنت حسب ظني ايها السامعون ارتضي بوجه من الوجوه ان اظهر
نفسى في هذا اليوم على هذا المنبر. بل كنت افر نظير يونان عن وجه الرب

آيساً لخوفي ان يضحي كلاي فارغاً عند السامعين . بل ان يستمروا ايضاً على عنادهم
 وقساوتهم ثابتن * ولعمري ان لي سبباً قوياً لاخاف هذا الخوف . وهو أنني قد اتاني
 الامر من الرب يسوع في فصل الانجيل الذي تلي عليكم صباحاً بان اوصيكم باسمه
 ان تصالحوا عدوكم . وتغفروا له كل ما اساء به اليكم . وتركوا له كل اهانة اهانكم بها .
 لأنه قال « احبوا اعداءكم » * وعساي ان اتق بكم انكم ستفعلون ذلك بسرعة وسهولة .
 ولكن الاشبه للحق هو أنني ولو تمزقت صراخاً وانحل جسدي عرقاً . لا انال الفائدة
 المطلوبة . لأنه يلزمني اليوم ان اتعارك واتحارب مع شهوة شرسة ولعينة جداً لا تعتبر
 قياسات ولا تقبل مشورات ولا تسلم لطلبات . بل هي بمنزلة افعون هائج يابي ان
 يسمع . ويظل مغضباً لئلا يكف عن اللدغ راحماً * ومن ثم لست اشك في اني
 سأخرج من المعركة ومহারبة هذه الشهوة الشرسة القوية غير ظافر ولا مشرف * ولكن
 مع ذلك كله لا اظن ان اشخاصاً ذوي فطنة عظيمة وحكمة بليغة مثلكم يسبحون
 لشهوة مخددة وثائرة خلافاً لميزان العقل الرزين ان تجنذبهم الى ان يستهينوا بمن
 يخاطبهم لفائدتهم لا لفائدة غيرهم * وماذا تظنون بي . العلمك تظنون أنني ارتقيت الآن
 الى هذا المنبر لكي اجاهد مجدداً ومحامياً عن اعدائكم : حاشا وكلاً * فاننا لا يعنيني امرهم
 ولا اعلم من هم . ولم تتصل الي ايضاً منكم حتى الآن اهانة ما تحوجني الى ان اقوم بمقام
 الشفيع او الوكيل عن الذين اساءوا اليكم * على ان اولئك هم اناس اشرار مقترفون
 لا يستحقون سوى ان يتأدبوا عياناً تجاه العامة . حيث انهم تجاسروا على ان يشتموا
 او يضرروا اشخاصاً نبلاء حسيبين ومشرفين بحسن الاخلاق مثلكم كما اظنكم . ولذا كم
 السبب لو شئنا ان نعتبر فضلهم . لكنني انا اول من يهيج غيظكم عليهم ويدعو لهم
 بالاسوء (لو كان ذلك جائزاً) اكثر جداً مما تستطيعون انتم ان تجلبوها عليهم * غير
 ان الذي يعنيني جداً انما هو خيركم ايها السامعون المكرمون . وهو الذي احوجني اليوم
 ان اقدم عليكم لانعب واصرخ واجاهد . لاني اري واضحاً انكم ستجلبون لانفسكم بلايا
 كثيرة غير مدركة اذا رتم ان تستفرخوا في اعدائكم او غرما بكم فورة شهوة غير

مرتبة * وها انا استجدكم سائلاً بان لا تصنعوا معي اليوم سوى هذا الاكرام فقط . وهو ان تستمعوا بصبر جميل ما اخاطبكم به . ثم بعد ذلك سيبيلكم ان تخناروا بها حكمت به ضمائرکم *

انني لعالم جيداً ايها السامعون ان الشهوة تظلم العقل نظير ما يظلم الليل المقيم البصر . وكثيراً ما لا تدعه ان يميز الخير من الشر . ومحسب هذا المعنى كان داود يقول « ذبلت بالضجر عيني » (مز ٨ : ٦) . ومثله ايوب « كذت من الحزن عيني (ايوب ١٧ : ٧) * واما الرسول فبابلغ من ذلك قال « لا تغرب الشمس على غضبكم » (افسس ٤ : ٢٦) * يعني بهذا (حسباً فسر القديس توما الاكوييني ان لا ندع شمس الصواب ان تغيب على غضبنا . وهذا هونص تفسيره . قال الرسول « لا تغرب الشمس على غضبكم . اي لا يظلم هدى العقل ونوره » * ولكن مع ذلك كله لو لاح منكم شعاع واحد من اشعة هذه الشمس الجميلة (اي هدى العقل ونوره) لكنتم تبصرون ان البلاء الذي تجلبونه على نفوسكم حينما تنتقمون من خصمكم هو اعظم بكثير من الخير الذي تصنعونه معه بترككم له زلتة . واعلموا متحققين انه وان نال عدوكم منكم الغفران . فلا يمكن ان يسيرج بسرعة وسهولة من نخس ضميره المزجج ومن تكدير نفسه التي من شأنها ان تسجس وتقلق راحة كل انسان اثم وشرير * فليفعل العدو ما شاء واحب . فانه لا بد له من ان يفي في هذه الحياة الدنيا او في الآخرة لسببكم بقصاص اشد جداً مما تستطيعون انتم ان تسيئوا به اليه * وبالعكس اذا عزتم انتم على ان تاخذوا منه النار . فما اكثر المشقات والمعاناة التي تدرككم * انه من المعلوم ان الغضب هو هوى منحرف يهوى الانسان في عيوب وبلايا متعددة اكثر من جميع الالهواء الذميمة والشهوات السيئة * ومن يعمل شيئاً بجرعة هذا الهوى . فلا يعمله بحكمة وافراز ابداً . لكن بنقص راي مذموم * ولا ريب في انه في تلك الحال اي في حين حدة السخط يستسهل صاحبه كل الصعوبات . ويعتد كل المخاطر امينة سليمة . ويعتبر ان كل الحوادث تكون موافقة لاربه . ولا يفكر في انه ربما سقط مغلوباً مهاناً من كان

يتفق بنفسه أنه سبضي ظافراً غالباً * فمن ثم قد شبه أرسطوطاليس الفيلسوف
 الغضب بالكلب * أما نظرتم الى الكلب كيف يفعل حينما يسمع قرع باب المنزل :
 أنه حالاً ينبج ويختفي غيظاً . ويجري مسرعاً بجراة عظيمة نحو الباب قاصداً الاقتحام
 على الطارق . غير متكر انليل هم الذين برز هاتجاً لملاقاتهم . ام كثيرون .
 أضعفاء ام اقوياء . أو مسلحون ام غير مسلحين * ولقد افنكاره هذا ربما يضطر ان
 يعود راجعاً الى الوراء منكس العنق . وربما ايضاً مشدوخ الرأس * فلو صبر قليلاً
 وترصد قبلاً ليرى من هو الذي يقرع الباب . لما اصابه هذا العار . فانه عند
 ذلك اذا ما رأى ان القادم هو من جنسه يتقدم الى مصارعته بالنج ويقتحمه بالنهش .
 والأفلا * فعلى هذا النسق يفعل لا محالة الانسان الغضوب . فانه نظير الكلب
 يتهباً حالاً الى اقتحام كل من يعارضه من دون ان يفحص اولاً فحماً دقيقاً ويعتبر
 كما يجب ما هو الخطر المتجه نحوه . ويوازن قوته مع قوة من هو قاصد * ومن هنا يتفق
 احياناً كثيرة ان يسقط متهوراً هو نفسه حينما يكون ذاهباً لي طرح غيره ويهوره . وعوضاً
 عن أنه ينتقم من الشتائم والاهانات القديمة يكتسب لنفسه عداها حقارات جديدة *
 ومن تراه يحقق لكم ايها السامعون أنه لا يكون حظكم انتم ايضاً نظير هذا الحظ المنحوس .
 لأنه وان افترضنا انكم قد بلغت اربكم واستاصلتم من العالم غريمكم . انعسى ان لا
 يبقى بعدكم آخرون ياخذون منكم ثاره * أنه لا يتفق الا نادراً جداً ان ينتهي
 الانتقام الى خير وراحة . حيث انكم اذا افنيتم خصمكم واعدمتموه . فانكم بذلك
 تهيجون عليكم عيلته وتحركون اصدقاءه والمنتسبين اليه . وربما من واحد سقط
 مينا ينهض مائة شخص حي * فما اكثر الذين يندمون على الانتقام واخذ النار .
 وما اكثر ايضاً الذين يحزنون من ظفرهم باعدائهم وانتصارهم عليهم * انهم ظنوا
 انهم يحصلون بالظفر على الطمانينة والامان . الا انهم بعد ذلك قد عاينوا انهم
 ما فعلوا شيئاً من النجاح سوى انهم من الآفة الكثيرة الرووس قطعوا راساً واحداً
 فقط . لان المخاطر تتوافر عليهم وتعظم يوماً فيوماً * فما انكد عيشتهم التي يجب ان

يعيشوها . ومن حيث أنهم رفضوا الصلح والسلام مع انسان واحد . فوجب عليهم ان يخسروا بسببه الاصدقاء والخلائق على أنهم يضطرون ان يلازموا الاعتزال والميلان عن جميع الاشخاص المنتسبين اليه . ثم ينبغي ان يعدوا الصفاء والانسراح لانهم يلتزمون بان يتجنبوا المجالسات والاماكن التي هو يدخلها . بل يجب ايضا ان يفقدوا حرمتهم لكونهم لا يستطيعون حينئذ ان يذهبوا بامان الى حيثما احبوا . ولكن يلتزمون بان يرسلوا اولاً ويستقصوا عن وجود هناك وعن هو عند ان ياتي . فكل وجه جديد يطرحهم في المخايلة والشك . وكل سلاح قريب برعبهم ويهزمهم : ان اكلوا او شربوا . يخشون لعل احداً التي سا سرا في الآنية . واذا مشوا يخافون لعل كيناً دبر عليهم في الطريق . حتى اذا رقدوا . يخشون من ان يكون احد قد دبر خيانة لاذاهم تحت الفراش . وما عدا ذلك كله يجب عليهم ان ينفقوا جزءاً باهظاً من ثروتهم في اعطاء الجرايات للندام ليقوموا بحراستهم . وفي ارشاء الاحبة ليخبروهم بكل ما يسمعون وبرونه . وفي قيام جنود شجعان ليجهوا متى احوجت الضرورة للضرب . اوليس أننا كثيراً ما نرى بيوتاً تحرب من العداوة للاسباب المذكورة . واملأنا وأرزافنا تبدد . وطوائف شريفة تدمر . وعشائر وجماعات جليلة تفتى . وبعد ذلك كله كيف يمكن انكم تلتذون فرحين ببلوغ رغبة تعيسة مكربة بهذا المقدار المقدم ذكره . والحال ان الشر والتعب الواردين عليكم منها اكيدان اكثر جداً من الخير الممكن ان تنالوه منها . فاجيبوني وقولوا : ما الذي ارتابتوه الآن . فانا اظن انكم قد صدقتم واعتقدتم ان جل مطالوبي بهذه العظة ليس ان اجاهد عن اعدائكم وخصمائكم . ولا ان احتج عنهم . بل ان اجاهد عن اقربائكم الخاصين وخلانكم الموموقين . بل عز نفوسكم خاصة ايها السامعون . غير أنني اظن انه ان اردتم ان تتججوا عن انفسكم . فليستم يندرون ان تجيبوني الا بشي . واحد من هذين الشئيين الآتي ذكرها . اي إما بقولكم بانكم ترتضون ان تخسروا كل شي . لكم على ان تنفقوا من غرمائكم . وإما بقولكم انه ليس لكم شي لا تخسرونه . فان قلتم بانكم راضون

ان تخسروا كل شيء لكم على ان تنتقموا من غرمانكم لتسكنوا حدة غضبكم . فعند ذلك اجيبكم قائلاً : انكم بهذا تظهرون على انفسكم ان شمس الهدى غابت عنكم . ومن ثم اتاؤه قائلاً : يا لتفاقم هذه الحماقة ما اغزرها . ويا لعظمة هذا الجنون والهديان ما اشنعها * حقاً ان ذلك هو عين الجنون الذي اعترى قائد القوم الذي كان يقال له دروسوس المخبر عنه بلينيوس المؤرخ * فهذا الغبي كان له خصم شديد البأس جداً . اسمه قونتيوس . قد عجز سكيبيون عن الانتقام منه والظفر به * فلما ابصر دروسوس انه قد انسدت عليه كل الابواب ليسيء اليه او يخنض شأنه بنوع من الانواع (اسمعوا عظمة الجنون الذي سقط فيه) فشرب من عين منتنة دماً مسروماً تكرهه الطبيعة . وهكذا سم نفسه تعدياً واماتها . وذلك رجاء ان يتهم فيما بعد خصمه بقتله ويعاقب في المحكمة * وهنا قال القديس يوحنا الذهبي الفم : اليس يشبه هذا الصنيع صنيع من هو اشد جنوناً . بل هو صنيع المتبهك بل صنيع من قد قطع رجاءه اصلاً « فاي جنون اعظم من هذا يا ايها الانسان الغبي . وهو ان يعاقب نفسك اذ تظن انك تنتقم من غيرك » * واما اهل القول الآخر اعني القائلين بانهم اذا انتقموا من غريمهم او عدوهم . فليس لهم شيء يخسرونه بسببه لانهم عايشون وحدهم ومعتوقون من كل شيء . ليس لهم اقارب يخشون من ان يوخدوا بذنبهم . ولا لهم ارزاق . ولا املاك يبالون منها . ولا عيلة يهتمون بها . ومن ثم فاذا مات غريمهم او دمر . فلا يبقى في العالم احد آخر يخافون منه ويتوقون . فمثل هؤلاء اجيبهم ايضاً قائلاً : انكم اذ تكلمتم هكذا . احوجتموني الى ان احكم بان شمس الهدى قد غابت عنكم كما ظننت انفا . بل اظلمت فيكم . ودخلتم في ليل دامس مدلم ليس فيه بيع نور قطعاً « افلا تخافوني يقول الرب » (ارميا ٥ : ٢٢) * فان كان لا يبقى في العالم احد تخافونه متخدرين منه . انما يبقى الله عز شأنه الالهي . افلا تخافونه جلت قدرته * ولا جرم في انكم لو فهمتم وادركتم جيداً حقيقة الاثم العظيم الذي به تسخطون الله تعالى عند اخذكم ثاركم من تلقاء انفسكم من غريمكم ولو كان مفترياً عليكم وظالمكم

لكتم حتماً تستصعبون ان تطلقوا العنان لشهوة الغضب السيئة المهلكة *
ولنوردن هنا مثلاً تستنجون منه كم في عظمة الاهانة التي تهبون بها الله
عز اسمه باخذكم تارككم من عدوكم بساطان انفسكم كما تقدمنا فقلنا * فلنفرض ان
ملكاً قديراً وحليماً ايضاً احب واحداً من عبيدك جداً. فخطبته ذات يوم لكي
يظهر له حبه قائلاً: اني اريد يا صاح ان اقيم معك عهداً. ولاجل ذلك اسمع ما
اقوله لك: قد قصدت ان ارسل انادي في كل ملاكي بهذا الامر. وهو ان كل
من يجاسر ويستهن بشخصك. يكون اثمه هذا محسوباً قد ارتكب في حق الملك
نفسه وكأنه استهان بي لا بك. وبالتالي يكون قصاصه نظير قصاص من يحنقر
شخص الملك ويهينه * غير اني اريد منك شرطاً واحداً فقط لكي يتم هذا العهد
بيني وبينك. وهو هذا: اني اريد ان تعدل لي عن الحق الذي لك في الانتقام من ذلك
الغريم. لكوني احسبته غريمي وتجعل السيئة التي اتصت لك منه متصلة بي.
والدلك انا اريد ان انتقم منه عنك * قولوا لي: لو تكلم ملك هكذا مع عبد حنقر
ذليل أما كان قد شرفه بهذا ورفعته الى كرامة جليلة * وان افترضنا ان هذا العبد
رذل هذا الشرط كأنه ثقيل وعسير عليه. وابي من ان يعدل لمولاه عن حقه لينتصر
له بسيفه الملكي. أفما يحسب عبداً جاهلاً مجنوناً عديم الرشد والهدى * ومن جرى
فعله هذا اتظنون ان الملك مها كان حليماً راوفاً ينظر اليه ثانية بوجهه باش وبيوده.
ويعتني بشخصه. وينعم عليه كما كان يعامله سابقاً: كلاً. بل بعكس ذلك يطرده من
خدمته. لكونه غير اهل لها. وبصير هو غريمه وضده قبل الجميع. ويعدل عن حمايته
مغضباً * فهذا عينه ما نحن في صدره: لان الله تعالى قد اقر علانية بأنه يحسب
كل اهانة تحدث لنا من غيرنا كأنها واحلة بذاته القدوسه. وهذا محقق تحقياً
تاماً. وقد شهد به من جملة العلماء والاباء القديسين سليمان الجليل في السفر الثامن
من الامثال قائلاً «ان الله الذي لا مثيل له في الحكم والرافة اشترك مع عبده في
الكرامة والحقارة. ولهذا لا يظن من يسيء الى عبد الله أنه يسيء الى انسان فقط.

لكن الى الله ايضاً» * فما من احدٍ يهيننا ويسخطنا الا ويهين الله جل ذكره ايضاً
 ويسخطه . لانه لا يوجد خطية تضاد القريب من دون ان تكون تضاده تعالى ايضاً
 على حدٍ سوى . وذلك حسب قول من هو اعز القائلين في انجيله المقدس «من
 اهانكم . اهاني» (لوقا ١٠ : ١٦) * وان كان ذلك كذلك . فهل كان يمكنه ان يبين
 لنا حبه باكثر من هذا * واما نظراً الى الجهة الاخرى فنقول : كما انه شهد واقر
 علانية ان اهانتنا تكون اهانتة . فمن ثم اراد ان تحفظ له وحده النعمة والانتصار
 بقوله «ان لي النعمة . وانا اجازي» (عبرانيين ١٠ : ٢٠) فما يكون له سبب شرعي ليسخط
 علينا حينما لا نرتضي بهذه السنة . وهل يكون عز اسمه قد حملنا بها نيراً ثقيلاً . ام لعلة
 انزل بنا ضراً او ظمناً * فان كنا لا نرتضي جميعاً بهذه السنة المقدسة الموافقة لخيرنا .
 فلعل ظاناً يظن في الله تعالى امراً من هذين الامرين . وهما إما انه تبارك وتعالى عاجز
 عن حمايتنا والانتقام عنا . وإما انه لا يعنيه عارنا واهانتنا ولا يشعر بها * ولكن من
 ذا الذي يعتبر به هذا الجنون والمذيان الفظيع حتى يلقى في هذا الاثم الجسيم وهو
 ان يظن في الله تعالى هكذا * اسالوا ما رويحنا في الذهب فتسمعه يجيبكم قائلاً :
 ان الله سبحانه مستعد طبعاً ليستشعر بالاهانات التي تحدث لنا استعداداً عظيماً
 حتى انه يهتم بان ينتقم عنها اي عن الاهانات الواصلة اليها اكثر من اهتمامه بان
 ينتقم عن التي تتصل اليه نفسه . ولنوردن كلام القديس المقدم ذكره نفسه وهو
 محرر في مقالته الثالثة والعشرين من تفسيره سفر الخليفة حيث يقول «ان الله تعالى
 من عادته ذاتاً وغالباً ان يفتح غافراً عن الخطايا التي بها الناس يذنبون اليه .
 ولكنه يفتش على الخطايا التي بها يذنب الى القريب وينقب عنها بضبط وتدقق
 وهماكم البينة لذلك : ورد في الكتاب المقدس عن قايين بكر اولاد آدم انه ارتكب
 اثمين عظيمين جداً . احدهما في حق الله عز شانه خاصة حيث قرب لعظته الالهية
 اخس القرايين . وثانيها في حق القريب حيث قتل اخاه حسداً * اما في تاديبه آياه
 فمن لا يحكم انه كان الاوجب ان يغتاض الله تعالى اشد الغيظ من الاثم الاول الذي

فعله قايين لكونه صدر في حقه تقدس اسمه على خط مستقيم. وكان أول اثم صدر في العالم مخالفاً للديانة * ومن ثم كانه كان مستوجبا قصاصا فريداً غريباً يذكر الى الاجيال الآتية عبرة للبشر ليؤدوا الاحترام الواجب لعبادة الله تعالى شانه * ومع ذلك كله قال الذهبي في حقه: اعنبروا ان الله تعالى لم يظهر انه استشعر بخط لسبب ما ارتكبه قايين في حقه الا قليلاً. ولم يفعل معه شيئاً سوى انه قال له قولاً فقط: اخطأت. ولم يعاقبه عن ذنبه بمقام قاضي. لكن نصحه بمنزلة صديق * ولكن اذ تمرد هذا الشقي المنكود الحظ على هايل وقتله. فحينئذ لم يستطع الله ان يمسك سخطه ويخفيه في قلبه الالهي. بل لعنه بنه الاقدس. وطرده من امام وجهه. وقضى عليه بالهرب والجولان في البراري بمنزلة وحش. وادبه بارتعاش القاه في بدنه. ولم يدعه مدة حياته كلها ان يستريح من قلق وسجس باطن لاليلاً ولا نهاراً * فكيف يسوغ لكم ان تظنوا في الله تعالى انه لا يعنيه عاركم واهانتكم بعد ان عرفتم انه عز اسمه قد تدقق في قصاص الائم الذي صدر من الانسان على قريبه. لاني قصاص الائم الذي صدر من الانسان احتقاراً محضاً لاهويته الجليلة * وان كان ذلك كذلك. فلماذا اذا لا تسلون بيده كل دعوى تدعون بها: ومع كونكم عبيداً ذليلين حقيرين. ايليق بكم ان تخلصوا لانفسكم سلطان المولى الاعظم. اليس ذلك تكبراً وعصياناً على محكمته الالهية وانكار حمايته القديرة * ومن ثم اقول لكم مع ترتليانوس «اي اكرام نسدي لله اذا نسبنا لانفسنا سلطة الحماية» * وان كنتم تتصرفون من تلقاء نفوسكم بوظيفة القضاء في الامانات التي تصيبكم وانتم تقيمون عنها الفحص وتحكمون برايكم فيها لانفسكم. ثم تجرون حكم شرعكم بالفعل بايديكم. فما هو الذي تبوقونه لله تعالى من العمل غير ان يجلس بطالاً ويرصد خصامكم وشرعكم عوضاً عن ان يكون القاضي الاعظم الخالي من شريك * وان كان هذا صنيعكم. فلا ينبغي لنا من الآن فصاعداً ان نعب ونكرر كل يوم تلاوة الزبور قائلين مع المرتل «يا الله القات يا رب. يا الله النقات اشرق» (مزموور ٩٣: ١) * لانكم انتم لستم تريدون ان تعرفوه بهذه الصفة اي بانه الاله الانتقام. حيث

انكم لا تدعون ان يدين ويقضي على خاطره واخياره . بل تستلبون منه السيف لتضربوا به من اردتم وكيفما اردتم * اماكم يحق له جلت عزته ان يسخط ويحتمي غيظاً من قبل افتراءكم هذا المقتوت على حقه الالهي الشرعي : اتخلصون منه تعالى سلطته . ولكن من ذا لا يعلم ان هذه صفة يغار عليها محامياً عنها على الدوام كل حاكم ومولى * فهذا هو الذي ترجونه مما تريدون ان تنتصروا لانفسكم * ولكن اذا امتنعتم عن ذلك فان الله سبحانه يكون محامياً عنكم . وهو ينتصر منتقماً من عدوكم * والا فيكون الامر بالخلاف . اي انه تعالى يحامي عن خصيكم وينتقم له منكم . فاخناروا ما تستحبونه من هذين الامرين . اي ارتضوا إما ان يكون الله معكم على اعدائكم . وإما ان يكون عليكم مع اعدائكم * فافتكروا جيداً . لانه ليس لكم من هذا المطلب مهرب ولا مناص . لكن يجب ولو كرهما ان تخناروا احد هذين الامرين المذكورين * وهل اتم عديمي الحكمة والصواب الى الغاية حتى انكم تخشون من ان يكون لكم احد الناس عدواً ولاجل ذلك تجدون مجتهدين على دماره ووثاره . ولا تخافون من ان يكون لكم الله القادر على كل شيء عدواً فلا تتوقون سخطه عليكم * اسمعوا ما قاله هو تعالى نفسه على فم اشعياء النبي « من انت لتخاف انساناً مائتاً . ونسيت الرب صانعك » (اشعياء ٥١ : ١٢) *

ولكن لعلكم تحججون قائلين : انا ان لم نأخذ ثارنا بايدينا . يثلم شاننا . ونفقد كرامتنا . ولما كنا نحن الذين اصابنا الهوان والافك من اخصامنا . فيجب ان نهينه نحن ونضعفه . والا فنحسب اضعف منه اذا رفعنا حقنا على الانتقام الى يد قوية قادرة بهذا المقدار اي يد الله الكاملة العظيمة القدرة * فاجيبكم سائلاً : هذه هي الحججة التي تحججون بها * نعم ان هذه حجة قوية مقنعة . ولست انكر ذلك . ومن ثم يجب علي قبلاً ان افرح معكم واهتكم على ان هذا هو اول فعل من افعال العار والفضيحة تغز انفسكم من ان يلتحق بكم . كأن مواظبة رجل كريم ولو مزوجاً وتردده الى المواخير النجسة . والحديث السفیه . وإمساكه اجرة الفاعل عدة اشهر او سنين .

وساوكة بالكذب والافك مع البشر. ومحاباته مع الناس ولو كانوا ادنى منه نسباً
لاجل الطمع. بل اتهم الأبرياء حسداً وبغضاً. ومنع صدور الخير بالمكر والحيلة.
ليست هذه الأشياء عاراً ولا هدم الشان والكرامة * ولكن يا للعجب من كونكم
ترتكبون كثيراً من الجرائر الفاضحة المذكورة من غير خوف على ضرر نفوسكم. ومع هذا
تخافون من ان تفعلوا فعلاً واحداً فقط من العار لاجل خير انفسكم اية الصبح
عن خصمكم * ولكن ما بالي اقول فعلاً واحداً من العار. ومن اين تستنجون انتم
ان الصبح عن خصمكم هو عار يهدم شانكم. والحال ان الله تعالى دعاه بخلاف
ذلك في الكتاب المقدس. اي سماه شرفاً لكم ومجداً وافراً. وذلك بقوله « شرف
الرجل ان يرجع عن الخصومة » * (امثال ٢٠: ٢) * ام لعلمكم تستنجون ذلك من
سنة اهل الدنيا التي تنادي قائله: ان مصالحة العدو والصبح عنه عار للانسان
وإتلاف لجاهه * ولكن اذا راينا اشخاصاً غيرنا اشرف منا جداً قد فعلوا هذا الفعل
الحميد اي الصبح عن اخصامهم من دون ان يقل شانهم ويهدم كرامتهم حتى عند اهل
الدنيا. فهل يسوغ لنا ان نمتنع عن فعله نحن * ماذا تقولون. وبأي جواب تجيبون *
لأنه بحسب زعمكم ينبغي ان يحتسب قليلي الشان ومهدوي الكرامة رجال عظام هم من
اعظم القديسين. اعني بهم باسيليوس والنازينزي واثناسيوس وفم الذهب. لكنهم
تركوا لنا امثالاً جليلاً في المغفرة للاعداء * لعلمي ان جيرد اسقف كنوديا قد كان
حليماً غاية ما يكون حتى أنه في ذات يوم اذ كان نفر من العامة يرشقونه بالحجارة.
كان هو يقابلهم بالبركات والدعاء. وليت شعري. هل هدم بذلك شانهم * ومثله
القديس امبروسيوس اسقف مديولان قد كان راوفاً رحيماً رقيق القلب. حتى أنه
بقي زماناً مديداً يقوم بأود رجل خائن كان يدبر عليه فخاخاً ليمته بغضاً وعدواناً.
فهل حسب بفعله هذا فزعةً وجباناً * ومثلها افاق اسقف امد كان متضعباً ووديعاً
جداً حتى أنه لكي يعول قوماً من المستهزئين به. التزم لتفاقم فاتته ان يسعى بكسر
اواني القديس وبيعها: فهل تلف صيته بذلك واضحى عند الناس معيرة * فاذا

دعوتهم هؤلاء قليلي الشأن والقيمة. فيكون أيضاً عندكم قليل الشأن كارلس الكبير
 ملك اسبانيا والنمسا معاً. لأن هذا الملك المعظم لما لطمه على خده يوماً بغتة أحد
 الأشخاص. فبدلاً من ان يغضب على لاطمه ويستقم منه. اجابه بجواب اللين وبراس
 منحني على مثال سيده حيث اجاب العبد الذي لطمه في بيت رئيس كهنة اليهود *
 ومثله يكون بحسب زعمكم قليلي الشأن ايضاً لاون وزكريا والكسندر الاحبار المعظمون
 الذين احدهم صان حياة مضطهده. والآخر آتى مخاصميه مالا وفضة وافرق.
 والثالث رقى مبعضيه الى مناصب عالية * فاذا تقولون: العلى هؤلاء الأشخاص كلهم
 قد شانوا شانهم وقتلوا جاههم لانهم ردلوا سنة الدنيا الباطلة واطاعوا ناموس المسيح
 وتعليمة المقدس * ولكن ما انا اجعلكم انتم ان تحكموا وتدعنوا لي بالحق * هبوا ان
 هؤلاء الرجال الجليلين المقدم ذكرهم ابوا ان يغفروا لاعدائهم ويحسنوا اليهم. وعرضاً
 عن المغفرة اساءوا اليهم ودمروهم وظفروا بهم. بل اماتوهم ايضاً بايديهم. فلو فعلوا
 ذلك. هل كانوا قد حازوا بذلك شرفاً اوفر ومجداً اعظم * انطقوا بالحق لكونكم
 التزمتم ان تحكموا هنا بحسب هدى الضمير المستقيم واخبروني: من اي فعل تحتسبونهم
 قد تجدوا مجداً اعظم. امن اشتهارهم لكم ايديهم قد تالطخت من دم اعدائهم كما يفعل
 الجاهليون سكان الفيافي. ام من اظهارهم لكم قلوبهم نقية بريّة من البغض والحقد *
 ولكن انا خائف من ان تزيغوا عن الحق بزعمكم ان الأشخاص المقدم ذكرهم كانوا
 جميعاً من آل الافليس اي قسيسين. ومن ثم لم تحاربهم شهوة العريض وحفظ الجاه
 العالمي نظير ما تحاربكم. لانه لا ينبغي لهم ان يطلبوا ذلك نظير العلمانيين * فاقول لكم:
 انه ليكني ان ادحض زعمكم هذا وابين لكم ان حجتكم هذه باطلة من هذا الوجه
 نفسه. وهو ان اهل الاكليروس هم اناس ايضاً مثلكم. ومحبون شانهم ويعتبرونه. بل
 يلتزمون ان يحفظوه سالماً بجميع الطرائق المدوحة * ولكن لندع هذا الوجه
 جانباً. ولنورد على مسامعكم اخبار العلمانيين الذين منهم ونقسلاوس النبيل امير
 بوهيميا * فهذا كان علمانياً. وكان اخوه بولسلاوس رجلاً شريراً يبغضه ويضطهده

حتى الموت . ومع انّ ونقسلاوس كان قادراً على ان يظفر به ويستقم منه لكونه حاكماً
واميراً . اجتهد كل الجهد في ان يربحه بالبشاشة والكرامة . لا ان يكفه ويردّه عنه
بالسجن والعذاب * غير ان جهده هذا انجى عبثاً وباطلاً . لانه لما كان في احدى
الليالي راجعاً وحده من زيارة الكنيسة كحسب عادته متسربلاً بخلفان حقيرة بهيئة
سائح تائب . لا باثواب جليلة تليق بالحكام وذوي المناصب . اذا ببولسلاوس اخيه
خرج من الكمين . وهجم عليه بسيف مجرد وضربه به . ففتحنى حالاً ونقسلاوس بجثته
ورشاقة . فلم تصبه الضربة * واذ كان ذا شجاعة فائقة وقوة قلب نادرة فمع
انه وقتئذ كان خالياً من كل سلاح . انثنى راجعاً عليه بغتة وصرخ به وصرعه الى
الارض وربض فوقه . ثم اخنطف منه السيف بقوة شديدة جداً . فصار المنافق
المفتري تحت قدمي البري * فما كان ونقسلاوس جديراً ان يفعل بالسيف الذي
بيده . اشيروا عليه انتم ايها السامعون وخاطبوه بما يجب ان يفعل ليصون عرضه
ولا يهدم شأنه : ينبغي له ان يضرب به عدوه ويفتك به . ام يجدر به ان يغفر له
ويبقية في الحياة * ولكن اسمعوا ما قد فعل معه : انه قال حينئذ لايه الخائن الماكر :
انهض يا اخي وقف مستويًا . ولا تفرع مني . لاني وان كنت قد اسأت الي وعزمت على
قتلي مكرًا . اريد منك هذا فقط . وهوان تذكر انه خير للانسان ان يموت موت
هايل ولا يعيش عيشة قايين . واذا كنت مع ذلك تريد ان تعيش كمثل قايين فيها
هوذا ارد لك السيف فافرغ بي غضبك وسخطك يا ايها المنكود الحظ واشبع واسكر
من الدم المتعطش انت الى اهراقه . قال هذا وطرح امامه السيف وانصرف عنه ماشياً
بخطوات هادئة ذات هيبة من دون خوف . وترك اخاه في مكانه صامتاً من الحياة
وجامداً من الخوف * فما راىكم الآن فيما فعله ونقسلاوس هذا البطل الصديد
نفساً وجسماً . ولكن هات نحسب انه فعل بخلاف ما فعل ونقول انه حينما كان
غريمه منصرعاً تحت اقدامه لو اوجح حالاً السيف في قلبه او قطع به عنقه او
على القليل ارسل وقتئذ واتى بفرقة من جنوده لياخذوه مكثفاً وسجنه في حصن

منيع . هل كان حاز مجداً وثناً اعظم مما حازه برده له السيف * نعم انني اعرف بان رافته هذه العظيمة باخيه قصرت اجله فيما بعد لان اخاه ذاك الحائن والاثيم مع انه ابان في ذاك المحل ان قلبه لان وتأسف على ما كان نوى عليه من الشر . عاد ليس بعد زمن كثير الى نفاقه القديم واكمل بالفعل قساوته المريعة في اخيه البري * لكن مع هذا كله العل ونقسلاوس قلت قيمته عند البشر او هدم شأنه من كونه غير لعدوه في حال خطر هكذا واضح على حيانه مع انه كان يستطيع ان يتقم منه عدلاً وقسطاً ويعيش بامان وراحة * فما هو رأيكم وما هو جوابكم . انني لا اخن انكم تصفون بوقاحة تبلغ بكم مبلغاً جسيماً حتى تقولوا انه لقد كان حصل على مجد اعظم بانتقامه من عدوه مما حصل عليه من الصغ عنه . ولكن مع ذلك كله اذا اردتم ان تعاندوا في رأيكم قائلين : انه على القليل بحسب ناموس العالم يعيب على مثل هؤلاء الاشخاص النبلاء المذكورين ان يخضعوا مسلمين لغرمائهم . فاجبتكم قائللاً : فما هو اذا الشرف العظيم الذي يمكن ان يساوي العار الحسن المذكور الذي تقولون انتم انه يلحق بالاشخاص الاكابر النبلاء من غفرانهم لاعدائهم . فهل يوجد من يستحي من ان يتلخ بعارهم هذا . فان كان يوجد فليستح من ذلك . وانني ادعه ان يشترك بمجد ادوني بازق وابيالك ورحبعام وغيرهم من الحكام والمتسلطين الذين اضحوا في العالم آية غريبة في القساوة . واما انا فاني راض بان اشترك بعار الاشخاص الذين ذكرتهم الذين هم مثال الحكم والرافة لانني عارف اخيراً « ان المتعظم في الناس رذالة قدام الله » (لوقا ١٦ : ١٥) فهذه الآية المعظمة من نطق بها يا ايها السامعون . العل الذي قالها احد العلماء المتأخرين . أم هي قول واحد من العلماء الماهرين الاقدمين . لا لعبري . بل انما هي قول المسيح رب المبروات . وان كان يوجد من لا يصدقني فليذهب ويقراً من الانجيل المقدس الاصحاح السادس عشر من بشارة لوقا فيجد ما قلته محرراً هكذا « لان المتعظم في الناس رذالة قدام الله » وبعد ذلك كله اما نقتنعون

بالحق ولا تفهمون ما هو عين الشرف الحقيقي . حتماً أنني لمنأسف على ضلال البشر الذين يجهلون مجدهم في الارتفاع على اعدائهم والفتك بهم وبتدميرهم ويجازون على ذلك بالهلاك الابدى . والحال ان الذي هو بحسب لغتهم الملتوية يدعونه مجداً وفخراً ليس هو قدام الله تعالى سوى رذالة وحقارة . هل « المتعظم في الناس رذالة قدام الله » نعم نعم « ان المتعظم في الناس رذالة قدام الله » واما انتم اذ قد احترتم لنفوسكم هذا المجد المهلك فاحفظوا به واحرزوه وانا اهبه لكم . اما انا فاريد ان اكون مهاناً ومهيباً مع تباع سيدي الحكيم . لانه ما احسن هذا الكلام الالهى المقول في امثال سليمان « تواضع الروح مع الودعاء خير من قسمة الغنائم مع المستكبرين » (امثال ١٦ : ١٩) *

ولكن مع هذا كله لست استطيع ان اسلم لكم كلياً بنبل هذا المجد الذي ترجونه وها انا اسالكم قائلاً : انظنن انكم بالغفران لاعدائكم تخسرون شانكم عند كثيرين من الناس المعروفين عنكم ولا تخسرونه ايضاً عند غيرهم كثيرين بالانتقام . لعمرى انكم ضالون اذا ظننتم ذلك * لانكم اذا انتقمتم من اعدائكم فاصدق ان اولئك الاشخاص الاوفر حكمة يقولون عنكم انكم اناس ذوو جرأة وشجاعة . غير انهم لا يفهمون عند ذلك بل يقولون ايضاً انكم مع شجاعتم ذك فانتم اناس غضوبون وحشيوا الطباع سفاكوا الدما . ثم يقولون في ذمهم لكم انكم في غيظكم تماثلون الطبع النسائي السريع الخلق . لاشيم الرجال المهدي الاخلاق والممتلكين هدو العقل وورصاته . ولذلك يستهينون بكم على انكم مع كل التاديبات التي قدمت لكم وجميع الاسباب التي عرضت عليكم للمصالحة مع اعدائكم لم تقدرنا ان تنتكوا بشهوة الغضب لتعزموا على عمل الرافة المدوحة التي مارسها داود مع شاوآب غريمه . واكتيبانوس مع كينوس . وفيلبوس مع نيكانور . وقيصر مع مرقاوس . بل يقولون انكم فعلتم ما قد عرفت تفعله ايضاً الافعى والنحلة من ادغ كل من يلمسها * وان كنتم انتم تفخرون بذلك . فالفخر الاعظم يجب ان يكون للحيوانات التي من طبعها ان تخيف اوفر

الخوف. لأن هذه بمقدار ما تخيف بقدر ذلك تستشعر بالتجني عليها * فان كان اذا يتكلم فيكم على حدٍ سوى الصالحون والحكماء اذا انتقمتم. والائمة والجهلة اذا غفرتهم. افا هو خير لكم ان تدعوا العامة الجهلة تنم بكم لا الانام الحكماء ذوو الراي السيد. قلت العامة الجهلة. لانه اذا لاحظنا بعين الاستقامة لرى من هم اولئك الذين تخشون نيتهم وتعنيفهم هل هم ممن يماثل قسطنطين وبسطينيانوس وثاودوسيوس وغيرهم من الملوك المعظمين الذين صاروا للمسيحيين العوام مثلاً صالحاً في تعليم حقيقة الشرف والتقوى ايضاً. كلاً. لان الذين هم من هذه المرتبة لا ييجون لانفسهم ان يتفوهوا بشيء يذمون به الصبح والغفران للاعداء. على انهم من حيث كونهم اشخاصاً ذوي حكمة وتقوى وافرة يفهمون جيداً ان كل فعل صالح نظير الغفران للاعداء لا يفيد فاعله الا فخراً ومجداً. اما الذين انتم تخشون مذمتهم. فليس هم سوى اناس من رعاي الانام او قليلي الديانة وضعيفي الايمان. وربما يماثلون الوثنيين بالاوصاف. وهم عصاة على تعليم الانجيل المقدس الملتزمين هم بحفظ وصاياها * اسمعوا كيف يصف مثل هؤلاء مار بولس الرسول في رسالته الاولى الى طيماتاوس قائلاً « ان كان احد لا يقبل الى الكلام الصحيح الذي هو كلام سيدنا يسوع المسيح والى التعليم الذي هو بحسب التقوى. فقد تصلف من غير ان يعرف شيئاً » (١ طيم ٦: ٢) ما احسن ما نعتهم به هذا الرسول المعظم بقوله. ان كل واحد منهم ينبغي ان يحسب مستكبراً متعجباً لا يعرف شيئاً. وجاهلاً مغفلاً لا يصلح لشيء * اليس ان هؤلاء او من يماثلهم هم الذين تحبون ان تتبعوا رايتهم كأنهم قادة ضائركم وتحبسون فيهم مجدكم وحمدكم. وتطلبون منهم الثواب والاجر * وان كان بعد هذا كله لا تقتنعون من الاسباب الموردة في وجوب الغفران للاعداء. بل تلبثون مصرين على العناد في قولكم انه بالغفران تخسرون من كرامتكم اكثر مما تخسرون بالانتقام فليكن لكم حسب قولكم. لكن ما الذي تستنجون من ذلك. هل تستنجون انكم لا تريدون ان تطيعوا وصية المسيح ربكم الصريحة الواضحة. فهذا امر لا يجوز لكم لانه ينبغي لكم على كل

الوجوه ان تمنوا رؤوسكم بانضع. وترتضوا ان تضحوا لله تعالى هوكم هذا المائل
بكم بافراط نحو محبة الجاه والكرامة * وان قلتم ان شانكم يهدم فليهدم. لان هذا هو
الطريق الذي ينبغي لكم ان تبلغوا به الى السماء. نعم انه طريق ضيق وعسر وكرب
لكن كيف العمل. فنحن نعلم انه ما من احد بلغ الى الملكوت ماشياً على زهور وعشب
رطب مخضر لكن مجرّحاً ومهشماً بالشوك. لان الله تعالى قال بلسان باروخ النبي
« ان متنعني سلكوا بطرق صعبة » (باروخ ٤: ٢٦) * اعذبوا القديسين والقديسات
الحاصلين الآن على اوفر نعمة وافتكروا باية طرق نالوا الملكوت. لعلمي ان النظر
اليها يربع القلب * على ان القديسة ليدوينا لكي تريح الملكوت احناجت الى ان
ترضي بان تستمر طريجة على فرش فقريّة رثة مدة ثمان وثلاثين سنة منخلة من
البرص ومضنوكه من اوجاع الامعاء وماكولة من قروح الأكلة ومعذبة من حصار
الطبيعة حتى انها اضحت صورة الموت وهي حية. وهكذا وعلى هذا الحال لقد « سلكت
بطرق صعبة » * والبار بريسيوس لكي يريح الملكوت اضطر الى ان يحتمل بحسن الصبر
العزلة عن الاسقفية بمنزلة مجرم مفضوحاً لعلته تهمه باطلة. وهذا ايضا اما سلك
بطرق صعبة * والقديسة كادوليا لكي تبلغ الملكوت التزمت ان تحتمل بعلمها الظالم
الذي كان يضطهدها بقساوة مربعة وبعذبها عذابات مرة كأنها امة اسيرة وهذه ايضا
لقد « سلكت بطرق صعبة » * ومثلهم القديس تيرتيوس لكي ينال الملكوت اضطر
ان يمشي على الحجر المتقد حافياً. والقديس وينقنتيوس القاه اعداؤه على صفاخ
من حديد محي. والقديس تاودورس التزم بان يشرب الرصاص المذاب بالنار.
والقديس اقليميس اسقف انكره اضطر ان يستمر ثمان وعشرين سنة محتملاً كل
نوع من اشد العذابات القادحة واحداً فواحداً. وذلك كعذاب الامشاط
الحديدية والكلايب والتخديش باسنة الدواليب والحريق بالكبريت والمشاعل
ونقطع الاعضاء بالسكاكين وما يماثل ذلك من اصعب المولات * فحنا ان هؤلاء قد
« سلكوا بطرق صعبة » واعلموا هذا متيقنين ان هؤلاء المذكورين كلهم وغيرهم ايضا

مَنْ لَا يَحْصِي عَدَدَهُمْ لَمْ يَحْتَمِلْ كُلَّ هَذَا الْعَذَابَاتِ وَالْمَوْلَمَاتِ عِبثًا وَلَا اخْتِيَارًا . بَلْ قَدْ
 احْتَمَلُوهَا التَّزَامًا وَاضْطْرَارًا لِيَرْجُوا الْمَلَكُوتَ إِذْ أَنَّهُمْ لَوْ قَالُوا لَمْضَطْهَدِهِمْ أَنَّنَا لَا نَشَاءُ أَنْ
 نَبْتَاعَ مَجْدَ السَّمَاءِ بِهَذَا الثَّمَنِ الْغَالِي لَمَا كَانُوا الْآنَ يَفْرَحُونَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ مُبْتَهَجِينَ . بَلْ
 كَانُوا يَتَعَدَّبُونَ مَعَ الْهَالِكِينَ مَوْلُودِينَ * فِهَلْ بَقِيَتْ تَظُنُّونَ أَنَّهُ أَمْرٌ عَظِيمٌ أَنْ أَقْنِي
 مِنْكُمْ رَجَ الْمَلَكُوتِ السَّمَاوِيِّ خَسَارَةً بِسِيرَةٍ مِنَ الشَّانِ الدُّنْيَوِيِّ * وَرَبَّمَا أَنَّهُ يَوْجَدُ مِنْ يَظُنُّ
 بِكُمْ أَنْكُمْ امْتَنَعْتُمْ عَنِ الْإِنْتِقَامِ لَا طَمَعًا فِي الْفَضِيلَةِ وَتَقْوَى اللَّهِ . بَلْ نَقَلَةُ الْجِرَاءَةَ أَوْ لَسَبَبِ
 الْعِجْزِ . وَلَكِنْ أَيُّ ضَرِّ يَنَالُكُمْ مِنْ ذَلِكَ . إِذْ أَنْكُمْ صِنَاجُونَ لِأَنْ تَصْبِرُوا وَتَدْعُوا الْعَالَمَ أَنْ
 يَظُنُّ بِكُمْ هَكَذَا . أَفَلَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يَشْتَرِيَ خَيْرَ أَيْدِي بَأْحَدِ الشَّرُورِ الزَّمْنِيَّةِ مَهَا كَانَ
 ذَلِكَ الشَّرُّ . وَقَدْ قَالَ الْمَخْلُصُ « بَصْبِرْكُمْ نَقْتَنُونَ نَفُوسَكُمْ » (لوقا ٢١ : ١٩) *

وَلَكِي أَخْتَمُ مَعَكُمْ الْكَلَامَ أَسْأَلُكُمْ أَنْ تَجِيبُونِي أَنْ اسْتَطَعْتُمْ عَلَى هَذَا الْبَرْهَانِ الْآخِرِ
 الْوَجِيزِ الَّذِي أَنَا مُسْتَعِدٌّ لِأَنْ أُورِدَهُ لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ حَرْبَةٍ مَسْنُونَةٍ لِأَجْرَحَ بِهِ قُلُوبَكُمْ وَهُوَ أَنَّهُ
 لِمَنْ الْحَقُّ أَنْكُمْ لِمَنْ تَزْمُونَ بِأَحَدِ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ . وَهِيَ أَمَّا أَنْكُمْ تَخْسِرُونَ مِنْ كِرَامَتِكُمْ
 بِأَعْرَاضِكُمْ عَنِ الْإِنْتِقَامِ . وَأَمَّا أَنْ اللَّهَ تَعَالَى يَخْسِرُ مِنْ كِرَامَتِهِ إِذَا انْتَقَمْتُمْ * فَأَيُّ أَمْرٍ مِنْ
 هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ يَبِينُ لَكُمْ الْأَوْجِبَ . أَخْسِرَانِكُمْ كِرَامَتِكُمْ أَمْ خَسِرَانِ اللَّهِ كِرَامَتُهُ *
 نَعَمْ قَدْ عَلِمْتُ مَا أَحْبَبْتُمْ أَنْ تَجِيبُونِي بِهِ . وَهُوَ قَوْلُكُمْ : فَاتَبِدِ كِرَامَةَ اللَّهِ وَتَسَلِّمْ كِرَامَتَنَا .
 فَاتَبِدِ كِرَامَةَ اللَّهِ . وَإِذْ كَانَ هَذَا رَأْيَكُمْ فَمَا يَعْدِلِي شَيْءٌ إِخَاطَبِكُمْ بِهِ لَقَدْ خَتَمْتُ كَلَامِي
 وَنَهَيْتُهُ . فَيَا سَيِّدِي وَمَنْقَدِي الْمَسْكِينِ مَا هِيَ الْفَائِدَةُ مِنْ تَعْبِكَ وَعِنَاكَ مَعَ هَؤُلَاءِ الْأَنَامِ
 الَّذِينَ تَأْمُرُهُمْ وَتُوصِيهِمْ وَتُرْغِبُ إِلَيْهِمْ فِي أَنْ يَغْفِرُوا حُبًّا لَكَ لِأَعْدَائِهِمْ . وَمَا الَّذِي تَرْجُوهُ
 مِنْ تَكَرُّرِكَ عَلَيْهِمْ قَوْلِكَ هَذَا الْإِلَهِيِّ « وَلَكِنِّي أَقُولُ لَكُمْ أَيُّهَا السَّامِعُونَ أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ »
 (لوقا ٦ : ٢٧) كَفَّ يَا سَيِّدِي وَأَوْجِزْ خُطَابَكَ اعْنِي قَوْلَكَ « لَكِنِّي » * حَقًّا يَا الْإِلَهِي أَنِّي
 أَشْتَهِي أَنْ لَا يَكُونَ قَدْ خَرَجَ مِنْ فَيْكِ هَذَا الْكَلَامُ أَصْلًا . ثُمَّ أَسْأَلُكَ يَا مَوْلَايَ أَنْ تَعْذِرَنِي
 عِنْدَ اسْتِمَاعِكَ أَيُّهَا مَخَاطِبًا عَظِيمًا هَكَذَا خَلَمًا مِنْ اسْتِحْيَاءٍ . نَعَمْ أَنِّي لَعَالَمٌ أَنَّكَ
 أَنْتَ هُوَ الْقَائِلُ « أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ » لَكِنْ مَا هِيَ النَتِيجَةُ مِنْ ذَلِكَ . هَلْ يَسْمَعُونَ كَلَامَكَ

اعسامهم ان يمتثلوا طاعة عين ومرتضين بوصيتك . فانك حقا هو القائل . ولكن من تراء منهم
يرضى ان يبطل الحق . انت هو الامر . لكن هل يوجد من يرد سيفه الى غده . انت
هو الحاتم والجازم عليهم . لكن هيات ان يرتجعوا عن طلب الانتقام والامانة والتبريح
وسفك الدم والقتل كما كانوا فيما مضى * اما يا ايها الحبر الاعظم الموهان كفت من
قولك « لكنني » ولا تدع وصيتك هذه ان تخرج بعد من فمك المنفس . لان شعبك
المسيحي يعتبر جزاءً بسيراً من شأنه وكرامته اكثر مما يعتبر مقاصدك او مشوراتك او
وصاياك * اما تذكر يا الهي ما اورده ارميا نبيك قائلاً « ها ان قول الرب صار لهم
عارة فلا يقبلونه » (ارميا ٦ : ١٠) ومن ثم تركونك لتها وتغير . ولا يخشون من
ان يقاوموك جميعاً قائلين بانك تامرهم بفعل امر صعب انه يسوء على طاقتهم
لا بل يصدر لهم منه عار وفضيحة * فما الذي تجيبه يا سيدي عن احتجاجاتهم .
اتروم يا الهي بكلمتك هذه فقط التي هي « لكنني اقول لكم » ان تسد افواههم كما
كانت تفعل الفلاسفة الوثنيون القدماء حينما كانوا يقدمون المجد والفخر
لفيثاغوراس الفيلسوف الوثني بقولهم فقط هو « قال » مشيرين الى فيثاغوراس
المذكور . وبذلك كانت تنفصم كل المشاجرات التي كانت تصير فيما بينهم في الجدل * اما
انت يا سيدي المحبوب يا من تجب له كل كرامة ووقار فكانك خال من هذه القيمة
والاعتبار ولهذا لا تستحق من علمائنا المعظمين ان يدعوا لكلمتك . لانهم يدعون
بانهم يدركون حقيقة الشرف والمجد اكثر منك * فانك الذي ولد في الاصل ما
بين البهائم وتربي في حانوت النجارة ومات بمنزلة مجرم منضوح مصلوباً على خشبة .
ما الذي تعرفه من الجاه والكرامة * فيا ايها المسيحيون الاحبا هوذا قلبي قد تمزق
ولست ادري امن جرى الغيرة في اكرام الله تعالى ام من قبل استسماحي انكم . ولاجل
ذلك استطيع ان اعود فاخاطبكم ايضاً قائلاً : اريدون ان تكونوا من مصاف هؤلاء
الاشقياء الذين يخجلون المسيح بهذا النوع . انحبون انتم ايضاً امانته تعالى وتعبيره لاجل
اقامة قليل من شأنكم وصيتكم * فان كنتم لا ترضون بذلك . فلا تغيبن الشمس اذا

على سخطكم. وهذا اكرر عليكم ايضا هذه الوصية الرسولية قائلًا «لا تغرب الشمس على غضبك» (افسس ٤: ٢٦) * لا تجعلوا شهوة الغضب تزجكم في ظلام مقتم بهذا المقدار. وها انا استريح قليلاً ريثا تفتكرون في ان تفعلوا ما يجب فعله بحسب الحكمة الراهنة
الواجبة *

القسم الثاني

لعل بعضاً من السامعين يقولون عن عظمتنا هذه انها لا تخصهم لزعيمهم انه ليس لهم عداوة ظاهرة مع احد * فاجيبهم: نعم انكم تقولون الحق بان ليس فيكم عداوة ظاهرة مع احد. ولكنكم مضطربون في قلوبكم * ليت شعري ما اكثر الذين يخفون الحقد والعداوة ويحبونها داخل افئدتهم شبه اللغوم الخفية في قلب الارض. غير انهم براعون الوقت وينتظرون الفرص والاحوال الملائمة. فاذا حصلوا عليها فحينئذ يستبين المكر الذي في جوفهم * قال الحكيم في سفر الجامعة وقوله في غاية الصواب «ان الغضب في احضان الجهال يستريح» (جامعة ٧: ١٠) * فانكم احياناً تعانين واحداً من هؤلاء المحسوبين في العالم حكماً وهم عند الله اغبياء يخفي كل اهانة قديمة بصناعة ولياقة جزيلة حتى انه يمكنكم ان تحلفوا عنه بان الحقد قد مات فيه * لكن لا تنغشوا منه فان الحقد فيه لم يميت لكنه «يستريح في احضانه» * جسوه قليلاً فتشاهدوا حالاً واذا هو قد انتبه من الرقاد * وان رايتم آخرين لا يقصدون سيئة غيرهم ظاهراً فانما ذلك يكون عجزاً منهم. الا انهم نظراً الى قلوبهم فيرغبونها له ويشتهونها. وبالنتيجة يقتاتون من البغض ويرتعون من الحقد. واذا اتاهم احد بذكر من اغاظهم او اساء اليهم فخالاً يستشعرون بغليان دمهم وفورانهم فيهم * وانجوا من هذا هل يرتضون بان يخاطبوه والحال انهم لا يشتهون رؤيته ولا استماع ذكره. بل يسكون عنه ايضاً كل فعل من الافعال التي يجب ان تكون مشاعة للجميع * واذا فعلوا معه شيئاً من

الامارات الواجبة فيقصدون بها طائفة ليستطيعوا فيما بعد ان يفرغوا فيه سم حقدهم سرًا وخفية * العل هولا لا يغيظون الله تعالى غيظاً عظيماً جداً. ما اكثر ما يضل مغروراً من يظن ان الله سبحانه وتعالى لا يفتاظ ولا يسخط جداً الا من الانتقامات الباهظة والقتل والخطف وما يضاي ذلك من صنوف التساوة والبغي * اسمعوا ما تكلم به تعالى بقم هوشع النبي قائلاً «اغضبني افراميم بمرارته» (هوشع ١٢ : ١٤) * ها هوذا يقول تعالى بمرارته ولم يقل بسخطاته او بنظائعه. لان تلك المرات المستكنة في قلوبكم التي لا تقصدون ان تزيلوها منها تماماً هي التي تغضب الله سبحانه وتسخطه. وبعد ذلك كله كيف لا تخشون من مشابرة الاعتراف وتناول جسد الرب وغيرها من الاسرار المقدسة كأنكم حمام وديعة خالية من المرارة مع انكم لعمرى حمام مخدوعة * غير اني اسالكم فاجيبوني: كيف كانت الحقايد المكنونة في قلوبكم عظيمة او حقيرة خفية او ظاهرة. انما تريدون اليوم ان تهبوا كلها للسيد المسيح الذي يطلبها منكم بواسطتي *

ها هوذا عرضت عليكم مقاصدي التي اخذتها منه تعالى وانذرتكم باسمه ان تحبوا اعداءكم * فباي جواب تجيبوني لارده له. اتطيعونه عز وجل. اتخضعون له. اتغفرون لاعدائكم زلاتهم. اجيبوني ما هو الذي تفعلونه. العلمكم حتى الان مرتابون وحائرون * اللهم ما هذه الحال. اما تعلمون انكم ملتزمون للسيد المسيح ومديونون له بشي * ما فهو قدس اسمه قد كلكم اتم وطلب الغفران لاعدائكم منكم لا من غيركم قائلاً «لكنني اقول لكم» فلو انه تعالى طلب ذلك من امة غريبة لم يكن فعل معها خيراً ما وانكرته عليه لما كان انكارها عليه عجباً عظيماً. لكن طلبه منكم ايها المسيحيون انتم الذين منكم الجسد والنفس والمال والصحة والاولاد والاصدقاء والعلم والعظمة وسائر الخيرات التي تقتنونها في العالم. انتم الذين لاجلكم احتمل مشقات وامانات لا تحصى. وسفك من اجل افتدائكم فيضاً وافراً من دمه الالهي. ومع ذلك كله اما يستطيع ان ينال ذلك حتى ولا منكم ايضاً * لقد استطاعت ايغال الحزينة ان تنال اكراماً

لها من داود في حال سخطه غفرانا لنا بال بعلمها عن افعال السيئة وعن كلام القذف
والثلب الذي كان صدر منه في حق داود نفسه * وامبروسوس ايضا استطاع ان
ينال من غراطيانوس الملك ان يعفو عن سخر بشخصه الملكي سخريه ظاهرة * ومثله
استطاعت جنويفا التقية ان تستمد من كلداريكوس السلطان الصفيح عن كثيرين من
المردة الذين كانوا اهانوا جلالته الملكية * وبيلاجيوس الشماس بانطراحه عند اعناب
كنيسة مار بطرس امام قدي توتبلا الطاغي الوثني وبواسطة كتاب الانجيل الشريف
الذي كان حاملة بيده حاز منه الرفاهة على مدينة رومية اسيرته وعدونه التي كان
سخط عليها وعزم على خرابها واحراقها * اما السيد المسيح ربكم وسيدكم المتفضل عليكم
فكيف لا يستطيع ان ينال منكم اكراما له وحببا به ان تغفروا لغريمكم وتتركوا له القذف
الذي قذفكم به . او الافتراء الذي افترى به عليكم . او الاذية التي اذاكم بها * وما هو
الذي تطلبونه منه تعالى . اعساكم ان تطلبوا منه ان يجنو متضرعا امام مواطى اقدمكم
ليلمس منكم هذه النعمة اعني نعمة الغفران لغريمكم . فهبوني قلت انه يفعل ذلك . لانه
ان كان ما ابى ولا استسبح ان يجنو امام قدي خائن غاش نظير يهوذا ليغسلها
وينشئها ويقبلها . فعلى ظني انه لا يستحي جل ذكره من ان يرى نفسه جاثيا امام اقدمكم
ايضا . غير اني اقول هل يلزم كل هذا ليجرضكم على ان ترضوه فيما يستحقه منكم . آها
منكم يامن يدعون بانهم اشرف العالم * لعمرى اني لم اكن اشاء اليوم ان اجعل البعض
منكم ان يجزوا ويخجلوا مما اوردته على مسامع الجميع نظرا الى ما اعرفه محققا عنهم . فاقول
نحوهم هكذا : يا ايها الجوهلة الاغبياء انه لو طلبت منكم ما يطلبه المسيح سيدكم
واحدة من النساء الشقيات تلك المرأة التي من فرط عشقكم بها يستبين انكم تعبدون
طلعتها مغرمين بجالها . او تتداولون فيما بينكم عن اشواقها ورغباتها وتمنون رضاها
ومسرتها . لما كنتم لعمرى تتركونها ان تلج عليكم هكذا بالطلب لتعطوها آياه * وبعد
هذا كله اتحوجون الاله الذي صاب من اجلكم الى ان يطلبه منكم بهذا التكرار .
فيا لوفور خجلكم ويا لعظمة تارككم وخزيكم . حقا انه ينبغي لي ان اقول ايضا اكثر من

ذلك . لانكم انتم ملتزمون له تعالى التزاماً عظيماً نظراً الى ما نلتيموه منه تقدس اسمه من الخيرات فيما سلف . لا بل انكم ملتزمون له ايضاً التزاماً ليس باقل نظراً الى ما انتم عنيدون ان تنالوه منه تعالى من النعم السماوية فيما سيأتي * وتأكيداً لذلك ها انا اسالكم قائللاً : هل انتم ابرار صالحون انقياء حتى انكم ما افتريتم قط على الله تعالى لا بالفكر ولا بالقول ولا بالفعل . فان كان الامر بالخلاف فكيف اذا تستطيعون ان ترجوا منه تعالى الرحمة والغفران * ولكن اسمعوا ما يخاطبكم به بفيه العزيز نظراً الى نيل المغفرة قائللاً « فان غفرتم للناس زلاتهم . غفر لكم ابوك السماوي ايضاً » (متى ٦ : ١٤) فمن ثم قد تحقق لديكم من قبل الايمان انه اذا غفرتم لغريمكم فان الله سبحانه يغفر لكم ايضاً . ثم اردف قوله العزيز بقوله « وان لم تغفروا للناس . فابوك ايضاً لا يغفر لكم زلاتكم » (١٥ :) وقد تحقق ايضاً عندكم من قبل الايمان ان الله لا يغفر لكم ما لم تغفروا انتم لغريمكم * فما هو رايبكم الان : الاتهون ان يرحمكم الله تقدس اسمه ويشفق عليكم ويعفو عن جناياتكم عليه * اتخنارون لنفوسكم الهلاك الابدي . فان اخترتم ذلك فقد بطل الحديث معكم . فلتنفجر اذا الارض ولتفتح جهنم وزجوا نفوسكم في تلك النيران المرعبة لتتحرقوا بها الى الابد . لكن ان اردتم الرحمة من الله فترى باي وجه وباية دالة ترجونها * دعوني اهتف هكذا مع اوغسطينس المغيرط قائللاً « باية دالة يستطيع ان يستمع غفران خطاياهم امام منبر المسيح ذاك الذي يقاوم وصية الله ولا يرتضي بان يصغ عن اعدائه » * باية جسارة نقصدون ان تطلبوا منه الرفة . وكيف يمكنكم ان ترجوها منه مطانين * ومع هذا كله حتماً اني لمتعجب جداً من غباوة البشر وقساوة قلوبهم الصخرية . حيث انه لا يوجد غالباً من يمسك المغفرة عن الناس الا اولئك الذين يحتاجونها من الله تعالى احتياجاً ابلغ من غيرهم * لعلمي ان في ما انا عنيد ان اورده عجباً عظيماً وهو ان الناس الانقياء الصالحين الذين ربما هم خالون من الدين لله تعالى ولا يحتاجون الى ان يطلبوا منه كثيراً الصغ والغفران لانهم ابرار وصديقون . اذا اهينوا يشكرون . واذا لعنوا يباركون . واذا عبروا او نالهم سوء

يكافئون مكافأة صالحة لأنهم يخشون من ان يعاملهم الله العادل بالقساوة التي يعاملون
 بها قريتهم * أما نحن الخطاة العصاة الأشقياء الذين لو لم يرفق الله تعالى بنا ويسكننا من
 شعرووسنا مثبتاً لكننا لكثرة آثامنا نهبط كل ساعة في المجيم فلا نطيع ان نسمع
 احداً يكلمنا بالصلاح. ولا يوجد حجة ما تستعطف خواطرننا ولا كلمة ودادٍ تسرنا ولا
 سلطان يزحزحنا عن عزمنا. وكان لسان حالنا يقول: فليامرنا الله بقدر ما يشاء.
 وليطلب منا متضرعاً وليتوعدنا بأي شيء اراد من القصاص. فاننا نحن لانطلب الأدماء
 وموتاً. ونرغب ان نشاهد خصمنا مدمراً بل متلاشياً. واذا لم نستطع ان ننتم ذلك
 بالفعل نشتهي في قلوبنا ان نصنع معه اعظم الشرور والاضرار الممكنة لدينا. ومن ثم ان
 لم نقدر ان ننتقم منه برمي الرصاص لنميتة. نرغب ان نفعل معه ذلك باشتهائنا له
 الموت. وان لم نقو عليه بالتهديد نقصد ان نفتك به بالقلم. وان عجزنا عن ضربه
 بالعصا فنضربه بالكلام. وعلى الاطلاق اقول اننا لا نعود نرتضي بان نخالطه بشيء من
 الاشياء اصلاً ولا نشاهده ولا نسمع ذكره بل نطوي عنه كشفاً محقره وهاجره وراذله
 تماماً * واسفاه علينا ايها المسيحيون. ايجسن بنا ان نجعل ونعدم الحس والاشعار
 بهذا المقدار في امر ثقيل وباهظ كذا. ايسوغ لنا لكي نجيب الى حركة شهوة وحشية
 ان نرغب ان نهدم كل خير ونفقده. اي ان نعادي الله سبحانه ونغلق دوننا السماء ونفتح
 لانفسنا ابواب جهنم * فهلم اذا انتبه لانفسنا ونعزم امام قدي هذا المصلوب الالهي عزمًا
 مكيناً رادنا على امثال ما امرنا به. اي ان نصفع عن مبغضينا واعدائنا والمتجسسين
 علينا حباً له عز اسمه * وما الذي تخشونه. فهلاً تثقون به تعالى معتقدين انه يستطيع
 ان يجازيكم مجازاة حسنة وافرة عن هذا الفعل الصالح الذي تعزمون عليه اكراماً
 له واجلالاً لعظيمة الالهية *

نعم نعم تعالوا وتقدموا لانني انا قد عزمْتُ في هذا الصباح علي ان اتخذ
 بيدي القلم وانحني جاثياً امام هاتين القدمين المقدستين وابله في جرحيها
 المكرمين واكتب بدمها صورة المغفرة للاعداء قائللاً: ها انا يا سيدي اقر

معترفاً نيابةً عن هذا الشعب من اجل الوظيفة التي تقلدتها في بيعتك المقدسة
 من غير استحقاق * اننا نحن نضع تحت قدميك المقدستين جميع الاهانات التي
 اصابتنا حتى الآن والعتيقة ان تصيبنا ايضاً فيما بعد. وههنا نذبح سخطانا.
 وههنا نضحي احتقادنا بمنزلة مقدمة لعزتك وعظمتك الالهية * ومع كون الطبيعة
 تتالم اذا لم تحصل على اللذة التي كانت تبغيتها من الانتقام. فمع ذلك لكونك انت
 اردت وامرت ان نفقدها. فها هوذا نحن نطيع اوامرك خاضعين. ونمخ السلام
 لاعدائنا ولو لم يطلبوه منا وسنقبله منهم اذا اعطيناه * فاغفر لنا اذا انت يا الهنا
 بتلك الرافة التي بها تغفر لمبغضينا * وحينما ياتي الوقت الذي به تشتكي خطايانا علينا
 امام عرشك المهيب. فكن انت ابانا وشفيعنا والمخامى عنا * يا ايها الشعب المسيحي
 ايجاد احد منكم يابي ان يمضي صورة هذا الغفران باسمه وختمه. فمن كان منكم
 هكذا فليظهر نفسه لنعرف من هو. وها انا قد اضطررت بان اتقد بكليتي كالنار
 واكتب عليه بهذا الدم الالهي عينه المحكم بالهلاك الابدي * فليبد هذا الشقي
 المنكود المحظ هالكا. لانه ينكر على السيد المسيح رب هذه الطلبة الصوابية * وهذا
 الدم الكريم الذي اريق فليفنيه وليهلكه. ولا يجدن امام الله رحمة ولا يحظين منه
 برافة * فليسقط هو ولتظفر به اعداؤه. لتكن امراته ارملة واولاده يتامى. ولتنزل
 بنوه وبنو بنيه من امكنتهم. ويكونوا تائهين في الارض. لا بيت ياويهم ولا ثوب
 يسترهم * ليستاصل بيته ويتبدد مقتناه. وليح اسمه « وليقرض من الارض ذكروهم *
 من اجل انه لم يذكر ان يصنع الرحمة » (مزمو ١٠٨: ١٥ و ١٦) * ولتذكر امام الله
 جميع آثامه الماضية يوم يظهر تجاه العرش الالهي مغللاً بالقيود ليحكم عليه بالهلاك
 « لان دينونة من لم يستعمل الرحمة تكون بغير رحمة (يعقوب ٢: ١٣) * وها انا اكرر
 كلامي ايضاً قائلاً: لتكن دينونته بلا رحمة لانه لم يستعمل الرحمة. لتطلب له النعمة
 جميع الخلائق. لتصرخ الملائكة النعمة له. وليهتف القديسون النعمة له. ولتقل
 القديسات النعمة له. ولتناد الشياطين النعمة له. بل ليهتف الجميع النعمة له « واذا

حُوكِم. فلينجرح مخصوماً» (مزمو ١٠١: ٧) * لكن لا سمح الله بان يوجد ما بيننا انسان
اثيم منافق يبلغ هذا المبلغ حتى ينكر على السيد المسيح ما يطلبه منا اعني الغفران
للاعداء. وان وُجد. فليفرز نفسه من هذه الجماعة المباركة. وليخرج مبتعداً من هذا
المكان المقدس * لاننا نحن المتبقيين هنا نحن الجاثين امام قدي المصلوب. نطالب
منه الصغ والغفران لاعدائنا ولا نفسنا ولجميع الخطاة ايضاً * اهَلْنَا اللهُ تعالى لذلك
بحق الآمهِ آمين *

الخطبة الرابعة

في ان المسيحيين الذين يجوعون الى كلام الله هم قليلون ومن ذلك
تسندل على انه لا عجب في ان المسيحيين الذين
يخلصون قليلون

القسم الاول

« ليس بالخبز وحدهُ مجيَا الانسان. بل بكل كلمة
تخرج من فم الله» (متى ٤: ٤) *

انه كما ان الخبز هو قوت للجسد. هكذا كلام الله تعالى هو قوت للنفس.
وهذا شيٌ محقق واضح لاشك فيه ولا ريب * وقد شهد بذلك يوحنا فم الذهب
في ميره السادس الذي به دحض اوثوميوس قائلاً « ان قوت الجسد هو الخبز.
واما قوت النفس فهو تعليم الكلمات الالهية» * وقال ايضاً القديس غريغوريوس
« ان قوت العتل هو خطاب الله تعالى». ومثله حرر القديس امبروسيوس قائلاً
« ان قوت العقل هو كلمة الله» * والى ذلك ذهب سائر الابهاء القديسين * ولا

عجب في ذلك . لانّ كلام الله تعالى يحفظ في النفس حرارتها الحيّة لئلاّ تذبل .
 واذا كانت جائعة . فيغذوها . او كانت ضعيفة . فيقويها . او نحيفة مهزولة . فيسمنها .
 بل انه يسمو ايضاً على كل الادعمة سموً عجيباً نظراً الى القوة . لانّ كل طعام جسدي
 ولو كان فاخراً لذيذاً شافياً ذا جوهر مغذٍ فلا تستفيد الابدان منه شيئاً ما لم
 تكن حيّة . اما كلام الله تعالى فيحيي النفس المائتة ايضاً . فلا عجب في قول السيد
 المسيح ربنا انه « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان . بل بكل كلمة تخرج من فم الله »
 لانه عزّ شأنه حتى انه ان يقول ذلك ليس بالمعنى المجازي فقط . بل بالمعنى
 الحقيقي ايضاً . وهو ان الانسان يقتات من كلام الله لانه منه نقتات النفس التي هي
 الجزء الاشرف في الانسان . غير انه مع حقيقة قول المسيح هذا يجب ان يسمو كلام الله
 على القوت الجسدي بالتقدم والتفضل عند كل احد . ومع ذلك لسنا نشاهد الانام
 يجوعون اليه جوعاً عظيماً يتلهفون . ولكن ترى ما هو السبب في قلة جوعهم هذا .
 العلة (اي كلام الله) ليس هو غذاءً جيداً نظير الغذاء الجسدي : كلا بل انه اجود
 منه كما قلنا . ام لعله ليس بلذيد : حاشا . ولكنه الذم منه . ام عساه ان لا يكون
 لطيفاً : لا لعمرى . بل هو الطيف منه . فلماذا لا نرى الا الفليلين جائعين ومتهافتين
 اليه . فالجواب ان سبب ذلك انما هو هذا وهو انه لا يذوق لذة « بكل كلمة تخرج
 من فم الله » ذلك الانسان الذي يريد قبلاً ان يشبع « من كل كلمة تخرج من فم
 ابيس » . الا تبصرون كم هم اولئك الذين يقوتون انفسهم في عصرنا هذا باغذية
 وخيمة غليظة . اعني المخاطبات الدنسة والاشباح الزنايئة والقراءة في الكتب المفجرة
 سفاهةً وقذفاً وهجواً ورعانة وغيرها من الخرافات الباطلة . فلا عجب في كون ذوقهم
 فاسداً منعطلاً لا يستشعر بلذة الاغذية الطاهرة الصالحة . لعمرى ان اولئك الذين
 « يميلون الى الخرافات » طيماتوس ٤ : ٤) بهذه الكثرة . لا يمكن ان لا يصرفوا آذانهم
 عن الحق . ولكن ان كان هذا هو السبب في ذلك او غيره . فانه من المحقق
 ان شوق المسيحيين الى استماع كلام الله قليل جداً . وينبغي ان نبكي عليهم بدموع

سخينة * وهذا هو الموضوع الذي تهيأت في هذا الصباح لآيينه لتجمل الجميع بل لترهبهم * لأنني لست أعلم هل يوجد عند الله تعالى قصاصٌ يرد ان يادب به جماعة عاتية عاصية اعظم من هذا التاديب. وهو ان يرفع عنهم الشوق الى استماع كلامه الالهي * فلنشرعن في ايضاح هذه الحقيقة المخزنة جزاء فجزاء. لأنه وان كان الاجدر بي ان ارجو واثقاً انه يوجد فيما بينكم بنعمة الله تعالى اناس يتشوقون الى استماع كلام الله. فع ذلك ساحوني اذا بينت لكم في ممر الخطاب ان هؤلاء المشوقين من بينكم هم اقل من غيرهم *

انه من المعلوم ان الجوع هو المرء حاد مريض جداً. من شأنه ان ينشط الحيوان ويجعله ان يهتم متلهفاً بتحصيل القوت * فالجوع لا يدع الغزاة تستريح في مريضها مع انها من طبيعتها ان تخاف. ولا الجداء في مقرها ولو كانت ضعيفة عاجزة. وهو الذي يجعل العصافير ايضاً ان تترك بخطر عظيم اعشاشها وتنزل الى الارض وتعرض نفسها طمعاً في حبة دنية من الدخن الى اقتناص عدة من الصيادين يكمنون لها وهم يرصدونها لتسقط ويستخفون لها نظير اللص في الغاب * وانتم ما هو رأيكم الآن في حالكم نظراً الى هذا الامر: هل تظنون ان بكم جوعاً وشوقاً مضطرباً الى كلام الله. والجمال أننا لا نراه كافياً ليخرجكم من منازلكم الا نادراً. ونادراً ياتي بكم الى مكان جايل وامين كهذا وهو الكنيسة التي لا يوجد فيها شيء تخشونه في التماس هذا القوت الروحي. ولا قهر ولا مكيدة ولا شانه. حتى انكم لا تحتاجون الى نفقة بته ولو زهيدة جزئية * انه لما بلغ مسامع يعقوب ابي الاسباط في زمن الجماعة انه في مصر يباع القمح مع اشعاره بانه يباع بثمن غال وغال جداً. اضطرب وغضب على بنيه اولاً. ثم التفت اليهم وقال «لماذا تنظرون بعضهم الى بعض متغافلين. لماذا لا تسعون في اجناب اؤدكم وقوتكم» قد بلغني انه يوجد قمح في مصر» وانتم هاهنا تموتون جوعاً لتوانبكم «فانحدروا الى هناك وابتاعوا لنا من هناك. لكي نحيا ولا نموت» لأنه الآن ليس هو اوان الراحة والرقاد في البيت بعد

ان اشتدَّ الجوع علينا كثيراً (تكوين ٤٢ : ١ و ٢) * فهكذا قال وهكذا تكلم مع بنيهِ *
 ولكن ترى ما الذي كان يقول لهم لو كان يسمع ان القمح لا يُباع في مصر بمن غال
 بل يُعطى مجاناً . أما كان يستشيط عليهم غضباً . ويضطرب منهم اعظم الاضطراب *
 فيا ايها المسيحيون الاحباء اعلوا وافهموا ان كلام الله هنا لا يباع للسامعين اصلاً
 بل يُعطى مجاناً . وقد يسوغ لي ان اقول لكم مع القديس بولس «اني بشرتكم بانجيل
 الله مجاناً» (٢ قورنثية ١١ : ٧) . ولا يُطلب منكم شيء من النقطة ولا من الهبات البتة *
 وانتم مع ذلك متهاونون . تتغاضون عن ان تاتوا كل يوم بسرعة ونشاط لتستمدوا
 قوتاً من التعاليم والنصائح المفيدة والملائمة لحياتكم الروحية * حقاً اني لمتعجب من
 هذه الغباوة . ولهذا اسالكم يا بني الروحيين مع يعقوب البارابي الآباء المشار اليه
 انفاً : لماذا ولاي سبب «تنظرون بعضكم الى بعض» وانتم متغاضون * فان كنتم
 غير جياع الى كلام الله تعالى . ولذلك لا يعينكم التماسه بشوق ورغبة . فليس ذلك
 دليلاً صالحاً فيكم . لان القديس اوغسطينس المعظم يقول «ان الذين لا يطلبون ما
 هو معد لهم فكسلاهم هذا يهزهم ويهلكهم *

نعم ايها الشعب المسيحي ان المكث في البيت هو امر حميد جداً . ولكن
 لا في حين الوعظ . وبهذا لست اخاطب الرجال فقط الذين انا عالم بهم جيداً
 انهم يخرجون من هذا المحل بنشاط عظيم لينذهبوا الى حوانيتهم واشغالهم . بل
 خطابي يخص النساء ايضاً * فاعلمن يا معشر النسوان . ان الشوقية المشهور ذكرها
 في التوراة قد كانت امرأة مثلكم . بل امرأة شريفة النسب ومواظبة جداً منزلها .
 ومع ذلك حينما سبق الشاع النبي وعرف بروح النبوة تلك الجماعة الشديدة التي
 كانت عنيدة ان تستحوذ بعد زمن قليل على كل ارض فلسطين . ما الذي قال
 لها : العلة قال لها امكثي هنا ثابتة لا تخرجي ولا تخرجي من منزلك . بل واظبي
 على اشغالك مقيمة في البيت * كلاً . بل قال لها «قومي انتِ واعل بيتك .
 واخرجي واسكني حينما احببت» (٢ ملوك ١ : ١) * فيا ايها النبي النبيل ما هذا الذي

نقوله هذه المرأة. اما تعلم جيداً كم يجب على النسوة ان يستمررن ملازمات بيوتهن. اما تعلم انهن جميعاً كالأنيّة الزجاجية التي لا تسلم من العطب ان لم تحفظ باحتراسٍ عظيم في المنزل. الا تعلم انهن كالبلسم الذكي الرائحة الذي ان لم يحفظ ويوثق عليه جيداً فان رائحته تتبدد * فكيف اذا تشير عليهن ان يخرجن خارجاً من المنزل. وليس ذلك فقط. بل انك تحنن على ان يجلسن في اية بلدة احبين. وما بين اي شعب ابتغين قائلاً لكل واحدة منهن بشخص الشونمية « قومي واخرجي واسكني حيثما احببت » * نعم نعم ايها السامعون ان خروجهن من منازلهن ليس هو لائقاً ولا محموداً. وهذا معلوم عندنا. لكن ليس في زمن الجوع. لانه في ذلك الحين فليذهب كل من استخوذ عليه الجوع ويطلب له القوت بكل جهده حيثما شاء. ولكن بهذا الشرط اي ان يكون خروجه وجولانه على سبيل الادب واللياقة. لان الضرورة لا سنة لها * وهكذا فعلت الشونمية الصالحة. فانها « قامت كما قال لها رجل الله. وانطلقت هي واهل بيتها وسكنت بارض فلسطين سبع سنين » (٢ ملوك ٨ : ٢) *

اولعل الشونمية وحدها من بين النساء خرجت من وطنها لتطلب لها القوت في زمن الجوع. لا لعمرى. بل غيرها ايضاً خرجن. فان راعوث المرأة الارملة خرجت نظيرها من بيت ادلها في ايام الجوع وانطلقت دفعات متعددة الى الحقول لتلقط لاجل فقرها السنبل الساقط من وراء الحصادين. (راعوث ٢ : ٢) * وكذلك سارة احوجها الجوع ان تنزل مع ابراهيم بعلاها الى مصر (تكوين ١٢ : ١٠) * وعلى مثالها التزمت ايضاً رفقة عند حلول الجوع ان ترافق اسحق زوجها الى جرار (تكوين ٢٦) * فان كان مثل هؤلاء النساء تركن منازلهن من اجل القوت الجسمي. افيجسن ببقية النساء ان يقمن في منازلهن في حين الوعظ الذي هو القوت الروحي مهتمات بالاشغال الدنيوية ويتركن بعولهن ياتون الى ههنا وحدهم. ويعدمن انفسهن من هذا الطعام والقوت الروحي * لعمرى ان ذلك ليس هو فيهن دليلاً على انهن يحبن الخلو

الحجبة في البيت ولا علامة على قصد الاستتار. لكن اذا فحصنا مدققين نراه في بعضهن دليلاً على قلة العبادة وفي غيرهن كسلاً وتوانياً. وفي غيرهن ضجراً من استماع كلام الله تعالى * ومن ثم اقول: انه ينبغي لمن ان ياتين الى الكنيسة ليقتن انفسهن بكلام الله في ايام الاعياد. لا بل يلزمهن ان يحقرن الزينة المنرطة التي لاجلها يخسرن كثيراً من ذاك الكثر العظيم الذي لا تُعتبر قيمته الآن كالواجب. بل انما تُعتبر عند ساعة الموت. اعني الزمن. وياتين جميعاً مسرعات في ايام العمل ايضاً في الحين الملائم اي في اول الوعظ متذكرات ان من خاصة من يكون جائعاً بالتحقيقة ان لا يتباطأ متأخراً عن طلب القوت في الوقت المتقدم له فيه * واثباتاً لذلك احسبوا انه قد أُعدت وليمة عظيمة فاخرة لجم غفير من الناس. كما كانت وليمة شمشون المعدة لاصدقائه (قضاة ١٤: ١٠). او وليمة سليمان لعبيده (١ ملوك ٢) * فمن الذي يكون مستعداً ونشيطاً ليمتع. ومن هم الذين يسرعون اليها قبل الجميع: لاشك هم الجياع * لان الذين يتأخرون متقاعدون عن الذهاب اليها إما يكرهونها. وإما لاجل كبر النفس يتظاهرون بانهم غير مفتقرين اليها * فما الذي ينبغي لنا ان نقوله الآن: هل يسوغ لنا ان نقول عن الذين من عادتهم ان لا يعضوا الى استماع الوعظ الى ان يكون قد ابتداء انهم متشوقون وجائعون الى كلام الله: حاشا وكلاً. بل ان الجياع والمتلهفين اليه هم الانقياء الشيطون الذين لا يصطبرون منتظرين ان ياتي الوقت الذي يبتدي فيه الوعظ. بل يسبقونه ويكونون اول من يظهر في الكنيسة ليخذوا المكان الاقرب الى منبر الوعظ. ليتمكن الاستماع بسهولة. وينضلون استماع كلام الله تعالى على سائر اشغالهم ومهماتهم وان كانت ثقيلة مهمة * قال روح القدس في نم الحكيم «علم الصديق وعظه» وان قيل ماذا يفعل. فالجواب منه تعالى: فيزداد علماً (امثال ٩: ٩). اي يسرع الى قبول وعظك وتعليمك آية بشوق اكثر من سرعة الحمام الى النقاط الحبوب. او السمك الى الطعم: «علم الصديق فيزداد علماً». انصية نصيحة «فيزداد علماً». فسر له مسالة «فيزداد علماً».

اعطيه مشورة حميدة « فيزداد علماً ». قدم له نوعاً جديداً من العبادة والتقوى « فيزداد علماً ». وبالاجمال اقول « علم الصديق . فيزداد علماً » في كل وقت وزمن اي في أيام العمل وفي أيام البطالة . وفي اي مكان كان وفي اية فرصة كانت . فإنه يسرع الى القبول كالجائع المثلث * لأنه من كان هكذا اية جائعاً جوعاً جسدياً مفرطاً . لا يجد لنفسه راحة . بل تراه ينتهر العبيد ويضرب الجواري ويقلق بصياحه كل اهل المنزل اذا رأى الطعام لم يتبهاً له في اوانه . ويستمع بضجر كل الاخبار التي تروى عليه في ذلك الوقت . وبالكراهة وقسراً عنه يرتضي بعمل الامر الذي يقدم له * وبالنتيجة نقول انه في ذلك الحين يشبه كلاب البيت التي وان كانت امينة وتود احبابها . فلا تقبل في حين جوعها التليق ولا الملاطفة * فمن كان يعلم بتحقيق الزمن المعين للوعظ . ولا يسرع اليه . بل يستمر على حديثه او عمله . فلا يظن ان فيه جوعاً واشتياقاً الى استماع كلام الله . فتراه يعاين الآخرين يذهبون الى الكنيسة وهو متغاض عن ذلك . ويسمع غيره يدعو اليها وهو متغافل . ويتحقق اخيراً ان الواعظ شرع في الوعظ وهو لا يتقلقل من مكانه ولا ينهض من عمله . حتى لا اقول من اباطيله ايضاً *
ومن ذا الذي لا يشك في قلة جوع المسيحيين واشتياقهم الى كلام الله ونحن نرى الواعظين قد انحنوا في عصرنا هذا مضطربين ان يزخرفوا كلامهم ويلطفوه ويحلوه بعبارات مبهجة ليقبله السامعون ويترعوه * لعمرى ان الذي يضايقه الجوع . لا يطلب في ما يقدم له اطعمة فاخرة . ولا يلتفت الى قلة نظام اوعية المائة وحسنها . ولا الى نقص التوابل العطرية المصيرة الاطعمة لذينة . بل يصعب عليه ايضاً ان يفرق لذة من لذة حتى تراه احياناً يتجرع المر عوضاً عن الحلو . كقول سليمان الحكيم في امثاله « النفس الجائعة كل مر تخذة حلواً » (امثال ٢٧: ٧) * واذا قدم له بلوط مسيخ تافه من وادي الجبال . يستعذبه كأنه عنب منتخب من كروم عين جدي * فمن يستطيع اذا ان يصف كم يجعل الجوع الماكل لذيناً ولو كان تفهاً من عين اصله ومكروهاً على الطبيعة * حكى بلوطرخس ان ارتحششتا ملك

الاثوريين لما نذرت الذخيرة من عسكره في احدى الحروب وضايقة الجوع. التزم
 ان ياكل داخل كوخ فلاح خبز شعير. واستلذه عظيمًا حتى انه ذم آلهته لانهم
 حتى ذلك الحين لم يطعموه خبزًا ذا لذة غريبة بالغة كلذة ذاك الخبز الذي اكله
 هناك * وبطلهيبوس ملك مصر قد كان في ذات يوم مسافرًا مع عسكره وندمهم
 الزاد. فاحناج ان ياكل خبزًا معجونًا من الخالة. ثم اقر لعبيده انه الى ذاك الحين
 لم يكن قد ذاق قط طعامًا الذم منه * وماذا اقول عن اهالي رومية الكبرى التي اضحت
 في دهرنا هذا مترفهة ومتنعمة بهذا المقدار. اما هو واضح من تواريخ بروكيوس
 انها لشدة الجوع في ايام الفلاء بلغت الى ان اكلت عشبًا بريًا فيها ماكل البهائم.
 بل الحشائش المرة والسحجة التي تنفر منها وتابي اكلها الحيوانات نفسها * وفي حصار
 الاريكوس اقتات اهل هذه المدينة بلحم الخيل كأنه لحم العجول الرضية * وفي حصار
 توتبلا تناولت ايضا من لحم الكلاب كأنه لحم ضان لذيذ * وحكى بلوطرخس انه
 لما اشتدت المجاعة في مدينة اثينا. اتفق ان سقط من سقف احد البيوت جرد
 ميت. فركض حينئذ شاب بسيف مجرد ودفع عنه اباه اذ كان قد جرى لخطئه
 وبأكله * واهل مدينة سستوس في بلاد خرسنيس حينما ضايقهم الجوع من قبل
 كسنثيبوس القائد. شرعوا يقتاتون من حبال الكتان * واهل مدينة راجيون في
 بلاد كلابريا لما حاصروهم ديونيجيوس الملك وضامهم الجوع جدًا. اخذوا يفتنون
 بالجلود التي لا تلائم الا لعمال الاحذية * والذي هو ابلغ من ذلك ان اهل سبرنة
 جعلوا قوتهم الحيات نفسها التي كانت قد ظهرت في اراضيهم بفيض وافر جدًا
 وبددت زروعهم وقتلت بهائمهم. ومن جرى ذلك حدثت عندهم مجاعة عظيمة *
 فلا ريب اذا في ان المجائع يقتنع بكل ما يقدم له من الماكل وان الاشياء التي كانت
 لديه في ايام الشبع متنا ورذالة. تضي لديه في حين الاحنياج دسًا ولذة. كما شهد
 بذلك ايوب الصديق مجربًا في نفسه بقوله «ما كرهت نفسي ان تمسه. فهو الآن
 طعامي لضيقتي» (ايوب ٦: ٧) * فما هو رايعكم الآن في انفسكم: هل اتضح لكم ان فيكم

جوعاً واشتياقاً الى كلام الله . وانتم لا تعجبكم المواعظ . ولا يلذ لكم خطبة . بل نراكم
 كل يوم ترد ادون انتقاداً وتنكيتاً على الواعظين * فترى واحداً يتذمر على الواعظ
 بقوله انه حال من العلم وال اخبار . وآخر يشكوه قائلاً ان عبارته وانشائه ركيكان .
 وآخر يذمه لأنه خائب من البلاغة والنصاحة نظراً الى اللغة . وآخر يطعن فيه
 بقوله انه بارد ليس فيه حرارة * اهذه حال من هم جياع الى كلام الله : لا لعري ايها
 المسيحيون . لا لعري . فبدل ما ترغبون هذا المقدار من التحي والتزخرف في الوعظ
 اكتسبوا لكم جوعاً وشوقاً . فيعود حينئذ كل صنف منه يرضيكم جميعاً في وقت
 واحد ويلذ لكم * قال سينكا الفيلسوف « من قصد ان يعد وليمة للجياع . فليعدّها
 بسرعة . فوَقْتِئذِ كل طبّاخ وان كان قليل الخبرة في هذه الصناعة يكون ملائماً . وكل
 مطبخ ولو كان غير مرتّب يكون كافياً » * وهكذا نرى حبقوق هياً الغذاء بسرعة .
 وأخذسلة لحصاده الفقراء * واليشاع ايضاً اعدّ سريعاً الطعام للحارثين وهو يحرث *
 ولكن اذا قصد الانسان ان يعد وليمةً لاناس منتقدين . اللهم فكم يجب عليه من
 التعب والنفقة . لأنه حينئذ يضطر ان يجعل استعدادة نظير استعداد الملوك
 الفارسيين الذين كانوا يعطون الجوائز لمن يخترع اطعمة ذات لذة غريبة في العالم .
 لان اللذة القديمة في الاطعمة تكون لديهم ممقونة ومستكرهة . حسبما اوعز الى ذلك
 الحكيم بقوله « النفس التي في الشبع تكره العسل » امثال (٧ : ٢٧) . وسبيله ايضاً ان
 يبيئ مع الملك ابيكيوس الوليمة من السنة البابل . او يلتزم مع الملك اليوغابلوس
 ان يشكل الوليمة بلون من السنة الدرّات . بل يلتزم ايضاً مع الملك ويتليوس ان
 يزين الوليمة باحشاء افخر السمك قد جلب على اسرع الاغربة من بحر جزيرة كربات *
 وفي الاجمال اقول لكم ايها السامعون : ان كنتم جياعاً ومفتقرين الى كلام الله . فانا
 واثق بانني استطيع ان ارضيكم واسرّكم في هذا الصوم . ولكن اذا كنتم شباعى محتائين
 فلا قدرة لي على ذلك * بل انا متيقن انكم نادراً تاتون الى الوعظ . واذا جئتم .
 فتكونون هنا بمنزلة المشازين مما يُقدّم في المائدة من غير ان تذوقوا او نتمتعوا بلذة

الوعظ . ومن غير ان ترتعوا منه شيئاً . وربما ايضا توزعون على غيركم القوت الذي يلزمكم انتم ان تخصوه لنفوسكم برغبة واشتياق * ولكن ما هو مضمون كلاسي هذا وما هي نتيجةه : هاكم المضمون اولاً . فاسمعوا :

ان الجائع اذا كان جالساً على المائدة لا يفكر ان يهادي المتكئين حذاءه . ولا ان يقدم لهم من الاغذية التي امامه . بل انما يهتم فقط بان يكفي نفسه وبشبعها . حتى انه يحسب ايضا ان كل شي * موضوع على المائدة من الماكل والمشرب فهو له * ولقد نراه حسبما اخبر عنه ابن سيراخ قائلاً « يطرح نفسه على كل طعام » (سيراخ ٢٧ : ٢٢) . وبود لو امكنه ان يتلع وحده كل الاواني * فان كان فيكم جوع هكذا سام الى كلام الله تعالى . فانكم ترغبون ان تخصوا كلام الله لانفسكم فقط . ولا تصنعون حسب عادة الذين اذا كانوا في محل الوعظ . لا يفعلون شيئاً سوى ان يهدوا الهدايا لغيرهم . اي ينسبون لغيرهم كل ما يسمعونه ويطابقونه عليهم قائلين : ما احسن ما تناسب هذه العبارة فلانا الموسر الخبيث . وهذا المعنى الآخر يصح في فلان الغني المتكبر . وهذا المقال قيل لا محالة عن فلانة تلك المتباهية في جميع الاباطيل : انما لو كانت ههنا فلانة . لكانت تتونب وتختزي * فيا ايها السامعون المخناجون الى القوت الروحي افتكروا ان تغتدوا انتم . واهتموا بان تشبعوا انفسكم . لان هذا القوت الذي تقدمونه لغيركم لا يقوتكم * قال روح القدس « اي كلمة سديدة سمع العاقل . استحسنها واقتبلها » (سيراخ ٢١ : ١٨) * معنى ذلك هو ان الانسان الحكيم الراغب نجاحه ينسب لنفسه كل ما يسمعه من الوعظ والخطاب المفيد * ولا ريب في ان من هو هكذا . يشبه شجرة الدارصين المغروسة في ارض رطبة . فهذه لا تغذي ولا تنمو الا بان تجذب اليها الماء القريب منها وتصله اليها . حتى انها تشف كل البجيرة المغروسة بجانبها * ثم انه يضاهي ايضا السرو المغروس في ارض مدغلة . فيمتص كل الرطوبة حتى انه يبس الارض التي حوله * فان كان لكم رغبة في ان تجنوا من الوعظ فائدة . فاهتموا واستمعوه بشوق وسغب . لانكم هكذا تعدون من جملة

اولئك السعيدي الحظ الذين قال السيد المسيح في شانهم انهم « يسمعون الكلمة بقلب جيد طيب . فيحفظونها » (لوقا ١ : ١٥) * اجعلوا كل شيء تسمعونه لفائدكم . افنكروا في نفوسكم فقط . وهكذا ياتكم في ذواتكم على مثال جزء جدعون كل الندى الذي يهطل عليكم . ولا تركوا ان يسقط خارجاً عنكم شيء منه ولو نقطة واحدة * غير ان الداء كله انما ياتي من قلة الجوع الروحي . ومن ثم فقليل ما هم الذين يفكرون مهتمين في نفوسهم اهتماماً صحيحاً في وقت الوعظ . فيعطون فرصة للشيطان ان يجلس بسهولة عظيمة من نفوسهم كل تعليم وكل كلمة يسمعونها . من اجل انهم لا يهتمون بنجاح انفسهم * قد يمكن انكم رايتم في الولايم العظيمة المحافظة كيف يقف حولكم احياناً بعض الخدام مستعدين ان يرفعوا بسرعة كمثل البواشق تلك الصفحة التي امامكم * فعلى هذا النسق تفعل الابالسة في حين الوعظ . فانهم يجدون في ان يخطفوا من بين ايديكم الطعام الخلاصي المفيد لكم . وليس من بين ايديكم فقط لكن من احشائكم وقلوبكم ايضاً . حسبما قال عز قوله « فياتي ابليس . فيترع الكلمة من قلوبهم . لكيلا يؤمنوا فيخلصوا » (لوقا ١ : ١٢) * ومن هنا اقول : من ذا يستطيع ان يصف بكم من الصنيع الردي والحيلة الخبيثة احنالت الشياطين ليمنعوا فائدة الوعظ السماوي عن الجماعة المسيحية : اقرأوا التواريخ المقدسة فتعجبوا من ذلك * ان القديس انطونيوس البادوي جندي السيد المسيح البطل العظيم اشتهر اسمه وشاع ذكره في كل مكان لغيرته الحارة في الوعظ . وكانت الناس تتوارد اليه من كل صنف ومرتبة ويستمعون وعظه بجملة وازدحام عظيم . حتى التزم ان يترك الكنائس ويمضي الى الفيافي المتسعة ويكرز هناك لكي يسهل الاستماع لذلك الجسم الغفير الذي كان يرد اليه * ولكن ما الذي كانت تصنعه الابالسة المحسودون ليمنعوا الخير الناتج من وعظه : انهم حيناً كسروا تلك الخشبة التي كان يرتقي اليها بمقام المنبر في حين الوعظ قاصدين بذلك ان يجعلوا السجس والضجة في الجماعة . ومرة ظهروا بهيئة سعاة يناولون النساء رسائل ليثيروا في قلوب السامعين الشتات والقلق .

ولم يكتفوا بذلك . بل اجتهدوا مرةً اخرى ان يربحوا السامعين ويبددوهم بعواصف
وصواعق وبروق وبردٍ ومطر انزلوه عليهم من الجوّ * وحينما كان القديس عبد الاحد
مرةً بعض . ظهرت الشياطين في وسط الجماعة شبه سلاحف هائلات الصور
وكريهات المنظر جدًّا * وعندما كان القديس وثقثيس بعض . تراءت الملاعين
بين السامعين بصورة خيل هائجة غير مروضة * واذ كان القديس كثرترس بعض
بجراحة في ساحة قرية ملوّة خلفًا كثيرًا . القوا نارًا عظيمةً في احد بيوتها حتى انهم
حرّكوا تلك الجماعة كلها ليسرعوا ويطفئوا النار . فعرف القديس ان ذلك حيلة
من المحال . ولما عجز عن الصراخ ليردّ الناس اليه . ابان للجميع ان تلك النار
خيالية وذلك برسمه اشارة الصليب المقدس عليها . فانطفأت واضمحلت معها
الدخان * هذه هي الحيل الرفيعة التي اصطنعها الشياطين الخبيثاء ليخطفوا الطعام
الروحي من المومنين . حتى الصالحين الذين هم جياع ومتعطشون الى الكلام
الساوي * « فيترعوا الكلمة من قلوبهم . لكيلا يؤمنوا فيخلصوا » * غير اني
انا عالم بان الشياطين في ايماننا هذه التي بها خمد جوع المسيحيين واشتياقهم الى
كلام الله . لا تخترع اختراعات ظاهرة مكندا وباهظة . ومع ذلك فهل تظنون بهؤلاء
الارواح الاشرار قد ارتجعوا عن تسجيس الشعب المسيحي ومنعمم الفائدة التي ينالونها من
استماع كلام الله تعالى بانواع اخر غير منظورة : حاشا وكلا * ليت شعري كم اخبرتم
ذلك في انفسكم حيث كنتم في الكنيسة تستمعون الوعظ . وكم من مرة اعتراكم الضجر
بغتة وجعلكم تشعرون بالخطاب الروحي انه تارة ناشف يابس وتارة مكرب .
وطورا معرقل ومشتبك المعاني . وآونة ترونة مستطيلاً جدًّا . واحيانا يداهمكم
النعاس . وتارة اخرى تشغلكم الافكار . واحيانا يصعب عليكم ان تضبطوا اعينكم حتى
انها تنطلق عن رغمكم ايضا لترقب من يدخل ومن يخرج * وما شائي ان اقول عن
بعضكم انه انما يرصد هل اتت الى الكنيسة تلك المرأة الفاسدة التي يرغب ان تاتي الى
الكنيسة كما اراد احشويرش ان تاتي وشي الملكة امراته الى الوليمة لا بقصد ان تاكل بل

ليرى جمالها * ولكن ما هو سبب كل هذا الشتات وهذا الاخبط العفلي في وقت يسير. وما هو معناه: لعمرى انه ليس له سبب سوى الشياطين اعداء نفوسكم * اعقلوا جيداً ما اقوله لكم. واقتنعوا بكلامي. واعلموا ان الشياطين هم الذين لسوء شرهم يسعون في ان يشتتوك ليخطفوا من بين ايديكم الطعام الروحي. وبصيروا تلك الكلمة ان تفوتكم او يخسروكم تلك العبادة التي ربما تفيدكم اعظم افادة * فهم الصقور الجهنمية التي طارت من جهنم وانت الى الكنيسة لتلتقط منكم قوتكم. وهم الغربان المستقيمة الهية التي وثبت على ذاك السل لتخطف منه الخبز الذي كان حاملاً الخباز الى فرعون موله. وهم النسور الوقحة الجسورة التي كانت تدنو من غير خوف الى الضحايا التي كان يقدمها ابراهيم الى الله تعالى * فاصغوا اذا جيداً ايها السامعون. واستيقظوا حسناً الى استماع الوعظ: لانكم ان اذنتم لمثل هذه البواشق الجهنمية بالدخول اليكم وبالجولان حولكم. فلا ريب انكم تعودون من بعد نهاية الوعظ الى منازلكم صائمين. وربما لا تصبرون الى نهايته. بل تحاكون يهودا الدافع حيث قام عن مائدة العشاء وذهب * ولكن كيف تستطيعون ان تحسنوا الصمت والاصغاء الى الوعظ ان كنتم فارغين من هذا الجوع الروحي * ولعمرى ان اردنا ان نقول الحق. وجب ان نحكم بان علة كل الضرر والفشل الحاصل في نفوسكم انما هي قلة الجوع والشوق الى استماع التعليم السماوي * واذا كنتم خالين من ذلك. فتخرجوني الى ان اندب سوء الحال الذي اتم فيها وان انوح عليكم لانكم صرتم في شقاء عظيم ودنوتكم من الهلاك *

ولعلمكم تستصعبون قولي هذا ايها السامعون ويزعجكم. ولكن هل تظنون انه ليس لي حق ان اتفوه به: ها هوذا من يشهد به ايضاً وهو كسيودوروس الفريد في عصره بقوله «ان عدم القابلية للسنة الالهية هو مرض عظيم وشقاء جسيم» * وكما ان قبول المعدة الغذاء الجسدي هو من اوضح الدلائل على الصحة والعافية. كذلك نقول ان الارتياح الى القوت الروحي هو دليل خال من كل ريب على

صحة الروح وعافيتها * هكذا ذهب بإجماع جمهور القديسين كافة. ولا سيما الذهبي
 فمه وبرنردس وامبروسيوس واوغسطينس وغريغوريوس. بل هكذا علم السيد المسيح
 نفسه بفيه الالهي لما اعطانا تلك العلامة المشهورة في ان غيّر المنتخبين من المرذولين.
 وأكد لنا ان المنتخبين يسمعون التكلم في الله تعالى بلذة وشوق. والمرذولين يسمعونه
 بكره وضجر. وذلك بقوله « من كان من الله . يسمع كلام الله » (يوحنا ٨ : ٤٧). ثم
 قال لليهود الاشقياء : « ولاجل ذلك انتم لا تسمعون لانكم لستم من الله » لا تعجبوا
 من ذلك ايها السامعون . لان هذه هي الطريقة التي سنّها الله تعالى بوجه عام
 ليخلص بها المنتخبين . اي استماع الانذار بالحق * اسمعوا ما كلمنا به قدس اسمه بضم
 اشعياء النبي قائلاً « اسمعوا وتحيوا نفوسكم » (اشعياء ٥٥ : ٢) * انه لا شك في انه جلت
 قدرته له قدرة ان يخلصهم بطرائق اخرى . اي ان يتقدم بطرق الرؤى السماوية . او
 بالهامات باطنة . او بتنويرات العقل . او بتلاوات روحية . ولكنه لم يرد ان يخلصهم
 بها . مع انها غالباً وسائط عامة للخلاص * ويسوغ لي ان اقول انه لا يوجد سبب
 لذلك سوى ما اورده القديس برنردس . وهو انه تعالى جعل ان تدخل الحيوة من
 ذلك الباب الذي منه دخل الموت * لانه كما ان الموت دخل من الأذنين المفتوحين
 الى استماع كلام واعظ غاش خائن وهو الحية الخبيثة في الفردوس الارضي . هكذا
 وجب ايضاً ان تدخل الحيوة من الأذان المفتحة الى استماع الواعظين الصادقين *
 ان يختصر ملك بابل ابصر بناظره سقوط تلك الشجرة العظيمة التي كانت عبارة
 عن ملكته . وعابن كل ثمرة من ثمارها تتهراً . وشاهد كل زهرة منها تذبل . وابصر
 كل غصن يجف . ورأى في وقت واحد كل الوحوش تهرب منها . وجميع الطيور التي
 كانت قديماً تستظل تحتها تطير مبتعدة عنها . ولكن ما الذي نتج من ذلك : العلة
 مشاهدته هذه وحدها كفت لتزعجه : كلاً . بل قد احتاج لزعاجه ما عدا هذه المشاهدة
 ان يسمع صوت دانيال النبي الحي * وداود الملك مع انه كان متصفاً بقلب رقيق لين .
 لم يتحرك الى الندم والتأسف على خطيته التي ارتكبها بتل اوريا الجندي الشهم

الفريد في عصره. حتى رأى ناثان النبي إذ أتاه وسمع صوته الحيّ يوبئه * وهكذا
يهوشافات مع أنه كان ذا ضمير ضيق موسوس لم يتحرك إلى مقت الألفه الذميمة
التي بها ربط نفسه مع أخاب الملك الكافر إلى أن سمع صوت ياهو يردد عنها * ولا ريب
في أننا لو اردنا أن نورد شيئاً من اخبار الكتاب المقدس ومن الكتب البيعية. لكنك أريكم
أنه من مائة خاطئ في الأرض يتوبون إلى الله تعالى إنما يتوب التسعة والتسعون بالوعظ *
ولكن لكيلا نطيل الخطاب بايراد الاخبار فيكفينا الاثبات ذلك خبر توبة اوغسطينس
المغبوط وهو الملقب بالجميل الفريد * لعمرى أنه من الأمر المذهل أن عقل هذا المعلم لم يكف
لرجوعه من ضلاله إلى الله ولا انصبابه إلى تلاوة الكتب. ولا علمه الغريب. ولا
شوقه المضطرب المتلهف دائماً إلى أن يبحث ويفحص ليجد الحق. بل احتاج إلى أن
يرافق مرات شتى القديس امبروسيوس بمقام الطفل. ولم يعزم على أن يغير الدين
والديانة الأبعد أن سمع منه عدة خطبات في الكنائس ونصائح له بينه وبينه.
وهذا هي التي رجته * فإذا قد ضل وانخدع في نفسه كل من يظن أنه يستطيع أن
يتوب إلى ربه بطريقة أخرى غير الطريقة التجارية المطروقة. أي طريقة الوعظ
والتعليم * فتلك العظة التي تسمعونها في يوم من الأيام أو في مكان من الأماكن أو
من لسان أحد الواعظين هي العتيدة أخيراً أن تجرح قلوبكم. لأنه بها قد أراد
الله أن ترجعوا إليه تائبين أن كنتم حاصلين في الخطأ. وأن تثبتوا في النعمة أن
كنتم فاعزين بها * أنه لاشك أيها الشعب المسيحي في أن روح القدس ليس بلا
سبب واجب يكرر علينا حاتماً مرات كثيرة وبأنواع متعددة أن نصغي ونستمع قائلاً
« اسمعي يا بنت وانظري. وانصتي بأذنيك » (مز ٤٤ : ١١). وقال أيضاً « أمل أذنك
واسمع أقوال الحكماء واجعل قلبك إلى تعليمي » (امثال ٢٢ : ١٧). وقال أيضاً « أمل
أذنك. واقبل كلام الفهم » (سيراخ ٢ : ٢). وذلك لأنه يعرف جيداً الطريق التي
بها يشاء أن يلج قلوبنا ويسكن فيها بنعمته * غير أننا اوردنا قليلاً من شهادات
كثيرة * ثم أنني اظن أنه من المعلوم عندكم يا أيها السامعون أن المنتخبين يسمون في

الكتاب الالهي باسم الحكماء. والمرذولين الهالكين باسم الجهلة. كما يتضح لنا ذلك من المثل الشهير مثل العذراى اللواتي ادخل منهن العروس الالهي خمسا واذل خمسا وطردهن * فبعد ان تقرّر لديكم ذلك اعلموا وتحقّقوا انّ الشيء الذي عينه روح القدس بمنزلة صفة خاصّة بالحكماء. وكعلامةٍ مخصوصة في الجهلة هو هذا التعريف. وهو انّ الحكماء يسرعون ان يسمّوا كلام من يكلمهم لخبرهم وفائدتهم. والجهلة يستصعبون السمع * وماكم ما نوردّه الآن من نصوص الكتاب المقدس : قد قيل في سفر الامثال « الحكيم يسمع المشورات » (امثال ١٢: ١٥). فهذا النصّ الواحد يثبت صفة الحكماء المشار اليها آنفاً. وقيل ايضاً « اذن الحكماء تلمس التعليم » (امث ١٨: ١٥). وايضاً قوله « قلب الفهم يملك العلم » (امث ١٨: ١٥). وقال ايضاً « قلب الفهم يقترح المثل. واذن السامع منية الحكيم » (سير ٢: ٢١). وهذا النصّ هو ايضاً نظير النصوص المذكورة. وهو يغنيننا وحده عن ايراد عدّة نصوص * ولكنّ الجهلة يقال عنهم غير ذلك في الكتاب المقدس. فاسمعوا وافهموا ما يقال عنهم من الكلام المرعب القلوب : قال في الاصحاح الثامن عشر من سفر الامثال « لا يقبل الجاهل كلمات الفطنة » (امث ١٨: ٢). وقال ايضاً في موضع آخر « يخاطب نائماً من يحدث الاحق بالحكمة » (سير اخ ٢٢: ٩). وفي موضع آخر قيل « الجاهل يستهزي بتاديب ابيه » (امثال ١٥: ٥). وقيل في موضع آخر « اما الجاهلون فيحترقون بالحكمة والتعليم » (امثال ١: ٧). وفي موضع آخر قيل « المستهزي لا يسمع الانتهار » (امثال ١٢: ١). وقيل في موضع آخر « المستهزي لا يحب من يوبخه. ولا يذهب الى الحكماء » (امثال ١٥: ١٢) * ومجصر الكلام اقول ان اشعياء النبي لما اراد فيما بعد ان يبين كثرة الشرور التي انتهت اليها امة اليهود المنافقين. فكانه تحرك من هذه الشواهد الكثيرة التي نطق بها سليمان الحكيم بتلفين الله تعالى. فسماهم ابنا غير مهذبين. ابنا عصاة وابنا غير راغبين ان يسمّوا السنة الالهية. وذلك بقوله « انهم اولاد لا يحبون ان يسمّوا ناموس الله » (اشعيا ٥٠: ٩) وكانه اراد بذلك ان يشهرهم بانهم قد صاروا من المعدومين الهالكين * فلنات الآن

الى مطالوبنا . ولتختم الكلام معكم أيها السامعون قائلين : ما هو ، ايكم فيما اوردته على
سماعكم من شواهد الكتاب المقدس : العلم لم تنتنعوا بان عدم الجوع الى كلام الله
كما قلت لكم هو مرض عضال وداء مهلك . والحال ان الذي هو خال منه هو
مقطع الرجاء . حسب راي جميع الاطباء الروحانيين الذين قدموا للعالم اشارات
وعلامات في الموت الابدي . وتلك العلامات ليست بشرية ومرتاباً فيها . بل هي
علامات الهية واجبة التصديق التام * فما الذي ينبغي لكم ان تفعلوا لكيلا تعطوا
اشارة فيكم للهلاك : ان الذي ينبغي لكم هو ان تحيوا في نفوسكم بكل قوتكم هذا الجوع
الى التعليم السماوي . وتحيوه بالتجنب من تلك الملاعب الباطلة التي رايتها تنتصب
احياناً حتى في الأيام المقدسة . وتحيوه بابتعادكم عن العشرات الذميمة ثم بالطرب
من رفقة الخلان الجهلة وابعاد شفاكم عن الشرب من الكاس المسومة اي من
الكتب السفية التي هي لديكم موموقة لذينة . وتحيوه خاصة بكثرة استماع كلام الله
تعالى * لان الاختلاف العجيب بين اطعمة الجسدية والاطعمة الروحية هو هذا .
وهو ان الذي يطلب ان يجوع ويشتاق الى تلك الاطعمة يلزمه ان يصوم او على
الاقل ان يتناول منها قليلاً قليلاً باقتناع * ولكن الذي يجب ان يجوع الى هذه
الاطعمة الروحية ويتوق اليها . ليس له سبيل اصح من ان ياكل منها كثيراً وبواتر
عظيم *

القسم الثاني

انظنون يا هؤلاء انني لست افكر جيداً في ما سوف نقولونه فيما بينكم عند رجوعكم
الى منازلكم * لعلمكم تقولون بان السبب الذي حرّضني على ان اخاطبكم اليوم في المعنى
المذكور ليس دو كنه غيره في مجد الله تعالى وخيركم . بل اكثره من جرى الطمع
وايثار المحبة لنفسي . اي انني ارغب ان تقاطر الناس افواجا كثيرة الى استماع الوعظ
مني لا من غيري * ولاجل ذلك يمكن ان تتوهوا بانني بالغت في بيان وجوب

الجوع المقدس الذي يجعل ان تمتلي الكنيسة كل يوم من الخلق * ولكن بماذا تريدون
 ان اجيبكم على ذلك : هل اجيبكم بانني لست اُسرُّ مبتغياً حقاً بمشاهدتي الكنيسة
 ممتلئة من الناس . والحال انني ان قلت ذلك . فضلت نفسي من باب الجهل
 بالقداسة على اوغسطينس العظم الذي كان في عظامه التي قالها تفسيراً للزبور
 الالهى . يمد الناس مراراً كثيرة لاجل حسن المواظبة والفرح اللذين كانوا بها
 يتواردون الى استماع خطابه * وجعلت نفسي ايضاً اقدس من القديس برنردس
 الذي كان يباليغ في مدح رهبانه الذين كانوا يستمعونه بنصته حسنة وادة وافرة حينما
 كان يعظ في ايام الصوم المقدس . واقدس ايضاً من يوحنا الذهبي فمه الذي نادراً
 كان يخطب خطبة من غير ان يشكو من قلة وجود السامعين ويفرح بازديادهم .
 وقد شبه نفسه في عظه التاسعة بالأم الراوفة اذ تحس بغتة بان قد طغ على
 قلبها الحزن والمرارة عند مشاهدتها واحداً من اولادها غائباً عن المائة ولا يمكنها
 ان تصمت من ان تسأل بقلب جريح وتنالم عما جرى منه * ولذلك اقول :
 اعوذ بالله تعالى انا الخاطي الشقي ان اقول ان الحالتين عندي متساويتان . اعني
 حضر كثيرين هنا او قليلين . لكوني اشتهي واطلب ان اراكم كل يوم مجتمعين جميعاً
 هنا في حين الوعظ لان ازدحامكم بسرني * ولكن مع ان ذلك صحيح فان ظننتم بي
 انني ارغب واشتهي ذلك من اجل فخري ومجدي . افترتم علي وظلمتموني * نعم
 انه قد يمكن ان يكون كذلك ولست انكره . لان الكبرياء اساسها عميق في الانسان .
 وقد يوجد « من الناس من يخضع بحبث القلب . وجوفه مملوء مكرًا » كقول بشوع
 بن سيراخ (٢٢ : ١٩) . ولكن مع ذلك كله فلي رجاء بانني خال من هذه الخفة العلي
 اوصيتكم قط بان تاتوا الي لتستمعوا الوعظ مني لا من غيري . فها ان لكم واعظين
 كثيرين في هذا الصوم افضل واعلم مني يتدرون ان يقدموا لكم مائدة فاخرة
 لتغذوا منها * فلاحظوا خير انفسكم وفائدتها فقط . وحيثما وجدتم قوتاً صالح وانسب
 لها . فهناك اذهبوا * غير انني اطلب اليكم متوسلاً بان لا تتركوها صائمة * آها يا

أيها المسيحيون الاحبياء. اما هو ما يستحق الاسف والبكاء انكم لكي تقوتوا جسداً بالياً
منتناً تعانون اتعاباً وافرة وتنفقون اموالاً جزيلاً جداً. والنفس الشريفة
غير المائة تغاضون من الاهتمام بها * او اوه من يعطيني عبرات الدموع السخينة لابي
بالكفاية على هذه الغباوة الشنيعة. او من يعيرني كلاماً لارثيها ونوحاً وعجيباً لاندبها *
انه اذا بقي الجسد يوماً واحداً فقط من غير اكل. فكل انسان يتألم ويشكو * واما
النفس فتستمر مرات متعددة خالية من القوت لا يوماً واحداً بل اسابيع بل
شهوراً. وما من احد يشكو ويتألم * لعمرى انكم لو ادركتم حسناًكم من الفائدة يمكن
احياناً ان تنتج لكم من عظة واحدة اذا سمعتموها كالواجب. لكنكم حقاً بلا شك
تظفرون بكل صعوبة. وتستهنون بكل تعب لتمضوا وتسمعوها * اسمعوا خبراً في
اثبات ذلك *

قد ذكر عن بولس المعروف بالوديع انه قد كان معتاداً ان يجلس مراراً
كثيرة مقابل باب الكنيسة الجامعة ليرقب بعيني روحه النقيتين الناس الواردين
اليها اشراراً واخياراً. واذا به ذات يوم عاين منظراً مخوفاً جداً. وذلك انه ابصر
خاطئاً مهزولاً رذيلاً وشنيعاً جداً. آتياً الى الكنيسة مغاللاً ما بين شيطانين. وكان
ملاك الحارس سائراً وراءه من بعد بوجه حزين وبقدم متمهله * فشرع بولس
البار يبكي من جرى هذه الرويا المريعة بكاءً عظيماً. ولكنه بعد زمن يسير تعزى
وفرح فرحاً ليس باليسير. لانه عند ما خرج ذاك الخاطي المسكين من الكنيسة
راه معتوقاً من الابالسة. بل راه ايضاً جميلاً نقياً متلائماً وجهه جداً حتى انه بالجهد
عرفه من ملاك الحارس الذي كان سائراً معه ومجذاه. فرحاً مبهجاً لا حزيناً مكدرراً
كما كان سابقاً * فركض حينئذ مسرعاً وارقفه. وسأله والتمس منه بقسم ان لا يخفي
عنه قصته * فاجابه ذاك قائلاً بانه سمع من على المنبر كلام اشعياء النبي « ان
كانت خطاياكم كالقرمز. شبيص مثل الثلج ». فتحرك من ذلك مترجياً الغفران.
وشرع يتأسف على خطاياه اسفاً شديداً حتى انه غلب كل عائق وقطع كل قيد

ورباط . ورجع الى بيته بعزم ثابت على اصلاح سيرته * اما لو كان يستطيع احد ان يرى كم وكم من المسيحيين يخرجون من الكنيسة بعد الوعظ متغيرين عما كانوا قبل ان يدخلوا ليستمعوه . لكنتم انتم ايضا تخرجون ان تحدث لكم اختلافات حسنة غريبة * وقد اعبر هذا المعنى القديس يوحنا فم الذهب في ميمره الثالث عن التوبة فقال « ان الحيوانات التي خرجت من سفينة نوح خرجت مثلها كانت قد دخلت . فالغراب خرج غراباً . والذئب ذيباً . والثعلب ثعلباً . والقنفذ قنفذاً . وهلم جرا . واما الكنيسة فلا تخرج منها الحيوانات مثلها دخلت . بل انها تبدلت . ولكن لا تبدل فيها الطبع بل الشر والخطا * آه نعم لقد دخل البيعة كالغراب ذاك الخاطي الذي لفساوة قلبه كان يؤخر التوبة من يوم الى يوم . وها هو يخرج منها بغتة نادباً نائحاً على خطاياها نظير الحمامة * دخل بمنزلة ذئب خاطف ذاك المرابي الذي كان يسهن جسمه من دم الفقراء . وها هو يخرج رحوماً ودبعاً مثل النعجة ومستعداً لان يعطي صوفه ايضا للعراة ليكتسوا به * دخل شكل ثعلب خبيث ذاك الخائن الذي كان يرفع نفسه منزلةً وشرفاً ليخفض اعداءه . وها هو يخرج نظير ظبي ودبوع بلين سلوكه مع كل احد * فها هذه الحوادث الغريبة : لعمرى انها التغييرات الحسنة التي يحدثها كلام الله تعالى الذي اذا ذاقه المسيحيون واستلذوا به . فمن شأنه ان يؤثر فيهم هذه التأثيرات العجيبة * قد قيل ان الاطعمة التي كان كركيس الصنم يرقبها قديماً كانت تحبل الناس الى حيوانات * ولكن هذا القوت الالهي المحي الذي نحن في صددِه لا يفعل كذلك . بل يحبل الحيوانات الى بشر . وليس يحبلهم بشراً فقط لكن يجعلهم ملائكة من السرافيين * هذا هو الذي احال موسى الحبشي من لص قاس الى راهب نقي . بل صيره قديساً . لانه استمع عظة واحدة فقط عن جهنم مع ان استماعه لها كان صدفةً واتفاقاً * وهو احال بلاجيا الزانية وجعلها سائحة ومنفردة في الفيافي المقفرة * وهو الذي احال تايقة الفاجرة وجعلها تائبة ونائحة على خطاياها * طوبى ثم طوبى لكم ايها السامعون ان كان هذا التعليم

يجعلكم ايضاً كذلك . اي يجعلكم من غير كاملين في تقوى الله تعالى الى كاملين . فمن لا
 يجوع ولا يطلب بكل الشوق هذا القوت القوي المؤثر العجيب بهذا المقدار * فهذا انني اعيد
 الوصية واكررها عليكم من صميم قلبي قائلاً : اسعوا مجتهدين مجدين لكي تحصلوا على هذا
 الجوع المقدس ان كنتم خالين منه . اطلبوه من الله تعالى باكثر وتكرار . حرّكوه
 فيكم وايقظوه . وان كنتم قد فزتم به . فتقووا وارذلوا كل شي لكي تنموه * قال ارميا
 النبي في شان اولئك الجياع : كان اورشليم انه اعطوا كل شي لهم من الثمين . اي
 من النضة والذهب والجوهر . ولم يقولوا لهم شيئاً من ذلك . لكي ياكلوا او يقتاتوا *
 وهام نص كلامه « اعطوا جميع ثمائهم بدل القوت لتقوية النفس » (مراثي ١ : ١١) *
 فنظير ذلك ينبغي لكم ان تفعلوا انتم . اي يجب عليكم ان تنبذوا كل شي وجميع
 « ثمائكم لتقوية انفسكم » بكلام الله تعالى * لانه اذا دنا وقت الوعظ . فلات وقت
 الاهتمام بالارباح والمكاسب . والمناظرة على الاملاك . والسعي بالداوي المختصة
 بالحكمة . والبحث عن الاخبار . وقبول الزيارات . والانهماك في الاشغال . لكن ينبغي
 لكم ان تنبذوا كل هذه الاشياء وتتركوها وتذهبوا اولاً الى استماع ذلك الوعظ * انه
 لما جاع عيسو . فهل فكر حينئذ في البكورية : كلا . بل على ما هو معلوم وهبها بعار
 عظيم وذلك بقليل من العدس * ورب جائع رهن املاكه . ورب غيره رهن
 امتعته * والمصريون تنزلوا طوعاً واخياراً عن اراضيهم وحقولهم كلها ليوسف ليدفع
 لهم القوت في سني الجوع * فهلم هلم اذا نعط النفس ايضاً اودها وقوتها . وليفن من دونها .
 وليبد كل ما سواها منها كان * والحمد لله دائماً *

الخطبة الخامسة

ننضم ابصاح كثرة الخجل الذي سيستخوذ على الخاطيء في الدينونة
الاخيرة من افتضاحه تجاه العالم باسره

«واذا جاء ابن الانسان في مجده . يجتمع امامه
كل الامم» (متى ٢٥ : ٢٢٢١) *

القسم الاول

حتى متى يتجاسر الخطاة والى مَريطعون في رحمة الله العظيمة التي قد تنازل
الى ان يستعملها معنا الى الآن * لقد صمت جل ذكره الى الآن كأنه لا يحس
بالسيئات التي بها يسيء اليه البشر * ولكن العلة يستمر صامتاً وكأنه عديم الحس
دائماً كلاً . لأننا نعلم جيداً ان الصبر اذا بُغي عليه وحقر زماناً مديداً يستحيل اخيراً
الى غضب * انحدروا اذا يا ايها الملائكة الموكلون على الانذار بيوم الدينونة المخوفة .
واهتفوا بابواقكم . وأظهروا للائمة العصاة حقيقة ما انا قائلة * اظلي ايتها السموات
واجبي عنهم انوارك خلا البروق * امطي ايتها النار من العلاء . واحرقي جميع قناياهم *
انفخي ايتها الارض وابتلعي ابناءهم * انفلتي ايتها الوحوش واخرجي من اوكارك الى
لقاء اولئك الاشقياء الهاربين خوفاً ورعباً من المدن الى المغاير ليخفوا فيها .
ومزقتهم وافتسهم وايدهم . ولا تبقي احداً يفخر بانة نال النجاة من سخطك * ولكن
ما لي وذكر هذه البلايا العتيدة ان تسقط على الخطاة . لان هذه لا محالة قد اندروا
بها عدة مرار من غير فائدة . وانا اعلم انني قد اتيت بذكرها وشرحها لهم من المنابر
في مبادئ سني رهبتي اذ كنت بعد شاباً ادرس علم البديع والبيان . ومع ذلك لا
اعلم هل احدثت عظامي تأثيراً ما في وجوه السامعين . او صيرت قلوباً من القلوب

يخفق ارتباعاً ولكن وان كنت ملتزماً في هذا اليوم ايضاً ان اخاطبكم في الدينونة
 العامة. الا اني قصدت ان اترك جانباً ذكر البلاء المشار اليه آنفاً وغيره ايضاً.
 وان آتي بشرح بلاء آخر يمكن انهُ لم يفكر فيه احد ولا التفت اليه * ولما كان هذا البلاء
 مختصاً بالانسان وحده. فلا عجب اني ارهب واخيف من كان حافظاً بعد في نفسه
 صفات الانسانية * قلت مختصاً بالانسان. لانه ليس بلاء من سائر البلائى الجسمية
 يمكن ان يتأدب به الانسان وحده * وهل يمكن ان يتأدب وحده بالجوع. او
 بالضرب. او بحريق النار. او بالتجريح. او بالموت * قال القديس توما اسقف والنسا:
 انه ليس شيء من هذه البلائى المذكورة يختص به الانسان وحده. لان هذه تجري
 على الحيوانات ايضاً. وانما البلاء الذي يتأدب به وحده ليس هو الا الخجل * وقال
 ايضاً في الخطبة الاولى التي قالها في الاحد الاول من صوم الميلاد: ان الحيوانات لها
 ان تضرب وتقتل وتُحرق. ولكن الخجل ليس هو لها. ولجل ذلك لا يودب الانسان
 تاديباً انسانياً الا حينما يخجل عن خطاياها جهاراً * فلا تاملوا مني يا ايها السامعون
 ان اخاطبكم اليوم في خطبتي هذه عن الابخرة النارية التي سترى في الجو بمناظر
 مربعة مخيفة كما يفعل غيري. ولا عن اصوات الرعود العظيمة ولا عن الغيوم
 الدخانية المتلبدة. ولا عن الأمطار النارية المتكاثرة. ولا عن الصواعق الهاطلة
 كالبرد. ولا عن السواد المدهم الذي تسربل به الشمس. ولا عن الدم الذي يقطر
 من القمر. ولا عن تساقط النجوم وكسوفها * فهذه المخوفات اتركها كلها جانباً. واخاطبكم
 عن امر واحد فقط مربع جداً لتأملوه اليوم وترتعدوا. وهو خجل الخاطى المفضوح
 تجاه العالم * اما تسلمون لكلامي هذا وتقررون بان هذا اروع واوجع من جميع الامور
 المخيفة التي سترى في ذلك اليوم العظيم يوم الدينونة العامة: لعمرى انه ينبغي لكم
 ان تقرروا به معترفين ان كنتم بشراً ذوي عقل رشيد لطيف. متصفين بأخلاق
 ظريفة مهذبة كما يشهد فيكم حسن صيتكم الصالح * ومن اجل ذلك احسنوا السمع
 والاصغاء الى ما اخاطبكم به الآن. ومن كان منكم لا يشعر بعد ذلك بانه يرتعد خوفاً

ورُعباً في داخله من قبل الوجَل . فليخش من ان يكون اثم الخطية قد احاله من انسان الى حيوان وهو لا يفتن بذلك *

انه ان كان قد اتفق وجود هوان منجل عظيم في العالم . فلا شك في انه يكون الهوان الذي صنعه حنون ملك بني عمون في الوفد الذين ارسلهم داود الملك اليه ليعزوه في وفاة ابيه * فان هذا الملك حنون الاحق المفترى على سنن العالم الادبية . عوضاً عن ان يقبل اولئك الوفد باكرام واعزاز . خلق شعور رؤوسهم من اصولها بمنزلة اسارى . ثم خلق نصف لحية كل منهم كانهم مساخر . ثم مزق ثيابهم حتى ادبارهم . وذلك ليري بهم منظرًا ذا هوان وعار اعظم * وبعد ذلك الزمهم ان يظهروا في هذه الحال تجاه نبلاء دولته واعيانه واكابره . ولم يكتف بذلك . بل الزمهم ان يسيروا في شوارع مدينته ما بين الخلق * وبعد ان شبع هو وآله من الاستهزاء عليهم وسر فرحاً بما فعله بهم . ارسلهم منضوحين على هذه الحال الى ارضهم * فان كان هؤلاء المساكين شعروا منجل عظيم او لا . فعليكم ان تاملوا ذلك في نفوسكم * واما انا فيكفيني ان اصدق وفور المنجل والاستحياء اللذين استحوذا عليهم من شهادة الكتاب المقدس القائل «انهم كانوا يستحيون جداً» ٢ سموئيل ١٠ : ٥ . ومن هنا استلزم انهم لم يكونوا يحسرون ان يرفعوا عيونهم لفرط الحياء . ولا ان يتفوهوا بكلمة واحدة . بل او خيروا لارتضوا بجز الراس بالسيف ولا باحتمال هذا الحياء والمنجل تجاه الناس * وان كان ذلك كذلك . فليت شعري ماذا مجل بالقوم الائمة المرذولين في يوم الدينونة . لكونهم عنيدين ان يجالوا هواناً وعاراً اعظم جداً مما اوردناه . وليس في مدينة ما ولا امام نبلاء دولة . لكن بازاء جميع الجنس البشري . وسيروا الديان الازلي جالساً فوق السحاب على عرش ذي قوة مخوفة وحوله مراتب جالسين لا يحصى عددهم . اعني الرسل والاباء والانبياء والشهداء والمعتزين والعداري والنسك مسنقرين في كراسي بهيئة جليلة حسب اختلاف درجاتهم افواجاً افواجاً . ومع هؤلاء يشاهدون من الملائكة لا افواجاً بل جيوشاً عظيمة

متسلحين . يفوق الحدّ عددهم . يحبون الجوّ بكثرتهم . ويزيدون ذلك المحفل عزّاً
وجلالاً وهيبةً فيلنزم حينئذٍ الخطاة المرذولون ان يحضروا عرّة مخذولين خجلين
منكسي الرؤوس امام هذا المحفل العظيم . وهو محفل شعب ملتئم من ملوك وسلاطين
يكون كلّ منهم ابهى نوراً من الشمس ليدانوا قدامهم مع كونهم اناساً مثلهم ومن طبيعتهم
ايضاً * ليت شعري من يستطيع ان يدرك وفور الخجل الذي يشلمهم وقتئذٍ امام ذلك
المحفل العظيم بل لدى العالم كلّهِ . ولا سيما اذ يبصرون انفسهم بسحبهم الى هناك
الابالسة بمنزلة مجرمين متضيّ عليهم . ويسوقهم افواج شياطين شنيعي الصورة كأنهم
يريدون ان يفتخروا بهم كأنهم الغنائم التي اكتسبوها من العالم . ومن ثمّ يدفعونهم
ليحضروا باللطم والرفس والضرب والهزؤ والتعبير المرّ * أفلا يستبين لكم انهم يكونون
حينئذٍ مخنزين كثيراً جدّاً حتى انهم لو استطاعوا ان يعترفوا من هذا الخجل والعار
بالفتك بانفسهم ايضاً . لكانوا لا محالة يفعلون ذلك طوعاً واخياراً * قد ذكر
عن بيوس احد اعيان رومية . انه لما دخل محفل المشايخ المشيرين الروميين لابسا
الثوب الرث الذي كانوا يلبسونه قديماً للمجرمين المحكوم عليهم بالموت . وعابن
ذلك المحفل الجالس على نسق ما يقتضي الشرع لمحاكمته . وشاهد القضاة قد ظهروا
في المحكمة . والمشتكين صعدوا الى كرسيّ عالية ليشهروا جرمه وثبته . والخلق التأم
هناك ليرى ويسمع دينوته . فلم يستطع ان يحتمل الخجل العظيم الذي اعتراه من
قبل هذه المناظر . بل تمهل قليلاً . ثم اخرج حالاً من تحت ثيابه سكيناً كانت
موجودة معه من دون معرفة احد من الحاضرين . وطعن بها نفسه وسقط ميتاً *
فمن ذلك استنتجوا الآن ما الذي كان يفعلهُ اولئك الائمة الاشقياء لو كانوا يحضون
بجرية يستطيعون بها قتل نفوسهم . ومن تراه كان يمكنه ان يضبط في ذلك الوقت
ايديهم كيلا يفتكوا بانفسهم * ولكن مع ذلك كلّهُ يضطرون رغماً عنهم ان « يحلوا
ءارهم » كقول حزقيال النبي . (حزقيال ١٦ : ٥٤) * والذي هو ابلغ من ذلك ايضاً
« ان يستخزوا في جميع ما فعلوا »

قلت: والذي هو ابلغ من ذلك. لأنه ان كان الحضور فقط امام ذاك العرش الالهي المرهوب يجنب لم خجلاً وخزيًا لا يطاق. فليت شعري ماذا يكون حينما «توضَّح خفيات الظلام. وتظهر ضمائر القلوب» (اقورنثية ٤: ٥) اي حينما تتلى دفاتر الخطايا بصوت جهوري وتُشهر العيوب الخفية. وتُكشَف الادناس المنعولة سرا وباطنا * لعربي انني لا استطيع ان اوضح لكم عظم هذا النجل الا بما قد تهبأت ان افترضه لكم قائلاً: فلنترض ان الله تعالى اعطاني معرفة الاسرار وعرفت كل ما فعلتموه من الخطايا والتبائح خفياً واحداً فواحداً. ثم شرعت اشهرها امام هذه الجماعة كلها قائلاً: انظرون الى تلك المرأة الجالسة هناك التي تستبين لكم ذات حياء واحشام غير يسير. فاعلموا انها هي زانية. ولها عشرة ردية مع ذاك الشاب الجاثي هناك يصلي بورع كاذب * وهل تعاينون ذاك الرجل. فهو الذي اصطنع سابقاً ذاك المكر والخيانة * او تشاهدون ذاك الآخر. فهو الذي ارتكب خطية تلك السرقة * وذاك الرجل الذي تنظرونه واقفاً هناك. اما تعلمون من هو. فاعلموا انه قد تداخله الشيطان. لأنه لكي يفتك بعدوه سرا فيها هو بيت عليه فخا في هذه الايام ليرمي به ويميته * فليت شعري لو استمررت متكلها هكذا واظهرت كل شيء اعرفه في الناس من الجرائر والآثام بنوع واضح مقنع حتى انه لا يستطيع احد ان ينكر ما اقوله عنه. من كان يستطيع ان يصف فرط النجل الذي تعايونته قد شمل كل وجه وبرقعة * لا ريب في انكم كنتم تنهضون علي حالاً مكدرين ومغضبين. ومنكم من كان يقصد ان يسد فاي ولو بالاشارة من بعد. ومنكم من كان يخيفني بنظره الي بشراسة لأصمت. ومنكم من كان يروم ان يخيفني بصراخه * وكنتم ترون ايضاً اناساً مولين بسرعة. معتقدين انه خير لهم ان يخرجوا من الكنيسة حالاً من ان افضحهم واخزيهم * ومع ذلك فان نحن موجودون. انما نحن موجودون في مدينة وفي كنيسة. وان كان هذا النجل الذي يلتحق بكم من انخفاض شانكم وخجلكم بازاء جماعة قليلة يكون عظيمًا بهذا المقدار. فليت شعري كم يكون عظيمًا ذاك النجل

الذي يشملكم من قبل محفل العالم كله * فالى متى تخدعون ايها الخطاة كهنة المسيح في الاعتراف السري. وحتى متى تسترون امامهم اقبح ادناسكم وافظعها: خففوها ولطفوها على حسب هواكم لئلا يظهر لهم سوء فجبها. ولكن عساكم ان توهبوا انه يمكنكم ان تعملوا هكذا ايضا في ذلك اليوم الاخير: اه واسفاه عليكم. اعلوها يا هؤلاء متيقنين انه يلزمكم حينئذ رغما عنكم ان تعترفوا بها اعترافا لا خفيا سريا بل جهارا. وتبينوا علانية من قبل انفسكم كل شيء لا تطيقون الآن ان تسمعه مني. وتعلنوا النسق والحرام والخذائع التي ارتكبتها سرا وكنتم تخجلون الآن من الاقرار بها * فان كنتم لا تصدقوني. فاسمعوا كلام هوشع النبي الملتزمين انتم بتصديقه. فهكذا يقول «مربوط اثم افرام» (هوشع ١٢: ١٢) اي ان الخاطي يخفي الآن خطيئته بتلك السهولة التي بها يخفي الجنين ابتداء في مستودع امه. لا عن اربابه ووالديه فقط بل يخفيها ايضا عن هو قائم مقام السيد المسيح في الارض. «فالآن خطيئته مكتومة» كقول هوشع النبي المذكور * لكن ماذا يصير فيما بعد «تاتي عليه اوجاع ماخض» * اما رايتم قط حال المرأة المتخضة التي قد دنت ولادتها. فهذه في ابتداء حملها كانت كاتمة امر حملها الجنين: لكن اذا اعترها المخاض. فلا تعود تستطيع ان تكتمه. بل يلزمها كرها ان تظهره بالبكاء والصراخ العظيم لشدة الوجاع المتركمة عليها * هكذا كما قال هوشع النبي في الاصحاح المذكور يحدث بكل من الخطاة اذ «تاتي عليه اوجاع ماخض» نعم «تاتي عليه اوجاع ماخض». والمفهوم من ذلك انه يضطر بان يوضح حال نفسه وكل ما فيها كرها منه * ولكن من يستطيع ان يبرهن حسنا على وفور النجل والوجل والحياء الذي يتلد له من ذلك: لقد عرفت متحققا مجال فتاة قد سقطت من مدة سنين قليلة في اثم فظيع لعله العشق الردي الذي كانت مرتبطة به مع شاب اثم مثلها. فحلت من تلك العشرة. وارتاعت فيما بعد عند تأملها النجل العظيم الذي كان موافيا عليها من الولادة القريبة ارتياحا عظيما جدا. ومن ثم ارسلت ودعت بسرعة ذاك الشاب السيء الذي اقتض بكارتها طوعا منها.

وتوسلت إليه مبتهلة ان يقتلها قبل ان ينفذ امرها * اسمعن آيتها البنات والنساء الفاجرات الشقيات . اسمعن وافهن ما في عاقبة عشقكن ومحبتكن الدنسة المحرمة : ان ذلك العتوق العاشق الغدار اضحى لتلك المرأة وقتئذ خليلاً اميناً ذا ادب . واستعدّ حالاً ان يرضيها . ولم يستصعب ان ياتيها بكاس سم نافع لتجرعه بيدها . وبعث بها سريعاً الى دركات جهنم وله عليها بذلك جميل واحسان ايضاً * فيا آيتها الفتاة الشقية المنكود حظها . يا صبية عديمة الراي . آيتها الغيبة الفاقدة العقل . ما اكثر جنونك واوفر تعسك : لعمرى انها تدم على فعلها هذا ولا تُعذر * غير انه ينبغي لكم ان تلاحظوا ايضاً ماذا كان يجلب بها من جهة اخرى بعد ان عدت الراي . اي انها لو كتبت امرها صابرة غير مفتركة في عوارض المخاض . لكان يحدث لها انها اذا ذهبت الى كنيسة ما في يوم عيد احفالي . وانتصبت ما بين جم غفير من الخلق الملتئم الى العيد . تشتمها بغتة الاوجاع الشديدة حتى انها لا تقدر على ان تضبط الطلق . فتلتزم من ذلك ان ترخي العنان للبكاء والصراخ والتجذب والتهل . وهكذا اخيراً تبرز تجاه ذلك المحفل الجنين الذي هو ثمرة اثمها في المكان الذي كانت قبل هنيئة يسيرة جالسة فيه بادب واحشام ترمقها اعين الناس * فلو اتفق لها كل ما ذكرناه وذلك رغماً عنها . تصوروا في عقولكم كم يكون مقدار النجل الذي يشتمها وقتئذ . وكم يكون كلام الناس فيها وحديثهم السري عنها . وكم يكون سحس اهلهما واقاربها من قبائلها * اما كانت تجري حالاً دابة على الارض في تلك الكنيسة لذهب . ولو استطاعت لكانت تقع لها قبراً وتستكن فيه حياءً وخجلاً * ومع هذا كله فهذا النجل العظيم انما هو يسير جداً بالنسبة الى النجل الذي يستحوذ على الخاطي في يوم الدينونة . لكونه يلتمس حينئذ ان يبرز الى الوجود لا جنيناً واحداً من آنامه النظيفة المستقيمة . بل اجنة كثيرة جداً . ولبس تجاه اقارب قليلين ولا ما بين جماعة يسيرة . بل امام العالم كله * ما اكثر الحشرات والتنهدات والرفرات التي تصدر منه حينئذ لاجل النجل العظيم . ما اوفر عجيبةً وصحيفةً وتمزق قلبه من الوجع *

لعري أنني يسوع لي ان اقول فيه مع ارميا النبي «تسمع الامم عاره وولواته تملأ الارض» (ارميا ٤٦: ١٢). فيدعوا وقتئذ الى اغاثته خلاثة. ولكن تذهب عبثاً دعوته. ويطلب الذين كان يحبهم ويدعهم ليستروا عليه. ولكن باطلاً يكون طلبه * لانه لا يعود حينئذ احد يشاء ان يظهر ان له معرفة به او قرابة ما اصلاً. بل كل واحد يهتم بنفسه * فسيكون سعيداً لو تنفتح على القليل القبور بغتة وتبتلعه. او لو تنانثت العقبان. او تسحق الصخور. لكن ينبغي له رغماً عنه ان يظهر بازاء العالم كله فضلاً عما كان يرى نفسه قديماً محموتاً ومكروهاً ومرذولاً عند الجميع * ولا تعود تفيده الولولة والانبين اللذين يرجو بها ان يحرك الجبال لكي تشقق وتسقط عليه وتغطي * فما هو رأيكم الآن ايها السامعون. اما استبان لكم حقاً ان الخطاة اجمعين سوف يخجلون جداً في ذلك اليوم العظيم. «وانهم يلبسون الخزي» كقول ايوب (٢٢: ٨) * «ويجتامون خزيهم» كقول حزقيال (٢٦: ٢٩) * وان شئنا ان نستعمل عبارة داود المرتل. فنقول «ينردون بخزيهم كالرداء» (مزامير ١٠٨: ٢٩) من الراس حتى القدم * واحسرتاه علينا نحن الاغبياء المساكين. ترى ما هي المنفعة من اختراع هذا المقدار من الحيل والتدابير لنغطي آثامنا وجرائنا المستحي منها. وما الفائدة من تنفيذ بغضنا وحسدنا للقريب تحت شبه الغيرة المقدسة. ومن ايثار بلوغ اغراضنا بحجة العدل والبر * وماذا نرج ايضاً ان كان الآن الليل يعيرنا نقابة الاسود المظلم لنستر به الانسان القبيحة * وماذا ننتفع ان كنا بتبسم ودادي نخفي عن خصمنا حقدنا عليه * وماذا نستفيد ان كنا تحت وجه ذي حشمة وبشاشة نجب قلباً دنساً: لعري انه سيصدر لنا من ذلك عار وخجل اعظم عندما تظهر كل الخفايا والمكتومات * وان اعترضتم قائلين: ان كل ما قلته يا ابانا وبرهنته في وفور هذا الخجل الذي سيشتل الخطاة في يوم الدينونة لا نصدق انه عظيم وافر هكذا. حيث انه يكون من قبل خطايا عامة. قد ارتكبا كثيرين ايضاً * اجبتكم: ان قولكم هذا لضلال بين. وذلك لانكم لا تعرفون لاي سبب لا يخجل الخطاة من خطاياهم في

هذا الزمن الأ قليلاً إذ يشعرون بأن لم فيها كثيراً من المشبهين بهم والرفقاء *
وما انا اورد لكم السبب قائلًا ، لانهم يتخذون الآن قاعدة خجلهم من اعتبار الخطبة
كما هو عند الناس . والناس الآن من حيث ان غالبهم هم مغرورون مخدوعون من
خبث قلوبهم . فيعتبرون الخطبة غالباً كأنها فخر ومجد لهم . او كأنها صادرة من خفة
العقل او من قبل ميل الطبيعة الهائلة . ومن جرى ذلك يستخفون بجرمها ولا
يعتبرونه * ولكن في ذلك اليوم لن يكون الامر هكذا . بل انهم سيتخذون قاعدة
خجلهم من اعتبار الخطبة كما هو عند الله تعالى . ونظرًا الى هذا الشان قد شرح
القديس المعظم توما اللاهوتي قائلًا « حينئذ (اي في يوم الدينونة) يكون الخجل
على قياس اعتبار الله تعالى للخطبة » وهو اعتبار بحسب الحق * فكم يحصل حينئذ
لم اي للخطاة من العار والخجل تجاه هذا النور الالهي الساطع الحاذق الذي به
يرون انفسهم مفضوحين من ابرازهم هذا المسخ العظيم القبيح اعني به الخطبة التي
يدركون حينئذ وفور فجمها وشناعتها المريعة مثلما هي قدام الله تعالى * اني ارغب
اليكم ان تتصوروا عظم الخجل الذي استحوذ على امرأة من النساء الشريفات كانت
عائشة في مدينة رومية . وعلى ما يُظن في ايام البابا مرتينس الرابع * فهذه ولدت
ولداً مكثسياً جسده شعراً يشبه شعر الدب وكثيفاً جداً . وله اظافر ملتوية كخالب
الطائر الخاطف . وعيناه زائغتان كالوحش * لعمرى ان الأدب اللواتي يرغبن بشوق
عظيم ان يلدن ولداً جميل المنظر . او اللواتي يتباهين بولدهن اذا كان جميلاً . يفهمن
جيداً عظم خجل المرأة المذكورة التي وضعت هذا الولد المسوخ الذي مر ذكره *
فان كان ولادة مسخ مثل هذا يورث والدته خجلاً عظيماً . فاذا اذا يكون بالخطاة
حينما يشاهدون انفسهم قد ابرزوا مسخاً اشنع من المسخ المذكور بلا قياس . اعني
الخطبة * ان الخطبة هي المسخ الشنيع الفائقة شناعته على جميع المسوخ التي ظهرت
في العالم . بل هي ذات الشناعة في العالم . ومنها تشعبت صور الابالسة بعد ان
كانوا ارواحاً بديعة في الحسن والبهاء . وهي التي من جراها حصل الجنس البشري

في بلايا ومشقات عظيمة المفدار بعد ان خلقوا ليكونوا سعداء وشرافا مع الملائكة *
وهذه هي التي اذ لبس المسيح شبهها فقط . فكانت اربع اباء الساري وحصل
مكروها عنده تعالى . واستبان ابرص وبشع المنظر مع كونه هو عين الجمال والضياء .
حتى ان هذا الشبه القبيح فقط الذي تردى به لاجلنا اسقطت تحت اللعنة نظيرنا
كقول الرسول الالهي انه « صار لعنة من اجلنا » (غلاطية ٢ : ١٢) * وبعد هذا كله
اما نقتنعون بوفور النجل العظيم الفائق الوصف الذي يشتمل الخطاة حينما يبصرون
انفسهم قد ولدوا هذا المسخ القبيح الشنيع من دون ان يعطوا نوعا ما ان يدفنوه
تحت الارض . او يخنوه في مكان آخر محجوب لا يرى فيه . كما يفعل الناس الذين
ياتهم بالولادة مسخ شنيع بدلا من طفل جميل . او انهم ينسبونهم الى غيرهم مؤمنين
الناس انه ليس هو منهم *

ومع ذلك كله فهذا النجل المشروح حتى الان ان كنا متصفين بنور الايمان
الحق . فيكون اعتبارنا لدينا كالا شيء بالنسبة الى نجل آخر اعظم يلتحق بالخطاة
حينما يسمعون المسيح يؤنبهم بوجه مهيب عن انكارهم جميلة معهم . وخاصة جميل دمه
الزكي الذي هراقه من اجلهم * فيا ايها المسيحيون احبائي اننا نحن الان لا ندرك
ادراكا جيدا حقيقة موت السيد المسيح ابن الله عنا وبسببنا . الا اننا سنفهم ذلك
عند ظهورنا امامه ومشولنا بين يديه . وحينئذ نفطن كم قد كنا في مدة حياتنا غير
عارفين احسانه . وكم قسونا وتصلبت قلوبنا معه حتى اننا لم نكن نرتضي بان نقبل
باسمه فقيرا واحدا في منازلنا ولا ان نتصدق عليه . بل ايضا ان نفي ما علينا لکنائسه
ولاديرته . بل صرفنا كل حياتنا في ان نغيظه تعالى ونهينته * كم من النجل حينئذ
يجب وجوهنا * حكي ان الباروس رئيس السفن الاكبر الذي قد ذاع اسمه وشاع
صيته لاجل اسفاره الكثيرة في البحر تحت مخاطر متعددة ولجل كثرة غلباته التي
الها على الاعداء . امره ذات يوم فيلبس الثاني ملك اسبانيا ان يعد السفن ريبها
لحاربة دولة انكلتره * ولجل ان ذاك السفر كان محناجا الى سفن كثيرة جدا .

ومع ذلك كان ملتزماً ايضاً بان يعدّ ذخيرة وافرة وجيشاً عظيماً وحصوناً كثيرة * فلم يستطع ان يهيم كل ذلك بالسرعة التي كان الملك يطلبها . ولاجل ذلك اغناظ عليه الملك قليلاً . ودعاه الى قصره الملكي . ثم خاطبه بوجه عبوس وبصوت مخوف معنفاً له وقائلاً : بالحقيقة انك لم تسلك معي في ما امرتك به بحسب ما كنت ارجو منك ولا بموجب ما انت ملتزم به * قال هذا فقط وصمت . ولكن ماذا نتج من كلامه هذا : لعلمي ان تعنيته هذا فقط كفى ليملاً قلب الباروس خوفاً ورجبةً ورعباً عظيماً . حتى انه خرج من قصر الملك ووجهه يتقد كالنار . ومضى الى داره . واطرح على فراشه . وبعد ايام قلائل قضى اجله ومات * فما هو قولكم الآن : انا لا اصدق بل لا اظن انه يوجد فيكم احد لا يقرّ مسلماً بان وجه السيد المسيح الديان وصوته لها قوة وعزم اعظم جداً من صوت ملك مائت * فان كان الامر هكذا حقاً . فتصوّروا في عقولكم ماذا يجلب بكل واحد منكم حينما يظهر امام حضرته الالهية ويبتدى تعالى ان « يكلمهم بغضبه » (مزامير ٢ : ٥) كقول داود النبي * وليس انه تعالى يوبخكم على تهاون وكسل خفيف فرط منكم في خدمته كما كان ذنب الباروس رئيس الجيش المقدم ذكره . لكن تقدس اسمه يبكتكم على جرائم وآثام لا تحتمل * فيخاطب كلاً منكم قائلاً له : انني قد اتصلت الى ان اموت عنك بأشنع الميمات معلقاً على خشبة الصليب التي تراها هناك . ولاجل ذلك كنت ارجو واثقاً ان انال منك احتراماً ما . ولكن انت يا ناكر الجبل قل لي ما الذي فعلته مجازةً لمحبتتي هذه العافرة لك . بل ما هو الذي لم تفعله من الخطايا والمعصيات لتهينني وتحقرني * اما ازريت باسمي . وشتمت عيدي واصفيائي . اما دنست هياكلي ومقادسي . وهزأت بكاهني * بل بلغت ايضاً الى انك تعديت بسوء افعالك واقوالك على دمي المهرق لاجلك * العلي طلبت منك اشياء عظيمة شاقّة مكافاة لي : كلاً . بل انما طلبت منك من الاكرام والاحترام ما يكفي ليحعل اسمي ان لا يكون مهاناً ومعيراً ولا غير اهل للخدمة والاكرام * لقد طلبت منك في وقت فاتني ثوباً واحداً

اتردى به . وعند حلول الجوع سالتك رغيفاً من الخبز لاقتات به . فاحببت
 انت ان تبدد مقتناك في الملاعب المحرمة والعشرات الرديئة الدنسة والإفراط
 في الولايم الباطلة والتردد الى المواخير الشيطانية . أكثر مما احببت ان تعطيني ما
 سالتك * افهذا هو الذي حصل لي ان اناله منك بعد ان مت على الصليب
 لاجل استنقاذك . اي ان تفضل محبة الجميع على محبتي . وان تتهاون بي أكثر من
 جميع اصدقائك وخلانك * فبهذا الخطاب وما يماثله يخاطب الديان الاعظم
 الخطاة معنفاً * ولكن من تراه منهم يكون ذا قلب شجاع غير متزعزع فيستطيع
 ان يرفع من الارض عينه الواحدة لشدة الخجل والوجل والارتعاب « ومن يقوم
 امام وجه غضبه » (ناحوم ١ : ٢) * يا ايها الشعب المسيحي انني اخاطبكم بكلام
 ارميا النبي قائلاً انه الآن « صار لك جبين امرأة زانية لا تريد ان تستحي » (ارميا :
 ٢) . يعني بقوله ان كثرة التوغل بالخطايا صيرتك ذا جبين وقح . واعدمتك روح
 الخجل والحياء * ولاجل ذلك ربما يستبين لأحد منكم انه ان يفرغ ولا يتغير لون
 وجهه عند استماعه التوبيخات المذكورة من فم المسيح ديانه المهيب . ولكن حقاً يا
 اخوتي انه ان يكون الامر كذلك في يوم الدينونة . لا يكون كذلك * لان الاجح
 الناري الذي سوف يتقد في وجهك لتفانم الخجل يكون عظيماً جداً حتى ان اضطرار
 نار جهنم بالنسبة اليه يستبين لك نقل انا داءً واحرقاً * ثم اصغ الى ما يخاطبك
 به القديس المعظم هيرونيمس المغبوط نظراً الى مدة احتمالك هذا العار والخجل
 الصادرين لك من التوبيخات المقدم ذكرها . واعلم انه ستظهر لك كل ساعة كأنها
 الف سنة الى ان يانظ المسيح القضية الاخيرة في هلاكك ويامر فيك بان تهبط
 في اللجج السفلية : فيقول هذا القديس المعظم هكذا « ان احتمال عذابات جهنم
 اخف على الهاالكين من احتمال الحضور لدى المسيح * ولكن لا يجعل بهبوطك في
 جهنم * لانه تعالى يريد لاجل عارك الاعظم ان يجتمع على تخيلك الوثنيون
 الذين مع كونهم عادمي نور الايمان وخالين من نعمة الاسرار لم ياتوا نظير ماتمك *

فها قد حضر الى تخيلك ومد ايتك الشاب الشريف نسبا وحسبا سبورينا *
 كان هذا الشاب متصفا بجمال بدع لم يكن في عصره من يضاهيه حسنا وجمالا .
 ولما شعر بان جماله هذا كان صائرا سبب العثرة لغيره . كما اخبر عنه القديس
 امبروسوس . خدش وجهه بجرأة غريبة حتى اضحى بجلته دما مل وقروحات .
 وهكذا زال كل جماله . وآنرا ان يعيش قبح الصورة شنيع الهية على ان تعاب عفته
 وعفة غيره بسببه * فقل لي انت ما الذي تجيب به السيد المسيح ربك حينما يونبك
 بصنيع هذا الشاب الوثني . على انك انت مع كونك مسيحا لا تخاف من ان تغوي
 بصر غيرك بالفحشة الباطلة المتباهي انت بها . واكيا تجنذب لوجهك عبادا . لا
 تستي من ان تزينه ليزداد جمالك عما خلقه لك ربك * وما هوذا ايضا انكساغوراس
 الفيلسوف مع انه لم يكن له مقتى في العالم سوى حقل صغير ورثه من والديه .
 نبذ هذا الارث القليل ايضا عنه فيما بعد وتفرغ منه تماما قائلا ثللا يلهيه ولو
 قليلا عن الدرس والهدى في العلوم * وانت ايها المسيحي يا من يميل بكل اشواق
 قلبه الى جمع المال واكتنازه متغافلا عن الاهتمام بخلاصه . ماذا يكون جوابك
 لديانك * ان تركواتس الذي كان من وجوه الروميين الوثنيين مع انه لم يكن
 يحب في الارض احدا اكثر من شخص واحد كان من مشايخ المدينة ارباب الحكم .
 قتله بعد ذلك لانه تعدى على حقوق العامة * فاذا يكون قولك انت الذي
 تجعلك المحبة الزائفة عن الحدود لاولادك ان تصمت عنهم ولا تردهم عن سيرتهم
 الذميمة خوفا من ان تغيظهم وتخزهم * وماذا نقول عن فيسون الجليل في اليونانيين .
 فهذا ايضا يحزنك عند ما تراه قد حكم عليه اعداؤه بالموت حسدا . بعد ان
 كان قد فعل افعالا جليلة كثيرة خيرا لاهل بلده * وقبل ان يسقوه السم القاتل .
 سأل اصدقائه المحاضرون : هل لك ان توصي ابنك بشيء . لانه كان غائبا ليبلغوه
 اياه بعد وفاته * فاجابهم قائلا : لست اهورى ان تبلغوه من قبلي وصية غير هذه .
 وهي ان ينسى كل التعدي الذي تعدى به غرمائي علي . ولا يفكر احدا بان ياخذ

ثاري منهم * بل ليحازهم بدل الشر خيراً ابداً. لأنني صفت عنهم وغفرت لهم كل شيء. وتزلت باختيارى عن كل ما لي من الحق عليهم: هذا كان جوابه * وانت ماذا تقول يا من يشتهي ان ينهش قلب خصمه ويمزقه بأسنانه. ولا يكتفي بان يبغضه هو وحده * بل يريد تجتمع معه في بغضه له جميع اقاربه وكل اصدقائه. بل يطلب ايضاً ان ينتقل عدوانه له بمنزلة وراثه غير منقطعة الى خلفائه * فقل لي اذا الحق يا ايها المسيحي. اما تعتقد انه سوف يكون خملك عظيماً بالنظر الى جم غفير من الاقوام الجاهليين الذين يظهرون في الدينونة افضل منك. وانت قد وُلدت في حضن الديانة الحقيقية ورُيت ما بين قديسين. ورضعت حليب تعليم الكتب المقدسة والاباء القديسين. وأريت امثالاً صالحةً تقتدي بها وتتقف سيرتك عليها. حتى انه لم يعد حينئذٍ باقياً فيك سوى ايمانك ولكنه خالٍ من كل فعل صالح. وهذا يكون لك لاعظم خزي واوفر عار لا لمجدك وفخرك * فلا تستطيع ان تظهر في ذاك الخفل العظيم مبرراً مثل ارستيدس. ولا مستقيماً نظير سلاوكس. ولا عفيفاً بمقدار باليمون. ولا صبوراً شبه سقراط. ولا صادقاً على مثال فرقليس. ولا وديعاً نظير انتيفونس. ولا زاهداً في الارضيات بقدر ابامينداس: ان هؤلاء الاشخاص مولودون في وسط ضلال العبادة الوثنية عادمين لسوء حظهم معرفة الحياة الابدية. وخائبين من تعليم الانجيل والوصايا الرسولية والتعاليم المقدسة ومن النبوات والآيات والاسرار وغير عارفين بوجود اله قد احبهم محبة عظيمة حتى صيرته ان يقاسي اشد العذابات ويموت اشنع الميمات لاجل استنقاذهم. كما عرفت انت ورايت * فاذا يكون جوابك عن هذا كله يا ايها الشقي. وما الذي تخجج به. ولماذا لا تدعن مصدقاً بان ذلك كله يزيدك خجلاً * ويمكن ان ذاك الخجل من الآن قد شمل وجهك عند استماعك ما اوردته لك من اخبار الوثنيين: ولعمري لولا ان ذلك سوف يزيدنا خجلاً وعاراً. لما كان رب المجد تقدم فنيهاً لاجل ترهيبنا قائلاً «رجال نينوى يقومون في الدين مع هذا الجيل ويحاكونه. ملكة التيمن تقوم في الحكم مع رجال هذا

الجبل وتدينهم» (لوقا ١١: ٢٢ و ٢١) * أما هو عازر عظيم على المسيحي ان يوتخه رجل جاهلي او كردي او وثني . ويشتكى عليه رجل سامري . ومجكم عليه احد عباد الاوثان : لعمرى انه لا يوجد عازر ولا جبل اعظم من هذا * حكي ان بولسلاوس الاول ملك النلاخ لما رأى واحداً من اعوانه لم يسلك في الحرب بشجاعة تليق به . بل ان قلبه فزع رهبةً وخوفاً . لم يعامله بشيء من الاحتمار سوى انه ارسل احدى له مغزلاً حسناً مذهباً ليغزل به . فالنزم ذلك بان يقبل الهدية من ملك . واكدته اقتبلها ملتخماً بالحياة الذي تستطيعون اتم ايضاً ان تصوروه * ثم انه لما لم يمكنه ان يتجرع الخجل الذي اعتراه من تلك الهدية لكونه قد شبه بالمرأة الضعيفة . اخذ حبلاً وربط به عنقه وخنق نفسه ومات * فإذا يظهر من المسيحي حينما يشبه السيد المسيح ربنا بوثني . ولا يشبهه بالوثني فقط . بل يعده ويحتقره نائياً عنه * والنتيجة انه تعالى يحتقر القوي اكثر مما يحتقر الضعيف . والمسح اكثر من العديم السلاح . والشريف المنتخب الى الملك اكثر من العبد والاسير . أما هذا عازراً يسمو على كل عازر * لا ريب في ان المسيحي يستر حينئذ وجهه بيديه لتفانم الخجل . ويجدد الزفرات . ويزداد بالنجيب والعويل هاتفاً وقائلاً : يا اعظم شقائي . ويا لوفور غبارتي * ثم يردد بفيه كلام صاحب الزبور قائلاً « خزي وجهي قد غطاني . من صوت المعير والشاتم . ومن وجه العدو والمنتقم » (٤٢: ١٦ و ١٧) * غير انه ينبغي ان تلاحظوا قضية واحدة . لئلا تسقطوا في الغلط . وهي انه من كل ما قلناه آنفاً عن الوثنيين المقدم ذكرهم لا يحق لكم ان تستنجوا انهم لعيتدون ان يفعلوا فعلاً ما من افعال التسلط والحكم الفاضوي على الهالكين . بل سبيلنا ان نفهم فيها جليلاً ما قاله الرب . لانه عز قوله لم يقل عنهم « سيجلسون ويحاكمونهم » . لان هذه هي وظيفة تخص بالقاضي ان يحكم جالساً على السدة . ولكنه قال « يقومون ويحاكمونهم » والمفهوم من ذلك انهم يكونون بمقام المشتكين * اما التسلط والحكم الفاضوي على الهالكين فيفعله مع السيد المسيح قديسه فقط . كما يشهد فيهم الرسول الالهي بقوله « السم تعلمون ان القديسين

سيدنيون العالم» (اقورنثية ٦: ٢) *

وسبيلكم هنا ان تلاحظوا شيئاً آخر مما يخصُّ تسلُّط القديسين على الهالكين. وهو ما يلايم موضوع خطابنا جداً. واذا لاحظتموه وفهمتموه حسناً. فإنه يفيدنا برهاناً آخر جديداً في بيان تفاقم النجل الذي نحن في شأنه * وما انا اسالكم. فاجيبوني: من هم الهالكون الذين يحكم عليهم القديسون بمقام القضاة: فان قلم انهم يكونون قضاة على جميع الهالكين. فاجيبكم: نعم ان هذا حق. ولكن مع ذلك فإنه من المحقق انهم يكونون قضاة بوجهٍ اخص على اولئك الهالكين الذين قد كانوا اهانوهم في حياتهم واساءوا اليهم بنوعٍ ما * نعم ان هؤلاء القديسين يقيمهم الله خاصةً لمداينتهم ومحاکمتهم حسبما جاء في سفر الحكمة بقوله «حينئذ يقوم الصديقون بدالة جزيلة قبالة وجه الذين احزنوهم» (١: ٥). فيدققون عليهم الفحص بابلغ تدقيق. ويجرون عليهم اخص الحكم. وينطقون عليهم اخص القضية في هلاكهم * فهلم الآن ايها السامعون واعنبروا معي ما سأستنتجُه ما مر من خطابي * فاقول كم يكون عار هيرودس مثلاً حينما يكون قاضياً عليه ذاك يوحنا المعمدان الذي قطع هو راسه اكراماً لزانبة. وكم يكون عار نيرون اذ يشاهد بطرس وبولس قائمين بمقام قاضيين عليه. وهو قد احقرها وسجنها في سجن حقير. ثم اماتها قتلاً. وكم يكون نجل ديوقليانوس حينما يكون قاضياً عليه سبسطيانوس الذي امره ان يرشته بالسهام مربوطاً في شجرة * وكم يختزي والريانوس من مشاهدته قائماً لمداينته لورنتيوس الذي هو شواة على مشواة * قد ذكر ان كلاوتيرة ملكة مصر كانت بالغة في الخيلاء والكبرياء وانها كانت ترجو ان تدخل المدينة بشرف وسيم وزفة حافلة جالسة على مركبة النصر عند رجوعها من الحرب * ولكن خاب املها هذا. فاتخذت ذلك عاراً عليها جداً. فحزنت واكتابت جداً حتى انها لتفاقم غيظها انت بافعى ردية وقدمتها الى صدرها فلدغتها وماتت * فتصوِّروا الآن ما الذي يفعله في ذلك اليوم الهالكون وما الذي يجتمونهُ لو اذن لهم الله تعالى بان يفعلوه

لينجوا من العار والنجل الاعظمين الواصلين اليهم من مشاهدتهم انفسهم مطروحين
تحت اقدام القوم الذين كانوا قديماً يسخرون بأفعالهم كأنها افعال اغبياء حتى
جهال * ما اوفر ما تكون فضيحتهم. وما اعظم غيظهم وغضبهم ووجالهم * فيصح ما قد
تنبأ اشعياء به بان شتامي البار ياتيهم زمان فيطرحون تحت رجليه. وذلك بقوله
« بسجد لآثار قدميك جميع الذين كانوا يسبونك » (اشعياء ٦٠ : ١٤) * فوقتئذ ترى
الروساء والامراء والمحكام يلتسون الرحمة من اولئك الادنياء حسباً الذين لم يكونوا
يتنازلون الي ان يصغوا الي طلباتهم. حتى لا اقول الي ان يدعوا الي حجهم فلا يستجاب لهم *
وتشاهد ايضاً الاغبياء يتضرعون مع الغني الالابس الارجوان الي رفقاء اعازر اعني
المساكين الذين كانوا يسكنون عندهم الفتات الذي يلقي للكلاب. وتعابن حينئذ
الملوك يستمعون مع اخاب رضى امثال نابوت الذين كانوا يخلصون ظلماً مقتناهم.
وتنظر الي قواد الجيوش سيكون جاثنين على ركبهم مع اليفانا تحت اقدام امثال
احبور الذين كانوا يهزؤون متعجرفين على كلامهم * فاي نجل تستطيعون ان تتصوروا
اعظم من هذا : ولعمري ان الأئمة لا يكفيهم ان يعاينوا اعداءهم فائزين بمجد عظيم
يفوق الرصف. بل انهم فضلاً عن ذلك يلتزمون ان يظهروا امامهم جاثنين ومنكسي
الرووس ليستمعوا منهم فخصهم ودينونتهم وخزيمهم * ويزيدهم خجلاً ومرارة امر آخر.
وهو انهم يسمعونهم يقضون عليهم ايضاً بالموت الابدي * لانه اذا حان الوقت الذي
فيه يجب ان ينطق الديان الاعظم بالقضاء الاخير بعد ان يوضح كل اثم. وتقام
البينة على كل خاطئ. فمن يستطيع وقتئذ ان يعبر عما يحدث حيث يكون جميع
القدسين يرافقونه في هذا القضاء فرحين متبهجين وقائلين معه تعالى « اذهبوا يا
ملاعين الي النار المؤبدة ». اهبطوا الي العمق. انحدروا الي الهاوية. لماذا تتأخرون.
امضوا سريعاً الي النار الخلدة. النار التي لن تطفأ * كيف تجسرون ايضاً ان تقفوا
تجاه النور الساطع الذي يتلأأ ههنا. اغربوا عنا ايها الاشقياء المنكرد حظههم.
اغربوا عنا ايها الملاعين. اندفنوا في بحيرة النار الابدية. لان وقت الرحمة قد مضى.

ولم يعد لكم رجاء الى الابد * ها هوذا الموتة المظلمة الجهنمية قد صارت دار مقركم الى ابد الدهور. لان السماء التي ترونها فوقكم لا حظ لكم فيها. لانكم نفيتم منها نفياً ابدياً لا رجوع له « اذهبوا ايها الملايين الى النار المؤبدة » . هكذا يخاطبونهم * ولا يزالون يوبخونهم ويتردونهم حتى تفتح الارض وتبتلعهم . وعلى هذا النحو يجعلونهم ان يخبروا في نفوسهم الخجل الاخير العظيم الذي سيداهمهم من هذا الطرد والنفي العام الجهير * فهذا هو الخجل الذي جاء ذكره في الزبور حيث يقول « يخزي المنافقون ويسكنون في الجحيم » (مزامير ٣٠ : ١٨) * لانه ان كان آدم رجواً شاهما خزي عظيم حيث انها طردا من الفردوس الارضي لجرثا الارض . وان كان هاجر واسماعيل اخزيا ايضاً لما طردا من بيت ابراهيم ليحولا في البرية . وان كان ايضاً مريم اخت هرون اعتراما الخجل الجسيم لما طردت لعله برصها من مضارب آل اسرائيل . مع انها كانت قريبة ان ترجع اليها بعد سبعة ايام نقيّة من البرص . فوالذي يجل باولئك الاشقياء الذين بعد ان يطردون من شركة الملائكة ورفقة الطوباويين والسكنى في سرادق الملكوت الملكي . يشاهدون انفسهم منفيين الى اسفل لبحج الارض ليستوطنوا فيها برفقة الابالسة . وليس ذلك الى مدة ايام قليلة او سنين وجيزة لكن الى ابد الآبدن * فيصح فيهم قول الله على لسان ارميا النبي المرعب القائل « اعطيكم عاراً ابدياً وخزياً سرمدياً ان يمحي نسيّاً قطاً » *

فاستيقظوا الآن ايها السامعون الاحباء . وجاوبوني عما اسالكم . وهكذا نختم الخطاب : هل يوجد فيكم من لا ترتعد فرائصه عند تذكره انه يمكن ان يسقط هو ايضاً تحت هذا العار الفظيع المشروح لكم الآن * آه والسفاهة : انكم تغارون على صيتكم وشانكم جداً حتى ان كل كلمة ولو كانت وجيزة يقال في حقكم تعلقكم . وكل اهانة مها كانت خفيفة تغضبكم . حتى انكم ربما تنهضون من غير وعى وتسرعون الى السيف وسفك الدم والى الضرب والخراب لتنتهبوا ممن يسيء اليكم ولو كانت اساءته دنية . وكيف انكم بعد هذا لا تبالون بالعار العظيم الذي سوف يوافيكم في يوم المحشر

الاخير . العار الابدي . العار الذي لا يوجد افطع منه . العار الذي يعقبه غيظ
ومرارة لا ينتهيان الى دهر الدهرين . الذي قال عنه ارميا النبي كما مر « انَّهُ لَنْ
يُحْيِيَ نَسِيًّا قَطُّ » * ان العار والخزي اللذين يصيبان احد الناس في هذه الحيرة انما
يدومان قليلاً وينتهيان . ولكن العار والنجل في ذلك اليوم العظيم يوم الحشر
يدومان الى الابد * ليت شعري ألا تفهمون قوّة هذه الكلمة اي الى الابد : هذا هو
معناها . معناها ان الهاالكين ينتصب مقابل اعين كل منهم الى ابد الدهور كلها
ذاك النجل المربع الذي اشتمله في اليوم الاخير امام العالم . وهذا النجل حسب
راي القديس باسيليوس في خطبته الثانية والعشرين التي قالها في الدينونة الالهية
هو كافٍ بمفرده ليجعلهم ان يتسول ويتاجوا على انفسهم ويغضبوا عليها الى الابد .
ومن ذلك يتوافر عذابهم بما لا يوصف . وهامك كلام القديس المنتم ذكره « ان
النجل الذي يستمر مع الهاالكين دائماً هو اروع جداً من النار التي يصلونها » *
فان كان عار خفيف يألهمكم في هذه الحيرة كثيراً جداً . أفأ هو من الجنون ومن
عنى القلب البليغ انكم تطوّحون نفوسكم في خطر العار الاعظم العتيد ان يكون للخطاة
في يوم الدينونة *

القسم الثاني

انني اسألكم ايها السامعون الاحباء . فاجيبوني بالحق على سبيل الطلاقة من
دون حياء : ما هو رأيكم فيما سمعتم شرحه الى الآن * اما ترونه هذياناً وكلاماً
مضحكاً . وان قلتم لي ما هذا السؤال يا ابانا الذي تسألنا آياه . كيف تكلمنا . اعل
سبيل الهزل ام من باب الجد * فاجيبكم : انني اخاطبكم على سبيل الجد وبغفل
صاح . ولاجل ذلك اكرر عليكم السؤال ايضاً راغباً منكم ان تقولوا لي الحق ولا
تستحيوا . أما ترون كل ما سمعتموه مني واوردته على سماعكم في هذا المحل هذياناً وترهه .
وان قلتم لي ايضاً ما بالك يا ابانا تهذي بكلامك . العلك تظن فينا أننا نحن لا

عقل لنا وخالون من نور الايمان حتى اننا نعتد كلامك الذي وعظتنا به خرافة
وهديانا. اننا نومن ونعتقد اعتقادا وكيدا باننا سوف نتصب امام الله تعالى
ليديننا عن اعمالنا في يوم الدينونة العامة. وهذه هي لدينا حقيقة من حقائق الانجيل
الشريف الذي لا يشوبه كذب ولا غلط. فكيف تسالنا يا ابانا ما هو راينا في ما
سمعناه منك. انه لاشك في ان كلامك ليس هو خرافة ولا هديانا. بل هو حقيقة
من حقائق الايمان * فان كنتم تومنون يا ايها السامعون هكذا. اي ان كلامي ليس
فيه افك ولا بهتان. فنعما تومنون * ولكن لبت الجميع يومنون هكذا. فاننا اقر لديكم
بالحق بانني كنت اظن ان الاكثرين منكم ولا اقول كلكم لا يومنون بالدينونة العامة
الاخيرة. لكن يتخذونها بمنزلة خرافة او حكاية كما يتخذها غالب الناس حتى
الكاثليكيين ايضا * فلا تستغربوا ايها السامعون كلامي هذا. لانه لو كنتم انتم كلكم
وجميع الكاثليكيين ايضا تومنون بالدينونة العامة. لم تكن البيعة محتاجة الى ان
تقيم محكمة لاستفحاص الذين لا يومنون وتحكم عليهم بحبس الدين * لعمرى الله لو كان
يساق الى السجن جميع الذين يحنسبون الدينونة بمنزلة خرافة وحكاية ولا طائل
تحتها. لضاق جدا حبس هذه المدينة المباركة. وازم ان تقفر البساتين وتهدم الكنائس.
وتنقض البيوت وتخرّب القصور. وتصير المدينة كلها داخلا وخارجا حبوسا لتسعمهم *
الا ان هذا القول لا استطيع ان اقولهُ واثبته اثباتا قاطعا عن سكان هذه المدينة.
لانه عسى ان يوجد فيها اناس انقياء مومنون ايمانا حيا اكثر مما في سواها * غير ان
سبيلنا ان نعلم انه توجد في كل مكان محكمة سماوية عدا المحكمة البيعية. فان المحكمة البيعية
تحكم فقط على الذين لا يومنون خارجا. ولكن السماوية تحكم ايضا على الذين لا يومنون
باطنا * وانا خائف من ان يكون الكثيرون منكم من عدد هؤلاء الذين لا يومنون
باطنا * وان انكرتم علي ذلك. فاجيبكم قائلًا: انني اخشى من ان يكون الكثيرون
منكم من عدد الذين لا يومنون باطنا * هل تظنون اني بالغت في قولي هذا او
افتريت عليكم. فان قلتم: نعم افتريت علينا. فاجيبكم: ها انا قد عدلت عمالي من

الحق في ان اتم خطبتي هذه. ولكني ادعو استقفاً معظماً جليلاً في النسب وشهيراً في العلم. وفاضلاً في القداسة. ليأتي ويختم عني هذه الخطبة. وهو سلبيانس المغبوط استقف مرسلينا * فهل تغتاظون اذا دعوتني لياتي ويصعد الى هذا المنبر ويخاطبكم عني بفصاحته الالهية. فليحضر اذاً ويحكم بيني وبينكم بمقام المعلم. وانا افوم الآن بمقام التلميد واساله قائلاً: ما هو رايك وما هو حكمك يا ايها الاستقف. نعمتكم الحكيم في هؤلاء السامعين خطبتي هذه التي خطبتهم بها في هذا الصباح. أيؤمنون جميعاً بالدينونة العامة ويعتقدون بانها امر حقيقي. ام يتخذونها وهماً وكذباً * أيؤمنون بانها قاعدة من قواعد الايمان. ام يحسبونها خرافة من خرافات الدنيا الباطلة * فيجيب هذا الشيخ الرزين الفطين في كتابه الثالث في اهل الكنيسة جواباً عاماً مطلقاً لا بخصوص احد منكم بالافراد لئلا يهينه قائلاً « ما من احد يصدق موقناً بان الله الديان المستقيم سيدينه الا ويجتهد في ان يفعل ما في وسعه لكي ينال بأعماله الصالحة الخيرات الدائمة الابدية ولئلا يسقط بسوء اعماله تحت العقابات المخلدة » انتهى * انني لم اعد محتاجاً بعد هذا النص الى شيء آخر. لانه يكفيني ما قاله هذا القديس المعظم. ولست اخاف ان اغيظ احداً. فاجيبوني الآن يا ايها السامعون احبائي: ان كنتم حقاً تؤمنون مصدقين التصديق التام بالدينونة الاخيرة. فما هي الافعال التي تفعلونها لتخطوا في ذلك اليوم بالقضية المحسنة المبهجة التي يحكم بها بدوام سعادتك في الملكوت الى الابد. او ما الذي تفعلونه من السعي والمجد لكيلا تطلع عليكم القضية المرعبة الآمرة بهلاككم بالعاروا والمجل المقدم شرحها * فانا اعلم انكم اذا شعرتم انكم عنيدون ان تترافعوا في محكمة ارضية في دعوى ثقيلة تعنيكم جداً. تبحثون عن الوكلاء. وتستاجرون الشفعاء. وتجاهلون ذوي الوظائف في المحكمة. وتتضعون متدللين لخدماها. بل اراكم ايضاً لا تهتدون نهراً ولا ليلاً. فتمعنون اليوم الى هذا المخدع وفي الغد الى غيره. واليوم تكونون هذا المعلم وتبلغونه ما هو في ضميركم. وفي الغد تتخاطبون مع آخر سواه. وتقرأون وتفحصون وتكتبون وترجعون

عنواكم بنلاوة الحبحم والاوراق القديمة المتروكة في منزلكم . ثم اراكم تسبحون ببذل المال وذلك بإرسالكم هدايا الى هذا الشخص . وبارشاه هذا الآخر بالمواعيد . والاجمال انكم تسعون بأية مشقة كانت لكي تجعلوا ارباب الجاه مساعدين لكم في المحكمة . ولا تهلون كل اجتهاد يخاطر على بالكم لتبتاعوا الانتصار في الدعوى او على القليل الامل به * فاجيبوني : هل تتعلمون هكذا لتنالوا الغلبة ايضا في المحكمة الالهية التي فيها يجري الفحص في دعوى تخص الابدية كلها * اسرعوا بالجواب ولا تباطأوا عن رده : هل تتعلمون هكذا * حقا يا الهي ان التكلّم فقط في ما انا عنيد ان اوردّه يخزيني ويخجلني جدا * لأنه اذا طلب منكم ان تتناولوا القربان المقدس كل شهر مرة واحدة . فتقولون ان هذا كثير * واذا فرض عليكم قانون ما في سر الاعتراف . تجيبون بأنه ثقيل * واذا فرض عليكم نوع ما من العبادة لتودّوها كل يوم . فتعتذرون قائلين بان ذلك صعب عليكم ومكرب * ولكن لنعدلن عن هذه الاشياء . ونخاطبكم عما هو اضرّ منها قائلين : اتركوا على القليل تلك العشرة غير اللائقة . فتجيبون لا نستطيع . وامتنعوا من ذلك اللعب المحرم . فتأبون عن ذلك * وان اشار عليكم معلم الاعتراف بان تصرفوا كل ليلة قبل الرقاد ربع ساعة في فحص ضميركم لكي ترتبوا عمل نفوسكم حسنا . تعتذرون قائلين بانكم يصيبكم صداع الراس من حصر الفكر * وان نصحكم احد بان تواظبوا كل يوم صباحا على المضي الى البيعة لتسمعوا القداس الالهي . تجيبون : ليس لنا وقت . والاشغال قد اكتففتنا * وان وعظكم احد لتصدقوا ولو بشيء زهيد على المساكين الذين يزحفون بيطونهم على الارض . لكي يجامعوا عنكم في يوم الدينونة كقول الرب « اتخذوا لكم اصدقاء من مال الظلم » (لوقا ١٦ : ٩) . تعتذرون بان ليس لكم ما تعطونه كأن الديون تراكت عليكم . وعيالكم كثيرة . وقد انفتحت كل مالكم في دعاوي * فالذين هذا صنيعهم . هل يكونون معتقدين بان الله تعالى سيدينهم * والحال انكم لا تريدون ان تصرفوا في نجاتكم من شدة دينونته عز وجل ولو نصف السعي الذي تصرفونه حينما تتوجهون الى محكمة انسان ليرافعكم *

فانا اتجاسر واقول بانكم لستم تومنون لستم تومنون (ثم اريد ان اخنطف الكلام من
 فم سليمانوس المعظم المقدم ذكره واجعله كلامي واقول) لستم تومنون لستم تومنون .
 ولو قصدتم ان تثبتوا لي ايمانكم بالكلام . فاجابوكم لستم تومنون * انتهى *
 ليت شعري . هل الحكمة الالهية هي اقل صعوبة من الحكمة البشرية . وهل
 الدعاوي اخف ثقلاً . وهل الخصماء اضعف . وهل الحساب اقل اشتباكاً . وهل القاضي
 السرمدي اقل خبرة . وهل حكمة اقل انصافاً . وهل شريعته منها مناص اسهل من
 شريعة البشر : حاشا وكلاً * فلم يبق لي شي * اقوله فيكم سوى انكم حقاً لا تومنون بانكم
 ستخضرون في هذه الحكمة المخوفة * ثم اكرر كلامي فاقول لكم : لستم تومنون لستم تومنون .
 ولو قصدتم ان تثبتوا ايمانكم بالكلام . اجيبكم لستم تومنون * لا ريب ولا شك في انني
 اسلم لكم انكم تومنون بذلك او ظهر منكم هذه العلامة وهي توقيكم واحترازكم ولو بالظاهر
 من اغاظة هذا الديان العادل الشديد الباس الذي هو سيدينكم . الا ان هذه العلامة
 ايضاً ليست هي بظاهرة منكم * او يمكن ان تكونوا مومنين بانكم ستخضرون امام عرش
 السيد المسيح ربنا المهيب للدينونة . ولا يكون لديكم مع هذا الايمان شيء في العالم
 تخفرونه وتطاونونه وتستهبون به اكثر من المسيح سيدنا * فاعلموا ايها المسيحيون
 المكرمون . انني من خطايي هذا استثنى جميع الصالحين . لانني بكلامي اقصد الشباب
 الفاجرين والنساء المتعبدات للباطيل . وسائر الخطاة الظاهرين الذين لا يستحيون
 بخطاياهم * فهؤلاء هم الذين اقول لهم مع سليمانوس الاسقف النفس المقدم ذكره
 « كيف تقولون انكم تومنون بانه سيكون لكم ديان يدينكم على افعالكم » والحال انه لا
 يوجد عندكم احد ادنى منه واحقر * فان كنتم تومنون ان المسيح سوف يدينكم . فحسناً
 تفعلون . ولكن لماذا تشتمونه في محل اللعب . وتجدفون عليه في حين سخطكم . وتحلفون
 باسمه زوراً في عهودكم . وتغيظونه وتحزنونه في ملاهيكم * لماذا تفضلون على رضا رضى
 شخص ما مغرمين بحبه * لماذا تستسهلون تركه ولا ترك تلك العشرة الدنسة اللذيذة
 لديكم * لماذا تسرفون اموالكم على الاحباب والزواني . وعلى اشياء اخرى من النفقات

الباطلة . ولا تريدون ان تعطوا جزءا منها للسيد المسيح * العلمكم تجاسرون على ان تفعلوا مثل هذه الاعمال السيئة مع انسان تكون له وظيفة القضاء عليكم . وهل تطعنون به في كل حديث . اولعلمكم تحقرونه بعجرفة في اي وقت كان . وهل تجسرون ان تهينوه مواجهة وتسيئوا الادب قدامة كما تفعلون مع السيد المسيح الرب في كنائسه * نعم حتى في كنائسه حيث تعابونه حاضرا في القربان المقدس . ومع ذلك لا تهابون متقين لتعرضوا عن الحديث والتكلم والضحك . بل تبالغون من ذلك في اهانتهم مواجهة . وتتركون عبادته وتسجدون لصنم حي من اصنام الزهرة اعني الزانية المحاضرة امامكم في الكنيسة * مها اردتم فقولوا . فانكم لا تستطيعون ان تقنعوني بان اصدق انكم مومنون بان المسيح سوف يكون لكم ديانا * لستم تومنون (اتفهمون كلامي) لستم تومنون . ولو قصدتم ان تثبتوا ايمانكم بكل ما يمكن من فصاحة الكلام . لستم تومنون * فلماذا لا تومنون يا ايها المسيحيون الاحباء . لماذا لا تومنون * اعسانا ان لا نعلم جيدا انه ما من احد ينجو من الوقوف امام محكمة الله المخوفة * ها هوذا الرسول الالهي يهتف قائلاً « لا بد من ان نظهر كلنا قدام منبر المسيح » (٢ قورنثية ٥ : ١٠) . قال كلنا ولم يقل بعضنا * فما بالكم مغرورين وضالين في نفوسكم . هل ترجون ان تعطوا وحدكم نعمة خصوصية تعفيكم من الظهور قدام منبره تعالى العظيم * ام هل ترجون ان تفلتوا بحيلة او بخديعة ما * وهل تتقون بالهرب منه * وا اسفاه عليكم ان كان يخطر شيء من ذلك على بالكم . وبئس ما ترجون . ولقد زغتم عن الصواب . واعتراكم هذيان وجنون بليغ * خبرنا القديس اقليميس الاسكندري ان واحدا من ملوك السقوثيين يقال له ايتنسوراس ارسل ذات يوم الى داريوس الملك الذي كان عدوه الالد هدية غريبة . اي ثلاث حيوانات مختلفة النوع . اعني خلدًا وسمكة وطائرا . واضاف الى هذه الحيوانات سهما مسموما . وشار بذلك الى انه ان لم يستخف تحت الارض كالخلد . او يغرق نفسه في لجة البحر كالسمك . او يطير في الجو كمثل طيور السماء . والا فان ذراعه القوية تتصل اليه . وينتك به حينما كان * لعبري ان

عجرفته هذه كانت عظيمة قاذحة لا محالة. لكن اجيبوني: هل يكفي هذا كله لنستحي
عن الله تقدس اسمه * فيجيب داود النبي: كلاً. لا يكفي. وذلك بقوله « إن
صعدتُ الى السماء. فانت هناك ». ها ان ذراع الله تجذبنا ولو كنا كالطائر طائر
في الجوّ. « وان فرشتُ سريري في الحميم. فانت حاضر ». ها ان يد الرب تلحننا
ايضاً ولو اختفينا كالخلد في احشاء الارض. « وان اخذتُ جناحي الصبح. وسكنتُ
في اقاصي البحر. فهناك تمسكني يمينك » (مزامير ١٢٨: ٨) * فهنا ان النبي يوضح ايضاً انه
ولو اخفينا غارقين في قعر البحار كالسمك. قيد الرب تتصل الينا وتمسكنا من تحت
الماء * فيا ما اضل من يظن ان يهرب من يد الله تعالى بنوع ما * فالى اي مكان
ذهب الخاطي. فانما يكون ذهابه الى حيث يملك تعالى. لانه جلت قدرته له
السلطان والولاية في جميع الاماكن. وله خدام في كل مكان. وله جنود تنتشر في
كل موضع * ففي اي مكان كنا. ينبغي لنا على رغبتنا ان نوجد تحت يده. وقد جاء
في سفر الحكمة خطاباً لله هكذا « الهرب من يدك هو غير ممكن » (حكمة ١٦: ١٥).
ومع هذا كله فانتم لا تخافون. ولا ترجنون. او لا تصدقون ايضاً « انه مخوف الوقوع
في يدي الله الحي » (عبرانيين ١٠: ٣١) * اللهم اني اسالك ان تير هذه العقول وتلين
هذه القلوب. اذ اني انا لا استطيع ان افعل ذلك ولو استمررت الى آخر نسمة من
حياتي جاثياً لدى اقدامهم * قلت اني لا استطيع ان افعل ذلك. ولكن ليس ذلك
لكون قلوبهم قاسية ولا لاجل انهم منافقون. ولا لاجل انهم غليظوا العنق. لا يا الهي لا:
انه ليس هذا هو السبب. بل انما السبب المانع هو انني خاطي * فكيف تريد مني ان
احرك ولو قلباً واحداً الى الخشوع والتوبة. وانا لعلي اسوأ من جميع السامعين
لي * فهلم انت يا ايها الرؤوف وسد نقصي. واعطني اليوم النعمة التي اطلبها منك
من جوارح قلبي. وهي ان تعطيني نفساً واحدة من انفس هؤلاء الحجم الغفير
الحاضرين ههنا * نعم يا الهي اعطني نفساً واحدة. ولتكن تلك التي تختارها انت.
فانني اطلبها من فيض مراحمك بحق ذلك الدم الكريم الذي سفكته على خشبة

هذا الصليب. وبحق تلك الجراحات وتلك العذابات وذلك نزح الروح المر
الذي تكبده من اجلنا * فيا لحسن حظي ويا لوفور سعادتني ان استحققت هذا
الرجح العظيم في صباح هذا اليوم السعيد. ترى يا الهى كم اكون ملتزمًا بان اشكر
واحمدك على هذه المنحة وبارك سخاك الالهى * واذ قد ساغ لي ان ارجو من رافة
سيدي نفساً واحدة تلك التي يرتضي بها. فتعزي يا ايها المرأة الفاجرة. لانه قد
يمكن ان تكون تلك النفس هي نفسك التي قد انعمت وتعتقت منذ زمان
كثير في الشهوة الرجسة. وظننت انه لم يعد يمكنك ان تتنقى منها * وقد يمكن
ان تكون انت يا ايها الرجل الحقود المتلى قلبه سخطاً. او انت يا ايها المدمن
على اللعب. او انت يا ايها الشهواني. او انت يا ايها اللص. او انت يا ايها
المفتري على غيره. او انت يا من يقاوم لدغات ضميره وله سنون عديدة وهو
يعترف اعترافات ناقصة * فاني انا راغب خلاص نفس واحدة. ولكني اريد ان
تكون من تلك الانفس المقطوعة الرجاء اكثر من غيرها * فاذنا نقول يا سيدي.
العلك لا ترتضي بان تهبها لي. ولكن ما بالي تجاهلت وطلبت منك نفساً واحدة.
لا جرم في انه ينبغي لي ان اقر بذنبي هذا. فاقول اني اخطأت الى جودك الالهى
بطلبي منك نفساً واحدة. لانه قد كان الاولى لي ان اطلب منك انفساً كثيرة.
بل سبيلي كان ان ارجو منك خلاص الجميع * وليس ذلك بديعاً ولا غريباً على
رحمتك العظيمة وكرمك العيم: اليس اننا ملتزمون جميعاً ان نلتقي معاً في وادي
يوشافاط. فلا تسمع اذا يا رب ان يرى احدنا نفسه مفترقاً من خلاصه واصدقائه
في ذلك اليوم. بل امنحنا ان نكون جميعاً عن يمينك واجمين فرحين مطمئنين.
ونسعدك داعياً ايانا لندخل بعز وانتصار الى مجدك الابدى الدائمة افراحه الى
ابد الدهور من غير ان يطرد احد منا بهار وخجل عظيم * اهلنا الله لذلك
بحق الامه تعالى المحيية. آمين *

الخطبة السادسة

نشئل على بيان عظم حماقة الخاطي في مقاومته ربه

ولما دخل يسوع اورشليم. ارتجت المدينة كلها قائلة: من هو هذا * ودخل يسوع الى هيكل الله. واخرج جميع الذين يبيعون ويشترون في الهيكل: هكذا حرر مارتنى الانجيلي في الاصحاح ٢١: ١٠ و١٢ من بشارته *

القسم الاول

انني لست ادري يا ايها السامعون لاي سبب احب العالم قديماً في احتقاب ضلاله وهذيانه المربع ان يسجد عموماً لآلهة رديئة مهينة ضعيفة عاجزة اكثر مما احب ان يعبد آلهة شريفة وقوية ويسجد لها * وتحقينا لذلك اعنبروا بأفكاركم حال جميع ام الملة الوثنية الضالة. فتروا ان كل شعب منها كان يسجد مقتدياً بغيره من الشعوب لكثرة من آلهة ميتة خالية من الطق والحس. كقولنا حجارة جامدة. واشجاراً خرساً. ومعادن صماء بل الذي هو ابلغ من ذلك هو انه لم يكن في مصر خاصة حارث ما الا وتولد له آلهة في حقله وبستانه * وكان يكفيه لتوليدها ان يضع يده على المرء. او على المحراث فقط. لان كل راس ثوم ينبت في حقله كان لديه صنماً يسجد له. وكل بصلة تنبع فيه كانت عنده الها يعبد * وقد كانت ايضاً هناك اي في مصر الحيوانات سعيدة. واسعد منها كانت الحشرات الدنسة الخسيسة اكثر ما يكون: كالحرازين والسحليات ودود الارض والخشب. حيث ان هذه قد حظيت عند المصريين بان تُشرف بالبخور والسجود لها. لا النسور التي هي اشرف الطيور. ولا الاسود التي تسود الوحوش * واي حيوان احقر من الزيراني من طبعها الاغذاء من الزيل والتمرغ فيه. ومع ذلك فكانت هذه قديماً عند اهل سيانا

الالهة المحبوب والمكرم واي حيوان اعجز من السلخفاة. وهذه كانت الالهة اهل طرغلاوديت
 يسجدون لها معظمين. واي بهيمة اقيم واغلاظ من الثور. وهذا كان الاله اهل ايبوبوليس
 يسجدون له متعبدين. واي حيوان انتن من المعزى. وهذه كانت الالهة الذي كان
 اهل مندس يعبدونه ويسجدون له * فيا ايها السامعون من ابن صدر هذا الجنون
 كله في البشر * اما نعم نحن بيقين عظم تشاخي الطبيعة البشرية وعجرفتها. فكيف لم
 يستحي مثل هؤلاء من ان يخضعوا وينحنوا لمخلوقات هكذا حقيرة ومستقيمة ومستعجبة.
 حتى اتصلوا الى ان يسجدوا ويقدموا النخور والقرايين على المذابح لتلك الحشرات
 المنتنة المستكرهة بعينها التي كانوا فيما بعد يطأونها بارجلهم كلها مشوا * فاقول
 ان معرفة السبب في ذلك ليست امراً عسيراً. وعلى ما يستبين لي السبب
 هو هذا: وهو ان اولئك الوثنيين كانوا جميعاً ائمةً ومنافقين. ولما كان نور الرشد
 الطبيعي يضطرهم كرهاً منهم ان يقرؤا بوجود الاله ما في العالم يجب له الاكرام
 والسجود. فضالوا الحب والخضوع لاله دني وضعيف على محبة الاله شريف وقدير.
 وذلك لئلا يستطيع ان ينتقم من مآثمهم. فيسوغ لهم ان يسجدوا لانفسهم افتعال
 كل ما يخطر في ضآئهم من غير ان يخافوا من الاله قادر على قصاصهم * وبعض
 رأي هذا المعلم ثاودريطس حيث قال مثبتاً ان شيعة من الفلاسطينيين كانوا لهذا
 السبب يعبدون الذبابة ويسجدون لها مع كونها هي من جملة الحشرات المكروهة
 الخسيسة اكثر ما يكون * فقد كان هؤلاء الاغبياء يتوهمون انهم يستطيعون ان
 يخطئوا على حسب هواهم من غير عقاب. وذلك لان الالههم ضعيف وعاجز حتى
 انهم يستطيعون ان يبعده عنهم بمروحة او بنفخة واحدة او بتحريك اليد فقط كلها
 رآه قد ازعجهم واتعجبهم * لعمرى ان القدرة الالهية مرهوبة ومقوتة معاً لدى الائمة جداً.
 ومن ثم دعوهم يعبدوا اي الاله شاءوا من تلك الالهة العادمة الحس والعاجزة عن
 الانتقام من آثامهم * واما نحن يا ايها المسيحيون المستنيرون بضياء الايمان المستقيم
 فان الهنا ليس هو مثلما كانت الجهلة الائمة يتصورونه قديماً ولا مثلما ينصوره الآن

ايضاً كثيرون من الخطاة المتوغلين بالاثام والادناس . بل هو على رغبتهم وعلى رغم
الجميع قوي قهار جبار ذو مقدرة اكثر مما تشاءون وتبتغون انتم . ولاجل ذلك
يجب له الاحترام والخوف منه عز وجل * واثباتاً لذلك افما شاهدونهُ اليوم حسبما
يخبرنا عنه الانجيل المقدس كيف اظهر قوته وجبروته عند دخوله اورشليم : كان
الناس يتساءلون ليعرفوا من هو هذا القوي المقتدر بهذا المقدار ويقولون بعضهم
ابعض « من هو هذا » . واما هو جل ثناؤه فلم يعتبر احدًا . بل اقبل على مقرعة وسخ
ذراع يمينه القوية القادرة . وهتف صارخًا . واظهر غيرته ضاربًا . وافعم الجميع خوفًا .
وهكذا عرف ان يلزم بمهابته واحترامه اولئك الذين تجاسروا على ان يهينوا جدار
هيكله لا شخصه الالهي * فان كان فعله باولئك هكذا . فما الذي تفعلونه انتم ايها
الخطاة لكي تنجوا من ذراع القوية : اين تستخفون يا ايها الاشقياء . الى اين تهربون
لكيلا يتصل اليكم رجزه * فاذا خير لكم ان تقتدوا بالمشورة التي اعطيكوها انا .
وهي ان لا تبرحوا من ههنا قبل ان تحققوا قدرته العظيمة وترتعدوا منها خائفين .
متأملين معي كم يكون غيبًا وعدم الصواب كل خاطي لا يخاف من ان يتصل
بالاثم حتى انه يقاوم الله تعالى ويعانده وكما قال ايوب الصديق « متجبراً على
العزير وعادياً عليه بعنقي رفيع وبغلاظة اطرأسه » (ايوب ١٥ : ٢٥) *
انه من المحقق ان من لا يتعجب اليوم من مشاهدته السيد المسيح بيد
الجميع ويقلب الموائد ويهزم الحيوانات . ويملاً الهيكل كنه اضطراباً وبلبله ويلقي الخوف
والرعدة في كل المدينة . وذلك بمقرعة من حبل فقط كان ضابطها بيده . لا
بسيف ولا بسياط اخرى مولة . فانه مجهل من هو هذا الاله * لعمرى ان القدرة
التي تنال غايتها بسهولة بوسائط حقيرة عديمة الاعتبار تحسب اعظم وافضل من
القدرة التي لا تستطيع ان تحصل على مرامها الا بوسائط عظيمة رامنة * مثلاً ان
قلت لكم ان شمشون الجبار الشجاع كان يستطيع ان يبلبل ويهزم جيشاً عظيماً من
الفلسطينيين بحربة مستطيلة . فتستعظون قوته لا محالة . ولكن ان قلت

لكم انه كان يقدر ان يفعل ذلك بمجرد سيفه . أفما تعتبرون قوته أكبر . أو لا تعتبرونها
 بأكثر من ذلك جداً اذا اخبرتمكم انه كان يستطيع ان يفعل ما ذكر بعضا واحدا
 لا غير * واما إن ذكرت لكم انه فعل ذلك بفك حمار ميت . فانكم لا محالة تعتبرون
 وفور قوته اعتباراً عظيماً . حتى انكم تهزأون بكل من يعتبر قوة الجبارة والملك التي
 نهاها نحن * لعمرى لقد ضل كل من يعتبر هؤلاء اقوياء اعزاء لمشاهدته اياهم
 يرسلون امامهم عند خروجهم الوفاً كثيرة من الفرسان والجنود حاملين القسي والرماح
 والسيوف ومسليين بالاثراس والدروع الحديدية * فالخليق بنا ان نقول ان ذلك
 كله هو دليل على الضعف والعجز . ولا ريب في انهم قد كانوا حقاً اقوياء جبارة
 مخوفين لو كانوا يستطيعون ان يخرجوا لملتقى جيوش اعدائهم بفك حمار نظير شمشون
 الجبار . ويجعلوا منهم مقتلة عظيمة او يهزموهم او يبددوهم . لان القدرة التي
 تفعل مفعولات اعظم بالآت اقل مناسبة يجب ان تسمى قدرة على الاطلاق . ولها
 الفضل والشرف على غيرها * فهذه هي القدرة التي تلالآت بنوع عجيب في الهنا *
 ومن ثم قد ذهب القديس يوحنا الذهبي الفم الى ان الله عز شأنه لما قصد ان
 يكبح تشاخص المصريين . اظهر عظمتة وقدرته الالهيتين اوفر ظهور باستخدامه الحشرات
 الضعيفة العاجزة عن الاذى لا باستخدامه وحوش الغابات الكاسرة الخيفة . قال
 الملقان « ان الله اظهر للعالم كله منظرًا عظيماً لما خفض استكبار المصريين لا بالاسد
 والدب لكن بالضفادع والذباب » انتهى * فاذا بعد ان تقر ذلك . هلم تقدموا
 الى هنا ايها المسيحيون وقولوا لي : من اي سبب يتلذذ فيكم ذاك التكبر الذي به انتم
 معتادون احياناً ان تغيظوا الهكم . ومن آية جهة تصدر فيكم الجراءة الذميمة والجسارة
 الفظيعة والعجرفة القبيحة في مقاومتم ارادته تعالى الالهية وقدرته العزيزة . حتى انكم
 عوضاً عن ان تتبها لنفوسكم وتذلوا او تعدلوا اخيراً عن اسخاطه عز وجل
 تداومون ذلك . بل تضاعفونه ايضاً غير خائفين *

انه وان اخفيتم عني مداخل عجزتكم هذه واسبابها وايتم ان تقرروا بها حياءً

منكم وخجلاً . فلست اباي من ذلك . لانه اذا تاملنا تاملًا مستقيماً فيسهل علينا الاطلاع عليها . وهي الخيرات الزمنية ولاسيما الاموال الفائضة عليكم . فهذه بلا شك هي الاسباب التي تجعلكم غالباً مستكبرين ومتعجبين في الخطأ * ولا عجب في ذلك لكون الفضة هي الشيء الذي تطيعه الاشياء كافةً وتخضع له . كما شهد بذلك سليمان الحكيم ممتحنًا ذلك في نفسه قائلاً « كل الاشياء تخضع بالفضة » (جامعة ١٠ : ١٩) *
ومن هذا القبيل انتم يا ايها الاغبياء العارفون قوة الفضة بالتجربة . وايضاً بالامتحان نقولون متشاكخين في نفوسكم : من هو الذي نحتاج اليه . اننا لمستطيعون ان ندبر ونفعل كل ما يخطر في ضائرتنا . على انه سينعطف معنا ذاك الكاتب الذي له وظيفة التسجيل في المحكمة ان اردنا ان نغلب الدعوى في الشرع . وتطاوعنا تلك الفتاة اذا راودناها عن انفسنا . وبطابقنا ذاك الشرطي اذا رشيناها لينتم عنا من خصمنا . وعلى هذا المنوال تؤثر ان تقاوموا الله تعالى نفسه وتعاندوه عاصين متشاكخين كأنه لا خوف عليكم اصلاً . بل متكئين على الفضة الوافرة الفائز انتم بها التي تخدمها كل الخيرات وتطيعها * لقد قال الحكيم في سفر الامثال « قنية الغني مدينته الحصينة » (امثال ١٠ : ١٥) * وهذا القول حسن جداً ومطابق لموضوعنا . ثم اردف كلامه فقال « وكالسور العالي في تصوره » (امثال ١٨ : ١١) * ولكن لماذا لا تنظنون في انه وان كان كل شيء بطيع الفضة . الا انه غير ممكن ان يطيع فضتكم ذلك الذي قد خلقها وهو مولاها * واذا ما شاء جلت قدرته ان يطرح الى الارض سوركم هذا الحصين . افتظنون انه يحتاج الى ضرب مدافع ومنجنيقات وما شاكل ذلك * لان خيراتكم هي قائمة غالباً في املاك وغروس وفروع . فهي ظاهرة مكشوفة . فاذا اراد ان يهدمكم اياها . فلا يلزمه ايضاً ان يجدد الآيات الغريبة التي حدثت قبل عصرنا هذا في بولونيا لما امطر عليهم حجارة من السماء . ولا التي حدثت في هذا القرن في بودا لما امطر رصاصاً : لا لعمرى * بل اسمعوا كيف انه بشيء وجيز جداً يستطيع ان يهدمكم اياها . وذلك اما بصنعه معكم ما اصطنعه مع اخاب الملك . اي بامساكه

عنكم المطر الضروري في اوانه . واما بإرساله الى دمار حقولكم برداً صغيراً او ضباباً خفيفاً او حيوانات حقيرة لا اعتبار لها * ليت شعري اذا ارسل كثرة باهظة من الدود والجندب والجراد . افلا يكفي ذلك ليفقركم * كم من المعجزات العظام صنع بمثل هذا الجيش الضعيف اي الجراد : اليس انه تعالى بهنك الهوام هزم الكنعانيين وطردهم من اراضيهم ليملكها لآل اسرائيل * او ما كسر عسكر الفرس لما حاصروا مع سابور الملك قائدهم مدينة نصيبين * أو لم يطرد عسكراً آخر من الفرنسيين قد كانوا معسكرين مع كاراس الملك حول مدينة جيرندا * العلة جلت قدرته لا يستطيع ايضاً بهذا العسكر الحقير ان يفني لكم عشرة اشبار من الزروع * اسالوا ديودوروس المورخ اي غلاء جلبت طيور الغيب الصغيرة في بلاد الماديين . واستخبروا ايضاً سبليوس اي خراب احدثت ضفادع دقيقة في بلاد ثراقية . واسالوا كرومار اي دمار احدث جندب قليل في بلاد ماسويا . واستخبروا بلينيوس كم من الضرر حل بملكة فرنسا من قبل ذباب دني لا اعتبار له . واستفهموا سيغونيوس عن المجاعة العامة التي احدثها دود صغير من الارض في ايطاليا . وبعد ذلك اجيبوني : يستطيع الله ان يعربسكم ويفقركم ايضاً بما هو حقير دني . ام لا * ولكن لعلمكم تقولون ان خيراتكم واموالكم ليست قائمة في مثل هذه الأملاك المذكورة . ولاجل ذلك فلا تخافون من قحط . ولا من غمر مياه . ولا من دود . ولا من دواب تُلِف اراضيكم * فني اي شيء هي قائمة : العله قائمة في الصرافة او في المضاربة . ولكن اما تعلمون ان الريح الناتج من ذلك هو تحت ارياب ايضاً * ام لعله قائمة في عوارض واحكار . ولكن اما تعلمون ايضاً ان هذه قد يمكن ان تقل وتنقص * ام عساها ان تكون مودعة عند الصرافة تجتمون منها الريح المخبوم كل عام مادمتم احياء انتم وذريتكم . ولكن اتجهلون كم يتداخل في هؤلاء الصرافة من الخنا والغش حتى انه يمكن احياناً ان ينكسروا . او يتخابثون عليكم وبعدمونكم راس مالكم وارباحه * ام هل خيراتكم قائمة في المتاجرة . ولكن الا تدرون كم من الخطر في هذه المهنة * العله السفينة التي اودعتم

فيها بضائعكم محتاجة الى ان يهب الله عليها الرياح الطيبة الملائمة المناسبة * اما
 تحتاج ان يسوقها تعالى مستقيماً . لئلا تضرب في صخر او تنشب في يابس . او تقع
 في ايدي لصوص البحر * اما تحتاج ان تُصدَّ عنها العواصف والزوابع الشديدة .
 لئلا تقلبها او تفرقها . فكيف تجسرون انتم يا ايها التجار ان تخطئوا وتغيظوا ربكم
 في الزمن الذي فيه نفسه تكون اموالكم وخيراتكم سائرة في البحر تحت هذه المخاطر
 الكثيرة * واقول لكم ايضاً فضلاً عن ذلك : انه وان رايتم بضائعكم واصلة الى
 المينا . فلكم ان تخافوا عليها من العطب . ولا تخذعوا انفسكم بطمانينة الامان * وذلك
 لان الله جل شأنه حسبنا نبه ترتليانس له ايضاً في المياه دوّار خفي وثورة لا تؤمن
 من شأنها ان تُغرق بضائعكم * ثم لتتقدمن ايضاً الى ما قدام ونقل : انه اذا كانت
 قناياكم واموالكم مقيمة في البر . افليس انه عزت قدرته يستطيع ان يعدمكموها ايضاً
 باسهل ما يكون : مثلاً اذا كانت قائمة في الديار والمنازل . افما يستطيع ان ياذن
 لشرة نار فتطير وتحرقها . وتزول الاجرة التي كنتم تستفيدونها منها * وان كانت
 من المواشي . افما يقدر ان يرسل ريحاً مفسدة تُطعن بها مواشيكم كلها . ويزول معها
 ربحكم * وان كانت حنطة او غلة اخرى من المحبوب الضرورية لتوت البشر ولو
 كانت محفوظة في الاهراء . فهل يعسر على قدرته الالهية ان ياتي بقليل من
 الرطوبة في اهرائكم تفسد بها خزائلكم التي انتم متوكلون عليها لترجوا بها اوفر
 الارباح في ايام الغلاء * واذا كانت دراهمكم مستوثقاً عليها ايضاً في الصناديق ومحفوظة
 تحت اقفال من حديد وصفائح من فولاد . افلعلها سالمة من يد ذلك القوي
 العزيز الذي في مثل هذا اليوم بمقرعة من حبل «قلب موائد الصيارفة» * ما اكثر
 غباركم وما اوفر ضلالكم * لعمرى ان دعوى واحدة او خصومة واحدة لا غير .
 تكفي لان تبدد دراهمكم كلها بزمن يسير . فلقد اصاب تقدس اسمه بقوله على قم
 حبي النبي ان «لي الفضة ولي الذهب» (حجى ١٠٢) * وانتم عارفون بذلك جيداً .
 ومع ذلك اعكذا تستسهلون اغاضته تعالى بخطاياكم * قولوا لي او كان احد الملوك

ضابطاً تحت يده جميع اموالكم كما كان يوسف الحسن ضابطاً كنوز المصريين
 وكان له السلطان على ان يعدمكم ايّاماً او يتركها لكم حسب ايشاء. هل كنتم تجاهلون
 حتى انكم تجسرون على ان تعادوه عداوة ظاهرة * فكيف تباغون الى هذا الحد
 من الاثم حتى انكم تتعادون مع الله تعالى نفسه : يا لها من غباوة جسيمة . ويا له من
 جنون عظيم * انكم انتم من اجل كونكم مالكين مالا كثيراً وثروة وافرة تطعون
 ابلغ الطمع في اغاظته تعالى . وانا اقول لكم : انه كان ينبغي لكم من هذا الوجه ان
 تهابوه نقداً اسمه وتحترموه اجزل الاحترام لاجل انكم مالكون اوفر الثروة * فلو
 كنتم فقراء . لكنتم تستحقون عن خطاياكم عقاباً اخف . ولكن من حيث انكم اغنياء
 فتستاهلون عقاباً اعظم . وهو ان يسلب منكم غناكم وتحصلوا فقراء مقترين *

ولكن هبوا ان الله سبحانه ياذن لكم بان تمتلكوا قناياكم وارزاقكم من دون ان
 يعترها شيء من المضرة . انما يسهل عليه ان يعدمكم بامر يسير ولو فوائدها * ان
 الغنى ليس هو شيئاً موموقاً ومرغوباً في ذاته كما علم ارسطو الفيلسوف . بل هو
 موهوق ومشتاق اليه من جرى الخيرات الناتجة منه . وهي المجد والصدقة والمراتب
 والقربة والولائم والملاهي والمناذات * اوليست هذه الخيرات كلها في امتلاك يد الله
 تعالى على حد سوي . يوزعها على من يشاء ويريد * ولكن لكيلا يطول بنا الشرح اذا
 اردنا ان نتكلم فيها واحدة فواحدة . فلنتكلم الآن في خير واحد يعم جميع الخيرات *
 فنقول من منكم لا يعلم ان الصحة اساس كل خير . وذلك بموجب قول الله سبحانه
 ايضاً في سفر ابن سيراخ حيث قال « لا غنى يشبه صحة الجسم » (سير ٢٠ : ١٦) * واثباتنا
 لذلك اقول ما المنفعة في امتلاك قرى فاخرة عامرة وبساتين حسنة ظليلة وقصور
 شاهقة مزخرفة اذا كنتم مطروحين على سرير نظير آسا ملك يهودا غير قادرين
 على ان تخرجوا خارجاً لتتنزهوا بها . ولم يعد لكم سوى تعزية واحدة لا غير وهي ان
 تزوركم الاطباء واحداً بعد واحد * ان فائدة الخيرات البشرية ليست قائمة في
 امتلاكها بل في استعمالها . ولجل ذلك قد حكم ايضاً ابن سيراخ قائلاً « المسكين

الصحيح الشديد القوة خير من الغني العليل السقيم في جسمه « (٢٠: ١٤) * لان
الفير الصحيح الجسم قد يستند بالفيل الذي يعطاه. واما الغني السقيم فلا يتنعم
بالكثير الحاصل هو عليه * فا الفائدة اذا ترك لكم الله تعالى أشجاركم حاملة اثمارا
لذيذة. وكرومكم مفعمة عنبا حلوا. وبساتينكم وحقولكم حاوية من افخر الطيور
لتنزهوا فيها بالصيد والقنص. اذا كان مذاقكم فاسدا من الضعف والسم. ووضحت
من قبل ذلك هذه المواكيل كريهة لديكم لا لذينة * وان امر الله تعالى ايضا ان
يلم براس احدكم وجع موم قادح. فاذا تقيده حينئذ علومه الكثيرة * اما كان
انجلوس بولشيانوس جليلا في العلم. ومع ذلك كان اذا اشتد الوجع في صدغيه لم
يكن يستند من علمه لذة ولو قليلة. لان الله كان شديدا جدا حتى انه لا فرط الوجع
كان يضرب براسه الحيطان * وان اذن الله بان تعزيكم آكلة مستحبة في الصدر.
فاذا تنفكم حينئذ قوتكم التي اتم تباهون بها * اوليس هيرودس الملك كان قويا
قادرا. ومع ذلك اتاه زمان لم يكن يفرح فيه بقوته ولو قليلا. لانه كان يتالم جدا
حتى انه عزم احيانا على ان يشق صدره بالسكين ويموت لتفانم الوجع الذي كان
يشعر به من الدود الذي كان يري في حشاه * لعلمكم تمتعون بالرقاد على الفرش
الناعمة والملاحف الرفيعة الفاخرة والاعطية الحريرية المثمنة. فلو اصابكم ما
اصاب مقينات الشقي الذي استمر مدة ثلاث سنين متصلة يتوقع النعاس ليدنو
من اجفانه ولو ليلة واحدة فقط. فلم ينله ابدا. بل فر منه هاربا * وماذا نقول اكثر
من ذلك. والحال انه من المعلوم ان حى خفيفة فقط تكفي لتعربس اسعد سرة
الارض. فلقد اصاب القديس اوغسطينس المعظم اذ تكلم قائلا: انه وان كانت
افراح البشر ليست هي بافراح حقيقة. فع ذلك كيفا كانت فحى قليلة تعدمهم اياها *
فاجيبوني الان يا ايها السامعون المكرمون: اليس اجسامكم ايضا قابلة هذه الاستقام
كلها * فان قنم انكم شبان. فلا انكر عليكم ذلك. وان كنتم الان اقويا اصحاء
حاصلين على مزاج معتدل خصل. فانا اسلم لكم ايضا هذا * لكن ماذا تتجون من

ذلك . وربكم اذا شاء ان يعدمكم صحتكم ولو كانت صحيحة شمشونية . فلا يقتضي ذلك لديه تعباً جزيلاً . لأنه يكفي لذلك اما نزل بارد على البدن . واما حصار بول لا غير # فكيف لا تهابونه تعالى الا مهابة وجيزة كأنكم تجهلون ما نطق به ملاخيا النبي قائلًا « ان الشفاء في اجنحه » (ملا ٤ : ٢) . فاذا حرك اجنحه اخف التحريك . ياخذة اي ياخذ الشفاء من هذا ويعطيه لهذا . وينقله من بعض ويرده الى بعض على ما يشاء . ومحب # فيا ايها الاله الذي لا يدنو منه الموت . انني ارى ان كلاً من الحكماء الدنيويين يحفظ سلطته مرهوبة ومخوفة في كل وقت على المجرمين . وذلك باظهاره لهم العصي والحبال والقيود والسيوف والمقاطر والخوازيق وغير ذلك من آلات العذاب . وانت يا الاله لا تنال منا قصدك اعني الخوف والارتهاب من سلطتك القادرة الفائقة الوصف بواسطة الاسقام التي ترينها كل يوم متراكمة في الاجسام المعتلة . واحياناً ترينها في اجسام اقاربنا . وتارة في اصدقائنا المضموكين باوجاع وامراض معضلة قاذحة # لاننا نرى منهم من هو مضموك باوجاع الاضراس . ومنهم من هو متعوب باوجاع المعدة . وآخر يشكو اوجاع الامعاء . وآخر معترى باوجاع الكبد . وهذا مصاباً باوجاع الحصار . وهذا يشكو اوجاع الصرع . مع انه ليس احد من الحكماء الارضيين ينزل باحد المجرمين عقاباً يوازي هذه العقوبات # وما عدا ذلك فان العذابات التي يجازي الحكماء بها المذنبين لها حد . اجل بالسنن الدنيوية لا يتجاوز ساعات كثيرة . ولكن العذابات التي يمكنك ان تعاقبنا بها انت يا رب تجاوز احياناً حد سنين عديدة . حتى انها لعلة استطالنها تصير مراراً كثيرة شاقة غير محتملة حتى ان كثيرين فضلوا ان يموتوا موتاً اغنياً لا يوسين على ان يجيوا حيوة معذبة مولة # كذلك فعل نينوس الارستون وسيلبوس الايطالي . ومثلها سبوسيبوس الفيلسوف قتل نفسه لأنه لم يحتمل علة البرص المستطيلة . ومثله برسبوس الفصيح فتك بنفسه لضجره من حبي الربيع . ومثلهم تيمنتوس الكلاوني امات نفسه لأنه شق عليه احتمال ضعف البدن . وهكذا فعل ايضاً الملك ساستريس

لأنه عدم بصر عينيه * وابلغ من هولاء كلهم ما فعله في عصرنا هذا انطونيوس الكورني الشاعر الشهير. فهذا لتفانم وجع الامعاء الذي كان يشتد عليه حيناً فحيناً بشدة لا تطاق امات نفسه بثقب جوفه بالمقص تعديداً بيده. وهكذا ختم بالموت اوجاعه القادحة * فليت شعري ان كان هنك في حال الاوجاع المرة الصعبة المختلفة التي بها يستطيع الله تعالى ان ينتقم عن الخطايا الصادرة في حق جلاله الالهية. افا نكون نحن اغبياء جهالاً حينما نسلك معه بقلة الاحترام والخوف بل بتشاخ وتكبر لا يَحْتَمَلان * انني اظن ان بعضاً من الجهلة يتوهمون ان ابدانهم مركبة من مزاج معتدل متعاف وأنه يلزم لتدميرهم طعن سلاح قوي. فيثقون بانفسهم انهم يسلمون من كل خطر * لعمرى ان الله تعالى لو شاء لبعث الى العالم مرة ثانية ذاك الطاعون المربع الذي حدث في المانيا في عهد فيلبوس ملك فرنسا. وذلك اذا امتد الطاعون في ذلك الاقليم كله امتداداً قوياً حتى انه فضلاً عن البشر اتصل ايضاً الى الحيوانات. ومن ثم شرعت الطيور تغادر اعشاشها لتفانم فساد المناخ وتقر هاربة. والوحوش تترك اوكارها وتنهزم. والحيات تنبذ ثقوبها وتنتقل الى بلدان بعيدة هاربة. والبشر كانت حياتهم تنفي بمدة اربع وعشرين ساعة بعرق منن كرية يقطر من تفتيح مسامات الجسد * ولكن مع ذلك كله اذا اراد الله جلت قدرته ان يفني حياتكم ويذيبها كالشمع. لا يفتقرايها السامعون الى مثل هذا كله * العلم اقوى من ذاك الصنم المشهور الذي رآه بختنصر الملك في بابل. ومع ذلك ما الذي احتاج لكسره وتحققه: لا ريب ان حجراً صغيراً لا غير ضربة فطحته (دانيال ٢: ٣٢) * ولقد كنت ارغب من الله تعالى في هذا الوقت امراً واحداً لا غير وهو ان يجعل في هذه الساعة كل جسد من اجسادنا شفافاً كالبلور لنستطيع ان نعاين ونميز فيه بلحظة واحدة مدققين عدة العظام والعضلات والاعصاب والعروق والشريانات والشراسيف الكثيرة المركب هو منها. لكي ارى اي واحد منكم يرتعد حينئذ خائفاً من مشاهدته بسهولة خراب هذا التركيب الدقيق بهذا المقدار * اني

لعارف بانكم تضحكون عند استماعكم او قراءتكم قصة ذلك الرجل الذي لعله داء
السوداء كان يتوهم ان جسده كله قد اضحى جسماً زجاجياً. ولذلك انطرح على فراش
محصور من انعم ريش النعام. ولبث راقداً عليه غير متزعزع اعواماً * وكان اذا ابصر
احداً مقبلاً اليه. يناديه من بعد طالباً ان يرحمه ولا يدنونه خوفاً من ان يكسره
بجسه اياه * قلت انكم تضحكون عند استماعكم خبر هذا المجنون. ولكني انا بخلاف
ذلك ابكي وانوح عند تأملي ما نحن عليه من الضلال. وذلك من حيث أننا
نعتبر اجسامنا اصلب واصلد من الخماس. وهي في التحقيق اسرع عطباً من الزجاج *
قد اعنبر اوغسطينس المغبوط فائدة حسنة. وذلك حيث قال في بعض خطبه
هكذا «انه وان كان الزجاج من طبيعه سريع العطب جداً. الا انه اذا حنظ
بتحرز. يدوم سالماً كثيراً. ولكن الانسان مهما احنظ عليه. فلا بد له من ان
يموت» * ليت شعري من ذا لا يندهل اذا سمع سبب وفاة بلدوس المعلم الماهر
في الشريعة. انه لما كان ذات يوم يحنظن ويتلق ويلبس كلباً صغيراً قد كان من
عادته قبلاً ان يجاه كثيراً في حنظه ويطعمه ويسقيه بيديه. احنى راسه ليقبله.
فعضه الكلب عضه بها وجد الموت عاجلاً. مع انها كانت عضه صادرة من
اسنان حنيرة * اواه من عظم غباوتك ايها الانسان بل من وفور جسارتك الفظيعة.
اذ أنك بمعضياتك تقيم حرباً مع الآله الذي يستطيع في كل طرفه عين ان
يهدمك بل يهدمك ويفنيك بادنى الاشياء واحقرها * ومن ثم اخاطبك مع ايوب
البارقائلاً هكذا لماذا «تجر نفسك على الله» (ايوب ١٥: ١٣) *

اما تعلم انه عز وجل استطاع ان يزيل بسهولة عظيمة حياة تركوينيوس
ملك الروم اي بحسكة سمك وقفت في حلقه. واستطاع ان يزيل حيوه فايوس
بشعرة ابتلعها مع الحليب. واستطاع ان يهدم انكراونس حيائه بحبة صغيرة من
العنب. وامكنه ان يهدم ادريانس الرابع الحبر الاعظم حياته ببرغشة ابتلعها مع
الماء. واستطاع ايضاً ان يفتك باميرة من اعيان رومية وهي لوكيا ابنة مرقس

اوراليوس بنحس ابرة دنية * وبعد هذا افلا ينبغي لك انت يا ايها الانسان العديم الصواب ان تخشى خائفاً من هذه القدرة قدرته . اما ترتجف منه . الا تحترمه وتجامله . وهو الاله الذي حسب قول دانيال النبي « بيدك نسمتك ولذ جميع طرقك لم تجده » (دا ٥ : ٢٣) * لقد قرأتُ خبراً عن رجل هندي يقال له مونا تاما انه وُشي به زوراً الى وسكوس نونيس احد مالكي الهند بانه اساء آساء عظيمة الى ذلك الملك الجليل . فاحضره الملك امامه وسأله عن جرمه . فشرح ذاك البري يتكلم . ودفع عن نفسه التهمة الباطلة بقدر ما استطاع * الا انه لم تغن عنه تبرئة نفسه . ولما راي كلامه لا يقنع الملك . جثا امام قدميه . ووضع بلياقة واطافة يدك وهي ترتجف على غمد سيفه اي سيف الملك . وحصرك كلامه ومحاماته عن نفسه في هذه الاناظ . وهي : اتصدق يا مولاي العزيز انه يمكن ان يخطر في فكري هذا الاثم الشنيع الذي قد تهمت بانني ارتكبته في حق جلالك مع كونك متقلداً على فخذك سيفاً ماضياً مسنوناً تستطيع بضربة واحدة منه ان تقطع المرء شطرين * هكذا اتكلم واعنذر عن نفسه حسناً هذا الهندي الوحشي المتعلم في مدرسة الطبيعة * لانه على الظاهر من الامر المستحيل الذي لا يصدق ان رجلاً عائشاً عرياناً حسب عادة اهل تلك البلاد وليس له سلاح سوى طبر من خشب يجسر على ان يرفع عنقه على بطل صديد متسلح بسيف ماضٍ من فولاد . عارف بان يضرب به ببسالة عظيمة * فهلم الآن يا معشر المسيحيين احبائي . تعالوا الى ههنا واجيبوني على سوالي : كيف يسوغ لكم بل كيف يمكن ان يخطر في افكاركم ان ترفعوا اعناقكم على الله جلّت قدرته وتعاذوه بعتو وجبروت . وتعصوه كأنكم غير عارفين الاختلاف العظيم الكائن ما بينكم وبينه * لانكم انتم دود من الارض دني . وهو تقدس اسمه المولى المطلق ذو القدرة رب العالم كله * العلة تعالى متقلداً سيفاً واحداً فقط على فخذ . والحال ان جميع الصواعق التي في السحب . وكل الوحوش الضارية التي في الفياثي . وجميع السموم التي في الحشائش . وجميع الرواميز التي في المياه . وكل اجميع وهيب في النار . وكل

هوتة وهاربة في الأرض . كلُّ هذه هي اسلحتُه . وبها يستطيع باسهل ما يكون ان
يخفض تشاخصنا * ومع هذه القدرة العظيمة لستم تخافونه انتم * فهل يوجد لديكم ترس
تدافعون به هذه الاسلحة العظيمة . والحال انه تعالى اذا اراد فانه بادنى خلط او
مجي خفيفة او باكلة او بنقطة دم لا غير تجدر عليكم بصيركم امواتا * فليت شعري
ماذا يجري بكم لو اذن للرعود والصواعق والعواصف والزلازل بالانتقام منكم *
الا يستطيع ذاك الاله العظيم ان يذلَّ بهذه الاسلحة المرهبة تجبر انسانٍ منتن
حقير . والحال انه عزَّ اقتداره اذا سطع الجبال فتصير رمادا . واذا انتهر البحر
فيجف . واذا سخط على الشمس فتظام . واذا تخلى عن الارض فتتلاشى * ولكن ما
احسن ما هو مكتوب في سفر ايوب حيث يقول « كما قد رايت الذين يجرثون في
الاثم . من نسمة الله يبيدون » (ايوب ٤ : ١ و ٢) * افهتم قوة هذه الآية الشريفة : انه
لم يقل من بروق الله يبيدون . بل قال من نسمة الله . لان الله اذا شاء . فانه يستطيع
ان يفينا ويلاشينا بنفخة واحدة فقط : وذلك طبق ما نطق به ايضا اشعياء النبي
قائلاً : انه تعالى « بروح شفثيه يقتل المنافق (اش ١١ : ٤) » *

ومع ذلك قلنا ان نقول ايضا اكثر مما ذكر . وذلك ان الله تبارك اسمه القدوس
له السلطان المطلق على ان يبيد حياتنا بنفخة واحدة من فمه اي كما قال اشعياء
المقدم ذكره بروح شفثيه . اعني انه يستطيع ان يميتنا ويلاشينا باعظم السهولة . لا
بل له تعالى السلطان ايضا على ان يبيدنا ويميتنا في الاحوال التي لم تكن نتوقعها
والتي لم تكن نفتكر فيها ولسنا نريدها * قال ترتليانوس في الفصل الثاني والخمسين
من كتابه في النفس : ان الله بإرساله الينا الموت دائما يظهر سلطته علينا المرهبة
حقا . غير انه يبينها لنا اوضح بيان بارهابه ايانا بما يبعث به الينا في الزمن الذي
ترغب فيه امتداد العمر : اي حينما نكون متمتعين براحة وكرامة وخير ولذة لانحباب
فراقها * فان كان هذا حقا لا ريب فيه اصلا . فكيف اذا نتجاسرون على اهانتهم
تعالى انتم يا ايها الشبان القاصدون اماتة تلك العفة بارتكابكم الدنس . وانتم ايها

التجار الشرهون بالارباح الطالبون جمع الاموال من اي وجه كان . وانتم يا ايها
الاعيان الطامعون في تلك الوظيفة . وانتم يا ايها الوالدون الفليلوا البصيرة الساعون
في عقد تلك الزيجة المحرمة . مع معرفتكم نلكم ان الله سبحانه قادر على ان ينقض
نسيج مساعيتكم هذه الكثيرة بخيط واحد يقطعهُ . وذلك حينما تكونون ايضا في انتصاف
عملكم وسعيكم مطمانين في نفوسكم غير مفتكرين في شيء سوى امتداد الحيوه وبلوغ
شهوواتكم الذميمة * ليت شعري من يستطيع ان يصف مقدار العناء والتعب الذي
قاساه بيبولوس احد امراء رومية العظمى ليحظى بالدخول الى هذه المدينة بانتصار
وسيم واحتيال عظيم يليق بالملوك المظفرين : ما اكثر النفوس التي فتمك بها من
العساكر الاجنبية . وما اجزل المخاطر التي طوح بها نفسه . وما اوفر التعب الذي
احتمله في اقامة الحرب وتحصين رومية * غير ان الله تعالى قد وجد طريقة ليعرسه
وبشقيته في عنفوان عزه وفرحه بعد فتكه باعدائه * وهل اقتضى له تعالى لذلك
تعب جزيل . او احتياج الى كلفة وافرع : حاشا وكلا . بل كفاه ان يامر الموت
بان ينتظره عند دخوله الكابنول اي قصر الملكة حيث كان عتيدا ان يجلس على
كرسي العز وياخذ من اعيان المدينة اكليل الظفر بحضور جميع اهل المدينة وهم
في رنج وفرح . وقد امر الموت بان ينتظره ويفتك به لا بالطبرات والسيوف والسهام
والرماح والمدافع والبواريد . لكن بلينة واحدة احدها عليه من السطح . فهل
تصدقون ذلك : نعم نعم ان لبنة واحدة فقط سقطت على هامته عند دخوله
الكابنول وهو جالس على مركبة النصر . فنقضت ذلك التاج الذي كان عتيدا ان
يتكلم به بالشرف . واحالت افراجه الى ولولة . وصيرت ذلك الموسم الفاخر المبهج
بكاء له ونوحا * فما هو ايها الخطاة سبب قلة خوفكم من الله . ومن اين يصدر عدم
اعتباركم من كل ما يخيفكم به تعالى مع علمكم بقدرته هذه العظمى الرهيبة . حتى انكم لا
تحشون من اغاظته . بل تبلغون احيانا الى ان تتجلبوا عليه كمثل الطاوس
نظير اولئك الذين قيل عنهم في سفر ايوب انهم « يسخطون الله مطمانين »

(ايوب ١٢: ٦) *

انني اقرُّ لديكم بالحقِّ بانني قد قصدتُ ان افكر وافحص عن علة طمانينتكم
 هذه وقلة خوفكم من الله تعالى. ولكن حقاً اقول انني كلما اكثرُ وتعبتُ في الفحص
 عن هذه العلة. احتجب عني وجودها * غير انني مستمع باذني عقلي واحداً من الخطاة
 يخاطبني قائلاً: لا تعب يا ابانا في الفحص لا تعب. فيها نحن نظهر لك سبب
 عدم خوفنا: اعلم اننا نحن كنا في الابتداء نهاب كثيراً قدرة الله تعالى تلك التي
 قد اجتهدت انت في هذا الصباح ان تمنعنا بالارتعاد منها. وقبل ههنا كنا نتوتى
 الخطأ جداً. ولم نكن نجسر قط على ان ندنس انفسنا بشائبة ما تهين الله وتسخطه *
 غير ان التجربة فيما بعد ازاحت عنا الخوف. وذلك لاننا جربنا ان نرتكب اثماً ما
 وارتكبناه. ومع ذلك لم يصيبنا شيء من النعمة والمضرة. فمن ثم تشجعنا وزدنا على
 الخطايا القديمة خطايا حديثة. وانتقلنا من شهوة القلب الى اتمامها بالفعل. ومن
 السخط على قريبنا الى الانتقام منه. ومن الشتم الى التجديف. ومن الحلف الصادق
 الى الكذب. وما نحن احياء. ولنا املاك نستغل منها. ولنا اولاد ويكبرون. ولنا
 اصدقاء ويعتبروننا. ومن كان منا لهُ اعداء فيها بونهُ. ومعنا زمان وما نحن متمتعون
 به. فكيف تطلب منا يا ابانا ان نهاب تلك القدرة التي وان كانت مخوفة لغيرنا
 الا انها ليست مخوفة عندنا * اواه من هذا الجواب. اما هي مخوفة لكم ايها الاغبياء.
 فيا ايها الاله ربّي المخنقر والمهان. كيف تستمع باذنيك الالهيتين هذا الخطاب
 المملوء عنواً وعجرفة. ومع ذلك تحمل صامتاً * هذه هي فائدة صبرك الطويل «سأحمت
 لهم يا ربُّ سأحمت» (اشعياء ٢٦: ١٥) * لكن ما الذي استفدته من سآحك لهم
 «الملك تعظمت لهذا». والحال ان الامر قد جرى بعكس ذلك. هكذا يلزمنا
 ان اخاطبك شاكياً مع اشعياء نبيك: انه بعكس ذلك «قد ابعدت جميع اقاصي
 الارض» * فابن هي تلك الصواعق التي تحدرها عبثاً. تارة على الابراج التي لا تحس.
 وتارة على الكنائس المقدسة * لقد كان الاجدر بك يا الهى ان تبقها وتحفظها

للخطاة. والأفلاذا نامرنا نحن خدامك الكهنة ان ننذر بقدره ذراعك الرفيعة
وانت لا تستعملها. وتجعلنا ان نضي هكذا خجلين كذابين * فالآن قد عذرت
انبياءك القدماء مثل يونان وارميا على امتناعهم عن مباشرة هذه الوظيفة. لئلا
يصيروا سخرية وهزوا للناس * لقد ظننت اني سألقى اليوم في قلوب الخطاة خوفاً
عظيماً من عزتك الالهية. وها هوذا قد خاب ظني. لاني على ما ارى سيرجعون الى
منازلهم مصرين على خطاياهم. ومتشامخين في طماننتهم اكثر مما كانوا قبل. وانا الذي
« انكلم كل يوم واصرخ للخراب » (ارميا ٢٠: ١٨) يلزمي ان امكث معاًيناً تعبيرهم
وسخريتهم بي * ولكن ما بالي انا الحقيير والجاهل اهذي في كلامي على الله تعالى الذي
هو حكيم ومدبر احسن التدبير في كل احكامه الغامضة * فلنعدل عن هذا الهذيان
ولنعد الى موضوع خطابنا الاول. ونسلم لكم ايها الخطاة كل ما قلموه. وهو ان الله
تعالى لم ينتقم منكم حتى الآن. بل انه اسعدكم وراحكم * اما هذا هو مقالكم. فحسناً
قلم: ولكن ما الذي تستنجونه من ذلك. العلمك تستنجون انه عاد لكم ان تهابوه فيما
سياتي اقل مما سلف * الا اني اجيبكم قائلاً: بئس ما استلزمتم: بل كان ينبغي لكم
ان تنجوا انه يلزمكم ان تخافوه تعالى خوفاً اعظم * وها انا قد استعددت لابين
لكم حقيقة هذه النتيجة ببرهان قريب للتصديق. بل واضح اكيد جداً. وهكذا
ارفع عنكم هذا الضلال الذي استغرقتم فيه. فاصغوا جيداً لما اخاطبكم به * فاقول:
انه ان كان الله كف عن قصاصكم الى الآن. ولم يعاملكم كما استحقتم بخطاياكم. ففعله
هذا انما هو صادر من احد امرين. اي إما لانه صغ لكم عن القصاص. واما
لانه اذخره لكم الى وقت آخره. وغير هذين الامرين لا يباح لنا ان نذكر شيئاً
آخر. لان ايماننا المسيحي يلزمنا ان نعتقد هكذا * فلنفرض اذا ان الله جلت مراحمة
انما صغ لكم عن القصاص * فاذا كان الامر كذلك يلزمكم ان تخافوه من جرى
ذلك خوفاً اعظم. لانه كلما زاد ما صغ لكم وسامحكم فيما مضى. صارت غير معلومة
مسامحتكم ايضاً في الزمان الآتي * الا تعلمون حسناً ان الصبر المديد المظروع فيه

يستحيل سخطاً ورجزاً . فالله تعالى حلیم رؤوف لا محالة . الا انّه عادل ايضاً ومحبّ القسط . ولذلك قال النبي المرسل « صالحٌ ومستقيم هو الربُّ » (مزامير ٢٤ : ١) *
 فاذا ينبغي للعدل ان يفعل الآن ما يخصّه بعد ان فعلت الرافة ما يحقّ لها .
 واي حاكم يعفو دائماً ولا يعاقب ابداً * لعمرى ان العقاب هو المحافظ جميع الشرائع
 والباسك البشر في الخوف والاحترام لمواليهم والصائن البر . وهو اساس الولاية
 والحكم * انه وان كان الصلح عن القصاص مرّات متعدّدة هو من شيم القلب الحكيم
 الا ان الصلح على الدوام هو من خاصّة قلب ضعيف نسائي * فكيف زاد ما ساءحكم
 الله تعالى فيما سلف . يلزمكم ان لا ترجوا ان يسامحكم فيما بعد * واما ان قلنا ان الله
 سبحانه لم يصفح لكم عن القصاص الذي استحقتموه بخطاياكم . وذلك هو الاقرب
 للتصديق . بل ابقاه لكم الى وقت آخر ليقاصصكم به فيما بعد . اي اماً في هذه
 الحياة الدنيا واما في الآخرة . فيجب ان يكون عدم اخذ منكم النار الى الآن
 سبباً فيكم لخرف اعظم لاسبباً للطمانينة وزيادة العجرفة عليه تعالى . لان ذلك دليل
 على انه يريد ان ينتقم من خطاياكم كلها معاً في وقت واحد * وكيف تكون حالكم
 اذا اجتمع عليكم سخطه كله وانتم تعلمون ان قطرات هذا السخط وحدها تفعل
 مفعولات مرعبة لا توصف * انه من المعلوم ان سواقي كثيرة من الماء اذا اجتمعت
 معاً تحدث خراباً عظيماً لم تكن قادرة عليه اذا كانت متفرقة . وكذلك اذا التحمت
 معاً شرارات قليلة من النار فتصير شعلة عظيمة تحدث حريقاً كبيراً لم تكن تقوى
 عليه وهي منقسمة *

وكم من العواصف الشديدة تنشؤ عن الرياح الخفيفة اذا التأمّت معاً *
 فاستنجوا من ذلك كله على سبيل الاستنتاج كم يكون مرهوباً ومخوفاً الرجز
 الالهي اذا اجتمع كله على رؤوسكم بعد علمكم اليقين ان كل جزء منه فقط يرعب
 اقطار المسكونة رعبة لا توصف * ومن هنا لا يسوغ لكم ان تطعموا وتبقوا مصرين على
 عنوكم في الخطايا لعدم امتحانكم الآن في انفسكم قوّة ذراع الله تعالى الرفيعة . وكان

هذا الامر من شأنه ان يزيدكم على الدوام اتضاعاً وخوفاً وارتجافاً * والافاعلوا
انكم باستمراركم على ارتكاب الخطايا لا تفعلون شيئاً سوى انكم تزيدون يوماً فيوماً
امواجاً جديدة على بحر رجز الله العظيم الذي تكلم عنه يشوع بن سيراخ قائلاً:
«كثلاً غمر الطوفان الارض. كذلك يملك غضبه الامم الذين لم يطلبوه» (سيراخ
٢٨: ٢٩) * ولكن متى ياتي الزمان الذي يسكب الله فيه باندياق هائل بحر رجزه هذا
على الخطاة * فان احببتم ان اورد على سماعكم متى يكون ذلك. فتمهلوا علي قليلاً.
لان الاجدر بنا ان نستريح مدة وجيزة من الزمن لئلا تضجروا من اسهاب الكلام.
لان رغبتني على الدوام في ان اخنصر خطبتي حذراً من ان احدث للسامعين
مللاً وكرهاً. ثم اوضح لكم متى يكون الزمان الذي فيه يفيض الله بحر رجزه على
الخطاة * غير اني ارغب الى محبتكم ان تمكثوا جميعاً لتستمعوا هذا القسم الثاني من
الوعظ الذي عسى ان يحملوكم استماعه *

القسم الثاني

ليس احد يعرف بالضبط متى يكون الزمان الذي حتمه الله تعالى ليتزل
بالخطايا الانتقام * وانتقامه هذا كما تأخر حلوله. اضحى ارهب واهول. لكون هذا
متعلقاً في تدبير احكامه تعالى الغامضة التي ابقاها الله الاب لنفسه فقط. اقول
«ليس لكم ان تعرفوا الاوقات والازمان التي تركها الاب تحت سلطانه» (قصص
١: ٢) * الا انه مع ذلك لما كان الماضي يفيدنا معرفة المستقبل حسب قول
القديس هيرونيمس المشهور «انه من السوايق تُعرف العواقب» يسوع لنا من وجه
ان نعرف تلك الساعة المأجلة. التي وان كنا لا ندركها بمعرفة محققة فلا بد من
ان نشعر بها بمعرفة قريبة للتصديق * ولكي تفهموا ما هي هذه الساعة. فاحسنوا
الاصغاء الى ما اقوله * ان كلاً منكم على ما يلوح لي يعرف باي نوع عجب افتتح
جنود يشوع بن نون مدينة ايريجا وهنوها. وذلك ان قائدهم هذا الجليل القدر

كان قد امرهم بان يحموا تابوت العهد ويجولوا حول اسوارها سبعة ايام . ويتقدمهم
 جنود مسلحة . ويكون مسير العامة الخارجة عن القتال عقيب الجميع . وان تهتف
 الكهنة في غضون ذلك بالابواق ويفعلوا الجؤ من الضجيج . وهكذا فعلوا * ولما انقضى
 اليوم السابع . سقطت الاسوار مع صوت الابواق . وملكوا المدينة * فامهلوني كي
 افحص وافكر متأملاً بحسب مرادي في هذا الحادث . مع انه عند الجميع معروف *
 انه لا شك في ان سكان ايرحما لما ابصروا من على الاسوار جيش يشوع بن نون
 مصطحفاً ومقبلاً اليهم وسمعوا هتاف الابواق . اخذتهم رعدة ليست بقليلة . واحنسبوا
 ان الجيش سينقسم الى كتائب ويسرع في القتال والسعي في هدم الاسوار والاقحام
 على مدينتهم . وخشوا من ذلك جداً . واسرعوا فتقلدوا بالاسلحة ليدفعوا عن
 نفوسهم الخطر المواقف عليهم * غير انهم لما ابصروا بعد قليل ان تلك الضجة العظيمة
 لم يعقبها ثمة . هداً لا محالة روعهم قليلاً . ثم لما شاهدوا في الغد قد جرى لهم كمثل
 ما جرى في اليوم الماضي . فعلى ظني احتمال خوفهم الى تعجب . وتفكروا ما هو القصد
 في هذه الجلبة الخالية من فائدة * وفي اليوم الثالث يمكن ان تعجبهم احدث فيهم
 استهزاء قليلاً في الجيش الاسرائيلي . وذلك لمشاهدتهم اياه المرة الثالثة يقصر عملة
 وهجومه على صراخ وضحج باطل * ولكن في اليوم الرابع والخامس والسادس لما
 كان سكان تلك المدينة مطايين بنفوسهم وسكن هلعهم لمشاهدتهم جيش العدو
 لم يفعل في ستة ايام شيئاً سوى التطواف حول المدينة بجلبة وهتاف باطل .
 فافتكروا معي باي استهزاء كانوا يضحكون منهم ويضفرون عليهم من على الاسوار
 قائلين (وذلك ما يدل عليه صواب العقل) : نجح نجح ما احسن وما الذ
 اصوات ابواقكم هذه يا ايها العبرانيون الناقصوا الراي : نعم ان هذه صناعة حديثة
 ابتدعتموها لافتتوح المدن والحصون . اعني ضجة الصراخ والهتاف بالابواق لا الضرب
 والطعن وفتح الاسراب * بوقوا اذا فرحين مهللين بابواقكم الشجية ما بدا لكم . وها
 نحن نرقص على اصواتها * العلمك قاصدون ان تظفروا بنا بالصياح اذ رايتم انفسكم

عاجزين عن ان تفتكوا بنا بالقوة * فما نحن كتلك العصافير الجاهلة التي تلتني
نفسها من العلاء ساقطة على الارض مرقية برقي نغمة الصوت ولذته * فان كنتم ذوي
قلوب شجيرة . فاطرحوا من ايديكم الابواق . واتخذوا بدلاً منها السيوف . وحينئذ
نصدق انكم ابطال اقوياء * فعلى ما ارى انهم هكذا كانوا من على الاسوار
يهزأون ويسخرون بالجيش الاسرائيلي في جميع تلك الايام حتى اتي اليوم السابع .
ولا ريب انهم في ذلك اليوم ازدادوا اماناً واشتد هزؤهم وكثر ضحكهم من العسكر
وذلك لكثرة الدلائل التي حققت لديهم الامان والطمانينة تحقيقا نزع من قلوبهم
الخوف والفرح تماما * غير انهم بينما كانوا وقوفاً يتفرجون بامان وسكون على احتمال
الجيش . اذ عاينوا اسوار مدينتهم هابطة بهم بغتة في تلك الساعة من اليوم السابع
التي بها كانوا حاصلين بنفوسهم على اوفر الامان واعظمه . كقول الكتاب المقدس
« فلما كان في اليوم السابع . جلب الشعب وضربوا بالابواق . فسقطت الاسوار في
مكانها » (يشوع ٦ : ١٥ و ٢٠) * فتصوِّروا الآن في عقولكم كم كانت تلك الشدة مرعبة
وهائلة على سكان ايريجا من حيث انها نزلت بهم بغتة في وقت لم يكونوا يحنسبون
لها . لان اولئك الاشقياء المنكودي الحظ كانوا مطمئنين في انفسهم ومتبسمين شفاهم
بالضحك . واذ شاهدوا لوقتهم الاسوار تسقط . والحصون تهدم . والفراع تسلم . وهم
يندفنون تحت الردم . وكان منهم من يشعر بالحجارة تخدشه وتهشمة . ومنهم من
تخلع اعضاؤه . واخر ترصصها . واخر تكسر عظامه واخر تطحنه وتسحقه . فليت شعري
من يستطيع ان يصف تفاقم بكائهم وعويلهم الذي اصم الهوا . وارعب النجوم *
وفي غضون ذلك تهباً الاسرائيليون . ووثب كل منهم بنشاط عظيم من حيث
كان واقفاً . وشرعوا يمشون فوق جثث القتلى المدفونين تحت الردم . واهتزوا
الرماح واستلموا السيوف . وافترقوا في جميع الازقة والشوارع . ودخلوا البيوت .
وهراقوا في كل مكان دماء اولئك الذين كانوا قد بقوا احياء . وتمهلوا الخراب
والدمار فيهم وفي مدينتهم *

فلنشر الآن راجعين الى مقصودنا . فنقول : انكم قد التستم مني يا ايها
السامعون معرفة الوقت الذي فيه ياتي الدمار على الخطاة . فاقول لكم انه هكذا
ياتي عليهم . اي في الساعة التي اتي فيها على سكان مدينة ايريجيا . والمراد بها الوقت
الذي لا يفكرون فيه * وقد اشار اليه اشعيا النبي ايضا قائلاً « ينهدمون سريعاً
بغنة » (اش ٢٠ : ١٣) * لأنه من عين الصواب وقواعد العدل ان يدرك الائمة حكم
العقاب في الحين الذي فيه هم ناسون الله تعالى وغير ملتفتين اليه اصلاً . وهو
الزمن الذي فيه يكونون رافدين في آثامهم . مسترجمين غير مصدقين بتهديداته
الشديدة . بل مزربين بقدرته الالهية * وما هوذا نرى الكهنة حاملين بشجاعة مقدسة
بوق كلمة الله مجدين على حصار قلعة القلب البشري المتمردة . يهتفون به ويتهددون
ويخبرون على لسانه تعالى حول كل مكان بالخراب المقبل . وذلك امثالاً للامر
الذي يامر به جل ذكره كل واعظ بقوله « لا تبرح . ارفع صوتك مثل البوق .
وأخبر شعبي باثامهم وبيت يعقوب بخطاياهم » (اشعيا ٥٨ : ١) * ونرى ايضا الخطاة
يبتدئون عند استماعهم هذه العظات بان يشعروا بخوف عظيم . ولوقتهم يسرعون
الى ضبط السلاح بالصلوة . وتهيأون الى المحاماة عن انفسهم بالاسرار المقدسة
متوقفين ان الخراب اضحى قريباً ان ينزل باجسادهم . ومع ذلك لا ياتي الخراب
في هذه المرة الاولى من الوعظ . ثم يسمعون مرة ثانية الواعظين يجلبون ويصرخون كما
مضى . وحينئذ يبدلون الخوف بالتعجب والتخبر . ويشرعون قائلين فيما بينهم : ما هو
قصد هؤلاء الواعظين مجلبتهم هذه الباطلة * ثم يسمعون ايضا الواعظ المرة الثالثة .
وحينئذ يبدلون التخبر بالضحك . ثم يبدلون الضحك بالاحتقار . ثم الاحتقار بالتعجب ثم
التعجب بالاستهزاء . واخيراً يقسون في انفسهم قسوة بليغة حتى انهم يبلغون الى ان بصيروا
كلام الله تعالى الذي سمعوه في الكنائس مزاً وسخرية في بيوتهم ومسامراتهم . وذلك كما
ابا عنهم حزقيال النبي قائلاً « يسمعون كلام الرب ولا يعملون به . لانهم يقبلون نشيد
اقوامهم » (حزقيال ٢٣ : ٢١) * ويقول احدكم للاخر استهزأ بالواعظين الغيورين : اسمعتم كم عرف

حسناً هذا النفس ان يزمر ببوقه. ترى ما هو قصد هؤلاء الكهنة. العالم يرومون ان
 يخيفونا بضجتهم وصياحهم * ثم يقول لهم: ان شئتم انتم تصدقوهم. واما انا فاني اوضح
 لكم راي. فان لي زماناً اسمعهم يتهددوننا بهذه التهديدات عينها. ويضربون بالبوق
 بنغمة واحدة غير مختلفة. واخيراً شاهدت ان ما يتهددون لنا به انما ينتهي الى
 صياح خالٍ وضحج فارغ * اين هي الشدائد الكثيرة التي خبرونا بانها مقبلة الينا
 «اين كلمة الرب فلنات» (ارميا ١٧: ١٥) * اين هي الامراض التي اندروا بها. اين
 المحل والغلاء اللذان اخبروا بانها * وانا ارى اننا نحن اوفر سمناً واكثر عافية
 من الذين يصدقون كلامهم خائفين * اهذا هو كلامكم يا ايها الاشقياء. تحذثوا
 واهزأوا كما تسول لكم انفسكم. ما قد بلغ وقتكم وقت الانتقام والخراب. الوقت الذي
 فيه اتصل عدم تصديقكم الى اقصى حدوده. وفيه ترون ما معنى ذلك الصراخ
 وما هو الذي كانت تنذره تلك الابواق بافواه كهنة الرب. وهو انه يدرككم
 السخط الالهي والضحك في شفاهكم. وعند ما تستشعرون بالخراب الذي لا يرد.
 يوافيكم كله في وقت واحد. وحينئذ تضطرون ان تهتوا نائحين وقائلين: الويل
 لنا الويل لنا لقد هلكنا. هوذا الدم هوذا المقتلة. هوذا الحريق. هوذا الخراب.
 هوذا الفناء. هوذا الدواهي التي سمعنا الانذار بها * وفي هك الاصوات تخفون حيانكم
 مخبرين مبهوتين. وتموتون هالكين بحسب استحقاقكم اذ تكونون مستبشرين باطول
 الحيرة واسعدها * فان كنتم لا تصدقوني. فهلم بنا سريعاً عاجلاً. وخذوا بايديكم
 الكتاب المقدس. وانظروا في اي زمن عاين باطشاصر ملك الكلدانيين اليد
 المرعبة ظاهرة على الحائط. تلك اليد التي انذرته بالموت. فتروا انها ظهرت له
 لما كان مطمئناً في نفسه وجالسا على مائدة فاخرة مع السراي ياكل ويشرب.
 متنعماً فرحاً بتلك الآنية التي سلبها من هيكل اورشليم (دانيال ٥) * ومثله اذا
 اعبرتم الوقت الذي فيه سمع بخصر ملك بابل الكبرى من الغلاء الصوت
 المرعد يقضي عليه بالسكنى في البراري مع الوحوش. ترون انه انما سمع ذلك

حينما كان منتزحاً عنه الخوف ومختطراً في وسط جم غفير من الملائقين وهم يحدونه
بفخمة وبلاغة تفوق الحد على العزة العظيمة الفائز هو بها في الآثام والخطايا *
وهكذا اذا محظم امر انطيوخوس ملك سورية واعنبرتم في اي زمان ضرب من
السماء بذلك المرض القبيح الشاق الذي بلغ به الى قطع الرجاء. تشاهدون انه قد
حل به ذلك في الزمن الذي كان فيه مرتاحاً في نفسه وصعد بعجرفة بليغة ليجلس
على مركبه متهدداً لاورشليم ايضاً بالخراب الذي احده في غيرها من المدن بلا
مانع * وهكذا نرى سنخاريب ملك الاثوريين قد وافته من الملاك تلك المقتلة
الغريبة التي افنت عسكره واعدمته اذ كان يعد نفسه بالامان. وهزاً متكبراً بالقدرة
الالهية كأنها عاجزة عن انقاذ اسرائيل من يديه المعتادتين حتى ذلك الوقت على القتل
والظفر * ونظيرهم ايزبال ملكة اسرائيل لم تشعر بانها قد صح فيها ذلك الوعيد النبوي
الخوف بان تموت فريسة للكلاب الا حينما ازلت ايضاً الخوف من قلبها او سكنته.
وكانت مشرفة بعظمة مبهجة من شباك قصرها مترجية ان تستمر في ملك الظلم
بالزيجة مع الملك الجديد * وهكذا طوفوا بعقولكم واعنبروا حال جميع الاثمة الذين
اندفق عليهم رجز الله تعالى كانه معاً. فتعاينوا متحققين انه انما قد انسكب عليهم في
الحين الذي لم يكونوا فيه يحنسون له او في الحين الذي كانوا يهزأون به بعنوة وعجرفة *
ومن يعلم ان كانت لا تدركنا نحن ايضاً العقوبة مثلهم اذا شاركناهم في خطاياهم *
فمن ذلك يجيبنا الرسول الالهي مؤكداً لنا. انه يمكن ان ياتي علينا ذلك ايضاً
حيث قال «انهم بينا يقولون: هدؤ وسكون. فهناك يهيج عليهم البوار بغتة»
(١ تسلونيني ٥ : ٢) *

فليكن اذا مقررًا عندنا تقريراً يقيناً ان الهنا ليس هو الهاً مائتاً عديم
الحس كما كانت آلهة الامم. ولذا كم السبب ينبغي لنا ان نخشى قدرته العظيمة.
لكونه يستطيع بمقرعة من جبل فقط. اي بسلاح حقير لا اعتبار له ان ينتقم من
خطايانا انتقاماً عظيماً مرعباً كيفما شاء واحب * وان كان لم ينتقم منا حتى الآن.

فلا ينبغي لنا نتخذ من ذلك حجة في تقليل الخوف منه. بل بعكس ذلك سببنا ان نزداد خوفاً وارتهاًباً. مفتكرين ان عدم انتقامه منا الى الآن إما هو صادر من ساحة لنا بالنصاص. وإما أنه حفظه لنا الى وقت آخر يأتي فيما بعد * وعلى كلتا الحالتين يسوغ لنا ان نخاف جداً * لأنه ان كان قد ساحتنا بالنصاص. فمن المعلوم ان السماح الكثير يستحيل اخيراً الى تشدد. وان كان قد حفظه لنا الى وقت آخر. فمن المعلوم ان الامهال المديد يعقبه انتقام اعظم وارهب * ولذا اقول ايضاً قولاً يقيناً. انه ان كان يلزمنا ان نوجد في وقت من الاوقات خائفين اعظم الخوف. فليس هو الا هذا الوقت اعني الوقت الذي نكون فيه متمتعين باعظم راحة واوفر سعادة. ونكون من جرأ ذلك غير متوقعين قصاص الله تعالى او محقرين اياه *

الخطبة السابعة

في انه يجب ان نوح ونبكي على تهاون الكثيرين بالسعي فيما يخص خلاصهم الابدي
 « اذا خرج الروح النجس من الانسان. يطوف امكنة ليس فيها ماء. يطلب راحة. فلا يجد » * هكذا كتب مار متى الانجيلي في
 الاصحاح ١٢ : ٤٣ من بشارته *

القسم الاول

انه في القديم وجد زمان كان البشر فيه مجسبون انهم قد فعلوا فعلاً ذا قوّة وبسالة عظيمة اذا بلغوا الى ان يصدوا عنهم اذى الحيوانات الضارية الكائنة

في الغابات او الكامنة ما بين الارض حين بروزها الى مضرتهم * فلم تكن حكمتهم
 وخذائهم تمتد الى اكثر من هذا الحد. وهو ان يصونوا نفوسهم فقط من ان
 تخنقهم مثلاً الضباع. او تقترسهم الخنازير البرية. او تلدغهم الحيات والعقارب *
 ولا ريب في أننا نحن اليوم نتضحك على نقص حكمتهم هذه ودنائة شجاعتهم من
 اجل ان حذافة عتولنا وشجاعة قلوبنا بلغتنا الى اكثر من ذلك جداً * اذ أننا
 في هذه الازمنة لا نرغب فقط ان لا تؤذينا الحيوانات المقدم ذكرها وما اشبهها.
 بل نتصد ان نحوز منها نفعاً وفائدة ايضاً. وتعلمنا من دون خوف ان نكتسي
 بجلودها. ونختدي بلحومها. وننتفع من عظامها. بل نشفي ايضاً بسومها اذ نجعلها
 باعرب الصنائة الى درياق شاف. حتى اذا تدققنا في التأمل نرى ان الناس الذين
 تصون حياتهم الوحوش والحيوانات في هذا الزمن هم اكثر جداً من الذين
 تقترسهم * وهكذا يجب ان نفعل مع الشيطان الذي هو اخبث وحوش العالم لا
 محالة. اي لا يحسن بنا ان نكتفي بالتوقي منه فقط او بالمقاومة له. او بمدافعتيه عنا
 او بهزيمه فقط. بل ينبغي لنا ان نحوز منه نفعاً ما * ولكن لعلكم تقولون لي: واي
 نفع نستطيع ان نحوز من هذا المحال * فاجيبكم: انه يمكننا ان نستمد منه نفعاً عظيماً
 جداً وهو هذا. اي ان نتعلم منه ان نعتبر قيمة النفس. لان هذا اللعين اخراه الله
 يحب ان يمتلك انفسنا فوق كل شيء. حتى انه اذا ما رآها نجت من يده. لا يهدأ
 ولا يستريح. لكن يجد كل الجهد في ان يعود ويملكها * وحقيقة كلامي هذا تعضده
 شهادة السيد المسيح حيث قال « اذا خرج الروح النجس من الانسان، يطوف
 امكنة ليس فيها ماء. يطلب راحة. فلا يجد » * ولكننا نحن لا نضطرب من امتلاك
 الشيطان نفوسنا مرة ثانية. ولا نحزن من ذلك. بل نتركه يمتلكها غير خائفين
 ارضدوه قليلاً. فتروا كم يسعى وكم يتعب في ان يجعلنا له ومن خاصته. فانه اخراه
 الله يطوف ويجول حولنا بالمكر والخديعة نظير ما فعل مع حواء. ويشب علينا
 بالشدائد كمثل ايوب. ويسحرنا بحبة الفضة شبه يهوذا. ويجربنا كتجريبه السيد المسيح

بتأنيات خادعة. وبسير معنا على الدوام. وبطوارع شهواتنا. ويندم لنا هدايا فاخرة
 ثمينة * ونحن نفعل بعكس ذلك. أي أننا لا نريد أن نهتم ونحرص على نفوسنا أن
 يخطبها هذا المحال منا * فيا معشر المسيحيين أحبائي الأعزاء. كيف يمكن أن يعتبرينا
 هذا المقدار من الضلال والطغيان. حتى لا نعتبر أنفسنا أصلاً * ولنتكلم الآن
 واضحاً من غير محاباة: كيف أننا نتهاون بنفوسنا إلى حد أننا لا نهتم بشيء مما يخصها.
 حتى ولا نحترز ولو على صيانتها من أن تهلك في جهنم * لعمري إن هذا التهاون
 لغريب جداً. وهذا هو الموضوع الذي قصدت اليوم أن أندبه وأنوح عليه. أعني
 تتهاون المسيحيين بنفوسهم * غير أنني أسألكم أن تعذروني أن كنتم تصوموني في هذا
 اليوم معنيًا باحتداد مقدس جماعة المسيحيين التهاونيين والمتكاسلين في السعي
 بخلاص نفوسهم. لأنه إن احسنتم الأصغار إلى كلامي. فإنكم ستحكون أيضاً معي
 بأن تتهاونكم هذا العظيم مستغرب ينبغي لنا أن نبكي عليه نائحين متهمرين *
 أنه على التحقيق لا يوجد من يرتاب بوجود هذا التهاون ما بين المسيحيين.
 أعني التهاون بخلاص نفوسهم وقلة اهتمامهم به * ولا ريب في ذلك. فإن تتهاونهم هذا الدميم
 يتضح لنا جلياً من قلة تفكيرهم على الوسائط التي تقنأدهم إلى الخلاص. لأنه إذا
 نظرنا إلى الأمور الدنيوية. نرى أن العلامة التي تحقق لنا أن الشيء الذي يطلبه
 أحد الأشخاص مهمه ويعنيه جداً. هو أن خطابه وسؤاله عن ذلك الشيء في كل
 حين. وطلبه أن يجد من يهديه إلى الحصول عليه * وهذا نعاينه في يعقوب أبي
 الأسباط. لأنه لما ذهب إلى أرض غريبة قاصداً لابان. إذ كان يعنيه جداً أن
 يراه. طفق يسأل عنه باجتهاد وتدقيق أولئك الرعاة الذين صادفهم في الطريق
 ظاناً أنهم يعرفونه ويستطيعون أن يهدهوا إليه (تكوين ٢٩: ٥) * وهكذا يوسف الحسن
 كان قد خرج إلى القفر يفتش على أخوته إذ أرسله أبوه * ومن حيث أنه كان مهمه
 وجدانهم. فلجل هذا سأل برغبة حارة ذلك الرجل الذي رآه وهو قائم في الحقل
 ليعلمه ابن هم (تكوين ٢٧: ١٦) * ومثله شاول خرج من منزل أبيه ولم يكن طالباً

وقتئذٍ سوى حمير ابية الضالة. ومع ذلك فمن اجل ان وجودها كان يعنيه كثيراً. لم يالُ جهداً ولا تعباً ولا مشقةً في طلبها * فهو لم يكتفِ بأن يصعد على الجبال ويجوز الأودية. ويطوف من غير هدوٍ قري كثيرة. بل أتصل الى أنه ذهب بعد عجزه عن وجودها. وسأل عنها نبياً من الأنبياء عساه ان يتنبأ له ويعرفه اين هي * ولم يسأل عن نيل غرضه احد الأنبياء الصغار. بل تجاسر فسأل النبي الأعظم والأفضل صيتاً عند آل اسرائيل اعني سموئيل (١ سموئيل ٩) * فما قولكم انتم الآن ايها السامعون المكرمون: باي شيء ننعوني بانكم مجتهدون ومهتمون في خلاص نفوسكم. والحال انكم لا تطلبون ابداً شوراً ما صالحاً في هذا الامر الباهظ العظيم من احد الانبياء الروحانيين. ولا تستمدون تدبيراً واحداً من احد المعلمين. ولا تتفاوضون ابداً مع من يستطيع ان يرشدكم ارشاداً حميداً يفيدكم خلاص النفس الابدية * حكى القديس لوقا البشير ان اولئك اليهود الذين اخذتهم الرهبة من وعظ يوحنا المعمدان. حرّضتهم الغيرة والاهتمام قليلاً على خلاص نفوسهم. فكانوا يذهبون اليه سائرين في القفر الى حيث يسكن ليسالوه «ماذا نصنع» (١٠: ٢) * فقد كان يفتقد اناس من العامة ويسالوه «ماذا نصنع». ويزوره عشّارون ويسالونه «ماذا نصنع يا معلم» * حتى كان يمضي اليه جنود ممن كانت وظيفتهم حمل الاسلحة والطعن والضرب. ويسالونه هم ايضاً «ماذا نصنع نحن» * وانتم يا معشر السامعين الاحبياء انطقوا بالحق قائلين: هل اتفق لكم ان طلبتم الى الآن من كل قلوبكم من احد العلماء الروحانيين قائلين له «ماذا نعمل من الصلاح لنرت الحياة الابدية» (متى ١٩: ١٦) * انني لا انكر عليكم انكم احياناً تدخلون بعضاً من اديرة الرهبان. ولكن انا اعلم انكم انما تقصدون التنزه في بسايتهم المخلصة. او ان تتحدثوا مع احد منهم في حروب التتر او في انتصار الفرس او في اخبار الهند او في غيرها من الحكايات والخرافات التي لا يعباؤها * ولكن الطريق الانسب لكم للخلاص الابدية لا اعلم قط انكم كنتم احد الرهبان ليرشدكم به * الا انني لا اعجب من قلة مذكركم هذه مع العلماء

الروحيين في ما يخص امر خلاصكم . وذلك لانكم غير معتادين ان تهجسوا فيه احيانا حتى ولا تتحدثون فيه فيما بينكم ايضا * لان الذي يهته غرض من الاغراض جدا ولو اراد ان يموة افكاره عنه . فلا يستطيع ذلك . ويظهر كأنه مثل الابل المضروب بنبل . فايها ذهب . يحمل معه عذاب السهم الغائص في لحيه . فيهد فيه نهارا وليلا . بل يحنم فيه وهو نائم ايضا في احلام النوم * فكذا خبرنا تليوس كيكرون عن ثيمستكليس الفرع الدهر في قواد جيش اليونانيين . انه في منامه كان يغار من ملكيادس في فتكه بالاعداء * ومثل ذلك خبرنا بلوطرخس عن مرقلوس قائد جيوش الروم الاعظم . انه عند غرقه في سبات النوم كان يحرك حنبل عدو رومية الكبير الى المعركة * ومثلها غيرهم كثير من الذين يتاكلهم هوى قوي نحو غرض تهتم مئابرة كثيرا قد كانوا ايضا يهجسون فيه وهم متمتعون باحلي الرقاد * وهكذا يخبرنا الكتاب المقدس عن سليمان الحكيم انه لما سأل الله تعالى وهو نائم ان يمتني منه نعمة قائلا له « اسال ما احببت ان اعطيك » (١ ملوك ٢ : ٥) . لم يطلب شيئا سوى الحكمة . لان هذه هي التي كان يتوق اليها ويطلبها دائما . حسبما اخبر هو عن نفسه ايضا قائلا « فلماذا دعوت فجاءني روح الحكمة (حكمة ٧ : ٧) * فكيف يمكن لكل منكم ان يحب ويرغب ان يحقق امر خلاصه الابد والجمال انه تنقضي ايام صحبة وليال كثيرة من غير ان يخطر على بالكم فكر واحد في ذلك . بل بعكس ذلك تهجسون دائما حتى في المنام في الاباطيل . كقول ميخا النبي « تفكرون في ما ليس فيه منفعة في مضاجعكم » (١ : ٢) . اي في الغناء واللعب والرقص والولائم والتغزل الذميم والجالسات الباطلة وما ضاهاها . واذا انتبهتم من الرقاد . لا تشعرون ولو مرة واحدة بجرعة روحية تذكركم ما في السماء *

قلت ان عدم التفكير في امر النفس هو دليل على قلة اهتمامكم بها . ولكن الاجدر بي ان اقول قولاً آخر احق من ذلك . وهو انه اذا افكرتم احيانا في ما يخص انفسكم ولم تبالوا بها . كان ذلك دليلاً اثبت على قلة اهتمامكم بها * العلي

لا ارى ان خدمة النفس لا تؤدونها الا بعد قضاء سائر اشغالكم كلها. وكانها لديكم
الامر الاردا قيمة والاحقر اعتبارا والاقبل نفعاً * نعم انني ارى فيكم هذا التهاون
الذميم والتغافل الفظيع عن خلاص النفس. ومن ثم كنت ارجب ان يكون لي
مجاري دموع لابي نائحا على تهاونكم هذا كما انه لي عيون تبصره واترمر من قبله *
ترى كم يعلم بعضكم علما حسنا ويفهم جيدا ان ضميره موسى بالخطايا. ولجل ذلك
اذا خطرت في فكره المخاطر العظيمة المهلكة المقبلة اليه لعله خطايا. يشعر في
باطنه بالهام شديد يخاطبه قائلاً له: امض ايها المسكين الى ذاك الكاهن واعترف
لديه بخطاياك « اذهب فار نفسك للكاهن » (لوقا ٥: ١٤) * ولكن ماذا يجب
ذلك الى هذا الالهام: انه يجاوب قائلاً في نفسه: لا ريب في انه يلزمي الاعتراف
وانا عازم عليه. ولكن لا افعل ذلك اليوم. لاني في هذا اليوم مدعو الى الموضع
الفلاني. ورفقائي ينتظروني. فسا اعترف غداً * ومثله يحدث لغيره الهام من السماء ان
يسمع اليوم القداس الالهي. فيقول: نعم انه من الواجب ان اسمعه وسمعه. ولكن
بعد عودتي من مواجعتي ذاك الوكيل في خصوص الدعوى المشتبك انا بها * وآخر
يلهمه الله سبحانه ان يذهب الى الكنيسة لستمع الوعظ. فيقول: نعم ان استماع الوعظ
فيه نفع عظيم للنفس لا محالة. وانا راغب ان اسمعه اليوم. ولكن لي ان اقضي
قبلاً غرضي ذاك واستريح من همي. لئلا تشغلي افكاري فيه حين استماعي الوعظ.
وعلى هذا النسق ارى عمل النفس لا يتم الا في فضلة الزمن وعتيب الاشغال
الدينيوية كافة * فهل تظنون ان هذا هو كل ما يجب للنفس من الاعتناء * اخبرنا
الكتاب الالهي ان اليعازر كبير دولة ابراهيم خرج من ارض كنعان وتوجه سائراً
الى ما بين النهرين بامر سيده اياتي بعروسة لاسحق. وبعد سفر متعب وصل الى
ناحور المدينة. ونزل في بيت بتوئيل * فعرفته اهل المنزل وترحبوا به. واجتمعوا
حواله ليكرموه اكراماً واجباً * فتراكضت الخدما الى خدمته. واسرع واحد منهم
وخلع منه الاحذية. والآخر قدم له الماء ليغسل رجليه. ومنهم من انزل الاحمال

عن الجمال وهياً لها العلف. وآخر أعد الفرس ودعاة ان يجلس عليها. وآخر ابصره
 مهزولاً لاغباً اعجب من تعب السفر فاسرع «ووضع قدامة لياكل» (تكوين ٢٤: ٢٤)
 ليتقوى به الى ان تحضر مائة العشاء. ولكن ما الذي تظنون قد فعلت هذا الخادم
 بعد هذا الاجلال العظيم الذي اكرمه به «لهربي انه قال لم لا تجلوا يا ساداتي.
 ولا تهتموا بي كثيراً. فاني اقسم لكم اني لا اذوق من عندكم تراً واحداً من الخبز
 ان لم اعرض عليكم اولاً سبب اتباني اليكم «لا آكل حتى انكم كلامي» «وحبست
 وهو منتصب على قدميه قبل ان يتزع عنه ثياب السفر والاحذية من رجليه. شرع
 يخاطبهم خطاباً مسهباً مستطيلاً. وبه اوضح سبب قدومه اليهم بالانصیل التام.
 واظهر لهم منى ابراهيم مولاة. وشائل سارة امراته المحمودة. وحسن خصال اسحق
 واوصافه. وثروة بنيهم الوافق. وذكر المفاوضة المدينة التي جرت اتفاقاً عند البئر
 بينه وبين رفقة المحشمة والماء الذي استنته واسقت جماله. والهدايا التي اهداها لها.
 وعلى الاجمال اقول: لقد اراد في مواجهته تلك الاولى مع اهل المنزل ان يدبر
 الزيجة لاسحق ويعتد املاتها قبل كل شيء. وما امكن ان يكف عن الخطاب حتى
 سمع يقال له «هاك رفقة بين يديك. خذها واذهب. ولتكن زوجة لابن سيدك»
 (تكوين ٢٤: ٥١) * فيا ايها العبد الجليل الامين من اي شيء تخاف. العلك تخاف
 من ان يفوتك الوقت او تفقد الفرصة الموافقة لنيل اريك. ام هل خطر في بالك
 ان والدي رفقة كانا مهتمين ان يخاطباها لواحد آخر غير ابن سيدك وتخشي من
 ان تفلت من يدك * انا عالم انك لست خائفاً من هذا. فتمهل واسترح واغند
 قليلاً. واقبل الكرامة المقدمة لك. ثم بعد ذلك تحدث عما في قلبك. لانك اذا
 استرحت من التعب واغنديت. تستطيع ان تباشر عمالك براحة اعظم. ويسهل
 عليك ان تفوز بمرامك * لكن مع ذلك لم يجب العبد الامين ان يصطبر. لان
 الرغبة الحارة المستكنة فيه لينضي الغرض المهم المبعوث بسببه من لدن مولاة لم
 تدعه ان يهدأ ويسرّج. لكون الامر الاعظم اعتباراً والافرهما ينبغي ان يقدم على

جميع المهمات والاشغال * فلم يستطع هذا الرسول ان يستريح ويتناول قوتنا قبل ان يقضي اربعة وقال « لا آكل حتى اتكلم كلامي » * ان المعلم ليرانوس الجميل في هذا الشأن قال: ان العازر قد اظهر بعدم اكله ان الغرض الآتي هو به مهمة كثيراً * وان كان ذلك كذلك. فاحكموا انتم ايها السامعون: هل يسوغ لنا ان ندعو اهتماماً هذا الاهتمام الذي لكم بانفسكم وانتم تقدمون على انفسكم قوت جسدكم الضروري بل تفضلون عليها ايضاً التنزهات الباطلة واللهو الفارغ وجميع الاشغال الدنيوية الدنية التي لا طائل تحتها * من منكم يقول في نفسه: انا اليوم سقطت في خطاء. ولذلك « لا آكل » حتى انزع من قلبي هذا السم الذعاق المهلك بواسطة الاعتراف الشافي * انا غدرت ذاك المسكين بأجرته. ولهذا « لا آكل » حتى افيه اجرته بالتام وافرّج عنه ضيقته * انا خففتُ شان خصي ذاك. ومن ثم « لا آكل » حتى اردّ اليه ما اتلفتة من صيته بتكذيب كلامي الذي قذفته به * انا تعدّيتُ على حقوق الكنيسة. ولم افعل ما يجب علي من الاحترام لرئيسي. بل قاومتُه متجبراً. ولذلك « لا آكل » حتى امضي اليه واتضع امامه واعترف له بزلي. واعدهُ باصلاح سيرتي واستمدّ بركته * قلتُ: من منكم يا ايها الاحبياء المكرّمون يسالك على هذا المنوال الحميد الخلاصي. ولا يؤخر بعكس ذلك قضاء ما يخص نفسه الى المحلّ الاخير اي بعد ان يفرغ من قضاء اشغال الدنيا وهوى جسده *

ولكن بكل ما قلته حتى الآن لعلي قد اظهرتُ جهلي وقلة خبرتي في الدنيويات * افما هو حق ان كثيرين من المسيحيين ياخرون الاهتمام بامر الآخرة الى زمن الشيخوخة ايضاً قائلين في قلوبهم انهم حينئذ يباشرون التفكير والاعتناء بذلك. اي حينما يكونون مضموكين من العجز. وقد اتصلت روح كل منهم الى شفتيه. واقتربوا الى النسمة الاخيرة من حياتهم * فلا ريب في ان اهتمامهم بخلاص النفس لقليل. بل الاصح ان اقول انهم خالون بتة من الاعتناء بخلاصها * والحال انهم لا يسلكون هكذا في بقية امورهم. بل اذا رام احد منهم ان يعقد خطبة لائقة بابنته.

فيفعل ذلك اسرع ما يكون. او اذا اراد ان يسعى لاولاده في نوال الرزيفة السامية
 المغنية. فلا يتقاعد اصلاً عن المباشرة بها. ومكذا اذا قصد ان يوسع املاكه. فلا
 يتوانى عن ذلك اصلاً. او اذا عزم ان يثبت دعاوية في الشرع. فالوقت يهتم بها.
 او ان احب ان يقيم له وريثة. فلا يتأخر عن الكتابة * ما لكم وهذه السرعة العجيبة
 في هذه الامور. أما تستطيعون ايضاً ان تبقوا هذه الهوم الى ساعة المات * انكم لا
 محالة لمستطيعون ان تبقوها. لكن لستم تريدون. وذلك لانكم تقولون ان قضاء مثل
 هذه الاشياء يحتاج عقلاً صاحباً وزماناً طويلاً واجتهاداً جزيلاً وعملاً بتأن * ولكن
 في امر خلاص النفس نعلم ان كثيرين كفاهم لذلك ساعة واحدة من الزمان *
 آها منكم يا ايها المسيحيون: كيف يمكن ان ترتضوا بان تخرج من افواهكم الفاظ هذا
 الضلال. يا لها من اقوال ذميمة صمقونة. يا لها من معانٍ شنيعة قبيحة. يا لها من
 كلمات واهية لا يطاق استماعها من فم انسان مومن * لكن هاتِ تنازل معكم الى
 ما قلتموه. لاني لست اريد ان احيد عن القصد الاخص الذي انا في شأنه * غير
 انني اريد منكم ان تسلموا لي مذعنين في ما اورده الآن. وهو ان تاخير امر خلاص
 النفس الى آخر الحيرة هو على القليل تحت خطر عظيم. وانه لا يتفق مع الجميع على
 حدٍ سوى. وان اتفق مع واحد حسناً. فيخيب ايضاً مع مائة * وذلك لانه على ما
 قال سكوتوس المعلم الشهير « ليس من المستحيل ان يحصل الانسان على ندامة
 حقيقية في العاقبة. الا ان ذلك صعب جداً كثيراً من قبل الله تعالى ومن قبل
 الانسان » انتهى * قال انه صعب جداً « من قبل الانسان ». لان قلب الانسان
 يكون قد تجر وتصلب في الشر اعظم التصلب. وقال انه « صعب ايضاً من قبل
 الله تعالى ». لانه تعالى يكون حينئذ مهتاجاً الى السخط ابغ ما يكون * وانتم يا هؤلاء
 لم يظهر فيكم علامة واحدة تاكد لنا ان خلاصكم الابدني يعينكم. لانكم تضعونه تحت
 حوادث الصدفة والاتفاق لابل تحت اخطار عظيمة اكثر مما تفعلون في امر رزقة
 بناتكم او ترتيب عيالكم ونظم ارزاقكم ومباشرة سائر اشغالكم الجسدية الباطنة. كأنه

ليس بجئي خال من الرب ما قاله القديس اوخاريوس في النصل الثاني والثلاثين
من ان خلاص النفس هو اعظم كل الهموم العظيمة. ويلزم ان يفضل عليها كافة
لعبري ان صنيعكم هذا ليس هو بحسب المثال الذي اعطاه يعقوب الصديق ابو
الآباء * ان هذا البار اذ كان راجعا مع عيلته كلها الى وطنه اي الى ارض كنعان
بعد ان عاش منتزحا عنها في ارض غريبة نحو عشرين سنة خوفا من غضب
عيسواخيه الاكبر المصرا على قتله. فلما قرب من وطنه. ابصر اخاه ذاك الذي كان
حاقدا عليه مقبلا نحوه مسلحا ومصطحبا معه اربعة رجل محارب. ولذا كم السبب
خاف من ان يتذكر اخوه ما قد اهانته به قديما وياخذ النار منه ومن نساءه الحبيبات
اليه واولاده الابرياء بسببه * ولكن ماذا فعل في هذا الخطر الباهظ : انه قسم جملة
عيلته الى عدة صفوف على مثال عسكر متقدم للقتال. فاقام في اول الصفوف
جاريتيه بله وزانته مع اولاده الاربعة الذين كانوا ولدوا له منها. ثم وضع وراءهم
امرأته ليا مع اولادها السبعة. وجعل راحيل الجميلة في آخر الصفوف كلها مع ابنها
يوسف المحبوب لديه جدا * فلنسالنا منا قائلين : ترى ما الذي قصد يعقوب في
هذا النظام والترتيب : العلة قصد بهذا ان يستعد الى المعركة والحرب. او اراد ان
يدفع اقحام اخيه بقوة اعظم * ولكن ما الذي كان يقدر عليه جيش صغير من
نسوة ضعيفة وصبيان عاجزين مقابل عدة جنود ابطال معنادين على سفك الدم
من الذين مشاهدتهم وحدها تكفي لتخيف وترهب الناظر * فقد كان يعقوب
عارفا ومتحققا انه لا يمكنه ان يقاوم اخاه بجمسه هذا الضعيف العاجز. ولاجل ذلك
اذ كان الخطر لا بد منه. اراد ان يدبر امره وامر عياله بحكمة وتوفير. ولا يطوح
في خطر النمل على حد سوى جميع الأشخاص الذين لم يكونوا لديه اعزاء ومحبوبين
بالسوية. لان الجاريتين كانتا لديه اقل عزاء. ولاجل ذلك وضعها في اول الصفوف
لتلتقيا اول هجمة اخيه وسخطه * وقد كان يعتبر ليا اكثر من الجاريتين. فاجتهد ان
يجعلها في امان اكثر منها * وكانت راحيل لديه اعز من الجميع. ولاجل ذلك

وضعها في آخر الصفوف بقصد ان يصونها سالمة عقيب الجميع * وما احسن
 هذا التعليم الذي علمناه هذا الاب الحكيم بتدبيره هذا الصادر عن حكمة وافرار
 حميد. لانه قد علمنا ان نسلم للخطر الاشياء التي في اقل قيمة لنحفظ الاشياء التي هي اكثر
 اعتباراً وقيمة سالمة مصونة من كل عطب * وان كان ذلك كذلك. فما الذي اقول
 عنكم يا معشر المسيحيين احبائي حينما اراكم انما تضعون في اول المخاطر انفسكم لتنتفي
 اول صدمات العدو وتحمّل اول الطعن والضرب. فبي عنكم بمقام الجارية. وعليها
 تصعد القرعة ان تبيد وتوت. بشرط ان يسلم شانكم وتُصان قناياكم واولادكم واقرباؤكم
 واصدقاؤكم. حتى النساء الفاجرات المحبوبات اليكم. وسائر اهواء اجسادكم الذميمة
 والباطلة * ياله من جهل عظيم ما اشنعته. يا لجنون غريب ما اقبحته. يا لها من
 حماقة وحشية ما افطمها * «انني متلي من رجز الرب». فاعذروني ايها السامعون اذا
 رايتوني استفرغ غيظ قلبي هكذا: «حقاً اني متلي من رجز الرب» فلا استطيع ان
 احتمل اكثر من ذلك «تعبتُ محملاً». ولهذا صرتُ مضطراً مثل ارمياء النبي ان
 اطلق العنان للغيرة المضطربة بي في خلاص نفوسكم * لاننا بلغنا الى قمة التهاون
 والفشل الغائص فيه المسيحيون الذي قد قصدتُ في مبدأ خطبتي هذه ان ابين
 لكم عظمتَهُ وشناعته *

ومع هذا كله فلنا ان نقول عن بعض المسيحيين اكثر مما ذكرنا * لان يعقوب
 نعم انه وضع في الخطر الجوّاري اول الجميع لا رب. الا انه مع ذلك لم يستهن بهن
 الى حد ان يلقين بخطر اخنياري. بل في خطر غير منتظر لا مناص منه * لانه ليس
 هو الذي خرج الى ملاقاته عيسو. بل عيسو قد برز عليه. ولذلك لم يكن في مكنته
 ان يعتني منه * ولكن انتم تعاملون انفسكم معاملة تسهوا رداوتها على معاملة الجوّاري.
 لانكم تلقونها ليس خلقاً من ارادة في تلك المخاطر المهلكة التي تسقطون بها. بل
 تدفعونها الى المخاطر تعدياً واخياراً. وكانكم تُسرون في مضرتها. لكونكم تخاطرون
 بها الى حيث يكون الحديث اكثر سفاهة والنظر اسرع ستوطاً. والى حيث تكون

العشيرة او فرجورا ورعونة . حتى لا اقول ايضا الى حيث تكون الابالسة تحارب
الانفس لا بالخفاء والكمين لكن جهراً وباسلحة مستلثة ليمتوها ويستاقوها الى الهلاك *
العلل هذا هو الاهتمام بالنفس : لا لعمرى . حتى انه يجوز لي ان اسميه عدم اهتمام . بل
الخليق بي ان ادعوه عدم ملاحظة الى النفس تماماً * يا امر طوبيا ايتها المسكينة
الذليلة . ما اكثر حرصك على ابنك . وما اغرب اعتنائك به * ان هذه الوالدة الراومة
كانت قد سلمت وحيدها بيد ملاك . مع انه على التحقيق لم تكن تظنه سوى رجل
ذي صلاح عظيم وحكمة غريبة . ومع ذلك لا فرط ودّها لابنها ندمت حالاً وتأسفت
على تسليمها اياه ولو بيد هذا القائد الامين . لانه اعترافها الوهم خائفة من ان يصيبه
في الطريق حادث من الحوادث المحزنة . ولذلك « كانت تبكي بدموع غزيرة » . وتتهجد
وتنوح وتولول قائلة هكذا « الويل لي الويل لي يا ابني . لاي سبب ارسلناك للتغرب
يا ضوء عيوننا وعكاز شيخوختنا وعزاء عيشتنا ورجاء نسلنا * اننا لم نكن نملك شيئاً
غيرك يا ولدي » * ما احسن وما اجمل كلامها هذا اعني قولها « اننا لم نملك شيئاً
غيرك يا ولدي » « فما كان حقنا ان نبعثك من عندنا » * اي لم يكن واجباً علينا
ان نجعلك في خطر بابعادك عنا . حيث انه فيك كان خيرنا كله . ولم يكن لائقاً
بنا ان نلقيك في خطر بتسليمنا اياك في يد غيرنا * لقد اظهرنا يا ولدي على نفوسنا
اننا لم نكن نعرفك . واننا لم نكن نعلم ان ليس لنا في العالم خير سواك وان بك كل
ما لنا ومقتنانا . « اننا لم نكن نملك شيئاً غيرك يا ولدي . فما كان حقنا ان نبعثك من
عندنا » * هكذا كانت تندب نائحة وتولول في كل ساعة هذه الامر المرتعد على
ابنها . وكان بعلمها الشيخ يعزيها بتفهميه لها ان الحارس الذي قلداه ابنها الوحيد كان
اميناً فيستطيع ان يحصل على راحة من جهته ويطمئناً . ومع ذلك لم يكن كلامه يفيدها
ولا كانت تعدل عن البكاء والزفرات اذ كان يخاطبها قائلاً لها « اسكني ولا تحزني .
لان ابنا في عافية . والرجل الذي انفذناه معه امين » * قلت ان كلامه هذا لم
يفيدها شيئاً . ولم يكن يقنعها بان تستمدتعزية ما اصلاً . ولجل ذلك قال ايضاً الكتاب

الآلبي «ولكنها لم تكن تقدر ان تسأل». بل كانت كل يوم تخرج كالمصابة خارجاً عن بيتها. وتطوف جميع الطرق. وترقب كل الأبواب التي كان ابنها مزعماً وممكناً ان يدخل منها. حتى ربما صنعت راية شامخة لترقب الفلاة لعلها تحظى بمشاهدته من بعد راجعاً. كقول الكتاب الآلبي ايضاً «لعلها تبصره على بعد جائباً» (طوبيا ١٠: ٤ الى ٧) * ولما لم تكن تراه. كانت تعود وتجدد نوحها وتزداد صياحاً. وترجع هكذا باكية عند المساء الى دارها. وحينئذ كانت تندب نفسها قائلة: واسفاه على شقائي. لا شك ان ابني عرض عليه خطر. من يعلم الا يندبني الآن ويستغيثني قائلاً: يا امتهاه وهو ساقط من احد الكهوف. او يستغيث بابيه وهو فريسة لاحد الوحوش الضارية * فيا معشر السامعين المكرمين احبائي. اعلموا ان الحرص الذي يجب على كل منا ان يحرص به على نفسه يلزم ان يكون عظيمًا جدًا. حتى انه لا يجوز لنا ايضاً ان نستودعها بيد ملاك ما لم يتأكد لدينا انه ملاك تأكيداً تاماً. ونحنه اعظم الامتحان. وذلك لئلا يكون قد ستر تحت صورة الملاك مخائفة ما * وهذا هو الشور الذي اعطانا يوحنا الحبيب في هذا الامر المهم العظيم قائلاً «ايها الاحباء. لا تصدقوا كل روح. بل جربوا الأرواح هل هي من الله» (١ يوحنا ٤: ١) فاذا ما الذي ينبغي لي ان اقول حينما اتأمل كثيرين من المسيحيين يستودعون انفسهم في يد الشيطان نفسه متخذين هذا العدو الطاغى قائداً لها في السفر الابدي المخطر. ويتركونه ليقنادهم كأنهم عيان ما بين وهدات مهلكة مريعة. وهي محافل العشق الدنس وزيارات ومسامرات ذميمة ومنادات محرمة ومنازل النجاسة الظاهرة. وبالاجمال اقول يقودهم الى جميع الاسباب القريبة الى الهلاك * فمثل هؤلاء هل يجوز لي ان اقول عنهم انهم يحبون خلاص انفسهم وانهم يعتبرونها ويحفظون عليها. وانهم عارفون ان لهم خيرهم كله فيها وحدها. لا لعمرى * لانه لو كان ذلك صحيحاً. لما كانوا يخاطرون بها بهذا المقدار من الجهل الشنيع ويسلمونها بيد الشيطان الطاغوت الكبير كالعيان والفاطحي الرجاء. ولا كانوا يامنون ان يسلموها لاي رجل

كان من البشر من غير فحس وتحقيق . مقتدين بشور القديس المقدم ذكره
 القائل : ايها الاحباء . لا تصدقوا كل روح * ولكانوا اذا قصدوا ان يصطحبوا احداً
 يفتحصون عنه اولاً هل هو ممن يبغض الرذائل ويحسبها . واذا راموا ان ينتسبوا
 الى احد الواجه ويتجنّدوا لخدمته . يتبصرون قبلاً هل هو عاشق الصلاح وينعم على
 من هو متصف به . وكانوا من بين آباء الاعتراف ينتخبون من هو اوفر علماً . ومن بين
 المعلمين اللاهوتيين يفضلون من هو اكثر ثقي . ومن بين المشيرين يحبون الصادقين
 والمحققين اكثر . ويجتهدون الجهد التام في ان يرتبوا انفسهم في اعظم الامان الممكن *
 لكن واسفاه . لاني ارى ان كثيرين يفعلون بخلاف ذلك على خط مستقيم . حتى
 انه يصح فيهم ما قد قاله ارميا النبي بروح النبوة هكذا « انهم يسلّمون انفسهم المحبوبة
 بايدي اعدائها » * لانهم غالباً انما يسرّهم الرفقاء السفهاء والموالي المتهتكوا العيشة . وليس
 ذلك فقط . بل ان كثيرين ايضاً اذا التزموا ان يكشفوا ضائرهم لاحد معلمي
 الاعتراف . ينتخبون واحداً اقل خبرة . لئلا يدقق في جرائمهم . واذا التزموا ان
 يسلّموا لمعلم ما من اللاهوتيين . يبحثون عن من يكون اوسع ذمّة . لكي ينعطف
 معهم احياناً على هواهم * واذا اضطرّوا ان يتخذوا لهم مشيراً . يختارون واحداً ممن
 يرغب الطمع ويستحبه . لكيما يجابهم ويميل معهم متى ما شاءوا . والنتيجة من هذا
 كله انهم يسلّمون انفسهم المحبوبة بجهل قبيح لا مثيل له بايدي اعدائها * اهذا هو
 الاعناء الواجب للخلاص : اه واسفاه . حقا ان هذا الامر ما هو الا رغبة ذات
 جنون في هلاك النفس تعدياً واحالة التاييدات الخلاصية الى المضرات والمخاطر
 المهلكة . وتبديل الدرياق الشافي بسوم قاتلة * لقد تشكى سليمان الحكيم في امثاله
 من الذين يتصلون الى حد بلوغ من الجنون والهذيان حتى انهم ينسجون اشباكاً
 ويلقون اشراكاً على انفسهم عينها . وذلك بقوله « ويمكرون بانفسهم » (امث ١ : ١٨) *
 ليت شعري من هم هؤلاء الاشقياء الناقصوا الراي الذي يظلمون انفسهم :
 لاجرم انهم هم اولئك الذين نتكلم الان عنهم . اعني اولئك الذين يتغافلون عن

انفسهم وينخدعون باعتمادهم انهم يستطيعون ان يعيشوا بضمير سليم امين على تدبير
اناس خائبي الذمة * اواه من عظم انخداعكم وعدم اصابتكم ايها الاغبياء * وكيف
يمكن لمثل اولئك ان يعتبروا انفسكم وبرشدوها في سبيل الخلاص وهم يستهينون
بانفسهم ويخفقونها متغافلين عنها * غير انكم انما هذا هو الذي تبتغونه كما قلت سابقاً .
اي ان تدعوا انفسكم الشريفة في يد من يتهاون في تدبيرها واصلاحها . وتتركوها
تسقط في الخطر الجهني وتباد وتهلك فيه * وذلك يصدر منكم لكي يصح على الدوام
يوماً فيوماً ما حرر في سفر الحكمة من ان الانسان غالباً انما يكون قاتلاً لنفسه وظالمها
حيث قال « اما الانسان فيقتل بشره » (حك ١٦ : ١٤) * آه وا اسفاه . من ذا
يعطي عيني مجاري ماء فائض لابي الان نائماً على جور هؤلاء الاغبياء المتعددين
على انفسهم الجليلة * نعم هذا هو الزمن الذي فيه « يجرّ وجي من البكاء » مع ايوب
الصدّيق (١٦ : ١٧) . « وتسيل عيناى دموعاً واجفان عيني تفيض مياهاً » مع ارميا
النبى (١٨ : ٤) * الآ يا معشر السامعين ما هو راىكم الان في هذا التغاضي البليغ
عن انفسكم : اما يستحق ان يبكى عليه ويرثى له . العلمك ما تعمقتم قط في التأمل
والتدقق في معنى هذه الكلمة وهي ان الانسان يكون سعيداً الى الابد او معذباً الى
الابد . او في معنى خلود المسرات وخلود البلاء . او في معنى لفظة ملكوت السماء
التي فيها الفائز بالخلاص يفرح ويتمتع الى ابد الدهور . او في معنى لفظة جهنم التي
فيها الهالك يبكي ويعجّ مولولاً الى كل الدهور * فما هو قولكم ايها المسيحيون . وما هو
جوابكم : العلمك تجرّم ابداً في تأمل هذه الحقائق الدهرية وفهمها * فان كان الى الان
لم تتأملوها ولا غصتم في التبصر فيها . فاشير اليكم بان تنهبوا عاجلاً الى مخادعكم
وان تغلقوا عليكم الابواب كما اشار اشعيا النبي على الشعب الاسرائيلي عن لسان
الله تعالى قائلاً « انطلق يا شعبي وادخل الى مخاييك واغلق ابوابك عليك » (اش
٢٦ : ٢٠) * واذا اخنايتم هكذا وانفردتم وحدكم . فتأملوا قليلاً في انفسكم . ثم عودوا
الى وكنوني . فاني لو اثق انكم سترجعون نظير اولئك الذين كانوا يخرجون من مغارة

تريفونوس الساحر الشهير. اي مندملين مبهوتين متخشعين من غير ان تعودوا ايضاً
فتضحكوا فيما سيأتي من الزمن او تبسّموا تبسماً واحداً فقط * وان كنتم قد تأملتم
الحقائق المقدم ذكرها واعتبرتموها لكن بعض الاحيان فقط كما اظن فيكم. فاي تهاون
يمكننا ان نتصور فيكم ارداً من هذا التهاون الذي به تخاطرون بأمر عظيم كذا من
دون ان تحزنوا او تخافوا او تبالوا به اي خلاص النفس * اما تعلمون انه في هذا
قائم خيركم او مضرّكم اصلاً. بل هو امر يخصكم وحدكم كلاً * لانه اذا هبطتم في جهنم
(لا سمح الله بذلك) فليت شعري من يشفق عليكم. ومن يقدر على ان ينتشلكم
منها * كان ايشالوم قد نفي الى منفي شاق صعب. الا انه حظي بيواب حبيب داود
يلتمس من ابيه بلجاجة ان يرده الى بلده (٢ سموئيل ١٤) * وايضاً يوسف الحسن قد
وجد محبوساً في سجن مظلم. غير ان ساقى فرعون صار له وسيطاً ونال له اخيراً
الخلاص. (تكوين ٤٠) * وقد التي ارميا النبي في جب موحل ليموت فيه من البرد
والجوع والنتانة موتاً اليماً. ولكنه حظي بايماالك. فحن عليه ودلى له حبلاً من قم
الجب. فتعلق به وخرج الى فوق (ارميا ٢٨) * وانتم فبمن تحظون ليعينكم على ان تخرجوا
من الدركات السفلية «من قعر جوف الحميم» (سيراخ ٥١: ٧) * واي حبلى يصل
من السماء الى تلك الهاوية العميقة السفلية. واية ذراع تلقاكم واية قوة تنهضكم. لعمرى
ان «من يهبط الى الهاوية لا يصعد» اسمعوا وافهموا جيداً ما قاله ايوب البار «ولا
يرجع ايضاً الى بيته» (٦: ٧) * نعم ان من ينحدر الى اسفل. لا يرجع ايضاً الى فوق.
ثم اكرر كلامي قائلاً: من ينحدر الى الاسفل لا يرجع ايضاً الى فوق * «من يهبط
الى الهاوية لا يصعد. من يهبط لا يصعد» * وها انتم لا تتذكرون بذلك ولا تجزعون *
آها يا ابني يا ابني. انه هكذا يجب علي ان اخاطب كلاً منكم مع الحكيم ابن سيراخ
قائلاً «يا ابني امدح نفسك برفق. واكرمها بحسب استحقاقها» (سير ١٠: ٢١) * لانني
لو كنت راغباً في هذا اليوم بايرادي هذه الشواهد المتعددة وهذه البراهين المختلفة
ان اقنعكم بشيء يا اول الى خيري او شرفي. اي اما ان تاتوا الى استماع وعظي

بازدحام عظيم وتجدوني وتعظّموا انوالي . وتستحسنوا خطابي . وأما ان تخونني اجرةً
توازي تعبي وعرتي . لكان يباح لكم لا محالة ان تشكوا فيّ ولا تصدّقوني * إلا أنني لم
اقصد هذا قط . وإنما قصدي ان احرضكم واحثمكم على ان تهتموا بنفوسكم . او على
القليل ان ترحموها بحسب ما اوصى ابن سيراح كل واحد منّا قائلاً « ارحم نفسك »
(سير . ٣٠ : ٢٤) * وما هو الذي يمكّنني ان ارجوه منكم ان كنت لست انال منكم هذا
الاهتمام بانفسكم والمحبة لها . والحال ان ذلك خيركم وهدىكم * أنني ارحمكم ان كنتم لا
تحبون اعداءكم . واعذرکم ان كنتم لستم تحبون مبغضيتكم . لكن من يعذرکم ومن يحنلکم
اذا لم تحبوا انفسكم . ومن ثم اختلف مع الحكيم قائلاً « الذي يخطئ الى نفسه من
يبرره . ومن يكرم الذي يفضح نفسه » (سيراح . ١٠ : ٢٢) * ناشدتم الله تعالى ان
تعتبروا انفسكم وتحبّوها . وان كان ليس لكم برهان آخر تفهمون منه قيمتها ووفور
التزامكم باعتبارها ومحبتها . فيكفيكم هذا البرهان . وهو ان تتأملوا (كما قلت لكم في
افتتاح خطابي) كم يتعب ويجدّ الشيطان دائماً لىترقبها منكم . وكم كثيرة الحيل
والاختراعات التي يصطنعها كل يوم ليجدعكم ويستقطم في الخطايا . وبعد سقوطكم
بها يبذل جهده كله في ان يزيل عنكم الخوف ويجعلكم ان تلبثوا فيها مطمئنين
مستريحين * اليس هذا برهاناً واضحاً على انه يعتبر انفسكم اعتباراً لا يوصف . وانه
اذا اتصل الى امتلاكها . يحنسب نفسه قد فاز بامر عظيم جداً لا يوجد شيء يتوق
اليه اكثر منه * وما احسن ما يوجبكم سليمانس الاسقف المعظم قائلاً « ايما جنون
اعظم من هذا ان تعتدوا انفسكم حقيرة دنية حينما يعتبرها ابليس شريفة كريمة » *
لعمرى انه لو كان هذا الطاغوت اللعين مالكا العالم . لكان اعطاكم آية باسره
طوعاً واخياراً لاجل امتلاك انفسكم فقط حسب قوله المعلوم « اعطيتك هذه
كلها . ان خرت لي ساجداً » (متى ٤ : ٩) * وما انتم ترتضون بان تبيعوه آياها
بتمن حخير نجس هكذا . اي بلذة دقيقة واحدة . او بتمتع جمال فارغ زائل . او
بخير جزئي لعيلتكم . او بما يماثل ذلك من الامير الدنية . وتسرعون بهذا القليل

الى ان تلقوا انفسكم كالسمك الحقيير في فم الحوت * لا تتصفوا يا ايها المسيحيون
 الاحباء بهذا الجهل الشنيع اي ان تهينوا انفسكم هذه الالهانة العظيمة الفظيعة
 « لا تجذبوا عاراً لانفسكم » كما اوصى الحكيم (سيرخ ١ : ٢١) . بل ارجعوا من الآن
 واحسنوا الانتباه على انفسكم قليلاً . واشرعوا في ان تلاحظوا انفسكم كما يليق
 ويجب امثالاً لما اوصانا به الله تعالى في تشية الاشتراع على لسان موسى النبي قائلًا
 « احفظوا بانفسكم بحرص » (تث ٤ : ١٥) *

القسم الثاني

انني لست اريد ان اكف عن توبيخ هذا التغافل العظيم الكائن في
 البشر عن خلاصهم كما قلنا الى الآن . لاننا كان يمكن ان نقبل اعذارهم قليلاً لو
 كان الخلاص عملاً سهلاً لا يقتضي تعباً وانصباً جزيلاً * ولكن هل تظنونهُ سهلاً
 يا ايها السامعون . هل تظنونهُ سهلاً . ما اعظم ضلالكم وما اوفر شقاءكم ان اعنبرتموه
 سهلاً * اعلموا وتحققوا ان امر خلاصنا الابدبي هو غير سهل كما تظنون انتم . لا بل
 انه متعسر وذو عثرات وتحت ارتياب عظيم . حتى انه صير اكبر القديسين بعد جهاد
 عظيم وتعب جزيل ان يستمرروا في حال الخوف . مرتعدين من غوامض احكام
 الاله الذي هو مخوف ومرهوب حتى على السعداء الذين لم يزالوا ابداً ملتصقين به
 وقائمين حوله كالدائرة . كقول الزبور الالهي « الله المهرب جداً في مؤامرة القديسين
 ومخوف على جميع الذين حوله » (مزامير ١١ : ١) * وبالْحَقِيقَةُ انني لست اعلم من اي
 وجه يتداخلهم هذا الخوف منه تعالى هكذا . والذي يحقق كلامي هذا هو القديس
 هيرونس الذي لم يكن يبرح نائماً غير متعزٍ . وما الذي لم يفعله هذا المغبوط
 من النصب والمشقة ليجوز في نفسه قليلاً من الطمانينة في هذا الامر العظيم اي
 امر خلاصه * لانه قد اخلى وحده في البراري المقفرة المجذبة سائماً . ودفن نفسه
 حياً في مغاير مظلمة . واقام اشد الحرب على حواسه الى نهاية الشيخوخة * ومع هذا

فما الذي كان يقوله: كان يقول في رسالته الاولى « انا المتدنس بعيوب الخطايا
 استتر مستخفياً النهار والليل من الخوف لتذكري اني سوف افي آخر فلس علي » *
 ومثله القديس غريغوريوس الكبير الحبر الاعظم لم يزل يذرف الدموع الغزيرة مدة
 ما كان على سدة الحبرية التي كانت لديه كالشوك تخسه * ومن ذا الذي يقدر
 ان يصف نواح برنردس القديس السعيد وهتافه المتصل في غاب وادي كلاراولا *
 واما القديس المعظم اوغسطينس فكان ابلغ من ذلك يبكي وينوح مرتجفا قائلاً
 « انني اخاف النار المؤبدة » ثم يكرر كلامه قائلاً « انني اخاف النار المؤبدة ». ومع
 ان قلبه كان مضطرباً على الدوام بنار محبة الله تعالى لم يكن ذلك جديراً ان يزيح
 منه الخوف والرعب من الهلاك في جهنم * وهل انا غير مستطيع ان اورد تبيتاً
 لقولي سوى هؤلاء القديسين فقط: هلم بنا وتعالوا معي الى ذلك الكهف المرعب
 كهف النسك الذي يسمى حبس التائبين لخشونة السيرة التي كانوا يستسيرونها
 فيه. وهناك تنظرون مناظر غريبة تذهل العقول وترهب القلوب * فهناك يتم
 التعب والنصب بالحق لهميد رجز العدل الالهي واستعطاف رضاء: فكان بعض
 يقومون بالصلوة منتصبين على ارجلهم الليل كله تحت السماء. وآخرون جاثين على
 ركبهم. وغيرهم محنين ظهورهم ومنكسين رؤوسهم نحو الارض * وكان اكثرهم غالباً
 يصلون وايديهم مكتفة وراء ظهورهم كالمجرمين. ونواظرهم محدقة في الارض محنسين
 انفسهم غير مستحقين ان يتفرسوا في السماء. وآخرون كانوا جالسين على الثرى
 مهزولين مغتمين ناثرين الرماد على رؤوسهم وخافضين وجوههم ما بين ركبهم *
 وكانوا كما قال ارميا النبي « يصنعون لانفسهم نوح الوحيد بكاءً مرّاً » (ار ٦: ٢٦)
 نظير ما يبكي على ميت محبوب وعزيز لدى اهله * فهكذا كانوا يولواون ناخمين
 باكين على نفوسهم. وآخرون كانوا يقرعون صدورهم. وآخرون ينتفون شعورهم.
 وآخرون كانت اعضاءهم تجف وتخر لشدة قشف العيش الذي كانوا به يفنون
 اجسادهم بقساوة * وعسى ان يظن احد منكم انهم كانوا هناك يعطون محلاً للفرح

والضحك والسرور والنزه في وقت من الاوقات . لا يا اخوتي . بل كان ذلك
عندهم ضرباً من الخيال . فلم تكن تسمع في تلك المغاير اصوات غير هذه : ترحم يا
رب . اشفق يا رب . ارحم اغفر سامح يا الله * وربما لم تكن تُسمع هذه الاصوات
ايضاً . لان الزفرات والحسرات كانت تخفق الاصوات . ولا تدع ان يُعلم ما هناك
سوى البكاء * هناك كانت الاصوام المديعة . هناك كان الرقاد الليل . هناك كان
الاستهتار التام بالجسد . وقد كنتم ترون ايضاً بعضهم متلهفين تلهفاً مؤلماً لتفاقم
العطش المستطيل والسنتهم خارجة من افواههم شبه الكلاب يابسة محترقة من
الظما * وكان آخرون يرتمون عراً على البرد والصقيع في عنفوان فصل الشتاء
ليلاً ونهاراً . وغيرهم غاطسين في وسط الجليد . وغيرهم يتقلبون ما بين الثلج . وآخرين
من لم تكن طاقتهم تبلغ الى هذا الحد من النقش يطلبون من الرئيس ان يوثقهم
بالحديد ويقيدهم بالقيود لكي يقضوا حياتهم بهذا العذاب حتى المات * هذه هي
السيرة التشفية الشاقة التي كان يستسيرها النساء القديسون في القفار * ولكن هل
تظنون يا معشر السامعين انه من سيرتهم هذه المقدسة الغربية كانوا ينتجون حجة
للطائفة والتعزية في ان خلاصهم محقق غير مرتاب فيه . او على القليل اما كان
يجب ان تحركهم الى الثقة والرجاء اكثر من الارتباب والخوف * فاسمعوا مني الشيء
الذي كلمها اتامله يوعيني خوفاً عظيماً جداً : ان هؤلاء المذكورين لم تكن سيرتهم هذه
المقدسة تحقق لديهم خلاصهم . لا بل كانوا اذا احدهم مرض واشرف الى المنون .
فجميع رفقاءه يجتمعون اليه وهو راقد على الرماد . وهذا كان الفراش الذي كان
يستحب كل واحد منهم ان يموت عليه . ويسألونه محزونين وباكين وخائفين وقائلين :
ما قولك يا اخانا . كيف تظن بنفسك . اترجو واثقاً الخلاص الذي طلبته بهذا
المقدار من الجهاد والدموع . ام عساك ان تخاف بعد . ترى ما الذي ينتظرك .
الملك ام العبودية . الصولجان ام الأغلال . آ السماء ام جهنم * اما استبان لك
انك تسمع صوتاً موصوفاً داخل قلبك يقول لك « مغفورة لك خطاياك » (لوقا

٥ : ٢٠) ام تحسب أنك تسمع صوتاً آخر فقالنا يقول « شدوا يديه ورجليه واخرجوه الى الظلمة البرانية » (متى ٢٢ : ١٣) * ماذا نقول يا اخانا ما هو رايتك . ناشدناك الله ان تكشف لنا حالك . لنستدل منها كيف يكون حالنا ايضاً عندما نبلغ الى هذه الساعة * انه على هذا النسق كانوا يخاطبون المنازعين منهم . وهكذا كانوا يسألونهم . ولكن ما الجواب الذي كانوا يجاوبون على سؤالاتهم هذه المحرقة : نعم ان بعض اولئك المنازعين كانوا يرفعون اعينهم نحو السماء بابتهاج . ويباركون الله قائلين مع المرثل « مبارك الرب الذي لم يدفعنا فريسة لأسيانهم » (مز ١١٢ : ٦) * ولكن واسفاه : ما اكثر الذين كانوا يجيبون خلاف ذلك . مشيرين الى ان خلاصهم هو بعد تحت الارتياب قائلين مع داود المرثل ايضاً « اذا لجأ على أنفسنا الماء الطامي » (١٢٢ : ٥) . وفحوى كلامهم هو هذا : اننا نرجو ان نجوز واثقين برحمة الله . غير ان الوادي كبير . والماء عكر . وخطر الفرق عظيم ايضاً حتى ولو بلغنا الى آخر الوادي * والذي يزيدني ذهولاً وخوفاً اكثر مما ذكره هو ان كثيرين ايضاً لم يكونوا يجيبون على سوالات اولئك النساء رفقاءهم شيئاً سوى التهنيد والبكاء قائلين : الويل الويل * واذا كان معنى هذا الويل يخني عن الحاضرين ويطلبون منهم يتحسر بايغ ان يفسروا لم مضمون هذه اللفظة المرعبة . يجيبون قائلين : الويل للنفس التي لم تحفظ دعوتها سالمة غير مدنسة . لانها في هذه الساعة تعرف ما هو الشيء المعد لها * فيا معشر السامعين الاحبباء انا اعلم ان كثيرين منكم لعالم يستغربون هذه الاخبار ويظنونها حكايات او شقشقة لسان مني . لانهم لا يحبون ان ترعبهم وتنبههم من رقادهم في آثامهم * ولكن ماذا تفيدهم الموائسة على نفوسهم : لعلمي ان الاخبار المقدم ذكرها صحيحة محقة غاية التحقيق . لان الذي قد خبر بها قد شاهدنا بعينه وسمعها باذنيه . وهو القدوس يوحنا السلي رئيس جبل سينا الشهير في قداسة السيرة وصدق اللسان . وقد كتبها في كتابه العجيب في ذلك الحين عينه الذي كانت تحدث فيه اي انه كتبها وقتما كان كل واحد يستطيع ان يكذب لو كتب شيئاً ما

مخالفاً لما جرى او لو بالغ فيه اكثر مما كان بالحق *
 فاذا قد نقرر ان كل ما ذكرته الى الآن من اخبار سير النساك القديسين
 الشديدة وخوفهم العظيم في امر خلاصهم بعد هذا الجهاد البليغ هو حق وصدق لا
 ينكر. فليت شعري ما هو سبب طماننتنا نحن وقلّة خوفنا حتى اننا نحسب خلاصنا
 سهلاً بل محققاً كأننا ضابطوه في راحة اليد من دون ان نهتم به الا قليلاً جداً *
 « يا للعجب . من اين تصدر فينا هذه المحابة على نفوسنا ايها الاخوة » هكذا يجب
 عليّ ان اهتف صارخاً متوجعاً مع القديس برنردس قائلاً « من اين ياتي علينا
 هذا الفتور المؤذي . من اين نستنج هذا الامان الملعون في نفوسنا » * آه و اسفاه
 علينا : لعمرى ان هذا الفشل المهلك انما يصدر فينا من هذا القبيل لا غير وهو عدم
 التأمل في شرف نفوسنا وتناسينا لها . وهذا هو الداء الذي يعي اعين عقولنا . ولا
 يدعنا ان نرى المعائر المخوفة التي هي ظاهرة بازاء اعيننا كقول الحكيم الالهى « اما
 طريق المنافقين فكالظلمة . لا يعلمون باي شئ يعثرون » (امثال ٤ : ١٩) * فان قلتم
 ماذا يجب علينا ان نصنع يا ابانا . اجبتكم : لا تسالوني انا . سلوا غيري . لاني انا
 لست استحسن لكم شوراً غير الذي اتخذته لنفسي . فان اردتم ان تسلموا اليّ تدبير
 نفوسكم . فامضوا وانبذوا الوري الى الوري زاهدين في الدنيا * وان كان لكم زمان
 بعد للهرب مع لوط من سدوم . فلا تبطلوا . لان الأبرار انفسهم لا يستطيعون ان
 يعيشوا مدةً مستطيلة بالامان ما بين الخطاة * ولكن ان كان لكم طاقة ولا
 ارادة ان تفعلوا ذلك . فلماذا لا تعزمون على القليل ان توظبوا من الآن فصاعداً
 في كل اسبوع على اخذ الاسرار المقدسة التي هي الوسائط الموافقة للخلاص اكثر
 ما يكون . ولماذا لا تطرحون عنكم هذا المقدار من الكبرياء والتفنى في سلوككم
 ومسيركم . لماذا لا توجزون الطمع المفرط في الدنيويات وتختصرون الرغبة الذميمة في
 الرفعة والجاه . لماذا لا تنتهون وتضعون اللجام على الشهوات الجسدية * فان كنتم لستم
 تريدون ان تصنعوا ما اشرت به عليكم . فما الذي تحبون ان اقوله لكم : اشهد لكم

ان فيكم اهتماماً بخلاصكم . حاشا وكلاً . بل انكم متغاضون متغافلون عن نفوسكم
 تماماً * وهذا اعنفكم به من غير محاباة ومن غير خوف . وانه من المحقق عندي
 انكم فاهمون كلامي حسناً . غير انني خائف جداً من انكم مع فهمكم هذا لستم تقبلون
 نصحي * ولكن ما الذي يمكنني ان افعل اذا ايتم ان تسمعوا تعليبي وتقبلوه . غير اني
 التفت الى هذه الايقونات وهذه الحجارة وهذه الامتعة . واستدعيتها لتشهد لي امام الله
 تعالى في اليوم الاخير على انني قمتُ تماماً بما انا ملتزم به من تخييركم بالحق بالامانة .
 مع كوني لستُ بحاجة الى هذه الشهادة . لانه ههنا حاضر الديان الحي والحق الذي
 سيديني . وهو يسمعني * وانت يا الاله عالم بعظم منيتي ورغبتني القلبية في خلاص
 هذا الشعب الذي هو شعبك الجليل . فيا لسعادتي وبيا لحسن حظي ان استطعتُ
 ان ابذل نفسي عنهم واسفك دمي من اجلهم كما سفكت انت دمك الكريم من
 اجلي * ولكن من حيث انني عاجز عن ذلك . فاني اعدك بان لا اهدأ ولا امل
 من هذا الامر بل اقضيه بكل جهدي وهو ان اعظم بالحق * فاهلهم يا رب ان
 يقبلوه مني بتلك المحبة الصادقة التي بها اوردته عليهم . انا كلمتهم في الآذان .
 فخطبهم انت في القلوب . وانا اوعيت من التعليم عقولهم . فاضرم انت ارادتهم *
 انك من خاصتك ان تكون الرؤف المجتذب اليه باغنصاب المحبة القوم الذين
 يتعدون منه . وانا لا استطيع ان افعل شيئاً سوى ان اضي لهم نظير المصباح الذي
 بضوءه يري الطريق للمسافرين في البحر في حين الظلام . ولكن عليك ان تهب
 عليهم النسيم المقدس الذي يجاهم ناجين سالمين غانمين الى ميناء الراحة الابدية . آمين *

الخطبة الثامنة

ننضمّن تشجيع الاتقياء ليغلبوا الحياء والمهابة من الناس بحسارة مقدّسة

«وإذا امرأة كنعانية خرجت من تلك التخوم . تصيح اليه وتقول : ارحمني يا ربّ يا ابن داود». هكذا حرّر متى الانجيلي في الاصحاح

الخامس عشر من بشارته ٢٢٤ *

القسم الاول

قد ذكر عن ميلون الكرونتي الرجل الاعظم قوّة وجبروتًا في الوثنيين الأبطال القدماء . انه من جملة التجربات التي كان يفعلها لاطهار قوّته العظيمة كان يفعل هكذا : ياخذ بيده تفاحة ويقبض عليها بانامله . ثم يدعو الشباب الأبطال ليتقدّموا ويفتحوا كفه ويستخلصوها منه . ومع ذلك لم يستطع احد قط ان يفتح كفه سوى امرأة ضعيفة كانت اليه محبوبة * لانه كان يغلب الجميع قوّة ما خلا هذه المرأة العاجزة . فكان يسلم لها كأنه عاجز وضعيف * انني لعارف بانّه لا يلبق كثيرًا ان تُذكر مثل هذه الاخبار الوثنية في مثل هذا المكان المقدس . لانه لا تنتج منها فائدة جزيلة . لكن مع ذلك قوالوا لي ايها السامعون المكرّمون : اما ترون من الامر العجيب ان تلك النعمة التي لم يستطع جميع الرسل معًا ان ينالوها في مثل اليوم من يد السيد المسيح مع انهم التمسوها متضرّعين بشوق ولجاجة قائلين له «اطلقها . لانها تصيح في اثرنا» . قد نالتها منه تعالى المرأة الكنعانية . ولم تحصل عليها كينما كان . بل بقوّة واغصاب حسبما نستدلّ على ذلك من قوله لها «يا امرأة . عظيم هو

ايمانك. ليكن لك كما اردت « ولعمري انه ينبغي لنا ان نقول ان فضل امرأة قوية
 وقادرة هكذا كان عظيمًا جدًا. ولكن ما هذا الفضل. العلة كان ايمانها. نعم انه
 كان ايمانها بلا شك. ولكن مع ذلك لا يسوغ لنا ان نقول ان ايمانها كان اعظم
 من ايمان الرسل الذين تشفعوا فيها لدى السيد المسيح. ومع هذا لم يستحقوا ان
 ينالوا منه النعمة التي كانت في طلبها ونالتها منه فيما بعد وحدها * فيسوغ لي
 ان اقول ان الذي عظم فضل الكنعانية لانا كان جسارتها المقدسة في طلبها الصادر
 من ايمانها الحي. لان هذه المرأة الصالحة كانت قد وُلدت بين امة غير مومنة.
 ولجل ذلك اعتبرواكم احتاجت من الجسارة والشجاعة لتغلب الصعوبات التي
 كانت تصدها عن التقدم الى الرب يسوع. ولاسيما الحياء من الناس ومداراة
 اهلها وبني جنسها الذين لم يكونوا يؤمنون بالمسيح * لكنها لم تلتجئ اليه تعالى في مكان
 محجوب خفي. بل في مكان ظاهر مشاع وعلى قارعة الطريق. ومع انها كانت من
 اصل شريف وذات ثروة وافرة. لم تنجل من ان ترمي على قدميه وتسجد له في
 انتصاف النهار امام جم غفير مزدحم من غير ان تبالي باقوال الناس فيها * واصابها
 هوان. ومع ذلك استمرت ثابتة. وطردت فام تنقل ولا ابست ولا تتهقرت من
 الناظر يسوع الجافية الشاقة التي قصد بها ان يضع قدرها لاجل امتحانها اذ عاملها
 بمنزلة كلبة قائلاً لها « ليس هو جيداً ان يؤخذ خبز البنين ويلقى للكلاب » * فمن
 هنا اي من صنعها هذا اما ترون انه من الامر الواجب ان تعطى كل شيء هذه
 المرأة المحاوية هذه الصفة الجليلة المدوحة * فلينعلم كل انسان منكم من قبل هذا
 المثال الصالح الجليل ان يغلب الجبانه الرومية الباطلة التي تصدكم احياناً عن ان
 تعطوا نفوسكم كلها للسيد المسيح. فلماذا يتداخلكم هذا المقدار من التفكير في ما تقوله
 الناس عنكم. ولماذا تتهقرون وتجنبون من تعبير ما. او من هزؤ وجيز. او من
 كلمة ما * دعوا كل احد يقول ما يشاء. لانه لا يجوز لكم من قبل ذلك ان
 تعدلوا عما قصدتموه من المقاصد الصالحة * فطوباكم وهنيأ لكم ان اهانوني اليوم

ان اطبع في نفوسكم هذه الحقيقة الجزيلة الفائدة * لانني متيقن انه اذا طبعت فيكم
فكثيرون منكم ممن هم تحت النقص يصيرون صالحين. وكثيرون ممن هم صالحون
يصيرون قديسين * ولنا تين من دون عائق الى البرهان. ولنجعلهُ الاول في خطابنا هذا *
ولكن قبل كل شيء ارغب اليكم ان لا تظنوا في اني ذو قلب قاسٍ جافٍ
حتى اني لا اعذرکم ابداً عن الاشعار القوي الذي تشعرون به في مثل هذه الاحاديث
العالمية * لانني عالم انه اذا عزمت مثلاً تلك السيدة المكرمة او ذاك الرجل الشريف
او ذلك الغني ان يتردوا بشباب او فر حشمة . او يعاشروا عشرة اطهر واكمل . او
يعيشوا عيشة او فر اخنلا . فللوقت تنشب لذمتهم عدة السن شريفة . ومن جرى
ذلك فيشعرون طبعاً بحصر او غم ما * لكن مع هذا فالنزمت كرهاً مني من هذا
الابتداء ان احزنكم بايرادي على سماعكم خبراً نحساً * فاسمعوا واعلموا ان الداء
الساقطين انتم فيه اي لوم الناس لكم وان كنتم تعتبرونه داءً فهو عضال لا دواء
له * لانكم ان سالم جميع معي السيرة الروحية واحداً فواحداً . لا تجدون احداً
منهم يفيدكم رجاءً بانكم تستطيعون ان تبغضوا الرذيلة وتوجدوا محبوبين الى الادياء
الاشرار * ويكفيكم لتحقيق ذلك وتاكيد ما حرره سليمان الحكيم في هذا الصدد قائلاً
« يكره الاشرار من كان ذا طريق مستقيم » (امثال ٢٩ : ٢٧) * وهذا حق لا يشوبه
ريب اصلاً . وقد اورد القديس سلبيانس الاسقف السبب في ذلك فقال : لانه
ضرب من المستحيل ان تتفق الافكار حيث تكون الافعال يناقض بعضها بعضاً .
فكيف تطلبون من المنافقين ان لا يبغضوكم مع كون افعالكم توبخاً دائماً لهم لسوء
افعالهم . لانكم بتقواكم تجلون قلة ديانتهم . ومحببتكم توبخون قساوة قلوبهم . ومحببتكم
توبخون سوء ادبهم . وبتقنا عنكم تعلنون شرهم . وبغفتكم تفضحون شهواتهم الدنسة * فاذا
من لازم الامر ان يبغضوكم اذا احبوا انفسهم . لكون اختلاف الاميال هو سبب
عظيم في المنازعات (كما قال الاسقف القديس المقدم ذكره) . لانه غير ممكن او
على الاقل عسر جداً ان يحب الانسان الشيء الذي تشاء نفسه منه * فليس عبثاً

يمقتكم اولئك الذين يبصرون كل شيء فيكم يناقضهم ويخزيهم * انتهى * فهؤلاء الاشرار يعاينون فيكم كالمرأة كل شناعاتهم وادناسهم . فلا عجب اذا مقتوكم ورتاؤكم ومزقوكم بالسنتهم . فانهم يصنعون بكم كما تصنع الجبال بالماء الصافي النقي لكون الجبال لا تستطيع ان تراه وتحملة وهو صاف هكذا . ولذلك تدوسه بارجلها وتخبطة لكي تعكرو لئلا تبصر فيه بشاعة هيئتها * وهكذا افعلوا انتم ايها السامعون الانقياء ولا تخافوهم . لان معرفتكم هذه بان هذا الداء لا دواء له هي له دواء شاف *

فقد ثبت انه لا يمكن لجميع الابرار ان يرضوا المنافقين وينالوا منهم المحبة *
 وها انا اريك من برهان آخر انكم لستم انتم اول من ذاق منهم القذف والبغضة لاجل سبب مقدس وجليل هكذا . ولا تكونون ايضا الآخرين * فالاجدر بكم ان تعزوا تعزية وافرة بمشاهدتكم جما غييراً من ابطال السيد المسيح قد احتملوا ما انتم مبتلون به اي بغض عالم الاشرار وافادوكم شجاعة على الاحتمال ايضا * فامضوا باعينكم اولاً الى مصر . فتبصروا يوسف البار مغلاً في السجن من قبل بغض المنافقين له وخبثهم * ثم حولوها الى بيت المقدس في اورشليم . فتعاينوا ارمياء النبي مدفوناً حياً في جب * ثم اوصلوها الى مدينة سوسن . فتشاهدوا مردخاي البري قريباً من الصليب على خشبة * وطوفوا بها مدينة بابل . فتصيبوا دانيال العفيف ملقى فريسة للسباع * واحدقوا بها نحو اسفل بيت فالوا فتعاينوا احيور الصادق مربوطاً في شجرة * واعطفوها الى بابل . فتروا سوسنة العفيفة محكوماً عليها برجم الحجارة * فما هو شر الاشرار الذين ضرؤكم بالسنتهم المرهفة ضراً عظيماً بالنسبة الى هؤلاء المذكورين . ولو اردنا لاطلنا الخطاب في تلك الاحاديث التي لا محالة تفيدنا التجلد والصبر فقط . لكن ليس الى حد سفك الدم * الا انه يكفيننا خبر المجدية وحدها لتعزية النساء الشريفات التقيات اللواتي يرهبن خائفات من قذف الالسن ويتمرن منها * انا عالم انكم سمعتم قصة هذه القديسة مراراً متعددة . لكن لست ادري هل اطالعتم في خبرها على القضية الدقيقة الموافقة لهذا الصدد

الذي نحن فيه * لأنه كانت هذه التائبة الشيطنة الهائلة قد سمعت ان يسوع
مخلصنا متكئ في الولاية في بيت سمعان . فاسرعت لوقتها وذهبت اليه حاملة
قارورة طيب ذكي الرائحة وافاضته على راسه المقدس دلالة على وفور اكرامها
له * غير انها بصنيعها هذا كانت هراقت سماً على السن جميع المدعوين . فشرع
كثيرون منهم يتخاطبون خفية ويدمدمون «مغتاضين في انفسهم» عليها «فقالوا :
لم كان هذا نلف الطيب» (مرقس ١٤ : ٤ ومتى ٢٦ : ١) * انظروا كم عظيم هذا
الاسراف وكم وافرة هذه الخسارة . امكننا يهراق طيب كثير الثمن بهذا المقدار
ويتلف عبثاً . كم من العيالات المفتقرة كان يمكن ان تُعال بشن هذا الطيب
لو بيع * وكانوا يغضبون عليها ويتمرون حتى لو استطاعوا لمزقوها باسنانهم حية *
ولعمري ان في ذلك لأمرًا عجيبياً . لأنه من المعلوم ان الجدلية كانت قد بددت
باطلاً طيوباً واموالاً كثيرة في رخص جسدنا وتضمينه . ولم يكفها لذلك طيب
بثلاثماية دينار . فكم من العنبر وكم من المسك . وكم من المياه العطرية المستقطرة
ابتاعت وانفقت على تضييع شعر راسها وجسمها وثيابها . وليس هذا فقط . بل كم
من الدمالج ايضا والحلي . وكم من الذهب والجواهر كانت تصوغها لنفسها
الافتخار والتباهي * اليس من المحقق انها كانت تنفق كل قنيتها تارة في الملابس
الناخرة وتارة في الهدايا الوافرة . وطوراً في الولايم الفنية واحياناً في المسامرات
والسهرات الدنيوية المطربة . ومع ذلك هل تظنون ان احداً قط دمدم عليها
مغضباً لاجل هذا النلف البليغ ودعاها في وجهها مسرفة ومبددة : كلا . بل بعكس
ذلك كم حظيت بالمدح من الناس الذين كانوا يسرون برفقتها وبصانعونها
ويشنون عليها شاكرين لها . حتى ان بعضهم كانوا ينحنون الى الارض تائقين الى
السجود لها كلما مرت بالاسواق والشوارع * فهذه نفسها لما قدمت من اباطيلها هذه الجزيلة
هبة زهيدة للمسيح ربنا . نهض عليها الاشرار المرذولون . وسنوا السنتم حالاً الى
منذمتها والتدمر عليها قائلين انها تنفق وتبدد وتصرف عبثاً . وتروم خراب البيت

ودمار اهلها . وانها امرأة مطلقة العنان ينبغي ان يكون لها وكيل يضبطها ويحفظها داخل حدود الافراز « لماذا هذا التلف » « لماذا هذا التلف » « فمن هنا استدلو انهُ هكذا يكون حظ جميع الذين يعزمون مثلكم على خدمة السيد المسيح تجاه العالم » وقد اشار الى ذلك الرسول قائلاً « وكل الذين يحبون ان يعيشوا بالتقوى في يسوع المسيح . يُضطهدون » (٢ طيماتاوس ٣ : ١٢) « قال كل الذين . ولم يستثن احدا منهم . نعم انه اذا تأملنا مدققين في كلامه . فراه يقول « الذين يحبون ان يعيشوا » . ولم يقل الذين يعيشون . لانه قد يمكن ان يتفق احيانا ان بعض الصالحين يجوزون على صغر الزمان راحة وسلامة وذلك بعد ظفرهم باقوال الناس التي يقذفونهم بها وعدم التفاتهم اليها » ولكن في المبادي اي حينما يعزمون ان يعطوا انفسهم لله عزما مكنيا وهو المقصود بقول الرسول « يحبون ان يعيشوا بالتقوى » . فليس لهم مندوحة من قذف السنة العالم . بل ينبغي لهم جميعا باسره ان يثلبوا ويقذفوا ويضطهدوا . لان « كل الذين يحبون ان يعيشوا بالتقوى في يسوع المسيح . يُضطهدون » « الا اني اقول ايضا : ما اكثر الذين يحملون هذا الاضطهاد دائما ابدا . وذلك على مثال الاسرائيليين . اذ ابصروا شعوبا كثيرة قد نهضت الى مقاومتهم كالمصريين والاموريين والعائلة وغيرهم كثيرين جدا . وذلك منذ ابتداء خروجهم من مصر . لا بل وجدوا ايضا فيما بعد في وسط اورشليم اناسا انزمو ان يمتلوا اضطهادهم وجزرهم دائما . وهم اليابوسيون حسبما يترجم معنى لفظهم هذا بلغتنا العربية * واية طهارة تضاهي طهارة القديسة مكثيدا البتول التي كانت ايضا من نسب شريف جليل . ومع ذلك فقد كان كثيرون يحسبون مودتها العظيمة للاخبار الرومانيين عشقا رديا . ومع ان الجميع قد كانوا عارفين بانها كانت تتردى بمسح الشعر على جسمها ومن فوقه تلبس رداء غليظا كثيفا جدا . لم يكن هذا كافيا لجعل الاشرار بصدقون انه لم يكن ممكنا ان يلج نبل العشق قلبها ويجرحه بالمحبة السيئة * وكذلك كم قد اضطهد الحماد فضيلة البابا غريغوريوس السابع . مع انه كان قدسيا يصنع العجائب . وكم قذف ايضا في بره

سرجيوس الثاني الحبر الاعظم مع انه كان محبوباً لدى الله تعالى وقدسيه جداً *
 أويس أنا عارفون بان القديس اثناسيوس الكبير بطريك الاسكندرية قد تم
 جهرًا بالزنا والقتل وما قد قلته عن هؤلاء القديسين يمكني ان اقوله ايضاً عن
 القديس غريغوريوس العجائبي اذ لطفه المبغضون بريبة الزنا. وعن بلاديوس السائح
 اذ تهمه المنافقون بأنه نص. وعن ستانسلاوس الاسقف اذ وُشي به عند الملك
 انه سارق. وعن غيرهم كثيرين لا يحصى عددهم اذ كانت سيرتهم المقدسة دائماً
 كهدف ترشقة السن الائمة بنبل القذف والذم * الا ان الاجدري ان اعرض
 عن ذكرهم. لأنه كما لا يليق حسب قواعد الفلسفة ان تورد براهين قليلة لاثبات
 موضوع مرتاب فيه جداً. لا يليق ايضاً بموجب قواعدهما ان تورد براهين كثيرة
 في بيان موضوع واضح ومحقق جداً * اما النتيجة التي يجب ان نتجها مما تقدم تقريره
 فانما هي هذه. وهي انه ينبغي لكم ان تعزروا كما قلت لكم انفاً عند تذكركم ان
 لكم في هذه الدعوى شركاء كثيرين من القديسين. فلکم ان تقتنعوا بنفوسكم ان
 تلك الاحاديث العالمية التي تجسّم لتصدكم عن التورع لا ترحمكم بما انتم اناس
 دنيويون لكن بما انتم اناس روجيون. حكما. تابعون السيد المسيح. ولاجل ذلك
 تجرح المسيح نفسه اكثر جداً مما ترحمكم انتم *

غير اني اريد ان انقدم قدماً اخرى واقول لكم. انه ولن افترضنا انه في
 مكنتكم ان تنالوا من الناس المحبة والامتداح لاجل ورعكم وفضيلتكم. فمع ذلك
 يجب عليكم ان ترغبوا بغضهم ومضادتهم رغبة اوفر * ولعالمكم تستغربون مني هذا الراي.
 لكن ان احستم الاصغاء الى كلاي كما احستموه الى الآن. تسمعون كيف ابرهن لكم
 صدقه * فاقول تصوروا في عقولكم ان الاشرار يعاملونكم بالمحبة والاکرام بدلاً عن
 البغض والمذمة. وتصوروا ايضاً انه ما من احد يتكلم فيكم سوءاً بل الجميع يعتبرونكم
 ومجدونكم. لكن قولوا: انتم تصيرون بهذا مديونين لله تعالى. ام الله تعالى يصير
 مديوناً لكم. من منكم يصير مديوناً لغيره: فالاصح انكم انتم تصيرون مديونين لله تعالى

من حيث ان خدمتكم له افادتكم اجرة ليست بقليلة وهي محامد الناس ومحبتهم
ولكن ان كنتم لاجل خدمتكم له تلتزمون ان تكابدوا شتاً وقذفاً وتعبيراً . فإلا
شك أنه جل ذكره يصير لكم مديوناً * وان قلتم كيف يمكن لله العلي العظيم ان
يصير مديوناً لنا . فاجيبكم : نعم نعم . أنه تعالى يصير مديوناً لكم . ولا تظنوا ان هذا
هو قولي . لكن هو قول مار يوحنا الذهبي الفم . لأنه قال « أنه اذا أحببنا من اجل
الله فنصير مديونين له تعالى بالحببة الواصلة لنا . ولكن اذا أبغضنا لسببه عز وجل
فهو يصير لنا مديوناً » * وما هو الذي للانسان ان يرجوه او يشتهي أكثر من
هذا الذي هو الخير كله . وهو ان يكون الله مديوناً له * فان كنت تعدني بهذا يا
أيها القديس المعظم يا ملفان بيعة الله الجليل اي ان ربي يكون لي مديوناً . فدعني
ان أهيج الالسن العالمية لتلدغني وتقسو علي كما كان القديس اغناطيوس الانطاكي
يهيج الوحوش الى تزيقه وافتراسه * فلتنجح الاشرار ولتمزق ولنقترب كيفما ارادت .
فهل يستطيعون ان يفعلوا أكثر من هذا وهو ان يجعلوا الهى مديوناً لي . وهكذا
يصيرون لي سبباً لاستنجاد به تعالى بدالة اعظم . وان ارجو منه كل ما اریده بسهولة
اعظم . وأن لا اخاف فيما بعد من ان يطردني من امامه لأنه مدين لي . وحينئذ
استطيع ان اترنم فرحاً مسروراً وهاتفاً مع أيوب البار « صرت رجلاً ضحكة لصاحبه .
دعا الله فاستجاب » (١٢ : ٤) وعساكم ان تحسبوا هذا الامر يا أيها السامعون خيراً
قليلاً . والحال أنه بعكس ذلك خير عظيم جداً حتى أنه ادل لبيتاع بشن العالم
كله . لا بمن تلك المحامد البشرية الخادعة التي يلزمكم ان ترذلوها لاجل خدمة
الله تعالى * ولا عجب في ان الله تقدس اسمه يصير مديوناً لمن يتكبد ما ذكرناه
من مثالب الناس وتعبيراتهم . لأنه جل ثناؤه له من ذلك شهادة شرعية صادقة
في انكم تحبونهُ وتخدمونه اكراماً لذاته القدوسة لاطعماً في الارضيات الخاوية الفارغة *
وهذا برهان واضح ثابت وطيد على ان فضيلتكم مرادته وضميركم نقي وايمانكم لا
غش فيه * فتأملوا كم ترجون امام الله تعالى اذا ازدرىتم باقاويل الناس فيكم

ومذماتهم * وتأكيداً لذلك اقول : هل عرفتم يا أيها السامعون المكرمون ما سبب
الاجر الواقر الذي ناله ابراهيم في قربانه ذلك المشهور اي تقدمه ابنه الوحيد *
ان بعض العلماء قال ان اجرة كان قائماً في الطاعة الكاملة التي جعلته ان يرضى
من غير محاورة بأمر صعب هكذا . وقال آخرون انه كان في السرعة التي بها
امتلأ بلا عاقبة عملاً لا تحمله الطبيعة . وقال غيرهم انه كان قائماً في الايمان الذي
آمن به مصداقاً من غير ارتياب مواعيد يضاد بعضها بعضاً * فهذه الآراء لعربي
انها كلها حسنة ومطابقة الصواب . ولكن ان سألتهم مدققين ابلغ التدقق القديس
والمعلم مار زينون . فتعلمون ما الذي قال : انه اتى برابي غريب لم يخطر
ببال احد . لانه يقول ان اجرة كان قائماً في الشجاعة التي بها طوح نفسه في
احاديث الناس فيه * ومن ذا الذي لا يرى ان ابراهيم بفعله ذاك المقدس كان
مزماً ان يسمع الناس يسمونه ظالماً قاسياً عوضاً عن التسمية بالصديق * وكان
لو اشتهر عنه حادث غريب هكذا وهو ذبحه ابنه بيده . لتحركت السن الناس كافة
الى الثلب والنميمة فيه وكان الجميع يلتقبونه وحشاً ضارياً بصورة انسان وجلاداً
قاسياً لا اباً واداً * وعلى الاطلاق اقول ان شجاعته تلك المقدسة التي استحق بها
امتداح جميع افواه الملائكة كانت تجلب له اعظم المثالب والتعبيرات عند الناس .
ولا ريب في ان احدهم كان يخاطب صاحبه قائلاً : انظر ، ما اقسى قلب هذا الرجل .
يا للعجب كيف استطاع ان يضبط بيده السكين . ترى بعد ان استعمل مثل هذه
القساوة في ابنه هل ذرفت عيناه عليه دمعة واحدة . او هل تنهد ولو مرة واحدة .
او هل التفت بوجهه الى وراء لما رفع يده ليدبح * وهو قد فعل بخلاف ذلك .
لانه هو اوثق يديه فتاه البري . وهو حمله ووضعته على المذبح . وهو عصب عينيه .
وهو كشف عنقه وعزم على ان يجره . وقضى وحده وظيفة جلادين كثيرين *
ولا تظنوا يا معشر السامعين ان ابراهيم كان يمكنه ان يزكي نفسه قدام الناس باستناده
على امر الله تعالى الذي امره بذبح ابنه امتحاناً له . وكيف كان يستطيع ان يقنع

شعوباً وأماً وثنيين وغير مومنين بالله وخالين من نور الايمان القويم وياكد عندهم ان فعله ذاك الجليل كان امراً الاهياً لا هدياناً صادراً من الفسادة. لانهم بلا شك كانوا باجمعهم يعترضون قائلين: ان الهك لا ياكل لحماً بشرياً. فالصوت الذي سمعته يامرك بذبح ابنك كان وهماً في ذهنك المعتل لا صوتاً مساوياً * فمن حيث ان ابراهيم الصديق اجترأ جرأة قوية وظفر بكل ما رأى انه سوف يلتحق به من قذف السن الناس ودمدمتهم. وشرع بنشاط عظيم في تقديم ابنه من غير ان يخالف بنوع ما امر الله تعالى. قال القديس زينون المقدم ذكره انه في هذا كان اجره العظيم قائماً. لانه لم يخف من احاديث الناس الملتوية الذين كان عنيداً ان يسقط تحت تعبيرهم له بانه سافك دم ظالم خالٍ من العقل * ولكنه فضل على هذا كله محبة الله تعالى ومرضائه والطاعة لامره المقدس * وهذا هو الاجر الذي اعرضه عليكم ايضاً ايها السامعون الاحباء لتخطوا به مثل ابراهيم الصديق. اي ان تخطوا تعبير الناس ايكم وتمزيقهم شانكم بالسنتهم السفهية في الاشياء التي يجب ان يحدوكم من قبلها * وان واضبتم على تناول الاسرار المقدسة بالورع والديانة اللائقة. فيجب عليكم ان تخطوا ان يقولوا فيكم كاذبين انكم تفعلون ذلك لاجل الرياء * وان اخترتم ان تستمروا مخنلين في منازلكم حياءً واحشاشاً. فيجب عليكم ان تخطوا ان يذيع غيركم عنكم بانكم انما تفردون مخنلين لاجل الاياس والحصر المستحوذ عليكم * وان تجنبتم الدلائم والمآدب في حب القناعة. فيجب عليكم ان تخطوا ان يقال عنكم بانكم انما نتجنبون ذلك لاجل النجل * وان كنتم تصالحون غرماءكم واعداكم خوفاً على نفوسكم من الخطبة. فيجب عليكم ان تخطوا ان يظن فيكم انكم انما تصالحونهم من قبل العجز والخوف منهم * وان فررتم من الكرامات لاجل الاتضاع. فيجب عليكم ان تخطوا ان يتوهم غيركم انكم انما تهربون منها من قبل النشل والتوالي * اني لعالم جيداً بانني طالب منكم كثيراً. ولكن كيف العمل. لانه ههنا تخنن فضيلة الانسان. وقد قال روح القدس على لسان بشوع بن سيراخ « ان الذهب والنضة

يُجْرَانُ بِالنَّارِ. وَالنَّاسُ الْمُتَقَبِّلُونَ يُجْرَبُونَ فِي آتُونِ الْبَلَاءِ» (سير ٢: ٥) * يَا لِعَظْمِ
 فَضِيلَةِ أَيُّوبَ الْمَسْكِينِ الْحَزِينِ * وَلَنَا إِنْ نَسَأَلُ مَا هُوَ الْإِلْمُ الَّذِي كَانَ أَيُّوبَ يَشْعُرُ
 بِمَرَارَتِهِ أَعْظَمَ شَعُورٍ فِي شِدَائِدِهِ الْكَثِيرَةِ الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَ الْجَمِيعِ: لَعَلَّكُمْ لَمْ تَعْتَبِرُوا ذَلِكَ
 أَبَدًا * فَاقُولُهُ لَكُمْ: أَعْلَمُوا أَنَّ الَّذِي كَانَ يَوْمَهُ أَنَّمَا كَانَ عِلْمُهُ بَانَ كُلٌّ مِنْ يَبْصَرُهُ
 مَعْتَرَى بِبَرَصٍ شَنِيعٍ وَمَكْرُوهٍ مَكْدَانٍ يَظُنُّ أَنَّهُ أَنَّمَا اجْتَلَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ جَرَى فَرْطِ
 تَلَذُّذِهِ وَإِنْبَهَاكِهِ فِي الْمَجَامِعَاتِ الدَّنَسَةِ الشَّهْوَانِيَّةِ. وَهُوَ كَانَ بَرِيًّا مِنْهَا وَيَكْرَهُهَا عَلَى
 الدَّوَامِ * فَالِي هَذَا أَحَدٌ أَتَّصَلَ غِيْظَ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِ كَمَا ارْتَأَى مَعْلَمُونَ جَلِيلُونَ مِنْ
 مَفْسَرِي الْكِتَابِ الْأَلْفِي فَقَالُوا: أَنَّهُ أَخْزَاهُ اللَّهُ قَصْدًا أَنْ يَضْرِبَ جَسَدَ أَيُّوبَ كُلَّهُ
 بِدَاءِ يَأْتِلِ الدَّاءَ الْكَرِيهَ الْقَبِيحَ الَّذِي يُبْتَلَى بِهِ أَحْيَانًا الشَّهْوَانِيُّونَ مِنْ قِبَلِ الْمُبَاشِقِ
 الْجَسْمِيَّةِ وَيُسَمَّى الْجَذَامَ. وَمِنْ هُنَا التَّرْمِزُ أَيُّوبَ الْعَظِيمِ أَنْ يَسْتَمَعَ تَعْبِيرَاتِ الْمَارِّينَ بِهِ
 وَالْبَاطِنِينَ إِلَيْهِ وَهُمْ يَقُولُونَ: وَأَهَّا مِنْ هَذَا الْإِنْسَانِ الْحَيَوَانِيِّ الدَّنَسِ الشَّهْوَانِيِّ
 «عِظَامُهُ صَمَوَةٌ خَطَايَا خَفِيَّةٌ» (أَيُّوبَ ٢٠: ١١) * لَقَدْ جُوزِي عَلَى قَدْرِ اسْتِحْقَاقِهِ *
 وَكَانَ أَيُّوبَ الْبَارَّ مَعَ ذَلِكَ يَدْعُهُمْ أَنْ يَصَدِّقُوا فِيهِ ذَلِكَ مُحْتَمَلًا صَابِرًا. وَلَمْ يَكُنْ
 يَنْتَرِ مِنْ أَنْ يَبَارِكَ اللَّهُ تَعَالَى بِشَفْتِيهِ اللَّتَيْنِ أَبْقَاهَا الشَّيْطَانُ لَهُ سَالِمَتَيْنِ مِنَ الْقُرُوحِ
 تَعَدًّا وَخَبْنًا كَقَوْلِ أَيُّوبَ نَفْسِهِ «عِظِي قَدْ التَّصَّقَ بِجِلْدِي وَلِحِي. وَسَلِمْتُ بِجِلْدِ
 أَسْنَانِي» (٢٠: ١٩). وَذَلِكَ رَجَاءٌ مِنْهُ أَخْزَاهُ اللَّهُ بَانَ أَيُّوبَ يَفْقَدُ الصَّبْرَ لَشِدَّةِ أَوْجَاعِهِ
 وَيَلْتَمِظُ مِنْ شَفْتِيهِ بِتَجْدِيفٍ عَلَى اللَّهِ عِزُّ اسْمِهِ * وَانْتَجُوا مِنْ هُنَا كَمَا كَانَ يَتَأَلَّمُ أَيُّوبُ
 مِنْ قِبَلِ السَّنَةِ النَّاسِ كَمَا تَكَلَّمْنَا أُنْفَاءً. غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ صَابِرًا عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا * وَلَكِنْ
 لَيْسَ هَذَا الْبَارُّ وَحْدَهُ أَحْتَمَلُ مَعِيرَةَ النَّاسِ. بَلِ مُوسَى النَّبِيُّ أَيْضًا أَحْتَمَلَهَا * لِأَنَّ هَذَا النَّبِيَّ
 كَانَ يَتَعَبُّ اتِّعَابًا كَثِيرًا لَا تُوصَفُ فِي تَدْبِيرِهِ أَكْثَرَ مِنْ سِتْمَايَةِ أَلْفِ شَخْصٍ قَدْ
 قَلَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى تَدْبِيرَهُمْ. وَكَانَ يَلْتَزِمُ بَانَ يَسْتَمِعُ شِكَايَاتِهِمْ وَيُصَلِّحُ مَنَازِعَاتِهِمْ وَيَسُدُّ
 أَعْوَابَهُمْ كُلَّهَا. وَمَعَ ذَلِكَ حِينَمَا كَانَ يَرْجُو أَنْ يَسْتَمَعَ اثْنِيَةَ النَّاسِ وَمَحَامِدَهُمْ. عَرَضَ
 لَهُ أَنْ يَسْتَمَعَ مِنْ كَانِ يَرَى غَنَاءً وَهُوَ آتٍ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ رِعَايَتِهَا يَوْمَهُ

ويقول له أنه عديم العقل وناقص الرأي لا يثاره ان يدبر هذا المقدار من الخلق *
وماذا اقول عن حنة الصالحة امرأة هلقانا . فهذه عوضاً عن ان تُمدح بمنزلة
متورعة نشيطة اذ كانت تواظب في صلاتها على اعناب الهيكل بحجة مضطربة .
حسبت شاربة خمرًا وسكرى (اسهويل ١ : ١٤) * وماذا اقول في وشي امرأة احشويرش
الملك . فهذه ايضا بدلاً من ان يحسبها الناس عفيفة محنثة لما ابت بجرأة حيلة
من ان تتباهى بحسنها امام اناس مدعوين الى وليمة الملك . رُذلت كأنها عديمة الطاعة
وعاصية على بعلها (استير ١ : ١١) * وطوبيا الشيخ القديس فما سمع دفعات كثيرة
اصدقاءه واقاربه يعيرونه على عماء بقولهم انه اهل لذلك . لأنه كان تورط في
البحث عن الاموات طائناً الطرق والساحات في الليالي ليخدمهم ويجهلهم الى المقابر
(طوبيا ٢ : ١٦) * فهذا هو الاجر الجزيل الذي ينبغي لكم ايضا ان ترتاحوا اليه كل
في مرتبته ومهنته . اعني ان تحتلوا صابرين الازدراء والعار لاجل الفضيلة والاعمال
الصالحة * نعم هذه سعادتم وهذا حسبكم * اما قرأتم ما كتبه بطرس رئيس السليحين
في رسالته الاولى حيث يقول « ان عيرتم باسم المسيح . فطوبى لكم » (١ بطرس ٤ : ١٤) *
فهذه هي السعادة الحقيقية ان كان المسيح ربنا ما اراد ان يغشنا بفيه القدوس لما
قال في بشارة متى « طوبى لكم اذا عيروكم » (متى ٥ : ١١) . وكرر كلامه قائلاً ايضا
في بشارة لوقا « طوبى لكم اذا ابغضكم الناس » (لوقا ٦ : ٢٢) . وبالتالي اقول ان
كان هذه السعادة ليست في حقيقة . فلا ينبغي اذا ان نصدق شيئاً اصلاً من
عتيق ايماننا المستقيم . لان جميعها علمناها معلم واحد ذو صدق غير مكذب وهو
يسوع الاله *

ولكن ما خلا هذا كله ناشدتم الله تعالى ايها السامعون ان تقولوا لي : الى
كم من الزمان تبثون في هذه الشدائد . لماذا لا تذكرون انه سوف ياتي يوم
ينقلب هؤلاء المعثرون الآن لكم كأنكم سخيون فيمدحون فضيلتكم وثباتكم فيها . وهذا
القديس هيرونس بعزيكم في رسالته الاولى الى هليودورس قائلاً « انه سياتي ذلك

اليوم الذي فيه يلبس هذا الفاسد عدم الفساد والماتت عدم الميتوتة . وفي ذلك اليوم ما اعظم ما يكون فرحكم حينما تظهرون تجاه العالم كله المجتمع الى الدينونة الاخيرة « وتقومون بدالة جزيلة قبالة وجوه الذين احزنوكم » (حكمة ٥: ١) وهزأون من دون خوف بهؤلاء الاشقياء الذين عيروكم وهزأوا ههنا بكم * ولعمري انني عندما افكر بفرحكم هذا . فانما اشبهكم بنوح الصديق اذ كان جالسا في السفينة . فاسمعوا واحكموا عادلا * فاقول : انه من المعلوم ان هذا البار لم يوجد في العالم انسان غير لاجل صلاحه وفضيلته مثله . لانه كان عائشا في وسط امة كافرة دنسة عاصية مرخية العنان لجميع شهواتها السجدة . ومن حيث انه كان يتلألا دون كل احد بكل نوع من النقي . فافتكرواكم كان يحقرو ويرذل * وهذا هو راي القديس يوحنا الذهبي فمه ايضا . لانه قال في مقاله الثالثة والعشرين في سفر التكوين « انه من الشبيه بالحق ان نوحا كان الناس يعيرونه وهزأون به لانه كان مخالفا خصالم السيئة بسيرته الفاضلة المقدسة » * الا ان اعظم السخرية به قد كانت لما كره البارئ تعالى الجنس البشري وعزم على عدمهم . وامره ان يصنع السفينة شبه بيت منتقل لينجو من الخراب العام . ففي ذلك الحين تقاطر عليه معيروه واتخذوا لهم حجة اقوى ليهزأوا به فرحين مسرورين * غير انه يمكن ان يكون قد ادخل في قلوب بعضهم خوفا الى زمن يسير اذ ابان لهم في المرة الاولى حكم الله المرهوب وانذرهم بالخراب التام القريب اقباله على البشر * لكن لما ابصروا فيما بعد انه قد جازت سنة وستان وثلاث سنين . بل كادت مائة سنة تمضي ولم يات الطوفان العرمم الذي كان يتوعدهم به ولم يكف نوح ايضا من علمه المتعب في صنع السفينة . فلا ريب انهم وقتئذ كانوا يتواردون احزابا احزابا نحو تلك السفينة ليسيخروا به هازئين وقائلين له : نعا نعا يا شيخا خرفا . يا نيا كاذبا . اين كلامك الذي كنت تتوعدنا به وتخيفنا * ثم لما شاهدوه فيما بعد قد اكل السفينة ودخلها ايضا والسماء مصحبة مع سرب جزيل من الحيوانات والوحوش التي قد اتت اليه اثنين اثنين بزفاف

شبهي المنظر. فليت شعري كم ازداد ضحككم وتوافرت سخرتهم به. وشرع كل منكم يقول لصاحبه: انظروا ما اقل عقل الشيوخ الذين عراجم الهرم. هذا مصاب وخرفان. لانه قد كان يستطيع ان يتمتع ببقية حياته في هذه الفلاة المتسعة ويستنشق هذا الهواء الطلق. وها هوذا يريد ان يسجن نفسه في سجن ضيق ويقضي اجله في ليل مقتم مدلهم * ما هذا الجنون. العلة ضجر من حياته واراد ان يبني له قبراً بيديه. ولم ينتظر متانياً ان يقبر فيه ميتاً. بل يريد ان يقبر نفسه فيه حياً * فما هي اللذة التي يلتذ بها في هذا القبر من معاشره الذئاب والنمورة والخنازير والثعالب. وكم يحتاج من القيود والسلاسل ليغفل كل هذا المقدار من الوحوش الضارية ان تثب عليه وتفرسه * ما اخف رايه لكونه يخاف المياه ان تفرقه. ولا يخشى الاسود ان تمزقه والضباع ان تخنقه * انه على هذا المنوال كانوا يتفوهون ساخرين بنوح اذ ابصروه او علموا انه دخل السفينة. لان نفوسهم كانت بعد متشاخنة وقلوبهم مظلمة * ولكن بعد ان انقضت سبعة ايام وانجرت ميازيب السماء. وابتدأت الأمطار ان تهطل. وتنبلي الودية. وتهدر الانهار. وتجري السواقي. وتفيض البحار. وتغرق الحقول من كل جهة. وتغطي المياه الارض. وتعاين التلال والجبال تجري من اعاليها امواه لم ترها قط. فحينئذ ما اعجب ما ظهر من تغيير الحال. انه وقتئذ اضحت سفينة البار تسير طائفة على البحار متصرة ظافرة. لا بمنزلة سجن مقتم يستوجب ان يضحك منه ويهزأ به. لكن بمنزلة هودج العز والشرف * وفيما كانت الغيوم تبرق والسماء ترعد. والرياح تبوق للحرب والقتال. ويزداد هلع الهاربين. وبعضهم نواح الغارقين. وتوافر ولولة المنازعين. كانت السفينة وحدها مستعلية على المياه سالمة من الخوف العام وناجية من الخراب التام * اني لعالم يا ايها السامعون ان نوح من حيث انه كان باراً صديقاً لا بد من انه وهو داخل الفلك شق عليه خراب المنافقين. وحزن على هلاكهم ولم يسر به ضاحكاً وشامتاً. ولاجل بره هذا لم يستج لنفسه ان يشرف من كوة السفينة ليعاين الذين كانوا يهزأون به ويشتم بهم من

هناك . أما بالكلام أو اقل ما يكون بالنظر * غير أني أريد أن استعلي قليلاً نيابة عنه
 وأبسط ناظري كأنه من مكان شاخ . وانقرس في ذلك المقدار العظيم من الغرقى
 النائحين وأصرخ عوضاً عنه شامتاً وقائلاً : ايبن انتم يا أيها الأبطال الصناديد
 المتجبرين . الذين لذكركم الاستهزاء بسلامة قلب رجل وديع عفيف . انهضوا الآن وارفعوا
 رؤوسكم قليلاً من المياه التي تغرقكم . وتفرسوا لعلمكم تعلمون ما هي تلك السفينة التي
 نتخط طافية منتصرة فوق رؤوسكم غير خائفة من الغرق ولا تبالى بالموت * ايبن
 هي الآن ابنتكم الفاخرة وقصوركم الشاحخة وابراجكم المشيدة ذات العز والفخر .
 اشهروها على هذه السفينة لئرى كيف يمكن أن ينجو نوح سالمًا ما بين أربعة حيطان
 من خشب سريع الفساد . وانتم تبيدون محصورين داخل اسوار ابراجكم القوية *
 ألا تفتنون الآن بما بدأ منكم من القذف في شأنه : قد كنتم سابقاً تسخرون به لأنه
 كان يرذل بقلب وديع افتخاركم ويمقت خصالكم ويحسب انها كانتكم الاسرافية السجدة .
 وكنتم تتصاحكون عليه بمقام مجنون اخبل . كأنه كان يرغب أن يدفن نفسه حياً
 داخل سجن ضيق من خشب يطفو على المياه * فانهضوا الآن في هذا الوقت
 واضحكوا منه ان استطعتم . وان شئتم فاردلوه وازروا به . ان قد ادرككم الغرق
 وصار الموت بازائكم * فيا لكم من جهالة منافقين . ترى ما امر شقاءكم يا أيها الساخرون
 بالأبرار . ها هوذا اعضاءكم طافية على المياه متهرئة منتنة . وقد اضحت غنيمة للامواج
 المتصافقة بعضها ببعض وهي تلطمكم وتحذفكم تارة الى هنا وتارة الى هنا آيسين من
 الحظوى بساحل مقفر لترتقوا اليه ويسكن هلعكم قليلاً * ان نوح هو وحده سالم
 خال من الاهتمام بان يجد لنفسه ملجأ اميناً في هذه الاضطرابات والعواصف العامة .
 لأنه حاو ملاذة معه . وحيثما اتجه فانه ينقل معه طائفة واماناً * وكما انتم مضطرون
 ان تنحدروا الى اسفل . فهو قد نال ان ينهض الى العلاء بلا خوف * ولكن ما بالي
 تركت نفسي ان تسهوا في انجذاب لذيذ : لعمرى ان كل ما تفوهت به وقلته الى
 الآن هو توبيخ محق ويحسب عين الصواب : غير انه باطل لا طائل تحته . لأنه

متجه نحو ام لم يعد لها آذان لتسمع . ولا زمان لتستفيد منه . فالاولى بنا ان نتكلم
بالدالة فيما بيننا ونقول هكذا : اما ترون هذا كلة آية عظيمة رائعة تجعل الانسان
ان يرغب حظ نوح المحقر . ويمت حظ الائمة المزرين به * فعلى هذا النسق
يكون حظكم ايضا ان تبتم صابرين على سخرية الناس الجهلة غير مكثرين بها *
نعم انهم يسخرون بكم الآن لانكم لا تريدون ان تشاركهم في خرافاتهم وابطالهم
وآثامهم . ولا يكفون من ان يهزأوا بكم ويلدغوكم . ويظنون انكم ناظرون الموت
باديا ازاء اعينكم وخائفون منه بدلا من ان يلدكم استنشاق الهواء . او انكم ترغبون
ان تذهبوا من تلقاء نفوسكم وتنجسوا في دير ضيق وتقصوا اجلكم فيه . او تبغون ان
تلبثوا في ايام الاعياد مخنلين في المعابد افضل من ان تحبوا ان تطوفوا الشوارع
او المروج مقننين آثار شهواتهم الهاشجة * ولكن يا ما اقصر زمان هزؤهم وازراءهم
بكم اذا ما حل الطوفان الاخير العرمم . ذاك الطوفان المتكون من نار لا من ماء .
وشاهدوا انفسهم يهلكون ويبعدون من غير ان يعطوا مكانا يلتجئون اليه * فحينئذ
يشتمون ان يحظوا ولو بمقدار قدم في سفينتكم التي سميت حسنا في سفر الحكمة
« آله خشب حقيرة » (حكمة ١٠ : ٤) ولا يعطون ذلك * لكن افرحوا وتهللاوا . لان
النصيب سوف يتغير والحال يتبدل : سنروهم ينحدرون الى اسفل . وانتم « تقومون
بدالة جزيلة قبالة وجه الذين احزنونكم » (حكمة ٥ : ١) . بل تستطيعون حتى من
السماء ان تروا بهم ضاحكين لسخريتهم السابقة بكم . وتستهزئوا بهم فرحين لاستهزائهم
بكم * ليت شعري اما هذه التاملات الحسنة اللطيفة كافية لتجملكم الآن ان تردوا نبح
اولئك الكلاب الذين لم ان ينجوا ويصجوا لا ان يسيئوا ويقتلوا * فهات نتركهم ان
ينجوا الآن ما شاءوا . دعوهم ان ينفوا بكم ويدمدوا عليكم . لانه لا بد من ان نلتقي في
ذلك اليوم المخوف الذي فيه سوف ياخذون المجازاة على نجهم الكلي وجناياتهم
الشيطانية *

فيا له من يوم مرغوب . يا له من يوم محبوب . متى تاتي وتظهر عيانا هذه

الحقائق الجليلة التي انما انا قد صورتها الآن تصويراً * فيا معشر المسيحيين احبائي .
 انهضوا رؤوسكم وابتهجوا . فالعمر قصيره فان اضطررنا ان نكون الى زمن يسير هدفاً
 لبعض الالسن السفية القاذفة التي ترشقنا بنبلها المسمومة . فلا ينبغي ان نعبأ بذلك
 ولا نحزن منه . فان المجد يتوافر عينا بأضعاف اكثر . لان الملائكة يفرحون بنا .
 ورؤساء الملائكة يسرون لحظنا مجدين * فلماذا نبالي بما نقوله احتقاراً لنا وقذفاً
 فينا اناس مردولون اندال * فمن هم هؤلاء . وما هي قيمتهم في عالم ذوي الحكمة
 والبصيرة الحقيقية * اسمعوا ما يقوله الله تعالى عنهم على لسان اشعيا النبي « لا تخافوا
 من تعبير الناس . ولا تخشوا تجاديفهم . فانه مثل اللباس كذلك ياكلهم الدود .
 ومثل الصوف هكذا ياكلهم السوس . وخلاصي يكون الى الابد » (اشعيا ٥١ : ٧) *
 وهنياً لكم اذا حفظتم في ذكركم دائماً هذا القضاء الالهي العظيم . وما هم الناس ولو
 كانوا من حكام الارض واربابها . اليس هم جميعاً مائتين مجبولين من تراب . وهم عما
 قليل سيصيرون رماداً ورمياً * افيلق بكم في حين حدوث التجربة ان تفضلوا
 خواطرهم على خاطر الله تعالى نفسه : فيا لوفور خجلكم . ويا لتفاقم عاركم وعيبكم اذا
 عراكم هذا الجنون * افتكروا قليلاً ايها السامعون كم يوجد فيكم من الذين قد انعطفوا
 بسهولة نحو الصلاح . مثلاً الى مواظبة سر التوبة وتناول القربان المقدس . والصوم .
 والتشف . وقرآنة الكتب الروحية . ومصالحمة المفترين عليهم . والسعي بقيام العبادات .
 والاخويات المقدسة . ومع ذلك ترونهم يعرضون عن اداء هذه الصالحات كلها
 لسبب واحد فقط . اي خوفاً من بعض الالسن المرهفة التي بعد زمن يسير تبلى
 وتهتري * ثم افتكروا في عكس ذلك . وانظروا كم يوجد من الذين لخوفهم من هذه
 الالسن الغاشة يتصلون احياناً الى ارتكاب عدة خطايا لولا خوفهم لتجنبوها * ومن
 امثلة ذلك انه اذا اتاهم واحد من اقرانهم وقال لواحد منهم : ما هذه المواظبة
 المتكاثرة على استماع الوعظ . هلم بنا نلعب قليلاً . اين الورق . امض واتنا به . فعند
 ذلك هذا المسكين الذي كان قاصداً استماع كلام الله تعالى لسبب استحيائه منه

يطاوعه ويتضي مراده * وان دعاه الى المسامرة. فيجيبه لوقته: امض بنا وان كلفه
الى الملاهي الباطلة او الى محل المسكرات او محافل الرقص. حتى ان دعاه الى
المخادع التي يهجن ذكرها كالمخارات والحوائب المرتاب فيها والمواخير الزنايئة.
فهو خرفاً من حديث قرينه او خوفاً ان مجرد عليه او يضحك به. يدعه ان يستاقه
الى فم جهنم. وذلك من حيث انه جبان فلا يجترئ ان يجيبه قائلاً: اذهب
عني نائياً. لاني لا اريد ان اشاركك في ذلك * اما يا ايها المسيحيون ثم اما عليكم. اما
هذا جنون خبيث اعني مداراة خاطر انسان مثلكم والخوف من لسانه وهو سبيلي
ويبتن تحت الثرى * حكى بلوطرخس في كتابه الذي الفه في الحياء المذموم ان
بعض الناس دُعوا الى عشاء في احد البيوت. وكانوا يخشون ان يوجد هناك
فخاخ مدموسة عليهم. ومع ذلك ذهبوا اليها لهذا السبب فقط اي خوفاً من
ان يقال عنهم انهم لا ادب لهم * وذكر ايضا المورخ المذكور انه بهذا النوع من الخيانة
قتل ديونوسيوس. قتل كالفوس. وانططرس قتل ديمطريوس. وشاب غير
يقال له هرقل قتل بلبرسوس * وانتم افلستم تتورطون في غباوة اردأ من هذه
جداً. اذ تعلمون ان خليلكم الذي يدعوك الى ذاك المنزل يريد ان يسلمك هناك
بيد ابليس عدوكم. فمع ذلك فتسيرون معه لهذا السبب لا غير. اي خوفاً من
ان يثلبكم بانكم اناس شرسون لا تعرفون شروط المودة * فيا للعجب من غباوتكم
هذه. لماذا لا تقاومونه وقتئذ. ولماذا لا تمنعونه. ولماذا لا تقتدون بحجم غفير من
الانام الاقبياء الذين صاروا لكم اسوة حسنة في السلوك بالحريية * حكى بلوطرخس
ايضاً في كتابه المقدم ذكره ان سينوفانس الوثني لما سمع شاباً شريف الجنس يطعن
فيه ثالبا اياه ويلقبه بالجبان والخائف لانه كان يابي اللعب بالفار. اجابه ذاك
بجراة قائلاً: نعم اني اقر لك معترفاً بانني في الاشياء المذمومة التي لا تليق جبان
هلوع * فان كان هذا الوثني اجاب هكذا. فهل يسوغ لكم انتم المسيحيين ان لا
تجتروا على ان لا تجاوبوا بمثل هذا الجواب الحميد في الاشياء التي ربما تكون سمية

ودنسة ومرذولة * فتشجعوا اذا واعترفوا جهراً بلا حياة قائلين مع النبي « اوفي ندوري للرب امام كل شعبه » (مزامير ١١٥ : ١٤) * لماذا هذا المقدار من المداجاة . لماذا هذا المقدار من المحابة والجبانة . ترتموا ايضاً مع النبي قائلين « في وسط الجماعة اسجك » (مزامير ٢١ : ٢٣) « وفي وسط كثيرين اسجك » (مزامير ١٠٨ : ٢٠) . واظهروا للجميع من دون موالسة وخداع انكم راغبون ان تمسكوا في العالم بالسنة المقدسة التي تومنون بها * فيا لزيادة سعادتكم اذا رجعتم اليوم الى منازلكم بهذه الشجاعة والجمارة المقدسة * لعمرى انكم لو تسربلتم بهذه الشجاعة جميعاً . اذن لراينا كثيرات من النساء يبنذن عنهن مقداراً عظيماً من الافتخار في الملابس والزينة . لانهن يعلمن اذ هن مسيحات مستنيرات حسناً بنور الايمان الحقيقي علماً اكدًا عظم الخطر الذي يطرحن نفوسهن به باستعمالهن هذه الملابس والزينات التي بها تنمو الكبرياء وتكون ايضاً الة لضرر القريب . وهن مع علمهن هذا لا يستصوبن ان يقللن هذه البهجة وان يظهن بحال ادنى مقاماً من اترابهن . ولراينا ايضاً شباباً كثيرين يضحون عباداً وانقياء اوفرماً سلف . وشرفاء كثيرين يبتدئون ان يخلوا اخنلاء اعظم في نفوسهم * هذه هي تلك الجمسارة والجمارة المحمودة التي كان بولس الرسول يفتخر بها صواباً وعدلاً اذ قال « لست استحي من الانجيل » (رومية ١ : ١٦) * وهذه ايضاً ارغبها انا ان توجد فيكم ان لا تستحيوا من ان تصلوا او تحضروا القداس الالهى جاثين بورع وخشوع على الركبتين معاً . لان الصلوة على هذا النوع جيدة جداً ومحمودة عند الله تعالى ومقبولة لديه في الغاية . ولولا ذلك لما كان ارتضى عز اسمه بان يدون في الكتاب المقدس بالناظ بينة واضحة عن صلوة سليمان الحكيم في الهيكل انها هكذا كانت وذلك بقوله « وهو كان جاثياً على ركبتيه » (ملوك ١ : ٥٤) * ولا تستحيوا من ان تحضروا الصلوات المسائية الفرضية في الاعياد بالاحشام الواجب . وتلبثوا صامتين ولو وجد الآخرون منكبين . وتصلوا خاشعين ولو كان غيركم يتبسمون ضاحكين * قولوا لله بجمارة « الهى عليك توكلت . فلا اخزى » (مزامير ٢٤ : ٢) * من اى شىء استحي يا

الهي اللطيف . فانا عليك توكلت . ايستمزي في الآخرون . أويحنفروني . أويغيروني .
فحسي ان ارضيك انت واسرك « هم يلعنون . وانت تبارك » (مزامير ١٠٨ : ٢٨) *
ما احسن التعزية التي علمناها داود الملك بهذا الكلام الوجيز اي بقوله « هم يلعنون .
وانت تبارك » * اولئك يقولون بانني انسان حقير صعلوك « وانت تبارك » . هم
يقولون بانني عديم الذوق لا ظرافة لي . « وانت تبارك » * هم يتولون بانني عديم
الالفة والمعاشرة ولا اعلم واجباتها . « وانت تبارك » * يقولون انني اهوى ان اصنع
ما ليس من شاني « وانت تبارك » * « هم يلعنون وانت تبارك » * هكذا ينبغي لكم
يا معشر المسيحيين ان تشجعوا في نفوسكم على فعل الخير . وتعتمدوا على ان تقولوا
دائماً مقال القديس مار فرنسيس الصادق « انه لا يسرني ان تحمدي الناس ويحنفروني
الله » . وبالعكس ذلك لا يعني ان تحنقروني الناس ويحمدي الله *

القسم الثاني

اننا بتعليمنا السابق شجعنا الصالحين على ان يحنقروا قذف الاشرار وسخرتهم
بما اوردناه عن شجاعة المرأة الكنعانية حيث احنقت احاديث قومها عند ما اقبلت
علانية الى المخلص اذ كان جائراً في الطريق * والآن استطيع ان امسك
نفسي عن ان التفت الى هؤلاء الاشرار انفسهم منقاداً بالغيرة الواجبة . ووضح لهم
قيح انهم وعظم الخطر المهلك الذي هم فيه حيث انهم ينهضون تعدياً وثقصداً الى
مقاومة صلاح غيرهم والاستهزاء به * ومن ذا يصدق يا ايها السامعون المكرمون
ان اعظم الموانع التي تصد المسيحي عن السلوك في سبيل الصلاح والفضيلة انما تناتي
له من المسيحيين انفسهم * لعمرى الله ان كان لا يحسن بالانسان ان يكون صالحاً
عياناً جهاراً مجرباً قوية من غير حياء في وسط الملة المسيحية . فينبغي ان تفني
النضائل سريعاً وتزول كلها من العالم واحدة فواحدة . لانه لا يبقى مسكن تسكنه *
وقد عرف ذلك وفهمه جيداً ذاك القديس المعظم الذي اوردنا ذكره مراراً كثيرة

اعني سليمانس . فكان تارة يرثي لشقاء هؤلاء الاشرار . وتارة يؤنبهم لسوء اثمهم قائلاً
« أنه اذا اراد احد ان يستسير سيرة اوفر طهارة واعظم نقي . فللوقت تدوسونه
وتحنفرونه ايها الاشرار السفهوا اللسان . فيضطر الجميع ان يكونوا اشراراً لئلاً
يعتدوا حقيرين مرتولين في الدنيا * وهذا هو الذي تبتغونه انتم ايها الاردياء كما
قلت في ابتداء خطبتي . اي ان يكون كل الناس اشراراً مثلكم . كأنكم ترجون بهذا
النوع ان تستروا يوم الحشر ما بين الخلق . كما كان يامل ذاك المنافق الخبيث
المنوه عنه في سفر ابن سيراخ قائلاً « في جماعة كثيرة لا أعد » (سيراخ ١٦ : ١٧) *
ولكن هبوا انكم تنالون ما تبتغونه . الا اني قبل ذلك اسألكم قائلاً : انتم انتم تضطهدون
ذاك البار تارة بالهجو . وتارة بالتهات . وطوراً بالهزؤ والسخرية طالبين ان يفر
اخيراً عن صلاحه . اما هذا كله صحيحاً * فليكن الامر حسب مطلوبكم . ولترجع
تلك الفتاة عن انفرادها واحشاشها على حبكم . ولينبذ ذاك الشاب عاداته الدينية
حياً منكم . وليذهبها معكم الى محل اللهو واللعب ويتعلم التغزل والمحبة السيئة .
ويلصباكم الى التنزهات في البساقين والمروج المخضلة ليلتقطا زهرة الملذات . ويلقيا
زرع الاثم بلا خوف ومن غير حياء * فاجيبوني ما الذي ترجونه من ذلك : لعلمكم
ترعمون انكم بذلك ترجون ربماً عظيماً . وانا اقول لكم : لقد خسرتم خسارة جسيمة لا
شبيه لها ولا مثيل * احسبوا معي ان ذنوبك الصافي القلب المذكورين حاداً بسببكم
عن منهج الخلاص وسلوك بطريق الهلاك . وبلغا اخيراً من ذنوبكم ان يهلكا في جهنم :
فان جرى الامر كذلك . فوا اسفاه عليكم . لانكم لا محالة قد صرتم انتم
ايضاً من الهالكين * وهذه النتيجة لا مناص منها يا ايها المسيحيون . اي انكم تصيرون
من الهالكين ايضاً وتخسرون نفوسكم في العذابات المجهنمية الى الابد * انني اسالكم
برحمة ربنا يسوع المسيح ان تاذنوا لي بان ابث كل ما في ضميري في آخر خطبتي
هذه امامكم بطلاقة مقرونة بالاحترام الواجب لامثالكم بما انتم ساداتي المكرمون .
واظهر لكم لفائدكم فكراً مرعباً مغروراً في قلبي كالشوكة * يا معشر السامعين

المحترمين انني اقرُّ لديكم بانني لفرط الرعب استشعر برعدة في جسعي من الراس الى القدم . عند ما اتأمل كيف يستطيع ان يرقد مستريحاً بامانٍ ذاك الذي يعتبر به شكٌ ويطرح عندئذ بانته صار بانه سبباً لهلاك نفس من النفوس في جهنم * لانه ان كان قد اهلك نفساً واحدة فقط . ترى كم من النخل وكم من الخرف والرجل يجب ان يعتبره : ليت شعري ما اكثر الصراخ الذي تصرخه تلك النفس الشقية من تلك الهاوية المرعبة . وما اعظم الضجيج . وما امر العويل والويله التي تبدو منها من وسط ذاك العذاب الذي لا يحتمل * وهل لها ان تقتر يوماً من ان تصيح وتطلب النعمة لذي صار لها في مدة حياتها اعظم آله في هلاكها : كلاً . بل بعكس ذلك تبكي نائحةً وتولول صارخة ليلاً ونهاراً امام العرش الالهي . وتسال دماً وموتاً وهلاكاً لذي سبب لها كل الشر * ويشهد روح القدس ان عظام الشهداء الابرار الذين قتلهم بالجسد الظلمة النجار تصرخ من اجداثها المندسة امام المنبر الالهي طالبة لقاتلها النعمة . وكم من مرة نسمع ذلك على لسان داود النبي قائلاً « ليعرف عند الامم قدام اعيننا انتقام دماء عبيدك المهرقة . ليدخل قدامك تهنيد الماسور » (مزمير ٧١ : ١٠) * والحال ان قتلهم وان كان قد جرى بعذاب والم . الا انه قد صار علّة لسعادتهم الابدية . بحيث ان عدلنا عن ان اولئك الظلمة اغاظوا الله تعالى . نرى ان الشهداء يجب ان يؤدوا الشكر لسيوفهم اكثر مما يجب عليهم ذلك لامهاتهم الراومات اللواتي ارضعنهم * فاذا نقول عن اولئك المساكين الذين قتلناهم نحن وامتناهم . لا موتاً زمنياً بالجسد . بل موتاً ابدياً بالنفس . وصرنا سبباً لعذاباتهم الجهنمية الدهرية : فهل تظنون انه يمكن ان تمر عليهم ساعة واحدة من الزمان لا يصرخون فيها من جهنم الى الله تعالى قائلين « انتقم » يا رب « انتقم » لعربي ان ذاك الشاب الذي هلك بسببنا يصرخ قائلاً « انتقم انتم » . لانني كنت معناداً على ان الازم بالخشوع والورع سر الاعتراف احياناً كثيرة في مدار السنة . وفلان صدني عن ذلك بهزوه وسخريته علي . فصار لي سبباً

لاموت في الخطأ المميت. «انتقم» منه اللهم «انتقم» * ومثله تصرخ تلك الفتاة الهاالدة الشقية: «انتقم» يا رب «انتقم» لأنني كنت معتادة ان الازم عباداتي وصلواتي منفردة عن العشره الدنيوية. وفلانة اللعينة صيرتني بدمدماتها ووسوساتها ان افتر من تورعي. واضحت لي قدوة لانعطف نحو الاباطيل كسائر النسوة. «انتقم» منها يا الله «انتقم» * وكذلك يصرخ ذاك الرجل الشقي: «انتقم» يا ايها الديان العادل «انتقم» لأنني كنت راجباً منذ حدثني في السيرة الرهبانية حسبما كنت تدعوني باطناً. فصدني فلان باعتراضاته لي. ومن جرى ذلك فقد صار لي سبباً لاجيد عن الطريق المؤدي الى الملكوت * وان كان هؤلاء المساكين يصرخون هكذا علينا ليلاً ونهاراً. فليت شعري ما الذي يجب علينا ان نعمله لنسد افواههم: العلم مثل الكلاب يصمتون بلبقة خبز. ام هل يطربون بصوت الآلة الشجية: حاشا وكلاً * لعمرى انكم لا تستطيعون ان ترضوهم وتسكتوهم بهدية من الهدايا البتة. لان روح القدس قد قال «ان الغيرة هي غضب الرجل. فلا يغفر في يوم الانتقام. ولا يقبل الهدايا الكثيرة عن الفداء» (امثال ٦: ٢٤) * وليس انهم لا يريدون فقط ان يقبلوا هدية او خيراً. بل لا يمكنهم اقتباله اصلاً. لانهم هناك من كل حركات النفس لا يقدررون الا على البغض والحقد. ولا يرتضون بشيء الا بالانتقام من الذي اساء اليهم * فهل نصدق انهم يصمتون في زمن ما عن طلب الانتقام قبل ان يشاهدوا ذاك الذي كان سبباً لهلاكهم قد صار مشاركاً لهم في العذاب. ام لعل الله تعالى اصم لا يسمع هذه الصراخات وهذه الولولات: حاشاه من ذلك ثم حاشاه * فكيف يستطيع ان يعطينا الملكوت بعد ان اضحى ذاك المسكين يتعذب بسببنا في جهنم * الا يقتضي عدله الالهي ان يجازينا ناراً بدل نار. وقصاصاً عوض قصاص. وهلاكاً عن هلاك * قال الله تعالى «من يشمت ببلية غيره. لا يترك» (امثال ١٧: ٥). وهذا هو قاعدة من قواعد الدين * فان كان من يفرح ويشمت فقط بهلاك نفس يستحق القصاص والعذاب. لانه قال جل ذكره لا يترك. فليت شعري. ماذا يجل

بمن سببته لها * اه * والسفاه . حقا انني اشعر في نفسي بانني منعم خوفاً وارتياحاً عظيماً
 عندما اتذكر هذا الامر . فلا يمكنني ان اصدق ان من يحسن التأمل في ذلك يقدر
 ايضاً ان يصرف أيامه بالفرح ولياليه بالراحة من غير ان يستبين له أنه يرى تلك
 النفس التي هلكت بادية امام عينيه على الدوام حتى في الحلم كشح مرهف مرعب .
 متسرلة ناراً وملحفة دخاناً ومفعمة سماً تضرب جانبيه بسياط من حيات * فيا معشر
 السامعين الاحياء ان كنا نفهم هذا كله وندركه . فكيف نرتضي مع ذلك ان نطوح
 نفوسنا في هذا الخطر * ناشدتم الله ايها الاعزاء ان تقبلوا ولو مرة واحدة شور
 عبدكم هذا المتكلم معكم . لانه وان كان عبداً بطالاً . الا انه يودكم . وهو لكم صديق
 امين لا يطلب منكم شيئاً سوى خيركم الابدى * فاسمعوا مشورته وافعلوا هذه المرة
 هواء : في هذه الليلة حينما تحصون ضامركم قبل الرقاد كما اظن فيكم انكم تفعلون
 هكذا كل ليلة . افكروا قليلاً . وافحصوا ذممتكم . واسألوا نفوسكم برزانة وهدوء
 قائلين في انفسكم : اترى يحزنني صلاح احد . هل ابغضت احداً لاجل انه نقي مستقيم .
 العلي اضطهدت احداً لانه محشم اديب . هل تدمرت على احد لانه طاهر عفيف
 يبغض عشرة اهل الدنيا * واذا رايتم انفسكم بريئة من هذا الاثم . فاحمدوا ربكم
 واشكروه * ولكن ان كنتم لسوء حظكم تجدون انفسكم قد اذنبتم اليه . فافزعوا
 خائفين . وارتعبوا ان يكون لكم في جهنم علو يصح ويطلب لكم انتقاماً وموتاً وهلاكاً
 كمثل موته وهلاكه . اجاركم الله تعالى من ذلك * آمين *

الخطبة التاسعة

تضمن بيان شدة عذابات الانفس المعتقلة في سجن المطهر وذلك لكي يتحرك
المسيحيون الاحياء الى الحنو والشفقة عليها وانقاذها منه *

« يا ربِّ ليس لي انسان » (كذا حرر مار يوحنا في الاصحاح

٥ : ١ من بشارته) *

القسم الاول

انني ارى انه ما من احد من الناس الذين تخبر عنهم التواريخ العتيقة او
الحديثة قاسى نكبات وامراضاً معضلة اكثر واضحى اقل حظاً من الخلع السقيم
المورد ذكره في الفصل الانجيلي الذي نلي عليكم صباحاً . فاصغوا لقولي لتتحققوا
ذلك * كان هذا المسكين منذ ثمان وثلاثين سنة مطروحاً عند بركة الضان
صملياً من الاسقام ومضنوگاً بالاجوع . ولاجل ذلك اي لاجل كثرة هذه السنين
التي جازت عليه . اضحى معروفاً عند جميع الذين كانوا ياتون الى البركة اما لاجل
الشفاء او لاجل اللهو * ومن استطالة المرض جسمه كان قد شُحِب . وعيناه غارتا .
ولحمه جف . حتى صار كأنه جثة مائة . وثيابه تمزقت وجسمه كله اتن * وما عدا
ما ذكرناه فمن المحتمل انه كان ايضاً بزفراته المحزنة وتنهداته الخشوعية يحرك الضحور
على الشفقة عليه . ومع ذلك فلم يحظ بانسان يرحمه ويسعى بشفائه في هذه المدة
المديدة من السنين * ومع ذلك فشفائه لم يكن يقتضي نفقة ولا قوة ولا تعباً اصلاً
سوى ان يرحمه انسان ومجاءه ويلقيه في البركة في زمن اول الفرصة * افلم تكن
شدته اغرب الشدائد كلها . لانه لو كان يلزم لمداواته من اسقامه ان ينفق احد
الناس مبلغاً وافراً من الثروة لاجل اجرة اطباء وعن ثمن الادوية . او لو كان

يضطرُّ ان يطوف الجبال ويلتقط اخمص الحشائش وافخرها ليستطرها له امواتها .
او لو كان بجناح ان يغوص البحار ليستخرج اغرب اللآلئ لیسحتها له ذروراً . لما كان
احد يتعجب من أنه بقي هكذا متروكاً طول هذه المدة * ولكن لما كان شفاؤه لا
يفتقر الا الى شخص واحد يسرع في اوانٍ مناسبٍ ويدفعه دفعةً واحدة ترجه في
الماء لا غير . افا يكون عند ذلك امراً غريباً عجيباً ان لا يحظى في مدة ثمان وثلاثين سنة
بصديق ودود . او بقريب عطوف او بانسان آخر شفق يصنع معه هذه الرحمة .
ولاسيما ان الملاك كان ينزل كل عام في وقت معين معروف اي في يوم عيد الخميس
كما اخرج علماء ماهرون . فكان كل احد يستطيع ان يعرف الوقت وينتظر الفرصة
الملائمة لدفعه في الماء * لعربي ان بلوى هذا السقيم المسكين المتروك كل هذا
الزمن هي اشارة الى حال الشدة العظيمة الحاصلة فيها الانفس المعتقلة في المطهر *
يا ما امر هذه البركة النارية الحاوية مرضى ومسقومين ومعتلين ومضنوكين من كل
صنف * ولا تظنوا أنه يوجد هناك انفس تتعذب منذ ثمان وثلاثين سنة فقط . بل
منهم من له مائة سنة . ومنهم من له مائتان . حتى يوجد من له الف سنة . بل
يوجد ايضاً من قضي عليه ان يستمرّ معذباً في تلك البركة النارية حتى يوم الدينونة
العامّة * ومع ان استنقاذهم لا يقتضي شيئاً سوى ان يمد لهم واحد يد فقط لا ليلقيهم
في الماء لكن لينتشلهم من النار . فمراراً كثيرة يعدمون هذه الرحمة اليسيرة * ولذلك
قد حرّضتني المحبة الغزيرة هذه الانفس المباركة القدسية . وحركتني عظمة الفرض
الوافر الذي انا ملتزم به هذه الانفس على ان اتوب اليوم عنهن واعرض عليكم
من قبلهن شكوى محزنة لكن بعين الصواب توضحها لكم كل نفس منهن بهذه
الكلمات الثلاث وهي « ليس لي انسان » * وان كنتم الآن تستمعوني مخاطباً اياكم في
هذا الموضوع اي في شان هذه الانفس الصالحة خلافاً للموضوعات التي قد اعتاد
سائر الواعظين ان يكرزوا بها في هذا اليوم . فاعذروني ولا تلوموني . لانني من
احدى الجهات لم اعد اطيق ان اسمع توسلات وزفرات تلك الانفس الباكية من

تناقض عذابها. ومن جهة اخرى ارجو ان اعطف قلوب كثيرين منكم لمعونة هذه
الانفس. وذلك لعلي بكم انكم ذوو تقوى وسخاء ورحمة جزيلة * ولكن وان كنت
عالمًا بانني عاجز عن ان انظم لكم في شأنهن خطابًا فصيحًا اذيدًا. لا اعدل عن
قصدى. لانه يكفيني ان اكون امينًا في رسالتي * فانه ان كان بحسب نص سليمان
الحكيم الحسن القائل « الرسول الامين للذين ارسلوه لانه يريح انفس ساداته »
(امثال ٢٥: ١٤) فاننا ايضا عند اليوم ان اريح للموتى المومنين راحة بقيامى لديكم
رسولًا امينًا عنهم *

انني اعلمكم مخبرًا ايها السامعون ان انفس اهلكم واصدقائكم حتى الاعزاء
لديكم هي حاصلة في حال يرثى لها جدًا. حتى انه لا ديمونوسيوس في سراكوسا ولا
نيرون في رومية ولا راومنتوس في فلاجيتون استطاعوا ان يمتنعوا اصنافًا من
العذاب امر من عذاباتها * ليرحمكم الله ولا يسمح ابدًا ان تبصروها حتى لا اقول ان
تخبروها بانفسكم * ولكن يجب ان تصدقوا من يخاطبكم فيها. لانه وان كان لا
يعرف ذلك العذاب بالحس. الا انه قد عرفه بالعلم * فان كنتم قادرين على ان
تبصروه من بعد فقط من غير ان ترتعبوا. فتصوروا في عقولكم سجنًا عميقًا جدًا
تحت ارجلكم. قريبًا من جهنم وبضاهيها بالعذابات لا بالاثام * ثم لنفترض ايضا انه
قد استولى هنا على الارض ظلمة من غيوم كثيفة مدلهمة. وامتلأت السماء من
بروق مخيفة. واضحت الارض تنزلزل بزلازل مربعة. وسمع من القبور اصوات نجيب
مولم. وابتدأت الجن ان تصفر صفرات مستغربة ترهب القلوب. فان هذا كله وما
يمثله انما هو شبه طفيف مما يوجد من العذاب الخيف في المطهر. لانه بالنسبة اليه
كل عذاب من عذابات هذه دنيانا هو راحة وفرج * لانه من المحقق من كلام
القديس اوغسطينس « ان النار المطهريه وحدها هي امر واشد من كل انواع
العذابات التي يمكن ان يراها الواحد او يمتنعها او تخطر في عقله في هذه الدنيا » *
فاذا نقل الى هناك كل شيء يستطيع الناس ان يستنبطوه من العذاب والتساوة

بدل تلك العذابات المطهريّة. لكانت تلك الانفس المعتقلة بها تسرع راکضة اليه لتتفرّج به * فليجدر فلاريدس الى هناك ثيرانه النحاسية المشهورة التي اخترعها لتعذيب المذنبين. فتسرع تلك الانفس متسابقة لتدخلها * ولينقل مستبور جثته المدوّدة. فنزدحم تلك الانفس وترتبط بها * وليستجر ديوقليانس عجلاته الحديدية المرهفة. فتطلب تلك الانفس متضرّعة ان تصعدھا عوضاً عن عذاباتها المطهريّة * ويا لسعادتها لو اقبل اليها ايوب مع كل قروحه الجزيلة الدّنس والنتانة. فتطير اليه نظير النحل حول الازهار لتمص منه ساحة قروحه كأنها عسل لذيذ بالنسبة الى عذاباتها * فهي تحب ان تجرع كووس السم بمنزلة البادزهر المفرّج. وتحسب ورداً شهياً ما نحن نعتبره شوگاً. والذي نحن ندعوه كبيرتاً فهو لديها بمنزلة الندى الرطب * وعلى الاجمال اقول ان العذابات والنكبات التي نحن الآن نرتعد من ذكرها. هي عند تلك الارواح اشهى جداً من العذابات المتقلبة هي فيها * واعلموا ايها الاولاد انه هناك توجد امهاتكم المحبوبات. واعلموا ايها المزوجون انه هناك توجد ايضاً نساؤكم. وانتم ايها الشبان فاعلموا انه هناك توجد اعمامكم. واعلموا انتم ايها الخللان انه هناك تتعذب اقرانكم * فكيف تطيقون ان تطول مدة عذاباتهم زماناً اكثره ولا شك في انكم ان اهانتموهم هكذا. فانكم تظهرون على انفسكم انكم غير فاهمين حقيقة عذاباتهم ولا مقدار اوجاعهم وتزيقاتهم * ولكن اذا جهلتم ذلك. فيكفي انكم عارفون ومحتقنون ان جميعهم كائنون لا في نار عنصريّة بل في نار مطهريّة * انه لا توجد نار احد واشد واحر من كور الصائغ اي النار التي بها تنقى الفضة والذهب. فعلى هذا النسق النار التي نحن في صددھا * ومن هنا قال القديس اوغسطينس في الفصل الخامس عشر من الكتاب العشرين في مدينة الله ان هذه النار هي التي يتكلم عنها ملاخيا النبي اذ يقول ان الله تعالى : « يجلس مصفياً ومنقياً للفضة. وينقي بني لاوي ويسبكم كالذهب والفضة » (ملاخيا ٢: ٢) * قال يجلس لانه من المعلوم انه لا يعذب هناك الانفس زماناً يسيراً او بالايجاز فقط.

لكن يعذبها تمهلاً الى زمن مديد * ثم قال انه يجلس صائغاً. لنفهم من ذلك
 الاعناء الذي يجلس به هناك مشتغلاً مهتماً حول تلك النار ليحفظ حدتها وقوتها
 دائماً. ومن اجل ذلك قد سمي القديس هيلاريوس هذه النار ناراً غير تعبئة.
 لأنها لا تطفأ ولا تكف من احتراد حريقها ابداً * فانتجوا من هنا ان البارئ تعالى
 جلت قدرته ينقي بها تلك الانفس كأنها في كور مخوف حتى ينزع عنها كل الدنس
 القديم وثنقي منه تماماً. كقولاه تعالى المذكور: ينقي بني لاوي ويسكبهم كالذهب
 والنضة * فيا ما اشد عذاب من يحترق في هذه النار. ويا ما امره ويا ما اوفر تأثيره.
 ومع ذلك فيقنوا وتحققوا انني لم اورد عن هذه النار الا ما هو الاقل * لأنها وان
 كانت ناراً مطهرة منقية. فلا تستنجوا من ذلك انها ليست في ذاتها احد وافر
 تعذيباً من نارنا. بل هي نار ذات قوة وفاعلية وحرارة اكثر جداً بلا قياس من
 نارنا. لأنها روح احيى كل النيران ومكورة منها * وما المراد بقولي هذا: اعلموا انني
 اريد به ان عذابات المطهر كأنها هي روح العذاب المستقطر بالامبيق من جميع
 العذابات التي يمكن ان تقاسيها ابناء البشر في هذه الدنيا * انه من المعلوم عندكم
 ان الكيمياء يربطون يتصلون الى ان يستخرجوا بصناعتهم من كل الاشياء جوهراً. ويكون
 ذاك بمنزلة مجموع كل شيء. وهذا الجوهر هو ايضاً من طبعه مؤثر وقوي وخرق
 جداً حتى انهم يلقبونهم روحاً صرفاً * فبعد ان تقرر لديكم ذلك. فاسمعوا ما قد
 تأملته في نفسي مراراً كثيرة لاجل فائدتي. وهو انه لو امكن ان يجمع احد الملائكة
 جميع الوجاع التي تجري في الناس كالوجاع الكلى وداء البطن والرئة والامعاء
 والاضراس والصداع وورم الراس وما شاكلها. ثم يضع ما جمع منها كلها في
 امبيق عجيب. ويستخرج منه روح الوجع. كم يكون هذا الروح من الألم شديد
 حاداً * وكذلك لو جمعت الحيات الحادة التي تحرق احشاء جميع المرضى ويستقطر
 منها روح الحية. فما احراً ما يكون هذا الروح روح الحيات المحرقة * ومثله لو
 امكن ان تجتمع جميع القروح الآكلة التي تحرق وتاكل لحوم جميع الموجهين

وُستخرج منها روح الأيقاد الفرحي. فليت شعري كم يكون هذا الروح أي روح القروح محرقاً قوياً * فتصوِّروا الآن بعقولكم أنه هكذا هو روح العذابات والأوجاع الفادحة التي تتعذب بها الأنفس في المطهر * فان كنتم لا تصدقوني بهذا. فاسمعوه إذا من فم أشعياء النبي القائل « يغسل الرب دنس بنات صهيون بروح العدل وبروح التوقد » (أشعياء ٤ : ٤) * يقول بروح العدل أي بأشدُّ العدل الممكن أن يستعمل. قال بروح التوقد أي بسعير لا يمكن أن يتصور أشدُّ منه وأحر * والمفهوم من ذلك أن السعير الذي في المطهر ليس كالسعير المشاع الممكن حدوثه في الدنيا. بل هو سعير مجرد ومستقطر من جميع اصناف التوقدات. وهو روح التوقد. فهو فعال قوي قادم خرقاً جداً. حتى أن قطرة واحدة منه فقط تحرق حريقاً أشدُّ من جميع النيران التي تدفقها الأرض أو تصطنعها البشر * ونحن مع هذا كله فكيف لا نتحرك ولو قليلاً بالرحمة والشفقة على تلك الأنفس المباركة. ولماذا لا نسرع في الأوقات الملائمة إلى أن نطفئ عنهم ناراً عظيمة هكذا أو على الأقل أن نخفضها قليلاً أو نخذها * فإيا لكن من أنفس خاليات من التعزية. ماذا يفيدكن الصراخ من ذلك الأجاج الناري دانتفات بشفاه جافة من السعير وقائلات : ارحمونا يا أحبائنا ارحمونا. والذين يفهمون أوجاعكن قليل ما هم في يومنا هذا * ولذلك أنا مشتاق وراغب أن أعرف كيف آيينها لأولاء. لعلي أجده من يرحمكن من جوارح قلبه. فامهاني وانظرنني فاصنع ما يهتدي إليه عقلي وينطق به لساني * ولكن ماذا أقول : انرى يمكن أن يقال في شدة عذاب المطهر أكثر مما قلته : نعم أيها المسيحيون إن تلك الأنفس تكابد كل ما مر ذكره من العقاب وهي تجاه السماء. لكونها تعابن ذلك الوطن السعيد الذي انتخبتم إليه. متأملة في ذلك النعيم اللذيذ. ومنتصورة ذلك المجد الوسيم الذي قد دُعيت إليه * ولكن آية تعزية تأتيها من ذلك وهي موجودة في سجن. وخاصةً لأن أكثرها لا تعلم كم بقي لها من الزمن لتخرج. ولذلك تزداد عذاباً وتحسراً وبكاء *

وإثباتاً لذلك أقول: هل تعلمون ماذا صنع الله مع آدم لكي تكون التوبة
 لديه بعد الخطيئة أكثر مرارة وأشدَّ صعوبةً: أنه تعالى جعله مقابل فردوس النعيم.
 ومعنى ذلك هو ما اعتبره أيضاً الذهبي في المقالة الثانية على لعازر إذ قال:
 إن الله تبارك وتعالى أراد من آدم أن يقضي توبته في مكان تجاه الفردوس الأرضي
 الذي طُرد منه. وقد وضعه هناك ليتعب ويعرق ويجرث الأرض لاجل معاشه.
 وذلك لكي يزداد حصرًا وعذاباً على خطيئته من مشاهدته جنّة النعيم المطرود
 هو منها * لكن ما اعظم الفرق الموجود بين فردوس أرضي وفردوس سماوي: ومع
 ذلك فإنّ النفس المطهّرة تتعذب مقابل الفردوس السماوي. وهناك أيّ تجاهه
 تحترق وتصرف بأسنانها وتذوب وجعاً. وهناك بحسب كلام زكرياء النبي الذي
 يصحّ عنها أيضاً تنغّل « في جبّ ليس فيه ماء » (زكرياء ٩: ١١). أي في المكان
 الذي فيه لا تفعل شيئاً سوى أن تتوق متعطشة إلى الخير الأعظم. ولا تدري ماذا
 تصنع لتروي ظمأها المحرق * نعم « أنه ليس فيه ماء ليس فيه ماء » * فيا لتفانم سعادة
 تلك النفس لو أمكنها أن تفرّ طائرة من ذلك العمق مرةً واحدة فقط فتستحيل
 تلك الهاوية المقتمة لها إلى عدن من نعيم. وتلك الزفرات والخسرات إلى انعام
 شجيرة. وتلك الأغلال الأسرية إلى تيجان الولاية. وتلك العذابات المكدرة إلى منابر
 العزّ والمجد. وتظفر متوشحة بالذهب وتتلأأ مكللة بالأشعة وتغوص فائزة متمتعة
 بخير حاوٍ جميع الخيرات لا ينتهي مع طول الزمن ولا يتغير من نقل الأيام. ولا
 يصيبه نوع من التكديرات والعوارض المحزنة * وعلى الإطلاق أقول أنّ لو
 أمكنهنّ لصعدن إلى مشاهدة الله تعالى وجهاً لوجه * فتصوّروا بعقولكم يا أيها السامعون
 باي اضطرام من الأشواق وبأية رغبة وانعطاف تتلهف هذه النفس الصالحة إلى
 هذا المجد المذكور الذي لا يُنعت * فاذا افترضنا أنّ شخصاً ما أخير ليصير قيصراً
 أي ملكاً رومياً. وحينما كان مسافراً في البحر متجهاً إلى المدينة العظيمة ليتوشح بالارجوان
 ويتكلل بالتاج ويأخذ الملك. لاقته مقابل المدينة سفن الأعاجم فاخذوه وغلّوه

بالقيود وحكموا عليه بان يتعب ويشقى في أسرٍ مرٍ ضيقٍ. أما نحسبون ان بليته هذه تضي لديه في هذه الاحوال اعظم نكدًا ومرارةً ونالها * فهكذا هو تمرير الانفس المطهرية وعذابها تجاه مجد السماء الذي يعلو على ملك رومٍ قيمةً وشرفًا من دون قياس البتة. لأنها محبوسة في سجن العذاب مقابل الملكوت الذي فيه قد أعد لها تاج الملك الشهي الذي لا يُنعت وتنتظرها الافراح والسعادات الابدية التي لا تُوصف. ومع ذلك فهي ممسوكة عنها * ليت شعري من يستطيع ان يدرك المحسرات والتنهدات التي تبعثها متلففة بها من جوارح القلب نحو هذا المجد العظيم المنوع عنها. والعبوات السخينة التي تسيلها باكيةً ونائحةً من تفاقم عذابها وتشوقها المضطرم الى امتلاك ربها مركز كل خيرها وراحتها * فمنها من تهتف قائلةً مع منسى ملك يهوذا وهو في الحبس: «قد انخبتُ بثقل القيود الحديدية فلا استطيع ان ارفع راسي» (صلاة منسى) * ومنها من تقول مع ايوب «لله قطرت عيني» (ايوب ١٦: ٢١) * ومنها من تهتف مع ارمياء «ضعفت من الدموع عيناى» (مرا ٢: ١١) * ومنها من تصرخ مع داود «عيني ذابت من الذلة» (مزامير ١٠٧: ١٠) * وعلى هذا النحو يجب عليها ان تحسّر كل نفس منهن وتذبح نادبةً بالفاظ مختلفة. وتولول لوفور عذابها حسب شهادة اشعيا النبي القائل «يصرخن لوجع قلوبهن. ولانسحاق ارواحهن يولوان» (اشعيا ٦٥: ١٤) * العليل ايشالوم كان مسجونًا في سجن حرج صعب: كلاً. بل كان ساكنًا في مدينة من اشرف المدن واهجها اي اورشليم. وكانت دولته عامرة وعبيده تحترمه وتهابه خاضعين له. ومع ذلك فلاجل انه لم يكن ماذونًا له ان يظهر امام ابيه الملك حسبما كان امر قائلاً: لا يعاين وجهي. كان حاصلًا في نفسه على حزن عظيم. وكان ينوح ويصرخ لفرط تحسره. حتى انه اتصل ان يقر ليواب قائد جيش داود ابيه ان الموت خير له من تلك الحيوة بقوله «احب ان ادخل الى الملك: فان ذكر ذنبي. فليقتلني» (٢ سموئيل ١٤: ٢٣) * فانتجوا من ذلك كم يجب ان يكون عذاب

تلك الانفس المسروكة عنها مشاهدة طلعة تسمى بهجة على طلعة داود الملك بلا
قياس. وما عدا ذلك هي محبوسة في سجن مظلم. سجن من نار. سجن منعم عذابات
نظير سجن جهنم عينه. حسبها هو مدون في مراثي ارمياء القائل «في المظالم وضعني
كالموتى الابديين» (مراثي ٢: ٦) *

وانتم ايها السامعون تستطيعون ان تعتقوهن من هذا السجن وتعجلوا عليهن
المحظوظ بهذا الخير الاعظم اي مشاهدة وجه الله ايهن. ومع ذلك تبطأون عنهن
ولا تعزمون حالاً على انقاذهن * آه واسفاه من ذلك. فاعلموا انكم ان كنتم لا
تقدمون لمن المساعدة في وقت ملامم. فلا تستطيع هي من قبل ذاتها ان تسعف
حالتها وتنجو من عذابها. لكونها مغللة بايديها وبصدرها وبارجلها واعناقها. غير
ان قلوبها فقط محررة * فهل يجوز لكم ان ترتضوا بان تستمر مغللة في هذه العذابات
القادحة اكثر مما ترغبون ان تنجو من هذا الشقاء وتبعد الى مجد السماء العظيم *
وهل تظنون انه يلزمكم تعب جزيل ونفقة وافرة لكي تنفعلوا معها فعل هذه
الرحمة: انصتوا واسمعوا. ولنخجان جميعاً من قساوة قلوبنا * فاعلموا وتحققوا ان افتداء
نفس من المطهر يحتاج اقل جداً من افتداء اسير من ايدي المسترقين * ليت
شعري من منكم لا يستوعب فرحاً وسروراً اذا سمع انه يستطيع بالف درهم ان
يفتدي من ايدي قطاع الطرق ابنه او اخاه او صديقاً له عزيزاً ساقطاً تحت
رق عبوديتهم المرة. حتى انكم اذا لم يكن هذا المبلغ من الفضة حاصلًا معكم في
وقته. فخلاً تدلجون الى اقربائكم وتستعطفونهم وتقصدون التجار لتعقدوا معهم عهداً
وتلجون على غرمائكم ليفدكم عاجلاً. وترهنون جواهركم وتبيعون من املاككم * واذا
استطعتم ان ترسلوا له ما يفتدي به اليوم فلا تاخرونه الى الغد. وذلك لا فراط
اشتياقكم المضطرم الى ان تعتقه من الاسر والعذاب ولو قبل يوم واحد * فيا
ايها الايمان المقدس انني ارى عقولنا خالية منك. وليس يوجد فيها سوى الظلام *
قواني لي يا ايها السامعون الاحباء. اما تستطيعون بالف درهم ان تستنقذوا كثيرين

جداً من المطهر حتى لا أقول نصف اهل المطهر. ومع ذلك فكم تستصعبون ان تعطوا احياناً نصف درهم عن الموتى. او تعملوا جنازاً عنهم. او تقدسوا قداساً واحداً او توقدوا شمعةً لاجلهم * او اياه كم يثقل عليكم ذلك. والحال ان الله مراراً كثيرة اذا اعطيتهم هذا القليل. لا يفرغ كيسكم بل لا ينثلم البتة * وكم من مرة تستطيعون ايضاً ان تقدموا ثمناً كافياً لافتداء نفس معتقلة في المطهر بزيارة كنيسة او بتناول التراب المقدس او بريح غفران ما عن الموتى. وانتم خوفاً من ان يفوتكم قليل من اللهب او ان تاخروا ذاك الشغل تتركونها تان تحت كبرها وتلهل عذاباً في سجنها الرهيب * والحال ان الله يمكنكم بمثل هذا التعب الزهيد ان تكسروا كبرها لتفر صاعدة الى السماء. او على القليل ان تخففوا عذابها وتريجوها راحة ليست بوجيزة * اما هذا دليلاً على قلة رحمة منكم بل قسوة عظيمة ذميمة. نعم هذه هي القسوة القبيحة الوحشية التي وُتبت بها كثيراً في سفر اشعيا النبي ذلك الملك الظالم. اي ملك بابل لانه ابى ان يتكلم ويتعب قليلاً في فتح الابواب لشعب الله اذ كان محبوساً بقوله « لاسراها لم يفتح باب السجن » (اشعيا ١٤ : ١٧) *

ان العالم كله قد مقت دائماً ذكر التوم الذين كانوا قادرين على ان يصنعوا بتعب وجيز خيراً عظيماً الى الناس ولو يفعلوه وان احببتهم. فاقروا اخبار الاقدمين لتعلموا كيف ان اهل اثيناس مع كونهم وثنيين كانوا يلعنون الناس المتوانين في كل حول جهاراً في الساحة الكبرى باصوات الابواق وبغ المنادي. وايضاً من اجل هذا السبب نفسه ابي من اجل التواني منعت نساء رومية عن الحضور في الضحايا الهرقلية المشهورة عند الوثنيين. لانهم انكرن قليلاً من الماء عن هرقل الصنم حينما طلبه منهن وهو عطشان اذ كان بعد حياً كما خبر بذلك مكروبيوس * وقال اوبيديوس الشاعر في حكاياته الخرافية انه لهذا السبب المذكور ايضاً مسخ حراثوا لسيا وصاروا ضفادع في الصحارى اي عتاباً لهم لانهم لم يسقوا ماء لاثونا المرأة المتعطشة * وكذلك اذا تلونا أسفار التوراة التي هي اقدس واشرف من التورايخ

المذكورة بلا حد. فهل نستطيع ان لا نذم نابال النخيل حيث تغاضى عن مقدمة قليل من القوت الى داود * وهل نقدر ان لا نغضب على ذاك الغني اللابس البرفير الذي كان ينخل على اعازر المسكين بفتات خبز مائدته * ومثلها افما نمقت جفاوة المرأة السامرية اذ خاصمت السيد المسيح المخلص بايراد حجج باطلة على قليل من الماء بعد ان كانت قد انتهت من تعب استناء الماء من البئر وملاّت او عيتها * ولكن مع هذا كله فحقاً ان قساوتنا هي اعظم من قساوة المذكورين على الموتى المتضرعين الينا. لانّ القليل الذي يُطلب منا هو متجه الى ان يروي من هو عطشان او يطعم جائعاً. لا بل ان يسعد ويهني من هو معذب بجميع اصناف العذاب معاً كالعطش والجوع والبرد والنار والحُميات والامراض وسائر الاوجاع الشديدة المختلفة التي يمكننا ان نتصورها في سجن لا يوجد بينه وبين هوته جهنم تميز الا في عدم الخلود الى الابد كما يشهد بذلك القديس غريغوريوس الكبير بقوله « انه بنار واحدة يحترق الهالك ويتنقى الخنار » * فان كنا ايضاً نمسك عنهم الرحمة افما يكون ذلك دليلاً من الدلائل على اننا نسر بعذاب هؤلاء المساكين * انه من المؤكد ان من له مقدرة على ان يدفع بما هو جزئي محنة غيره ولم يدفعها. فكأنه يريد لها. وهذا هو نص الشريعة المدنية اذ قيل فيها ان الذي لا يمنع حينما يستطيع المنع فهو يامر * فنحن نحفظ نار المتطهرين متقدة عليهم حينما نأبى ان نقدم ماء لاطفائها. وندعهم مغلطين بالقيود حينما لا نبسط ايدينا لنحلهم منها. ونمنع عنهم النعمة التي يتوقون اليها بمقدار لا يوصف اي خلاصهم من أسرهم المر حينما ننخل عن افتدائهم بفضة بخسة * ومع ذلك افما يجب علينا ان نخاف ان يدركنا من الله حكم شديد عن قلة رحمتنا هذه. لانه تعالى يامرنا بعم ابن سيراخ قائلاً « لا تمنع معروفك من الميت » (سيراخ ٢٧: ٧) * فهل يسوغ لنا ايضاً ان نكون قساة القلوب حتى اننا نمنع معروفنا ورافتنا عن الموتى *

انه لقد وجد في العالم اناس كثيرون قد اظهر الله تعالى فيهم احكام صنائعه

العجيبة . ومن جملتهم واخصهم كان الملك موريقوس الذي لا اظن ان احداً منكم مجهول
 خبر عاقبة حياته التعيسة كما اورده نيقيرس المؤرخ . ونحن نورده على سماعكم ايضاً
 بالاختصار لأنه يبيدنا للقصد الذي نحن فيه * فنقول : ان هذا الملك موريقوس
 لما كان في اوج العز والسعادة . اذا يجيشه كله قد عصاه بغتة من اجل انه لم
 يصغ اليهم في امر جزئي كانوا قد التمسوه منه . واخناروا جندياً اسمه فوكاس .
 كان سيئ الحال بل كان جسوراً وقحاً جداً . وبايعوه وجعلوه ملكاً عليهم * فلما
 بلغ موريقوس هذا الخبر . اضطرب وخاف جداً حتى انه خرج متنكراً من
 القسطنطينية مع بعض اهله الاعزاء . وركب لوقته سفينة قاصداً الهزيمة والنجاة في
 بلاد آخر شاسعة * غير ان الرياح نهضت لمحاربتيه . وكانها كانت متوازية مع العصاة
 على دماره . فاعادت السفينة من البحر بعزم قوي وضربتها في شاطئ قريب من
 القسطنطينية * فاضطرب بان يخرج الى البر . واذ كان يترقب من هنا الى هنا ليرى
 غابة كثيفة او مغارة مظلمة ليجري اليها ويستخفي مما اعتراه من الخوف . اذ اخذته
 بغتة اوجاع المفاصل . واشتدت عليه جداً حتى طرحته على الحضيض صارخاً باكياً
 لا يستطيع القيام البتة * واذ كان على تلك الحال . دنت منه جنود فوكاس . لانهم
 كانوا جائلين في تلك التفار باحثين عنه . فلما سمعوا صوت نجيب . تقدموا نحوه .
 فاذ عاينوا الملك وعرفوه . قبضوا عليه وشدوا وثاقه مع اهله واستاقوهم جميعاً
 فرحين مبتهجين الى ميناء اوتروبيوس . وهناك التزم موريقوس ان يعاين خمسة
 من اولاده يقتلون بازاء عينيه بقساوة وحشية . ثم اماتوه هو ايضاً من بعدهم * ولم
 تنته بذلك القساوة التي جرت عليه وقتئذ . بل وضعوا هامته على رح . وبصعوبة حظي
 بعد عدة ايام بمن دفنه تحت التراب * ثم بعد قليل ذبح بالسيف ايضاً الباقون
 من عياله . اعني ولده ثاودوسيوس واخاه الذي يقال له بطرس . وقسطنطينة
 زوجته الملكة . وبناتها الثلاث العذارى * فعلى هذه الحال قضى موريقوس الملك
 اجله * ولعلكم تسألوني ايها السامعون : من اين يستحق هذا الملك ان تاتي هذه

الشدة العظيمة. فجيئكم نيقيرس المذكور مخبراً أيام وقائلاً أنه كان كيانوس ملك
 التتر قد استأسر في إحدى الحروب جاً غنياً من جنود موريقوس الملك لأن
 عسكره قد كان انكسر في الحرب. ثم لما انتهى أمر الملكين فيما بعد إلى المصالحة
 كالمف عادة الملوك وتخطباً فيما يخص افتكك الأسرى المسيحيين. طلب ملك
 التتر فداءً عن كل شخص درهماً واحداً. فاستكثر موريقوس هذه الطلبة مع أنها
 كانت وجيزة. فتنازل ذلك إلى مبالغ أسير. فإني أيضاً موريقوس أن يدفعها. ثم
 ارتضى أخيراً ذاك بفضة أخرى أدنى جداً على كل شخص. فلم يشأ مع ذلك موريقوس
 أن يقدمها له * فحينئذ غضب ملك التتر. وبلغ غضبه إلى حد أنه أمر حالاً بقطع
 رؤوس جميع أولئك الأسرى الذين احسب موريقوس ثمن افتدائهم جزيلاً وافراً
 مع أنه كان زهيداً جداً لا اعتبار له * وبعد قساوته هذه وبخله على أسراه المساكين
 بزمن يسير رأى في الحلم رويًا مخيفة جداً وقد كانت من قبل الله تعالى. وذلك أنه
 دُعي إلى المحكمة الإلهية. وعابن هناك خلناً كثيراً من الأسرى يقرعون سلاسل
 اعناقهم وقيود أرجلهم الحديدية قرعاً مائلاً بضجة عظيمة طالبين النعمة والجزاء من
 موريقوس الملك. وفي غضون ذلك عابن الديان ناظرًا إليه. فاصفر لون وجهه
 وأخذ يرتجف خوفاً وقرعاً * ولاجل أنه كان متصفاً بعدة فضائل وبها كان قد
 أَرْضَى اللهُ تعالى سابقاً. فنظر إليها الديان العادل ولم يشأ أن ينتقم منه عاجلاً بحسب
 استحقاقه عن قساوته التي بدت منه مع الأسرى المذكورين. ولكنه خيره وسأله أين
 يريد أن يعاقب. أي هذه الحياة الدنيا أم في الآخرة * فاجابهُ الملك: لقد اخطأت
 يا سيدي. فأسأل من رحمتك التي لا نهاية لها أن ترحم علي وتجعل عقابي في هذه
 الحياة الدنيا لا في الآخرة * فقبل الديان الراوف طلبته. وللوقت أمر أن يدفع بيدي
 جندي حقير بل هو احقر جنوده قاطبة. وكان ذلك فوكاس. ليخسر بواسطته في
 حال العار العظيم الملك وإجاء دولته وانسبائه وأمله كما سمعتم مني أنا * فهذه هي
 يا أيها الاحباء الأكرمون عاقبة من يتغاضى أن يصنع خيراً عظيماً مع غيره بنفقة

وجيزة * فاحسبوا الآن أنه يُطلب منكم فضة قليلة زهيدة لا فتدأ خلق كثير من
المسجونين في سجن المظهر أو لاجل ارسالهم كلهم الى السماء. فهل يوجد فيكم جرأة
قلب ان تمسكوها عنهم وتمنعوا المعروف والرافة منهم من غير ان تخشوا ان يلتفت
هؤلاء المساكين المعذبون ويستصرخوا عليكم وعلى اولادكم الى الله تعالى * ولكن لعلمكم نقولون
اننا نحن لا نلتزم بافتدائهم كالنزام. موريتيوس بافتدائ أسراة * فاجيبكم: الله يحق علينا
ان نغيرها نوعين من الالزام. احدهما الالزام من باب العدل والآخر الالزام من
قبل الرحمة * فاقول لكم: انه ان تبرأتم من الالزام بالموتى من باب العدل. فليستم
تبرأون من الالزام الناتج من قبل الرحمة لهم * ولكن ما بالي اقول ان تبرأتم من
الالزام بهم من باب العدل: أما ثم أما: انكم ان تاذنوا لي بان اخص قليلا وابحث
عما في صناديقكم المستوثقة مدققا عما تحويه. وجدت بلا شك احيانا مبلغا وافرا من
الفضة التي انتم حصنتموها من الموتى * اقرؤا ادي بالحق: هل وفيتم بالتمام جميع لوازم
الوصايا التي كتبها موتاكم في حال مرضهم الاخير. وهل عوضتم عما دخل في ذمتكم
من اموال الاموات. وهل صنعتم الصدقات والقداسات والجنائز التي التزمت بها.
وهل كافأتم عن الاوقاف وانجزتم نذوراتكم للموتى * فان كنتم توابتم عن ذلك كله
بشيء. افما انتم ملتزمون باغاثة الموتى التزاما عظيما من باب العدل لا من باب
الرحمة فقط * وقولوا لي ايضا: من هم الذين انتم من اموالهم عاثشون: اليس هم موتاكم.
اعني والديكم واقرباءكم وغيرهم من الامل * اما تركوا لكم مواريت. اما ابتاعوا لكم
بعرقهم ما تجننون منه نفقاتكم. وبسهرهم راحنكم * كم من مرة صاموا وجاعوا ليجعلوكم
ان تسريجوا بعد وفاتهم وتعيشوا بالهناء وتنجوا من المشقات والشدائد التي قد
تكبدوها بانفسهم * ولعلمكم تظنون انهم لو سبتوا وعلموا انكم لا تقدمون من اموالكم
لاجل اغاثتهم سوى ما تلتزمون به من قبل الذمة فقط. لتعبوا كل هذا التعب لاجلكم *
اهذه هي اذا مواعيدكم السخية التي كنتم تعدون بها والديكم الشيوخ المساكين بانكم ان
تنسوا ارواحهم الى الابد. اما تذكرون كم طلبوا اليكم وكم لجوا عليكم. وكم بكوا امامكم

مكررين عليكم الوصية بان لا تتركوهم ولا تتناسوهم * وانتم كأنكم دفنتم ذكرهم مع
عظامهم في قبر واحد . وها انتم تمتعون بامتعتهم غير ملتفتين الى ارواحهم . بل تدعونهم
يحترقون في المطهر وانتم صمتمون من خيراتهم *

ولكن مع كل ذلك هبوا انكم لستم مديونين للموتى ولستم ملتزمين بهم التزاماً
ما اصلاً . لا جليلاً ولا حقيراً . ولا من باب العدل ولا من باب الرحمة ايضاً . بل
هبوا ايضاً انه مباح لكم ان تكونوا قساة معهم من غير ان تستحقوا لذلك عقاباً .
وهبوا ان هؤلاء المساكين المتروكين وعلى الخصوص اهلكم واقاربكم لن ينهضوا
عليكم ويطلبوا لكم العقاب من الله تعالى عن جفاوتكم وصلابة قلوبكم * غير انني اقول :
اما يكفي لتريحهم عليهم كونكم بشراً . ولست اقول كونكم مسيئين ولا كونكم
كاثليكيين . والحال ان هذه الصفة اي صفة البشرية هي التي قد صيرت قلوب
الوثنيين ان يظهروا مقداراً يفوق الوصف من امارات الرحمة والاكرام والاحترام
والجودة نظراً الى ذكر موتاهم . ولكي يجعلوا ذكرهم مخلاً قد شيدوا القبور المرمرية
الفاخرة والاهرام والاعمدة والمنارات الصخرية التي اضمحت في الارض اعجوبة الصنائع .
حتى ان الملكة اريميسيا لم تكتف بمثل هذه الاشياء لتظهر وفور حبها واحترامها
لبعلها الميت . بل اجهدت عقلها الذكي لتخترع فناً بديعاً لكي تصير هي له لحداً
حياً متنفساً * واسمعوا ما فعلت : انها سحقت عظامه حتى جمعتها غباراً ووضعتها
في كاس من ذهب . ثم شربتها بلذة وسرور نقطة فنقطة . ودفنتها في قلبها بمنزلة لحد
حي * ولكن ما الذي كانت تفعله هذا الملكة الوادة لبعلها بهذا المقدار لو كانت
ترجو كرجائنا اي ان تعتق روح بعلها وتورثه الملكوت : العلهما كانت تمسك عنه
تعباً او درهماً او صناعةً . ام هل كانت تحمل ان ترى روحه تتعذب في النار وهي
تستطيع ان تبلغها سعادتها وغبطتها * ويا لسعادة افسسيون صديق الاسكندر الملك
لو كان قد ذهب الى مكان يرجو منه الخلاص بعد موته بدلاً من ذهابه الى
مكان لا يخرج منه الى الابد : لعبري انه لم يكن يدعه ان يمكث فيه سوى لحظة

واحدة فقط . لأنه اعني هذا الملك قد انفق في جنازته ما يساوي اثني عشر الف دينار . وهذا المبلغ الكثير قد انفق في ثمن العاج والامتعة والاقمشة المرشاة بالذهب والنجورات العظيمة والذهب والجواهر التي احرقها مع عظامه * ولا ريب ان نفقته هذه التي انفقها عن روح اقسثيون صديقه المذكور تسمر على جودة مكثلة المرأة الشريفة المسيحية . التي لم تكتف بان قدمت الف قداس عن روح زوجها يوم دفنه . بل اعطت مبلغاً يقتضي ان يقدم به عن روحه ربوة من القداديس اعني عشر مرات مائة الف قداس * وماذا اقول عن محبة النساء الروميات لبعولتهن الموتى : انهن كن قديماً يطرحن انفسهن في النار ليحترقن مع جثث بعولتهن * فمثل هؤلاء لو استطعن ان يطرحن انفسهن في المطهر ليخلصن نفوس احبائهن من العذاب . انظن انهن كن يخفن من ذلك : لا لعري . بل كنن لاحالة يلقين انفسهن فرجات مسرورات في العذاب المطهري ليفتدين ارواح ازواجهن بنفسهن * لأنه في ذلك الزمن لم تنتفع الدولة الرومية بشيء من اقامتها حراساً حول شعلة النار لمنع هذه الحوادث المفرطة من المحبة . لأنني اظن أنه لا الرماح المسنونة ولا السيوف المجردة ولا العصي المحدودة كان يمكنها ان تزج قلوب اولئك النساء الوادعات ازواجهن وتدفعهن الى الوراء ^(١) * وانجوا من ذلك هل كان يمكن للذين يسخون بانفسهم عن موتاهم ان ينجوا عنهم بالنضة والامتعة * وقد خبرت التواريخ الرومية أنه عندما كان يصير هذا الاحتمال اعني احتراق جثث الموتى فوق شعلة الخطب . كان ينتضي على هذا النظام الآتي ذكره . وهو أنه فيما كانت الآلات الموسيقية تبدي نغمات محزنة . كانت تطوف حول شعلة الخطب رجال ونساء وعبيد الميت واقاربه ومعارفة

اعلم ان الوثنيين القدماء ومنهم الروميون كانوا يجمعون جملة كبيرة من الخطب في اعظم ساحات المدينة ثم يطرحون فيها الميت ليحترق . وبعد ان يصير كذا رماداً يجمعون رماده ويدفنونه في القبر * وكان كثير من النساء يلقين انفسهن في هذه الشعلة ليحترقن مع ازواجهن على حبهم * فلما فشحت هذه العادة وضع ارباب الدولة الرومية حراساً بسيوف وارماح ليمسكوا النساء ان يطرحن انفسهن في النار *

وبنية العيال برح حافل . ويلقي كل واحد منهم في كل دورة على النار الشيء الاوفر
 قيمة من امتعه . فمنهم من كان يلقي خواتم . وبعضهم حلقات . ومنهم من يطرح جواهر .
 وبعضهم اساور ودمالج . حتى انهم كانوا يطرحون ذهباً وفضة * فيا ايها الاخوت
 المسيحية الحبيبة العزيزة ادبي . لو طلبت منك انت المومنة الحقيقية ان تنفي عن
 موتك الاحياء جزءاً قليلاً من الكثير الذي كان الوثنيون ينفقونه على جثث موتاهم .
 ما كنت تقولين * وانتم ايها الاشراف ماذا كنتم تقولون لوسالتم اليوم ان تترعوا
 عن اصابعكم الخواتم وتقدموها لاغاثة انفس الموتى * وماذا كنتم تقولون يا ايها
 الاقليسيون وانتم يا ايها الكهنة * وانا اريد ان اصمت عن ذكر النساء الغنيات
 اللاتي مع انهن يظهرن انهن ذوات نقوى وورع جزيل . فلا شك في انهن ينسبنني
 الى قلة الذوق والافراز لو قلت لهن ان يرحمن موتاهن لا بنتف ذواًبة من شعر
 رووسهن ولبس ثياب المسوح . لكن بنزع تلك القلائد واللاكي الفاخرة من
 اعناقهن . وتلك الحلقات الكريمة من اذانهن . وتلك الاسورة والدمالج الذهبية من
 معاصمهن وسواعدهن . وتلك الحجارة الكريمة المتلاية على صدورهن . وتلك الحلال
 الموشاة بالذهب والفضة . وتلك الحائل الذهبية والفضية المنوطة على رقابهن . وسائر
 التحف واصناف الزينات الباطلة التي يعجز لساني عن تسميتها لكثرتها واخلاقها *
 وما يفرق كل العجب ما فعله احد الشبان في مدينة اثيناس في حب ابه عند موته
 وكان يقال له كيمون * كان هذا الشاب قد قتل ابوه . قتله اعداؤه . فاراد ان
 يستنقذ جثته من ايديهم ويدفنها . فباع نفسه وقدمها ثمناً لاولئك الاعداء . وصار
 عبداً بعد ان كان سيداً . واسيراً بعد ان كان حراً * واما انتم فتابون ان تعطوا
 شيئاً من مالكم لتبعثوا بالانفس الى السماء * فيا لها من قسوة عظيمة ما اشنعها *
 ولنصف الى ما قلنا هذا الامر ايضاً . وهو انه اذا ما احسنا التأمل مدققين .
 نرى ان الوثنيين لم يكونوا يرجون مكافأة عما كانوا ينفقونه او يفعلونه مع الموتى .
 لان الكثيرين منهم كانوا يظنون ان النفس تموت مع الجسد . ولجل ذلك لم

يكونوا يتوقعون من الموتى مكافأة الجليل عن انعابهم وبنقاتهم عنهم * وأما نحن
 المسيحيين فما اعظم المكافأة التي يمكننا ان نرجوها من الموتى المومنين . لاننا نعلم يقيناً
 ان انفسهم لا تزال حية بعد موت الجسد وتحيا الى الابد غير مائتة * فما اسعد
 حظنا وما اجمل سعادتنا اذا بلغنا الى ان نفتدي بنفقة مها كانت وتعب مها
 كان انفساً كثيرة من المطهر ونجعلها ان تفوز عاجلاً بالمجد السماوي * ليت شعري
 في اي شيء يمكنكم ان تنفقوا ثرواتكم ايها المسيحيون الاحباء بافضل ما تنفقونها في
 هذا العمل المقدس . اي تخايص الانفس من المطهر . لانكم بهذا النوع تصيرون
 عدد القديسين كثيراً جداً في السماء . وحينئذ يوجد لكم عدة وافرة جداً في
 الملكوت يدعون لكم طالبين خيركم وسعادتكم . وعدة جزيلة جداً يحفظونكم من كل
 خطر نفساً وجسداً * وايضاً حياتكم تطول بدعاء ودموع الانفس التي تبقى في
 المطهر . لكونها ترجو منكم كل يوم مساعدة جديدة * لابل ان الملائكة الذين
 كانوا موكلين من الله تعالى على حراسة الانفس المستنقة بواسطتكم لا يكونون ابداً
 من ان يشكروكم على الاكرام الذي اكرمتموهم به بارسال تلك الانفس عاجلاً الى السماء *
 وايضاً تصيرون جميع القديسين والطوباويين مديونين لكم من اجل ارتباط كل
 واحد منهم مع الآخر بالمحبة الكاملة . لانهم بهذه الوساطة يحسبون كل خير حاصل
 لرفقائهم كأنه قد حصل لهم انفسهم . وذلك لاجل انكم زدتوهم رفقاء في السماء . بل
 لانكم اكثرتم المسيحين لله تعالى معهم * وكم تحبكم مريم سيدة العالم اذ ترى انه بواسطتكم
 نال المجد سريعاً عاجلاً هذا المقدار من الانفس العزيزة لديها كعز دمها عينه .
 لانهن ثمن دم ابنها الحبيب * وماذا اقول عن السيد المسيح الذي اعطى حياته في
 حب تلك الانفس * وماذا اقول ايضاً عن الآب الازلي الذي اعطى المسيح ابنه
 فداءً : لعمرى انكم تستميلون ايضاً عدله الالهي وتجعلونه يحو ما له عليكم من الدين
 عاجلاً . وتستميلون رحمته الازلية وتجعلونها تعاملكم بالرافة واللطف . وتستميلون
 ايضاً محبته الشهيبة وتجعلونها ان تعمل فيكم ارادتها النافعة على الدوام الى خلاصكم * وعلى

الاجمال اقول انكم ترجون لانفسكم الملكوت كله الذي لا يطلب ولا يسر بشيء
 سوى خير البشر وسعادتهم الابدية * فما بالكم متكاسلين متباطئين . وما الذي
 تنتظرون : انهضوا وقوموا الى اغاثة المعتقلين في المطهر . وهكذا اختتم القسم الاول
 من عظتي هذه بنصيحة القديس برنردس حيث يقول مخاطباً : انهضوا الى اغاثتهم
 بالنوح . تضرعوا بالتهند . اطلبوا بالصلوة . واوفوا عنهم بتقدمة القداس * لماذا لا
 تفكرون منذ الآن باية طريقة تستطيعون ان تقدموا انفسكم كلها لخير المعتقلين في
 النيران المطهريّة « فاجعلوا لكم اصدقاء من مال الظالم » (لوقا ١٦ : ٩) * نعم ايها
 الاحياء الاكرمون . اجعلوا لكم اصدقاء من مال الظالم . لان ذلك خير لكم عظيم .
 حتى اذا نفذ مالكم يقبلونكم في مظالم الابدية * ليت شعري من هم هؤلاء الذين
 عنى عنهم الرب يسوع بقوله هذا : هل هم المساكين الاحياء فقط : كلاً . وذلك
 علي راي علماء ماعرين من مفسري الكتاب المقدس . ومن جملة الكردنال
 بلرمينس الشهير علمه . لان هؤلاء المساكين لا يستطيعون دائماً ان يقبلوكم في الملكوت .
 لان كثيرين منهم لا يدخاونه البتة . لكن المساكين المحبوسون في المطهر . فهؤلاء
 لاشك في انهم يستطيعون ان يصنعوا معكم خيراً عظيماً كذا . اذا نفذ مالكم . اي
 عند ساعة وفاتكم اذا دنوتم من الخروج من هذه الحيوة . فحينئذ يحنطون بكم افواجا
 افواجا حول الفراش محبة واکرام . وبويدونكم ويساعدونكم ويعتنون مجتهدين بالمسابقة
 لستانقوكم معهم بفرح وطرب عظيم الى السماء لتلكوا خيراتها الدهريّة حيث هي
 مظالم الابدية * فاجعلوهم اذا اصدقاء وخالاناً لكم * ومن اي شيء تخافون : أمن
 قلة وفائهم . ام من عدم شكرهم المعروف . ام من عجزهم . ام من عدم حبهم . ام من
 نسيانهم اياكم : اصنعوا معهم خيراً بسخاء . وسوف تعابنون صدق ما نطق به يسوع
 بن سيراخ الحكيم اذ قال « احسن الى التقي فتجد جزاءً كثيراً » (سيراخ ١٢ : ٢) *
 فيا معشر السامعين ساداتي . ها انا قد قضيت خصلة السفير المرسل من قبل الموتى
 الحاصلين في عقوبات المطهر . وعرضت عليكم حاجاتهم ومرغوباتهم . فبقي عليكم

ان تردوا لي الجواب * غير أنه يجب ان يكون جواباً باليد او بالفعل لا باللسان .
والأ فاعلوا اني اذا علمت ان جوابكم لا يكون على قدر الأمل والرغبة . اخاف
ان التمس من غيركم ان لا يصنع معكم في زمن الاحتياج المقبل عليكم رحمة اوفر
وسخاء اعظم مما تصنعون الآن مع غيركم * ولا تكتفوا بالاحسان الذي تقدمونه الآن .
بل ينبغي لكم ان لا تنسوا افتقاد الموتى بالصلوة والصدقة والتسّات وسائر الاعمال
الصالحة مدة حياتكم كلها *

وهنا فليوكل الواعظ واحداً فيجرح احساناً من السامعين لنعطي عن قواديس تقدّس عن
الانفس المعتقلة في المطهر * وليسرح قليلاً الى ان يفرغ الوكيل من جمع الاحسان . ثم يبتدى
القسم الثاني من الخطبة *

القسم الثاني

ان من المعلوم ان اصول المودة المرتبة المنظومة تنتضي يا ايها السامعون
ان نبتدى بحجة نفوسنا اولاً * فان كنا الى الآن قد تكلمنا وسعينا في ان نستنقذ قريبتنا
من نار المطهر . وجب ان نفكر الآن في نفوسنا قليلاً . ونجس مخاطرنا في باننا ما
الذي يجب علينا عمله لئلا نحصل في تلك النار . او كيف نخرج منها اذا حصلنا ضمنها .
ولا نتكل على رحمة اقربائنا واسعاف اصدقائنا اذ يضحون مراراً شتى قليلي الوفاء
وكثيري الكسل والنسيان معنا * اعلوا ان الطرائق التي يمكننا ان نتمسك بها للقصد
المذكور هي كثيرة . غير اني ادع كل واحد منكم ان يتمسك بالطريقة التي يستحبها
او يعتبرها اكثر . واعرض عليكم طريقة احسبها اوفر اماناً واستقامة . وهي ان نعزم
على ان نفعل ما علمنا الحكيم ابن سيراخ قائلاً : « قبل وفاتك فاعمل خيراً » (سيراخ
١٤ : ١٧) * ولاجل ذلك شاننا ان نفي ههنا عن ذنوبنا بنوع ما من التمشقات
الجسدية . مثل قولنا الصوم النافلة الذي ليس هو من باب المرض . او ان نجد
انفسنا بقليل من التالم . او نلبس قميصاً كثيفاً يشوك الجسم قليلاً . او بنوع آخر من

قهر الجسد وامانه تصنع به خيراً لانفسنا قبل ان تدركنا الوفاة * ولكني انا عارف
 ان منكم من يهزأ بي الآن ويسخر عند استماعه اياي مخاطباً الجميع بمعنى التقشف
 والامانة. لانه ان اردنا ان نقر بالحق فكان دهرنا هذا قد اتفى فيه من بيننا نقشف
 الجسد ومضى الى محابس النسك او انحصر في الاديرة. واما في بيوت العلمانيين فلم
 يبق شيء يسرهم وبرضهم سوى الاقوال المتضمنة الراحة والتلذذ والافتخار والترفة.
 والذي يستغربه العلمانيون في هذا الزمن او فر الاستغراب ما هو الا التكلم معهم بمناجزة
 اعمال التوبة * فالذي يروم ان يخاطبهم بهذه الاشياء انما يوجد عندهم غيباً احمق.
 لانه يقصد ان ينال ما ليس له طاقة وقدرة ان يقنعهم به * ومع ذلك فان
 كنت انا خالياً من روح الغلط والهديان. فاقول: انه ما من احد يحتاج الى افعال
 التوبة اكثر من اهل الدنيا * ناشدتم الله ايها السامعون المكرمون ان لا تغضبوا
 علي ان كنت اكرهكم قليلاً لاجل خيركم. بل اني بهذا استحق ان تحبوني اكثر.
 لانني راضي ان اكون بغيضاً عندكم لا يثاري خيركم ونجاحكم الروحي الابدي *
 فاذا يجب عليكم ان تعلموا من رأي القديس توما اللاهوتي ان العادة
 التجارية في بيعة الله تعالى في قهر اجسادنا احياناً بالاصوام والمسوح والجملد وغيرها
 من اصناف التقشف والامانة قد ادخلت لسببين. احدهما لنزع عنا الخطايا القديمة
 والآخر لتخفظ من الخطايا المقبلة * ومضمون قوله هو هذا: ان السبب الاول هو لكي
 نفي لعدل الله سبحانه عن العقاب الذي استحقناه بخطايانا السالفة. وهذا هو
 السبب الذي لاجله اوصيكم اليوم بمباشرة اعمال التوبة * والسبب الثاني هو لكي
 نحفظ نفوسنا عن ارتكاب الخطايا الممكن ان نسقط فيها فيما بعد. لانه وان كان
 سائر الحيوانات تستانس غالباً بالتليق. لكن جسدنا يبطر ويتمرد علينا بذلك.
 كحسب قول القديس لورنتيوس يسطنياني. ولا يترؤض ولا يتأدب الا بالضرب *
 فاقول الآن مقاييساً هكذا: انه اذا لاحظنا السبب الاول المذكور اعني ان ننزع
 عنا الخطايا القديمة. فمن تظنونه احوج الى هذه اي اعمال التوبة الوفاية. اولئك

الذين دخلوا منذ حدثتهم الرهينة وقد استمروا غالباً حافظين طهارة حدثتهم
سائلة . ام الذين يكثرون في الدنيا مطلقى العنان لاهوائهم المذمومة . وقد أنتنت
وقاحت اجسادهم من الرجاسات . وانسمت قلوبهم من الحنود . واطلمت عقولهم من
آثام الكبرياء والعجرفة والعشق والافكار المتنوعة ساجتها * فلا ريب ان مثل هؤلاء
يحتاجون الى الافعال الرفائية اكثر من الآخرين : وما هي الاعمال الصالحة التي
يفعلها هؤلاء ليفوا عن هذا المقدار من الذنوب والخطايا * واذا نظرتم الى الرهينات
المحافظة القانون باوفر التدقيق . ترون بعضها معتية بخدمة المرضى . وبعضها
بافتداء الاسرى من عبودية الامم . وبعضها مشغلة برد الهراطقة والمشاقين الى
حظيرة كنيسة الله تعالى . وبعضها باكتساب الكفرة غير المومنين . وبعضها بالوعظ
والتعليم للشعوب المسيحيين * وترون من الرهبان ايضاً من يسهر في تاليف الكتب .
ومن يتعب في اقامة الصلوات الفرضية في الكنائس . ومنهم من يعلم الشبان في
المدارس . ومنهم من يوزع الاسرار في البيع . ومنهم من يعزي المحبوسين في السجون .
ومنهم من يشجع المرضى الذين في سياق الموت . ومنهم من يجول ايضاً البراري
ويطوف الجبال ليصيد الانفس المتوحشة الى الله تعالى * فكان هؤلاء يستحقون ان
يظهروا عذراً ما امام الله لسبب اتعابهم المقدسة اذا كانوا يستعملون مع اجسادهم
حلماً ما اكثر من التشديد والجفاء * واما اهل الدنيا الذين يتكاسلون عن مباشرة
فعل من افعال مثل هذه المحبة لله عز اسمه وللقريب . انما يحتاجون اعظم احتياج الى
اعمال التوبة ونقش الجسد ليفوا عن سيئاتهم الماضية * واذا لاحظنا السبب
الثاني الذي لاجله تستعمل البيعة اعمال التوبة وتامر بها . فنرى انه لكي نحفظ من
الخطايا المقبلة : فاجيبوني يا معشر السامعين الاحباء : من هو الذي يفتقر الى هذا
التحفظ اكثر : الذين يعيشون مخنلين في الاديرة ومنفردين في البراري المتفردة . ام
القاطنون والعائشون في وسط الدنيا الخبيثة حيث لا يصير اجتماعات ملاعب
سجدة ومجالس فرح مخطرة الا ويحضرونها . ولا يوجد كتاب محرم الا ويقرأونه . ولا

وجه نسائي الأوبرقونه. وهم مع ذلك خالون من العلم. ولا يكثرون من الصلوة وغيرها من الوسائط القويّة التي يستطيعون بها ان ينجوا من مثل هذه المخاطر المهلكة من هجمات العدر الخادعة الغاشّة * انني لست اروم ان انتج ما قلته ان الرهبان يعنون من الالتزام بقهر اجسادهم ونقشها بحجة اتعابهم المتدم شرحها في خدمة الله والنفوس: كلاً لست اروم استنتاج ذلك. لانه اذا اجارموا خطية واحدة ثقيلة. يلتزمون من باب العدل ان يفوا عنها بتوبة شديدة متداومة ايضاً * بل انما اقول هذا فقط. وهو انه ان اخطأوا. فليسوا ملتزمين باعمال التوبة الشاقّة التزاماً اوفر من العلمانيين. ومع ذلك فمن تراه من اهل الدنيا يرتضي بسهولة ان يتمنطق على حتوبه مثلاً بسلسلة صغيرة من حديد او ان يلبس مسحاً او ثوباً خشناً. او يصوم صوماً لا يلتزم به من قبل فرض الكنيسة * ولكن ما بالي اقول صوماً لا يلتزم به من قبل فرض الكنيسة: ان الاول ي ان اقول: من ذا الذي يصوم من اهل الدنيا كالواجب الصوم الاربعيني الذي فرضته بيعة الله على جميع النصرانية. اليس انما نرى عياناً كثرة وافرة جزيلة من الذين يطلبون باعظم السهولة ان يعطوا الاذن في فسخ هذا الصوم المبارك المقدس الذي مسك منذ ابتداء الكنيسة بضبط لا يوصف. وهم يطلبون الحّل منه لا بحجة مرض حاضر اعترافهم. لكن حذرًا من مرض يمكن ان يعرض لهم فيما بعد. واحياناً ايضاً خوفاً من داء وهي لا حقيقة له * فان كانت سجيّة العلمانيين وحالتهم على هذا. فما هو العدل وما الشدة التي يعاملون بها اجسادهم قبل ان يدركهم الموت كما اوصى الحكيم ابن سيراخ المتقدم ذكره قائلاً: قبل وفاتك فاعمل خيراً * والسفاه واحسرتاه. لعبري ان هذا الاعل رحمة ورافة مع اجسادهم اكثر من الواجب *

انني عالم جيداً انكم قد ربيتم وعشتم مدة من الزمان في الراحة والتنعم. فصار مزاجكم لطيفاً وتركيب ابدانكم نحيفاً. فكان اعمال التشف والامانة لا تناسبكم. وتعتذرون ايضاً بعدم الطاقة على احتمالها * لكن كيف العمل. لان هذا عينه ان

نطقنا متكلمين بالحق من غير محاباة . يثبت التزامكم الاعظم بان تفوا عن ذنوبكم في هذه الحبوّة الدنيا * لأنه ان اردتم ان تبقوا الوفاء الى الحبوّة الآخرة . فوالسفاه كم يكون عليكم احتمال العذابات المطهرية اشدّ وأمر * حكي ان اميراً من اعظم امراء ايطاليا دعا في احد الايام راهباً واعظاً ذاهمة . وادخله قصره لشرح صدره هناك . وكان من احسن المنتزهات التي توجد في بلاد ايطاليا * فاطلعه على اوانيه الذهبية والنضية والموائد المنتظمة من الأحجار الازوردية والياقوتية وصوراً غريبة في الجمال ومنقوشات بديعة وتمثال من رخام تدهش البصر بما فيها من عجب الانتان والاحكام * ثم اخذه الى المخادع الداخلة لظهرة على الامتعة الفاخرة والفُرش الناعمة . ثم صعد به الى اعلى الطبقات من القصر ليريه زينتها والاثاث الموشى بالذهب الجزيل الثمن * ثم انحدر به الى البستان بما فيه من المياه والاشجار والغياض للرياضة واللهو * ثم بعد ان اطلعه على كل شيء يقتنيه من الخف والزينات الفاخرة البديعة . طفق يتمشى باطف وتودّد متحدّثاً معه تحت شجر بستانه الظليل . سألته اخيراً بدالة : ما هورايك في ما رأيته في هذا القصر وهذه الروضة * فاجابه الراهب شاكراً لطفه وحلمه . ولجل انه كان من باب منزلته وفضيلته ان ينتج دائماً ما يراه او يسمعه تعليماً مناسباً لفائدة غيره . قال للامير باكرام واحترام : ان الفكر الذي نشأ في بالي من مشاهدتي هذه المحاسن المستغربة التي في قصرك وروضتك يا ايها الامير الجليل هو اني اشفق على حضرتك السعيدة : وذلك انني كنت افكر في نفسي قائلاً : يا ما اعظم ما تكون عذابات المطهر شديدة قوية على سيد يتنعم بهذه الراحة : لا ريب في انها تكون عليه اشدّ مما تكون على رجل فقير معتاد على التعب والشقاء * فهذه هي الجراءة المقدسة التي استعمالها الراهب التقي في تلك الفرصة المذكورة * ويمكن انه تحرك الى استعمالها من قبل صلاح ذلك الامير الذي كان يخاطبه وحلمه . وبها ايضاً اي بهذه الجراءة قد قصدت الآن ان اختم خطابي معكم يا ايها السادات الاحباء قائلاً : ما قد حصل حظكم ان تولدوا في تنعم الثروة والراحة . وقد قضيت

بها الصبوة والشبوية وبلغتم الى الرجولية والشيوخة . ويلزمنا ان نقول لكم : ان كنتم
 قد صرتم الآن عاجزين اكثر من غيركم عن ان تقضوا التاديبات والمشتات العظيمة
 المعدة لخطايانا في الحياة الآخرة . فكيف اذا تطيقون ان تنضعوا مغللين مقيدين
 على تلك الصفايح النارية في الآخرة . اذ انه لا يوجد الآن فراش يطيب لكم ولا
 تجدونه صلباً الا المشو من ريش النعام . فكيف اذا تستطيعون ان تحملوا في
 عظامكم نخس تلك الحربات المسنونة المرهفة * وليس ثوب من الطف الحرير وانعم
 المخمل . الا وتشعرون بخشونته . افلعلكم تحملون نتانة ذاك الكبريت وكرهته . وتقرز
 ذاك الدود السج . وحرارة ذاك النفط والقطران . وانتم معنادون الآن منذ زمان
 مديد على استنشاق اذكي الروائح . واستعمال اثن العطور والمياه المستقطرة عن
 اذكي الزهور . والتخطف في المروج المخلصة والبساتين الظليلة . والاستحمام في الدائمات *
 وان كان ذلك كذلك . فما الذي يجب عليكم الآن ان تصنعوا لتنجوا من العقوبات
 المورد ذكرها * لا شك انه يجب عليكم الآن ايها الاحبياء الاكرمون ان تعملوا
 اعمال التوبة . اي ان تلبسوا احياناً من تحت الثياب الناعمة ثوباً خشناً كما كانت
 تفعل قيقيلية القديسة الشهيرة . ومثلها ملانيا وبولا واليصابات اللاتي كن شريفات
 والطف وانحف مزاجاً منكم * ويمكنكم ايضاً ان تسكوا بايديكم الرخصة مخرصة من
 جلد وتجلدوا قليلاً اجسادكم . كما كان يفعل اوبس وهنري وكارلس وكاسبير
 الذين كانوا من اشرف الملوك * فهذا هو راي وشوري عليكم . ولعمري انه لا يسوغ
 لكم ان تنسبوني الى قلة الافراز ونقص الحكمة . لكوني خاطبتكم ان تبغضوا هكذا
 اجسادكم : لانه اذا لاحظنا الحق . لا نرى محبة انفع من هذا البغض الذي يحثنا
 على احتمال عذاب خفيف لتخلص من عذاب عظيم * ثم اصغوا سامعين لما قاله
 القديس غريغوريوس الكبير في الفصل الاخير من كتاب الديالوغوس . وهو
 خنام كلامي معكم فاحفظوه مطبوعاً في ذكركم على الدوام . فاسمعوا ما قال : انني
 اجسر واقول اننا لا نحتاج الى نفمة القربان الخلاصي عنا بعد وفاتنا اذا صرنا

قرباناً لله في مدة حياتنا . انتهى * فما احسن كلامه هذا وما اقوى معناه . ومضمونه هو انه اذا قهرنا اجسادنا وامتنا شهواتنا بأعمال التقشف وما ضامها من سائر اعمال التوبة . نجعل انفسنا بذلك قرباناً لله في حياتنا . فلا ننتقل الى ان يقدم غيرنا عنا ذبيحة القداس بعد وفاتنا لنفي عن عقابنا الذي استوجبناه بخطايانا وذنوبنا . لاننا نكون قد وفينا عنه في حياتنا بأفعال التوبة الخلاصية * اهلمكم الله تعالى للعمل بذلك . آمين *

الخطبة العاشرة

ننضم بيان ابتداء نيل النفس سعادة المجد السماوي فقط وذلك بحسب ادراك ضعف عقولنا . والغاية منها تشويق المومنين الى نوال الملكوت السماوي وان يوجهوا عقولهم وقلوبهم الى ذلك

« يا رب جيد ان نكون ههنا » . كذا حررتني البشير في الاصحاح

١٧ من بشارته *

القسم الاول

هلم بنا نحو السماء يا معشر المومنين الاتقياء العابدين . هلم بنا نحو السماء * هل يوجد فيكم من يرغب ان يصعد الى هذا المجد العظيم . فما بالنا متشبثين متوغلين في هذا الوادي وادي البكاء . ونحن ههنا كيفما التفتنا لا نرى شيئاً الا بكاءً وتنهيداً وصراخاً . ولا نسمع الا آثاماً ومشقات * فاننا نرى الغني يشكو من الفقر . والفقر يشكو من الغني . ونشاهد المولى شاكياً من عبده . والعبء شاكياً من مولاه . وبالاجمال لا يوجد واحد راضٍ بمجاليه * اننا نرى راحيل حسنة جميلة لا

رب . إلا أنها تتألم لأنها ليست بمخصبة مثل ليا . وليا مخصبة ولكنها تحزن لأنها
 خالية من جمال راحيل * ونرى نعان الشامي فائزا بثروة وغني وافر . ولكن ما
 الذي يربحه من ذلك مع كون جسمه معترى بالبرص السمج * ونعائين ارغسطس
 قيصر قويا قادرا . ولكنه حزين لأنه لا خلف له . وطيباريوس مخوفا ومرهوبا . إلا أنه
 يذمر شاكيا لأنه لا صديق له * حتى ان الخير القليل الذي نحوزه في الارض لا
 نقدر ان نملكه ونتنعم به براحة وسلامة . فالعصاة يرصدون مكمنين على سلطة
 العظماء بالاسلحة . واهل الدولة المبعوضون يدسون فخاخا ومكايد ليدمروا الذين هم
 خواص الملوك الحكام . وترى الحساد يخاصمون العلماء ويشاجرونهم لاجل نجاحهم
 في حسن الصيت وسمو المراتب . واللصوص يسجون امان الاغنياء بسرقاتهم .
 والعشاق ينازعون لذة بعضهم بعض . ويبتغي كل واحد منهم الوصال واللذة لنفسه
 وحده * والنتيجة من كل ما اوردناه ان كل شيء في الارض لا يخلو من الغيرة
 والمخاصمة والاختطار والتألم والحزن * فهل يسوغ لنا ان نرغب المكث مدة مستطيلة
 في مكان حاوٍ مثل هذه الاتعاب والبلايا * لقد كان سينكا الفيلسوف يقول : ان
 الطبيعة جعلت بمكر دقيق ان يولد الانسان خاليا من الادراك . لأنه اولا ذلك .
 لما ارتضى احد ان يوجد في العالم . اي لو عرف حقيقة الدنيا وعظم اخطارها قبل
 ان ينزل من مستودع أمه * فاسمعوا نص كلام هذا الفيلسوف لأنه دقيق ورائق *
 قال : أنه لا يوجد شيء غاش ومعربس أكثر من حياة الانسان . ولعمري أنه لو لم
 تُعط هذه الحياة للناس وهم غير داركين . لما ارتضى بها احد . انتهى * ونحن قد عرفنا
 هذه الدنيا واخبرناها وادركنا حقيقتها . فهل يليق بنا مع ذلك ان نحب اطالة
 المكث فيها * فهلم نحو السماء يا معشر المؤمنين المبليين العابدين . هلم نحو السماء .
 وان كنا لا نستطيع الآن ان نصعد اليها بالجسد . فلنصعدن على القليل بالروح .
 وان كنا الآن عاجزين عن المكث داخلها بالحضور . فلنكث على الاقل بالفكر * ولكن ما
 الذي ينبغي لنا ان نعمله لكي ننهض ونصعد كل هذا العلو الشاخص . فيها انا استعير مركبة

للععود ان احوجتنا الضرورة الى ذلك * ولكن لا استعيرها من مادياً ولا من ترتيبهموس وما لنا وحكايات الوثنيين وخرافاتهم . بل استعيرها من ايلياء النبي * واياكم ان تخشوها ولو كانت مركبة من نار كقول الكتاب المقدس « واذا بعجلة من نار وخيل من نار » (٢ ملوك ٢: ١١) * لان هذه النار تضيء وتحيى . ولكنها لا تسيء ابداً بل ينبغي ايضاً ان تكون من نار . لانه لا يكفينا ايما شوق كان لنصعد الى السماء . بل يلزمنا الشوق الحار المضطرب فقط * فاذا رفعتم انا فوق السحاب . فلا اريكم في هذا الصباح سوى ابتداء توجه النفس الى المجد . ومن ذلك اجعلكم ان تستوعبوا ابتهاجاً وترتكضوا فرحاً نظير بطرس حينما عاين في جبل تابور لمعة يسيرة من هذا المجد . لا بل اعلي ساجد فيكم اشتياقاً اليه شديداً . حتى انكم ستضطرون ان تهتفوا مع بولس الرسول قائلين « من ينقذنا من جسد الموت هذا » (رومية ٧: ٢٤) من يكسر عنا هذه القيود الجسدية فاننا ما عدنا نستطيع احتمالها ايضاً * فارصدوا عقولكم فتروا ما قد وعدتكم به مقتنعين لا من قوة كلامي بل من عظمة الموضوع الذي نحن فيه *

فليتصورن كل منكم في عقله انه قد بلغت الساعة السعيدة التي فيها ثقل مرضه . ورفعت الاطباء منه ايديهم . ودنا وقت ابتداء الارض بالسماء . فليتردد مع جميع اقربائه واحبائه قائلاً لهم : امكثوا جميعاً بالسلام يا احبائي . ها ان الملكوت ينتظرني . وانا ماض اليه لكوني « الى بيت الرب اذهب » (مزمو ١٣١ : ١) * ولينقض كل منكم الآن روحه . واصعدوا على العجلة النبوية المذكورة المعدة لكم . وانا برفقتكم ولست افارقكم * فلنشدهم الالهة ولنتنهر الخيل ولنرتفع الى فوق * ما احسن وما ابهى هذا السفر الذي تباشرونه باقل من ساعة . ما اكثر الفرح الموجود فيه * هذا هو الذي كان داود النبي يتوق اليه عندما كان يعزي نفسه عند حلول احزان هذه الارض عليه برجاء الافراح الآتية . ويخاطب الهه قائلاً « اعابن سماواتك عل اصابعك . القمر والنجوم التي اقمتهما » (مزمو ٨ : ٤) * فنجوزون اولاً في عنصر

الهواء وتعاينون كراته واحدة واحدة * فالكرة السفلى هي حارة من قبل انصدامها
 بالاشعة الشمسية التي هي من اسفلها وانعكاسها نحوها. والكرة العليا شديدة الحرارة
 لسبب قربها من عنصر النار الذي هو من فوقها. والكرة المتوسطة باردة جداً.
 لأن النار التي فوق الكرة العليا بعيدة عنها. وانعكاس اشعة الشمس من الارض لا تبلغ
 اليها * وتبصرون في هذه الكرات الثلاث الفسحة المتسعة المفتوحة للرياح حيث يلاطم
 بعضها بعضاً كأنها في معركة حرب لا تقار * وتفهون ما هي علل اختلاف حركتها
 ومضادة بعضها بعضاً. ومن اين لهذا العنصر الخفيف اللطيف هذه القوة العظيمة
 المقدار التي تقتلع اشجار الغابات وتهدم الابنية وتزازل الارض. وترون هناك كيف
 تتلد مبادئ الاشياء المرئية التي تعجز العلماء عن تفسيرها. اعني قوس قزح التي تشكل
 الغيوم بالوان متنوعة حسنة المنظر. والندى الذي يرضع الزهر. والمطر الذي يستي
 الارض. والثلج الذي يكسو الجبال بياضاً. والبرد الذي يدمر الزروع والشجر *
 ولا يعود حينئذ احد يستطيع ان يقول لكم على سبيل الهزو والازدراء كما كان
 يقال لايوب « ادخلت خزائن الثلج. امر رايت مخازن البرد » (ايوب ٢٨: ٢٢) *
 وحينئذ تفهون ما هي الادخنة النارية التي كانت ترى في كبد السماء بشكل النجوم
 وتخيف عطاء الارض واربابها لعله تاثيراتها المؤذية. وتفهون ما هي النيران الملقبة
 بالمتحيرة والتنانين النارية الطائرة. والنجوم المنقضة. والجوش الهوائية التي تراءت
 كأناس مسحيين يجارون في الجوّ * واذا جزتم داخل تلك الاماكن المتسعة التي
 هي في جوف السحاب ورأيتم من اين يصدر هذا المقدار من البروق والصواعق
 والرعود. فلا تخناجون ايضاً الى الدرس والفحص في كتب العلماء الفلكيين لتعرفوا
 البروق أي نار تمتد باسراع في الجوّ. والصواعق أي نار تحبس متلبدة ما بين
 السحاب. والرعود أي كجهر متقد يطفأ بسرعة في الهواء البارد كما كان يهذي
 انكساغوراس الفيلسوف الوثني. ام هي بخار خارج بعزم شديد من الغيوم المتلبدة
 كما كان يزعم ارسطوطاليس * ولا تظنوا انكم ترتعدون من هذه المناظر العجيبة.

لأنكم تكونون قد عاوتم على العواصف والزوابع. ولا تخافون بعد ذلك ان تفقدوا
 كرومكم من البرد او بيوتكم من الصواعق. او املاككم من فيضان الامطار.*
 فليخف من هذه العواصف من هو بعد مقيم في الارض.* واما انتم فبعد ان تجوزوا
 كرة الاسوية تصعدون ايضاً الى كرة النار التي هي هناك ساكنة هادئة غير متحركة
 لأنها في المركز المخصص بها. وترون انكم قطعتم من السفر من دون تعب مائة وستة
 وعشرين الفاً وستماية وثلاثين ميلاً. وعند ذلك تبلغون الى الفلك الاول من
 الافلاك السبعة وتشاهدون القمر.* وحينئذ يقول كل منكم: اهذا هو الكوكب الذي
 كنت اعاينه صغيراً اذ كنت متردداً على الارض. وهاهوذا الآن اراه كبيراً عظيماً.
 وهو لا محالة النير العجيب الذي كان في الارض يشغل جماً غفيراً من العقول في
 تعريف حقيقته. ومع ذلك لم يبلغ احد الى معرفتها مع انه نظراً الى الارض اقرب
 من سائر الكواكب.* الآن قد شاهدت ما هي البقعات السود التي كانت ترى فيه
 وكان يفحص عنها الفلكيون. والآن فهمت من اين صدر فيه الكسوف والمحاق والماء
 والاستدارة والنقص وسائر التغيرات والاختلافات التي كان يتبدل بها لاجل
 خير البشر الترابيين. وهم عوضاً عن اظهار الشكر بخصونه بشائبة التقلب.* ما احق
 الفلاسفة الذين ارتأوا انه ههنا يوجد عالم آخر يشتمل ايضاً على بقاع وجبال وبحار
 وقفار ومساكن. فهو لآء المساكين لم يحظوا قط بالصعود الى هنا ليزيلوا الخداع
 من عقولهم بالمشاهدة العيانية.* او اوهكم من المال بجناب مثل هؤلاء ان ينفقوا على
 غيرهم من الحكماء لكي يستطيعوا ان يفهموا ما انا الآن فاهمه. اعني مصدر التأثيرات
 الخفية المعجبة الواردة من هنا دائماً الى الارض. وان يفهموا ايضاً هل القمر هو
 علة جزر البحر الدائم ومدته. ودل هو الذي يطبخ من المعادن النضة لا الذهب
 الذي نسب بعض العلماء طبخه الى الشمس. ولا الحديد الذي تسبوا طبخه الى
 المنيخ. ولا القصدير الذي تسبوا طبخه الى المشتري. ولا الرصاص الذي تسبوا طبخه الى
 زحل. ولا النحاس الذي تسبوا طبخه الى الزهرة. ولا الزئبق الذي تسبوا طبخه الى

عطاردهم فهكذا تتكلمون وانتم مندهلون من العجب لما ترونه من الاشياء البدعية في فلک القمر. وتوهمون انه هناك هو سماؤكم. لكن سوقوا العجلة يا احبائي لانه ينبغي لنا ان نصعد الى ما فوق كثيراً ايضاً *

فمن بعد ان اطلعتم على فلک القمر وهو الفلک الاول من الافلاك السبعة. تنتقلون الى فلک عطارده. ثم الى فلک الزهرة. ويمكن انكم لا تلبثون زماناً مديداً في الاطلاع عليها بالتدقيق لتفانم الاشتياق الذي يضطرم بكم الى ان تبلغوا الى فلک الشمس بعد ان قطعتم في السير اربع ربوات من الاميال. لان هذه هي المسافة الكائنة من وجه الارض الى كرة الشمس حسبما رقم علماء الفلك * وهنا تستمرون مدهوشين اوفر اندهاش لا محالة. لكونكم تعينون جرماً اكبر من كرة الارض كلها مائة وستة وستين مرة « وكنه مملوء من مجد الرب » (سيراخ ٤٢: ١٦) كما جاء في سفر ابن سيراخ. وكنه جمال وضياء وزينة تفتن الابصار. ولجل ذلك لقب في الكتاب المقدس « تارة جباراً لسبب عظمه. وتارة خنتاً من اجل حسنه » (مزمو ١٨: ٦. و ٧) * وتشاهدونه في الطبقة الرابعة كأنه جالس بمقام السلطان في وسط ولايته يوزع على كل الاجرام الفلكية من ثروته على حد سوى ولا سيما الارض التي يؤثر فيها بنوع عجيب. ولجل ذلك ركزها الله جلت حكمته في نصف دائرة السماء مبتعداً عن الارض ابتعاداً معتدلاً * لانه لو كانت قريبة من الارض. لاحرقتها وجعلتها رماداً. ولو كانت بعيدة منها جداً. لكانت توجد باردة دائماً كالجليد * وتعينون هذا الكوكب اعني الشمس كأنها روح العالم. ومنها تفيض على الدوام الحياة الى الاعشاب والازهار والزرورع والاشجار والى جنس الحيوان ايضاً. وهي التي تسدي الى النجوم الضياء وترتب الايام وتقدر السنة وتقسّم الفصول الاربعة * ومع كونها ملك الكواكب وسلطان الارض ليست بثابتة غير متحركة كما زعم الفلكيين. بل هي متحركة على الدوام في كل دقيقة لاجل خير العالم. بل تجري ايضاً جرياً سريعاً خفيفاً حتى انها في ساعة واحدة فقط تقطع مسافة من الاميال ربوة ومائة

وستين الف ميل * وعندما تعينون ذلك تهتفون قائلين : اين هو اودوكيوس
 الفيلسوف الشقي الذي اشتمى ان يعطى ان يدنو من الشمس لكي يعاينها من قرب
 عياناً ويعرف حقيقتها ويقدر كبرها ويرقب حركاتها ولو اضطر ان يحترق داخل
 اجيها * ها نحن فائزون بما كان هو يشتهي من غير مضرة البتة * ثم بعد ان
 نفروا بها وشاملوها بالتدقيق . تحركون الى الغيظ على الفلاسفة القدماء . وهم
 ديمقريطس ومرتدورس واوربيدس وانكساغوراس . لان الاثنين الاولين زعا ان
 الشمس هي من حديد محي والاثنين الآخرين اخترعا قائلين : انها انما هي دائرة
 من مادة جامدة مذهبة . وكانهم جميعاً قصدوا بذلك ان ينقصوا من مجد خالقها *
 وحينئذ ترفعون اصواتكم وتهتفون قائلين : يا لعظمة الاله التي لا تدرك . كم انت يا
 رب حسن وبهي في ذاتك القدوسة اذ كنت تستبين عجباً هكذا في صورتك
 الميته * اني ارى كل ساعة نحو مائة سنة الى ان ابلغ واشاهد عظمته تعالى الالهية
 «متي اجيء وانظر الى وجه الله» (مزمو ٤١ : ٢) * فلنسرع ولنجز بقية الافلاك . ولا
 نستمرن في التأمل فيها . بل لنصعد عاجلاً الى الفلك الاطلس الذي قال عنه
 داود النبي حيبنا انه فيه «يظهر مجد الرب» (مزمو ١٠١ : ١٧) *

لا ريب في انكم ستبلغون الى الفلك الاطلس * الا انه قبلاً يجب ان
 ترمقوا بلحظة واحدة الكواكب الثلاثة الباقية . وهي المريخ ثم المشري ثم زحل *
 لان الطريق التي انتم مسافرون فيها الى السماء هي على افلاكها * وبعد ان اطلعتم على
 عظمها وحقيقتها تاثيراتها وحركاتها يلزمكم ايضاً ان تجوزوا صاعدين الى العلاء
 بفلك الثوابت اي النجوم ويسمى ايضاً لاجل ثباته وعجيب جماده جلدًا * ثم اني
 لعالم بانكم عندما تبلغون الى هذا الفلك البهي المبهج بمقدر يفوق الوصف . تسألون
 هل هذا هو فردوس النعيم : كلاً انه ليس هو الفردوس يا احبائي . بل ان الفردوس
 هو بعيد عنه ايضاً جلدًا * لان الفلك الاطلس الذي هو وطن القديسين هو بعيد
 عن سطح الجلد المذكور بعداً اكثر من بعد وجه الارض الى سطح الجلد . والحال

ان المسافة المتوسطة ما بين الارض والجند وهو فلك النجوم كما قلنا تنيف على ما
حسب العلماء الفلكيون على مائة وستين الف الف من الاميال * وماذا نقولون عن
جوف هذا الفلك المتسع الرحب الجامع داخلة كل النجوم غير المحصاة التي قال
عنها الحكيم ابن سيراخ «انها لا تتغير عن سيرها» (سيراخ ٤٢ : ١١) * ما اعظم ما
يكون سروركم عندما تاملون ضياءها وبياءها اللذين يسموان على بهاء الذهب
والبلور بلا حد * واذا تاملتم الاختلاف العظيم الكابن ما بين حسن هذه المخلوقات
العلية والمخلوقات الارضية السفلية. فلا بد من انكم تحنون رؤوسكم الى اسفل لتلظوا
الارض وبو لحظة واحدة وتقابلوها مع السماء. وحينئذ يصح فيكم ما هتف به اشعيا
النبي قائلاً «ان اعينكم تبصر الارض من بعد» (اشعيا ٢٢ : ١٧) ونقولون: اين هي
الآن الارض التي كانت سكناي. اين هي داري. اين املاكي. اين بلدي. اين
ملكتي. اني ارى الجميع كنقطة واحدة سوداء: ما اشد ظلام الليل الشامل الارض
والساكنين فيها بالنسبة الى هذا النور الساطع البادي ازاء عيني وهذا الصحو الجلي
المبهج الفاتر انا به * ومع ذلك فقد كان يوجد من يشير علي بان اضع رجلي هذه
السماء تحت خطر الخسران كي ازيد ملكي شبراً واحداً من الارض * فيا ايها البشر
الحقني العديموا المعرفة ونور الهدى. ما بالكم مجتهدين متعوبين لتوسعوا حدود املاككم
او ولاياتكم. والحال ان تلك التي بها تمشون وبها تحاربون وبها تدبرون رعاياكم انما
هي نقطة لا غير. وميدان عظمتكم انما هو دائرة صغيرة ضيقة من الارض. جزء منها
ايضاً تخلصها منكم الانهار والبحار. وجزء منها تمنعكم عن امتلاك الجبال والقفار *
اتي هذا القليل من الحوزة تصرفون همتمكم وبغاير احدكم الآخر. وفيها تنصبون
مجدكم. وفيها تطلبون سعادتم. وفيها تحبسون اشواقكم وافكاركم كأنكم آيسون من
امتلاك هذه السموات المبهجة البهية المتسعة * يا لكم من اناس خالين من البصيرة.
فانهضوا رؤوسكم وتفرسوا ما هو المعد لكم فوقاً «ارفعوا الى العلاء اعينكم وابصروا»
(اشعيا ٤٠ : ٢٦) كما يناشدكم اشعيا النبي * اما تقررون انتم ايضاً ان دائرة سطح هذا

الفلك اي فلك النجوم تحوي من الاميال الفاً وسبع عشرة الف وخمماية واثنين وستين الفاً وخمماية ميل: «الستم تعلمون، افلم تسمعوا» (اشعيا ٤٠: ٢١) * ان هذا كلك هو لكم. لان «الذي يغلب هو يرث هذا» (رويا ٢١: ٧) * نعم ان هذه البقاع الحسنة هي لكم. ولكم هذه الكرات. ولكم هذه الكواكب والنجوم التي اصغرها هو اكبر من ارضكم عشرين مرة *

واظن انكم تصرخون وقتئذٍ نظير من اعترأه الم او شوق قوي وبشبهة بصراخه حتى في المكان الذي يعلم انه لا يسمعه احد الى ان تجوزوا فلك الثواب وتكون الكرة التاسعة والعاشرة اللتين يسميها كثير من العلماء باسم واحد اي بالفلك البلوري * وهناك ستعرفون ما هي مادة هذه الافلاك كلها التي حتى الآن يتجادل عنها المعلمون. وليس احد منهم بلغ ان يعرف حقيقتها. لانها تسمو على البصر والادراك * واما انتم فانكم ستحققون عياناً اي سيالة نظير الاثير او الهواء ام هي جامدة صلبة نظير النحاس. كما كان راي ذلك المعلم صديق ايوب البار المدون كلامه في العدد الثامن عشر من الاصحاح السابع والثلاثين من سفر ايوب * وبعد وصولكم الى هناك تبصرون المحرك الاول. ولكن ما اعظم ما يكون فرحكم حينما تدركون عياناً ما قد عجزت عقول البشر عن ادراكه وشرحه. اعني رتبة حركة هذا المحرك الاول ومقدارها وقواعدها. وتبصرون هذه الحركة صادرة من مشية الله تعالى وقدرته المطلقة فقط من غير واسطة كما ذهب القديس البرنس الكبير. ام ناتجة من فعل الملائكة بحركتها كما ارتأى القديس توما العلامة * وستعرفون المحرك الواحد ام كثيرون. وتحققون مسرورين اصحح ان الافلاك تبدي صوتاً شجياً لذيذاً بحركتها العجيبة كما زعم علماء كثيرون *

غير انني اعلم متيقناً انكم وان سمعتم هناك الذ اللحان واشجى الاصوات. فليست هذه بكافية ان تعوقكم ساعة واحدة عن مسيركم. لان اللحان اللذيذة والتهايل العذبة والغياض الاربضة الانيقة معدة لكم فوق هذا المكان * هلموا

وافرحوا. ها قد بلغنا امام الفردوس. فلتسرع «ونجاهد في ان ندخل تلك الراحة»
(عبرانيين ٤: ١١) * هذا هو الفلك الاعظم الذي بكيتم عليه زماناً «جالسين على
انهار بابل» (مزمو ١٣٦: ١) * هذا هو فلك الأفلاك ووطن الاحياء المحبوب وملجأ
المتضايقين المبهج اللذيذ ومينا المسافرين المشوق اليه «ها هو ذاقبة الله مع الناس»
(رويا ٢١: ٢) * هل عاينتموه. اما يستبين لكم من بعد انه حسن جميل جداً * ولكن
اعلموا ان كل ما رايتوه من الحسن والعجب والبهاء والضياء في سائر الافلاك
يتوارى عنكم ويضمحل بالنسبة الى هذا الفلك الاعظم كما يضمحل نور السراج
اللطيف مقابل نور الشمس * ان السبب الذي قد حرّكني اليوم على شرح حسن
هذه الافلاك جميعاً ليس هو الا هذا. وهو ان تعتبروا من ذلك ماذا تكون عظمة
المدينة اذا كانت هذه وسامة مزارعها * ناشدتم الله ان لا تضجروا من رصد العقل.
ولا يكن فيكم من يلومني كأنني اتلفت الزمان الى الآن في شرح باطل لا طائل
تحته * فاني لا اضن اني اتلفتة وصرفته باطلاً بل قد رجئته. لاني اقول على سبيل
المقايسة هكذا: انه ان كان اجزاء العالم التي هي معدودة نظراً الى الطوبىاويين
بمنزلة الاقبية السفلية المخرقة التي يدوسونها تحت ارجلهم. هي جميلة كل هذا الجمال
ومزخرفة كل هذه الزخرفة. فاذا تكون الخدور والسرادقات العلية التي يستوطنونها.
والخنادق التي يتخاطبون ويتسامرون فيها. والروضات التي يتنزهون فيها * وان كانت
هذه هي صناعة العمل الذي يرى في الحضيض السفلي. فاذا يكون العمل الذي في العقد
او السقف. وان كان هذا هو ضياء البلاط المدوس. فاذا يكون ضياء الجدار. وماذا
يكون بهاء الحيطان وزينتها * اما ترون انه من اللائق بقدرة الله وسخائه ان يحفظ
هناك اي في الاعالي مسكناً احسن واكمل لانشرح صدور احبائه واصفيائه المكرمين
لديه كمثل القديس بطرس نائبه الذي صلب لاجله. وبولس رسوله الذي ذبح في
حبه. وغيرهما من جمهور الشهداء الذين لا عدد لهم الذين ابغضوا انفسهم من اجله حتى
الموت وحملوا كل اصناف الاهوال وتكبدوا العذابات على حبه * والحال انه قد اسس

هذه المنازل وبنائها في هذه الحياة الدنيا لاجل البشر حتى لاجل اعدائه الذين يمتهمهم. كمثل نيرون الملك وديوقليانوس وداقيوس وكراكلا وغيرهم اشد منهم * فلنتج قائلين: ترى ماذا تكون عظمة حسن وبهاء وكمال مساكن اصفياؤه تعالى واحبائه القدسين *

فلا شك اذا في انكم تعانون وقتئذ تلك المدينة المعظمة مؤسسه بنظام متساو في اجزائها باغرب نوع يسمو على اعلى طبقة من الدنيا وابهاها واجلها * وانه لا تستطيع الاميال ان تقيس دائرتها حسب نص ارمياء النبي القائل « ان كان ممكنا ان تدرع السموات من فوق » (ارمياء ٢١ : ٢٧) * ولا البلور يمكن ان يماثل ضياء اسوارها. ولا الجواهر تقدر ان تضاهي حسن اعمدها * وقد اخبر يوحنا البشير في الاصحاح الحادي والعشرين من جليانه انه رآها مربعة الشكل * واذا اعتبرتم العمل. فيتبين لكم انه اجمل من المادة. واذا لحظتم المادة. فتستبين لكم ابلغ قيمة من العمل * هذه هي المدينة الفائقة الحسن. او كما قال ارمياء النبي « كاملة الحسن » (مرثي ٢ : ١٥) * وتشاهدونها ذات اثني عشر بابا متسعا. مركبة تركيبا عجيبا من اثني عشرة جوهرة ثمينة رآها يوحنا في جليانه بقوله « الاثنا عشر بابا هي اثنا عشرة لؤلؤة » (رويان ٢١ : ٢١) * وما اظرف نقشها وما اغرب ببيانها وما ابهى رويتها. فتهتفون حينئذ مع بلعام قائلين « ما احسن مساكنك يا يعقوب وخيامك يا اسرائيل » (عدد ٢٤ : ٥) * فانا نعاين حسنا ان ههنا هو بيت الله « حتما ان الرب في هذا المكان. ما هذا الايت الله » (تكوين ٢٨ : ١٧) * فلننزل الآن فرحين مهللين من على المركبة التي بلغت بنا الى هنا. ولنقرع الباب. ولنهتف لكي يفتح لنا قائلين « ارتفعي ايتها الابواب الدهرية » (مزمو ٢٣ : ٧) * لكن الاجدر بنا ان لا نتعب في القرع والصياح. لان ابواب السماء تنفتح من ذاتها * وللوقت يخرج الى لقائكم جيش من الملائكة حاملين الذآلات الطرب يدعونكم باعذب الاصوات واشهى الانغام وابهج الغناء الى الدخول. مخاطبين كلاً منا بما قاله عز قوله في انجيله الطاهر « ادخل

الى فرح سيدك» (متى ٢٥: ٢١) * وكانهم يقصدون بهذه الكلمات القليلة ان يظهروا لكم عظمة سعادتهم المقبلة التي هي سعادة غير متناهية وحظوي وافرة لا ترام * ولاجل ذلك ينهونكم بالكلمات المذكورة اي بقولهم « ادخل الى فرح سيدك » كما اعتبر القديس انسلمس . لان الفرح بما انه عظيم نظير البحر المتسع لا يمكن ان تدركه انتم . ولاجل هذا ينبغي ان تدخلوه مستغرقين *

وما انا اترككم ههنا يا معشر السامعين الاحبياء . لاني اراكم قد استودعتم في ايدي شريفة امينة اعني ايدي الملائكة * واما ما سوف ترونه في الفردوس معهم ما تعلمونه فيما بعد فلست ادري به . انه ليكفي ما قد فعلته بكم حيث اوصلتكم حتى الابواب * لان الذي هو داخلها بعيد جدا عن حواسنا حسب شهادة الرسول القائل « لم تره عين ولم تسمع به اذن ولم يخطر على قلب بشر ما اعده الله للذين يحبونه » (اقورنثية ٢: ٩) * وما الذي تهوون ان اقوله لكم انا الدليل البائس الذي ليس لي جزء يسير من معرفة الاشياء السماوية : غير انه يمكنني ان اقول لكم هذا فقط . وهو انكم تدخلون وطنا جديدا خاليا من كل اثر حزن الى الابد . ولا يقبل عليكم هناك ليل يغتمكم بظلامه . ولا حر يضجركم بحرارته . ولا صقيع يؤلمكم ببرده * واما البصر فيجد هناك كل ما يمكن ان يشتهيه من الحسن . والسمع كل ما يمكن ان يتوقعه من لذة الصوت . والشم كل ما يستطيع ان يتغنيه من ذكارة الرائحة . والذواق كل ما يمكن ان يطلبه من الحلاوة . واللمس كل ما يمكن ان يؤثره من النعومة * واما اجسامكم فتعود من قبل الضياء انور من الشمس . وفي الخفة اسرع من الهواء . وفي اللطافة اخرق من النار . وفي عدم التالم اصلد من الماس * واما حياة الانسان فتجتمع في تركيب عمر كامل . حاوية من الصبوة نقاوتها . ومن الشبوية عنفوانها . ومن الرجولية قوتها . ومن الشيخوخة جلالها ومهابتها * وتشعرون هناك بنفوسكم انكم حالا قد امتلكتم كل شي من المرغوبات . فتمتلكون في الحديث لغات كل القبائل . وفي الفهم ترجون معرفة تواريخ كل الاوقات . وفي الموانسة عنوبة كل الاخلاق .

ومن جهة التلميح ريادة كل الاصوات. وفي الاصطناع اختراع كل المهن والصنائع. ومن جهة الادراك تمتلكون دقة كل العقول * فهذا كله يمكنني ان انذركم به. وليس هذا فقط. بل استطيع ايضا ان انذركم باكثر من ذلك جدا * الا انني وان انذرتكم بهذا وبكل ما يمكنني ايضا من الانذار. فهو كل شيء * بالنسبة الى الكثير الذي يبقى من الانذار ايضا * لانه لو لم توجد في فردوس النعيم خيرات اعظم جدا من هذه التي ذكرتها. لما كان يجوز للرسول الالهي ان يدعوها غير موصوفة بقوله «كلمات سرية لا يحل لانسان ان ينطق بها» (٢ قورنثية ١٢: ٤) * والحال ان الخيرات التي ذكرتها ليست هي سرائر غامضة. لكن الجميع يعرفونها ويدركونها ويتكلمون بها * فاذا نلتزم من باب الضرورة ان نتج من شهادة الرسول الالهي انه توجد خيرات اُخر غير هذه عظيمة غريبة عن الادراك والوصف * وانما انذركم فقط بما سيجري لكم في ابتداء الترحب الذي تستقبلكم به الملائكة حسبما تصوّره في عقلي كأنه بالحلم * فيقتادونكم حالا الى عرش الله تعالى السامي الجلال بطريق مرصوف من الذهب. ولكن قبل ان تصلوا الى ذلك العرش الجليل يرونكم في الطريق واحدا فواحدا المنازل الكثيرة التي عزى السيد المسيح بالرجاء بها رسلة اذ كانوا مغمومين قائلا لهم «لا تضرب قلوبكم. ان المنازل في بيت ابي كثيرة» (يوحنا ١٤: ٢) * الا انهم يفهمونكم ان اختلاف المنازل هذا لا يشير الى انه يوجد خلف او منازعة ما بين سكانها او يمكن ان يوجد. لان الجميع هناك مرتبطون بوداد يشتركون فيه اعدم مع الآخرة ومن جرى ذلك فكل فرد منهم يحسب خيرا للجميع خيره. والجميع يعتقدون خيرا كل فرد خيره * ولا تجعل الكثرة حصرا وتبليلا وقلة نظام. والسامون بالمجد لا يتعظّمون على من هم دونهم. ولا الذين هم دون محسودون من هو اعظم منهم. وعدم المساواة في المجد لا يفسخ المحبة * لانه حينما يكن الاستحقاق ساميا على الطبع. فما من احد من الاخوة يطلب او يستطيع ان يطلب من الميراث نصيبا اكثر او اقل مما يراه قد رتبته له ابيه حسب العدل واستحقاقهم * والنتيجة مما اوردناه ان كل

شيء هناك هو باتفاق والفة وسلام وتردد المحبة. ولهذا قال الله على لسان اشعياء النبي « يسكن شعبي في حسن السلام » (اشعياء ٢١: ١٨). ابي في سلام الانسان مع الله. وفي سلام الاسافل مع الاعالي. وفي سلام الجسد مع النفس. وفي سلام الشهوة مع العقل * فعلى هذا النسق يمكننا ان نتصور على حسب معرفتنا ان الملائكة الجليلين الموكلين على اقتبالكم يخاطبونكم في الطريق * وعندما يبلغ جمهور القديسين والطوباويين خبر قدومكم نحوهم. ينهضون وياتون مسرعين الى ملاقاتكم بزمرة حافلة اعظم واجل من زمرة الشبان والصبايا الذين خرجوا الى ملاقاته داود وهو راجع من انتصاره على جليات الجبار * وما اغزر ما يكون سروركم اذا رايتم انبياء بصحبتهم واحداً من اصدقائكم الاعزاء او من اقربائكم المحبوبين يكون قد توفي قبلكم وسبقكم الى السماء. فحينئذ ما الذ تلك القبلات الودادية التي تقبلونه بها. وما احلى السلام الذي تسلمون به عليه. اذ انكم تشاهدون انفسكم قد حظيتم بدوام رفقة من بكيتم على فراقه زمناً يسيراً * وتخاطب وقتئذ الارملة زوجها قائلة: ما هذه السعادة التي حظينا بها يا ايها البعل الودود * والابن يخاطب والدته قائلاً: هل انت ههنا ايها الام المكرمة. ما هذه النعمة التي بها استحققت ان احظى بمشاهدتك واعاينتك: لقد حظيت بعز وشرف اوفر مما حين فارقتيني * هل تذكرين ما كان احدنا يخاطب صاحبه ويقول له: ماذا يصير بنا بعد الموت. اترى نحظى بمشاهدة بعضنا بعض في الملكوت. ها اننا بمجده تعالى قد اجتمعنا معاً. ولا نخاف ايضاً من ان يفترق احدنا من الآخر الى الابد « كذلك نكون مع الرب في كل حين » (١ تسالونيقي ٤: ١٦) * ثم بعد ذلك اهلوا متحققين يا معشر السامعين الاحباء ان فرحكم لا يكون اقل من ذلك حينما تبصرون ايضاً ما بينهم اولئك القديسين الذين تعبدتم لهم في الارض عبادة خصوصية. وزرتم كنائسهم بخشوع وورع. وصنتم وتصدقتم على الفقراء اكراماً لهم. وكتبتم او تعبتهم في تفريرهم ومدائحهم * لعمرى ان الفرح الذي يلم بكم من مشاهدتكم اياهم اذ ياتون الى لقاءكم سيكون عظيماً جداً * ان بعض الناس قد

مضوا من بلادهم الى بلاد بعيدة شاسعة ليروا طيطس لبيوس الذي كان حينئذ
اسمه ذائعا في امصار الارض لوفور عليه. وقد احسبوا مشاهدته وحدها جزءا
موازيا للمشقات والنفقات التي كابدوها في ذلك السفر الطويل * فليت شعري كم
يكون فرحكم عظيما وساميا على فرح اولئك حينما تعينون في الملكوت مثلاً بطرس
رئيس الكنيسة وبولس معلم الامم وتوما شمس المدارس وهيرونس واوغسطينس
ويوحنا فم الذهب وباسيليوس الذين شرفوا الملة النصرانية بعلمهم وكتبهم وسموهم
قد استهم * ولا ريب في ان كلاً منكم يستطيع ان يخاطب هؤلاء وغيرهم ايضاً من
القدسين الذين احببتهم في الارض بكلام ايوب البار قائلاً «بسماع الاذن سمعتكم»
(ايوب ٤٢: ٥) * لقد سمعت وخبرت مرة عن فضائلكم وعظمتكم ومجديكم. وكنت افرح
واسر بذلك «فالآن عيني قد ابصرتم» ولم اعد محتاجاً ليخبرني احد. لانني شاهدتكم
بعيني * وحينئذ ترغبون قاصدين ان تجثوا امامهم ساجدين لاكرامهم. فلا يتركونكم
ان تفعلوا ذلك. بل ياخذونكم حالاً بايديهم وينهضونكم قائلين لكم بانكم لستم الان
من تعبدون لهم. لانكم قد صرتم جالساً هم ورفقاءهم واقربانهم «فلستم بعد غرباء ولا
دخلاء» (افسس ٢: ١٩) كما كنتم سابقاً «بل انتم شركاء اهل مدينة القديسين» والذي
هو ابلغ من ذلك هو انكم انتم شركاء «اهل بيت الله» *

نعم بهذه المرافقة الشريفة تسيرون وتنقربون الى عرش اللاهوت العظيم.
وتشاهدون من عن يمينه تعالى بفرح واندهاش لا يوصف عرشاً مهيباً ذا عزة
تفوق على الادراك. جالساً عليه يسوع منقذكم العزيز * وتشاهدون من عن يسار
ذلك العرش الالهى منبراً آخر حسناً بهياً الى الغاية جالسة عليه مريم البكر سيدتكم
المحبوبة. وبعد تقدمتكم لها الاكرام والسجود الواجب باعظم سرور القلب تستنير
عقولكم بنور جزيل. وترون ما يقصر العقل عن ادراكه ويعجز اللسان عن وصفه *
وما احسن وما ابهج ما تكون هذه الرويا. وهي انكم ترون الله تقدست اسماؤه جالساً
على عرش اللاهوت العظيم المشار اليه انفاً بضياء وجلال ومجد يعلو على كل قول *

لأنكم تشهدونه تعالى مثل ما هو في ذاته القدوسة . او كما قال يوحنا الحبيب
«سترونه على ما هو عليه» (يوحنا ٢: ٢) * وما هو معنى هاتين الكلمتين يا أيها
السامعون اي تشهدون الله : ليت شعري من يمنح لعقلي قوة ويهب للساني فصاحة
لأستطيع ان افسر جزءا مما تشهدونه * انكم تشهدون ذلك الذي كان كافيا
لذاته منذ الازل من غير ان يفتقر الى عقل خارج عنه ليعرفه . ومن ذلك لم
تنقص سعادته لأنه كان قائما وحده . ولم يخس مجده لأنه كان محتجبا وغير معروف *
تشهدون الذي هو سعادة جميع المبروات الذي يعطي الجميع الوجود وهو لا ياخذ
من احد . ويمنح الجميع الحياة وهو لا يتناولها من احد . ويهب للجميع القوة وهو لا
يحتاجها من احد * وتشاهدون الذي في حين واحد هو الابد منا والاقرب الينا .
الذي لا يحد في مكان ومع ذلك فهو موجود في كل مكان . الذي لم يكن زمن
الا وقد وجد فيه * واذا ما شاهدتموه . فلا تظنوا انكم تبصرون شيئا من الاشياء
التي ترونها خارجا عنه . لان هذه كلها مخلوقة وهو غير مخلوق . وهي هيولية وهو عز
شانه بسيط . وهي مقيدة وهو مطلق . وهي محدودة وهو غير محدود . وهي زائلة وهو
عديم الزوال . وهي ناقصة وهو كامل * ومع ذلك كل ما ترونه خارجا عنه ترونه
فيه حال مشاهدتكم آياه * فتشهدونه تعالى كيف هو وحده يعمل في كل المخلوقات
من دون تعب . وكيف ان كل شي من المخلوقات هو فيه . فتعاينون فيه كل ما
تستحسنونه في الشمس . وكل ما يسركم في النجوم . وكل ما يفتن نظركم في الازهار .
وكل ما يؤنسكم في المياه . وكل ما يشرحكم في الهواء . وكل ما يقوتكم من المأكول
وكل ما يانذ لكم في الاحمان * فهذه الاشياء كلها ترونها فيه . ولكن ليس مثلما هي في
ذاتها . بل في حال الكمال والحسن الموجودة هي فيه * فلا تشهدون فيه نقصا
البتة . لكونكم تشهدون فيه نقاوة خالية من كل عيب . وحسنا لا يداخله هزال
ولا ذبول . وقوة لا مضاد لها . وعلم ليس له مصدر من معلم . وصلاحا لا يشوبه
الم . وجوهرا منزها من اعراض . وحياة غير خاضعة للموت . وعلى الاطلاق اقول

انكم سترونه على ما هو عليه. ما اعظم سعادتكم وما اجل حسن حظكم ونصيبكم في مشاهدتكم هذه * من يستطيع ان يصف ما يحدث في قلوبكم في اول هذه المشاهدة. ما اعظم الغرام الذي ياخذكم حينئذ. ما احلى الانخطافات التي تعترىكم * حينئذ تخضعون ساجدين بانضاع عظيم هذه العزة العظيمة. وكانكم تتخذون نفوسكم غير مستحيين لهذا الخير الوسيم. فترغبون ان تنهدوا وتبكو من شدة الفرح الذي يشهركم. ولكن لا يؤذن لكم بذلك. لانه هناك علي ما قال اشعيا النبي «لا يسمع بعد صوت البكاء وصوت الصياح» (اشعيا ٦٥: ١٩) * اذ ان الله تعالى نفسه يمسح يديه الدموع من اعينكم حتى آخر نقطة. كما جاء في سفر اشعيا حيث قال «يجو الرب الاله الدمع من جميع الوجوه» (اشعيا ٢٥: ٨) * ولا يعود فيكم شيء من الم البكاء والحزن والشكوى. لانه وقتئذ اي عند تلك المشاهدة السعيدة تنسى جميع الاهوال والاحزان القديمة. حسب شهادة اشعيا ايضا حيث قال «قد صارت للنسيان الضيقات القديمة» (اشعيا ٦٥: ١٦) * ومن ذا يذكر حينئذ ما اصابه من العذابات والضيقات في الارض من اجل الله تعالى. اتظنون انكم ستذكرون وقتئذ الاصوام والمسوح والتنشئات الماضية: كلا. بل اسمعوا ما يقوله الطوباويون باتفاق واحد في السماء. انهم يهتفون مع داود المرتل «فرحنا بدل الايام التي فيها اذللتنا والسنين التي راينا فيها الضر» (مزمو ٨٩: ١٥) * ولا يقولون بدل السنين التي احتملنا فيها الضر. بل التي راينا فيها الضر. لانهم حينئذ يحنسبون تلك الضيقات وتبضع الاعضاء واحراق الجسد وسائر العذابات المرة التي قاسوها في الارض كأنها اضغاث احلام نظرا الى الفرح واللذة اللذين أعقبا عذاباتهم *

واظن يا ايها السامعون انكم تشتهون الآن ان تعرفوا مني ما الحركات القلبية وما الافعال التي تنعلونها والالفاظ التي تلتفظون بها عند تلك المشاهدة الشبيهة السنية. ولكن لا نرجوا هذا مني. لاني غير عارف بذلك. انما اعرف فقط ما قد استعددت لأقوله عن نفسي اذا ما انعم علي ربي ان احظى بتلك الساعة

السعيدة. وعابنتُ نفسي حاصلًا على التمتع بذلك المجد السماوي العظيم. اي اذا ما
 حظيتُ بقبلة تينك القدمين الالهيتين ومشاهدة ذاك الوجه المغبوط * فانني عند
 ذلك اناحي ربي واخاطبه قائلًا: ان رحمتك يا ابي قد عظمت لدي. ومحبتك
 توافرت علي جدًا. لانك شئت ان تخلص خليقة حقيرة ذليلة نظيري. وانني
 مستحق ان اوقد في الف نار لا ان اتمتع بخير عظيم كهذا. وانني لعالم يا رب ان
 انتخابك لي الى المجد منذ الازل هو من نعمتك ورحمتك لا من قبل استحقاقي * ثم
 اقول ايضا مع النبي «نجاني لانه رضي عني» (مزمو ١٧ : ٢٠) * غير انني اريد ان
 اقول له ايضا: ان هذا نفسه هو فرحي يا رب ونعيمي الاعظم. لاني لو كنت اعلم
 انني قد نلت هذه السعادة من قبل افعالي. لما حصلت لدي لذية بمقدار ما هي
 الان لعلمي انها من كرمك. لان ذلك يحثني على ان احبه تعالى اعظم الحب. وهذا
 فرحي وهذا حسبي * واقول له ايضا: انني اذا حظيت بتأملي ذاتك القدوسه.
 فخطواي هذه ليست من قبل السعادة الواردة الي. لكن من السعادة التي اراها
 فيك * واحب ان اخاطبه ايضا قائلًا: انني اشتبه ان ابذل عنك الذحوة. واحمل
 عذابات الف جهنم. وان كان عدم مشاهدتي اياك تزيدك يا ابي درجة صغيرة
 من المجد ولو كان خارجًا وعرضيًا. فارضى ان افقد مشاهدتك السعيدة حتى بعد
 حصولي عليها. لازيدك هذه الدرجة الصغيرة من المجد ايضا * فهذه الالفاظ وغيرها
 كثيرًا قد تهيأت منذ الان ان اخاطبه بها عز وجل اذا ما حظيت بتلك
 الساعة المرغوبة التي اراه فيها وجهًا بازاء وجه. وعلمت انني استحلت شيئًا واحدًا
 معه بواسطة رباط المحبة. وذلك (حسب تعليم مار توما اللاهوتي) كمثل النار التي
 تلتحف بالحديد وتلجئه. هكذا يتوشحن الله ويلجني حتى انني اظهر قد صرت الهًا والاله
 قد صار ما انا عليه. كما يظهر ان النار صارت حديدًا والحديد صار نارًا * ولكن
 ما بالي اهجس هكذا. وما بالي اهذي انا البائس الذليل بهذه العبارات السامية
 وهذه الاختطافات العلية: العلي حقًا ساحظي فائزًا بهذا الخير العظيم وامتتع به.

اترى ستاتي هذه الساعة التي بها « ترى عيناى الملك في جلاله » (اشعيا ٢٢: ١٧) *
 أما متى ناتي تلك الساعة . متى تاتي * فيا ايتها القيود الثقيلة الضابطة روجي متى
 تنكسرين . متى يكون لي ان اطير حراً معتوقاً لاشاهد الاهي * لعبري اني تائق الى
 مشاهدته كما نتوق النار الى كرتها . والسهم الى غرضه * فيا ما اطول هذه الحيوة .
 يا ما ابعد الموت عني . ان الحيوة صارت لي موتاً والموت سيكون حيوة « من ينقذني
 من جسد الموت هذا » (رومية ٧: ٢٤) * فيا ايتها الجبال والاوودية والغياض والغابات
 والروضات . اني لست اهورى ان ارى بعد شيئاً مما يخص بكم . وما الذي لي ان
 ارى في الارض من الحسن والبهاء بالنسبة الى ما هو معد لي في السماء * فاحفظوا
 ايها الولاة بولاياتكم . ويا ايها الجنود بغلباتكم . ويا ايها العلماء بعلومكم . ويا ايها العشاق
 بملذاتكم . ويا ايها الاغنياء بثرواتكم : اني انا لا اغار منكم ولا احسدكم . لكوني راغباً
 الملكوت . والسماء تكفيني « لان يوماً واحداً في ديار الرب افضل من آلاف » (مزمو
 ١١: ١٢) . اذ ان دقيقة واحدة من تلك السعادة التي ارجوها في ديار الرب السماوية
 تغني اكثر مما انتم فزتم به متنعمين جميعاً من ابتداء تاسيس العالم حتى انقضائه *
 فيا لعظم سعادة النفس التي تمتع بذلك المجد . يا له من يوم حملوا افراحاً ومسرات *
 هذا هو يوم عيدي المعلوم الذي اشار اليه داود النبي بقوله « بوقوا في يوم عيدكم
 المعلوم » (مزمو ٨٠: ٤) * لقد انذهل عقلي يا ايها الاحبياء السامعون وغبت عن
 حسي ولست اعلم اين انا « فلا ادري ابا الجسد انا ام بغير الجسد » (٢ قورنثية ١٢ :
 ٢) * ولا اشعر بما اصابني . غير اني اعرف اني من جهة مجذوب عن حواسي .
 ومن جهة اخرى اعرف ايضاً انه مع انجذابي هذا لا استطيع ان ارسخ ثابتاً في
 حالة واحدة ساعة من الزمان . فلم يبق لي ان اقول شيئاً سوى ان اختم مثلما
 ابتدأت * فلتكن الارض لمن يحبها . وان كان فيكم من يتوق الى ان يكون سعيداً .
 فليعزم ويجتهد ليلبغ الى السماء . ولا يطلبن سواها ممثلاً وصية بولس الرسول
 القائل « اطلبوا ما فوق وافهموا لما فوق لا لما في الارض » (قولس ٢: ٢) *

القسم الثاني

لقد سمعتُ الى الآن في ان ارسم لكم ابتداءً توجه النفس نحو المجد السماوي
وذلك بالمنوال الاقوى والاوضح الذي استطعتُ ان انصوره في عتلي في احدي
تأملاتي الروحية التي قد قضيتها في خلوتي * ولكن مع ذلك فاني ارى ظاهراً ان
هذا الرسم يشبه قليلاً جداً تمثاله الاصلي * ان حزقيال النبي رسم صورة اورشليم
الارضية في لبنة صغيرة من الخبز (حزقيال ٤ : ١) * ولكي انا السخيف العقل قد
تورطت لابلغ اكثر من ذلك في رسي لكم اورشليم السماوية. فانجوا من ذلك كم
اضحى رسي هذا غليظاً كثيفاً * فلا حاجة الى ان يعنني احد عن خطبي هذه بقوله
بانني قد وعظت اليوم في معنى الفردوس بانواع وعبارات ضعيفة لم ترضح ايضاحاً
جيداً عظيمة مجد السماء * قلت لا حاجة الى ان يعنني احد بهذا. لانني انا عالم به
وهقر بذلك. ولكن لا تستغربوا هذا. لان من جملة الاشياء التي تفيد الواعظ لاثبات
عظمة الموضوع عجزه عن ان يستوفي كل ما يحق له. اي لذلك الموضوع. واذا تكلم
فيه قليلاً لقله علمه وخبرته. فيلاية ذلك لينتج نتائج عظيمة * فانا عالم بانني لم اشرح
حتى النزر اليسير من الخير العظيم الذي يفوز به القديسون في السماء. ولكن مع
هذا فلنخسب انه ليس لهم في السماء الا الذي شرحته لكم. افما يبين لكم هذا الخير
انه اهل لبيتاع باية نفقة كانت. فكيف وهو عظيم فائق على ما خاطبتكم به جداً
جداً حتى ان كل ما شرحته لكم هو كلا شيء بالنسبة اليه * وان كانت مع ذلك
ترتابون في قولي ان هذا الخير وحده الذي خاطبتكم فيه وشرحته لكم يستحق ان
يبتاع باية نفقة كانت. فها انا مستعد لأزيل ارتبابكم هذا وافنده بمثل واحد
فقط قد استفدته من القديس يوحنا الذهبي الفم. وهو قوله: اني اذا وعدت جميع
السيوخ الذين طعنوا في ايامهم الموجودين هنا في هذه الكنيسة قائلاً لهم فقط :
اني انزع من وجوهكم الهرم. ومن جباهكم الاسارير. ومن رؤوسكم الشيب. ومن ابدانكم

الكهنزال والضعف. واردكم بعد ذلك الى شبيبة زاهرة نصره تستطيعون ان
 تعيشوا بها ايضا اصحاء اقوياء متعافين مبتهجين الف سنة من عمر جديد. فليت
 شعري ما الذي لا يعطوني آية * لقد سمعت وانا شاب خيرا غريبا من اناس. وهو
 ان رجلا شيخا يقال له اسون اراد ان يجد شبا به. وارتضى ان يوضع على جسمه
 كله نار وكبريت متقد وهو داخل مرجل يغلي. ثم قدم عنقه فرحا مسرورا الى
 عجوزة ساحرة اسمها ماديا لتخرج منه دما. لانها كانت قد خدعته ووعدته ان تسبكه
 وتجعل في عروقه دما جديدا بمتدار ما تخرجه من عنقه * ولكن لا حاجة لنا الى
 ان نتنازل ونستمع الحكايات الباطلة. اما نرى بعيوننا كم يتعب البشر لكي يمتدوا
 في حياتهم ولو سنة واحدة فقط * وكم ينفقون لذلك. اما نشاهدكم يبلغون الى ان
 يمشوا ثمنا وافرا ايضا اجرة لمن يجرهم ويقطعهم بالحديد ويكويهم بالنار ويزعمهم
 بالمعاجين التفهة الكريهة. ويعذبهم بالشربات المرة * وكم من المال اعطى انطيفونس
 لاراستراتوس طبيبه * وكم حنح وهب فلاريدس لبولكلادس طبيبه * ولكن لعرض
 عن ذكر الاخبار القديمة. اليس من المعلوم عندنا ان لويس الحادي عشر ملك
 فرنسا لاجل رغبته المفرطة في امتداد الحبة كان يمنح طبيبه في كل شهر عشرين
 الف درهم ونيفا مع انه لم يكن يقدم له غالب الايام الا اكره الادوية وامرها ذوقا
 وطعما * فلو كنتم ترجون مني تجديد شبابكم واطالة اعماركم كما قلنا انفا. لما كنتم
 تمسكون عني شيئا اصلا. وكنتم تقبلون مني كل شور * فلو قلت لكم مشيرا انه يجب
 عليكم ان تصالحوا اعداءكم وتصفحوا عنهم تماما. او ان تبطلوا الشتم والتجديف من
 افواهكم. او ان تقطعوا العشرة مع ذاك الشخص الذي افنتتم بحبه. وبذلك كله
 تطول اعماركم. لقباتم كلاهي واطعتوه طاعة تامة. بل كنتم تستسيرون سيرة القديسين *
 قال القديس الذهبي فله المقدم ذكره: انه لكي تحصلوا على الوعد المذكور تفاعلون
 كل ما تؤمرون به. وتحنلون كل عذاب يعرض عليكم * اجيبوني الان: ان كنت لم
 ابين لكم شيئا من الخيرات التي في الفردوس. افما بينت لكم على القليل هذا. اي

شبهوية نضرة غير متغيرة دائمة الى الابد * نعم نعم هذا حق لا يشوبه شك . لان الكتاب المقدس يشهد قائلًا « يتجدد شبابك كالنسر » (مزمو ١٠٢ : ٥) * فيجب ان يكفي هذا فقط ليضرم في قلوبكم شوقًا حارًا الى الفردوس ويجعلكم تستسهلون لاجله كل تعب . وتستعذبون كل عذاب * ولكن العلي اكتفيت بهذا فقط . اما وعدتكم ايضًا بمعاينة شيء عظيم من الافلاك البديعة الحسن . وبامتلاك عالم لا يحد . وبرفقة قدسين وابطال لا يحصى عددهم . وبانواع الملائكات وبالوصول على مقدار عظيم من العلوم . ومحسن وجمال لا يرام . وفوق كل شيء وعدتكم بمشاهدة ربكم مواجهة . وهي وحدها فقط تكفي لتملأ قلوبكم وتشبعها من الاشواق والملائكات الراهنة . لانها على ما قال بولس الرسول « تفعل كل شيء بكل احد » (١ قور ١٢ : ٦) * فهل يمكن الآن ان نتكاسلوا عن ان نعملوا لاجل هذا الكثير ما تفعلونه لاجل ما هو اقل منه * وما بالي قلت هل يمكن . والحال ان هذا هو شانكم يا ايها السامعون . وهو انكم تعتبرون خيرات هذه الارض التي هي اقل وادنى من خيرات السماء بلا قياس التي يحق لها ان تلقب « بالرويا الكاذبة » (سيراخ ٢٤ : ٢) . كما لقبها بذلك ابن سيراخ الحكيم . وتبتغونها وتبتاعونها باغلي الثمن * اما خيرات السماء فلا . بل اذا احوجت الضرورة الى التنضيل . ففي غالب الاوقات تفضلون الزائلة الفارغة على هذه الراهنة الدائمة . والذي يطرح وينبذ اولًا هو الملكوت * فاذا اضطر المسيحي مثلًا ان يخسر اما الملكوت او فضته . فانه يقبل خسارة الملكوت لا خسارة الفضة * واذا ألزم ان يفترق اما عن الملكوت واما عن امراته . فيجب ان يفترق عن الملكوت لا عن امراته * واذا اضطر ان يتنزل اما عن الملكوت او عن شرفه . فيسر ان يفقد الملكوت لا شرفه * فبما للعجب من ذلك ايها السامعون * ان التاجر اذا كان مسافرًا في البحر وعرض للسفينة اضطراب عظيم . فحصلت على خطر الغرق . فانا اعلم انه يفرغ جهده كله اولًا في ان يحفظ بضائعه كلها . لان جميعها كريمة لديه وقد عانى تعبًا جزيلاً في وسفها . ولكن اذا تعاصفت الرياح

واضطربت السفينة وتعالّت الامواج وصرخت النوتية ودنا خطر الموت واضطرب
من قبل هذا كله ان يلقي في البحر بضائعه. فإذا يفعل: العلة يضع يده على
البضاعة الثمينة ويلقيها في البحر * حاشا. لكن يشرع أولاً في الفاء احتر البضائع
بوجه عبوس ويد مرتجئة. فيجمل أولاً صندوق القماش الذي او المتاع الردي
ويطرحه في البحر. ثم ان لم يسكن النور. فيجمل صندوقاً آخر من الحرير ويلقيه.
وان كانت الامواج لم تهدأ ايضاً. فيجمل صندوقاً آخر من العطور ويزجّه في
البحر * واذا بقي له علبة من حجارة كريمة. فهل تراه يسح بان يلقيها عنه حالاً ولو
استمر البحر يهدر ويزجر كأنه يطلبها منه * كلاً: انه لا يجب ان يعطيه ايها. بل
يسترها ويخفيها باحتراس عظيم * ولكن اذا اطّعت عليها النوتية العازمون على
تخفيف السفينة بالفاء جميع الوسق خوفاً من الموت والزموة بالفاء. فانه يجملها
بيديه ويضمها الى صدره ويبلها بدموعه. ثم يتقدم الى حافة السفينة ويبسط يديه
خارجاً عنها مرة واثنين ليلقي العلبة في البحر. والوقت يندم ويردّها مرة ومرتين
الى السفينة. وربما يود لو غرق مع جواهره ولم يعيش بدونها * فيا معشر السامعين
المكرمين انه لا يمكن صدور حادث من الحوادث يباح لنا فيه ان نلقي الملكوت
ونفقده متقهقرين من جرّاء التجاريب المخزنة مها كانت. لان الملكوت ثمين كريم
جداً « وافضل من جميع اللآلئ. وكل الجواهر لا تساويها » (امثال ١: ١١) * فهو اثن
من المال. واثن من الملائات. واثن من المراتب. واثن من الكرامات. بل اثن
من الحيوه نفسها * ولذلك يقول القديس اوغسطينس: انه يمكن ان يرح. ولكنه لا
يمكن ان يشهن * وان كان ذلك كذلك. فليت شعري ما هو السبب في ان قوماً منكم
يطرحون الملكوت قبل كل شيء ويفضلون فقده على فقد سائر الاشياء قائلين: لنحفظ
الآن عرضنا. ولنحفظ مالنا. ولنحفظ الانتقام. ولنحفظ العشق والقرابة والعشرة. واما
الملكوت فسياتي فيما بعد وقتئذ حينئذ سنفتكر فيه * اننا سنعترف فيما بعد. وسنتوب
فيما سياتي من الزمن. وسنجهتد ان نرجعه بعد فقده. لان رحمة ممكن في كل وقت *

يا لها من غباوة كثيفة . يا له من جنون مربع . يا مملوكوت غير معروف . يا مملوكوت
متهاون به . يا مملوكوت مُحَنَّر عند البشر * يا العجب كيف يمكن ان يوجد كل يوم
هذا المقدار من البشر الوحشيين . وهم الذين يشبهون الحيوانات الحقيرة ولا يحبون
ان يرفعوا اعينهم من الارض . بل لا يزالون منغمسين فيها . ومن جرى ذلك
بصرفون همتهم وافتكارهم وحديثهم وعلمهم كله في الارض ولاجل الارض * فهل
نرتضي نحن بان نكون من عدد هؤلاء الحيوانيين : معاذ الله . بل لنطلب المملوكوت
المملوكوت . ولنعزمنا جميعاً من هذا النهار عزماً متيناً علي ان ننبت كل شيء تستطيع
الارض ان تقدمه لنا * ولنرفع عيوننا وقلوبنا الى السماء * وليقل كل واحد منا في
نفسه « لقد قيلت فيك المجدات يا مدينة الله » (مزمور ٨٦ : ٢) * نعم نعم قد قيلت
فيك المجدات . ومن ذا يستطيع ان ينكر ذلك * ولكن واسفاه علي . لقد تأخرت
عن معرفة هذه المجدات التي قيلت فيك يا ايتها المدينة الجميلة الشهية . وان
كنت فيما مضى قد فضلت محبتك على محبة الارض . فذلك قد صدر من قلة
معرفتي اياك فقط * ولكن الآن من يستطيع ان يفرقني منك . هل « ضرر » (رومية
١ : ٢٥) : كلاً . لانك صرت لي من الآن فصاعداً فرحاً مستعذباً . ام هل « ضيق »
كلاً . لانك انت تبدلينه لي براحة لذيذة . ام هل « جوع » كلاً . لانك انت تشبعيني
من من احلى من الشهد . ام هل « عري » كلاً . لانك انت تسربليني رداً ملكياً
فاخراً . ام هل « خطر » كلاً . لانك انت تجلسيني في امان غير متقلقل . ام هل
« طرد » كلاً . لانك انت تعوضيني عنه بالنصرة والمجد * فمن ذا اذا يصدني عنك :
هل سيف . حاشا وكلاً . فالسيف ايضاً لا يصدني عنك يا ايتها المدينة السماوية
الحسنة . لانك انت تبدلين لي حديد السيف ذهباً . وحده اشعة . وضربه اكليلاً *
فما اصدق واحق ما قيل « ان اوجاع هذه الدنيا لا توازي المجد العتيق ان يظهر
فيها » (رومية ٨ : ١٨) * وانما قال فينا . لان مجدك لا يكون خارجاً عنا كمثل المجد
الذي يلم بنا في هذه الارض . لكن يكون داخلنا . ويظهر فينا * اني اتوق متلهفاً

اليك يا ايها المدينة السماوية ليلاً ونهاراً. لأنني لست أستطيع في هذا الوقت ان
 اكشف النقاب لابلغ اليك واراك مواجهة. غير أنني اضع فيك افكاري. وارفع
 اليك قلبي. واقدم لك روجي * فيا لسعادتي لو ترضين بان تقبليها الآن مثلما
 اقدمها لك. واذ كنت تابين ان تقبليها الآن ولا ارتضيت بان اصعد اليك واتمتع
 بك من هذه الساعة. فسأمكث في هذا المنفى الذي هو موضع غربتي « (مزموذ
 ١١٨ : ٥٤) * ولكن ماذا تكون غاية مكثي. لئلا تكون هذه. هي ان انادي واعرف
 الجميع بان الله تعالى قد اصاب حيناً قال على لسان اشعيا نبيّه مخبراً عن
 مخناريه بانهم لا يتعبون من اجله عبثاً. وذلك بقوله « مخناري لا يعملون بطالانا »
 (اشعيا ٦٥ : ٢٢) * فليأهلنا الله تعالى للتمتع بهذه السعادة السماوية المؤبدة آمين *

الخطبة الحادية عشرة

تشتمل على ايراد براهين تقنع الخطاة الذين يأخرون توبتهم الى ساعة
 وفاتهم ان يزجوا هذا الضلال عن نفوسهم ولا يوجد احد
 منهم عند مائة معدوداً من الخطاة الذين
 قد غرهم املهم الباطل

« تطلبوني وتموتون بخطيتكم » كذا كتب يوحنا الانجيلي
 في الاصحاح الثامن من بشارته *

القسم الاول

ان من عادة الناس المتخاصمين اذا ما انتهى امرهم الى الصلح والمصالحة ان
 المذنب يجتهد ان يكون هو السابق في طلب الاعتذار من المذنب اليه لان

المذنب اليه يسبق المذنب * هكذا صنع هداد ملك دمشق كما ذكر الكتاب
 المقدس عنه . لأنه كان قد اغاظ اخاب ملك اسرائيل وحرّضه على الحرب
 مقترياً عليه * ولما قصد فيما بعد ان يكون الصلح ما بينها . كان هو المبتدئ
 بذلك . لأنه ارسل من قبله عبيداً رابطين مسوحاً في اوساطهم وحبالاً في
 رؤوسهم الى اخاب المهان . وامرهم ان يجثوا امام قدميه ويطلبوا منه الصلح
 (١ ملوك ٢٠ : ٢١) * ولكن هذه العادة لم اعينها تجري بينكم وبين الله تعالى في
 ايماننا هذه ايها السامعون . بل يجري الامر بالخلاف . فانظتوا بالحق قائلين : من
 منكم المذنب الى الآخر . انتم المذنبون الى الله تعالى . ام الله هو المذنب اليكم * لا
 ريب في انكم انتم الذين اهنتم الله واغظتموه بذنوب متعددة وبامضة . كيف لا
 وقد اهنتموه بالفكر والقول والفعل * ومن هنا يقتضي الحق والصواب ان تكونوا
 انتم السابقين في طلب الغفران وترسلوا اليه سفراء يلتسبون منه نيابة عنكم باعظم
 التوقير وابلغ الخضوع والصلح والمسالمة * ولكن بعكس ذلك ما انني ارى ان الله
 جلت مراحته قد سبقكم في طلب الصلح والمسالمة . وارسل اليكم سفراء وهم نحن
 عبيد الدليلون ليخاطبوكم في امر هذه المسالمة كأنه هو الذي اغاظكم واهانكم . لا
 انتم الذين اسخطتموه واغظتموه . ولكن مع حلمه هذا وتنازله العظيم معكم قد شئت
 ان اعرف قليلاً هل تم الصلح حقاً ما بينكم وبينه تعالى * فاذا اعبرنا ما عاينته من
 الخشوع والشوق ومداومة زيارة الكنائس ومواظبة استماع الوعظ وبقية افعال
 التقوى التي استبانتم في غالبكم في هذه الايام . فاني اصدق بسهولة ان الصلح
 قد تم وكل . ولكن لا في جميعكم . لكون بعض منكم لم يبرحوا مستمرين على حالهم
 الرديّة . وهم الاوفرون تمرّداً الذين يتهاونون بالفرص المناسبة للاصطلاح مع الله
 تعالى بزعمهم أنه سوف يكون لهم وقت ملائم لهذا . وذلك حينما يمرضون ويدنون
 من الموت * ولهذا قد امرني السيد المسيح في هذا الصباح ان اقول لهم واضحاً :
 انكم يا هؤلاء لمغرورون . لانكم ان كنتم تعرضون عن الصلح معه تعالى في

هذا الوقت الذي فيه هو يطلبه منكم . فهو ايضا سيأتي ان يرضي بمسالمتكم
حينما ياتي وقت وتطلبونه منه . لانه سبحانه قال «تطلبوني وتموتن بخطيتكم» آه
واسفاه . العلى صوت هذه المناداة المرهبة المذهلة غير كاف ليخيفكم ويحرككم يا ايها
الخطاة القساء القلوب . اعني قوله تعالى «تموتن بخطيتكم» فان كنتم قد فهمتم معنى
هذه الآية وهي «تموتن بخطيتكم» . فكيف اذا تجسرون على ان تقولوا : انه لا يلزمكم
ان تسرعوا بالتوبة والرجوع الى الله قدس اسمه لزعمكم الملتوي . وهو ان امر
الخلاص لا يقتضي ان يستسير الانسان سيرة القديسين بل يكفي ان يموت موتاً
صالحاً * بالانخداع عقولكم الغيبية . يا لها من مشورة عمياء مظلمة . يا لها من مقاصد
ذات جنون * كيف تستطيعون ان ترجوا هذه المونة الصالحة ان كان ذلك الذي
له ان يهبها لكم ينكرها عليكم . وينذركم بالفاظ واضحة بينة غير مرتاب فيها بانكم
سوف تموتون بالخطايا . بقوله «تطلبوني وتموتن بخطيتكم» * ولكن لئلا تظنوا في اني
قصدت في هذه المرة ان اقنعكم بالصراخ لا بالبرهان . فأيقظوا عقولكم واسمعوني
باصغاء حسن * لاني عزمتم اليوم على ان اقيمكم في هذه الكنيسة للاستماع الوعظ .
لكن لاستماع الفحص الذي اريد ان افضيه معكم في ما يخص توبتكم ورجوعكم الى الله .
وهو مضمون خطابي معكم الآن لكوني مستعداً ان اعرض تجاه الجميع . هذا العمل
العظيم اي عمل توبتكم ورجوعكم الى الله تعالى وافحصه فحاصاً مدققاً * وان تبين
لكم بعد ذلك انكم سالكون بحكمة بتأخيركم التوبة الى آخر حياتكم كما انتم مفكرون .
فاترككم على هواكم . ولا الزمكم بان تسرعوا في ان توبوا * لكن اذا شاهدتم باعينكم
غروركم وخذاعكم هذا . فاني لوائق انكم لا تستيجون لانفسكم ان تغتاطوا مني من
اجل خطابي معكم بهذا المعنى . بل الاولى ان اقول اني اطلب اليكم ان تصلحوا
غروركم هذا الجزيل الضرر . وذلك حذراً من ان تنتظوا او تحسبوا انتم ايضا في
عدد الخطاة الضالين المخدوعين بهذا الرجاء الباطل *

ولكن قبل ان نتقدم في الخطاب الى ما قدامها انا اسالكم قائلآ : من

منكم له استطاعة ان ينجي نفسه سريعاً من خطر جسدي يكون حاصلًا فيه . ومع ذلك يغفل عن نجاته قصداً وتعمداً . وايُّ انسان محبوس في سجن ضيق يمكنه ان يحل القيود من رجليه ومع ذلك يتباطأ عن الهزيمة . ام ايُّ عليل يستطيع ان يداوي مرضه المؤلم الذي يمزق اوعاءه داخلاً ومع ذلك يتوانى عن علاجه . وايُّ غريق له مقدرة على ان ينجو سالمًا في المينا وهو يحب ان يستمر ضاحكًا متقلبًا ما بين الامواج * ثم احاطبكم قائلاً : ان كلاً منكم له استطاعة الآن ان يرتب امر خلاص نفسه ويجعله في امان باوفر السهولة . فهل يسوغ له اذا ان يبقية متوانياً به الى وقت آخر * من منكم يتأمل صنيع فرعون الملك المتمرد في ضربات مصر المشهورة . ولا يندمل من عظم جنونه . وذلك ان موسى النبي قال له : اسمع ايها الملك وافهم : ليدركك عقاب عظيم ان لم تطلق شعبي لينذهبوا . ولن اجمع لتدميرك جيوشاً متسلحين من اشجع الجنود . ولا آتي بالصواعق من السحب الكثيفة . ولا ادعو الأسد من مراتبها ولا الضباع من اوكارها . فجميع هذه المذكورات لا افتقر اليها في تدميرك وخرابك . وانما لكي اورثك اعظم الخزي والنجل سأجعل ان يخرج من الصهارج الموحلة جيوش من الضفادع . وهذه الحيوانات الضعيفة الحقيرة فقط تجامدك معي . وتحاصر قصورك . وتملك منازلك . وتطردك من خدورك * فضحك فرعون من هذا الوعيد . غير ان ضحكه لم يدُم زمناً كثيراً . بل قد استحال حالاً الى بكاء ونوح * لانه حالما امر موسى . خرجت من جميع الخنادق والانهار والعيون جيوش لا تحصى من ضفادع هائلة بازدهام عظيم . وتفرقت في المدينة شبه الجنود اذا ركضوا بهجة جريئة الى النهب . وملك الشوارع . وسدت الطرق . وافعمت البيوت . كأنها انتصرت على مدينة الاعداء . وتقدمت الى قصر الملك واقتمت على فرعون وهو جالس على سدته الملكية سدة العز والجلال * وكان اذا جرى ليستخفي . تلزمه ان يلج مستتراً في اخفى المخادع . الا ان ذلك قد كان يحدث منه عبثاً * واذا جالس لياكل . تلزمه ان ينهض من عن المائدة * واذا قصد ان يضطجع .

تضطره ان يقوم من فراشه مغضبا * فافتكروا الآن كيف استحال ضمير فرعون لما شاهد حياته مضبوطة في حصار كذا مضايق مؤلم . فارسل وقتئذ ودعا موسى . وكأنه ندم على قسوة قلبه وغيبه الفطيع . فقال له : هوذا انا مسلم لك وراضح لسؤالك . اطلب الهك لينزل عني هذه الشدة . وانا افعل بها اردت « صلينا الى الرب ليرفع الضفادع عني وعن شعبي فاطلق الشعب ليدبحوا للرب » (خروج ٨ : ١) * واذا كان موسى يريد اصطلاح هذا الملك المنافق لا هلاكه . اجابه قائلاً : انني رضيت ان اصلي عنك . لكن قل لي متى تريد ان اصلي من اجل نجاتك فتستجاب حالاً « قرر معي متى اصلي من اجلك ومن اجل عبيدك وشعبك . لنقطع الضفادع عنك وعن بيوتك » (خروج ٨ : ١) * فوقف حينئذ فرعون متجبراً ومتحيراً قليلاً ليفكر في الزمن ليعتمد عليه * ثم اجابه قائلاً : اريد ان تصلي من اجلي في الغد « فقال غداً » * وهكذا حدث الامر يا ايها السامعون المكرمون * أوجد فيكم احد يستمع هذه القصة ولا يعجب من هذيان فرعون وجنونه * تباً له من انسان غبي عديم الرشد والحس . كان حاصلًا في ضيق مرٍ ومكتئبًا بأعداء قساة لا مناص له منهم البتة . وخاليًا من مكان يمكنه ان يخفي فيه لحظة من الزمان من كرب تلك الحيوانات الكريهة التي احالت مخادعه الى محاقن وفرشه الى رمم . وكانت تصرعه بقرع اصواتها وتوالة بمشاهدتها . وتعذبه بتثانتها . وقد كان ممنوعاً من المأكول والمشرب وعادماً راحة استنشاق الهواء * ومع ذلك لما قدّم له الوقت لينجو سريعاً متى ما شاء . احب ان يتاهل ويتأخر الى الغد قائلاً غداً . ولماذا لم يقل اليوم * كيف يمكن وجود هذا التهاون والشلل في مثل هذه الاخطار العظيمة وهذه الضيقات المولمة . فلو لم يكن في مكتبه ان ينجو عاجلاً لكان معذوراً . الا ان موسى لم يأجل له الوقت . بل خيره ان يطلب الوقت متى شاء وكيفما شاء . قائلاً « قرر معي متى اصلي من اجلك » . فكأنه يتول له ان الاختيار هو لك . فلك الرضى وعلي الصلوة * فان اردت الآن ان اصلي من اجلك لتنجو . فانا اصلي للوقت فنزول عنك هذه الشدة * وهذا

مفهوم من قوله له: قرّر معي متى أصلي. ولكن فرعون الغي قال «غدا» * لعمرى
 أنكم جميعاً تذهلون من توانيه هذا بل جنونه الغريب. ويمكن أنكم تحزنون عليه
 ايضاً * والذي ينبغي لنا الآن ان نتجه من ذلك هو انه ان كان يجب ان يعتد
 جاهلاً غيباً جداً من يتهاون هكذا بخلاص حياة الجسد. فما الذي نقول عنكم
 انتم الحاصلين في خطر فقد حياة نفوسكم لا حياة الجسد. المكتنفين على الدوام لا
 بضفادع ضعيفة حقيرة. بل بالابالسة الظالمين الخفيين الذين يتوقون في كل وقت
 ان يسلبوا نفوسكم من اجسادكم ويزجوها في العذاب * انتم العارفون بنفوسكم انكم
 على الله عاصون. ومن الملكوت منفيون. وهاوية جهنم مستوجبون. ومع ذلك
 تتغاضون وتتهاونون بالفرار من هذه الحال المرعبة المهلكة * افلا يوجد لكم انتم
 ايضاً مثل فرعون وقت ملائم للنجاة في اي زمن اردتم. والحال انكم غير خالين
 من انبياء شفوقين نظير موسى يقدمون لكم نفوسهم في كل وقت لينجوكم قائلين لكم
 ايضاً: «قرروا معنا متى نصلي من اجلكم» * ها هوذا الكهنة يجلسون في كل ساعة
 مستعدين لخلاصكم في كرسي الاعتراف. فهنا يوجد المهرب الامين والاعانة الاكيدة.
 ولا يحتاج الى شيء سوى ارادة الخاطي ان يلتجئ اليه * فما الذي تنتظرون. ايجاد
 فيكم من يجب قائلًا غداً. لكن وأسفاه عليكم يا أيها الخطاة القساة المتمردون. انا
 اعلم ان هذه هي لغتكم الدارجة الاعتيادية. ان تقولوا غداً لا اليوم * لاني اذا كلمت
 واحداً منكم وقلت له: يا مولاي انت متعرقل في هذه العشرة الرديئة مع تلك
 المرأة الشقية بانهاك نميم غير لائق بشانك. وقد امتصت الى الآن نظير العلقة
 مالك وعافيتك. ولم يبق لك سوى النفس. فانته لها. اما تريد ان تضعها في
 طريق الخلاص * قرّر معي متى تشاء ان تبين هذه العشرة الدنسة وتنقي ضميرك
 وتعود الى ربح النعمة الالهية. فيقول: غداً. لاني انا الآن لا ازال صحيح البدن قوي
 الجسم. فمتى ما ضعفتُ ودنوتُ من الموت. فحينئذ انتبه لنفسي * ومثله اذا نصحت
 غيره وقلت له. يا حبيبي انت حافظ في قلبك البغض والعداوة لغريمك. وقد

ازعجك هذا الالم حتى الآن ولم يدعك ان تستريح لاني شبيبتك ولا في رجوليتك
وما قد بلغت الشيخوخة. اما نحب ان نقضيها بالراحة والسلام. قرر معي متى تريد
ان تزيج من قلبك هذا الحقد لكي نسعى باصلاحكما ونوافق بينكما * فيقول : غداً
لكون عزائي اليوم قوية. فاذا ما وافاني الموت غفرت لعدوي * يا لعالم ويا لغباوتكم
ايها الحقى . ما هذا القول غداً. وانتم هيهات ان تحصلوا غداً على ما ترغبونه *
فافعلوا الآن ما يلوح في ضمائركم من الشر. اقضوا شهواتكم واهواءكم الشيطانية *
ولكن تهملوا علي قليلاً واجيبوني على السؤالات التي انا مستعد ان اعرضها عليكم
وقاصد ان اغمركم بها *

انني اسالكم. فاجيبوني يا معشر الذين تحسبون انكم ستفعلون مثل هذه
الاشياء العظيمة : هل حصلتم اولاً على الخبر الشافي باي نوع من المرض سوف
تموتون * لا شك في انكم متوهمون باطلاً في ما توقعونه من ان مرضكم الاخير سيكون
نظير مرض الطائر المدعو شاهين اي الصقر. اعني مرضاً هادئاً مفرحاً عذباً لا
يزعجكم ولا يتعبكم ولا يبلبل عقولكم اصلاً. وانكم في تلك الساعة ستفوزون بارواح
حية وحواس اكثر صحة مما في سائر ايام حياتكم * فيا لتفاقم الغرور الذي سقطتم فيه
ايها الجهلة الاغبياء : ليت شعري اي طبيب من الماهرين المحاذقين أكد لكم
ذلك. اما قال الله عز قوله في سفر الجمعة « ان الانسان ايضاً لا يعرف وقته »
(جمعة ٩ : ١٢) * لعمرى انه لقد يمكن ان يجري امركم بعكس ما تحسبون. اي ان
يكون مرضكم حتى قوية تغيبكم بغته عن حسكم وتلقيكم في هذيان وصداع وسهوى.
او يمكن ان يجلب عليكم سباتاً ثقيلاً يرقدكم رقاداً لا تنبهون منه بته. او يمكن ان
يكون تشنخاً او غبة او تالم قلب شديداً يمزقكم باطناً ولا يدعكم ان تلتفتوا بكلمة
واحدة. او يمكن ان يكون فالجاً. او يحدث لكم عارض آخر بغته يعدمكم الحيوه
من غير ان تقطنوا به * وان كنتم تسلمون من هذه الاعراض المقدم ذكرها كافة.
افا يمكن باعظم السهولة ان يكون مرضكم الاخير وجع راس عضال يصرعكم ويبلبل

عقولكم ولا يدعكم ان تفنكروا فكراً واحداً فقط مثلها تهوون * لعمرى انكم ولو ادعيتم بان ابدانكم مركبة تركيباً شمشونياً. فليس لكم دليل اكيد على انكم تسلمون من جميع هذه الاعراض المشار اليها او من غيرها مما يشبهها في يوم وفاتكم. بل اقول ايضاً انه ينبغي لكم ان تصدقوا باقراط الطبيب حيث قال: ان الامراض الغريبة تدرك الابطال ذوي القوة الشديدة اكثر مما تدرك الضعفاء والنحيفي المزاج * لانه يجري في حياة الجسد نظير اوتار آلة الطرب. فالتى هي منها مشدودة اعظم. وتعطي صوتاً اقوى من غيرها. فعليها يكون خطر القطع اعظم * فمن هنا اعيد سؤالي عليكم واقول: باية حكمة تلقون رجاءكم بالتوبة الى مرضكم الاخير وانتم لا تعلمون اي مرض سيلبكم * لكن هبوا انه يعرض لكم مرض يستمر لكم فيه التساط على انفسكم. غير انه سوف يدهمكم خطر آخر اعظم ايضاً. وهو انكم لا تعلمون اهذا المرض هو الاخير من حياتكم ام لا. ومن قبل ذلك توالسون على نفوسكم وتخدعونها نظير المسافر المتواني اذا وصل الى نهر جارٍ وابصر امواهاً كثيرة في راس نبعه. فيسير خطوات على شطه قائلاً في نفسه: انني ساقطه من غير هذا المكان. وبعد ان يمشي ايضاً خطوات يقول: انني اقطعه من دون هذا الموضع * ولا يزال ينتقل من مكان الى غيره حتى لا يعود يجد طريقاً يسلك به. ولا فلاناً يركبها ليجوز النهر * واذا افترضنا ايضاً انكم تخطون خطوة فريدة على ما في هواكم. وتستطيعون ان تفعلوا بها اردتم عند مرضكم الاخير. فما هي الواسطة التي ترجون انكم تستعملونها وقتئذ لتخلصوا نفوسكم: اليس هو الاعتراف الشافي المدقق. ولكن من يقدر ان يصدق بانكم في ذلك الوقت الاخير من حياتكم الذي فيه لا يخلو العقل من العريسة والاضطراب والاختناط والانعاج. يمكنكم ان تستعدوا الى هذا الاعتراف بفحص الضمير الدقيق. ثم تباشروه بالاقرار الواجب بخطاياكم موضحين انواعها وظروفها. وتوردوا عددها مفصلاً * ولكن عساكم ان تقولوا: نعم اننا نستطيع ذلك. وان لم نستطع. فلا حاجة لنا اليه. لاننا نعلم انه في ساعة الموت ولن عجزنا عن التلفظ. فيكفينا لنيل الرحمة

من الكاهن الإشارة. واحناء الرأس. او ضم يد الكاهن. او القرع على الصدر * أما
منكم أيها المسيحيون. لعمرى الله لا يمكن ان استمعكم نثفوهون بهذه الاقوال الملتوية
الا واستوعب حزنا وتحسرا. بل تذرف عيناى دموعا سخينة على غرورك هذا
المهلك * ما الذي تقولونه أيها الاشقياء. ما هذه الالفاظ الخارجة من افواهكم المنعمة
جنونا. من ذا الذي اعدكم العقل والصواب حتى اضحيتم تتكلمون عن انفسكم كأنها
انفس اشخاص غرباء او انفس اعدائكم لا انفسكم * من ذا الذي اضلكم بقوله انه يكفي
في ساعة الموت الاعتراف بالإشارة او بالاياء لنيل الرحمة من الخطايا * ولكن لنذع
الكلام هنا. ثم نسألکم هل يكفي ذلك لنيل الرحمة من اي اثم كان ولو كان الاثم
فظيعا ومن اي كاهن كان. فان كان ذلك كافيا حسب زعمكم. فقد ضل اذا
الملك او ثون الثالث حيث انه لما قصد ان ياخذ الرحمة من خطية الظلم التي ارتكبها
سرا بقتله انسانا. ارتضى ان يجتمل من القديس رومولس هذا القانون الشاق. وهو
ان يذهب حافيا ويزور دير جبل غرغات ويقيم فيه اربعين يوما لابسا المسح على
جسده وصائما على الخبز والماء وراقدا على الحضيض * بل ما اغزر غباوته وما اقل
حكته: اما كان يستطيع ان يؤخر توبته مثلكم الى آخر حياته. وينال حينئذ بشارة
واحدة او بقرع الصدر ما قد الزم نفسه للحصول عليه بالقانون الشاق المقدم ذكره.
وينجو من كل هذا التعب والعذاب * وما الذي اقوله ايضا عن بوتاموس المتولي
على كنيسة براغاند حيث انه لما تاه وسقط في الخطية الدنسة. اعترف بها جهارا في
مجمع توليد الملائم فيه جم غفير من الاساقفة والكهنة والعامّة لصبه من ذلك
خجل وخزي اعظم * اما كان سخيف العقل اذ لم يأخر الاقرار بخطيته منتظرا الساعة
الاخيرة من حياته * ثم ماذا اقول عن فيولا المرأة الرومية الشريفة التي بعد ان
اجترمت جرما في حق الكنيسة. ذهبت وسجدت على اعناب كنيسة لانران التي من
شأنها ان تحوي جما غفيرا من الناس واعرفت هناك بخطيتها ليلتحق بها الحياء
والخجل تجاه الجماعة الجزيل عددها * اما كانت تستطيع نظيركم ان تاخر الاعتراف

بها للكاهن سرًا عند حلول ساعة وفاتها. ولا ان تحمل نفسها هذا القانون * ولكن
 من حيث ان هؤلاء الاشخاص المقدم ذكرهم قد رقدوا ولستم تستطيعون بعد ان
 نفيدوهم بتعليمكم هذا السي في تاخير الاعتراف والتوبة الى آخر الحيرة. فهوذا عندكم
 اناس غير اولئك من الاحياء. فلماذا لا تسرعون اليهم وتبلغونهم هذا التعليم. اعني
 اولئك الزوار المساكين الذين يقبلون كل يوم من بلدان شاسعة من وراء جبال
 ابي قاصدين زيارة بيت العذراء في مدينة لوريتو وزيارة الاماكن المقدسة التي
 في رومية ليستمدوا من محبة الاعتراف العليا مسامحة الخطايا المحفوظ حلها لها *
 فهؤلاء المساكين يتكبدون اتعابا كثيرة شاقّة ويطحرون نفوسهم في مخاطر متعددة
 ويلتزمون بنفقات وافرة للسفر * فاذهبوا اليهم وصدوهم وقولوا لهم: ان اتعابكم هذه
 باطالة. وهي صادرة من عدم علمكم بالسر الخفي الذي كوشفنا نحن عليه * وليقل لهم بعض
 منكم: انا ايضا موسى بوقر ثقيل من الخطايا مثلكم. وقد اجترمت سلب الاهليات
 وسقطت تحت التاديبات البيعية نظيركم. وانا لا ابالي من ذلك ولا اقلق ولا
 احزن. لاني انا عالم انه لا انا ولا اتم نموت خلوا من حلة الاعتراف * اما تقدر
 في وقت نزع النفس ان تقبضوا يد كاهن من زمرة الكهنة وتشدوا عليها علامة
 على انكم نادمون. او ان تحنوا رؤوسكم ولمرة واحدة. او تقررعو صدوركم دفعة
 واحدة * فهذا يكفي لخلاصكم. عودوا راجعين الى اوطانكم. واقضوا زمن عافيتكم
 هذا بالهناء والراحة. ولا تخضعوا انفسكم تحت نير القوانين الصعبة التي يفرضها
 عليكم هؤلاء الكهنة الذين يدعون بالغيرة في خلاص الانفس وهم في التحقيق تليلوا
 الافراز والمراعاة مع شعب المسيح * ولكن ترى ماذا يفعلون اذا بلغتهم تعليمكم هذا
 الحسن. عساهم ان يطيعوكم ويرجعوا الى منازلهم. ام انهم بعكس ذلك يذمونكم ويحقرونكم *
 فيا لوفور العبي الكثيف المستخوذ عليكم. يا لعظم الجنون الردي المتوغلين انتم فيه.
 كيف لم يمكنكم ان تعلموا من تعاليم اللاهوتيين التي غالبها تغبي عنكم الا تلك التي
 لعدم فهمكم اياها بالمعنى الصحيح تلقيكم في الهلاك الابدي * اتبهوا وافهموا جيدا ان هذا

الاعتراف الذي ينتضي بالاشارات عند ساعة الموت الواثقين انتم به هو الدواء الاخير
 للخلاص . لكن من منكم لا يعلم ان جميع الادوية التي تُعطى متأخرة تكون فائدتها
 تحت الارتباب جداً . فيجب على الانسان العليل ان يستعملها لاجل الضرورة فقط
 لا ان يطلبها اخيارياً ويتكل عليها * هل تظنون ان الحلات التي تُعطى للمنازعين
 صحيحة كلها ونحو حالاً خطاياهم * والحال انها لا تكون هكذا الا بشرطين : احدهما
 ان يكون المعترف نادماً متأسفاً من جوارح قلبه على خطاياه . وثانيها ان يكون
 ناوياً بعزم مكين ان لا يرجع اليها . والا يكون ناقصاً فيه استعداد آخر من الاستعدادات
 الباطنة المطلوبة لعل سر الاعتراف حسناً * ولكن من يقدر ان يصدق انكم تؤدّون
 هذه الشروط بعد ان اعتدتم ان تشربوا الاثم بتلك اللذة التي بها شرب ليسيماخوس
 الملك في حين عطشه كاس الماء وباع بها مملكته . بعد ان اعتدتم ان نلقبوا خطاياكم
 باعمال شريفة او باعمال لائقة بعنفوان الشبوية . واستاندتم بها مفتخرين امام اقرانكم
 الجهولة * كيف اذا يمكنكم ان ترجوا ان تبدلوا حالاً هذه الاشواق السيئة وهذه الآراء
 المتلوية المعنفة . وتبغضوا اكثر من كل شر ما انتم الآن تحبونه وتعتبرونه اكثر من
 كل خير * من هو الذي ترومون ان تُقنعوه بإمكان هذه التوبة الاخيرة يا ايها الخطاة
 المساكين . اظن انكم راغبون ان تُقنعوا بها الاطفال الاغبياء الذين لا يفهمون ما هو
 روح التخضع والاسف القلبي * الا ان الاجدر بكم ان لا تُقنعوا هؤلاء بل ان تُقنعوا
 بها اولاً هيرونس الذي كان يهزأ ضاحكاً على التوبة المتأخرة الى الموت . قائلاً في
 رسالته الى دمسوس : ما هي هذه التوبة التي يتوبها الانسان حينما يشاهد انه لم يبق
 له زمن ليعيش * اقنعوا بها اوغسطينس الذي ساءما توبة ضعيفة (في خطابه السابع
 والستين في الزمن) * اقنعوا بها برنردس الذي دعاها توبة وقاحة (في خطابه الثامن
 والثلاثين) * اقنعوا بها ايسيدورس الذي دعاها توبة مشكوكاً فيها (وذلك في
 النصل الثالث عشر من كتابه الاول في الخير الاعظم) * اقنعوا بها قيساريوس
 وامبروسيوس وغريغوريوس ويوحنا الذهبي الفم وتوما اللاهوتي وغيرهم من الآباء

والعلماء الذين باتفاق واحد يحقرون هذه التوبة ويهزأون بها * وما الذي يمكن ان
اقول أكثر من ذلك . اذ انني منذهل ما قاله وفعله القديس قيريانس استغف
قرطاجنة * فهذا القديس المغبوط اتصل الى ان اصدر امراً عاماً في رعيتيه . وبه منع
جميع الكهنة من اية مرتبة كانوا ان يحملوا او يردوا الى شركة الاسرار الخطاة الذين
احقروها في حياتهم وطلبوها عند حلول المنون . واثبت ان توبتهم هذه باطلة * ودام
كلامه كما هو مدون في رسالته الثانية الى انطونيانس « لقد حكما ان يُعدم هؤلاء
الخطاة قطعاً رجاء الشركة والسلام اذا طفقوا يطلبونها في المرض والخطر . لان
الذي احوجهم الى طلبها هو علمهم بالموت المواتي عليهم لا ندمهم على الخطية . انتهى *
فانا عالم بان هذا القديس قد بالغ جداً في حكمه هذا . لانه من الممكن ان يندم
واحد من هؤلاء الخطاة في ساعة موته ندامة صادرة من القلب . لكن من حيث
ان قديساً متصفاً بعلم جليل وحكمة وافرة وحنافة عقل عظيمة اتصل الى ان
يتخذ مثل هذه الندامة غير ممكنة في ساعة الموت . فيجب ان نقول انها ليست بسهولة
كما انكم تتوهمونها * فلا تضلوا يا معشر الخطاة احبابي ولا تخدعوا انفسكم . لانه نعم
قد يمكن ان تندموا على جرائمكم في منتهى حياتكم . ولكن هل تعلمون بمن تشبه
توبتكم : لعمرى انها تشبه توبة انطيوخس الملك حيث ندم وبكى من جري اضطهاد
العبرانيين وذلك لانه ابصر انه من قبل ذلك قد فاجأه الموت وهو مرعى الدود
(١ مقايين : ١٢) * وتشبه ايضاً توبة قايين حيث حزن على قتل اخيه (تكوين ٤) *
وذلك لانه سمع انه من جري ذلك قد طلع عليه الحكم بان يعيش تائباً في القفار *
وتشبه توبة هاجر حيث ناسفت حقاً على اسخاط مولاتها . ولكن حينما رأت انها من
اجل ذلك طردت من البيت (تكوين ٢١) * وتحكي توبة شارل حيث ندم على
صفحة عن قتل العالقة وذلك لانه علم انه من جري ذلك اضطرب بان يعدم
الملكة (سموئيل ١٥) * وتشبه توبة شمعي حيث انه اغتم على شتمه داود الملك لانه
تحقق انه من ذلك يلتزم ان يخاف من ان يقتل قصاصاً عن ذنبه (سموئيل ١٩ : ١٨) *

وهكذا انتم ليس عظيمًا ان تحزنوا وتأسنوا على ذنوبكم الكثيرة التي اغظم بها ربكم. الا ان ندامتكم انما تكون ناتجة من خوف عبيد اي من الموت المقبل عليكم ومن جهنم المفتوحة ازاء اعينكم واقتراب هلاككم بها. فاولا خوفكم هذا. او لو علمتم انه لا يدرككم شيء من هذه الامور. لما كانت تعنيكم الذنوب التي لاجلها استخفتم الخوف من القصاص *

وما عدا ذلك كله هل تظنون ان ابليس يرقد ويسكن عن انفسكم حينما يبصر انها قريبة ان تُخطف منه بهذا الزمن الوجيز من بعد ان تعب تعبًا جزيلاً الى ان امتلكها امتلاكًا مديدًا سليمًا في مدة حياتكم * اعلمي انه وقتئذ يدفق كل غيظه ويبذل كل مجهوده معكم. وذلك حسبما جاء في سفر الحكيم ابن سيراخ اذ يقول «من الارواح ما خلق للانتقام. وفي زمان الانتضاء يسكبون القوة» (سيراخ ٢٣: ٢٤) * انه غير خفي عن معرفتكم انه نظرًا الى الحرب الدنيوية اذا ما حان اليوم الاخير من المعركة والحرب. تخرج خارجًا جميع قوى العسكر. ولا يؤذن لاحد ان يلبث رابضًا في محرسه. وترسل الى الميدان كل البيارق وصفوف الجيوش وطغاتهم * وما هو السبب في ذلك: ان السبب في ذلك هو ان ذلك النهار هو اليوم الاخير من الاحتياج. وفيه يتم كل شيء: والذي يخسر لا يبقى له رجاء ان يغلب فيما بعد. وان غلب فلا يبقى له ان يخشى ان يخسر. ولاجل ذلك يصير حينئذ كل الامتحان * فعلى هذا النسق سيجري الامر بنا عند ساعة وفاتنا. اي ان قوات الحُجيم بما انهم يفهمون جيدًا ان كل شيء متعلق في تلك الدقيقة. ان تضطرب وتهيج تلك الابالسة ولاة الحُجيم بما لا يوصف ولا يدرك * وان كنتم لا تصدقون كلامي. فصدقوا كلام الله القائل في سفر الجليلان هكذا «ان ابليس نزل اليكم وله غضب عظيم» (رويا ١٢: ١٢) * افهموا قوة هذه الآية الالهية اعني قوله تعالى «وله غضب عظيم» * ولكن ما هي علة غضبه هذا العظيم الذي ياتي به اليها بلا ريب انها هي علة بانها لم يبق له زمن لمقاتلتنا الا قليلاً. كما اردف الله تعالى ايضاً

فقال «لأنه يعلم أن له زماناً قليلاً» * فان كان وقتئذٍ يخسركم . فلا يبقى له رجاء في ان يعود ويربحكم . فان ربحكم فلا يعود يخاف الى الابد من ان يخسركم * ولاجل ذلك يدعو حينئذٍ كل جيوشه . ويجمعهم مغضباً حول سريركم بما أنها المعركة الأخيرة . ويهجم عليكم هائجاً نظير ما فعل مع راهب قدّيس اسمه اسطفانس . قد كان استسار حياته كلها منفرداً في محبته صائماً مصلياً متشفئاً ليلاً ونهاراً . ومع ذلك نصبت الابالسة امام عيني نفسه عند ساعة موته كل هفوة كان قد زهق بها . وعظموها عليه وارعبوه منها جداً . حتى أنهم وصلوا به الى حدّ قطع الرجاء من الخلاص * وهكذا فعلوا ايضاً مع عذراء نقيّة اسمها الديفندا * وعلى هذا النسق فعلوا مع اسقف بارّ يقال له اوبرتس . ونظير ذلك فعلوا مع آخرين كثيرين يطول بنا الشرح في ايراد أخبارهم * فماذا يفعلون بكم ايضاً : انهم يستطيعون ان يرهّبوكم بالاعترافات الكاذبة الكثيرة التي صدرت منكم وبتناولكم القربان المقدّس كثيراً بعدم الاستحقاق . وبالادناس السجّة التي تدنّستم بها . وبثلبكم اعراض الناس بنميمتكم وقذف لسانكم . وبغيرها من الجرائم الثقيلة التي لا تحصى التي بها خالتم وصايا ربكم * فهل يعسر عليهم بعد ذلك ان يصوّروا لكم هلاككم ويقنعوك بانكم صرتم من الهالكين بعد ان حصلتم على عدم الترجي بالله تعالى ونفهمتم عن الاهتمام بالخلاص ايضاً * وزيدوا على ذلك هذا الامر الآخر . وهو انه ربما قد كان لكم عادة ان تتكلموا في قضايا الدين بوقاحة وقلة احترام . ومن جرى ذلك يسهل على روح الكفران ان يشب عليكم حينئذٍ ويجعلكم ان تشكوا في عقيدة من العقائد الدينية الصعبة فهماً * واضيفوا ايضاً الى ذلك هذه القضية . وهي انكم معتادون ان تستعملوا اسم الله القدوس باطلاً وبدون الاكرام الواجب . فليس بغريب على التصديق ان يغريك حينئذٍ روح التجديف ويجعلكم ان تلتفتوا او تقبلوا في ضمائرکم تجديفاً على الله تعالى * ولعمري ان لي قولاً اكثر من ذلك ايضاً يسوغ لي ان اورده . ولكن ما الحاجة اليه . وانما ارغب اليكم ان تحلوا لي مشكلاً واحداً من المشكلات المقدم ذكرها التي اوردتها لكم في امر

عظيم كهذا اي امر خلاصكم . وهذا يكفيني * فبرئوا انفسكم واعنفوا وجاوبوا عن
نفوسكم ان كان يتبين لكم ان لكم محلاً للفرار والخلاص * فما الذي تقولون : العلمكم
تقولون انكم تثقون بمساعدة الكهنة المائتين حينئذٍ فوق رؤوسكم . ولكن باية وجوه
مسفرة تستطيعون ان تلاحظوا هؤلاء الذين ازريتم باسمهم ونصائحهم في حياتكم * ام
لعلكم تقولون انكم نرجون بشفاعة القديسين . ولكن باية دالة تجسرون على ان
تستجدوا باولئك الذين تهاوتهم باكرامهم * ام هل تقولون انكم تتكلمون على قوة تلك
النعمة السماوية التي عضدتكم في اوقاتٍ آخر لتنجوا من مخاطر نظير هذه الحائقة بكم
عند ضيقتكم الاخيرة . ولكن اما ترون انكم تتكلمون على شيء غير معلوم . لانه وان
كانت نعمة الله قد عضدتكم احيانا . الا انه لا ينبغي لكم ان تنتجوا من ذلك انها
تعضدكم في كل وقت وعلى الدوام . فهذه النتيجة لا تنتج حسب قواعد القياس من
مقدّماتها . وان اردتم ان تحققوا ذلك فاسمعوا البرهان الآتي ذكره *

هل يوجد فيكم من اشفق على حال شمشون المنكود * على ظني انه ولا واحد
منكم اشفق عليه . وذلك لانه هو اجنذب شدته على نفسه من تلقاء اختياره *
فاسمعوا ما حدث له . لانه لذيذ للسمع وبطابق لما نحن في صدره * ان شمشون عشق
دليلا الزانية . وأحب ان تكون له زوجة وأدخلها بيته . وهذه قبلت الرشوة من
الفلسطينيين . ورغبت ان تعرف في اي شيء كانت قائمة قوته العظيمة لتسلمه اليهم
فقالت له : قل لي يا شمشون من اين لك هذه القوة العظيمة حتى لا يمكن لقوة ما
ان تغلبك . وما الذي يجب ان يصنع من اراد ان يظفر بك * فأجابها قائلاً :
ان ذلك سهل . وهو انه اذا ما ربطت بسبعة اوتار ندية . فاني اضعف كمثل
سائر الناس * فصدقت المناقفة كلامه . وللوقت احضرت تلك الاوتار ودعت اناساً
من الفلسطينيين وجعلتهم يكمنون له . ثم ربطته باستيثاق وهو راقد . ثم صاحت
قائلة « عليك الفلسطينيين يا شمشون » (قضاة 16 : 9) * فنهض شمشون وحرك
ساعديه . ومن ساعده قطع تلك الاوتار كأنها مفتولة من كتان مهتر . فجلت دليلاً

امام اهل بلديتها حينما ابصرت شمشون قد هزأ بها . وقالت له يا : « خائن قد هزأت لي وخنلتني » (قضاة ١٦ : ١٠) . فكيف اصدق بعد انك تحبني وانت تخفي عني سرّك . ولست توضح لي قلبك * فصفا لها شمشون مرة ثانية وقال لها : اذا اوثقت بجبال جدد لم تستعمل قط . اضعف وتزول قوتي * فشدته دليلا بجبال جديدة . وهتفت به ايضا قائلة « الفلستينيون عليك يا شمشون » * فقطع عنه بجرعة جزئية تلك الجبال القوية كأنها مفتولة من نسج العنكبوت . فغضبت دليلا وطفقت توبه اولاً . ثم تسأله ان يكشف لها سره * فقال لها : ان قوتي تضعف اذا ربطت شعر راسي بوتد في الارض * فصنعت دليلا هكذا . وصرخت ايضا قائلة : الفلستينيون عليك يا شمشون » * فقام من النوم . وعندما رفع راسه اقتلع الوتد من الارض كأنه مغروس في رمل ناعم * فيا معشر السامعين اني لست اعلم ما اقول عن شمشون في صنيعه هذا . أظهر كثرة محبته هذه المرأة . ام ابان كثرة جنونه * من منكم لو اصابه ما اصاب شمشون . لم يتأكد عنده خيانة هذه المرأة الرديئة وغشها * لعمرى انه بعد هذا كله كان يجب عليه ان يقول لها : يا ايها المنافقة الخائنة اهذا صنيعك معي . ابهذا تكافئين حبي اياك . وهو ان تستعلي سلاحي لقتلي * وهكذا كان ينبغي له ان يدبر عنها مغضباً ويولي منهزماً من ذلك البيت غير الامين . ويسلم من الفخ الذي كانت هذه اللعينة تدبره له * ولكنه ما زال قائماً معها كأنه لم يشعر بذلك اصلاً مع كونه قد ابصر المخاطر التي القته فيها . لأنها دفعته بيد اعدائه ثلاث مرات . وثلاث مرات ساقته الى خطر الموت . ومع ذلك لم يفارقها بل نراد جهلاً وجنوناً لأنه اتصل الى حد بليغ من عماوة العقل حتى انه أخبرها بحقيقة سره . وابان لها ان مصدر قوته هو في شعر راسه * وفرحت الشقية . وارسلت فدعت المرأة الرابعة الفلستينيين واخفت الكمين عليه وارقدته على حضنها . ثم اتت بجلاق فخلق شعر راسه الطويل * وبعد ذلك زحزحته وطرحته على الارض من عن حضنها . ثم رفعت صوتها فرحةً مبتهجة قائلة « اهل فلسطين عليك يا شمشون » (قضاة ١٦ : ٢٠) *

فانتبه شمشون من سبات النوم. وظن أنه يخلص نفسه من التهلكة كما في السابق. وضحك في قلبه قائلاً « اخرج كما في كل دفعة وانتفض » * ولكن ما علم أنه لم يبق له وقت « لان الرب قد فارقه » حسب قول الكتاب المقدس. ومن ثم اوثقه اعداؤه وقلعوا عينيه. وجروه الى السجن. حتى انه افنى حياته ايضاً عندهم * فافحصوا يا ايها السامعون الاحباء جميع اسفار الكتاب المقدس. واتلوها مدققين. فانكم لا تجدون خبراً يوضح سجية الخطاة كمثل هذا الخبر الذي نحن في صدده * واثباتاً لذلك فلننتن راجعين. ولنعتبره جلياً وتامله تأملاً دقيقاً حسبما يطابق الموضوع الذي نحن في ايضاحه. ولنقل: اي شيء دمر شمشون المسكين. وبلغ به الى حال هذا الشقاء العظيم المقدم ذكره: هل كان حبه فقط للمرأة المذكورة. لا لعمرى. بل انما كان الامل او الطمع الذي كان به يحنقر متعجرفاً الاخطار الواردة عليه وذلك لعله انه نجا بالسلامة ظافراً متشرقاً من الاخطار السالفة. لانه قال اخرج كما في كل دفعة وانتفض * فهذا الامل هو عينه الذي جعله ان يخيب من الخلاص لانه انغش به. وهذا هو ايضاً الذي يغش كل خطاة الارض لانهم لا يفكرون لسوء شرهم انه سيأتي يوم فيه يتخلى الله تعالى عنهم. ويفارقهم كما فارق شمشون * انكم ترون ذلك الشاب مثلاً مشتبكاً في دعاو شرعية معرقله لكثرة الديون المتركة عليه وغائصاً في بحر من الاحزان والاكدار لسببها. واذا ذهبتم اليه لكي تعزوه. فيجيبكم قائلاً: آها يا اخوتي ان انعم الله تعالى علي بالنجاة من هذه الشبكات. فحينئذ تبصرون كيف انقي الله. فاني لا اعود الى تلك الملاهي التي سببت لي هذه الاتعاب والاطمار. ولا المس ايضاً القمار. ولا اعود انظر في الزهر. وساترك كل صنف من الملاعب واتجنب كل نوع من العشرات الرديئة * فاذا انعم الله عليه بذلك ونجا. فيبتدى في ان يسلك اولاً متحذراً. الا انه فيما بعد يعود رويداً رويداً ويدنو من العشرات القديمة قائلاً في نفسه: وما الذي يجري اذا عدت راجعاً الى التردد مع هؤلاء الاشخاص. واما خرف علي من ذلك. انا نجوت تلك المرة فاجتاز كما في الدفعة الاولى وافلت *

وهكذا يعود راجعاً الى اللهو واللعب كما سلف * وتعاينون ايضاً ذلك الرجل المسن
 وذمته موسقة بالحرام وبمال الناس * فاذا مرض وذهب اليه الكاهن وحدثه في
 ما يخص خلاص نفسه . فاسمعوا كيف يجيبه . يقول له : آها يا ابانا . هل بين الله
 علي بالعافية . انه ان تفضل علي بذلك وعوفيت . فحينئذ ترى كيف اسلك . اني لا
 اعود الى الربا الذي يسجس الآن ضميري بهذا المقدار . واتوب عن الظلم والغش .
 ولا انكر بعد اجرة احد من الخدّام . ولا اطعم في مال احد * فاذا ما تعافى من مرضه
 وخرج الى عمله . فيستسير في اوائل سلوكه صاحباً ومنتجهاً لنفسه . ثم بعد ذلك
 يشرع ايضاً قليلاً قليلاً ويعود الى حاله القديمة قائلاً في نفسه : ان رجعت الى
 عملي الاول فما الذي يحصل من ذلك . نعم انه لقد يمكن ان يشتماني المرض ويعتريني
 ضيق الضمير ايضاً . ولكن اماً نجوت سابقاً « فآخرج كما في كل دفعة وانتفض » .
 فلنعد الى معاطاة الفائدة الربائية * آه واسفاه عليكم ايها الخطاة الضالون كيف
 يسوغ لاحد منكم ان يقول : « اخرج كما في كل دفعة وانتفض » والحال ان هذا
 الرجاء باطل . لان الرب يفارقكم * فانتم تنتجون من رحمة الله السالفة اياكم انه سوف
 يرحمكم ايضاً ويعينكم فيما سيأتي . ولكن بئس ما تنتجون . لانكم لا تدرون ان الله تعالى
 يفارقكم اخيراً ويتعد عنكم * فاحذروا يا معشر المسيئين ولا تضلوا نفوسكم زاعمين
 انه مما يخالف رحمة الله ان يترككم جل ثناؤه في ساعة مائتكم ويدفعكم في ايدي
 الشياطين كما ترك شمشون ما بين اظفار الفلسطينيين . حاشاه من ذلك * اما ترى
 ان الله تقدس اسمه تارك للهلاك شعوباً وامماً لا يخص عددهم من الامم واليهود
 والوثنيين والهراطقة والمشاقين . العلل ذلك بخالف رحمته الالهية : كلاً . فمن اي
 سبيل تزعمون وتحكمون انه شيء مصاد رحمة تعالى ان يدع للهلاك مسجياً واحداً
 ممن هو من اندادكم يطعم في نعمه السماوية دائماً ليزيده غيظاً واحتقاراً * بل بعكس
 ذلك لاحظوا المناسبة العجيبة التي انا مستعد لاوضحها لكم * انكم تقولون ان الله
 تعالى سيأيدكم عند حلول المنون لانه رحوم . وانا اقول لكم : انه لاجل هذا السبب

نفسه اي لانه رحوم ان يأيّدكم ويعينكم في ساعة وفاتكم * لا تتعجبوا من قولي هذا ولا تستغربوه . اسمعوا البرهان على ذلك . وبه اختم القسم الاول من خطبتي هذه * انه ان كان الله سبحانه رحومًا (وهذا حقيقة من حقائق الايمان) فما الذي يجب عليه ان يلاحظه : اخلاصكم وهدمكم الخصوصي . ام خلاص البشر عمومًا * لا شك في انه يلزمه ان يلاحظ خلاص جنس البشر كافة * ونقول : لو كان الامر كما تزعمون . كم من البشر كانوا يقتدون بكم الى السوء اذا افكروا في انكم بعد سيركم سيرة تناقض شريعة العدل والصواب لابد ان تحظوا في ساعة وفاتكم بميتة سعيدة نظير الأبرار . وكم كان يتشكك من ذلك الضعفاء والصغيروا النفس في قلوبهم . وكم كان يتجرب الصالحون . وكم كان يتعجب المنافقون . وبالنتيجة كم من الانفس كانت تعدم الملكوت بربح نفس واحدة * فهكذا تنتهي رحمة الله بل عدله الالهي وهو ان يدبر على هذا النسق . اي من عاش شريرًا يموت غالبًا شريرًا * ولولا ذلك . لامتلأت الدنيا من الشرور وهدمت الاديرة وتبدد آل الاقليس . واضحى القديسون عند العامة الجهلاء اهلاً للضحك والهزء كمثل هيلاريوس ومقاريوس وسابا وارسانيوس وغيرهم ممن اقتدوا بهم . الذين قد ابتاعوا بكلفة وافرة ما يحصل عليه مجانًا او بكلفة زهيدة جزئية اكثر المسيحيين حتى الاكثرين نفاقًا والافرين دنسًا من عامة الناس * قلت انما ان من عاش شريرًا يموت غالبًا شريرًا . فافهموا معنى قولي غالبًا . لانني اقر مسلماً ان بعض الائمة الذين عاشوا بالخطايا دائماً قد نالوا حقًا الخلاص ووجدوا حظاً سعيداً . الا ان هولاء قليلون جداً . وما الذي تنتجونه من ذلك * انكم لعالمون جيداً ان يونان التي في البحر لما كان يزيد مضطرباً ومنتوجاً . وقد حظي بحوت ابتلعه وبعد ثلاثة ايام قذفه الى اليبس حياً (يونان ٢: ١١) * فمن اجل هذا الحادث هل يستصوب احدكم اذا كان في البحر وحدث اضطراب عظيم ان يقول للنوتيّة : النوتي حالاً في البحر بأمل ان يحظى بما حظي به يونان : لا لعري . اما يكت متمسكاً وتشبثاً ولو مجبل . ولا يسمح بان يزعج في البحر * ويوسف الحسن صامراه

السجن سبباً ايرتقي الى اعلى مناصب مصر. (تكوين ٤٠ و ٤١). فهل يوجد فيكم من يطلب ان يُسجن ويُقيد بالحديد مترجياً ان ينال مرتبة سامية * ومردخاي صارت له التهمة واسطة ليصير من اكابر وزراء ملك الفرس (استير ٢: ٢). فمن منكم يرغب ان يحصل مبعوضاً ومحسوداً ومتهوماً. لعله يكون معظماً عند العالم * ومن حيث انه يسوغ لي ان اورد ما بين هذه الاخبار المقدسة خبراً آخر دنيوياً. فاقول: انه من الاكيد من تواريخ بلينيوس ان رجلاً يقال له فلاراوس قد انفق كل ثروته على الاطباء والادوية ليبراً من داء الاكلة ولم يشف. ولما ايس من الشفاء. ذهب الى الحرب مع الجيش رغبة في ان تاتي طعنة مميتة فيقتل ويستريح من حياته المكربة * واذ كان في المعسكر مع الجنود. اصابه سهم في الاكلة نفسها. فانفجرت وخرجت منها تلك المواد المسمومة. ونال الشفاء * فليت شعري ما الذي تنتجون من هذا الخبر. هل تنتجون انه اذا اصابكم داء عضال مثل هذا يجب ان تفتشوا اين يحدث في المدينة خصام وقتال لتذهبوا وتختلطوا ما بين المتقاتلين لكي تاتيكم ضربة شافية نظير من تقدم ذكره: حاشا. لكون هذا جنوناً واضحاً * ولاي سبب: السبب واضح. وهو ان الحوادث الاتفاقية القليل حدوثها لا ينبغي لرجل حكيم ان يصيرها قاعدة لافعاله * فلا تستندوا على خبر احد الاثمة اذا عاش حياته كلها بالخطايا وعند ساعة موته تاب ورج. لان توبة مثل هذا هي من اعظم العجائب. وبها يريد الله تعالى ان يجعل لنا على الدوام رجاء في الخلاص. وذلك لكي نمتاز عن الهالكين ما دمننا احياء في الارض * فاخبروني اذا يا معشر الخطاة الذين ياخرون التوبة الى ساعة وفاتهم: على اي شيء متأسس رجاءكم بانكم ستحظون في تلك الساعة بموته سعيدة: اأتاكم بها وعد من الله خصوصي. ام جاءكم نبي من الانبياء واكدها لكم. ام انكم تظنون ان لكم مسنداً في هذا من عزمكم الحاضر على ان ترجعوا الى الله تعالى تائبين عند ساعة الموت كأن عزمكم هذا صالح وناتج لمجد الله لا لاحتقاره وازدرائه * تكلوا واضحاً يا ايها الخطاة. وفسروا لنا ما هو الذي تفهون به عزمكم وقول احدكم في

نفسه: أنني سأتوب قبل المات * إن هذا العزم لعربي هو استهزاء بالله تبارك اسمه .
 وإذا فحشنا معناه بالتدقيق . فيكون تاويله هكذا : اللهم أني أعدك بان أتوب عن
 ذنوبي اليك متى ما عدت عني ولم يبق لي وقت لا غيظك . وسأخلص اليك محبة
 قلبي متى ما عجزت عن ان اتصرف بها في ما يلذ لحواشي . وسأتوجه على اهانتني اياك
 اذا ما ضعفت ولم يعد لي قوة ايضاً على ان ازيدما عددًا . وسوف اعترف واقرب
 بانني اخطأت وعصيتك اذا ما رُبطت يداي وزجلاي ولا يعود لي طاقة على المسير
 لأصنع بهوى قلبي ومسرته . وما دمت طليقاً متعافياً صحيحاً . فلا اترك الخطايا . وإنما
 سأتركها متى ما تركتني هي * فهذه حقيقة معنى عزمكم الملعون في ان تنتهبوا لنفوسكم
 عند الموت * اتظنون انكم بهذا العزم تحملون الله منة . وتحسبون انكم ترضونه به
 وتكرمونه . والحال انكم في الحقيقة تهينونه به وتحقرونه * فان كان ذلك كذلك .
 فارضخوا لتعليبي وأقروا بانكم قد انغلبتكم * اطرحوا عنكم الترس . والقوا الاسلحة . وتعالوا
 الآن معي كغنيمة الانتصار ساجدين امام قدمي هذا المصلوب الالهي . وامامة انزعوا
 عنكم خطاياكم قاصدين التوبة من هذه الساعة . لانني الآن اعدكم بالرحمة . ولكن عند
 ساعة الموت لا اعدكم بها *

القسم الثاني

انني لست اعلم لاي سبب اجهدت نفسي في ان ابين بهذا المقدار من
 البراهين المختلفة خيبوبة أمل الخطاة الذين يأخرون الى ساعة الموت توبتهم ورجوعهم
 الى الله . وإحتمال ان الرجوع اليه عز وجل عند ساعة الموت ليس هو في التحقيق
 الا الرجوع المسائي الى الله تقدس اسمه * وما الذي قاله الله عز قوله في الزبور
 عن هؤلاء الذين يعودون عند المساء : قال انهم «يعودون عند المساء ويعودون
 مثل الكلب» (مزموه ٥١ : ٧) وذلك لتفانم الجوع الذي يعذبهم * لعربي ان هذا

النصّ الالهي يُفسّر بمعانٍ كثيرة. ولكن ان احببتم ان اورد لكم معنى واحداً وهو الذي قد اعتبرته ووجدته هو الاصح. فأصبحوا نحوي سماعكم راصدين عقولكم جيداً * فاقول ان الله تعالى بقوله هذا كأنه يقول للخاطي: انت عاملتي بمنزلة كلب. وانا سأعاملك ايضاً بمنزلة كلب * ولا شك في انكم تعلمون كيف تُعامل الكلاب: انكم اذا ما جلستم على المائدة لتأكلوا. وانتم كلب وجال حولكم لتطرحوا له شيئاً يأكله. فما الذي تفعلون: هل تعطونه من احسن الموضوعات على مائدتكم. كلا. بل تعطونه دائماً ما هو الاردا. وتحفظون لانفسكم ما هو الاشرف: تاكلون اللحوم وتطرحون له العظام او الجلد او القشر. وربما ان جدتم عليه باعظم السخاء تبقون له احقر الفضلات * فعلى هذا النسق يعامل بعض الخطاة عزّة الباري تعالى. لانهم يعطونه على الدوام الارداً من حياتهم. ويخصّصون لانفسهم العمر الاحسن اي العمر النضر المخضّل المزهر * فما داموا شباناً يستعملون الزمن لعل هوى نفوسهم واستلذاذها. واما لله تعالى فيبقون ما هو الارداً او احقر الفضلات. لانهم يبقون له ايام الشيخوخة او ايام حياتهم الاخيرة. وحينئذ يهتّمون بان يستغيثوا به ولكن في النسمة الاخيرة من حياتهم. اعني النسمة الرديّة. النسمة المنتنة النسمة الزخمة الراضحة * وهكذا وبهذا النوع يساوون الله بالكلب. لانهم يعطونه فضلة كل شيء * ولكن الله تقدّست الآوة يقول للخاطي: انك قد عاملتي معاملة الكلب. ولكن بس ما صنعت. فاني انا ايضاً اعاملك مثل الكلب. لانك ستعود عند المساء. اي سيأتي مساء حياتك وضيقك الاخيرة ووقت سياتك. وسوف اراك عادم الحركة من المرض مسهراً على سريرك نظير الكلب المغلّل بالقيد. واسمعك تعوي ناجماً وتصرخ طالباً مني المعونة * ولكن ما الذي تظن انني اعطيك: العلك ترجو مني تاهيدات النعمة التي لا يقاومها افسى القلوب. ام تأمل ان امحك تلك التاهيدات القويّة التي تفعل اعظم الفعل: كلا. لا تنتظر. ولا تأمل مني انني سأعطيك هذه * لانك ان حظيت بهذه. فتكون قد نلت ما هو الافضل من خيرات مائدتي. وانت كلب فلا تستحقها *

الأني سامحك تلك التائبات التي تُسَمَّى كافية فقط. اعني تلك التي تستطيع لا محالة ان تقوم بعونها من خطاياك نادماً عليها. غير انك لا تقوم منها لكونك تعتقت في الشر وتملكك فيك العوائد الرديئة الى الخطأ * فهذه تُعطى لك لأنها فضلة نعي وعواقبها * فتملأ عاملتي في مدة حياتك بمنزلة كلب. هكذا اعاملك ايضاً بمنزلة كلب حينما تعود عند المساء. وتعوي مثل الكلاب لشدة جوعك * فيا ايها الخطاة انتبهوا الآن على انفسكم. ولا تجلوا على الله تعالى بالاكرام حتى تعاملوه بمنزلة كلب. والافتبصرون ماذا يصير منكم في العاقبة لانكم تموتون بخطيتكم *

اسمعوا خبراً مخوفاً مرهباً جرى في عصرنا هذا وارعدوا * كان في موضع من المواضع شاب شريف النسب دنس الافعال. فهذا عشق فتاة من الفتيات عشقاً شديداً حتى انه لكي يقضي فيها وطره الدنس متى ما اراد. نقلها الى قصره. وولاهها على كل ما يقتنيه واقامها لخدمته. واستمر في هذا الحال معها أعواماً. ولم يعتبر بنصائح الكهنة ولا نصائح اصدقائه الذين يودونه * لأنه كان يبعد عنه كل من يخاطبه في طرفها من داره اذ يرد جواباً جافياً بوجه غضوب قائلاً: لست أستطيع ان افارقها. وكأنه بهذا الجواب كان يقصد ان يقنع الجميع ان الذي كان عنده تحت اختيار الشهوة قد صار لديه ضرورة في الطبيعة * فما امكن ان يزحزح عن عشيرته تلك الجارية المنافقة. حتى ادركه الموت لكي يفرقه منها طوعاً او كرهاً كما يجري ذلك في كثيرين من الخطاة * ففرض المنكود الحظ في عنفوان شبوبيته. وضعفت قواه. وانطرح عليلاً على السرير. ثم حكمت الاطباء على مرضه بأنه خطر * زاره احد الرهبان من الذين يعرفونه لبعده في تلك الآخرة ويرتب امور نفسه * فلما دخل مخدعه ودنا من فراشه وسلم عليه وجلس. شرع يفاتحه بكلمات الحكمة قائلاً له: ارى يا سيدي ان لك سبباً للرجاء اكثر من الخوف. لانك بعد شاب في عنفوان شبوبيتك. ولم تنزل ممتعاً بقوة الجسد وحسن تركيب المزاج. وكثيرون تعافوا من مرض يشبه مرضك. الا ان كثيرين ايضاً ماتوا منه * ولكن وان كنا نرجو بانك

ستكون من جملة المتعافين. فإي ضرر يحصل لك إذا استعددت كأنك ستكون
 من جملة المائتين * فاجابه العليل بشجاعة: قل يا ابانا ماذا يعوزني ان افعل.
 فإني لك طائع. لأنني مطلع على حقيقة مرضي. وانا مستشعر به أنه اعظم خطراً
 علي مما قلته. وقد استسرتُ الى هذا النهار سيرة رديّة. ولكني الآن راغب ان
 احصل على ميتة صالحة كمثل سائر المسيحيين * أنه لا يمكننا ان نصف الفرح الذي
 اصاب الراهب من هذا الجواب الحسن. فاحب ان يخاطبه اولاً في معنى قطع
 عشرته السمجة مع تلك العاهرة التي بالتم قلبه عاينها جالسة في مخدع المريض وقد
 ألزمها بان تكون حذاءه دائماً عنداً منه بان تخدمه وتناولها ما يمناج اليه * ولكن
 مع ذلك اراد الراهب بحكمة وافراز ان يقدم على الزام العليل بطرد تلك الشقية
 بسوالات اخف ليتلين بها قلبه المتصلب. ولاجل ذلك قال له: اعلم يا ابني انني
 اراك بنعمة الله عازماً هذا العزم الصالح ومستعداً الى خلاص نفسك استعداداً
 حسناً. فاريد ان اخاطبك بالدالة التي يقتضيها هذا الاسكيم المبارك المتشح انا به
 والغيرة المتقدة بي لخلاصك * تم اخبرك ان الاطباء كافة قد حكموا بتلافك. فان
 اردت ان ترتب اشغالك وتنقي ضميرك. فاعلم انه لم يبق لك سوى زمن قليل *
 فقال العليل: اسرع اذا يا ابانا ما دام الامر كما نقول. واعلمني بما يعوزني ان افعل *
 فاخذ الراهب بسأله قائلاً: هل عليك دين لتفيه * قال: كان علي دين فوفيته *
 فقال له الراهب: هل عندك وديعة لاحد * قال: كان عندي وديعة فردديتها الى
 صاحبها * فقال الراهب: وان كنت في حياتك حقدت على احد. انما تصفح الآن
 عنه من كل قلبك * فقال: قد صفحت * فقال الراهب: انغفر لمن اساء اليك * قال
 غفرت * قال: اتنوي ان نتضع الى من اذنبت اليه * قال: نعم * قال: هل ترغب
 عند نهايتك هذه ان تتناول الأسرار المقدسة كما يجب على الانسان المسيحي. لكي
 تسلم على تجارب العدو وتدفع عنك مخاطر الهلاك * قال: انني اتناولها من كل قلبي
 اذا تفضلت علي وشئت ان تناولنيها * قال: نعماً قلت. ولكن شانك ان تعلم

يا حبيبي أنه لا يجوز لك ان تناولها ان لم تطرد عنك هذه الفتاة * قال: آها يا ابانا قد طلبت مني شرطاً لا يمكنني امتثاله. لأنني لست أستطيع ان اطردها * فقال له الكاهن: وا اسفاه يا ابني. لماذا لا تستطيع ذلك. واي مانع يمنعك. انك لمستطيع يا سيدي العزيز على طردها. بل ذلك واجب عليك ذمّةً ان شئت ان ترج آخرتك * قال: قد قلت لك يا ابانا انني لا أستطيع * فقال له الراهب: الا تعلم متيقناً أنه على كلا الحالين ينبغي لك ان تفارقها بعد زمن قليل. فاذا ليس من الامر العسير ان تفارقها باختيارك بعد معرفتك أنه ينبغي لك ان تفارقها اضطراراً. لان الموت الموافي عليك يفرقك عنها طوعاً او كرهاً * فقال المريض: لست أستطيع يا ابانا. لست أستطيع * فقال الراهب: ما هذا الكلام يا ابني الحبيب. ها هوذا الاله الذي صلب من اجلك يطلب منك ان تجده بهذا المجد الوارد اليه من طردك ايها. فهل يسوغ لك ان تمسكه عنه. تفرس فيه كيف هو من اجلك مخدش ومجرح. فهو تعالى قد سنك دمه لاجلك. وهو الذي مات متألهاً باشد الآلام في حبك ولاجل خلاصك. تفرس فيه. ها هو ظاهر امام عينيك. أما يلين قلبك من مشاهدتك آياه. اما يرق. اما يتخشع * فقال: لست أستطيع. واقول لك ايضاً: لست أستطيع * فقال له الراهب: ان كان هذا كلامك. وهذا عزمك. فلا يمكنك اذا ان تناول الاسرار الالهية * قال: لا أستطيع * قال: انك لتخسرن الملكوت وتهلكن في جهنم * قال: لا أستطيع * قال: آه واحسرتاه. اما يمكنني ان اسمع من فمك كلمة اخرى سوى قولك لا أستطيع * فاستمع لي يا ايها الساكنين: اليس افضل لك ان تخسر هذه المرآة فقط من ان تخسر معها صيتك وجسدك ونفسك وحياتك. بل تخسر معها ايضاً آخرتك والتديسين والعذراء والمسيح والملكوت. وباستمرارك على هذه الحال تدفن بعد وفاتك دفنة المحرومين. وتلقى بمنزلة كلب ميت على مزبلة * فتهد العليل المنكود المحظ تنهداً من اقصى عمق قلبه قائلاً: لقد قلت لك يا ابانا ولا ازال اقول لك اني لا أستطيع * ثم جمع القوى الضعيفة الباقية فيه. وقبض بغته

على ساعد تلك الشقية . واحتى وجهه . ورفع صوته وتلفظ بهذه الكلمات . التي انا
موردها على سماعكم من غير زيادة ولا نقص بل كلمة فكلمة . وهي : اعلم يا ابانا ان
هذه الجارية كانت عزي في حياتي . وهذه تكون عزي في ماتي . وهذه تكون عزي
بعد ماتي في الآخرة كلها * ثم اجندبها اليه بعنف وضماها الى صدره واحتضنها وقبلها .
وفي هذه الحال اشتد المرض عليه . وقويت فيه الحركة . واضطرب من حركة الهوى
ففاضت روحه الهالكة في حضنها * اسمعتم يا ايها المسيحيون كيف انتهت حياة هذا
الشاب : فهذه هي الحال التي تبلغ اليها الخطاة . الحال التي يرثي لها . الحال التي تجعلهم
ان يقولوا : لا نستطيع . لا نستطيع * ليت شعري لاي سبب لا يستطيعون . اتري حقا
لا يستطيعون اذا ارادوا ارادة حقيقية . والحال ان هذا لا يجوز لنا ان نقوله . لان
النعمة الكافية لا تنكر على احد . اذا طلبها * ولكن الخاطئ المتعق في الخطايا والمملكة
فيه عوائد سيئة شريرة يحتاج الى نعمة غير النعمة الكافية . اي يحتاج الى النعمة التي
سامها القديس اوغسطينس نعمة ظافرة . وهي التي تغلب كل نفاق وتزيل كل عصيان
وتستاصل كل عناد وتمرد . وهي النعمة الفعالة * الا ان هذه النعمة لا يلتزم الله تعالى
بان يهبها لكل احد . لا من قبل سنة العناية . ولا من قبل سنة الافتداء . فيحق له ان
يمسكها ممن يشاء * فان كان ذلك كذلك . فما يستبين لكم انه بمقتضى العدل والصواب
يحق ان يمسكها عن الخطاة الذين احنقروها وردلوا حينما كانوا يستطيعون ان
يصلوا عليها مرات متعددة في حياتهم . وقالوا لله ما هو مدون في سفر ايوب « ابعده
عنا . اننا لا نشتهي ان نعرف طرائقك » (ايوب ٢١ : ١٤) * وان شئتم تصديق كلامي
هذا . فاذهبوا الان الى قوم من المتعرقلين مجبة دنسة . وحدثوهم بتركها . فيجيبوكم
للموت : لا نستطيع . لاننا اذا اخرجنا الان من بيوتنا هذه المرأة . ينكشف امرنا ونقدم
للناس سببا ليشكوا فينا ويجعلونا حديثا لهم * انصحوا غيرهم ان يردوا مال الناس .
فيجيبوكم : لا نستطيع . لانه ان رددناه الان . افتقرنا * خاطبوا غيرهم لكي يردوا للقريب
الصيت الذي اخلسوه منه بطعن السنتم . فيقولوا : لا نستطيع لان شاننا ينقص

ان فعلنا ذلك * انصحوا غيرهم وحرّضوهم ليصالحوا غيرهم على حبّ الله. فيحببكم:
لا نستطيع. لا نستطيع. لانه لا يمكننا ان نوادد سريعاً من اساء الينا كل هذه الاساءة *
وعلى هذا النسق يرغبون ان يبرّئوا انفسهم معتذرين بقولهم: لا نستطيع * آه واسفاه
عليكم يا ايها المخادعون المخدوعون معاً. لا سمح الله ان ياتيكم يوم تقولون فيه قولاً
حقيقياً الكلام الذي تقولونه الآن اعذاراً عن نفوسكم * اسمعوا ما يقوله اوغسطينس
المغبوط في هذا الصدد. وارتعبوا خائفين * قال في الفصل الثامن عشر من السفر
الثالث في الحرّية: « هذه هي العقوبة العادلة عن الخطيئة. وهي ان الخاطئ لا يريد ان
يصنع صلاحاً حينما يكون قادراً عليه. واذا اراد فيما بعد ان يصنعه. فتزول منه
القدرة عليه » * فلا تضلوا يا معشر المسيحيين ولا تخذعوا انفسكم. اجتهدوا واعزموا
عزماً حقيقياً ان توبوا وتعملوا الصالحات حسب النعمة التي يعطيكموها الله تعالى
ما دام لكم زمان لتنالوها من لذه عز وجل * قال دارد الملك « اشبعنا بالفداء من
نعمتك » (مزبور ٨٩: ١٤) * لا تتباطأوا الى المساء اي لا تأخروا التوبة الى آخر حياتكم.
لانه قيل في الكتاب « يعوون مثل الكلاب » من شدة الجوع عن الذين « يعودون
عند المساء ». وذلك لانهم ياتون متأخرين. ويبلغون الى المائة حينما تكون قد
فرغت الصحف وارتفعت الاواني والماكل * اجارنا الله وايامكم من ذلك. آمين *

الخطبة الثانية عشرة

في أنه يجب على الخاطيء ان يستحي من خطايه جدًا ولا
يعانها مفتخرًا بها

«كل اعالم يصنعونها حتى يراهم الناس» (هكذا حررتني في
الاصحاح ٢٢ من بشارته: ٥) *

القسم الاول

انه على ظني لم يكن من الناس القدماء احد محسود اكثر من الساحر
المدعو جيجس. وذلك لانه كان يلبس خاتمًا في اصبعه. وبقوته المحالية يجب نفسه
عن بصائر الناس. حتى انه كان يستطيع ان يفعل ما اراد من الاثم والخبث من
غير ان يراه احد ومن غير حياء وخوف * وانما قلت انه كان محسودًا لانه من شان
كل منافق ان يحب ويرغب ان يستتر عند ارتكابه النفاق. وكل واحد منهم يتمنى
ان يحظى بليل دامس يمكنه ان ينقله معه حينما اراد من غير ان يراه احد * لعبري
ان كان هذا جيجس باستعمال ذاك الخاتم السحري قد دخل على ملكة من الملكات
وضاجعها. وقتل ملكًا من الملوك بغته. وفي الآخر صار ملكًا على بلاد ليديا بعد
ان كان راعيًا حقيرًا كما خبرنا عنه افلاطون. فان غيره ممن هم اشرف منه لو كان لهم
هذا الخاتم لما تركوا بكرًا الا واقتضوها. ولا كنزًا الا ونهبوه. ولا عدوًّا الا وانتقموا منه.
بل كانوا يقضون كل شهواتهم. ويبلغون كل اهوية نفوسهم. ويفعمون العالم من
الادناس والسرقات وسفك الدماء * الا انه مع هذا يمكنني ان اقول لكم يا ايها
السامعون: انه لو عرض في هذا الزمن هذا الخاتم في سوق الهراج للبيع. اللهم هل

يسرع احد المسيحيين الى مشترائه ولو قدّم لهم بثمن رخيص بخس: كلاً * ولكن
لاي سبب لا يريدون ان يشتروه: العالم يكرهون ذلك من حيث انهم لا يستطيعون
لانفسهم الخطأ لكونه مخالفاً لسنتهم المقدسة. ام لانهم يعلمون جيداً ان من يخفي
ولو اجتهد ان يستتر عن الناس لا يخفي عن الله تعالى * فيا ليت امتناعهم كان
لهذين السبيين. لكن ليس الامر كذلك يا ايها السامعون. بل انا اقول لكم ما هو
السبب * الا اني اسالكم قبل ان اوضحه لكم بان لا تغضبوا علي متضجرين لاستماعكم
ايابي كاتي ذو سلطان على ان اخاطبكم دائماً بدالة جزيلة من غير محاباة ولا مراعاة *
فاقول لكم ان السبب الحقيقي ما هو الا هذا. وهو ان المسيحيين في عصرنا هذا لا
يستخونون من ان يعملوا الاثم جهراً تجاه الجميع وفي وسط النهار. لانهم لا يعنيهم ان
يخفوا آثامهم. لا بل يفخرون بها وياتون بذكرها ويمدحون انفسهم من اجلها في
اجتماعاتهم. ويبلغون ايضاً الى حدّ بليغ من النفاق. حتى انهم كما زعم الرسول الالهي
يخسبونها مجداً وشرفاً لم عوضاً عن ان يستوعبوا منها حياةً وخجلاً بقوله «ومجدهم
في خزيم» (فيلبي ٢: ١٩) * ولكن ما بال حدة الغيرة حملتني حالاً على ان اعدل عما
ذكر الان في فصل الانجيل الطاهر الذي افتتحت به الخطاب. فاعذروني يامعشر
السامعين المكرمين ان كنت تجاوزت الحدود في ذلك * ان ربنا يسوع المسيح في
الفصل الذي تلي عليكم في هذا النهار وخبّ جماعة الفريسيين لانهم حينما كانوا يفعلون
افعال الديانة. كانوا ايثاراً للعجب والفخر يحبون ان ترى افعالهم هذه وتُسهر وان
يمدحوا من اجلها. ولم يكونوا يهتفون قط ان يخفوا عن علم الناس فضيلة واحدة
من فضائلهم كما يخفي البحر الجواهر الكريمة وكما تخفي الارض الذهب. بل «كل اعمالهم
يصنعونها حتى يراهم الناس» * ولكن في عصرنا هذا ليس لهؤلاء الفريسيين وجود.
ولو وجدوا. لكنت بعد طلبي الاذن من ربنا يسوع اعذرهم. لا بل اجعلهم قدوة
لبعض الائمة الواقفين ليقتدوا بهم * آه واسفاه. اننا قد بلغنا في عصرنا هذا الى حال
ارداً من تلك الحال جداً. لانه ان كان في ذلك الزمان قد كانت الكبرياء تقناد

الناس الى ان يخفوا الشر ويظهروا الخير. ففي هذا العصر نقنادهم كبرياؤهم الى عكس ذلك اي الى ان يخفوا الخير ويظهروا الشر مفتخرين به. وذلك حسبما انبأ عنهم القديس امبروسيوس قائلاً «ان المسيحيين اضحوا الآن يتباهون باثامهم. ويخنسبون انه يوجد شرف الفضيلة حيث يوجد خزي الخطايا والآثام» * فلا تعجبوا ان كنت قد وجهت خطابي حالاً وراساً الى هؤلاء الذين يظهرون للناس خطاياهم مفتخرين بها. وذلك هو موضوع خطبتي اليوم الى محبتكم * لعلمي ان ما يؤلمني ويضرم احشائي باطناً انه في ايماننا هذه لا نستطيع ان نقنع احد الخطاة ان يرضى (ان اراد ان يكون خاطئاً) ان يكون على القليل خاطئاً مستتراً ومستخياً * فدعوني ان اورد كل ما في خاطري على هؤلاء الاشقياء لكون الحق معي واهتف قائلاً: يا لوفور شرهم. ويا لافراط نفاقهم. ليت شعري هل بقي حالة من حالات الخطاة اكثر نفاقاً وافر اباحة من هذه الحالة وهي ان يظهروا آثامهم الفظيعة للعالم. وان يرتكبوا ادنس الجرائر السجدة لهذا القصد اي لكي يترأوا للناس. ويظهروا لهم انهم انجاس مسترخوا العنان لشهواتهم الرديئة غير مستحين ولا خائفين من خطاياهم * انني اسالكم يا معشر السامعين الاحباء الصالحين ان تساعدوني على مقت هذه الاباحة الشنيعة. لانني وان كنت عارفاً وفور شناعتها. ارى اني لا قدرة لي على ان اصفها واشرحها لكم كما يجب ويليق *

انني قد تقدمت واطهرت لكم عجزتي عن شرح شر هذه الاباحة. ولذلك فلما نويت الشروع في الخطاب. اذا بالنبي المغبوط اعني داود الملك اخنطف الكلام من في. كأنني لا ادراك لي يوازي عظمة الموضوع الذي نحن في صدده. ولا غيره كافية لايضاح جسامة شناعته. فهو يريد ان يتكلم عني هاتفاً نحو كل من هؤلاء الخطاة قائلاً «لماذا تفخر بالشر ايها الجبار» (مزمو ر ٥: ١) * وههنا يتبين لي انه بكلمات قليلة قصد ان يوضح معاني سامية * واي عي يمكن ان يوجد في البشر اعظم من هذا اذا تأملناه بعين الفحص الدقيق وهو كون الانسان يجد له فخراً

ومجدًا في الاثم * افحصوا واعتبروا جميع اعمال الناس . فلا تجدون احدا منهم
يفخر بغلطيهِ . بل بعكس ذلك كل احد يشتم الخزي اذا زل في عمليه * ذكر ان ديرويس
الخطيب الاثني الذي كان يسمو اهل عصره فصاحةً ونطقًا لما كان ذات يوم يخطب
متنصحا امام الملك مرقس انطونينس . تاه زائغا عن الموضوع بغتة ولم يعد يعرف
كيف يتم خطبته . فنزل من على المنبر صامتا * ومن يظن انه احسب ذلك
فخرًا له : انه بعكس ذلك اعتراه خزي عظيم جدا حتى انه مرض لوقته واضجع على
سريره لا ياكل ولا يشرب اياما . حتى انه دنا ايضا من ان يفقد الحيوه في مرضه
هذا الذي عراه من الخجل * اولعل البيانس افتخر بتأليفه كتبا استخفت لراكتها ان
يرذها ظاهرا اهل مجلس مشيخة رومية العظمى : انه بعكس ذلك ذهب واستخنى
في ناووس لتفاقم خجله * ام هل افتخر سوفكليس بالمصنفات التي لما تلاها في مجمع
حافل . لم ينل من الجمهور عنها ثناء ولا حمدا : انه من ذلك اشتمه خجل عظيم
حتى انه استاقه الى انه فتك بنفسه بجرية غرزها في قلبه * وماذا فعل ايضا ابن
اميلوس سكوروس حيث ولي هاربا من الحرب متقهقرا حينما ابصر جنديا من
اندائه هاجما عليه : اثره افتخر بذلك : لا لعمرى . لكن اعند فراره فيما بعد عارا
عليه . حتى انه من جرى ذلك حكم بانه غير اهل ليظهر امام حضرة ابيه . ومن ثم
طعن قلبه بجرية . وانطرح ميتا ليلا يختزي من ظهوره امامه * ولكن مع ذلك
فترى بعضا من البشر يتخذون الخطا والغلط في سيرتهم فقط مادة للسرور
وموضوعا للافتخار . لكون ذاك الشهواني مثلا اذا بلغ مرامة في ارتكاب الفسق الذي
ابغناه بجمل وصلات كثيرة . فكم يفرح بذلك فرحا جزيلا ويسر * وهكذا اذا اتصل
ذاك الحقود الى ان ياخذ من عدوه النار الذي دبره عليه بمكايد متعددة . فكم
يتكلم في ذلك متجدا * واذا حصل ذاك الحسود على ان يتلف بقذفه صيت
ذاك البري الذي كان متقدما عليه في الوظيفة . ويعزله عنها . فما يضحك ويسر
امام اقربائه الموموقين * واذا اتصل ذاك الوكيل الى ان يستفرغ هيمان تلك الارابة

التي سعى في القيام بدعواها في الشرع امام القاضي. افلا يفخر بذلك تجاه اصدقائه *
اهذا هو فخركم ايها الحمقى المنافقون * فلنعد قائلين مع داود « لماذا تفخر بالشر ايها
الجبار ». اما انتم عالمون بانكم مسجونون ومستقيموا الايمان فكيف اذا تفخرون بما
هو مخالف لعقيدتكم المقدسة مخالفة جسيمة * فيا لعظم شقائكم ايها الاغبياء. ترى اي
حكم بقي لنا ان نحكمه في احوالكم سوى انكم مبتلون بداء قروح عضالة لا علاج
لها ولا شفاء. ومن ثم اضحى خلاصكم من الموت الابدئي صعباً عسراً جداً *
انني لعالم جيداً انه ليس من شيم الطيب الحكيم صاحب الافراز الحسن
ان يحكم بتلاف المريض ويعدده من الاموات. ولو استبان في اشارات دالة على
الموت * لان القديس لاون الحبر الاعظم في الخطبة الرابعة التي قالها في عيد
الظهور الالهى يقول هكذا « انه ما دامت الحياة بالجسد لا يجوز لنا ان نياس
من خلاص احد. بل يجب ان نبتغي اصلاح الجميع » ولكن بهذا الشرط. اي اذا
لاحت لنا بعض دلائل في رجاء خلاص ذاك الشخص * ومن تراه يكون هذا
الواحد الا ذاك الذي قد اعناد ان يخص باعظم شجاعة واقبل حياً. ومن ذا
لا يعلم ان الخطأ مع عدم الحياء هو دليل في الانسان على انه صار متمكناً ومتعتقاً
في الشر * لعمرى ما من احد يخطئ المرة الاولى بقحة وعلانية. لكن بحياء وخجل
جزيل. لان الطبيعة التي لم تكن تعتقت بعد في الخطأ ولا اعنادت عليه تشاز
جداً من الخطية * نعم انها ترتضي بها. الا ان رضاها وقبولها يكون مقترناً بالخوف.
وترتكبها في المرة الاولى مرتجفة ومستحية ومتوقفة. وتطلب الظلام والاماكن السرية
لتخفي فيها. حتى انها تخاف ايضاً من الاشياء العديمة الحس التي ترتكب الخطية ضمنها *
ولا تظنوا ان ذلك لا يجري الا حينما نخشى من ان يلحق بنا عقاب ما اذا ظهرت
خطيتنا. لانه وان تحققنا انه لا يتصل الينا شيء من العقاب عن اثنا. فمع ذلك
اذا كنا مبتدئين في الشر ولم نتورط في مباشرته كثيراً. نجب ونرغب ان لا نعرف
خطيتنا اصلاً. ونبدل مجهودنا في ان نخفيها * واذا شعرنا بانها ظهرت على نوع

ما فنستوعب حياةً ورجلاً. وهذا كله إنما يصدر من اشتداد الطبيعة من الخطية ونفورها منها *

وتحقيقاً لذلك اخبروني: آية خطية امكن ان ترتكب في العالم من دون ان يخشى من العقاب بسببها نظير الخطية التي ارتكبتها قاين بقتل هابيل اخيه. انه لم تكن حينئذ ترتبت محكمة لخص دعاوي البشر. ولم يكن يخشى من المشتكين. ولم يكن اقيم قضاة. ولا كان يوجد خدام محكمة ليقبضوا على المجرمين ويعاقبهم. ولا بنيت سجون. ولا كان سماع بعد في الارض اسم قصاص الخطية. فهن كان يخاف قاين ان يقاصصه عن خطيته * والحال انه بحسب راي القديس امبروسوس لم يكن بعد ولد في العالم سوى قاين وهابيل فقط. فلو فتك آدم بقاين ابنه قصاصاً له عن قتله اخاه هابيل. لبقى من غير خلف * بل ان قلنا انه كان يوجد اناس في الارض غير قاين حسب راي العلماء الاصح. الا ان قاين لم يكن يخاف ايضاً من احد. لان الجميع كانوا يهابونه ومخرمونه لاجل انه كان البكر. وكان شاباً باسلاً ذا عمر كامل وفائقاً على الجميع بالشجاعة وقوة الجسد * ومع هذا حينما اراد ان يرتكب خطية القتل قبل جميع البشر تحذر حذراً عظيماً. وافتكر كثيراً في اي مكان مستتر يقتله * فشاننا. ان نقول انه لما حسد اخاه على بره. وعزم المرة الاولى على قتله. امتلاً خوفاً ورعباً. لان الكتاب المقدس يشهد فيه انه «عس وجهه» (تكوين ٤: ١٠) قبل ان يتصل الى ارتكاب هذا الاثم النظيف. وكأنه اراد ان يوضح لنا بهاتين الكلمتين ان لون وجهه تغير. وجبينه انقبض. وعيناه غارتا. واغتم كرباً. وعدم كل بشر لشدة الحياء والرعب اللذين اشتلاه. فيسوغ لنا ان نقول كم من الليالي قضاها بلا نوم. وكم من مرة قلق ارقاً. وكم من الاشباح المخيفة تخالبت له في الحلم * الا انه مع ذلك لم يعدل عن عزمه السيء. ولما قصد انجازه. فكم تعب وكم اجتهد في ان يقضيه سرا وخفية. فدعا اخاه الصالح الوديع الى خارج المنزل كأنه راغب ان يشرح صدره في الغياض * واحتمل عليه بكونه صديقاً اميناً قائلاً له: لتخرج الى الحقل * وابعدته عن المنزل

بمقدار ما استطاع . وطلب مكاناً خالياً وحققاً مقفراً . وهناك وثب عليه بغتة وقتلته
كما يشهد الكتاب المقدس بقوله « فلما صارا الى الحقل . قام قايين على هابيل
اخيه . وقتلته » (تكوين ٤ : ٨) * ولماذا هذا الحذر والاجتهاد في الاستتار : اما كان
يستطيع ان يقبض عليه في اي مكان شاء . العلة لم يكن اكبر منه عمراً واعظم قوة
وجساره . لم يكن مسلحاً اكثر منه . لان هابيل لم يكن يظن بانّه اغاظ اخاه قط .
ولاجل ذلك كان يسير دائماً غير متحذر وغير مسلح * ولكن قايين كان يدبر عليه
الفتح . ومن جرى ذلك احتاج ان يسير مستعداً على الدوام ومتسلحاً بسلاح يناسب
لقتل اخيه * ومع هذا فقد سلك في امر قتله بالحذر والاستتار اللذين يستعملان
في زماننا هذا الذي فيه كثرت عيون الجواسيس وفيه تحدث الدعاوي الطويلة
ونقام الشكايات الكثيرة . وفيه كثرت الشرائع المدنية بالعقوبات والحدود لاجل
ردع الجهلة والائمة * فاذا قد تصوّرت حسناً في صنع قايين الرعبة والحياة
اللدان تسببها الخطية في اوائلها قبل ان تتوطد وتتملك جيداً في النفس .
ومن ثم يخاف الانسان منها ولا يجسر ان يرتكبها بوقاحة العين وجهاراً . بل انه
يتنكر ويتحايل ويحلب سخطه برداء الوداعة . وبغضة بالمحبة . وحقده بالموانسة *
ويهرب الى حيث لا يجد من يضطهده . ويتعجب حيث لا يرى . ويفحص عن مكان
لا يوجد فيه من يقاصه * واثباتاً لما قلناه في امر قايين انما تعلمون حسناً ايها السامعون
باي عقاب عاقبه الله فيما بعد عن اثمه : انه تعالى لم يأمر الارض بان تفتح فاهها
وتبتلعها حياً نظير ناداب . ولا احرقه بانحدار نار من السماء . ولا سحقه رمياً بالصواعق .
فما كان اذا عقابه : قد كان هذا فقط . وهو انه ترك فيه تلك الرعبة عينها التي
شعر بها عند ارتكابه اثمه * وهذا هو راي القديس يوحنا الذهبي فمه ايضاً . لانه
قال متكلماً عن قايين « انه عوقب عن هذا الاثم كله بالرعب فقط » * لان هذا
الرعب هو من خواص الانسان الذي ابتدا حديثاً ان يخطى ولم يكن ضميره
تصلب بعد في الشر * ومن الذي يستطيع ان يدرك كم يضطرب حينئذ ضميره

ويتسجس . وكم يقلق ويتعب وكم يتألم ويتعذب . وكم يستخوذ عليه الخجل . وكم يتمزق
 باطناً من الهم والخوف : فهذا كله كان يشعر به قايين . ويتعذب في نفسه عذاباً
 لا يُوصف * ولاجل ذلك كان يقول مضطرباً وأيساً « كل من يجدي يقتلني » (تكوين
 ٤ : ١٤) * قال « كل من يجديني » . لأنه وقتئذ توهم في نفسه بان خطيته ستعرف
 عند كل احد . حتى أنه ظن ان وحوش الغاب ايضاً ستشعر بها وتسخط عليه وتنتقم
 منه * ومن ثم حسناً ختم الذهبي فمه بكلامه المقدم ايراده في قايين بقوله « فهذه هي
 شيم الخطاة ان يشكوا من كل شي مرتاعين . ويرتجفوا من كل خيال . ويرتعبوا من كل
 حركة وضجة . ويتوهموا ان الجميع قاموا المناصبهم » * قولوا لي الآن ايها السامعون الاحباء :
 ان كان هذه هي تاثيرات الخطية في النفس في اوائل دخولها فيها حتى انها سببت ايضاً
 في قايين نفسه الذي يلزمنا ان نقول فيه أنه كان له صدر من صخر وقلب يضاها
 الوحش . فاذا يجب ان نحكم في امر القوم الذين اذا اخطأوا لا يستشعرون بشي منها .
 الذين قال عنهم ارميا النبي أنهم « عموا بالرجس » (ارميا : ١٢ : ١٢) * ومع ذلك « خزيًا
 لم يخزوا وجهلوا الاستحياء » كما زاد وقال النبي المذكور * ولماذا نحكم على الذين
 فضلاً عن أنهم لا يشعرون بسجس في خطاياهم . يشعرون بفرح وسرور . وفضلاً عن
 أنهم لا يطلبون الاغتلاء . يطلبون الفلاة . وفضلاً عن أنهم لا يحبون ان يعذروا نفوسهم
 يتواقحون ويفتخرون ويتظاهرون بنفاقهم : اجيبوني وقولوا لي ايضاً : ماذا يجب ان
 نزن باولئك الذين قيل عنهم في سفر الامثال أنهم « يفرحون بفعل السوء » (امثال
 ٢ : ١٤) . ولتفانم اباحتهم « يبتهجون باكاذيب الشر » * أما هذا دليلاً واضحاً على ان
 أنفسهم تصلبت في الشر . وأنهم غلبوا الخوف والحركة الباطنة الاولى . وعدموا لذع
 الضمير ووساوسه * لأنه ما دام هذا القتال في الضمير . فالانسان يخشى ان يتمادي
 في اطلاق العنان لشهوته . لأنه لا يمكن ان ندرك كم تولد حزناً واضطراباً تلك
 الدودة المرة التي تنخر الضمير * حتى أننا ولو اجتهدنا بمقدار وسعنا في ان نسكنها
 ونخمد حدة سمها ونخفيها . لا بد من ان يظهر في الوجه ويغير لونه ويهزله ويجعل

صورته * ومن ثم متى ما بطلت واضحلت هذه الاشارات من الخطي اعني الحزن
والنجل . واستوت عليه عوضاً عنها اشارات الفرح والسرور وصفاقة الوجه . فنادوا
عليه بالويل . لانه يكون قد بلغ الى قعر الشر . وذلك حسب نص الكتاب الالهي
القائل « اذا انتهى الشرير الى قعر الخطايا . لا يبالي » (امثال ١٨ : ٢) *

انه ههنا يسوع لي ان اقول ان الله تعالى لم يحدد ما هو الشر الذي لا يبالي
منه المنافق اذا انتهى الى قعر الخطايا . ولكن قال قولاً مطلقاً « لا يبالي » * لانه متى
ما احتقر الخطي ذاك الحياء الذي تسببه الخطية من طبعها ولم يعد يشعر به
ايضاً . فلا يبقى حداً الاً ويتجاوزهُ ولا لجام الاً ويكسره * فان اشرتم عليه مشورات
حسنة . فتروته لا يبالي . وان تهددتموه بتهديداتٍ مخيفة . فهو لا يبالي . وان عظمتم
له اهانة الله وسخطه . فهو لا يبالي ايضاً . وان فحتم امامه جهنم وارعبتموه منها . فهو
ايضاً لا يبالي * وبالنتيجة اقول انه لا يبالي من شيء البتة . اي لا يبالي من النصائح .
ولا تبالي من الطلبات . ولا يبالي من الرشوات . ولا يبالي من العقوبات . ولا يبالي
من الناس . ولا يبالي من الله تعالى نفسه . حتى انه لا يخاف من ان يتفوه قائلًا
« من هو ربنا » * فانتجوا اذاً ما اوردناه اي رجاء يبقى لهؤلاء الاشقياء بالخلاص
الابدئي . كيف يستطيعون ان يصلحوا سجيّتهم الرديّة بعدما تملكتم فيهم الخطية .
كيف يمكن ان يتغيروا بعد ان سكن فيهم لدغ الضمير . كيف يقدرّون ان يرجعوا
الى الله تعالى طائعين وقلوبهم قد تصلبت في الشر ومشيّتهم تتردّت في فعل الاثم *
حقاً ان خلاصهم صار صعباً عسراً جداً من حيث ان رجوعهم عن الخطية الى
التوبة الحقيقية اضحى صعباً هكذا * انه لا ريب في ان رعي من يخطي بخوفٍ وارتعاد
او على القليل بنوع من الحياء ليس صعباً جداً كما قال القديس غريغوريوس .
والسبب في سهولة رعاؤه هو ما اورده هنا القديس المذكور ايضاً بقوله : « لان الذي
يستحي من ان يتبين خاطئاً قد يمكن بسهولة على صغر الزمان ان يستحي ايضاً في
نفسه من كونه خاطئاً . ومن ذلك يسهل عليه ان يتحرك الى التوبة والارتجاع عن

الخطأ * ولكن كيف يمكن ان يستحي من كونه خاطئاً من لا يستحي من ان يتبين تجاه الناس خاطئاً. بل يفخر بذلك مسروراً * ان الحاسة الصالحة الاخيرة التي يعدمها الخاطئ المنافق في الرغبة في ان يتبين امام الناس والتدسين صالحاً نياً. وهي التي من قبلها نشاهد الشخ الخجل يستر شخه ومحبة للضة تحت اسم الاقتصاد. كما صنع يهوذا الاخربوطي حينما ضج واجلب لسبب الطيب الذي افاضته المجدية على راس المخلص كان ذلك اربق بضرر الفقراء. وكان في ظاهر الامر قصده ان يتوفر من اجل احتياجهم * والجبان يحجب فشله تحت اسم الحذر * والمتعجرف يستر عجزته تحت اسم الشجاعة * والقاسي يستر ظلمته تحت اسم العدل * وهكذا وعلى هذا النسق نعاين سائر الخطاة الذين يستخزون من ان تظهر آثامهم. ومن قبل ذلك يحجبونها تحت اسامي النضائل لاشتياقهم ان يتبينوا امام الناس بمنزلة صالحين اقباء * وتأكيداً لكلامي اقول: هل وجدت امرأة علي وجه الارض اشر من ايزبال الملكة: ومع ذلك فهذه اللعينة لم تجسر ان تلتطخ بدم نابوت المسكين الذي رامت ان تسلبه كرمته من دون ان تستر ظلمها برداء الديانة المدوحة. لأنها اظهرت عن نفسها أنها قاصدة ان تقيم عليه دعوى كأنه مجدف على الله. ولجل ذلك فرضت صوماً عمومياً. وجمعت شيوخ اسرائيل واجلستهم لتعقد معهم مشورة في امر باهظ ثقل * وفعلت هذه المتكبرة هذا كله لأنها استحت ان يظهر شرها ونفاقها * وهكذا آمنون بن داود الملك اجتهد ان يخفي عشقه الدنس بحجة ضعف الطبيعة * ومثلهم هامان سعى ان يحجب حسده وحقده الشنيع تحت حجة خير الجمهور * فاذا رأينا بعكس ذلك احداً يبالغ به الشر الى ان يخطئ بقية وسهولة من غير حياء * «بل يفرح بفعل السوء» (امثال ٢: ١٤) كما جاء عنه في سفر الامثال. فيلزمنا ان نحكم عليه باحدى هاتين التضيئين. اي اما أنه لا يعتبر الاثم شراً جسيماً. واما أنه لا يحسب العار عتاباً اليماً * واذا ما وصل الانسان الى هذا الحد من النفاق. فهل يبقى لنا رجاء ان نردّه الى التوبة وبغض الخطأ كما

يجب * ولكن ما بالي قلت ان رده الى التوبة: ان الاجدر بنا ان نقول انه صار شريكاً
مع الشيطان في العقاب * واثباتاً لذلك اصغوا جيداً بعقولكم. وافهموا هذا المعنى
الدقيق الذي اورده الان على سماعكم. وهو انه من المعلوم ان ابليس تعظم في نفسه
ايضاً. لكن بأي شيء تعظم: انه بلا شك تعظم بحسنه وضيائه. كما قال حزقيال النبي
متكلماً مع هذا الطاغوت الكبير « ارتفع قلبك في بهائك » (حزقيال ٢٨: ١٧) *
نعم لقد تعظم هذا الملعون بنفسه لانه رأى عقله احذق من عقول المخلوقات كافة.
وانه قد اتصف بعلم ادق واوسع. واعطي المرتبة الاعلى * تعظم لانه ابصر انه لا
يوجد حسن في العالم الا وقد تسربل به * تعظم بكونه هو اكل صورة للعزة الالهية
واقرب مخلوق الى عظمة الله الازلية واشبه شيء بمجده السرمدى. ولاجل ذلك
ظن في نفسه انه لا يمكن لخالقة اخرى ان تتوسط ما بينه وبين الله رب البرية *
ومن ثم يستبين لي ان هذا التعظم والافتخار يجمل الاعذار. وذلك طبق ما تفوه
به اشعياء النبي حيث قال « حكمتك وعدلك خدعاك » (اشعياء ٤٧: ١٠) *
ولكن الخطاة الاشقياء الذين يتعظمون لانهم مكتسون اثماً ومشحونون عاراً. ويفتخرون
لانهم صاروا سجين ومكروهين بازاء عيني الله الطاهرتين. ويجعلون مجدهم وفخرهم
في ان لهم نفساً دنسة. وقلباً وسخاً. وجسداً منتناً من الرجاسات. وسيرة حيوانية.
هؤلاء اي عذر يرجون ويتوقعون من الله: العلم برجوز انه تعالى يجتاهم وهم
متعظمون هكذا باثامهم وادناسهم * والحال انه عز وجل لم يجمل ابليس مع انه
تعظم بكالاته * فعلى ما ارى انه يجب عليهم ان يرجوا بعكس ذلك. اي ان
ينتظروا من الله سبحانه اشد العقوبات التي اجراها على جميع الاشخاص المتعظمين
والمتكبرين في نفوسهم. لانه ان كان هو قدس اسمه عاقب عقاباً شديداً من
تعظم بقوته كمثل جليات الجبار. ومن تكبر بحسنه كمثل ابشالوم. ومن افتخر بكثرة
جيشه كمثل سنخاريب. ومن تباهى بسلطته كمثل هامان. ومن استبطر بغلباته كمثل
انطيوخس. ومن تباهى بفصاحته كمثل هيرودس. ومن تعجرف بقصوره كمثل بختنصر.

ومن تبحر بكنوزه كمثل حرقياً * وما هو اغرب من ذلك أنه تعالى قد عاقب من امتدح نفسه على مداومة اصوامه وإدائه عشوره وتوزيع الصدقات بفيض عظيم اعني الفريسي المذكور خبره في الانجيل الطاهر (لوقا ١٨) * اللهم فماذا يجلب بكم أيها الخطاة المنغمسون في الآثام. الذين تجعلون فخركم في ما يكره ويقبح ذكره. أي في الشهوات السخية. وفي الغش. والكذب. والخبث. والخيانة. والشره. والسكر. وما ضاع ذلك من سائر انواع الخطايا المستعجبة التي بدلاً ان تحفوها بمنزلة العار والفضيحة تفخرون بها بمقام جرائم تستحق المدح والثناء * وبعد ذلك هل ترجون ان الله تعالى يحلمكم. والحال انه (عز اسمه من هذه الصفة) حسب رأي يهوديث العفيفة يجب مطلقاً ان يكسر ويدل قرون الذين يفخرون بقوتهم ايضاً «انك تدل المتكئين على انفسهم المفتخرين بقوتهم» (يهوديث ٦: ١٥) * العلكم ترجون ان يصبر عليكم. ام هل تاملون ان يغفر لكم: لعمرى ان ذلك لا يمكن اصلاً أيها المسيحيون الاحياء لا يمكن. لان هذه وقاحة عين قليلة الحياء جداً. ومن اجل ذلك لابد ان تضرم في الله عز شأنه غيظاً ورجزاً لا يرام *

أي واحد منا نحن البشر لا يشعر بنفسه بمثل هذه الحركة اي حركة الرجز اذا ما اذنب الينا احد ولو سراً: انه لا شك في اننا نتحرك الى الغضب. ولكن مع هذا نستسهل الصغ عنه اذا علمنا انه لم يشعر بذلك احد ولا سمعنا بان احداً يتكلم فيه. لانه يبين لنا ان شأننا لم ينشم كثيراً * ولكن اذا اذنب الينا احد وافترى علينا. ولم يكفه ذلك. بل اذاعه وشهره مفتخراً متعظاً. فليت شعري كم يعظم الغيظ وكم يشتد السخط الذي يتقد فينا حينئذ بحيث اننا لا نشاء ان يتوسط احد ما بيننا وبينه متشفعاً فيه. ولا نقبل له عذراً. ولا نحب مصاحبته معنا. بل نحسب انه لم يبق شيء يرد لنا صيتنا وشاننا المهذوم سوى الانتقام منه بايدينا * فلنحسب الآن انه هكذا يجري الامر مع الله تعالى. وهو ان الذي يذنب اليه سراً ومتحذراً وخائفاً ومستحيماً لا يظهر لعزته الالهية هذا المقدار من الاحتقار. فلا يحركه سبحانه

الى سخطٍ عظيمٍ جداً * ولكن ما اعظم الاحقار الذي يحقنر به جلاله الالهي من
 يذبح ويشهر انه اهانه تعالى وازرى به : فهذا لعمرى يتبين منه انه بامانته ربه يقر
 بلسان الحال انه لا يعتبر ناموسه الالهي ولا يخاف من سلطته المرهوبة ولا يبالي من
 اكرامه ولا يعنيه تجيده ولا يبتغي محبته . ولا ثبات ذلك يستشهد مضمراً جميع الذين
 يعرفهم بخطيتهم * فلا عجب ان الله ينتقم بعقوبات شديدة عن الخطايا المشتهرة .
 غير انه مها كان السبب فانه من المحقق ان الخطية الخفية ولو كانت جسيمة يسهل
 غفرانها باوفر سهولة . ولكن الخطية المستعلنة وان كانت اخف فنادرًا تُترك من
 غير قصاص * وهذا الراي لم اجسر على ان اتفوه به لو لم اسنده على شهادة القديس
 المعظم مار يوحنا فم الذهب القائل في كلامه عن الفاسقين . « انه وان اخطأ احد
 خطاً ثقيلاً سرّاً فيستحق عقاباً اخف من اخطأ ظاهراً بغير حياء ولو كان خطاه
 اخف » انتهى * اولم يظهر الله تعالى صدق هذا الراي عياناً في واحد من اعز
 اصفياه الذين كانوا له في المسكونة . اعني موسى قائد شعب اسرائيل * فهذا النبي
 النفيس كان قد تعب وجاهد واحتمل مشقات وشدائد في ادخال الشعب العبراني
 الى ارض الميعاد اكثر جداً مما يتعب ويحمل احد القواد في ادخاله الجيش المقلد
 له لامتلاك مدينة من احصن مدن الاعداء * فما اشد الاتعاب التي تكبدها اولاً
 مع فرعون ملك مصر . فانه خاطر بنفسه مع سحرة الملك وطوح بنفسه ان يستط
 تحت غضبه . ثم لما خرج اخيراً من ارض مصر . فن ذابصف كثرة المشقات
 التي قاساها مدة سنين عديدة في البرية . لانه قد كان ثقلاً تدير شعب عظيم لا
 يحصى عدده من رجال ونساء وشيوخ وشبان وصبيان مختلفي الآراء شريين في
 الطلب غليظي الاعناق كثيفي العقول متصلبي الارادة جسورين عليه . ومن ثم كم
 من مرة قد عصوه جهاراً وناصبوه وسجسوا عليه . ومزقوه بالدم والنهيمه . وقسوا
 قلبه بالمشاجرات . وصرعوا سماعه بالبكاء وعابوه بالتهامات . واقفحوا عليه بالحجارة *
 اما النزم الله تعالى دفعات شتى ان ينحدر ويحميه من شرهم تارة بالحريق وحيناً

بالوباء وطوراً بالزلزلة. وفتح الارض قصاصاً للذين كانوا يناصرونه * وما عدا ذلك كله فقد قضى أيامه في الفتر ضابطاً بيده الاسلحة على الاعداء الذين كانوا يتلقونهم في كل مرحلة. وقد كان مفوضاً اليه من قبل وظيفته ترتيب الحروب واستماع الدعاوي واصلاح الخصومات وتعليم السنة * وعلى الاطلاق اقول انه كان يلزمه ان يتعب ويشغل في كل الاوقات على حدٍ سوى. سواء كانت اوقات السلامة والراحة او اوقات الحرب والقتال. وهذا كله كان يفعله هذه الغاية فقط وهي ان يدخل شعب اسرائيل ارض الميعاد * ومع ذلك فلما دنا من الدخول اليها لم يشأ الله جلت احكامه ان يعطيه هذا المجد اي ان يدخل الشعب ارض الميعاد. ومن يستطيع ان يدرك كم اشتغل موسى من الحزن. لانه بعد ان اتصل الى حدود الارض المشتاق اليها بهذا المقدر سمع من فم الله تعالى حاتماً عليه بالموت وقائلاً «رايتها بعينيك ولكن لا تدخلها» (تثنية ٢٤: ٤) * انه هو الذي نصب وتعب وكان غيره عنيداً ان يتمتع بشرة تعابه. وهو الذي اصابته مشقات لا تحصى ابلغ بالشعب الاسرائيلي الى الارض الموعود بها. وكان غيره عنيداً ان ينال المجد وفخر الانتصار * ولكن ما هو السبب الذي من اجله استعمل الله تعالى مع موسى هذا التشدد: العلة موسى لم يكن كاملاً في سيرته وديعاً في اخلاقه ومتورعاً في ديانتِه وغيوراً في ناموس الله. نعم انه كان متصفاً بهذه المحامد كلها. لكن لاجل انه زل يوماً في ما نطق به من دون رصد العقل. اغناظ الله تعالى منه غيضاً شديداً حتى انه ما امكته ان يسكن غيظه الالهي عليه * وان شئتم ان تعرفوا ما هي هذه الكلمات التي زل بها بالغلط. فاصغوا الى ما اورده على سماعكم * فاقول: انه كان الشعب الاسرائيلي قد عطش في البرية وهتف صارخاً بفضجة عظيمة الى موسى متهدداً اياه وسائلاً منه الماء. فضجر موسى من صراخهم وتذمرهم ورفع عصاه. وبكثهم قائلاً: ما الذي تطلبونه يا ايها الغليظوا الاعناق والمخاصمون «هل نخرج الآن لكم الماء من الحجر» (عد ٢٠: ١٠). هذه هي الكلمات التي فرطت من فيه من غير رصد العقل «الا انه لما اتبه في

الحال وعرف أنه تورط في نطقه بها بايمان قليل شاء ان تصلح يده زلة لسانه
فضرب الصخرة وعابن حالاً ماءً فائضاً يتدفق منها خلافاً لانتظاره * الا ان وقته
كان قد فات . لان الله تعالى ما استوفى رضاه من ندامة موسى السريعة عن
قلة ايمانه . ولذلك ترى له لوقته واعلمه أنه لاجل أنه تخرج منحرفاً قليلاً عن
الثقة بمواعيد الالهية اعدمه المحضوي بان يبصرها منجزة بادخال الشعب ارض
الميعاد * لعربي ان هذا القصاص مطابق دفوة موسى . اما انا فاقتر بالحق انني لا
اظن ان هذه الهوة مجرد ذاتها استخمت هذا القصاص . فيلزم ان اقول : أنه لا بد
من ان تكون قد اقترنت بمحدث آخر صدر معها فصير موسى يستحق القصاص
المذكور * واثباتاً لذلك اجيبوني : هل هذه هي المرة الاولى التي زل فيها موسى النبي
في قلة الايمان والثقة بالله : كلاً . لكن زل ايضاً مرات اخرى كمثل هذه الزلة ويمكن
انها كانت اعظم منها ايضاً * لانه من المعلوم أنه في احد الايام لما جهل كيف يجد
قوتاً يطعم هذا المقدار من الخلق في البرية . ايس ولم يتكل على الله تعالى في أنه
قادر على ان يقدمه لهم . ولجل ذلك شرع مجاوره عز اسمه وبخاصة كأنه عديم
القدرة . بل تشكى منه ايضاً كأنه تشبه بالذين يعدون بالكثرة ولا يستطيعون
ان يفوا بوعدهم * فاسمعوا نص كلامه واعبروه جيداً . وانظروا هل يخلو من
شائبة الجسارة : أنه خاطب الله تعالى قائلاً «ستماية الف راجل القوم الذي انا
بينه . وانت تقول انا اعطيهم لحماً لياكلوا شهراً من الزمن * ائذج لهم غنم او بقر
ليكفيهم . ام يجمع لهم كل سمك البحر ليكفيهم» (عدد ١١ : ٢٢) . ومع ذلك اجابه الله
بجلم عظيم ودالة وافرة . وaban له أنه سوف يرى بعينيه حقيقة قدرته الالهية التي لا
تكون بالكلام فقط بل بالعمل ايضاً وذلك بقوله «هل تقصر يد الرب : الآن تبصر
ايوافيك كلامي ام لا» (عدد ١١ : ٢٢) * وما عدا هذاكم من مرة كان سابقاً قد
عاند الله تعالى وابي ان يسلم له حالاً * أما قاومه في مصر لما اراد جل ذكره ان
يرسله ليخاطب فرعون * أو ما رفض الوظيفة التي اراد ان يقلده اياها وهي ان

يقتاد شعبه الى البرية. اولم يضجر وبسام منها ايضاً فيما بعد دفعات شتى * اولم يغضب منها وتشكى وتذمر مراراً كثيرة حتى انه اتصل الى ان يطلب لنفسه الموت لينجو من تعب وظيفته واكدارها. قائلًا لله «اقتلني قتلاً ان وجدت نعمة في عينيك فلا اري بليتي» (عدد ١١ : ١٥). كان الله عاجز ان يعزيه ويفرج همّه بطريقة اخرى غير طريقة الموت * ومع هذا كله لم يقاصه الله في هذه الدفعات. بل انه بعكس ذلك كان يشفق عليه ومجيبه بالحلم وبشجعة ويعضده ويعزيه * ولكن هفوة اللسان التي زل بها من غير رصد العقل حينما احتاج ان يخرج الماء من الصخرة. عاقبه الله عنها عقاباً شديداً حاداً * وما هو السبب في ذلك : انني لست اريد ان تسمعوا سبب ذلك مني. لان شهادتي يمكن انكم لستم تحسبونها املاً لاقتناع كثيراً. بل اسمعوه من فم القديس المغبوط يوحنا الذهبي فمه. فانه قال «انه ما امكن ان هفوة ما من هفوات موسى تعدمه الاستحقاق بالمحظوى بالمواعيد الالهية سوى تلك التي فرطت منه عندما رام اخراج الماء من الصخرة. وهذه الهفوة كانت لعربي اخف من غيرها نظراً الى مجرد ذاتها. الا انها حسبت اعظم منها» * ولاي سبب عدت اعظم من غيرها : ان السبب هو ما اردفته ايضاً هذا القديس المعظم قائلًا «لان الهفوات الاخر كانت قد فرطت من موسى خفيةً وسراً. واما هذه فرطت منه ظاهراً ونجاه الشعب كله» انتهى * ايكنكم ان تسمعوا تفسيراً اوضح من هذا * فالمفهوم من ذلك ان الخطبة التي صدرت عند الصخرة ولو كانت اخف الا انها كانت ظاهرة * واما سائر النقائص والهفوات في الايمان والثقة بالله. فلا ريب انها كانت اثقل لكنها بقيت خفية ولم يعاينها احد ولا سمع بها ولا اطع عليها. ولاجل ذلك لم يظهر الله تعالى اشعاراً بها عظيماً * ولكن هذه الهفوة الاخيرة قد ابصرها الشعب وعلم بها. ومع ان موسى لم يفتخر بها لكن حزن وبكى عليها. فع ذلك لم يتركها الله تعالى ان تجوز عنه بغير قصاص * افهموا الآن ايها السامعون الاعزاء. انه اذا اخطانا في منازلنا والابواب مغلقة. والحجاب ساترنا. فلا شك في اننا نعمل سوءاً. بل انما

عظيماً. لأن الله سبحانه يرانا في كل مكان. لأنه «لا ظلمة» كما نبهنا أيوب الصديق
وعلياً «لا ظلمة ولا ظل موت حيث يخفي الذين يعملون الاثم» (أيوب ٢٤: ٢٢)
لكن مع ذلك لنا ان نرجو اوفر الرجاء انه سهل علينا ان ننال من الله تعالى
العفو عنها * ولكن اذا كانت خطيتنا ظاهرة. فلنخف ولنرجف كثيراً. لأنه يلزمنا
ان نعطي عنها حساباً شديداً. ونحمل عنها عقاباً شاقاً عظيماً جداً * قال اشعيا
النبي «اذاعوا خطيتهم واشهروها. الويل لانفسهم لانهم جوزوا بالشور» (اشعيا
٢: ٢٠) * فلنعتبر معنى كلامه هذا. اي قوله «لانفسهم جوزوا بالشور». ان الذي
يتوعد بالشور القوم الذين اذاعوا خطيتهم واشهروها اليس يتهددهم بشور
عنيق ان تحل بهم لا بشور سلفت عليهم * نعم. فقد كان اذا اجدر به ان يقول
الويل لانفسهم لانهم سيجازون بالشور. لا لانهم جوزوا بالشور: نعم ان هذا
كان الاجدر * ولكن افهموا جيداً معنى الآية النبوية وهو. ان النبي كأنه يقول: انه
من الاكيد ان هؤلاء ذوي العثرات والتشكيكات تدركهم الشور تحقيقاً أكيداً حتى
ان لم تكن ادركتهم بعد فيسوغ لنا ان نقول انها ادركتهم وصاروا ساقطين فيها *
ولكي نتكلم بالحق علانية نقول: ما هي الخطايا التي تعيب اسم مسيحا لدى
الامم الاجنبية اعداء ايمانه وديانته المقدسة: هل الخطايا السرية الخفية: كلاً. بل
الخطايا الظاهرة * وان شتم ايها السامعون احبائي ان تفهموا الخطايا الظاهرة.
فاعلموا ان معرفة الامم الاجنبيين بانه يوجد ما بين النصارى نسوة يبعن عفتهم
بيعاً مجهرًا حتى انه لا توجد زاوية الا وتجاس فيها ثمار. وعلمهم بانه يوجد في
النصارى من يعلم صناعة العشق والتغزل او الافتضاح. وبانه توجد لديهم كتب وقصائد
ومصنفات لاجل تلذذ الشهوة. وانه تسمع في المسامرات احاديث واغاني وهزليات
سفيهة تهيج الطبيعة الفاسدة. وانه في الكنائس يحدث من الرصد والنقد في الهيئات
المحسنة الازبالية. او على القليل الكلام والضحك كأنهم واقفون في الساحات والشوارع. وان
النصارى يستعملون عهود الربا حتى اظلمها من غير حياء ولا لدغ الضمير. وانهم يحفظون

جهراً الحقد والبغض الى طلب سفك الدماء ايضاً . كان ذلك شرف لشانهم
 وصيتهم لا عار وخجل . وانهم يقاومون ويناصبون رؤسائهم الروحانيين . وانهم يمزقون
 صيت رهبانهم بقذف السننهم السفهية . وانهم يغرون غيرهم الى احتقار كهنتهم . وان
 اسم الله القدوس ايضاً يُجَدَّفُ عليه ظاهراً في الاسواق والمحوانيت والبيوت والخجارات
 والمجالس كأنه اسم احد احقر الناس * فهذه هي الخطايا التي تخفض شان الايمان
 المسيحي عند الشعوب الغرباء اعدائه المبغضين . حسبما جاء في الكتاب المقدس
 بقوله « يجعلون اسمه يُجَدَّفُ عليه بين الامم » * ولكن اذا عرف اولئك الامم ان
 الخطية تُستر عند النصارى بخوف وحياء . فيصدقون انهم يعتبرون الفضيلة . لانه ما
 من احد يخفي الشيء الذي يفخر به * لكن اذا عرفوا ان الخطايا يرتكبونها ظاهراً
 من غير حياء . بل يفخرون بها مسرورين . فما الذي يقولونه عنهم : لا ريب في انهم
 يقولون ان الصلاح لا اعتبار له عندنا اصلاً . وان الخبث هو عندنا محمود . ومن
 ثم ينتجون ان غالب المسيحيين لا يعتبرون محبة مسيحيهم وان اتباعه هو عار لديهم .
 ومخالفته وبغضه فخر ومجد *

ومع ذلك فيما لعظم شرنا ونفاقنا . كم من مرة نبلغ الى هذا الحد من الائم
 حتى ان الخطايا التي صدرت منا بالسر والخفاء نذيعها ونشهرها مجدثنا وتخبيرنا
 عنها * فلا يكفينا ان نفعل الاذناس في الظلام . ولكن نبرزها الى النور . ومع ان
 جدران البيت تخفيها والابواب المغلقة تحرسها والليل المقتم يحجبها . فلا يكفينا هذا .
 لكن نباغ من الشر ايضاً الى ان نبوق بها في المجالس المحرمة . ونخبر بها في السمر
 المرذولة . ونترنم بها بالاشعار السفهية * ليت شعري هل هذا شر قليل . ام لعل
 الضرر الواصل منه يسير زهيد * اتظنون ان يوجد رجاء في الخلاص لمن بسببه
 يُخَفَّص هكذا شان النصرانية ويعاب اسم المسيح ويعبر * فلنعد ولنهتف مع اشعياء
 النبي قائلاً « الويل لانفسهم لانهم جوزوا بالشرور » * حتماً ان هذه ليست هي
 خطايا يمكن نيل الغفران عنها بالسهولة * لقد هتف الله تعالى على لسان نبيه ارميا

مخاطباً بالغضب اورشليم وقائلاً لها «العلّ اللّحم المقدّسه تدفع عنك سيئاتك التي
بها افتخرت» (ارميا ١١ : ١٥) * ومعنى كلامه تعالى هو هذا : اي انه لا يكفي تقديمه
الذبايح لكي ترضيني عن سيئاتك * نعم ان هذه تكفي لثني عن سيئاتك لو كنت
تستحيين وتنجلين من قبلها ولو كنت تفتينها وتبكين عليها . ولكنك قد بلغت من
النفاق الى ان تفتخري بها . فمن ثم لم يعد لك رجا . وسوف اعاقبك عند المات *
ها هوذا الكلدانيون راكبون الخيل آتين اليك لينتقموا منك بأهري عن سيئاتك
ورجاساتك . فلست اريد منك بعد تقدمات ولا ضحايا ولا ذبايح . بل اريد
خرابك ودمارك * «العلّ اللّحم المقدّسه تدفع عنك سيئاتك التي بها افتخرت» *
كذا كان الله تقدّس اسمه يتكلم ويقول مغضباً على مدينة اورشليم من اجل
سيئاتها وادناسها التي كانت تفتخر بها * اللهم أيها الرحوم الرحمان لا تسبح بان يصح
قولك هذا المخوف عن مدننا وقرانا ايضاً * فمن ثم ينبغي لنا بل يجب علينا يا أيها
السامعون الاحبباء ان نجتهد في ان نرضي الله تعالى ونفي عنه الاهي عن سيئاتنا
ما دام لنا زمن . وذلك بافعال التوبة الخالصة المرضية * ومن حيث انه ينبغي لنا
ان نشاير ذلك سريعاً من غير تاخير . فلنبتدئن الآن من عمل الصدقة للفقراء
والمحتاجين *

هنا فليوص الواعظ بجمع الاحسان للفقراء

القسم الثاني

انه بعد ان انجزنا القسم الاول من الخطبة بقي علينا شيئان يجب ان
اخاطبكم فيهما بالاختصار . وذلك فيما يخص الخطأ ظاهراً الذي قد تكلمنا في ذمه
فيما تقدم من القسم الاول من خطبتنا هذه * اولها ان ابين لكم كيف يجب ان
تسلكوا من الآن فصاعداً لتحموا الشر الذي مضى . وثانيها ان اعلمكم كيف ينبغي

لكم ان تفعلوا لتمنعوا الشرَّ المقبل فيما سيأتي اي الخطا ظاهراً * فاقول فيما يخصَّ
الشرَّ الذي مضى: انَّ السبيل الذي يجب عليكم ان تسلكوا فيه لتحموا الشرَّ
الماضي اي خطاياكم الظاهرة هو هذا . وهو انه يجب على من كان منكم عارفاً في
نفسه انه قد صار سبباً للشكِّ والعثرة للقريب بقوله او فعله يجب عليه الان ان
يسعى في ان يكون لهم قدوة صالحة للبنيان الروحي . وبعد ان يرجع الى الله تعالى
بتوبة نصوحة . ويعزم على ان يخدمه عزَّ اسمه خدمة لائقة . ان يجاكي لا الذين
يظهرون عن انفسهم انهم يستحون من ان تراهم الناس يعملون خيراً وصالحاً . وافرط
حياتهم يعترفون سرا ويتناولون القربان خفية حتى انهم يحبون ايضاً ان يحضروا
القداس الالهى في كنيسة منفردة لكيلا يراهم احد * فهذا السلوك من افعال الخير
سراً لا يحسن بمن اخطأ خطايا ظاهرة مشاعة * نعم ان النبي والملك داود اوصى
قائلاً «قولوا في قلوبكم وتفكروا على مضاجعكم» (مزمو٤ : ٥) . ووصيته هذه يجب
عليكم ان تمتثلوها لكن فقط اذا اخطأتم سرا في نفوسكم او في قلوبكم . لانه حينئذ
ماذن لكم ان تعملوا عمل التوبة عن خطاياكم السرية في مخادعكم ومضاجعكم خفية .
وهناك ابكوا وتأسفوا عليها مخنلين داخل نفوسكم . ونقشفوا وصورها وصلوا وتخشعوا
طالبين من الله الغفران وتندموا عليها في مضاجعكم * ولكن ان كانت خطاياكم
قد شاعت عند غيركم . فلا يحسن بكم هذا الاخلاء . لانه يجب عليكم حينئذ ان
تبعثوا عنكم الحياء الذي عدتموه في افعال الخطأ وتجعلوا توبتكم ظاهرة لاصلاح
من تشكك منكم واتخذ له سبباً ان يعثر بالخطايا مثلكم * فيجب عليكم ان تواظبوا
على التردد في الكنائس واستماع الوعظ والتعليم والمذاكرات الروحية جهراً .
وتعترفوا وتتناولوا الاسرار الالهية عياناً . واقول بالاجمال انه يجب عليكم ان تعوضوا
عن الاضرار الماضية وتجتهدوا ان تردوا لله بنوع متساو ذلك المجد الذي اخنلس
منه ظاهراً بالخطية * اسمعوا في هذا الشأن ما قاله الرسول الالهى لاهل رومية
«كما اسلمتم اعضاءكم عبيداً للنجاسة والاثم الى الاثم . هكذا الان سلّموا اعضاءكم

عبيداً للبرِّ الى القداسة» (رومية ٦: ١٩) * فاعنبروا قوَّة كلمته «اسلمتم» ومعنى قواه
الآخر «اسلموا». فاذا من يكن قد اخطأ ظاهراً لا يُؤذَن له ان يتضي توبته
خفية * لقد اظهرتم على نفوسكم من غير حياء انكم خطاة . فأظهروا الآن انكم
صرتم من التائبين *

فهذا الذي قد قلناه . فيه كفاية لاصلاح الشر الذي مضى * واما الشر
الممكن اقباله فيما سيأتي فان شئتم ان تعملوا الواسطة السهلة الامينة لصدِّه ومنعه .
فاصغوا لي قليلاً لكي اوضحها لكم بينا . وارصدوا عقولكم حسناً نحو ما انا مستعد
لاقواه * فادلهوا ان الواسطة القوية الامينة السهلة لصدِّ الشر المقبل اعني الخطأ
ظاهراً هي بحسب زعمي ان يكون كل من له سلطة او ولاية يعتبر علانية اهل
الصلاح اعتباراً ظاهراً ويعظمهم ويشرفهم ويرقيهم الى الوظائف العالية . ويجازيهم
باحسن المجازاة عن برهم وتقواهم * واما الخطاة والاثمة . فيظهر ايضاً جهاراً احقار
اياهم ووزالتهم وبأخترهم في ما يخص الشرف عن الصالحين والانتقاء * فتي جرى
الامر هكذا . فتري وقتئذ كل انسان من الراغبين التقدم بالمحبة والاعتبار عند
مواليهم يسعى في ان يربي له صيتاً صالحاً ولو كان في افعال الباطنة منافقاً شريراً .
فلا يعود فيفتخر بالاثم . بل يخفيه ايضاً بكل جهده . وعلى هذا المنوال يسهل
على الشوق الى رضى خاطر انسان ان ينال ما لا ينال الخوف من فقد نعمة الاله
ومحبته * ليت الولاة سواء كانوا دنيويين او دينيين يفهمون بكم من الزمن الوجيز
يستطيعون ان يقدسوا شعبيهم ورعاياهم . فيتعجبوا مبهوتين في نفوسهم من قدرتهم
واستطاعتهم . حيث انهم لا يلتزمون بتعب جزيل في ذلك ولا نفقة وافرة . بل
يكفيهم فقط ان يذيعوا ويشهروا من نفوسهم ما كان داود الملك يندريه قائلاً
«عيناي على أمناء الارض لكي اجلسهم معي» (مزمو ١٠٠: ٦) * والمراد بهذا انه
يكفيهم ان يذاع عنهم في الناس هذا الخبر وهو انه : لامزية تُحمد لديهم سوى الفضيلة .
ولا شيء يُحتقر ويرذل سوى الرذيلة . وانهم لا يلاحظون اغراض النفس وهواها

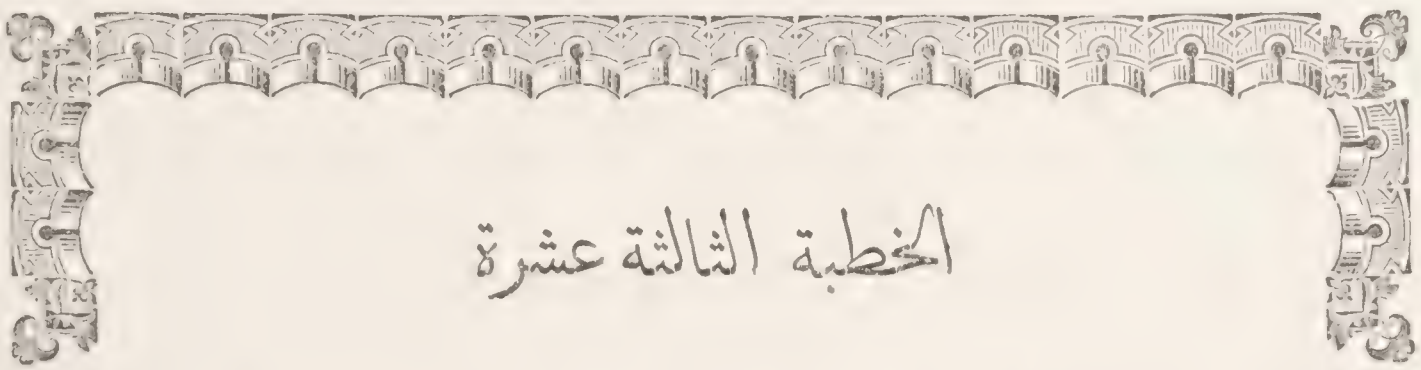
لكن استحقاق كل انسان . ولا يعتبرون الشفاعات والوصايا بل الافعال فقط . ولا يصنعون حسب ميلان الطبيعة لكن حسب العدل * فان سلكوا على هذا النمط وذاع عنهم هذا الخبر الحميد . فحينئذ يشاهدون من يرغب التقدم والشرف باوفر طمع يسعى مجداً في ان يتظاهر بالصلاح والبر اكثر من غيره * وهذا الذي قلته عن الولاة والحكام عموماً نظراً الى ولاياتهم . فافهموه عن كل من له تقدم وسلطة في بلده . وكذلك افهموه ايضاً عن كل رب عيلة في البيوت * ان كان هؤلاء جميعاً يطلبون في من يلوذون بهم الفضيلة ولو كانوا هم منها خالين في نفوسهم . يفيدون الجمهور خيراً وصلاحاً اكثر مما ينفعونه لو كانوا هم متصفين بها بنفوسهم من غير ان يطلبوها في الدين هم تحت امرهم * ولنقل من هنا قولاً مجازاً : انه متى ذاع الخبر في اية ولاية كانت . ان كبيرة وان صغيرة . اقليرسية او دنيوية ان الفضل يعطى للصالحين والرزق للطالحين . فعند ذلك يوصد السيل دون جانب كبير من الخطايا . وان كان لا يوصد هذا الباب تماماً فتبطل على القليل الوقاحة في ارتكاب الخطايا او ارتكاب الاثم ظاهراً والافتخار والحديث السفیه به *

ولكن لعلمكم تعترضون علي قائلين : ان هذه الوسطة التي علمتها اياها الان لمنع الخطأ ظاهراً تعلم الناس ان يسلكوا بالرياء الفرسي . لا ان يصيروا ذوي فضيلة وبر حقاً . لانه ينتج انه اذا رام الانسان ان يربح صيناً صالحاً لا يلزمه ان يكون صالحاً في نفسه بالحق . لكن يكفيه ان يرى صالحاً بازاء اعين الناس . فان فعل الانام هكذا واخفوا رذائلهم طمعاً في النجاح الدنيوي . فلا يعينهم بعد ذلك ان يقلعوا ويتوبوا عنها باطناً في نفوسهم . ومن ثم يتفق ان يوجد في المدن والقرى ابرار كثيرون بالمشاهدة العيانية فقط . وقليلون بالحق * فاجيبكم على اعتراضكم هذا قائلأ : لا تخافوا من هذا التوهم . بل اعلموا ان الرياء الفرسي هو الرذيلة التي تصعب حارسيتها دون سائر الرذائل * نعم انه قد يمكن ان يوجد التصنع بالصلاح . لكن لا يستمر زماناً طويلاً . لان التشكل نفسه بزئ الفضيلة يصير فيما بعد للمتشكل

بها متعباً ومكرباً اذا كان خالياً من حقيقتها * ومن جرى ذلك اذا لحظتم حسناً .
 ترون الأشخاص المطلقى العنان لشهواتهم اكثر جداً من المرائين . لان هؤلاء اعني
 المرائين يمتلكون من الفضيلة المرارة الموجودة فيها فقط . ولكنهم خائبون من
 الحلاوة المكنونة بها * ومن هنا قال حسناً المعلم تاوفيلكطوس ان المرائين ولو
 تصنعوا بالفضيلة وتشكلوا بها حيناً من الزمان . ينكشون اخيراً بمهر الزمان .
 وذلك لانه لما كانت اسباب الخطأ متصلة والاسباب المحركة اليها كثيرة والتجارب
 الخارجة والداخله عديدة . فلا يمكن ان يستمر ثابتاً في الفضيلة من يترباً بها من
 اجل الجمالة فقط * واذا قاوم الشر واستقام حسناً في الاسباب الخفيفة السابقة
 اليه . فيسقط في الاسباب الثقيلة * فاذا كان ذلك كذلك . فهل تعرفون ما الذي
 يجري مخالفاً لما قلتم وتوهمتم . ان كان يذيع الخبر بانه في هذه الولاية يتقدم اولوا
 الفضيلة وترذل الاربياء * اسمعوا ما الذي يجري . وهو ان هؤلاء المتسربلين بشكل
 الفضيلة اذا داوموا الاتيان بها بالظاهر فقط . يعطفون اخيراً الى العمل بها بالحق *
 واذا ابتدأوا بها من اجل اسباب ارضية . فيسهل فيما بعد عليهم ان يغيروا نيتهم
 ويعملوها لاجل اسباب صالحة مقدسة * واقول ايضاً بمصر الكلام : انه ان كان لا
 ينتج ما قلته خير ما . فعلى القليل ينتج هذا الخير وهو انه يرتفع من مثل هذه الولاية
 مقدار عظيم من الخطايا الظاهرة التي تحدث حيث الخطأ هو مباح . بل التظاهر
 به هو جائز ايضاً * فهذه الواسطة المقدم ذكرها انما شئت ان اعلمكموها لكي
 تستعملوها لمنع الخطايا ظاهراً . وقد اعتبرتها مفيدة جداً لهذه الغاية * وان قلتم انها
 لا تلائمكم لانكم لستم من الذين لهم التسايط والولاية على الآخرين . فاسام لكم ذلك .
 الا انه يجب علينا مع ذلك ان نتج منها نتيجة اخرى تفيدنا جميعاً وهي نتيجة النخل
 والخزى لانفسنا . قائلين في انفسنا : ايكن ان لا تنال منا محبة يسوع المسيح ما يناله
 اكرام الانسان ومراعاة خاطره . اليس ذلك عاراً وخجلاً لنا * وهذا هو ما قاله في
 هذا الصدد القديس اوغسطينس هاتفاً : ان الذي يناله منا الخوف من الانسان

يجب ان تناله منا ايضاً محبة المسيح لأنه اذا عرفنا وتحققنا ان من له علينا سلطة ما من آية مرتبة كانت . دنيوية او دينية . يستثنى من محبته جميع الذين لا يظهرون في نفوسهم ورعاً وديانة . ويعدمهم نعمه . ولا يتظاهر لهم بالبشاشة . ولا يوليهم وظائف الكرامة او ذات الثروة الوافرة . فلا شك في اننا لو كان الامر كما قلت لكننا نبذل الجهد والجد في ان نتظاهر متدينين متورعين لنحظى بمحبته والاكرام لديه : والحال ان هذا هو ما يفعله يسوع المسيح . افلا يكفي هذا ليجعلنا ان نمقت الخطية ونجنبها *
 فيا لتفاقم عارنا ويا لوفور خجلنا : كيف ان قدرة سيد ارضي تفعل بنا اكثر من قدرة السيد السماوي * كيف : ان محبة انسان تؤثر فينا تأثيراً اعظم من محبة الاله * كيف ان خيراً زمنياً يطلب منا اكثر من الخير الابدى * قد نادى يسوع المولى الاعظم على لسان بولس رسوله هاتفاً « ان الظالمين لا يرثون ملكوت الله » (١ كورنثية ٦ : ٩) .
 ومع ذلك فما اقل الذين يتجنبون المآثم * ثم خصص كلامه وحصرة في افراد من الظالمين ايضاً قائلاً « انه لا الزناة » . ومع ذلك ما اكثر الذين يتدنسون بالزنا . ثم قال « ولا الفجار » ومع ذلك ما اغزر الذين يخونون امانة سر الزيجة . ثم قال « ولا المفسدون » ومع ذلك ما اوفر عدد الذين يتنجسون بخطية الولوج بأجسادهم . ثم قال « ولا مضاجعوا الذكور » ومع ذلك ما اجزل المنهكين في هذه الخطية السدومية الدنسة . ثم قال « ولا السارقون » ومع ذلك ما اكثر الخائنين والغادرين في عهود المتاجرة والماكرين في وفاء الديون . ثم قال « ولا الطماعون » ومع ذلك ما اكثر الذين يطعمون طمعاً ذمياً في محبة الفضة . ثم قال « ولا السكثرون » ومع ذلك ما اغزر المتولعين بنهم ذميم في الماكل والمشرب . ثم قال « ولا الشتامون » ومع ذلك ما اكثر الذين يشتمون ويثلبون شان القريب . ثم قال « ولا الخاطفون » ومع ذلك ما اوفر عدد الذين يخلصون ظلماً ونهباً مال قريبهم * انه ان افترضنا ان حاكماً دنيوياً قد اخرج هذا الامر اي نقل هذه الآية الموردة من رسالة بولس الرسول وحررها بخط يده في قرطاس . ثم علقها في احدى ساحات شوارع المدينة

المشاعة . ولكن بهذا الفرق لا غير وهو ان يحو من كلمات الرسول هاتين الكلمتين فقط اعني بهما ملكوت الله . ويكتب مكانها هذه الكلمات وهي : لا يملكون محبتي . وبدل ان يقول لا يملكون ملكوت الله . يقول لا يملكون محبتي . او لا يملكون نعمتي او لا يملكون وظائفني . افا كنا نرى اصلاح السيرة ينمو في جمهور رعيتيه ويسعى كل احد ان يجنب المآثم المقدم ذكرها * فيا معشر السامعين المكرمين . ان اردنا ان نتوغل وندقق في مثل هذه الحقائق ونفحص فحصا دقيقا ضمير كل انسان وتلبه . فنتحشى ان لا نجد في الارض عند الشعب المسيحي شيئا من ايمان المسيح سوى الجنة فقط . ولاجل ذلك فالاجدر بي ان اقطع هنا الكلام * لانه ليس لي ان اقول اكثر مما قلت *



الخطبة الثالثة عشرة

نشمل على بيان ان محبة قوم لعيالهم التي يقصدون بها ان يغنوها ويعظموها بطرائق غير جائزة انما هي محبة ظلمية جورية وليست بصالحة *

« قُلْ اَنْ يَجْلِسَ ابْنَاي هٰذَانِ الْوَاحِدُ عَنْ يَمِيْنِكَ وَالْآخَرَ عَنْ شِمَالِكَ فِي مَلِكُوْتِكَ *

فاجاب يسوع وقال : ما تدرون ما تطلبون » هكذا حررتني

الانجيلي في الاصحاح العشرين من بشارته ٢١ *

القسم الاول

ان اخص الراغبين فيما سلف من الزمان ان يرتبوا ذريتهم حسنا بوسائط لائفة ويرقوها الى وظائف مجننى منها ربح مناسب لشان تلك الذرية كانت المرأة الصالحة المدون ذكرها في الفصل الانجيلي الذي تلي عليكم في صباح هذا النهار

المبارك اعنى ام يعقوب ويوحنا السعيدة. لان هذه اشتهت ان تنقل هذين الابنين
من السفينة الى المنبر. ومن الصيد الى الحكم. ولاجل ذلك طالبت مجتهدا ان
يعطيا هذا الشرف الوسيم وهو ان يجلسا بمنزلة وزيرين احدهما عن يسوع المسيح
والآخر عن شالو. لأنها ظنت بالمسيح الرب انه كان قريبا ان يقوم ملكة الارضي
في اليهودية وبصير ملكا مطلقا على سائر المسكونة * لعمرى ان هذه المرأة النقية لم
تطلب ان ترقى ابنيها وتسعدهما بوسائط وطرائق مذمومة كما يفعل كثيرون من
ارباب العيال الذين يسعون بارتقاء اولادهم الى مناصب جليلة. لأنها ما اخذت
قط تنازع احدا من جميع الرسل الذين خافت من ان يسبق احد منهم ابنيها الى
هذا الشرف الذي كانت تبتغيه لهما. ولا بينت مكرًا ومكايد. ولا احتالت حيلًا.
ولا اطرت السيد المسيح بالحديث والخطاب وحسن الالفاظ. ولا استندت على
الهدايا والرشوة. ولا سلكت بنوع آخر من الطرائق الذميمة لتجذب الى اربها نعمة
الملك الجديد ومحبتة ورضاهة * لكن بعد ان تفرغت عن ابنيها العزيزين وقدمتهما
لخدمة السيد المسيح المتعبه منذ سنين. وبعد ان اذنت لهما ان يتبعاه ويسيرا وراءه
الليل مع النهار ماشيين من مكان الى مكان حافيين الارجل بملايس رثة. وبعد ان
عرضتها مرات شتى من قبل ذلك الى هزؤ اليهود وبغض كتبهم وتعبير رؤسائهم
وشانه الفريسيين. وبعد ان تلهذت هي نفسها له تعالى وتبعته الى حيث كان يمضي
تاركة بيتها واشغالها وغير مكترثة ببعليها. فبعد هذه الواجبات التي صنعتها مع السيد
المسيح وهذه الأفضال التي رجتها لديه لم تصنع شيئًا سوى ان تقدمت امامه وسجدت
له. وعرضت عليه رغبة قلبها بطلاقة جزيلة حميدة من غير تعويج الالفاظ. ولا
تحيل بالوجه والكلام. وقالت له «قل ان يجلس ابناي هذان الواحد عن يمينك
والآخر عن شالك في ملكوتك» * ومع هذا نرى السيد المسيح لم يظهر انه مدح
طلبها هذه واقبلها. بل بخلاف ذلك رد لها وبين غيظًا. وذمها بمنزلة غيبة جاهلة.
وبكتها بمقام المتجاسرة والمتعجرفة قائلاً «ما تدرين ما تطلبين» * وبجوابه هذا اوعبها

خزيًا وخجلًا تجاه الحاضرين * فابن الوالدون الذين لا فراط اشتياقهم الى ان
 يعظموا اولادهم ويغنوهم . يستعملون وسائل غير جائزة ومذمومة . بل وسائل
 كاذبة ايضا وغشوشا ومظالم ورشوات وتهات وغيرها من طرائق الجور والاثم *
 ابن الذين يوردون لنيل هذه الغاية دعاوي ظلمية متجاوزة حدود العدل في المحاكمات *
 ابن الذين يحرفون معاني كتب وصايا المائتين وتمسكاتهم ووثائقهم * ابن الذين
 يمكرون بأجرة العبيد والفعلة او بمداخيل الكنائس او برواتب اولي الاقليات *
 ابن الذين يتعدون على اليتامى . ويظلمون الارامل ويتهاونون بالقاصرين . ويمتصون
 دم الفقراء والمساكين . قاصدين جميعا بهذه الطرائق ان يوفروا لاولادهم ويغنوا بيوتهم *
 فليات مثل هؤلاء ههنا ويسمعوني . لانني اريد ان ابرهن لهم عيانا على ان طرائقهم هذه
 غير صوابية وغير ملائمة لمقاصدهم في ايسار عيالتهم * كيف لا . والحال اننا رأينا
 السيد المسيح لم يبح للوالدة المذكورة الرغبة المفرطة في تقديم ولديها وتعظيمها مع انها
 كانت امرأة ذات فضل وافر وطلبت منه ذلك باحتشام واكرام بليغ * فهل يسوغ
 لكم بعد هذا ان تسعوا في ايسار اولادكم واغنائهم وتعظيمهم ضد الارادته تعالى بطرائق
 غير لائقة * لعمرى ان مساعيتكم هذه باطلة . واتعابكم فارغة خاوية بل مردولة ومذمومة .
 وان كنتم ترغبون ان توطدوا بيوتكم وترتبوا عيالكم واولادكم على الخطف والحرام
 وخراب المساكين . وان كانت هذه هي الحدود التي تبلغ اليها محبتكم الغزيرة لهم .
 فاسمعوا اليوم خطابي وتفهموه . فيتضح لكم ان محبتكم هذه لم ليست هي محبة على حقيقة
 القول . لكن هي عين القساوة والظلم *

أخبروني قبل كل شيء : كيف يمكن ان لا تفتنوا انتم من نفوسكم ان هذه
 المحبة المشروحة ليست ملائمة ولا موافقة لغايتكم * انه من المحقق ان وراثتكم اذا
 ارادوا ان يستسيروا سيرة مسيحية . فلا يحل لهم ان يتصرفوا بشيء مما تخلفونه لهم
 من المكاسب المحرمة . فباطلة جميع انعابكم التي تتكبدونها في مدة حياتكم لكي تغنوهم
 وتجعلوهم موسرين * لانهم يلتزمون ذمة بعد وفاتكم ان يعودوا راجعين الى حالهم

القدية وبعدهم عن حال العظمة ويقللوا الخدام. ويفرغوا الاسطبلات من الخيل. ويبيعوا الاملاك والنفايا. واقول قولاً مجلاً بعبارات ايوب الصديق انهم يلتزمون على سائر الوجوه ان يتقيأوا المقتنى الذي تلبعوه * واذا تغاضوا عن ذلك ولم يريدوا ان يادوه طوعاً واخياراً من تلقاء نفوسهم. فماذا يتفق لهم: ان الله تعالى عينه كما قال ايضاً ايوب البار «يستخرجه من بطونهم» (ايوب ٢٠: ١٥) * وما الذي اعنيه بكلامي هذا: انما اعني هذا الامر. وهو انهم ان ارادوا ان يحفظوا لانفسهم شيئاً مما لا يجوز لهم حفظه. فيصير الله جلّت قدرته عدواً قاهراً لبيوتكم * ومن ثمّ أجيبوني بحسب ربكم: العالمك تامنون على بيوتكم مع وجود عداوة الله هذه القاهرة * ذكر ان يوليوس اغرقولا الذي كان من اعظم مشايخ رومية واغناهم لما شاخ وبلغ الى السنين الاخيرة من حياته. ابغضه دوميانوس الملك وعزلته عن مرتبته الشريفة. وقطع عنه جرايات ومداخيل كثيرة من الثروة. بل أسقاه ايضاً سماً ناقعاً سراً. كما خبر بعض المؤرخين. فاحتمل يوليوس المظلوم هذه المظالم بحكمة وافراز. ولم يظهر غيظاً وحرذاً البتة. ثمّ لما دنا من الموت وهمّ بخير اولاده وترتيب نظام بيته. استعمل هذه الحيلة وهي انه اخذ قرطاساً وكتب فيه وصيته واقام الملك وريثاً لتركته في راس الكتاب قبل الجميع متكلماً عنه بالفاظ اعظم الاحترام وعبارات احسن الشكر. كأنه كان ممن انعم هو عليهم لا من الذين ظلمهم * فتعجب من ذلك قوم من الانام القليلي الفهم والادراك منذهلين. واحنسبوا صنيع يوليوس هذا تغفلاً وقلة حزم * ولكن الناس الحكماء لم يحنسبوا ذلك تغفلاً بل حكمة وافرازاً عظيماً. لانهم فهموا جيداً انه خير للعيلة ان تبقى بميراث زهيد مع كون حاكم الوقت حياً لها من ان تكون بعكس ذلك اي ذات وراثته وافرة ويكون الحاكم عدواً لها مبغضاً * وهذا اكده فيما بعد الفعل. لان اولاد يوليوس المذكور استفادوا ونجوا جداً بعد وفاة والدهم عند الملك. اذ احبهم لسبب الحكمة الجزيلة التي اظهرها ابوم دائماً في حياته وخاصة عند ساعة ماته * ولتحقيق الامر قولوا لي يا معشر السامعين: اذا اتفق لكم ضيق نظير الرجل

الشريف المقدم ذكره. انما تحبون اكثر ان تتركوا اولادكم بثروة اقل وتكونوا تحت
 رضى حاكم الوقت ونعمته من ان تخلفوا لهم مالا غزيراً واملاكاً كثيرة ويكونوا تحت
 بغض الحاكم وغيظه * بل اقبل ايضاً: اذا افترتم في انهم يسقطون ضرورة بعد
 وفانكم تحت عداوة احد حكام المدينة. ويكون عليهم من ذلك خطر. فهذا لعمرى
 يسجسكم وبعبكم جداً. وتبدلون جهدكم في ان تصلحوا ما بينهم وتوفتوهم جيداً قبل
 ان تنقلوا من هذه الدنيا. حتى اذا اقتضى لذلك نفقة وافرة من المال ايضاً.
 تنفقونها من غير صعوبة * وان كان ذلك كذلك. فكيف اذا لا تخافون من ان تتركوا
 الله تعالى جلت عزته عدواً لخلفائكم بعد ماتكم. اعساكم ان تظنوه ضعيفاً عاجزاً لا
 يستطيع ان ينتقم. ام تتوهمون انه ينسى او يهمل الانتقام * اسمعوا ما قاله عن قوله
 ملاخيا النبي عن هؤلاء الذين يحبون ان يبنوا بيوتهم ويرفعوها على رغبة: قال له
 «هم يبنون وانا اهدم» (ملاخيا ١: ٤). اي كأنه تعالى يقول له: دعهم يصنعوا ما
 يهرون. وسوف يرى اخيراً من هو الاقوى قدرة وذراعاً. اعم في بناء البيوت وتشيدها
 ام انا في هدمها وخرابها «هم يبنون وانا اهدم» *

وان اردتم ان تحققوا ذلك ابغ التحقيق. فاذهبوا واستقصوا في الكتاب
 المقدس عن جميع الاولاد الذين ورثوا عداوة الله بتصرفهم بالقنايا التي اكتسبها
 والدوهم بطرائق غير جائزة وخالفوها لهم. ثم ارجعوا واخبروني هل انتفع احد منهم
 من شرف نسله. او من استناده على اقربائه الاقوياء. او من كثرة املاكه. او من
 ثروة مكتسبه او من عظمة ولايته * بل تبصرون ما يضاد ذلك. وهو ان الله
 سبحانه في مثل هذه الحوادث قد تحرك سخطه ليفعل افعالاً مستغربة مخوفة * لا
 شك في انكم عارفون ان السنة الدارجة المألوفة لا تقتضي ان يدرك الاولاد الابرياء
 قصاصاً من اجل اثم والديهم. وذلك حسب قول الله تعالى ايضاً في حزقيال
 النبي القائل «الابن لا يحمل اثم الاب» (٢٠: ١٨) * لكن مع ذلك لكون الله جل
 ذكره هو المولى المطلق. وانه ان يصنع ما يشاء. فقد فعل احياناً ما يناقض هذه

السنة . وعاقب من اجل خطية الوالدين اولادهم . بل اولاد اولادهم ايضاً . حتى الى الجيل الرابع . لان هذا هو الجيل الاخير غالباً الذي يمكن ان يراه الاب في ذريته اذا شاخ وهم جداً * ولكن اذا لاحظتم من اجل آية خطية من خطايا الوالدين قد اعناد الله تعالى ان يعاقب اولادهم منتقمًا منهم . فترون أنها إنما هي هذه الخطية التي نحن الآن في صدد الكلام عنها وهي رغبتهم الذميمة في ان يغفوا اولادهم ويسعدوهم بآرباح محرمة ووسائل غير حميدة * ولاثبات ذلك اذكروا عاخان الشقي الذي رام ان يغني عائلته اذ خالف وصية الله تعالى واخفى في الارض مبلغاً من الذهب في خراب ايريجما . ولاجل ذلك حكم عليه بحريق النار مع عائلته كلها (يشوع ٧) * ومثاله كان قصد جيجزي ان يغني عياله اذ استمد بحيلة كاذبة من نعمان الشامي جزءاً من الهدايا التي ابي اليساع النبي ان يقبلها . ولاجل ذلك عوقب بضربة البرص هو وخلفاؤه جميعاً (٢ ملوك ٥) * وعلى هذا النسق اراد شاول الملك ان يذخر لذريته اموالاً من غنيمه العالقة مخالفاً امر سهوئيل النبي اذ اوصاه ان لا يبقي من امتعتهم شيئاً . ولاجل ذلك خسر الملك هو وبنوه ايضاً * وكذلك اخاب الملك اثران يزيد بيته الملكي غنى ورياضاً باخطافه جوراً كرم نابوت . ولاجل ذلك مات مقتولاً هو وجميع ذريته (١ ملوك ٢١) * والامر الذي يزيدنا عجباً وذهولاً في هذا اخاب هو ان هذا الملك لما مات . ترك بيته مشتملاً على اثنين وسبعين ولداً وكانوا كلهم ذكوراً . ومن هنا كان يتبين ان بيته كان عنيداً ان يدوم مخلداً متناسلاً من قبيلة الى قبيلة دهوراً كثيرة . وخاصةً لانه كان غنياً جداً وله قنايا واملاك وافرة ومتسعاً باهل واقارب اقوياء اعزاً . ومع ذلك فقد اضمحلت قبيلته كلها ولم يبق منها احد في الحيوة لا من الاقارب البعاد ولا من القراب . حسبما يشهد بذلك الكتاب المقدس قائلاً « وقتل كل من كان قد بقي بيت اخاب حتى لم يبق منهم بقية » (٢ ملوك ١٠ : ١١) * فانظروا اذا كيف انه لاجل هذه الخطية اي خطية قيام البيوت وابسارها بطرائق مذمومة قد عوقب ليس الوالدون فقط

الذين ارتكبوها . لكن معهم اولادهم ايضاً الذين لاجلهم ارتكبوها . بل اولاد اولادهم ايضاً الى الجيل الثالث والرابع . لانه من مقتضى اللياقة والعدل ان يصيب الانسان العقاب في الشيء الذي اخطأ فيه * فكيف تجسرون على ان تستعملوا لاجل تعظيم بيوتكم الوسائط التي هي انساب شيء ووافق طريقة لخرابها ودمارها * العلمم تترجون ان تدوم زماناً مديداً مع علمكم ان لها عدواً وهو الاله العزيز المنتدر الذي استطاع ان يزيل في زمنٍ قليل هكذا عشائر حمة وشريفة ومتسامية وقوية بمقدار لا يرَام * فان كنتم لا تخافون من ان تنفق لكم عاقبة تضاهي عاقبتهم . فافعلوا ايضاً مها شئتم . ولكن ان كنتم تخشون من ان تدرككم عاقبة مثلهم . فاي جنون بقي اعظم من هذا وهو ان تتركوا ابناءكم وخلفاءكم في عدم الامان بايثاركم الذميمة ان تخلفوا لهم قليلاً من اليسار والنعمة والثروة *

انكم اذا عزمتم ايها السامعون ان تبنيوا برجاً . فلست اظن انكم تباشرون ببناءه في فصل الشتاء البارد . بل تنتظرون ان ياتي الصيف او فصل اخر من فصول السنة الأخر . وحينئذ تشرعون في البناء * وما السبب في ذلك : اليس هو ان الابنية التي تبني في الشتاء لا نفيم كثيراً . وذلك لان الجليد يكرز الكلس . والمطر يلين التراب . فلا تستطيع الحجارة ان يتشبث بعضها ببعض وتنتظم معاً * او ما تعرفون ما هو ابتناء البيوت على فضة اجنبية : انه هو لا محالة ابتناؤها في الشتاء * وهذا هو طبق ما نطق به روح القدس على فم ابن سيراخ الحكيم قائلاً « من بني بيته بنفقة غيره . فهو مثل من يجمع حجارته في الشتاء » (سيراخ ٢١ : ٩) اي لكي يبني بها في الشتاء . كذا فسر جميع مترجمي الكتاب الالهي * فانتم تبنيون في الشتاء يا ايها المسيحيون . نعم انكم تبنيون في الشتاء . ولاجل ذلك الاولى بكم ان تعدلوا عن الابتناء . والأفثقل بيتكم ويتزعزع ويتقوض ويهبط . فتضحى اتعابكم فيما بعد باطله وتضلل * قال ارميا النبي « الويل لمن يبني بيته بالظلم وغرّفه بغير حق » (ارميا ٢٢ : ١٢) * وقد زاد على ذلك حبقوق النبي ايضاً فقال « الويل لمن يبني المدينة

بالدما» (حقوق ٢: ١٢) اي دماء النقرآء. «ويستعدُّ القرية بالظلم» * وانتم تصدقون بتخيالاتكم الباطلة اكثر مما تصدقون بتهديدات الانبياء التي لا تكذب * ما اكثر ما نرى كل يوم عشائر جليلة موسوعة تخرب وتفنى لاجل هذا السبب غير مفترقة ان الاودية الجارية في الشتاء ولو شوهدت تنمو وتهدر بامواه كثيرة عظيمة فهي اقل ثباتا من كل قناةٍ منها كانت صغيرة. لان تلك امواها غريبة مجتمعة اليها من الخارج. وهذه فيماها اصلية من نبعها * انه لما اتبه زنا العشار على نفسه ورجع الى الرب تائباً. قال «من اكن قد غبنته شيئاً. اعطيه عوض الواحد اربعة اضعاف» * فاجابه السيد المخلص قائلاً «اليوم صار الخلاص لهذا البيت» (لوقا ١٩: ٨) * فلنعتبرن جوابه تعالى هذا الالهي قائلين: ما هذا الجواب. لقد كان الاولى به ان يجيبه قائلاً: اليوم صار الخلاص لهذا الرجل * لان زنا كان هو الذي غبن وظلم واخلس مال غيره بالحرام. لا اهل بيته. وهو الذي اراد حينئذ ان يتوب وينزل كل ضررٍ ضرب به قريبه. فاستبان ان الخلاص كله كان واجبا له * نعم: الا ان السيد المسيح ربنا كان يعلم احسن منا. ولجل ذلك لم يقل: اليوم صار الخلاص لهذا الرجل. بل قال «هذا البيت». وذلك لانه كان يرى واضحاً انه لو لم يرد زنا المال الذي اخلسه ولو لم يجاز عن جميع الضرر الذي جلبه على غيره. لم يكن هو وحده يجهل العقاب عن المال الذي جمعه ظلماً بل كل اهل بيته ايضاً. مع انه هو بمفرده كان قد مكر وظلم قريبه لا اهل بيته *

ولكن هات نسلم لكم ما تريدونه يا ايها السامعون. ولنفرضن ان عداوة الله جلت قدرته لن تسيء الى عيالكم. ولنفرض انكم ستخدون بيوتكم بالارباح المحرمة. ولنفرض ايضاً انكم سوف تزيدونها سعادةً وشرفاً وثروةً وتوطيداً. ولكن العلة هذا يبين خيراً ونعماً لكم ولاولادكم * فيا معشر الانام الاشقياء. اصيخوا الان نحوي سمعكم لكي ابث عليكم اشواق قلبي الجريح بكلام القديس سلبيانوس اسقف مرسيليا المعظم حيث يقول «يا اشقى الناس خطاً. انتم تفكرون في العيشة الرغدة الرخية

التي سوف يعيشها خلفاؤكم بعدكم. واستم تفكرون في الميته الشريرة الشقية التي انتم
تموتونها» انتهى كلام القديس «فكأنه يقول: من هو الذي علمكم ان تعتبروا خير
اولادكم الديوي اعتبارا هذا مقداره. حتى انه لاجله لا تخافون من ان تجعلوا انفسكم
تحت خطر الهلاك الابدي وخسارة السعادة الابدية فيا لعي يجب ان يبكي عليه.
وما هو هذا الاعتبار القليل الذي به تعتبرون انفسكم حتى انكم ترضون لاجل محبة
انسان من عائلتكم ان تحذروا الى جهنم. وتترقوا في نارها معذبين باكين مع
الهالكين والسايطين الى الابد» انني قد سمعت حتى الآن. انه يقال على الدوام
ان كل انسان يحب نفسه اكثر من حبه لغيره. حتى اني منذ نعومة اظفاري قد انطبع
في بالي مقال الفيلسوف الوثني اللاتيني القائل: «ان الجميع يريدون لانفسهم
احسن مما يريدون لغيرهم» ولكن واحسرتاه لقد اخطرت الآن ان اكذب هذه
الحقيقة المشتهرة التي سمعتها وتعلمتها منذ حداثي. لانني ارى انه يوجد في العالم
كثيرون يوثرون باتعابهم العظمة لغيرهم والهلاك لانفسهم. لانهم على ما قال عنهم
القديس ساليانس المقدم ذكره «يستودعون نفوسهم للحريق في النيران المؤبدة ليجعلوا
غيرهم مستوعبين من التبعات الزمنية» ليت شعري اي ضرر اعظم من هذا
يستطيع ان يجلبه عليكم اكبر اعدائكم الذين يمكن ان يكونوا لكم في هذه الارض
ان عدوكم نعم يبغضكم وبضطهدكم وهذا لا شك فيه. لكن الى اين ينتهي بغضه
واضطهاده: انما ينتهي الى النعش او الى القبر. لان القديس المقدم ذكره يقول
«ان كل عداوة تنحل بالموت» ولكن انتم لا تكتفون بان تسيءوا الى نفوسكم في
هذه الدنيا فقط. لكن تسيءون اليها بعد الموت ايضا. وهذا هو ما قاله ايضا الاسقف
المغبوط المذكور انفا «انتم تحاربون نفوسكم حربا شديدا حتى انكم لا تفتنون من
العداوة لانفسكم حتى بعد الموت» «لانه من اجل خير اولادكم وعيالكم لا تبرحون
عائشين في هذه الارض عيشة مكربة ومتعبة. تارة متخاصمين في المحاكم. وتارة ضابطين
انفسكم تحت ولاية الاكابر. واحيانا حاملين الحر والبرد في السفر. واحيانا مغرقين

نفوسكم بهوم واشغال متعبة . وليس ذلك فقط . بل تصيرون اضطرهاد نفوسكم
هذا متصلاً الى ما بعد وفاتكم ايضاً . لأنه بعد ان تكونوا عدتم على حب غيركم
الراحة والصحة . لا تخشون من ان تخسروا نفوسكم وتعدموا الملكوت ايضاً * فلنعد
اذا قائلين : اي ضرر اعظم من هذا يستطيع اكبر اعدائكم واقوى مبغضيكم ان
يجابه عليكم * ها هوذا قد صح ما نطق به حبقوق النبي قائلًا « الويل لمن يكثر
اموال غيره » (حبقوق ٢ : ٦) * حتمًا انه لغبي وسخيف العقل . يا ليتة كان يفهم وفور
الضر الذي يصنعه مع نفسه بتكثير اموال غيره . واثباتًا لذلك قال النبي المقدم
ذكره ايضاً « حتى متى ينقل على نفسه طينًا كثيرًا » . العلمك لحظم معنى قوله هذا
اي « على نفسه » انه لم يقل : حتى متى ينقل على غيره طينًا كثيرًا . بل قال « على
نفسه » والمفهوم من ذلك اني يصنع خيراً لغيره يدمر نفسه ويهلكها . لأنه ينقل
على نفسه من الطين الثقيل الذي سوف يواربه ويطره * فاعنبروا هنا يا معشر
السامعين وافهموا جيداً ما هو الاسم الذي يلقب به الله تعالى بفيه التدوس الذهب
الذي انتم تحبون وتعتبرونه اعتباراً هذا حده : انه تعالى لقبه باسم الطين الكثيف *
العلمك تظنون يا ايها الآباء انه تاتيكم في جهنم تعزية من تذكركم بان اولادكم
وعيالكم هم مستريحون وفائزون بثروة وافرة عظيمة جزيلة في الارض : لا لعمرى .
بل تذكركم هذا نفسه ربما يزيدكم عذاباً والمأ وبكاء * وكيف يعزيكم تذكركم هذا
حينما ترونهم بعين الروح متنعين وحاصلين على نفقتكم وانتم غائصون في بحر
العذابات القادحة بسببهم . وقاطعوا الرجاء من الخلاص الى ابد الدهور * يا لتفام شقاء
من تصعد له هذه القرعة المخوسة . اي ان يخسر نفسه لكي يغني يته . لا سمح الله
ان يكون منها لاحد من هؤلاء السامعين لي * وكم من مرة بعض هذا شفتيه
باسنانه كل يوم لعله جنونه هذا الجسيم . ما اكثر ما يلعن النهار الذي فيه فتح حذقتيه
ليبصر نور الشمس . والساعة التي اطلق فيها لسانه للحديث * ثم في غضون ذلك
يتقدم اليه بالالسة متشككين بصورة المعزين ونخاطبونه بشماته مرة قائلين : ما

بالك يا صاح تتمرر تلعن . افرح متعزياً : ها نحن قادمون الآن من الدنيا ونخبرك
 خبراً مبجماً . وهو أننا رأينا اولادك واقرباك واحداً فواحداً وهم كلهم اصحاء متعانون
 سعيدون ومجتهدون في التمتع بالاموال التي لاجل تحصيلها لم احببت ان تاتي الى
 هنا معنا * فواحد منهم يخدم الآن في ولاية الامير الفلاني . والآخر تزوج بابنة الوالي
 الشريف التي كنت خطبتها له . والآخر ارتقى الى الوظيفة التي سعت له بها .
 والآخر اقتنى خيلاً وكثرة من العبيد كما ربت له * فلماذا تحزن وتبكي : اما انت
 اخترت لنفسك ان تموت هالكا لكي تسعدهم . ها قد نلت اربك واسعدتهم فافرح
 وتعز * ثم نخبرك ايضاً عن ابنتك التي آثرت ان تجعل لها مهراً وجهازاً وافراً
 بامتصاصك دم الفقراء وغدرك في اجرة الفعلة . ها هي قد حظيت بالزواج الذي
 ابتغيته لها . وقد جاءها اولاد وكبروا ويترجون هم ايضاً ان ياتيهم من الزواج
 القريب اولاد . وهكذا تنمو وتكثر ذريتك من هذه الجهة ايضاً . فما بالناسك تحزن
 وتوليل : افرح وتعز * فاقولكم الآن ايها السامعون الاعزاء . هل تستحسنون هذه الاخبار
 وتعتبرونها . العلمك تعتدونها من جملة التعزيات الدافية لتعزيبكم في تلك العذابات الجهنمية
 المؤبدة : لا اظن ذلك . بل انه من المحقق ان هذه الاقوال سوف تكون لديكم بمنزلة
 نبل مسنونة تلج في اعلى جوارح قلوبكم * لا تنظروا الى المحبة النلية التي تعطفون
 بها الآن نحو اولادكم . لان هذه ستسجيل حينئذ بغضاً وحقداً وقساوة وجناوة لا
 توصف * خبرونا عن اغريفينا امر نبيرون الملك انها لتفانم اشتياقها الى ان ترى
 عنان مملكة رومية الكبرى بيد ابنها نبيرون . كانت تسعى له فيه سعياً يفوق على
 نشاط النساء وطاقتهن * فاستشارت في هذا الامر الثقيل السحرة والمنجحين . فانباوها
 باجمعهم بصوت واحد ان ابنها هذا سميتها قتلاً اذا حصلت له الملك . ولكنها
 لما كان الطمع في تعظيم ابنها قد اعى عيني عقلها . اجابتهم قائلة : فليقتلني بشرط انه
 يملك * وحظيت اخيراً بما ابتغته وسعت به . وارزقي نبيرون ابنها الى مملكة رومية .
 وابصرت بعينها الصولجان الملكي بيده * ولكن لما شعرت بان قول المنجحين قد

استبانته له علامات ليصح بالفعل تغيير رأيها . وانقلبت محبتها لابنها * لانها
حال ما ابتدأت ان تشعر بعلامات الفتك بها مع أنها كانت بعد علامات بعيدة .
وذلك من قبل قسوة قلب ابنها اليها والى الرعية . ندمت على ما كانت قد
فاقت اليه وطلبته برغبة وافرة . حتى أنها اتصلت الى ان تسعى بعزله من الملك
وتقيم عوضاً عنه بريتانيكوس ابن زوجها الذي كان يستحق الملك احسن منه . لانه
كان خليفة الملك ووريثه * فاطلع نيرون على مقصد والدته وسعيها هذا . واحتى
غضباً وامات بريتانيكوس بالسّم . ولوفور خوفه من ان والدته تهج الشعب عليه
وتحصل على مرأها في عزله . قبض عليها وسجنها في قصره . واقام عليها حراساً
يحرسونها ليلاً ونهاراً . ولا يدعونها تخرج منه حتى وفاتها * فما الذي يستبين لكم
الآن من هذا الخبر * انه لو ذهب احد الى اغريفينا اذ كانت متضيقة في السجن
ونتمزق غضباً نظير اللبوة في القفص او نظير النمر المغللة بالكبول . وقصد ان
يعزيها قائلاً لها : يا ايتها الملكة ذات العظمة السامية . من اي شي تشتكين وتثالمين .
أما قلت سابقاً بشجاعة وجراءة عظيمة : ليقتلني ابني بشرط انه يملك . وذلك لما كان
العرفون يقولون لك ان ابنك سيمتلك اذا استولى على الملك * كيف اذا نسبت
الآن قولك ذلك : افرحي وتعزي . ها ان ابنك جالس في كرسي الملك الذي ابتغيه
وسعيت له به بطرائق كثيرة من الصناعات والاجتهادات * هوذا تقدم له الجزية
من البلاد والاقاليم الغربية . ويقدم له الاحترام والطاعة من الجيوش وقوادهم
اجمعين . هوذا يملك الاقطار المعمورة كلها بامان وبغير مانع . لان الفتى بريتانيكوس
الذي كان مجاوراً على الملك قد قتل وباد ذكره . وليس له عدو ايضاً يخافه
وبزاحه في ولاية رومية * فلا يحزنك السجن الذي انت معتقلة فيه . ولا يخيفك
الموت مئى وافاك . لان هذه بأسرها هي مشقات قد تقدمت انت فرايتها ومع ذلك
احبيتها لنفسك . لانك بها نلت الملك لنيرون ابنك العزيز * فاجيبوني يا معشر
السامعين : لو خاطب احد اغريفينا على هذا النسق . هل يتبين لكم انها كانت

تُعزّي بكلامه هذا: كلاً. بل الأقرب للتصديق أنها كانت تزداد كهذا وسخطاً
متأملّة أنه لا ينبغي لها ان تدفق غيظها على احدٍ سوى نفسها لأنها هي سببت
لنفسها هذه الشدائد * ولعمري أنه لقد اتضح من صنيعها فيما بعد ان الاسباب المشار
اليها لم تكن كافية لتعزّيها وتجعلها تسكت صامتة. لأنها طفتت في السجن ايضاً
تسعى وتستعمل وسائل كثيرة محرّمة لتعزل ابنها عن الملك بمقدار ما كانت سعت
سابقاً في ان ترقّيه اليه. حتى أنه لما ظهر سعيها هذا امام الملك وتحقّقه التزمت
ان تحضر الى المحكمة بمنزلة المجرمة المذنبة الى عزة الملك لكي تعطي حساباً عن
نفسها * واخيراً بعد ان رامت عبثاً ان تختص من الموت الذي كان قد حتمه عليها
مراتٍ آخر فيما مضى ابنها الملك. فابانت عند آخرة حياتها مقدار ما ابغضت
من احبته سابقاً حباً عظيماً لا يوصف * وذلك أنها لما عاينت قد دخل اليها واحد
من قواد الجيش حاملاً بيده سيفاً مجرداً ليجز به عنقها او يطعنها في قلبها. احتمت
حينئذٍ غيظاً واعتراها الجنون وقدمت له بطنها قائلة: اضرب هنا. اضرب هنا.
لان هذا هو المكان الذي استوطنه نيرون اذ كان جنيناً. وهذا يستحق ان يقتل
ويبيد لانه حمل وحشاً لا بشراً *

انني اوثق بكم أيها السامعون الاحباء. انكم لا تواخذوني من حيث اني
اوردت على سماعكم باسهابٍ ذكر هذا الخبر واطلت الخطاب فيه اكثر من الواجب.
نعم أنه خبر دنيوي ومورد من اخبار الوثنيين. غير اني اعتبرته مفيداً للموضوع الذي
نحن في ايثاره * لأنه يستبين لي انني استطيع ان اقتبس منه قياساً مقنعاً. واقول
هكذا: أنه ان كان والده اسكرها حبها لابنها حتى ارتضت بالموت لكي تصير ملكاً.
ومع هذا لما ابصرت الموت ادركها بسببه غيرت رأيها وابدلت حبها له بالبغض.
فاذا مجل بالاشقياء الذين يبصرون نفوسهم في جهنم وقد حكم عليهم بنار مؤبدة
لأنهم راموا ان يصيروا اولادهم او المنتسبين اليهم لاملوكاً لان هذه عظمة سامية
جداً. لكن ان بصيروهم من فقراء اغنيا. او من اغنياء ان يجعلوهم اصحاب وظائف

شريفة * اما يبين لكم أنهم يمزقون غيظاً وكهداً اكثر من اغريفينا المنكودة المحظ *
 خالطوا الآن واحداً من هؤلاء المنهمكين في جمع الثروة والمال لبيوتهم الذين
 نحن الآن نتكلم عنهم. وقولوا له: يا صديقاً انبه على نفسك. وافهم جيداً ان تجارتك
 هذه ليست بجائزة. واهتماماتك هذه ومساعدتك مدمومة. انك سوف تبلغ لا محالة
 بمظالمك هذه واعمالك المحرمة الى ان نقتني لابنك تلك الوظيفة وترتبه في المال
 والجرایات حسبما في ضميرك. لكن يمكن وهو الاقرب للتصدق ان سعيك هذا في
 ترتيب ابنك حسناً يكون سبب هلاك نفسك الى الابد * ليت شعري ماذا يكون
 جوابه لكم: لا شك في انه يهزأ بكم. وان كان لا يجيبكم متكلماً باللسان فيجيبكم متكلماً
 بالفعل. كانه لا باس في ذلك وقائلاً في سره مقال اغريفينا المتقدم ذكرها: فلتمت
 نفسي بشرط ان ابني يملك * لمت نفسي بشرط ان اعظم البيت واكبره * آه واسفاه
 عليكم ايها الاشقياء المساكين. انكم الآن لستم تفهمون ولا تدركون ما هو معنى موت
 النفس وهلاكها. لكن متى ما ادركتم الساعة التي فيها تفهمون وتدركون ما هو معنى
 ذلك. اي انكم تبصرون انفسكم قد حاقت بها النيران والنبال والسيوف والعجلات
 والامشاط الحديدية المرهفة والحبات والعتارب والتنانين الرعبة. فحينئذ تنقلب
 مودتكم هذه لبيوتكم واولادكم الى بغض وحنق مر *
 اصغوا جيداً بعقولكم الى كلامي هذا: انه قد تصور في ذهني انه اذا اذن

لكم الله تعالى حينئذ ان تخرجوا من عمق تلك الهاوية الجهنمية وتعودوا راجعين
 الى منازلكم مدة وجيزة من الزمن. ففي اول دخولكم البيت الذي كانت سكناكم فيه
 قديماً ومشاهدتكم ذلك الاثاث وتلك الخف والزينات التي اقتنيتها بالظلم.
 انكم لا تستطيعون ان تضبطوا داخل فؤادكم الغيظ بل تطيرون بفورة عظيمة
 وتطوفون المخادع هنا وهناك وتحرقون بالنار التي تلتبسكم الفرش الناعمة. والملابس
 الموشاة بالقصب. والخزانات المنقوشة. والصناديق المنيئة المستوثق عليها. وجميع ما
 تبصرونه من الخف التي خلفتموها لوراثكم. ثم تنحدرون بمنزلة المصابين والهارشين

الى الاصطبل وتخفقون الخيل وتحرقون جملتها . ثم تنتقلون مسرعين ومغضبين الى
الساتين والكروم والحقول والقرى . وتجولون في الأملاك التي سعيتم بها لاولادكم
بطرائق غير لائقة . وتحرقون بالنار جميع ما هو لهم من كروم ومزارع ومواشي . وذلك
لكي تخذوا فورة الغيظ المر المتقد بكم عليها . لانها كانت سبب آثامكم وهلاككم
الابدي * لكن لا سمح الله الرحيم ان يتم هذا الحكم المنحوس في احد منكم . ومن ثم
فالا جدر بكم الآن ان تسلموا لي معترفين بوداعة القلب بهذا وهو ان من يخاطر
في هلاك نفسه حبا لغيره فهو مجنون . بل لا يوجد اعظم من جنونه * وان كنتم لا
ترتضون بان تسلموا لي مدعين بهذا . فسلموا به مصدقين للقدس سلبيانوس الذي
مر ذكره انفا مرات شتى . لانه يقول منذملا « يا لها من حال شقية يرثي لها وهي
ان الانسان يعد بخيرات السعادة لغيره والشقاء لنفسه . ولغيره الفرح ولنفسه البكاء .
ولغيره التمتع الزمني ولنفسه النار المخلدة » انبى فاهتموا اذا بسعادتكم . اسعوا بخلاصكم .
افتكروا في نفوسكم . وكيف يسوغ لكم يا معشر المسيحيين ان تخصصوا انفسكم بهذا
القليل من الاعتبار حتى انكم تهملونها وتضعونها في خطر الهلاك الابدي حبا لابن
او للاخ او لابن الاخ او لابن العم او لاحد آخر من الاهل والاقارب * ان حبكم
لاولادكم واقربائكم هو امر مباح لكم . ولكن لنكن محبتكم لهم عتية محبة انفسكم *
احبوا خيرهم ونجاحهم الارضي . لكن احبوا بالاكثر سعادتكم الابدية * اسعوا لهم
بمال وثروة وعظمة في الارض . لكن بعد سعيكم بحبكم الابدي * وبالجملة اقول
لكم ما قاله القديس سلبيانوس المذكور وهو هذا « احبوا وودوا اولادكم . فهذا لا
يخصمكم به . لكن احبوا في الدرجة الثانية من المحبة لانفسكم . احبوا محبة لا يتبين
منها انكم مبغضون لنفوسكم . لان من يتفكر في غيره وينسى نفسه . فهذا لعري محبته
خائبة من الصواب . بل هي عين الجنون » انبى كلام القديس *

انه اذا فحسنا ورمنا ان نقول الحق . فنقول ان هذه ليست هي محبة الاولاد

والاهل . لكن هي بغض ظلي وشرطاني * ولكي نتحقق ذلك اصغوا لما اورده على

سماعكم قائلًا: أما تعرفون انتم من نفوسكم انه اذا خلفتم لاولادكم شيئًا من المال والامتعة التي ربحتموها بالحرام. فانكم تطوحوهم ايضا في خطر واضح من الهلاك الابدي * لان كل غني اذا كان زائدًا ولو تحصل بطريقة جائزة. فلا يخلو من خطر منه على النفس دائماً: هذا هو رأي الآباء القديسين اجمع. وأولهم القديس قورلس اذ قال في الفصل الثالث من كتاب الابولوجيات «ما هي الاموال الجسدية الأهيجان النجاسة وخير الشهوة واحمال الموت» * واثبت ذلك مار امبروسوس في الفصل الخامس من المجلد الثاني من تفسيره سفر ايوب حيث يسمي الاموال مادة للنفاق وتحريشات الخطية * واثبته ايضا مار يوحنا فم الذهب في خطابه عن النخل. لانه هناك يسمي الاموال عدواً قاسياً بل قاتلاً للانسان * وقد ساها ايضا في خطبه الخامسة والستين اسباباً وعللاً للعداوات والخصومات والحروب والفضائح والنهات والسرقات والقتل وسائر الآثام * فقد تقرّر واضحاً انه اذا تكلمنا بوجه العموم فنقول انه كلما زاد ما تخلفون لابنائكم من الاموال والامتعة. زادت الاخطار التي تخلفونها لهم. وتفعلون فعل من يستودع بايدي الاطفال موسى حادة مسنونة. ولو كانت قبضتها مرصعة بالجواهر * فان كان هذا يصح في الاموال التي تحصلت من طريق الحلال. فماذا يكون في الاموال التي ولدها الاثم: انها تستحيل باسهل طريقة الى هلاك مالكتها. ولا سيما لان سليمان الحكيم دعاها «ثروة محفوظة عند صاحبها لمضرته» (جامعة ٥: ١٢). ومن ثم تهلك تلك الثروة في تغلب ردي * فمن هذا انجواكم يشتبك ضمير وريشكم وكم يقلق. حيث انه من احدى الجهات يشاهد انه لا يجوز له بحسب قواعد الذمة المستقيمة ان يمتلك بطوية حسنة شيئاً مما اقتنيتوه له بطرائق غير جائزة. ومن جهة اخرى يرى ان ترجيعه لاصحابه الشرعيين هو امر صعب عليه. ويرى ايضا انه ان لم يرده يهلك * اعانتم كثرة اخطار الهلاك التي تلقون فيها خلفاءكم بواسطة المال الذي تركونه لهم * العمل هذه محبة والدية الاولاد: لا لعري. بل الاولى بنا ان نسميها بغضاً بل قسوة عليهم * وفي هذا يصح كلام الرب التامل

«ان اعداء الانسان اهل بيته» (متى ١٠: ٢٦) قال القديس يوحنا الذهبي ففة :
انه خير لهم ان تركوهم فقراء . لانهم يستطيعون اخيراً ان يجثوا خيراً لنفوسهم من
فقرهم ولو كان فائقاً . كما اجتنى لعازر المسكين المضروب بالفروح * اما الثروة المكتسبة
بالسوء فما يستطيعون ان ينتجوا منها خيراً لنفوسهم . لانهم لا يستطيعون ان يعطوا منها
للكنائس . ولا ان يصدقوا منها على الفقراء . ولا ان يوزعوا منها للاديرة . ولا ان يغيثوا
بها الموتى . ولا ان يرضوا بها الله تعالى . وذلك لانه كما لا يباح لهم ان يحفظوها لانفسهم .
هكذا لا يباح لهم ان ينفقوها في معيشة غيرهم اذ اغائته * فاجيبوني وقولوا : هل يمكن ان
يوجد في العالم انسان افقر واشقى ممن هو حاصل على مثل هذه الخيرات * افهذه هي
الخيرات التي تقصدون ان تحفظوها لاولادكم الاعزاء بعد وفاتكم * يا لها من محبة ظالمة .
يا مجنون عقل سخيف * خبرنا القديس انطونيوس اسقف فلورنسا خيراً محزناً بلا
قلب كل من يسمعه كآبة جزيلة . وهو انه مرض واحد من هؤلاء الاغنياء المنافقين
الذين نحن الآن في صدد الخطاب عنهم ودنا من الموت . ولجل ذلك اتاه الكاهن لكي
يسمع اعترافه ويسعى في خلاص نفسه * فطلق نصيحة قبلاً في ان يرد ما قد اخنسه من
الناس او اكتسبه بالربا وبغيره من ضروب الظلم . لكي ينجو من دينونة الله تعالى
الشديدة . فكان ذلك الغني لا يثا غير منزوع شبه الصخرة * فشرع الكاهن يخاطبه
بكلمات ذات لين . ويتوسل اليه لكي يقبل نصيحة . فلم يكن قلبه يلين . ولا تحرك حتى
من الوعيد الخفيف الذي توعد به فيما بعد * فدخل حينئذ اليه ابناه . وطفقا ايضاً
يناشدانه ويطلبان اليه ان يخاف على نفسه ويمثل نصيحة الكاهن . فاجابها قائلاً :
لست استطيع يا وادي . لست استطيع ان ارد . لاني ان استمعت مشورتكما وعوفيت
من مرضي هذا . اضطر ان اقضي بقية حياتي سائلاً كل يوم من باب الى باب *
وان مت . تلتزمون انتم ان تسالوا * فاجابه ابناه قائلين : اسمع يا ابانا : اما نحن فلا
يعينك امرنا اصلاً . ولا تهتم ولا تفنكر فينا . لاننا نحب ان تكون انت راجحاً في
آخرتك ونحن فقراء اكثر من ان نكون نحن اغنياء وانت هالك * فحينئذ تفرس

فيها بعين الغضب . ونمها قائلاً : اصمتا يا أيها الوان السخيفا العقل . انما صغيران
 بعد في المعرفة والادراك . ولم تعلم ان الله تعالى ارحم من البشر * فان كنت انا خاطئاً .
 فاني ارجو ان يرحمني * وأما ان كنتم اتم فقراء . فمن اين لكم ان تقولوا بان يرحمكم
 الناس * قال هذا ومات موتاً شقياً بلا اعتراف ولا اخذ سر آخر من اسرار بيعة
 الله * ثم بعد وفاته انطبع كلامه الاخير المتوي في عقول ابنه اللذين ورثا ماله
 المكتسب بالظلم . واثر فيها تأثيراً ما * غير ان احدهما اتبه لنفسه فيما بعد واتخذ له
 رايًا حميداً . فجمع الجزء الذي خصه من ميراث ابيه . ووفى به الناس الذين كان
 والده الشقي قد ظلمهم * ولكن ما الذي حدث بعد ذلك : حدث ان الاخ المنافق
 الذي استند على مقال ابيه المذكور وتصرف في مال الظلم لم يعيش الا زمناً يسيراً .
 ثم مات موتاً شنيعاً نظير موت ابيه * وأما الاخ الصالح فزهده في الدنيا . ودخل
 رهبنة مار فرنسيس الجميلة . وصار راهباً تقياً * وفي ذات يوم لما كان هذا الراهب
 التقي مخلياً في الصلوة . اذ عاين هوة عظيمة انفتحت امام عينيه . واذ كان يتأمل
 مرتعباً ذك الدخان المتكاثف والظلمة الدامسة والنيران المتلبدة واللهيب المتف
 الكائن فيها . راي اياه واخاه ما بين جم غفير من الهالكين يتقلبون معهم في عذابات
 تلك الهاوية المخيفة * ولكن باي حال تظنون انه راي اياه واخاه : لعربي انه راي كلاً
 منها بعض ربيعة نظير كلبين متهاوشين . وبنف احدهما شعر الآخر . واحياناً يחדش
 بعضها وجه بعض باظفارها كالوحوش * وكان الاب يقول لابنه : اها منك يا
 ايها الابن الملعون . اتي من اجلك صرت انا متكيداً هذه العذابات . وكان ابنه
 يجيبه قائلاً : انما انت الملعون لكونك انت صرت سبباً لسقوطي في هذه العقوبات
 القادحة * وكان الاب يجيبه قائلاً : لقد كان خيراً لي ان الدافعي لا انساناً *
 والابن يجيبه . انه كان خيراً لي ان يلدني وحش لا انت * وكان الاب يقول له :
 انت تعذبني ايها الابن العديم الرحمة * والابن يجيبه : انت هو الذي تحرقني يا ايها
 الاب يا شر كل الناس * فبهذه الكلمات وبغيرها كثيراً كانا يلعنان بعضهما بعضاً

ويتمزقان باسنانها. كأنه لم يكن لها في تلك العذابات الهائلة تعزية سوى هذه. وهي ان ينهش احدهما صاحبه باسنانه وبزرقه نظير وحشين هائمين مقيدين بسلسلة واحدة * فهذه هي الاجرة التي ينالها الوالدون في الآخرة من الاموال والقنايا التي يخلفونها لاولادهم من المحرام. وهذه هي الفائدة التي يستفيدها الاولاد من ميراث والديهم المحرم * فما قولكم الآن يا معشر السامعين الاحباء. هل استبان لكم جيداً ان تتباعدوا لاولادكم وعيالكم سعادتكم الزمنية بهذا الثمن الغالي. ابي بالهلاك الابدي لكم ولهم في نار جهنم وعذاباتهما * وان كانت هذه هي محبة الانسان لنفسه. فليت شعري ما يكون بغضه لها * وان كان هذا هو الاحسان الى الاهل والاولاد. فماذا تكون الاساءة اليهم * فليكن الآن مقرراً عندكم انه وان سلمنا ان الثروة المكتسبة بالظلم والخطأ تغني البيت. فغناه على هذا النحو لا يصلح لاكم ولا لاولادكم. بل الاولى ان نقول ان ايسار البيت على هذا النمط هو عين ابتغاء خرابه * وهذه هي الحقيقة التي قصدت ان ابينها لكم بهذه الخطبة. وقد ثبتت بالكفاية بالبراهين والحجج الراهنة التي اوردتها الى الآن * فلنختم القسم الاول بكلام حبيبوق النبي القائل «الويل لمن يجمع المكسب الردي لبيته ليكون عشه في العلاء» (حبقوق ٢: ١) * لاي سبب اعطيت الويل لمن هو هكذا يا نبي الله. لاي سبب: لانه «فكر خزيًا لبيته». تأملوا هذه الحقيقة النبوية واعتبروها جيداً الى ان استريح قليلاً *

القسم الثاني

انه بعد ان تلخص من جميع البراهين الموردة انفاً انه لا يحمل لكم ان تفعلوا ما هو مخالف لارادة الله تعالى لكي تصبروا بيوتكم اغني مما هي. ما الذي بقي لنا ان نخطبكم به سوى ان تزجوا من قلوبكم الآن الرغبة المفرطة التي بها تهتمون ان تنظموا لوازم خلفائكم. وتتغافلون متوانين عن الاهتمام بخلاص نفوسكم * ناشدكم الله يا ايها

الآباء احبائي ان تبتدئوا في ان تعتبروا قيمة ما يجب اعبارة . اي كل واحد نفسه .
 واقتكروا فيها مهتمين حسناً * فلعلكم قد طعنتم في ايامكم . وتناقصت قوى ابدانكم
 فدنوتم من شرب كاس المنون . واضحيت ملتزمين ضرورة بان تظهروا عن قرب امام
 منبر الله تعالى الخوف . وتعطوا حساباً عن انفسكم * ها ان الملائكة ينتظرونكم
 ليقفوا من الجهة الواحدة بمقام الشهود الصادقين فيما صنعتوه من الخير . ومن
 الجهة الاخرى تنتظركم الابالسة ليقفوا بوظيفة الاعداء المشتكين * فهل يمكن مع هذا
 حتى الآن ان لاتزالوا تفكرون في ما تاكله اولادكم بعد وفاتكم وفي ما يلبسونه . وابن
 يسكنون . وكيف يستسيرون . وكيف يرحون بطراً * اهذه هي همومكم الثقيلة . اهذه هي
 حساباتكم العظيمة . هل تظنون انكم ان صيرتم اولادكم اغنياء موسرين تكونون بذلك
 في امان اعظم امام منبر الله : كلاً . بل انما يفيدك يا هذا حينئذٍ جداً التضرع الى الله
 قائلاً : خلصني يا رب * ولكن ان سالك تعالى : لاي سبب ولاجل اي فضل
 اخلصك . اهلك ان نجيبه قائلاً : لانني امتثلت مشوراتك الانجيلية والبست العراة .
 وجهزت اليتامى وفككت المحبوسين . واطعمت الجياع . وسعيت ان اشهر مجد اسمك
 القدوس بانحاء كثيرة غير هذه . ام تقول له : انني لست اسالك يا رب ان تخلصني من
 اجل هذا . لكن خلصني لانني تركت بيتي مرتباً وموسقياً بجميع لوازمه واحنياجاته .
 وخذفت لوراثي ثروة يمكنهم ان يتعمروا بها ويروحوا ويسلكوا بالعظمة على ما يليق
 بشانهم . فمن اجل هذا اتضرع اليك ان تخلصني * فان كان هذا القول والاحتجاج
 يفيدكم امام منبر الله العادل . فابقوا على ما انتم عليه . ولا تعدلوا عن جمع الثروة
 لخلفائكم باهتمام جزيل * ولكن ان كنتم ترون واضحاً خلافاً لذلك اي ان هذا الاحتجاج
 يؤذيكم وبصير لكم علة لدينونة اعظم واشد . فانتبهوا اذا لانفسكم وابدلوا اهتمامكم
 هذا نحو تصرف اصح . وعضوا عن ان تعتنوا بغيركم بهذا المقدار . اعتنوا بنفوسكم
 قبلاً * وان كان مع ذلك بعينكم امر اولادكم . فثقفوا بالله : انه هو جل ثناؤه يهتم بهم
 دائماً باهتمام ارحم من الوالدين اذا فضلتهم انتم دائماً مجده تعالى على محبة الجنس *

اذكروا راعوث: اما دخلت ارض بيت لحم وهي فتاة وارملة مسكينة مفتقرة * ومع هذا فلان الله سبحانه كان حارسها حظيت في بلاد غريبة برجل كثير الغنى فاتخذها له زوجة * اذكروا ايضا استير: الم تكن ساكنة في سورن المدينة وهي صبية يتيم لا ذكر لها عند احد. ومع ذلك لكون الله تعالى كان معها. سهل لها في البلدة التي كانت فيها اسيرة ان يرقبها ملك مقتدر الى السدة الملكية * فثقوا اذا انتم ايضا بالله عز اسمه وتوكلوا عليه. وصدقوا انه لا ينسى اولادكم. بل يهتم بهم اذا استودعتموهم بين يدي رحمته وقدرته الفائقة * واذا ابتغيتم مثلاً آخر عدا من ذكرناهم لكي نقتدوا به. فتصوروا معتبرين خبر طوبيا المشتهر الجليل الذي اورده الآن على سماعكم على سبيل الاختصار * فاقول:

كان لطوبيا هذا البار في شيوخه ابن وحيد. وكان فيه امل نسله وسند ضعفه ونور عماء. ومع انه كان محبة محبة صادرة من صميم فؤاده كان يحذر من ان يغنيه بطرائق اقل عدلاً حذراً شديداً. حتى انه لما سمع في احد الايام جدياً ابتاعه له امه ثاغياً في البيت. اضطرب وطفق يحذرهم ويقول صارخاً: ما هذا الذي اسمعه «اجدي في البيت. انظروا الا يكون هذا سرقة فردوه الى اصحابه. لانه لا يحمل لنا ان ناكل ولا ان نلمس شيئاً مسروقاً» (طوبيا ٢: ٢١). فكانه يقول: سلوا واجتثوا عسى ان يكون هذا الجدي قد انحدر من جدار احد جيراننا. وان كان هو متسرّباً. فاسرعوا وردوه الى اصحابه. لانه لا يجوز لنا ان ناكل او نلمس ما هو لغيرنا * ولم يكتف بهذا. بل كان يوزع على المحتاجين والمحجوسين واليتامى كل شيء كان ينزل من نفقة بيته * واذا كان ممكناً ان يرى ابنه ان ذلك التوزيع هو نوع من القساوة نظراً اليه. اي ان يراه في كبر سنه يتغاضى عنه غير مهتم به في ان يرتب له مقنتى وثروة لائقة تكفي للقيام بمعيشته بعد وفاته. دعا ذلك الاب الصالح ابنه يوماً كأنه يريد ان يبرئ نفسه من ذلك لديه. وبعد ان اعطاه نصائح تعاليم صالحة كثيرة. بين له كم من القليل يملكون من الثروة وراس المال. ثم قال

له باكيًا: لا تخف يا ابني الحبيب. فانا عالم انه لسبب القليل الذي سوف اخلفه لك وراثته سيكون بيتنا صغيراً حرجاً ضيقاً والقوت فقيراً والملبوس حقيراً. ولكن اعلم يا ابني انه سيكون لنا كثير من الخيرات اذا حفظنا شريعة الله وسلكنا في خشيته تعالى «لا تخف يا ولدي. نعم نحن نعيش عيش الفقراء. لكن تكون لنا خيرات كثيرة ان كنا نخاف الله ونبتعد عن كل خطية ونعمل بالصلاح» (طوبيا ٤: ٢٢) هكذا قال طوبيا الشيخ لابنه * وحدث الامر كما قال وانبأ به. لانه بعد زمن قليل حظي فتاه بزيجة شريفة. وحصل منها على ثروة وافرة وميراث واسع جداً. وعاش بعد وفاة ابيه في خيرات كثيرة اكثر جداً مما كانت له في حياة ابيه * وها انا اريد منكم يا معشر المسيحيين الاحباء ان تتخذوا لكم من ذلك عبرةً سالمةً. واذا اتفق لكم ان تخلوا يوماً مع اولادكم. فليخاطب كل منكم بنيه قائلاً: يا اولادي الاعزاء انتم ترون كيف حال بيوتنا. فانا استطع ايضاً ان اجمع لكم مالا وثروةً بالاسباب والمساعي الذميمة التي يستعملها بعض المتغافلين عن نفوسهم. ويمكنني ان ابشر عهداً في تجارة غير عادلة. ويمكنني ان اسلك طريق الغدر والكذب والتخريف والخصومات. ولكن لا سمح الله ان افعل مثل هذه الآثام التي لا تفيدني ولا تفيدكم * يا اولادي الاحباء اخشوا الله واطمانوا في كل شيء. لانه ان خشيتوه تعالى تصيرون تحت وكالة مولى صالح وقدير * لا تغايروا اهل المدينة الذين هم من نظرائكم اذا رايتهم حصلوا على مكاسب غير مقدسة وصاروا اغنياء وشيدوا بيوتاً وحصوناً افخر من التي ولدوا فيها. او اذا غرسوا مقابلكم بساتين واقاموا املاًنا وابتاعوا مواشي اكثر مما ورثوا من جدودهم. فلا تحسدوهم في هذا «لا تشكوا على مقننى الظالم» (سيراخ ١: ٥) كما اوصاكم الحكيم في سفر حكمته. لكن اذكروا على الدوام ما قاله داود النبي في زبورته «ان اليسير للصديق خير من كثرة غنى الخطاة» (مزمو ٢٦: ١٦) * دعوا غيركم يتنعم ويسرق قليلاً او كثيراً. دعوه يمتلي خيرات. والله هو المحاسب. لا بد ان ياتي وقت فيصنع لكل انسان عدلاً * احفظوا انتم شريعته. اكرموه واحترموا اسمه. وان

كان هو جلت مراحمة لا يعولكم ويهتم بكم . فتبقي لكم حجة علي ان تلوموني وتشكوا
 مني بعد وفاتي « ونحن نعيش عيش الفقر . لكن تكون لنا خيرات كثيرة ان كنا
 نخاف الله ونبتعد عن كل خطية » * فهذي النصائح ونظائرها ينبغي ان تكون
 وصاياكم لاولادكم اقتداءً بطوبيا البار * وانتم قد حان الوقت لتجمعوا افكاركم وتخلوا
 في انفسكم . لانكم قد بلغت الى سن الشيخوخة . وتتموا بنفوسكم اكثر من بيوتكم .
 وتجاهدوا في ترتيب حالكم قدام الله اكثر من ترتيب اشغالكم الدنيوية . وتفكروا
 في الله تعالى اكثر من افكاركم في الدنيا * وان كان في ما مضى صدر منكم ما لا
 اظنه بكم . ابي ان كنتم قد دنستم ايديكم بارباح قليلة البر والعدل . فاسرعوا اسرعوا
 والقوها عنكم عاجلاً . ادوا الى الفعلة اجرتهم الباقية عندكم . اعطوا الكنائس والاديرة
 حقوقها التي امسكتوها عنها . افضوا وصايا موتاكم . ردوا ما اخنلستموه بالسوء . كافئوا
 كل من اساتم اليه * واقول بجزر الكلام : لا تحفظوا عندكم شيئاً اصلاً من المال
 الذي لا يصلح لشيء سوى هلاككم ودمار اهلكم واولادكم . والا فتخفظون في بيوتكم
 عداوة الله متقدة دائماً حسب ما اوعز الى ذلك ميخا النبي بقوله « النار في بيت
 المنافق كثر الاثم » (ميخا : ٦ : ١٠) *

الخطبة الرابعة عشرة

في أنه لا يوجد في سجن جهنم نوع ما من التعزية اصلاً ومن ذلك يتضح
يجب علينا ان نفرّ هاربين من هذا المكان الذي انما
هو مكان العذاب لا غير

« مات الغني فقبر في الحجيم » هكذا حرر مار لوقا في الاصحاح ١٦ من بشارته *

القسم الاول

انه لابد لكم يا ايها الخطاة من احد هذين الامرين . اي اما توبة واما جهنم *
لماذا نتعب نفوسنا كل يوم بهذا المقدار من العظات . والحال انه ليس لاحد
منجي من هذين الامرين . اي إما جهنم واما التوبة * فيجب اذا ان تعزموا على
انتخاب احدهما * ولكن عسى ان يوجد من يحب ان يختار جهنم لا التوبة * والسفاه
ان وجد هذا العديم المعرفة . اذ انه يظهر عن نفسه انه لم يتأمل قط برصد العقل
يفهم جيداً ما هو معنى الهلاك في هذه الهاوية المرعبة * ومن ثم ارغب اليكم يا
معشر السامعين المكرمين ان تصغوا جيداً لمقالي . لاني قاصد ان اشرع حالاً من
دون مقدمة اخرى . واثبت لكم عياناً ما هو تاويل ذلك * فيا ايها الاله العظيم الماسك
في قبضتك مقاليد تلك الابواب السفلية الصلبة . التي لا اليبس ولا الماس
يوازنان صلابتها . ابتهل الى سيادتك ان تعيرني الى زمن يسير هذه المقاليد لافتح
ذاك السجن الهائل لسجن الهالكين . ولكن لا لاني اروم ان اعشق منه احداً منهم . او
اقدم لهم ماءً ليطفئوا نارهم . او باسماً ليعالجوا به قرواحهم . او تعزية ليزفراهم . فليكن
هناك هؤلاء الاشقياء لينالوا العقوبات العادلة التي وجبت عليهم لعلة خطاياهم .
لانهم لا يستحقون المعونة ولا الرفة . ولتمزقوا غيظاً وليفتعوا تمرراً . لانهم جوزوا

على قدر استحقاقهم * بل انما قصدي الآن هو هذا اي ان ارجح انفس هؤلاء السامعين
 المحبوبين لكيلا يزداد المسجونون هناك عددًا ولا يصل اليهم احد. ولاجل هذا اريد
 ان ابين حقيقة هذا السجن لمن يخطئ. وذلك لينتبه على نفسه ويرى ما هي
 العذابات التي يلقي نفسه بها بارتكابه الخطأ ويدرك مقدارها * ويكفيني على كل
 حال ان اعرفه واحقق لديه انه يخنار لنفسه عذابًا صرفًا لا تعزية له. وهذا هو
 امر العذابات كلها اي العذاب الخالي من كل تعزية اصلاً *

ان من المعلوم ان الرحمة والعدل هما اليدان اللتان يدبر الله بهما العالم.
 غير انه يجب ان تكون هاتان اليدان احدهما مساوية للأخرى. والا كان الله تعالى
 ناقصًا. فيجب ان تكون اثنتاهما على حدٍ سوى نظرًا الى القدرة والعمل وافنعال
 المعجزات من دون تعب * فبعد ان تقر ذلك نقول: انه من المعلوم الواضح ان الله
 تعالى لما استعمل رحمته. صنع آيات باهرة تفوق على ادراك كل انسان. وذلك
 لانه اتصل الى ان يجتمل بصبر جميل وتجدد غريب اهانات ارضل الناس وان يتوتهم
 وينعم عليهم ويتلقمهم في الوقت الذي كانوا بصرفونه في اغاظته وحقارتهم. بل انه
 تعالى بلغ ان يموت لاجلهم ايضا لا موتا كيفما اتفق بل موتا شاقا شديعا موملا حتى
 ان التصديق به استبان لكثيرين عارًا. ولغيرهم هذيانا * فيلزمنا ان نقول ايضا انه
 جل ذكره متى ما شاء ان يستعمل عدله بحسب الحق. يجب ان يصنع آيات
 معجزة تسمو على الادراك «وبصب غضبه حسب رحمته» (سيراخ ١٦ : ١٢) كقول
 ابن سيراخ الحكيم * فكما انه لما اراد ان يظهر رحمته فعل افعالا ابانت للناس
 كانه تعالى خال من العدل. هكذا اذا اراد ان يظهر عدله يجب ان يفعل
 افعالا يبين لنا بها كانه خال من الرحمة * فلا تصوروا لي في جهنم مغاير مظلمة
 ومجاري مياه منتهنة. واشباحا هائلة. وسيوفًا ورماحًا وعجلات حادة. ونبالًا ومواسي
 مسنونة. واودية من كبريت متقد. وخذرانًا من رصاص منسوب. وبحيرات مياه
 مجلدة. ومراجل محمية. ومشاوي ومناشير. وعصيا جافية. وكلايب لقلع العيون.

وآلات لقلع الأضراس . وإمشاطاً لتجريد اللحم . وسلاسل لتريض العظام . ومشاعل
لأحراق الأكباد . ووحوشاً للدغ واللذع . وكلايب لجذب العروق . وسهوماً للعطب .
وآباراً مفعمة ناراً . وإظفاراً للتخديش . وفؤوساً للقطع * نعم إن هذه الأصناف من
آلات التعذيب هي شديدة قاسية لا محالة . غير أنها مجرد نفسها قد أتصل الإنسان
إلى أن يخترعها بمعرفته ويعذب بها بقوته . إذ إن الثيران النحاسية كانت اختراع
باريس . والكراسي الحديدية استنبطها تكليس . والمضربون أوجدوا صنف العذاب
المُر وهو ثقب الأظفار بقصبٍ محرف . ونيرون اخترع تليس البشر جلود الوحوش
والفأعهم إلى الكلاب الكاسرة . ومكسنتيوس اخترع ربط الأحياء بجثث الموتى ليموتوا
متهرئين وماكولين بالدود وهم أحياء . وبواشق تيتيوس . وتعطش تتالوس . وعجلات
بسيون . وحجارة سيسيفوس . فهذه كلها كانت آلات التعذيب عند اليونانيين *
ولاجل ذلك لا تظنوا أن حدة العذابات التي يتعذب بها الهاككون في جهنم لا
تبلغ إلا إلى حدة العذابات المذكورة التي اخترعها البشر . وانجوا من هذا أنه إن
كان العذابات المذكورة التي هي اختراع البشر هي قاسية ومرعبة جداً . فليت
شعري ماذا تكون العذابات التي هي اختراع الآله العليم الحكيم القدير إذ يعذب
بها الأئمة حينما يفضب عليهم . لأنه يقتضي أن يبين فيهم عدله الإلهي «وينصب غضبه
حسب رحمته» * لا ريب في أنه ينبغي أن تكون هذه العذابات القاسية مؤثرة بمجدة
عظيمة . حتى أنها تعلو على إدراكنا جداً . وتظهر بذلك الفرق غير المتناهي الكائن
ما بين ضعف البشر وقدرة الله الجليلة * ونزيد على ذلك قولنا هذا وهو أن كل
أهانة تصير للعزة الإلهية هي عظيمة فائقة على كل مقدار . حتى أنه لا يوجد عذاب
يوازهاً منها كان شديداً بمجدة غريبة . ومن ثم نقول : كيف عذب الله تعالى الهاككين .
فعدابهم هذا لا يفي عدله الإلهي وفاءً موازياً . بل يبقون مديونين له جلت صفاته
بعذابات أشر أشد صعوبة إلى الأبد * فانتجوا من ذلك كم تكون عذاباتهم مرة .
وكم تفوق على الإدراك والوصف * ولعمري أنه يجب أن يصح فيهم ما قاله أيوب

الصدِّيق . اي ان الله « يطر عليهم مجاربتيه » (ايوب ٢٠ : ٢٢) * فيحق لنا ان نتصور في عقولنا انه تعالى يفرغ فيهم من جمعته النبل والسهام . ومن اسلحه السيوف والارماح وجميع الآلات الحديدية الملائمة للحرب . ومن سخائبه الصواعق . وذلك لكي ينتقم عداه الالهى على قدر الممكن والواجب . لانه قد قال عز قوله « تم سخطي بهم » (حزقيال ٦ : ١٢) * وان كان ذلك كذلك . فينبغي ان لا يرجوا احد منكم شيئاً من الفرح والتعزية والراحة في جهنم . فان ذلك لا يوجد فيها ولا يمكن ان يوجد . لان ذلك هو من خواص العدل المسخبط * وفي هذا المعنى قال القديس اوغسطينس « انه لا خلاص في جهنم البتة . هناك المناحة والشهيق وليس من يرحم . هناك البكاء والوجع وليس من يسمع » *

اننا نرى في هذه الارض ان علم الطب اوجد لكل داء دواء . ولاجل ذلك لم يبق الآن جرح الا وله بلسم يعالجه . ولا سم الا وله درياق ينتزعه * ولكن لا تظنوا ان الامر كذلك ايضاً في جهنم . فهناك الحريق قادح لا محالة ولا دهن يخفئه . والعطش شديد ولا ماء يرويه . والجوع كئيب ولا قوت يشبعه . والحزن ممزق ولا رقاد يسكنه . والعار غير محتمل ولا نقاب يستره * ويا ليتها كانت تحوي على القليل موتاً يقطع كل هذه الضيقات والعذابات * لكن هذا هو اعظم اوجاع الهالكين في جهنم حسب قول سفر الحكمة وهو « انه ليس فيها سم للتهلكة » (حكمة ١ : ١٤) * ومعنى ذلك انه ليس للهالكين فيها رجاء ان ينعم عليهم بدواء يستعملونه لابطادتهم ولفنائهم تماماً * ان مثيرات ملك بنطس المشهور لما ابصر انه لم يبق له واسطة اخرى لينجوها من رق العبودية التي كان قريباً ان يسقط فيها بايدي اعدائه سوى هذه اي واسطة الموت . فمع انها صعبة ومخيفة جداً عزم حانقاً على نفسه ان يشرب كأساً مسمومة ويموت . فاتخذ كأساً وشربها . لكن لاجل انه كان فيها مضي قد صير معدنه بالادوية الشافية التي كان يتناولها اختراعاً من عقله الدقيق ان تهضم السموم لم تترك مضرته من كأس السم التي تجرعهها . بل بعكس ذلك نال منها قوتاً وغذاءً

لجسده . ولهذا شرع يحزن باكياً لأنه بالادوية التي كان قد اختارها وكان يتناولها سابقاً صير جسده غير قابل الموت بالسموم الناقعة * ولكن الأصح ان نقول أنه لم يكن متردات محملاً مجزئه وتألمه هذا على أنه لا يستطيع ان يقتل نفسه بالسم . لأنه لو طلب الموت حقاً وتعمده لوجد طرائق أخر متعددة يقتل بها نفسه في هذه الدنيا حيث ان كل شيء يصلح لموت الانسان . ولا شيء كافٍ لحفظ الحياة . فلم يكن محققاً له ان يغتم ويتألم من اجل ان السم لم يكن يظهر فيه تأثيراً * لأنه كان يمكنه ان يهتدي الى ان يطعن قلبه باحد الرماح . او يخنق نفسه بجبل ما . او يزرع نفسه في احدى الهاويات العميقة * ان البحر وحده يحوي انواعاً من الميتات لو اراد لقدمها له ليبيد بها حياته * وكم تحوي الأنهار من الدوائر ليغرق بها . والتنانين والحيتان لتبتلعها * ولو اراد ان يدخل متورطاً في غاب . لا يمكنه ان يجد في كل غصن من أشجاره حبلاً يخنقه . ولا يمكنه ايضاً ان يجد الموت في المغاير التي فيها تربض الوحوش الضارية . وفي التنانين التي فيها نقد النار . وفي الآبار التي فيها يلقى المذنبون * ومن ثم نقول : أنه لما لم يتجاسر ان يطلب الموت على منوال آخر سوى السم الذي كان قد جعله له سابقاً مشرباً لذيذاً نافعاً . اظهر بذلك عن نفسه أنه انما كان يطلب لنفسه فقط الفائدة التي تصدر احياناً من الموت اي زوال الضيق والشدة . ولم يكن يريد ان يذوق العذاب المنزج به * وان شئتم ان تعرفوا متى كان يوجد للملك الشقي المذكور سبب صائب لتألمه والشكوى لعدم استطاعته ان يقتل نفسه . فاجيبكم قائلاً : أنه كان محققاً له ذلك مثلاً . لو تشجع وطعن قلبه بحربة والتهمة الحربة من غير ان تقتله . او او شد عنقه بجبل وشعر بتزع النفس من غير ان يخنقه ذلك الجبل . او او ضرب نفسه بالحجارة واستشعر بالترضيض من دون ان تميته الحجارة . او لو طرح نفسه في البحر واحس بعذاب من يخنق وحمله البحر طافياً على المياه . او نوالتي نفسه في النار وتعذب بحريقها من غير ان تنفي حياته . او او عرض نفسه للوحوش واستحس بوجع افتراسها من غير ان تستطيع ان تبتلعها ويموت * ففي هذه

الحالات كان يسوغ له ان يجزن ويشكو من عدم قدرته على الفوز بالموت * وهذه
لعري هي حال المالكين في جهنم حسبما ذكر عنهم يوحنا الحبيب في جليانه قائلاً
« يطلبون الموت ولا يجدونه » (رويا ١: ٦) * هذا هو الجهاد الذي مجاهدونه في
كل الأبدية. اي أنهم يطلبون الموت حتى يجتمع انواعه القاسية الظلمية. ولا يحظون
به اصلاً. فيقضون جميع أيام الأبدية نائحين وهاتين من جوارح قلوبهم في تلك
الهاوية المظلمة المرعبة وقائلين: اين انت يا ايها الموت اين انت. لماذا لا تاتي الينا.
من من الشياطين يرحمنا ويرينا اياك: فيقول هناك ايمالك: آها لشقائي اين الآن
السيف الذي اماتني ونجوت من العار الذي كنت اخشى ان يستخوذ علي (قضاة ٩: ٤٥) *
ويقول زمري: اين النار التي بها احرق نفسي وميت (١ ملوك ١٦: ١٨) * ويقول
اخيتوفال: اين الحبل الذي خنقت به نفسي (٢ سم ١٧: ٢٣) * يا لشقائنا كيف امكن
ان يكون هذا المكان المفعم عذابات خالياً من عذاب كاف لموتنا وابدتنا * ماذا
تصنع ايها الدود. أنت ايضا تاتي ان ترعانا وتلاشنا * ماذا تصنعين ايها
النار. اما بلغ وقتك لتذيينا وتلاشنا * وفي غضون قولهم هذا اذا شاهدوا في
احدى زوايا جهنم براً يغلي فيها النفط والكبريت باعظم اضطرام. ينهضون مسرعين
متلهفين ليزجوا بنفوسهم فيها مترجين ان يصيبوا الموت في عمقها. لكن هذا الخير
« لا يجدونه ». « يطلبون الموت فيه ولا يجدونه » كما قال الكتاب * ثم يخرجون منه
متمزقين غيظاً تمزيقاً ابلغ ليطلبوا الموت في مكان آخر فيه يبصرون الفؤوس تقطع
باعظم حد. او تُطحن العظام باوفر تدقيق. او تفوح النتانة باغزر كره. وهناك يطرون
نفوسهم ويتقلبون ويتحطمون مترجين ان يجدوا هكذا الموت. ومع هذا « لا يجدونه.
لا يجدونه » * يا لسوء حظهم. يا لتفاقم شقائهم. فانهم وان القوا انفسهم في افواه
التنانين وانتشبوها ما بين برائن النورة والأسد. فلا ريب في أنهم يتعذبون منها
عذاباً لا يُطاق. ولكن عذاباً لا يفني حياتهم. حسب كلام ايوب الصديق القائل
عن كل من المالكين هكذا « يُعذب علي كل ما صنع ولا يفني » (ايوب ٢٠: ١٨) * وحينئذ

يفطنون أنه يوجد في جهنم الحسّ والاشعار بجميع اصناف العذاب كقولنا تحطيم
العظام. وفتطيع الاعضاء. وضرب العصي. ونزع النفس الصادر من الخنق. وحريق
النار. وطعن الرماح. وما ضامها. غير ان الموت منتفى منها. ولكن لا كل موت على
الاطلاق. لكن الموت الذي يفنى هو ايضاً وينتهي ولا يكون الى الابد غير مائة *
لأنه لو كان يمكن ان يوجد موت ينتهي في هذه الهاوية المرعبة التي فيها كل عذاب
ينبغي ان يكون ابدياً غير متغير مع تغيير الطبيعة والادمار ولا ان ينقص او يخف.
لكان ذلك خيراً عظيماً لله لكن * والحال ان هؤلاء الاشقياء فاقدون كل خير
حتى خير الموت وفناء الحيوة * فما رأيكم يا معشر السامعين. وما قولكم في هذه الحال
حال الهالكين الهائلة * اما جمد دمكم في عروقكم خوفاً وارتباجاً من تأمل حالهم هذه *
قال القديس بوناونتورا: «من الذي لا يرتعب قلبه اذا تأمل عذابات جهنم
واعتبر كونها غير محتملة لتناغم شدتها بل لدوامها ايضاً الى الابد» * نعم انها دائمة
الى الابد. لان داود النبي قال عنهم هكذا «ويكون زمانهم الى الابد» (مزمو ٨٠: ١٦) *
وما معنى هذه اللفظة الى الابد: العلى معناها انهم يتعذبون الى ان يجف عصفور
جميع مياه الجمار اذا اتى كل سنة مرة واحدة وشرب نقطة واحدة لا غير: لا لعري.
بل معناها انهم يتعذبون الى زمان ينف على هذا * ام هل معناها انهم يتعذبون
الى ان تكون افنت دودة صغيرة اكل جميع شجر الارض اذ قرضت كل سنة قرضة
واحدة فقط: كلاً. بل يتعذبون الى زمن اكثر من هذا * ام هل معناها انهم يتعذبون
الى ان تكون انتهت غلة من تطوافها الارض باسرها اذا مشت بقدمها كل سنة
قدماً واحدة فقط: كلاً. بل يتعذبون الى سنين اكثر من هذه جداً * واذا افترضنا
ان العالم باجمعه امتلاً رملاً دقيقاً. ونقلت منه كل مائة سنة حبة واحدة فقط.
ايتهى عذابهم اذا فرغ العالم كله من الرمل: حاشا وكلاً * او اذا احسبنا ان هذا
العالم باسره صار نحاساً صلباً واتاه من بضربه ضربة خفيفة واحدة في كل الف
سنة مرة فقط. ترى ايتهى عذابهم متى ما بلغ هذا العالم النحاسي الى ان يتلاشى

وبصير غباراً دقيقاً: لا ثم لا. بل يتعذبون الى الوف من السنين اكثر من هذه *
ولتصورن قياساً آخر. وهو انه اذا سكب احد الهاالكين من عينه دموعاً واحدة
فقط في كل ربوة من القرون. اترى ينتهي عذابه متى ما بكى بكاءً عظيماً حتى تكفي
دموعه اذا اجتمعت ان تجعل طرفاناً آخر نظير الطوفان العرمرم الذي غمر
الارض كلها في عهد نوح وغرق البشر والبهائم والطيور جميعاً: لا ثم لا. حتماً لا
ينتهي * فلنختم مقرين بان هذه القياسات انما هي قياسات الاطفال. لان ذهاب
الخطاة لا ينتهي « بل يكون زمانهم الى الابد ». ومعنى ذلك انه يدوم الى جميع الدهور
بلا عدد وبدون حد ومن غير تاجيل ولا مقدار. ولجل ذلك قرر الله تعالى وقال
قولاً اوضح « يجعل لهم للنار والود. فيحترقون ويتعذبون الى الابد » (يهوديت
١٦: ٢١) * يا لالفاظ مخيفة. يا لمعانٍ مرعبة. كيف يمكن لكلمة هائلة كهذه اي كلمة
الى الابد ان لا تذهل عقولنا ولا تذيب قلوبنا لفرط الخوف * فيا ايتها المغاير
والكهوف وثقوب الارض ابن انتن. انني اتوق ان اسجن نفسي في واحدة منكن واخني
هناك وحدي من غير ان اعين ايضاً وجه انسان او نور الشمس. لابي وانوح
مكرراً هذه اللنظة الى الابد الى الابد. لعلي ابلغ وادرك ما هو معنى قولنا الهلاك الى
الابد *

اننا نرى في هذه الدنيا ان اشراح الصدر نفسه اذا طال كثيراً يسبب ايضاً
اخيراً ضجراً وكرهاً. ولجل ذلك يجب ان يكون كل شيء مما يخصه مرتباً بحكمة
ومنتظماً باوقات موجلة. كالجلوس على المائدة مثلاً واللعب والصيد والسهر وضرب
الآلات والاعاني وما اشبه ذلك. حتى اذا استمرت متصلة ودائمة. فانها تورث
الضجر والملل ولو كانت في مبادئها عذبة لذيدة * وان كان ذلك كذلك. فكيف يكون
اذا الدوام في عذابات واحدة بل عذابات كثيرة وشديدة بمقدار لا يرام * انه لقد
اتفق لي كثيراً اذا سافرت في فصل الصيف او وجدت في مرج اخضر مزهر شهبي
المنظر وانطرحت من التعب تحت ظل شجرة ظليلة متمتعاً برطوبة النسيم الدقيق

الرقيق وخرير المياه المتدفقة وصوت نغمة البلابل العذبة. أن التذ من ذلك في
الابتداء. ولكن ماذا كان يجري لي بعد ذلك: أنه بعد مكثي زماناً قليلاً كنت
استيقظ واقوم ناهضاً من ضجري. حتى أنه لو اتفق ان يرغمني احد بان امكث هناك
غير منترح ولا متقلقل يوماً واحداً فقط على جنب واحد. لكنت تلك اللذة لا
محالة تسخيل الى مرارة وحناب. ولكان التذكر في هذا فقط يبتدى ان يجعل لدي
تلك النغمة اللذيذة محزنة. وذلك الخير مكرهاً. وتلك السمات الدقيقة خشنة.
وذاك الظل مكدرًا. وتلك الزهور شوگا* فاذا يا لتفاقم شقاء الهاالكين. كم يكون
مقدار عذابهم مرًا اذ انه محكوم عليهم ان يستمرروا مطبورين لا يوماً واحداً بل
الابدية كلها في بر النار الخيفة التي ساها يوحنا في جايانه «بجيرة النار المتوقدة
بالكبريت» (رويا ١٩: ٢٠). محوطين دائماً بالعقارب وحنوين على الدوام بالحيات.
يهزأ بهم دائماً الابالسة من غير ان يستطيعوا البتة في جميع دهور الابدية ان
ياخذوا من قلوبهم نفساً واحداً مفرحاً* فاذا تأملوا حالهم هذه. فما اكثر ما
يلعن كل منهم اليوم الذي ولد فيه. والبطن الذي حمله والثديين اللذين رضعهما.
قائلين من كلام ايوب «ليهلك اليوم الذي ولدنا فيه والليل الذي قيل فيه انه
قد حبل بنا فيه» * لكن منها زادوا ولولة وبكاءً ونحيباً. فليس من يرحمهم ايضاً.
لانهم قد صاروا الشعب الشقي الملعون الذي قد نى عنه ملاخيا النبي في سفره
قائلاً «الشعب الذي غضب الرب عليه الى الابد» (ملاخيا ١: ٤) *

ولكن لعل احداً منكم يظن شيئاً واحداً في الهاالكين. وهو انه يمكن ان
يحصل لهم تعزية في عمق هذه الشرور من علمهم ومشاهدتهم ان غيرهم ايضاً يتعذبون
بعذاباتهم وليس هم وحدهم. ولجل ذلك يتفق لنا بعض الاوقات ان نسمع شخصاً
من الاشخاص يقول: وماذا يكون لي اذا هلكت في جهنم فانتني لا اكون وحدي.
فيا ايها الخاطي الجاهل المنكرد الحظ ما هذا الجنون الذي اعتراك حتى نقول انك
لا تكون وحدك في جهنم. والحال ان هذا اشد دذاباً لك اي انك لا تكون

وحدك بل برفقة غيرك * لأنه إذا ترهبت في رهبة الكرتوسيين او الكابوشيين .
 فهل تكون وحدك في الدير : حاشا . بل تكون برفقتك ملائكة كثيرون . ومع هذا
 لست تحب ان تذهب وتُحس في الدير . فكيف اذا تصور لك جهنم محملة
 لسبب انك لا تكون هناك وحدك * اني لا انكر بانهُ يمكن ان تتصل لنا تعزية ما
 في هذه الارض اذا كان لنا شركاء في شدائدنا . والسبب في ذلك على حسب
 ظني هو هذا اي انه يمكن حينئذ ان نرجو ان يعيننا غيرنا او يعزينا او يشفق
 علينا حيث انه يوجد لنا من يفهم شدتنا بالاختبار لأنه ابتلي بها ايضا مثلنا واضحي
 يدرك حقيقتها ووفور الألم الصادر منها * ولكن هذا لا يحدث في جهنم . لأنه هناك
 كل هالك يزيد عذاب صاحبه . ففيها يكون الهالكون بمنزلة حزمة من الشوك
 الملتز بعضها مع بعض . ومن ثم لا يصدر منها سوى ان يشبك احدها الآخر
 حسب قول ناحوم النبي « كئيبا تحاضن الشوك بعض مع بعض » (ناحوم ١ : ١٠) *
 فما الفائدة في جهنم من كثرة الرفقاء : انها لا تصير احدا منهم ان ينفع
 غيره او يعزيه . بل تجعل ان يزيد بعضهم على بعض ثقلا وضيقا وصرعا وتبلا
 وعدم نظام . فلاجل ذلك خير للهالك ان يكون وحده * نعم ان الهالكين
 لافراط اليأس والبغض بعضهم لبعض يحبون ان يكونوا كثيرين ويحبون ان يلعنوا
 وبعضوا ويشتموا بعضهم بعضا . لان اشعيا النبي يقول « بغضب رب الاجناد يكون
 الشعب مثل ماكل النار » (اشعيا ٩ : ١٩) . ومع ذلك لن يرحم الانسان اخاه كما
 قال اشعيا ايضا . بل كل واحد ياكل لحم ساعده . اي منسى افرام وافرهم منسى *
 ومن ثم ينبغي لكم ان تتجوا ان بعضهم هذا لبعضهم بعض لا يسديهم نفعا او تعزية :
 حاشا . بل يزيدهم عذابا ووجعا * لان الهالكين يبغض بعضهم بعضا بغضا شديدا .
 حتى انهم يحنسبون الاذى الذي ينزلونه برفقائهم خفيفا بالنسبة الى الاذى الاعظم
 الذي يشتمون ان يفعلوه بهم لو امكنهم . ومن اجل ذلك اضاف اشعيا النبي
 الى النص المذكور فقال « كل واحد منهم هكذا ميل الى الميامن . وسجوع وياكل

من المياسر ولا يشبع» *

وان كان بغض الهالكين بعضهم لبعض سيكون بلا تعزية الى الابد. فليت شعري ما الذي يجب ان نقول في غيظهم على الشياطين الذين هم علل عذاباتهم ومشقاتهم الابدية العظي * يا له من امر مخوف مرعب. وهو ان يشاهد الهالكون الاشقياء عياناً ان الشياطين الذين تملقوهم في مدة حياتهم وخذعوهم كثيراً في تجاريبهم. سيكونون الى ذلك الوقت قساة عليهم حتى انهم لا يملون ولا يروون من تعذيبهم الى الابد. وعند ذلك ينتهبون على انهم خانوهم. فيدعون عليهم انتقاماً منهم ويكرهون ذكرهم ويتمررون من مشاهدتهم * ومع هذا قد صار كل منهم ملتزماً ان يرى هؤلاء اعداءه الخائنين الذين سبوا له هلاكه الابدی محققاً به دائماً ويستمع على الدوام شماتهم من افواههم. ويعاين نفسه على صغر الزمان معذباً بايديهم. ومن جهة اخرى لا يستطيع ان ياخذ منهم ثارة. لان الشياطين يحسنون جيداً ان يقوموا بوظيفة جلادين للهالك. ولكن الهالك لا يمكنه ان يصير جلاداً للشياطين. وهذا يزيد الهالكين تألماً وعذاباً لا يوصف *

غير انني اتكلم الحق فاقول ان عذاب الخطاة هذا اي الملتحق بهم من الشياطين ومن رويتهم الشنيعة علي ظني لا يخلو من تعزية. وذلك نظراً الى سبب العذاب الذي انا مستعد لاينه لكم وهو عذاب الشياطين الذين كيفما عذبوا الهالكين ومهما عذبوهم فهم معذبون ايضاً معهم في مكان واحد وهو جهنم * ومن ثم يتبين لي ان غيظ الهالكين وغضبهم عليهم يسكن مشتتياً قليلاً بمشاهدتهم عذابهم واحتراقهم ايضاً من الله تعالى. وذلك شبه العدو الذي يفرح ويشتهي غلبته قليلاً بالعذاب الذي يراه في غريمه ولو لم يكن عذابه هذا سببه منه * لكن ماذا نقول في غيظهم الذي يصيبهم من مشاهدتهم القديسين والطوباويين واولياء الله. الغيظ الذي لا يوجد له سبيل ولا وجه اصلاً للاشقياء: ان هذا لعمرى بسبب لهم عذاباً وتزيقاً عظيماً جداً حتى انه يجعلهم بصرخون ويولولون كالجائنين * فيرفعون احياناً نواظرهم الى السماء. واذ

يتأملون مفكرين بكم من القليل نال غيرهم السعادة الابدية التي هم قد خسروها.
فما امر المحسرات والبكاء والشهيق الذي يرددونه من اعماق قلوبهم وقتئذٍ وما اشد
صير اسنانهم * ان اخوة يوسف لما ابصروا اخاهم هذا موموقاً ومحبوباً عند ابهم اكثر
منهم. اختلفوا بغضاً وغيظاً عليه شديداً حتى انهم عزموا على قتله ((تكوين ٢٧)) ومع
ذلك اسأل: في اي شيء كانت قائمة محبة ابهم ليوسف اكثر منهم: لعمرى انها كانت
قائمة في هذا فقط. وهو انه صنع له قميصاً اثن من قمصانهم. او انه كان يتبسم له او
يقبله دون اخوته * فليت شعري كم يحتمى الهالكون بغضاً وحنقاً اذ يبصرون واحداً من
اخوتهم او اقاربهم متلائماً في مجد جزيل جداً. وعلى الخصوص اذا عاينوا واحداً من
غرمائهم او من اعدائهم الذين كانوا يبغضونهم في حياتهم حتى الموت. او واحداً
كانوا قد احتقروه في مدة حياتهم بمنزلة فقير او هزأوا به بمقام صعلوك ومجنون.
او كانوا قد ضايقوه شبه عبدٍ واسير * وعلى ما يلوح لي انه من هذا يجب ان يتصل
ابهم عذاب ومرارة قلب عظيمة. حتى انهم لو اعطوا اذنًا ان يخناروا واحداً من
هذين الامرين اي إما ان يصعدوا الى السماء ليتجسدوا مع القديسين واما ان يجذبوا
القديسين الى العذاب معهم. لاخناروا ان يخدر القديسون الى عذابهم لا ان يصعدوا
هم الى مجدهم * لعمرى ان هذا الالم اعظيم جداً. ولا احد يدركه الا الذي يفهم
عظم مقدار ما تؤلم شهوة الحسد الذي بحسب ظني جميع آلام العذابات هي اخف
من الالم. وذلك حسبما قرّر القديس قيريانس ايضاً في كتابه الذي الفه في الحسد
قائلاً: جميع المشقات والعذابات يمكن ان تخالطها من عين طبعها تعزية ما. ولكن
الحسد هو غير قابل التعزية اذا ما استحوذ على الانسان بالدرجة الفائقة * وبرهان
ذلك هو العقاب الذي توعد به الله تعالى عالي الكاهن على توانيه في تربية اولاده
الاشرار * فان قاتم: وما هو العقاب الذي قد توعد به جل ذكره: العلة كان
ابطال الرزق الوافر الذي كان يجري له من خدمة الهيكل. ام هل كان قطع ذريته
وتبديد سبطه. اجيبكم: كلا. ان هذا لم يكن العقاب الاقوى الذي توعد به الله

تعالى به. بل إنما كان هذا. وهو ان يجعله ان يعاين في الهيكل من مجازيه درجة
 حاصلًا في مجدٍ عظيم. فإنه قال له «وتبصر يا غريم المسكن بكل خيرات اسرائيل»
 (سومو ٢: ٢٢) * وهكذا نرى ايضًا ان الم الحسد هو الذي جعل عيسو يبكي ويحج
 مولودًا كالوحش. وهو الذي جعل شاول الملك يعدم الصواب والعقل. وذلك
 لمشاهدتها انفسها عاجزين عن صد السعادة عن غمائمها الذين انتقلت اليهم
 منها * ولكن لا حاجة لنا ان نطوف طالبين البراهين من بعد. بل هلم بنا نحدق
 النظر الى الغني المذكور في فصل الانجيل الذي نلي على سماعكم اليوم ونتأمل
 ونفحص: لاي سبب تاق الى نقطة واحدة من الماء المبرد في ذاك الاحتراق الناري
 طالبًا ان يرسل لعازر ويأتيه بها قائلاً «ارسل لعازر ليبل طرف اصبعه بماء ويبرد
 لساني» (لوقا ١٦: ٢٤) * اجيبوني يا معشر السامعين: أما كان الاوجب والاليق والانفع
 للغني المعذب ان يطلب ملتسًا ان يصعد هو بنفسه الى حيث كان لعازر جالسًا
 متمتعًا مسرورًا. لأن يطلب ان ينحدر لعازر الى حيث كان هو يتعذب بكل هذا
 العذاب * فلماذا ابتغى ان يقطع عنه تلك الراحة اللذيذة التي كان فائزًا بها في
 حضن ابراهيم المعبر به عن النعيم. لماذا اراد ان يقلقه ويحزحه من مكانه ويكلفه
 بالنزول اليه: فيجيب هنا القديس بطرس خرُسولفس قائلاً: لا تعجبوا من ذلك.
 لكون الذي يحرك الآن هذا الغني الهالك الى السؤال ليس هو هوى صادرًا من
 عذابه الشديد الذي يتعذبه في جهنم. لكن هوى صادر من بغضه القديم للعازر.
 ولجل ذلك كان يتعذب في جهنم من هوى حسده للعازر عذابًا اشد من النار.
 لأنه لم يكن يطيق ان يرى في كل هذا المجد من كان في حياته يعتبره اعتبارًا
 اقل من كلابه * فكان يرغب وهو في العذاب ان يلحق بلعازر ضررًا واساءة
 اكثر مما كان يتوق الى ان ياتي منه عون وفرج * ثم ختم القديس المذكور
 كلامه قائلاً عن جميع الهالكين «ان هذا عذاب للهالكين عظيم واحترق جزيل
 غير مطاق. اعني مشاهدتهم الذين رذلوهم ههنا في الارض مسجدين وسعيدين

هناك . ولأجل هذا السبب طلب الغني أن ينحدر لعازر إليه لا أن يصعد هو إلى محل لعازر « انتهى * ومن هنا يلوح لي أنه لو أمكن بهذه الفرصة أن يتصل الغني إلى لعازر ويضمه بين يديه . لو ثبت عليه بمنزلة كلب كلب ومزقة بأسنانه . لو بمنزلة ثور دائم هج . وإمانه نظماً ورفساً . ولكان عوض الماء الذي يأخذه منه ينفت في وجهه من اعماق أحشائه بجرأ من نار وافرغ جهده على قدر وسعه في أن يسكب في مفاصله وعروقه وعظامه ودمه كل العذاب الذي كان هو يتعذب به * ولكن دعوا هذا الغني يتمزق غيظاً ويذُب حسداً مهما شاء . فإن من اليقين أنه لا الهالكون أقرانه يُسمح لهم بان يصعدوا إلى ملكوت لعازر . ولا لعازر يُسمح له أن ينحدر إلى بر الهالكين « (لأن هونة عظيمة ثابتة بينهم) » (أرقا ١٦) * فلنتج من ذلك كم يتقطع ويتمزق غيظاً وعذاباً الأشقياء عندما يشاهدون أنه مها ناحوا ووارلوا وصرّوا بأسنانتهم . فلن يزال نظراؤهم متمتعين وتمتعين إلى ابد الأبد من غير أن يستطيعوا أن يلحقوا بهم شيئاً من الحزن . ولا أن يكثروا أبداً بمرافحهم . ولا أن ينزعوا شعرة واحدة من رؤوسهم * لعمرى إن عذابهم هذا الصادر من الحسد هو عذاب مذيّب يخرق حتى العظام . لأن الحكيم قال في أمثاله « الحسد فخر العظام » (أمثال ١٤ : ٣٠) *

ومع ذلك أقول قولاً آخر وهو أنهم لو لم يعتقدوا أن أهل السماء فضلاً عما ذكرناه يشمتون بهم مسرورين بعذابهم . وإن ليس القديسون والقديسات والملائكة اجتمع بهزأون بهم فقط . بل الله نفسه يضحك ويهزأ ويسخر بهم مشرفاً عليهم من علو عرشه ذي العزة العظمى . لكن عذابهم اخف عليهم * وهذا طبق ما جاء في الكتاب المقدس حيث قيل في سفر الحكمة « الرب سيضحك عليهم » (حكمة ٤ : ١٨) * وقيل أيضاً في الزبور « الساكن في السماء يضحك . والرب يستهزئ بهم » (مزمو ٢ : ٤) * وفضلاً عما ذكرناه اسمعوا أيضاً ما قاله الله تعالى بفيه القدوس نفسه على لسان حزقيال النبي . قال « بل انا أيضاً اصفق بيدي واتم غضبي » (حز ٢١ : ١٧) * ان

الذي يجسر في اللعب. لا شيء يزيدُه غمًا وعذابًا مثل الضحك عليه اذ يكون هو
يتفتت باطنًا غيظًا لعلّة خسارته: نعم ان الضحك عليه فقط يكفي لجعله ان بعض
الزار. ويمزق الورق. ويقلب الموائد اذا عجز عن الوثوب على الغالب وتمشييه *
فاحسبوا كم يكون تمزيق قلوب الهالكين حينما يولواون نائحين من جرّاء عذابهم
وخير نظرائهم في السماء. ومع ذلك يبصرون اولئك يضحكون على عذابهم ويستهنون
بهم * فعلى ما يستبين لي ان هذا يكون لديهم بمنزلة رأس عذاباتهم وهو امر ما
يكون * واريد ان ابين لكم صدق ظني هذا باوضح برهان. فها انا اشرح لكم حال
رومية القديمة حينما اتتدت كلها بالنار بعمل نيرون الطاغى واضحى اجيها يتصاعد
الى الجوّ كأنها استخالت الى جهنم * فتصوّروا كيف علقت النار في اكثر زواياها
وامتدّت في زمن يسير الى منازل النقرآء بل الى قصور اكبرها وابراجهم ايضا. واضحت
اعلى القلاع تنتقد كالمصابيح وتعلن من بعد الخراب العظيم الهائل الموائى على
رومية. ثم شوهدت الابنية الشائخة المزخرفة التي قد كُتت الايدي في ابتنائها وحات
العقول في هدامها تندك متساقطة. ثم امتدّت النار ودخلت الغياض المدغلة
والجنّات الرائقة. وشرعت تجنّف وتحرق كل ما فيها. واتصلت الى المخازن المشاعة
وابتدأت ان تاكل منها الغلات الكثيرة المخزونة فيها * ولما ابصر الناس ذلك.
اعتراهم الهول. ولم يعودوا يعلمون ماذا يفعلون والى اين يهربون * فمن كان منهم
مصورًا. لم يبق له وقت ليحل تصاويره المثمّنة وينجوبها سالمًا. ولا النجّاتون بقي لهم
زمن ليحلموا اصنامهم الرخامية. والغنائم والبيارق التي اكتسبت من حروب كثيرة.
والابنية والاهرام البديعة التي اقيمت ذكرًا مخلصًا لغلبات ملوك كثيرين صارت
غنيمةً للنار المهلكة * وكان يُسمع ايضا في كل جهة نجيب الاطفال يصرخون الى
امهاتهم متضيقين من الدخنة او محترقين من الاجيح. وبكاء النساء وهن يرين خدور
بعولهن تحترق بالنار. وصراخ الكهنة يكون على خراب هياكلهم. ومناحة الاغنياء
وهم يرون ثرواتهم تصير رمادًا. وضحج الصناع وهم مضطرون ان يستودعوا للنار

اتعابهم * وفي غضون ذلك لما اشتدت النار وزادت احجماً . طفق الناس يترامضون
 هارين هذا الى الحقل . وهذا الى المغاير . وهذا الى النهر * فيا ايها المدينة المعظمة
 مدينة رومية الكبرى من ذا الذي بلغ بك الى هذه الحال التعيسة . اذ لك من
 غضب الوندليين اعدائك ام من رجز الغوطيين . ام غيظ الارواح الجهنمية المبعوثه
 عليك من كبوها السفلية : حاشا * ولعمري انه لا حاجة لنا في ان نطلب علة نكبتك
 من بعد . لان نيرون ملكك هو صار علة له . وها هو جالس على برج شاخ . فاذهبي
 اليه واستغيثي به . واطلبي منه منضرة باكية * لانه ان كان يوجد لبلواك حتى الان
 علاج ومداواة . فهو الذي يستطيع ان يزيها منك . لانه هو كان علتها وسببها * لكن
 اه واسفاه على اهل رومية : انهم لما ذهبوا الى نيرون الملك ليستمدوا منه عوناً ومدداً .
 لم يكونوا قد علموا انه هو كان سبب حريق المدينة . وراوه جالسا فوق برج عال
 شاهق يشرف على المدينة . ومن هناك يعاين بلدة وافرة احتراق المدينة . وليس هذا
 فقط لكن شاهدوه ايضاً حاملاً على عنقه العود يضرب به مترنماً على بكائهم
 وولولتهم ومشتغلاً بالهزء والضحك على الشرور الواردة عليهم * ليت شعري من
 منكم يا معشر السامعين يستطيع ان يدرك مقدار الغضب الذي وجب ان يضطرم
 في قلوب اهل المدينة من معاينتهم هذا الامر الغريب . وهو ان رومية تخرق بالنار
 ونيرون جالس يضحك . وكم قد اضطرهم الامر ان يجلبوا حينئذ وبصروا باسنانهم
 عليه * وكم من التوبيخات والتعنيفات المرة لزم ان يخاطبوه بها . وكم مقدار من
 افكار التل والتهميم سعدت في قلوبهم * وليس بعجب في ان بعضهم رجعوا آيسين
 الى ما وراءهم . وزجوا بنفوسهم في وسط النار ليحترقوا ويبعدوا لئلا يعودوا وينظروا
 فيما بعد انساناً هذه الصفة صفته . ولو لم يكن البرج الذي كان ماكناً فيه هذا الملك
 القاسي حصناً ومحوطاً بجنود اقوياء مسلحين ومستعدين للقتال . لاسرع الجميع اليه
 ليجرقوه او يجذبوه ويقطعوه ارباً ارباً ويمزقوه باسنانهم * فافتكروا الان ان غضب
 الهالكين في جهنم يكون نظير غضب اهل رومية المذكورين المتقدم بهم على نيرون .

بل يجب عليكم ان تتصوروه اعظم منه جداً من غير قياس * لان هؤلاء يحترقون في نار احد من النار التي احترقت رومية . وهي التي على قول اشعيا النبي لا تاكل قناياهم ولا بيوتهم ولا امتعتهم . بل تاكل نفوسهم . اذ قال : « يكون الشعب مثل ماكل النار » (اشعيا ٩ : ١٩) * ومع هذا عندما يرفعون نواظرهم ملتفتين الى الاله العظيم الذي اوقد نارهم . يبصرونه متغاضياً عنهم . بل لا يشاء ان يرحمهم ويعزتهم ويعينهم بشيء ما اصلاً . بل « جالساً يصفق بيديه ويضحك عليهم شامتاً وملتئداً » (حزقيال ٢١ : ١٧) . فانتجوا من ذلك كم يحتمون خيظاً . وكم يتمزقون ترمراً * فيهتفون حينئذ نائحين باكين من اعق افئدتهم وقائلين : انحن نحترق والله يضحك علينا . انحن نتعذب والله يستهزئ بنا * فيا ايها الاله لماذا لا تسحقنا بصواعقك بدلاً ما تشمت بنا ضاحكاً . زدنا عذاباً . ضاعف علينا النار اضعافاً فوق اضعافها ما شئت . واعدل عن الاستهزاء بنا * يا له من هزء امر علينا من بكائنا . يا له من فرح اشق علينا من عذابتنا * لماذا لا تحوي جهنمنا ابئاراً اعق لتتهور فيها ونهرب من وجه الاله ضاحك * لقد غرنا كثيراً من قال ان عذابنا الاعظم سيكون في مشاهدة وجه الاله مغضب . فقد كان الاولى به ان يقول لنا انه سيكون في مشاهدة وجه الاله ضاحك * اننا نريد الآن ان تقع الجبال علينا او تنفتح الارض من تحت ارجلنا وتبتلعنا لنستتر عن وجهه . اين هي الآن الظلمة التي قيل لنا عنها « محفوظ لهم قتام الظلمة الى الابد » (يهوذا ١٢) * لماذا لا تغطينا عن وجه الله الهازئ بنا * آها لشقائنا لكون الشيء الذي يؤلمنا ثراه جلياً . وقد اظلمت بصائرنا عن كل شيء عدا الشيء الذي نريد ونبتغي ان نظلم بصائرنا عنه * فهكذا يجب على الهالكين الاشقياء ان يولولوا ناديين ونائحين . واذ لا يستطيعون ان يحملوا سلاحاً ويحاربوا السماء . فيجملون كل غيظهم نحو نفوسهم « ويمضغون السننهم من الوجع » (رويان ١٦ : ١٠) . حسبما قيل عنهم في سفر الرويا . وينتشون لحومهم باسنانهم . وينتفون شعورهم . ويخدشون وجوههم . بل يبتغون ايضاً ان يقوروا اعينهم باظفارهم لئلا يبصروا من يستطيع ان يعذبهم بابتسام واحد

فقط * ولكن الذي يزيدهم عذاباً هو انهم مبهما بكوا ومهما فعلوا. لا يمكنهم ان يمنعوا عنهم مشاهدة وجه الله تعالى التي قولهم. بل انها تستمر باقية بازاء اعينهم دائماً الى الابد * انه وان كانت رومية قد شهدت متقاً كلها بالنار من غيظ نيرون الملك كما قلنا سابقاً. غير انها مع ذلك كانت ترجوان تعود وتنشأ من رمادها وتجدد نظير طير العنقاء وتترين بابنية الفخر وتغتني بجنات واملاك الفخيم. وهكذا حدث الامر * ولكن الهالكين الاشقياء يتقدون بالنار على الدوام ويبقون احياء الى الابد لاجل هذا فقط اي لكي يتقدوا بالنار دائماً. وذلك على شبه نل من وقود متلبد وملتف بعضه ببعض يقرب محرقة دائمة للعدل الالهي « ويكون دخان عذابهم صاعداً الى ابد الآبدين » (رويا ١٤ : ١١) كما قيل عنهم في سفر الرويا. ومن ثم تزداد جثثهم في كل يوم سواداً وثنانة وبشاعة واحترافاً * فكم يتوافر قنوطهم وغيظهم وتجديفهم يوماً فيوماً. بعد ان يكونوا قد تحققوا انه قد انسد دونهم كل باب للترجي من الله تعالى معونة ما. وذلك حينما يعاينونه تعالى جالسا على عرشه المهيب. لا يلين او يضجر من عذابهم وتمرهم. بل يضحك ويهزأ بهم * وهكذا يصح ما قد قاله عنهم موسى النبي في الكلام عن العبرانيين العصاة حيث يقول « كما ان الرب فرح بكم فاحسن اليكم واكثركم. كذلك يفرح الرب بكم ليهلككم ويبيدكم » (تثنية ٢٨ : ٦٣) *

فهذا هو الشر الاعظم الذي تأملته انا بزيارتي اليوم سجن جهنم * هل استبان لكم ايها السامعون الاحباء انه توجد فيه تعزية ما : كلاً. لا يوجد فيه شيء من التعزية البتة * فبالصواب قد لقب هذا الحبس الشنيع في الكتاب الالهي « بموضع العذابات ». لان العذابات مجتمعة فيه كانتها في مركزها. وليس فيه الا عذاب محض غير ممتزج بشيء من الفرح والتعزية * فلنغلق الآن هذا السجن ولنرد المقاليد مع الملاك الى السماء. ولنختم هذا القسم الاول من الخطبة بكلام القديس مار افرام السرياني حيث قال في ميمره الثاني نائماً « الويل الويل لمن يجرب في نفسه هذه النار والعذابات قبل ان يصدق بها مقتنعاً » انتهى *

القسم الثاني

أنه بعد ان اتضح حقيقة العذابات المرة القادحة التي يتعذب بها الخطاة في جهنم يجب على كل منكم ان يفرغ جهده وجده في ان ينجو منها * لانه ان كان اخاب الملك لما سمع ايليا النبي يتهدده بشرور اخف جدا من المرتسمة في جهنم. فلوقته عراه خوف شديد حتى انه شق ثيابه الملكية ولبس مسحا ونضح عليه رمادا وصام باكيا (املوك ٢١: ٢٧). فما الذي ينبغي ان تصنعوه انتم الذين سمعتموني اتهددكم بشرور جهنم السامية عظمتها من دون كل قياس * فلا ريب في انه ينبغي ان ترجعوا الى منازلكم جميعا باكين نائحين. بل ينبغي ان تركضوا الى الاديرة مسرعين. وليس ذلك فقط. بل ان تسجنوا انفسكم في المغاير مخنلين زاهدين في الدنيا * ومع هذا اقول لكم انه بالصعوبة يوجد منكم من يبذل مجهوده كله في ان لا يهلك * وتصديقا لذلك اقول ما اكثر الذين يقرون انهم راضون ان يذهبوا الى جهنم اكثر من ان يبتدوا تلك العشرة الملعونة التي هم يتنعمون بها * ما اكثر الذين يستحبون جهنم افضل من ارتداد المال الذي اخنلسوه ظلما * ما اكثر الذين يشاءون جهنم افضل من رد صيت القريب الذي طعنوه بالسنتهم * ما اكثر الذين يفضلون جهنم على مصالحة غريمهم * اما سمعتم المسيح ينادي ويقول قولا صريحا «ان الطريق التي تؤدي الى الهلاك رجة واسعة» (متى ١٣: ٧). ومن ذا يمكنه ان يصف كثرة عدد الذين يهلكون على ممر الزمان * اسمعوا هذا الخبر وارتعدوا خائفين * كان في مدينة باريس رجل من عظام المدينة قد دنت ساعة موته. وكان عزيزا لدى اسقنها. ولجل ذلك ذهب الاسقف اليه لكي يزوره في ساعته الاخيرة. فبعد خطابه معه طلب منه ان اذن له الله تعالى ان يتراسى له بعد وفاته ويخبره بما سيجري له في الآخرة * فوعده العليل بذلك. وبعد ايام قليلة مات * وبعد انقضاء شهر من وفاته اذ كان الاسقف جالسا وحده في مخدعه يناو كتابا. اذا بالميت

صديقه ظهر امامه متسربلاً بجلباب اسود. بل كان بجلبته حزينا مغتماً. فحصل
الاستف مبهوتاً من هذه الرويا * ثم شجع نفسه وسأله : من انت وما هو قصدك
ههنا * فقال المبت : انا صديقك فلان واتيبت لانجز لك وعدي. ولاجل هذا
اقول لك من قبل الله انني هالك في جهنم الى الابد لاجل خطيئتين وهما الكبرياء
والزنا * فافتكروا يا ايها السامعون واعنبروا مقدار الحزن الذي شمل الاستف
وكم رثى وناج على ملاك صديقك ذلك الشقي. ثم سأله قائلاً : هل يمكنني ان اقدم
لك عوناً ما او مساعدة * فقال الهالك : انني اتعجب من سؤالك هذا :
اما علمت حتى الآن انه ليس في جهنم خلاص الى الابد * ثم قال الهالك : وانا
اسالك ان تخبرني عن شيء واحد : كم لي من الزمان منذ فارقت الحياة * قال
الاستف : انه في هذا اليوم قد تم لك ثلاثون يوماً منذ وفاتك * فلما سمع المبت
ذلك. هتف بصوت اسيف وقال : اثلاثون يوماً اثلاثون يوماً لا غير. الويل الويل
الويل * فسأله الاستف قائلاً : ما بالك تصيح هكذا * قال : الويل لنا نحن الهالكين
لقد ظننا جميعاً ان يوم الدينونة الاخيرة قد دنا * فسأله الاستف قائلاً : ولأي
سبب ظنتم ذلك * قال : لان الانفس تهبط في جهنم كما يهبط البرد من السماء.
ومن ثم ظننا ان العالم فرغ من الناس واضحت الدينونة قريبة. قال هذا وصرخ
صراخاً آخر اربع وتواري عنه * اسمعتم ايها المسيحيون الاعزاء . افهتم ما خبر به
هذا الهالك بقوله ان الانفس تهبط في جهنم شبه البرد * فاذا لنا ان نخاف كثيراً
من ان يوجد احد من الحاضرين ههنا في عدد الاشقياء الذين سيهتجون في
انفسهم وبالعامل ما نحن الآن تصورناه في العقل فقط * لعربي انه لا يمكن ان يخفى
كلام اشعياء النبي العظيم حيث قال « اوسعت الحميم نفسها وفتحت فاهها بلا انتهاء »
(اشعياء ٥ : ١٤) * يا ما اوسع فم جهنم وما اعرضه . لانه لن يشبع الى الابد . ومن
قبل ذلك من تراه يستطيع ان يعدد الانفس التي يتلعها كل يوم « فتحت فاهها
بلا انتهاء . بلا انتهاء » *

فما الذي بقي لي إذا في هذا الصباح ان اصنعه سوى ان اجري من
 عيني نهريين من الدموع باكيًا من غير تعزية على كل هؤلاء المسيحيين الكثيرين
 الذين يعاينون جهنم مفتوحة بازاءهم . ومع ذلك لا يرتدون الى الوراء قدمًا واحدة .
 لكن يتهورون في نيرانها تعمدًا واخنيارًا * قفوا يا ايها الاغبياء الاشقياء لا تعجلوا في
 تهوؤ نفوسكم . وقبل ان تطفروا الى تلك الهاوية المرعبة هذه الطفرة العظيمة . دعوني
 اسالكم مع اشعيا النبي ايضا قائلاً « من منكم يقدر ان يسكن مع النار الآكلة .
 من منكم يلبث مع المواقيد الابدية » (اشعيا ٢٣ : ١٤) * مهلاً يا معشر المسيحيين *
 انني استُ اسخ لكم ان تخرجوا من هنا ان لم تمنعوني اولًا بالجواب على السؤال
 الذي اورده عليكم من كلام اشعيا ونقولوا لي « من منكم يقدر ان يلبث مع المواقيد
 الابدية » * ماذا نقولن ايها المرأة المترفة المعيشة التي تمنعني جسدك وتخصيبه .
 انقدرين ان تلبثي مع المواقيد الابدية . والحال انك لا تحمليين الآن نحس ابرة في
 جسدك . وبعد ذلك انقدرين ان تحملي في جهنم نقطع تلك الفؤوس البرهوية
 التي نقطع وتسخق حتى العظام ايضا * وماذا نقول انت ايها الانسان الذي تطلب
 مجتهدًا لذة جسدك وراحته . انقدر ان « تلبث مع المواقيد الابدية » مع انك الآن
 لا تطيق ان تستنشق نتانة الفقير اذا دنا اليك وفاحت نحوك نتانة خلتانته الرثة .
 وهل تستطيع بعد ذلك ان تطيق صديد تلك البالوعات المجهنمية السحجة التي
 يلزمك ان تطر وتغشى بها * وماذا نقول انت يا ايها الكاهن المتواني عن تادية
 ما هو مفروض عليك . انقدر ان « تلبث مع المواقيد الابدية » والحال انك تضجر
 من المكث في الكنيسة ساعة واحدة في تلاوة فرضك حسب اللائق من غير
 ان تحوّل نظرك يمينا وشمالا . وتشتت فكرك الى هنا وهناك ومن غير ان تستغر ضابطًا
 رجليك ولسانك . فهل تستطيع بعد هذا ان تلبث مدة الابدية كلها رقادًا على سرير
 من نار ومستمعًا دائمًا صراخ الشياطين في اذنيك * وماذا نقول انت يا ايها الشرع
 النهم . ويا ايها السفیه اللسان . ويا ايها المفسد . ويا ايها الشاب المطلق العنان لهوى

جسدك « اتقدرون ان تسكنوا مع النار الآكلة . من منكم يلبث مع المواقيد
الابدية » * ولكن ما بالي تكلمت وسألت الآخرين وتركت نفسي . فالاجدر بي ان
اسأل نفسي قائلاً « هل تستطيع أيها الواعظ ان تسكن مع النار الآكلة » *
نعم انني بنعمة الله راعب ومتوشح بالاسكيم المبارك الملاكى . لكن الويل لي . فاني قليل
التقشف والصبر وكثير الابطال . ولم استعد قط كالواجب ان اتوب توبةً نصوحاً
تناسب خطاياي وذنوبي الكثيرة * فان كنت انا الآن لست اطيع ان البت
زماناً ما لابكي على ذنوبي بتجشع تحت قدمي سيدي المصلوب . فكيف اقدر ان
البت فيما بعد تحت رجلي ابليس في مدة الابدية كلها . والحال انه تحت قدمي
هذا العدو الظالم قد اعد الله تعالى المكان لقرنائي المشبهين بي اعني الذين
الزمو من باب وظيفتهم ونذرهم ان يجعلوا غيرهم صالحين . وقد نالوا من الله تعالى
لهذه الغاية مقداراً عظيماً من النور والمعرفة وسائر النعم السهوية . ومع ذلك ما
وفقوا انفعالهم مع اقوالهم * فماذا يصير بنا « اتقدر ان نسكن مع النار الآكلة .
ونلبث مع المواقيد الابدية » . لا يا رب لا . لسنا نستطيع ذلك . ولاجل هذا
اسالك الرحمة والرافة لي ولهؤلاء المومنين بك المجتمعين لاستماع وعظي * لقد
اخطأنا لاشك . ولسنا ننكر ذلك « اخطأنا علينا بالنفاق . فعلنا سوءاً ايها الرب
الهنأ في جميع مبارك » (باروخ ٢ : ١٢) * ولاجل ذلك لا نجسر ان نطلب منك ان
ترفع عنا قصاص عدلك . قاصصنا وعاقبنا لاننا مستحقون ذلك « جاز المستكبرين »
(مزمور ٩٣ : ٢) * غير اننا نتوسل اليك باحشاء رحمتك ان لا نقضي علينا بالمحجم
قصاصاً عن خطايانا * يا ايها المحجم يا ايها المحجم . هذه التي ذكرها فقط هو كاف
ايوعبنا جميعاً هيبه ورعبة * نسالك يا يسوع الهنا لا بفضلنا . لكن بحق اتعابك وبحق
دمك المهرق لاجلنا . ان لا تسمح بان تكون من نصيبنا لعله آثامنا « ادبنا يا رب .
ولكن بالقضاء لا برجزك » (ارميا ١٠ : ١٤) * ها هوذا نحن مستعدون ان نفيك في
هذه الحيوه الدنيا كل القصاص الذي تشاءه منا . قائلين مع اوغسطينس قديسك

المعظم «احرق ههنا واقطع ههنا لكي تغفر لي الابد» * ابنا بالفقر لكي تسامحنا الى الابد . ارسل لنا العار لكي تسامحنا الى الابد * اضعنا بالامراض لكي تسامحنا الى الابد . احزننا واشقنا واضربنا وافعمنا من البلايا والشور ههنا . لكي ترحمنا وترفع عنا البلايا والشور الابدية * اما نحن فما الذي ينبغي لنا ان نصنعه يا ايها المسبحون لنستحق هذه الرأفة من الله تعالى الذي اذنبنا اليه : لا تعبوا وتفنشوا عما ينبغي ان نصنعه . فانا اقوله لكم بكلام مختصر . وهو انه ينبغي ان نتوب . ينبغي ان نتوب * بحق دلينا ان نجعل حدا للهلاهي الباطلة والشهوات السيئة السجدة . ونعرض تحت قدمي الكاهن الاقرار بخطايانا ونحومها بالبكاء والدموع . ونفي عنها بالاصوام . وننديها بالصدقات . فهذا يعني لننجو من جهنم * ولكن بعد هذا لست شعري هل يوجد من يعصي ويأبى ان يصنع ذلك . فان كان يوجد هذا المنكود حظه . فيكفني ان التفت الى الله تعالى واستشهده على اني قضيت ما كنت ملتزما به * فما الذي استطع ان اقول واصنع اكثر مما قلته وصنعت . قد بح صوتي وضاق نفسي . وضعفت قوتي . ثم اني ايضا اشعر بجسدي كانه يتصبب عرقا غزيرا * فان كان مع هذا يوجد هنا احد من الخطاة المجانين يوثر ان يهلك . فليعط هذه النعمة التي يبتغيها . وليبد «وبستاصل الى دهر الدهرين» (مزمو ٩١ : ١٨) * ولندعه في ظلام عقله . وايضحك ويفرح ويتنعم على هواه الردي حتى المات * وحينئذ اذا اتفق له وفتح عيني نفسه وابصر غيبه وغروره . فلا تغته يا رب . واذا صرخ اليك طالبا منك الرحمة . فاغضب عليه ولا تستجب له . واذا طلب منك مهلة ليعمل توبة . فلا تمنحه اياها . واذا التمس الغفران . فاسدد دونه الباب * العلك تمناج الى مثل هذه النفس المزرية بك لتزيد عدد مسجيك في السماء * دعها تعربس وتهلك وتباد حسب استحقاقها . لانها لا تستاهل رحمتك ومحبتك «فليكونوا ساقطين امامك . في وقت رجرك اعمل عليهم» (ارميا ١٨ : ٢٢) * وان كنت لا تشاء ان تفعل هذا معهم . بل لا تزال تحب كثيرا ان تزرع نعمك الالهية . فانظر بعين المحبة والرافة الى شعبك هذا السامع لي برغبة واشتياق .

ويأتيت اليك ويسالك غفران ذنوبه * اجعل ندامتهم ان تكون فائضة عليهم
كالبحر. لكي تبندى الدموع السخينة ان تهطل من اعينهم وترحض خطاياهم * استجب
دعائهم واقبل تضرعاتهم . واجعل هكذا ان يتضح صدق كلامك وهو انك
وضعت قدام الناس الماء والنار حسبما قلت « جعلتُ امامك الماء والنار »
(سيراخ ١٥ : ١٧) * وماذا بقي لكم ان تفعلوا يا احبائي السامعين سوى هذا . وهو ان
يختر كل انسان ما يُحِبُّ « فامدد يدك الى ما تريد منها » اي اما ان تبكوا ههنا
في الارض زماناً قليلاً مع التائبين . وهذا هو الماء الذي جعله الله تعالى امامكم .
واما ان تحرقوا الى ابد الدهور مع الهالكين . وهذي هي النار التي جعلها عز اسمي
امامكم ايضاً * والسمع لله دائماً *

الخطبة الخامسة عشرة

في ذكر الضربات الهائلة التي بها ضرب الله تعالى البشر حتى في جبلنا هذا ايضاً وذلك
لاقناع الخاطي المتمرد ليخاف الله سبحانه . وان كان لا يصدق رعد التهديدات
الالهية ولا يخشى منها . فنذكره الصاعقة الربية لا محالة

« الاردياء بالردى يهلكهم » هكذا حرر مرتني في الاصحاح ٢١

من بشارته : ٤١ *

القسم الاول

ما هي الغاية التي لاجلها امرتني يا يسوع الهى ان اظهر اليوم على هذا المنبر .
الذي اندر هذه المدينة المومنة المستحقة كل خير بالعقوبات والضربات المقبلة عليها :
لا يكن ذلك يا رب * فان كنت تشاء ان اخدمك يا الهى وامثل امرك الهى

نظير يونان النبي . فارسلني الى مدينة تشبه نينوى . اي مدينة غير مومنة منافقة
ترتكب اقبح الجرائم من دون حياء وبلا خوف منك * وحينئذ امتثل امرك باكل
الطاعة . وانذرهما مخبراً ايها بارهب الضربات واعظم الخراب كما تشاء انت *
ولكن اذ قد ارسلتني الى مدينة مومنة ايماناً مستقيماً . فباية بشائر يسوع لي ان ابشرها
سوى بشائر الفلاح وطول العمر . وسعادة الاوقات . وخصب الغلات * فهكذا
ارغب واطلب ان يكون ذلك يا ايها السامعون الكرمون . ولكن من ذا الذي
يركك عندي هذا الامر وها اني اري عياناً الاثم قد امتد واتسع ودخل وامتلأ في
كل مكان * فآخاف يا مدينتي يا فلانة ان يكون قد توافر فيك ايضاً الاثم حتى
انه صار قريباً ان يحرك رجز الله تعالى عليك * ولكن كيفما كان الامر . فاستمعوا
المناداة الصريحة التي يشاء الله عز وجل ان انادي بها فيك على سائر الوجوه :
«الاردياء بالردى يهلكهم» * ان الله جل ثناؤه لا ينظر الى قدم النسبة . ولا يلاحظ
فضل السلفاء . بل من كان خاطئاً يعاقب باثمه * انني اسالكم فاجيبوني : اية مدينة
شوهدت في العالم محبوبة وموقرة لدى الله تعالى اكثر من مدينة اورشليم : انه
سجانه وتعالى كان قد اسسها بمنزلة جنة حسنة محبوبة لتطيب خاطر منضلاً ايها
على جميع اكام بلاد فلسطين واخصبها وانصرها . واعطاها شريعته المقدسة كالسياج .
واضاف لها حمايته كالحصن المنيع . واستاصل منها الغروس الشاكة التي كانت
تكاد عليها . اعني شعوب الكنعانيين والعمونيين والاموريين وغيرهم من الامم الذين
كانوا ينعصونها ويسجسون راحتها * وبني فيها كالقلعة هيكله . واقام فيها مذبحه
كالمعصرة . وعلى الاطلاق اقول انه لم يترك شيئاً من النفقة والصناعة الا وبذله لها .
ولاجل ذلك قال عنها في نبوة اشعيا «ماذا وجب ان اعمل بكرمي افضل ولم اعمل
به» (اش ٥ : ٤) * ومع ذلك فكيف هي الآن : اذهبوا وعابنوها . فترودها قد صارت
خراباً وقفراً * ولاي سبب : السبب ليس هو الا لانها ما ارادت ان تصدق المناداة
الانجيلية المنتدم ذكرها . اي قوله تعالى «الاردياء بالردى يهلكهم» * واعلمكم تقولون :

مالنا وهذه التهديدات والتخويفات « لا ينزل بنا الشر » (ارميا ٥: ١٢) * لكون هذه هي الكلمات التي كانت تُسمع قديماً من افواه الاسرائيليين منذ عصر ارميا النبي « الانبياء تكلموا باطلاً » (١٢: ٥) * ان هولاء المبشرين يؤثرون ان يخيفونا ويسجسوننا فقط . فلا نبالين بهم . هاتِ نسعَ بامتداد حياتنا ولا نكدرن انفسنا ولا نخزنها . بل لنعيش بالفرح والسرور والعشرة المطربة « لا ينزل بنا الشر » * آهاً منكم يا أيها العبرانيون المردة « الستُ اعاقب على ذلك يقول الرب . ام من قوم مثل هولاء لا تنتقم نفسي » (ارميا ٥: ٢٩) * اعطوا مهلة قليلة لرجز الله . وبعد ذلك تنظرون ماذا يحل بكم * ولماذا لا نعتبر نحن يا أيها السامعون بغيرنا . لانه يمكن ان يوجد من المسيحيين من يحنق الله تقدس اسمه كأنه عاجز . ويقول دائماً « لا ينزل بنا الشر . لا ينزل بنا الشر » * ولاجل ذلك ها انا قد قصدت اليوم ان اجعل موضوع خطابي هذا الامر وهو ان اخزي القوم الذين لا يصدقون وعيد الله وتهديده * وابين لهم من قبله تعالى انهم ان لم يريدوا ان يصدقوا في حين ملائم لخلاصهم الرجود^(١) الالهية . فتنزل عليهم ايضاً الصاعقة الربية بعد قليل من الزمن *

ان اقوى الدلائل التي لنا على رحمة الله التي لا حد لها هي التهديدات المخوفة التي قد اعناد دائماً ان يردد بها على الخطاة . وليس له تعالى بها سوى هذا النصد وهو ان يعطيهم زماناً للانتباه والخلاص * لعمرى ان الذي يتقدم فيتهدد كثيراً يظهر على نفسه انه لا يحب ان يضرب ويقتل . وقد قال الفيلسوف الحاذق العقل : ان التهديد ليس هو شيئاً الا ترس المهدد حيث انه يمنحه زماناً ليهرب ويخلص او يتحذر ويتحصن جيداً * وفي هذا قال القديس اوغسطينس في خطبته الثامنة والثلاثين في القديسين « انه لو اراد الهنا ان يعاقبنا . لما نهبنا قبلاً منذ كل هذه الدهور . فاذا يعاقبنا وينتقم منا اذ يعلنا قبلاً كيف نستطيع

(١) اعلم ان الرجود يراد بها جميع اصناف ضربات هذه الدنيا . والصاعقة كناية عن خانمة الضربات اي الهلاك الابدى في نار جهنم *

ان نصدّ عنا عقابه. لانّ من يبدي نحرًا صراخًا كثيرًا لا يجب ان يجرّك»
 انتهى * ومعنى كلام القديس هو هذا: انّ الذي ينبهك ويقول لك احذر من الضربة
 قبل ان يضربك لا يكون له ارادة مطلقة ان يضربك. ولجل ذلك قال ايضا
 القديس اوغسطينس في خطبته المذكورة انّ الله تعالى لو انسرّ والتدّبّقصا صنا.
 لما كان يقدم الرعد على الصاعقة. ولا البرق على الرعد * ولهذا لم نقرأ ولم نسمع
 قط انّ الله عزّ اسمه ارسل ضربة الى العالم قبل ان يتوعّد بها بوجه عام او بوجه
 خاص * وهذا هو السبب الاكبر في ارساله الانبياء الى شعبه في اوقات مختلفة *
 واثباتنا لذلك اصغوا الى ما اورده الآن على سماعكم. فاقول: انّ الله تعالى لما اراد
 قديمًا ان يعرف شعبه الاسرائيلي بنجراب املاكهم ودمار خيراتهم. فإذا فعل: ارسل
 اولًا اشعياء النبي يبشّره طائفًا المدينة عريانا (اشعيا ٢٠: ٢) * ولما اراد ان يشتم
 شعبه ويجعله مع اولاده ونسائه اسيرا للشعوب الغريباء. ارسل قبلا ارميا النبي
 ينادي بذلك طائفًا المدينة جاملا على منكبيه القيود (ارميا ٢: ٢) * واذا اراد ايضا
 ان يعاقب شعبه بالجموع الشديد المواني على المحاصرين. جعل حزقيال يلبث راقدا
 على جنب واحد ثلاثاوية وتسعين يوما لا ياكل شيئا سوى قدر البقر ميبسا مطحونا
 دقيقا وخبوزا بالنار كآرغنة خبز (حزقيال ٤). وذلك تنبيها للجماعة الشديدة
 المقبلة عليهم * وهكذا فعل ايضا منبها بضرباته قبلا في اوقات اخر حينما بعد حين *
 وهذا كله انما كان اندارا للشعوب ليجذروا ويكوا على خطاياهم ويصلحوا سبيتهم
 ويهربوا من وجه رجزه * وقد تأمل ذلك داود الملك القديس فهتف قائلا:
 « اعطيت الذين يتقونك علامة ليهربوا من قدام الفوس لكيما ينجوا احباؤك»
 (مز ٥٩: ٦) * ومع هذا من ذا لا يندهل من جهل الناس وقساوة قلوبهم. ان يرى
 ان جميع هذه العلامات والتهديدات التي ابداهها الله تعالى لم تستطع ان تعطف
 قلوبهم ليصدقوه ويخافوه * وان ذلك فكما كان هو تقدس اسمه يتعب ويجد بالتهديد
 قائلا. انه « يهلك الاربيا بالردى». كانوا هم يجتهدون على ازدياد خطاياهم واغاضته

تعالى كأن كل واحد منهم كان حافظاً مطبوعاً في قلبه مجروف غير معصية الرأي
المفعم عناداً. ادني القول «ان لم ابصر لا اومن» (يوحنا ٢٠) * وما الذي نتج ايها
المسيحيون من قلة التصديق سوى انها الزمت الله تعالى فيما بعد ان ياتي بالشدائد
والعقوبات التي كان قد تهدد بها * نعم ان هذه اي قلة التصديق خرقت العالم
الاثيم في طوفان المياه لما ابي ان يصدق نوحاً الذي انذره به (تكوين ٧) * وهذه
انزلت من السماء مطراً نارياً على سدوم الدنسين لما ازروا بكلام لوط الذي اعلنه
لم (تكوين ١٩) * وهذه اهلكت المصريين في بحر القلزم لما قسوا من جرى العلامات
التي تقدمت لهم * وهذه جعلت جماً غفيراً لا يحصى عدده من الاسرائيليين يموتون
بالمشقات والدواهي في البرية لانهم ردوا وصايا موسى الذي تقدم فاعلمهم بذلك
(خروج ١٤) * وهذه اهلكت وابدت جيش الكلدانيين تجاه بيت فالو لانهم
هزأوا بكلام احيور الذي حثهم لم ذلك قبلاً (يهوديث ٥: ١٥) * ولا رحمنا الله يا ايها
السامعون ولا ياذن ان تكون ايضاً هذه اي قلة التصديق سبب الضربات والشورور
الكائنة في عصرنا هذا * اه والسفاه من قولنا انه «ليس لنا ان نسرع ونخاف وانه
لا ينزل بنا الشر» * ليت شعري ما الذي تطالبونه ايها الخطاة لكي تصدقوا:
اتطلبون ان تبصروا باعينكم كيف ان سجانته وهو جالس على عرش مجده في السماء
له اعين يشاهد بها خطاياكم. واه قلب يحس بها. واه ايد يعاقبكم بها * وهل تلتمسون
ان تبصروا ايضاً كيف الله تعالى يعاقب خطاياكم بالعقوبات التي يتوعدكم بها *
فها انا راض بطالبكم هذا. ولكيما نتحققه عياناً. فلا حاجة لكم ان تطوفوا بالفكر
والتأمل في الضربات التي شوهدت في احقاب آخر. بل صدقوا بصائرکم في
حوادث عصرنا هذا الذي نحن فيه احياء * لان الموضوعات الحاضرة شانها ان
تحررنا نحريراً اكثر من الموضوعات التي سلفت *

فاجيبوني: اما اظهر الله تعالى لنا عياناً في عصرنا هذا ان تهديداته ليست
بكاذبة كما نتوهمون انتم. بل انها صادقة خلافاً لما تبتغون حينما تقولون انه ليس

ينزل بنا الشرُّ العلكم خالون من الاعين لتعاينوا هذا المقدار الجزيل من سواقي
الدماء ومن تلال العظام ومن آكام الجثث التي ترى كل يوم في دهرنا هذا *
لعربي ان جلتم قليلاً في العالم. فانكم تعايينون بعيونكم انه لا يوجد في بلاد اوروبا
مملكة او بلدة او مقاطعة او مدينة الا ويسمع على ابوابها في عصرنا هذا ضجة الطبول
الحربية وصوت الابواق ورنه البنادق والمدافع. فلا ايطاليا ولا اسبانيا ولا فرنسا ولا
جرمانيا ولا فلاندر ولا انكلترا امكنها قط ان تفوز براحة لذيذة او بوسن امين *
وماذا نقول عن عدد الرجال الذين قتلوا وبادوا في هذه الفتن العامة. ومن
ترأه يستطيع ان يحميها * ويكفيها القول انه في الواقعة الاولى من الحرب التي
صارت في عصرنا هذا في فتح مدينة اوستندا لم يكن الذين بادوا اقل من ثمانين
الف نسمة * ومن هذا فقط انجوا عظم تفاقم المقتلات التي صارت من البشر في
المواضع الاخر الكثيرة مجروب عظيمة وازمنة مستطيلة ولكن مالنا والتكلم في الاشياء
التي لا علم لنا بها. والحال اننا نستطيع ان نتكلم في ما نراه كل يوم بعيوننا من غير
ان نظوف جائلين في اقاليم اوروبا * قوالوا لي : كم من الاملاك كانت سابقاً ترى
عامرة تشرح خواطر الناظرين اليها . واليوم تشاهدونها مقفرة * كم من الصحارى
المخضلة المخصبة قد اضمحت اليوم جافة محترقة * كم من القرى الجامعة نبصرها اليوم
قد غدت برية كالغاب * كم من المدن المتسعة العظيمة صارت الآن بوراً خراباً *
ليت شعري اما هذه الضربات كلها هي انجاز الضربات والنهديدات المخوفة التي
تهدد الله تعالى بها قائلاً « اذا رذلتم سني اخترط في اثركم السيف . وتكون ارضكم
للفساد وقراكم للخراب » (لاويين ٢٦ : ٢٣) * فهل عاد يسرع لك اذا با ايها الخاطى
ان تقول انه لا « ينزل بنا الشر » : افصح حدقتك وانظر رغماً عنك ما حدث في
مورازمنة قليلة من الفتن المستغربة العظيمة التي حدثت في ام لا يحصى عددها .
لانه في ايامنا هذه ها اننا نعاين السجس لا يزال متصلاً على الدوام في الملكات
والمدن . تارة في جرمانيا . وتارة في برتوغال . وتارة في كتلونيا . واحياناً في انكلترا .

واحياناً في باريس . واحياناً في نابلي . واحياناً في فولونيا * ولقد سُوهِد في هذا السجس
 اناس خُطفت ثرواتهم . وآخرون سُلِبَت عروضهم . وآخرون صاروا اسارى . وآخرون
 هُدمت قصورهم . وغيرهم انقصت حياتهم . وغيرهم فُضِح صيتهم ايضاً . واية ضربات
 سُمعت نظير هذه في احتاب اخر * اولعل ايطاليا بلادنا هذه لم تنل حصتها من
 هذه الضربات : لعمرتي انه ليس لكم ان تنسوا دثار مدينة مونفراتو . ولا خراب متوا
 ولا شدة تورينو العظيمة * وما عدا ما ذكرناه فلو كان احد منكم يطوف جائلاً
 ويرغب ان يعاين في مواضع اخر ما تكبده الكاثليكيون من الهراطقة واحتملة
 النصارى من الوثنيين . والذي هو اشرف من ذلك المسيحيون من المسيحيين انفسهم .
 لكان بلاشك يشعرون الحجة من الارتعاد والهول * وماذا يقول اذا ابصر الآثار الباقية
 حتى الآن في حقول بلاد اللية او الفولونيين من قبل ثلاثماية الف جندي من
 المسلمين والترالدين استاقهم الى هناك السلطان ابن عثمان . ومع ذلك فان الشر
 الذي اصطنعه في تلك البلاد قبائل كوساكا بل اهل بلاد اللية انفسهم هو اعظم
 جدًا من الشر الذي جلبه عليهم المسلمون والتر * ويا لوفور بلائك يا بلاد جرمانيا :
 اذ انه حتى الآن يرى فيك ايضاً آثار دخان الحريق الهائل الذي القاه فيك عدوك
 ذاك المنتصر عليك اعني غُستاف . وذلك اذ طاف كل اقطارك بمنزلة الصاعقة
 المهلكة . وامتلك في زمن يسير مدينة اريبوليس وبمَرغا وماغنزرا واوغسطا واكثر
 اقطار فربكرونيا وسوبيا والبالاتينات * وماذا نقول عما احدثه الملك الذي استولى
 عن قرب على بلاد وارادين ونتريا ونوارينوس . وعلى جانب كبير من المجر . اليس
 هو مهناً كل يوم ان يدخل بجمشه الى اقاليم اخر من مملكات المسيحيين . فنراه
 يسجس دائماً تجارنا بلصوصه واحياناً مراسي بحورنا بنهبه . واحياناً املاكنا بغنائمه .
 ولاجل ذلك لو استطاعت جزيرة اقريطش ومورا اللتان سقطتا اخيراً تحت رق
 عبوديته ان تسمعنا شداًئها وبلاياها التي جلبها عليها . لكانت تهطل من
 عيوننا الدموع السخينة * واقول بحصر الكلام انه لا يوجد عصر لم يبصر بعينيه مقداراً

وافراً من ولايات اضمحت خراباً وغنيمة للحروب . حتى لا اقول حكماً بل ملوكاً
ايضاً اصجوا معتقلين في السجون ومنهم قتلى بجدّ السيف . والذي نجا من السيف
العله استطاع ان ينجو من الجوع . آه والسناه . انه يتبين لي من هذه الحوادث المحزنة
انني استطيت ان اهتف مع ارمياء النبي قائللاً « ان كنت اخرج الى الصحارى فاذا
قتلى بالسيف . وان كنت ادخل الى القرية . فاذا هزال بالجوع » (ارميا ١٤ : ١٨) *
فليتكلّم كلّ هذه الجماعات الذين كانوا منذ سنين كثيرة رائقين بالكثرة والثروة
وانقطعوا الآن واضمحّلوا . وليتكلّم كلّ هذه الجماعات الجزيلة التي نشاهدتها الآن
بادت وتلاشت . وليتكلّم كل هؤلاء الارباب الاغنياء الذين اخطروا الآن ان
يجولوا الارض متسرّلين * العلل هذه النكبات هي مجرد نفسها قليلة حتى اقتضى
ان تزيد لها السماء اضعافاً بالمحل والقحط ايضاً * ثم انه من مدّة وجيزة امطرت في
بودا مدينة المجر رصاصاً عوضاً عن الماء . وذلك لكي يصح فيها بالمعنى الحرفي الوعيد
الاهلي القائل « فلتكن السماء فوقك نحاساً والارض التي تدوسها حديداً » (تشية
٢٨ : ٢٢) * ولكن هذا الجندب والقحط قد أتى علينا غالباً في بلادنا هذه من باب
آخراي من فيض المياه الكثيرة . ومن جرى ذلك كانت قوى الناس تهزل في
كلّ مكان . وصاروا عاجزين عن العمل لشدة الجوع * وفي أيام تلك المجاعة العظيمة
قد كنت انا في مدينة رومية ملكة العالم . وشاهدت بعيني الفقراء الذين كانوا
يموتون في قارعة الطريق كلّ يوم . مهزولين بعضهم بالجوع . وجافين بعضهم وبابسين
من البرد . ومع ان ذوي الخير الذين كانوا يسرعون الى اغاثتهم كانوا كثيرين جداً
لم يكونوا يستطيعون ان يكفّوهم جميعاً لكثرتهم * وان كانت هذه حال المدينة العظيمة .
فليت شعري ماذا تكون حال القرى والضياح والحقول التي فيها كانت الفاقة
اباغ . والمغيثون اقل : انه بالحقيقة لقد صحّ في هذا قول الله تعالى الذي انذره
قائللاً « يضربك الرب بالسل وبالحمي وبالبرداء والحرقه والجفاف وريح السموم
والذبول » (تشية ٢٨ : ٢٢ وارميا ١٤ : ١٦) *

وماذا اقول عن ضربة الوباء التي تقفر غالباً المدن والقرى لكثرة الموتى الذين يموتون بها . فانتم من انفسكم تفهمون كم تفرح هذه الضربة وتخيف وتولم . ولاجل ذلك يسوغ لي ان لا ابسط الشرح فيها * العَلَّ هذا كَلُّه لا يجعلنا ان نصدق اكيذا بان الله تعالى منجز ما قد توعد به قائلًا « ويجعل الرب ضرباتك ضربات عجيبة ضربات عظيمة راححة وامراضاً رديّة ثابتة . وتصير طرقكم خالية » (تثنية ٢٨ : ٥٦ ولاويين ٢٦ : ٢٢) * فما الذي تجيب به الآن أيها الخاطي . اعساك ان تبقى مصرّاً على رايتك العنيد بانّه « لا ينزل بنا الشر » * فما الذي تطلب ان ترى ابلغ مما اوردناه لتتخفق ان الله « يهلك الاربياء بالردى » * العلك تطلب ان ترى اراضي يبلعها الماء . سل فلاندرافتم تبرك بهذا . ام تحب ان تبصر تحولاً اكلتها النار . سل نابلي : ام تريد ان تعالين اما انفتحت الارض تحت اقدامهم بالزلازل وابتلعنهم احياء . سل كلبريا فتعلمك بهذا * بل اقول لك ايضاً ان الزلازل توافرت في اماكن اخر جداً حتى انها اربعت قلوب الشعوب وجعاتهم يهرون خوفاً وفرقاً ايّاماً كثيرة من القرى الى الصحاري ومن الصحاري الى الغابات . ومع ذلك لم تكن الارض تكف من التزلزل من تحت اقدامهم ايما هربوا . حتى انهم احنسبوا في الليل والنهار انهم حاملون الموت على مناكبهم ومشاهدون كل وقت قبورهم مفتوحة امامهم * الم يتضح بخوفهم هذا العظيم انه قد منجز وعيد الله عياناً حينما قال « تفرح ليلاً ونهاراً ولا تامن على حياتك فتقول في الصباح يا ليتني امسيت وفي المساء تقول يا ليتني اصبحت من اجل ارتعاب قلبك الذي به انت مرتعب ومن منظر عينيك الذي تنظر » (تثنية ٢٨ : ٦٦) * اعساك ان لا تكف ايها الخاطي من القول انه « لا ينزل بنا الشر » قصاصاً عن خطايانا لا ينزل بنا الشر . والحال ان الذي ذكرته لك حتى الآن من الضربات والشدائد التي وردت على البشر لعلّ الخطايا قد عاينت انت بنفسك بعضها بعينيك . وبعضها قرأته مسوّناً في كتب النوارخ . وبعضاً منه سمعته باذنيك من شهود لا يكذبون * ومع ذلك هل تحتاج برهاناً اقوى من هذا ليقنعك بان الله

جئت قدرته ينجز بالعمل وعيده الذي توعدته بقوله انه «يهلك الارديا بالردي» *
ولكن يا لغباوتي وانخداعي. ما بالي قد اجهدت نفسي بهذا المقدار من التعب
حتى الآن لكي اخزي الخطاة على عدم تصديقهم بتهديدات الله. والحال ان الذي لا
يبصر الضربات المؤلمة الغربية التي تحل كل يوم في الارض فهو اعى تماما. ولذلك
اقر لديكم بالحق اني قد غاطت بقولي لكم ايها السامعون اننا لانريد ان نصدق ما لم
نشاهد باعيننا. وكان الاوجب ان اقول اننا لا نصدق ولو شاهدنا بعيوننا * وهذا
الاثم اعني عدم تصديقنا عظيم جدا لا يوجد اثم اشنع منه. لانه نظير ما قاله ارميا
النبي حسبا ترجم القديس قبريانس في رسالته الى ديمطريوس «ضربتهم ولم يريدوا
ان يصدقوا» (ارميا ٥: ٢) * فكانه يقول: انظر كيف هي سجة الخطاة. فانهم ما داموا
يستمعون فقط رعد التهديدات يزدرونها ويهزأون قائلين: اننا ان لم نشاهد لا
نصدق * واذا شعروا بصاعقة العقاب. يتردون ويقسون قلوبهم قائلين: اننا لا
نصدق واو شاهدنا بعيوننا * والنتيجة من ذلك انك ضربتهم ولم يريدوا ان يصدقوا.
ولكن كيف يمكن حدوث ذلك يا ايها النبي القديس اليس العتاب ظاهرا ازاء
اعينهم. اما يلسونه بايديهم. اما يشعرون به بانفسهم. فكيف اذا يتفق انهم لا يصدقون *
فيجيب النبي قائلاً لنا: هل تلتسمون ان تعرفوا لاي سبب لا يصدقون. فاعلموا ان
السبب هو انهم «جحدوا الرب وقالوا ليس هو» (ارميا ٥: ١٢). ومعنى ذلك هو
انهم يصدقون لا محالة ان هذه ضربات بل ضربات مؤلمة حقا الا انهم لا يصدقون
انها ضربات من الله تعالى. اي لا يصدقون ان الذي يضربهم بالحروب والغلاء
والوباء وفيض المياه المرذية والحريق والزوباع والزلازل هو الاله المسخط عليهم لسبب
خطاياهم وليس غيره «وجحدوا الرب وقالوا ليس هو» * تقدموا هنا يا ايها الخطاة
واسمعوني. اما شاهد فرعون ملك مصر واضحا الضربات الشديدة التي كانت
تهطل عليه باتصال اي الظلمة التي جعلت نهاره ليلاً مقتماً. والبرد الذي كسر
اشجاره وغروسه. والجراد الذي قحط مزارعه. والنروح التي اكلت رجاله. والطاعون

الذي اباد بهائة * نعم انه شاهدا باسرها ومع هذا قسى قلبه وافرغ مجهوده كله
في ان لا يسلم مدعنا لراي اولي دولته انفسهم الذين اقرؤا له ان « هذا هو اصبع
الله » (خروج ١: ١٦) * فارسل ودعا اليه من كل اقطار ملكته جميع السحرة الماهرين
في صناعتهم لكي يستشيرهم في هذا الامر ويحكموا هل يمكن ان تصدر تلك الآيات
المستغربة من يد اخرى ولو من يد شيطانية غير يد الله تعالى القدير. وأمرهم والزهم
ان يصنعوا آيات مثل هذه. اي ان يميلوا العصا الى تين ويصبغوا المياه بالدم.
ويخرجوا ضفادع من الصهاريج. ويجمعوا ذبابا في الجؤ. ومع ذلك لما ابصر ان
هؤلاء السحرة ايضا انقلبوا اخيرا وسلموا قائلين « هذا هو اصبع الله » العلة سلم
هو ايضا مصدقا ومومنا ان الضربات المذكورة صادرة من الله جلّت قدرته: لا
لعمرى. بل نقسى قلبه اكثر مما كان قبل ذلك. وابي ان يزج من عقله الراي
بان تلك الآيات انما كانت فعلا سحريا من موسى النبي * وهكذا هي صعوبة اكثر
الخطاة في تصديقهم وایمانهم ان الله تعالى هو الذي يضربهم لعلة خطاياهم وليس
غيره * ولكن لا تنتجوا من كلامي هذا اني اريد ان اشبه المسيحيين بفرعون المذكور.
لان قساوة قلوبهم لا تبلغ غالبا الى حد قساوة قلبه. الا انني مع ذلك اقول (وليس
في قولي غلط) انهم يستصعبون جدا ان يصدقوا مقرين بان اليد التي تضربهم هي
يد الله عزت قدرته * واثباتا لذلك اقول انه اذا دخل ذيب مثلا في مواشيكم
وافترس بعضا منها. فخالا تنسبون ذلك الى تواني الراعي وتهاونه * وكذلك اذا
علقت النار في حقولكم واحترقت زروعكم. فانكم انما تلامون خبث جيرانكم * واذا
اعترت اجسامكم حي دقيقة واذابت صحنكم. فانتم تشكون من قلة خبرة الطبيب *
ومثل ذلك غالب الحروب التي تصدر في الارض. اما ينسب اكثر الناس علتها
اما الى طمع الحكام في ان يوسعوا ولاياتهم. واما الى رغبة الرعية في ان يخلعوا عنهم
الطاعة * وكذلك نرى ان تبيد الحقول ونهب القرى والمدن في أيام الحرب
تنسبها الناس غالبا الى شر الجنود المطلق لهم العنان * ومثله انكسار العساكر

وعدم نجاح الحروب. ينسبونها الى قلة خبرة الفؤاد. وتهشيم السفن وغرقها او القاء البضاعات في البحر في حين هيجانه يقوارن ان علة ذلك هو عدم انتباه النوتية * وكذلك اذا زاد الظلم على الرعايا. يقولون انه صدر من طمع الحاكم واولي دولته * وكذلك اذا خسرتم دعواكم في الشرع واتصل لكم من ذلك ضرر في مالكم. فتقولون ان قلة عدل القاضي هي سبب خسارتكم * ولم نكتف بهذا فقط. بل قد اخترعنا ايضا آراءً اخر باطلة ننسب اليها مصائبنا وشدائدنا. نحو قولنا قلة البخت. او الاتفاق او النصيب * وكذلك اذا تهور احد من مكان شاق مثلاً ومات. او غرق في نهر. او احترق بنار. او قتل تحت الردم. وما شاكل ذلك من النكبات. فنقول ان ذلك جرى له صدفةً واتفاقاً. او انه هكذا كان حظاً ونصيباً. حتى اننا نتورط ايضا اكثر من ذلك في الضلال ونجعل لمصائبنا مصدراً من النجوم والافلاك. قاصدين بذلك ان نجعل المبروات المائتة غير الحساسة علة دواييننا لا الله الحي القدير * فيا لنا من اناس قد اعتراهم العنى والهذيان * اننا نعابن التصاص ونحتقته. ومع ذلك لا نريد ان نقر باننا ضربنا به من الله تعالى لعلة خطايانا * فصيح اذا ما قاله ارمياء «انك ضربتهم ولم يريدوا ان يصدقوا. مجدوا الرب وقالوا ليس هو» *

فلا نضل اذا يا ايها المسيحيون ولا نخدع انفسنا بقولنا: ان الله ليس هو علة ضرباتنا لسبب خطايانا بل خليفة اخرى. لان ذلك الخداع عظيم. ولست اعني هنا النجوم والافلاك فقط. فان هذه لا يمكن ان تكون علة ضرباتنا وشدائدنا. بل قد يمكن ان تكون علامات لها وغالباً علامات كاذبة. ولجل ذلك شجعنا ارمياء النبي ونبئنا بان لا نبالي بها خائفين قائلاً «من علامات السماء لا تفزعوا. وهي التي تخاف منها الامم (ارمياء ١٠: ٢)» ويقول هذا عنى ايضا جميع المخلوقات سواء كانت ناطقة او حساسة او غير حساسة * الا نعلم نحن ان هذه المبروات كلها انما هي آلات السخط الالهي فقط. وهذا هو امر موكد ان كنا لا نريد ان نكذب اشعيا النبي القائل «انها

قضيب غضب الرب وعصاه» (اشعيا ١٠: ٥) * فلماذا نضل انفسنا بملاحظتنا
 القضيب الذي يضربنا ولا نبالي باليد التي تضربنا به * فاي غبي جاهل اذا جرحه
 عدوه بالسيف . ينسب جرحه للسيف لا للعدو * واي تلميذ من ابناء المدارس
 يضربه معلمه بقضيب . فيقول : ان القضيب ضربني لا معلمي * واذا امر الملك الجلاّد
 ان يحنر راس مجرم . فهل لهذا المجرم ان يقول : ان علة قتلي كانت يد الجلاّد لا
 امر الملك * فاذا ضربنا الله تعالى ايضاً . فلماذا لا نقرّ معترفين بانّه هو الذي ضربنا
 من اجل خطايانا . لكن نجد قائلين : ليس هو . وفي ذلك نحاكي الكلاب العديمة
 المعرفة والنطق التي تدفق غيظها بعضها الحجر الذي اصابها ولا تلتفت الى الساعد
 الذي رشقه عليها * وان كنتم تريدون يا ايها الاخوة السامعون ان اكشف لكم
 الحق لاي سبب نفعل نظير الكلاب . فاقول اننا نفعل نظيرهم لانه يصعب علينا
 ان نتخذ لنا من ضربات الله تعالى حجة واضحة لنفهم شر خطايانا وننتبه لانفسنا
 ونبكي عليها ونتوب عنها . وذلك لانه ما دما مضلين نفوسنا متوهمين ان علة
 شدائدنا ليست خطايانا بل علة اخرى اتفافية او بشرية . فلا ندرك وفور شر
 الخطية التي من اجلها وردت علينا الشدائد . ولا نعتبر حدة غضب الذي يرسلها
 علينا لنتبه على خطايانا * وعلى هذا النحو نبلغ رويداً رويداً الى ان نترع من قلوبنا
 الخوف الطبيعي الذي يرشدنا الى انه يوجد في العالم اله ينظر كل ما نفعل ويجرر
 كل زلة نرتكبها . وهذا هو الخوف الذي يتوق كل خاطي الى ان ينزعه من نفسه
 لو امكن ذلك . نظير ما جاء في سفر الزبور الاله القائل « قال الجاهل في قلبه
 ليس اله » (مزمو ١٣: ١) * لان الخاطي يتالم من تذكره انه يوجد اله منتقم عن
 الخطايا . وانما يتغيبه ان يكون الها حليماً رافقاً فقط . لا عادلاً ومنتقماً * فهذا التذكر
 يعدل الله وشدة غضبه بسجسه ويولاه ويمضه . ولجل ذلك يقسي قلبه تجاه
 ضرباته الالهية ايضاً . وعوضاً عن ان يقر انها وردت من الله لعلة خطاياهم فيموه
 عن ذلك ويجعل الناس سبب ورودها * واذا لم يمكنه ان ينسب سبب ورودها

الى الناس . فينسبهُ الى الصدفة والاتفاق * واذا لم يمكنهُ ذلك ايضاً . فينسبهُ الى
تأثير النجوم والفلك . وعلى هذا النسق يمدح نفسه دائماً ليستمر ثابتاً في آثامه المنغس
هو فيها * قال النبي « ضربتهم ولم يريدوا ان يصدقوا . جحدوا الرب وقالوا ليس هو » *
وكيف يمكن يا معشر المسيحيين السامعين انهُ مع كوننا مومنين ومصديقين
تصديقاً تاماً بان الله هو الذي يضربنا من اجل خطايانا لا نعدل عن خطايانا
بل نزيدها اضعافاً كثيرة * آه والسفاه : اني لقد اضطرتُّ ان ابكي على عصرنا هذا
واهتف مع القديس قيريانس قائلاً : ها ان الشدائد تنزل بنا من الله . ومع ذلك
ليس في قلوبنا خشية الله . ها اننا مضروبون من العلي بسياط لا تمل . ومع ذلك
لا نحسُّ بها ولا نخاف البتة » انتهى * آه ثم آه كم يصحُّ هذا القول في اهل عصرنا
هذا . ولعمري ان هذا هو ما نراه صادراً كل يوم * الا ترون قلة الذين يصلحون
سيرتهم من مشاهدتهم الضربات الحائلة بهم . بل ما اكثر الذين يزدادون ايضاً خطايا
من جرّاهم * وتصديقاً لذلك اقول : اما يكثر النهب وتزداد السرقة في زمن الربا
اما يكثر الظلم والربي في ايام الغلاء . اما يكثر الزنا والفجور في اوقات الحروب *
وهكذا يحدث فينا ما خاطبنا به الله تعالى على لسان عاموس النبي قائلاً « انا
اعطيتكم حرس الاسنان في جميع بلادكم وعوز الخبز في جميع اماكنكم . ولم ترجعوا
الي . وانا منعت عنكم المطر ولم ترجعوا الي » ضربتكم بريح السموم وتصدا كثيرة بساكنكم
وكرومكم وزيتونكم . وتينكم اكلها اللبس ولم ترجعوا الي . واصعدت نيران عساكركم
الى مناخركم . ولم ترجعوا الي يقول الرب » (عاموس ٤ : ٥ وما يتلوهُ) * من منكم يا
ايها السامعون لا يعلم في آية احوال من الزمان صنع بلطشاصر ملك بابل الولاية
المشتهرة ببديخها ونفقاتها المنوّه بذكرها في نبوة دانيال حيث يُقال « وصنع بلطشاصر
ولاية عظيمة لعظائمه » (دانيال ٥ : ١) * هل تظنون انهُ صنعها بحجة عرس . او لكي
يضيف اناساً نبلاء غرباء قصده . او لسبب صلح صدر ما بينه وبين ملك آخر .
او لعلّة غلبة نالها على اعدائه : كلا : ففي اي وقت صنعها : فيجب هنا القديس

هيرونس ويقول : أنه صنعها حينما كان كورش الملك محاصرة وعسكره القوي
الخوف محققاً بمدبته . ففي ذلك الوقت نسي نفسه وجلس على الوليمة مع عدة من
السراري والزواني . وكان يأكل ويسكر معهن بالأواني المقدسة التي نهبت من هيكل
اورشليم غير مبال بصراخ كثيرين من الساكنين الذين كانوا يرمون من اسوار
المدينة مقتولين من الاعداء . بل كان يتنعم مع الزواني شارباً بسر آلهة النجاسية
والذهبية والرخامية والخشبية حسب قول يوحنا الذهبي الفم * وماذا نقولون ايضاً
في طوفان الماء العرمم الذي انما افاضه الله تعالى على الارض لكي يرحضها من
الادناس والنجاسات التي دنستها بها البشر . اما يرهب القلب التأمل فيه فقط
فضلاً عن مشاهدته العيانة . ومع هذا صودف واحد من اولاد نوح لم يخف من
ان يفكر في الادناس حينما كان يشاهد تلك المياه عينها التي غمرت الارض
وغرقتها * وكذلك اما يرهب القلب النظر الى ذلك الطوفان الناري الذي انزله
الله على سدوم لكي يقاصصها عن رجساتها السخمة . ومع هذا فان ابني لوط تجاسرتا
على ارتكاب افطع الآثام تجاه تلك النار عينها * ولكن لئلا نشمت بغيرنا ضاحكين
منه على سيئاته حينما نستطيع ان نبكي على سيئاتنا . فما انا اسالكم لكي تجيبوني يا ايها
السامعون : هل استبان فيكم اصطلاح نظراً الى سيرتكم بعد تلك الضربات الباهظة
التي التحق بكم منها ما تخصصتم به ايضاً : لست اعلم هذا . بل الاصح ان الامر بعكس
ذلك * واظن اننا نستطيع ان نقول لله مع اشعياء النبي «ها انت غضبت فاخطانا»
(اشعياء ٦٤ : ٥) * ولكن كيف يصح ذلك : نعم لو قال اننا اخطانا فانت غضبت .
لكنك افهم الامر جيداً . ولكن لما قال «انت غضبت فاخطانا» فهذا اراه امراً
غريباً عظيماً يعسر تصديقه * الا ان الحال المحادث هو هكذا . وان شئتم تحقيق
كلامي . فاخرجوا الى الساحات . وارصدوا هل بعد كل هذه الضربات تناقص
عدم الحياء في العشرات . والغش في البيع والشراء . ادخلوا البيوت واستقصوا .
هل قلت الخصومة ما بين الاخوة . والقتال في العيال * تعمقوا في المخادع السرية

وارقبوا: هل قُلت الرعانة في الحديث والدنس في المضاجع * احضروا السمر والحظوا. هل قلَّ القذف والنميمة في القريب وسوء الأدب في الألفاظ * طوفوا البساتين والأماكن المشاعة. وانظروا: هل خسَّ الأنهاك في المآكل والمشارب والولع في اللعب المفرط * البثوا قليلاً في الكنائس أيضاً وتبصروا. هل قلَّ عدم الاحترام لبيت الله في الحديث وطلاقة التفرس بالاعين * والنتيجة أنه قد صحَّ ما قاله اشعيا النبي «ها انت غضبت فاخطانا» * قولوا لله ولا تشكروا الحق «انت غضبت فاخطانا» * وبعد هذا كله هل نصدّق ان خطايانا هذه قد اجنبت علينا من الله تعالى الضربات والشدائد: لست اظن يا أيها السامعون الكرام أننا نصدق ذلك. ويمكن أننا نسلم به ونقولهُ باللسان. لكن لا نصدقه بالقلب. وهكذا يصحّ فينا كلام ارميا الذي اوردته مراراً عديدة «انك ضربتهم ولم يريدوا ان يصدقوا. جمدوا الرب وقالوا ليس هو» * فلنؤمن أيها السامعون ونصدق ان الله سبحانه موجود. وأنه قاضي عدل شديد في قصاص خطايانا. ويأتي بالصواعق على الخطاة * فسبيلنا ان نسرع ونسعى في ان نسكن رجزه بتوبتنا. ونرضيه عز وجلّ لعنفه عن خطايانا ما دام لنا زمان مناسب *

انني لعارف بان بعضكم يسرعون في السعي بمرضاة ربهم. ولكن من هم هؤلاء: لعربي أنهم هم المشتهرون بالصلاح والتقوى الذين هم اقل سبباً لورود ضربات الله تعالى والشدائد على الارض * ولكن الذين هم اكثر سبباً لها بخطاياهم وجرائرهم الدنسة لا يعينهم مرضاة الله سبحانه. ولا يفتكرون بها * فهل تعلمون ما يحدث في هذا الصدد: لا شك أنه يحدث ما قد حدث في سفينة يونان النبي العاصي * وذلك ان جميع الملاحين والركاب الذين كانوا ابرياء لما عاينوا الاضطراب المخاطر الذي هاج به واحدق بسفينتهم. حسبما يخبرنا عنه الكتاب الالهي. امتلأوا خوفاً ورعباً. وشرعوا يتعبون في لف القلوع. وتفرغ الانبار. وتخفيف الوسق * فكان منهم من يامر. ومنهم من يشير. وآخر يعين. وآخر يركض الى مسك الدفة.

وآخر الى القذف بالمقاذيف. وآخر الى جذب المراسي * وبالاجمال كان الجميع
يبكون ويصرخون ويتنهدون ويتضرعون ويتعبون * وفي حال هذه المخاوف. فان الذي
كان هو المذنب ومن اجله صار هذا الهيجان كان راقداً مستريحاً في عمق السفينة
المضطربة غير قلق ولا خائف من صوت الرياح وهدير الامواج وجلبة الرعود
وضجة الصواعق وصياح البحرية. لان الكتاب المقدس يقول « وكان يونان ينام
سباتاً ثقيلاً » (يونان ١: ٥). حتى التزم اخيراً مدبر السفينة ان ينزل اليه وينادي
ويزحزحه وينبهه بالصراخ والتعنيف ايضاً حسبما جاء في سفر نبوته بقوله « وتقدم
اليه مدبر السفينة وقال له: ما لك والسبات. قم وادع الهك لعله ان يفكر الله فينا
ولا نهلك » * انني اخاف ايها السامعون ساداتي ان يتجدد خبر يونان هذا في
كثيرين منا. لان الله تعالى يتهددنا مرات شتى بعلامات مرهبة كثيرة ويسخط ويحند
غيطاً علينا. ويبين احياناً ايضاً انه قادم الى ان يوارينا تحت الارض لفرط رجزه
علينا من قبل خطايانا * ففي غضون ذلك هل يوجد من يخشاه ويجد مجتهداً في
استعطاف خاطره الالهي: نعم انه يوجد قوم. ولكن من هم هؤلاء: لعمرى انهم هم
الابرياء الذين يلحق بهم العقاب لسبب غيرهم. فهؤلاء المساكين مجاهدون تارة
بالدموع وتارة بالصدقات. وحيناً بالمسوح. وطوراً بالاصوام. وتارة باصناف اخر
من التقشعات والاعمال الصالحة ليخففوا زوبعة الرجز الالهي * ولكن الذين هم الخاطئون
كالمرابين والحقودين والمفسدين والشتامين الذين من اجلهم تارت زوبعة الشدائد.
يرقدون مستريحين في حضن البطالة وفي حضن الاثم والدنس * فيا ايها المسيحيون
اخوتي هل يوجد فيكم من هو نظير يونان حاصل على الرقاد. وتشكون فيه انه من
قبله تهيج حيناً فحيناً الزوابع الخيفة التي تكاد تغرقنا. او ان تكون قد هاجت كلها
من قبله او جزء منها * فان وجد هذا المنحوس وعرفتوه فاسالكم ان تهديوني اليه.
لانني اشتي ان اتقدم اليه وازحزحه وانبهه بصوت مدبر السفينة الغيور والحكيم الذي
نبه يونان الراقد واقول له: ما لك والسبات يا ايها المتهاون الكسلان. انهض وتم

وَادْعُ اَهْلَكَ لَعَلَّهُ ان يَفْكَرَ اللهُ فِينَا وَلَا يَهْلِكَ * فَيَا أَيُّهَا الْخَاطِي كَأَنَّنا مِنْ كُنْتِ مَا
بِالْك رَاقِدًا . مَا بِالْك وَالسَّبَات . مَا هَذَا الْوَسْنِ الشَّنِيعِ الْمُؤْذِي الْمُسْتَحْوِذِ عَلَيْكَ .
مَا انَّ الضَّرْبَات تَهْبِط عَلَيْنَا مِنَ السَّمَاءِ حِينًا فحِينًا . فَالِي مَتَى أَنْتِ رَاقِدِ بَلِ مُسْتَغْرِقِ
فِي السَّبَاتِ * وَمَاذَا لَا تَلْتَجِي حَتَّى الْآنَ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَلَمْ تَدْعُهُ وَلَمْ تَنْتَبِهْ . انْهَضِ وَقِمِ .
وَأَلِّقِي عَنْكَ هَذَا السَّبَاتِ الَّذِي يَهْلِكُكَ * قِمِ وَأَبْذِ عَنْكَ تِلْكَ الْعِشْرَةَ السَّيِّئَةَ .
حَيْثُ انَّ اللهُ سَجَّانُهُ مِنْ أَجْلِ ادْنَأَسْنَا يَجْعَلُ أَعْضَاءَنَا تَهْتَرِي وَتَنْتَنُ بِقُرُوحِ الْوَبَا
الْقَبِيحَةِ * قِمِ وَاجْعَلِي الصَّلْحَ وَالسَّلَامَةَ مَعَ مَبْغُضِيكَ . لِأَنَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَجْلِ
بَغْضَانَا وَحَقْدِنَا عَلَى غَيْرِنَا يَدْمُرُ قَرَانَا وَيُخْرِبُ قَنَائِنَانَا * قِمِ وَرَدِّي الْأَرْبَاحَ الَّتِي أَكْتَسَبْتِنَهَا
بِالدَّغْلِ . لِأَنَّ اللهُ تَعَالَى مِنْ أَجْلِ افْرَاطِ طَمَعِنَا يَأْمُرُ بِجَدْبِ أَرْضِينَا وَيَبْسِئُهَا « قِمِ
أَذَا وَادْعُ اَهْلَكَ لَعَلَّهُ ان يَفْكَرَ اللهُ فِينَا وَلَا يَهْلِكَ » . لِأَنَّهُ قَدْ يُمْكِنُ انَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ
لَا يُحِبُّ ان يَتَعَطَّفَ وَيَرْحَمِنَا الْأَبْعَدُ ان يَرَى الْإِنْسَانَ الَّذِي قَدْ حَرَّكَهُ إِلَى الرَّجْزِ
يَتَوَاضَعُ إِمَامَةً مُتَذَلِّلًا وَيَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ بِأَكْبَارٍ *

غَيْرِ أَنْنِي أَخَافُ جَدًّا ان أَكُونَ اَنَا الَّذِي اعْظُ وَأَبْشُرُ آخِرِينَ شَرِيكًا لِيُونَانَ
فِي الرِّقَادِ وَعَدَمِ الْحَسَنِ فِي حِينِ حُلُولِ الزَّوَابِعِ * أَهَّا يَا إِلَهِي فَإِنْ كُنْتَ عَالِمًا بِأَنِّي اَنَا
هُوَ الشَّقِيُّ الْمَغْرِيُّ نَارِ رَجْزِكَ الْإِلَهِيِّ لِيَثْبِتَ مُتَقَدِّمًا . فَمَا الَّذِي لِي ان أَقُولُ سِوَى هَذَا
الْكَلَامِ « خَذُونِي وَالْقَوْنِي فِي الْبَحْرِ » (يُونَانَ ١ : ١٣) . بِشَرَطِ ان يَخْلُصَ الَّذِينَ
يَخْشَوْنَكَ يَا رَبُّ وَيَخْدَمُونَكَ خِدْمَةً آمِينَةً * أَنْنِي أَخَافُ يَا أَيُّهَا السَّامِعُونَ بَلِ أَنِّي
اسْتَوْعَبْتُ كُلِّي بِجَهْلَتِي رَهْبَةً وَارْتِجَافًا كُلَّهَا خَطَرِي بَالِي خَبَرَ الْقَدِيسِ مَارِ عَبْدِ الْإِحَادِ .
لِأَنَّهُ قَدْ صَنَعَ جَمِيلًا عَظِيمًا إِلَى جَمْعِ الْمَسِيحِيِّينَ إِذْ حَمَلَ عَلَى مَنْكَبِهِ الْكَنِيسَةَ كُلَّهَا
الَّتِي كَانَتْ تَظْهَرُ مِنْ حَالِهَا أَنَّهَا مُشْرِفَةٌ عَلَى السَّقُوطِ * فَأَنَّهُ مَعَ قَدَاسَتِهِ هَذِهِ الْعَظْمِيَّةُ
كَانَتْ إِذَا بَلَغَتْ إِلَى أَبْوَابِ مَدِينَةٍ مِنَ الْمَدِينِ . يَخْشَى ان يَصِيرَ هُوَ سَبَبَ خَرَابِهَا مِنْ
قَبْلِ ذَنْوِيهِ . وَلَا جَلَّ ذَلِكَ كَانَ يَلْبَثُ قَلِيلًا قَبْلَ دُخُولِهِ إِلَيْهَا وَيَجْتَنِي عَلَى رُكْبَتَيْهِ
وَيَتَضَرَّعُ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِشَوْقٍ وَحَرَقَةٍ قَلْبِ ان يَشْفِقَ عَلَى تِلْكَ الْمَدِينَةِ وَلَا يُنْزِلَ بِهَا

لسببه ضربة غريبة * واذ كان هذا القديس المعظم يخشى هكذا. وهكذا كان يفعل. فما الذي يجب عليّ ان اقولهُ عن نفسي انا الخاطي المملوء من الذنوب: اما يحق لي بل يجب عليّ ان اخاف من ان اكون شريك يونان الذي كان الملاحون يفتشون عليه ليعلموا هل « لاجل اصابهم الموج العظيم » * نعم اني انا هو هذا. ولست انكر ذلك. ولقد اتيت الى هذه المدينة قاصداً ان افيدها فائدة ما بوعظي وتبشيري * ولكن لا تسبح يا الهي بان اجلب عليها شرّاً من الشرور بذنوبي بدلاً من الفائدة التي قصدتها لها. لا تسبح بهذا يا رب. لا تسبح. بل دع الموت ان يدركني قبل ذلك * وها انا جاثٍ تحت قدميك الطاهرتين واقدم نفسي ضحية لرجزك. فان كانت زلاّتي صارت لا تُحتمل على الارض. فاضربني وافتك بي لئلا يصيب الآخرين القصاص من جرّائي * نعم انني اشتهي واطلب ان احيا مثل غيري حيوة مدينة لكيما اخدمك واصنع مرضاتك. ولكن مع ذلك لست اريد الحيوة ان كانت حياتي لا تفيد شيئاً سوى ان تزيد شدة الناس وتكثّرهما *

القسم الثاني

انه لو كانت قلة تصديقنا المذكور لا تجلب علينا من العقاب سوى عقوبات هذه الحيوة الدنيا فقط. لكان ذلك شرّاً قليلاً. لان هذه العقوبات كيفما كانت ومهما كانت فلا بد من ان تزول اخيراً وتنتهي بالموت * ولكن الشرّ الاعظم هو انها تجلب علينا عقوبات الحيوة الآخرة ايضاً التي لا تزول الى الابد * لانني اسالكم فقولوا لي يا ايها الشعب المسيحي: هل يوجد لنا اعتذار نبديه امام الله اذا هلكنا « اخبر هل لك شيء لتبرّر » (اشعيا ٤٢: ٢٦) * هل نستطيع ان نعتذر بقولنا ان الله تعالى لم يتقدم وعلينا في حين ملائم بالعقابات والشدائد الابدية المقبلة علينا من اجل خطايانا: لعري ان هذا لا نستطيع البتة ان نعتذر به * وكمن من الاسباب يقدمها لنا في كل

وقت لنحذر من ضرباته المخيفة . وكم من المشورات الصالحة يرسلها لنا . وكم من
الالهامات الروحية الباطنة يخاطبنا بها . وكم من الطرائق الأخر المفيدة يحركنا ويحثنا
بها لنجعل نفوسنا في امان وسلام في اوان مناسب * فان كنا نحن نريد ان نباد
ونهلك رغماً عنه . افلا يكون ذلك من ذنبا واثماً الاختياري * ولكن لعالم تستصعبون
ان تقضوا على نفوسكم بان هلاككم سيكون من ذنبيكم الاختياري اذا هلكتم . فمن
ثم ارغب اليكم ان تسمعوا هذا الخبر قبلاً . ثم قولوا لي بعد ذلك واقضوا من اين
يكون هلاككم . أمن تلقاء نفوسكم ام لا * اعلموا ان الملك واليس ملك الروم كفر
بالاحسان الذي صنعه الله اليه اذ نقله من المنفى الى الملك بانه لما جلس على المنبر الملكي
في القسطنطينية وتوطد فيه . طفق يوذى الكاثليكيين وينعم على الاريوسيين حتى
ان الكنيسة الارثوذكسية كلها شرعت تنوح وتبكي بكاء لا عزاء له نظير بكاء من
وثب عليه الذئب واخذ يمزقه باظفاره وينهشه باسنانه * فحنن الله تعالى على بكائها
ورق قلبه الالهي لدموعها اخيراً . وحرك الشعوب الشماليين المتوحشين على ملكة
الشرق . وحينئذ التزم واليس الملك ان مجرد عسكرياً قوياً ويخرج الى ملاقاتهم
ليخضع تشاخصهم ويستردهم الى الطاعة * فبلغ ذلك واحداً من النساء القديسين
مستوطناً احد الجبال وكان اسمها اسحق . فقام بالهام الهى وترك محبته واتجه مسرعاً
الى ملاقاته الملك اذ كان سائراً الى الحرب مجتم غفير من الجنود راجلين وركاب
الخيل . وتقدم اليه وناداه بصوت عال قائلاً : يا ايها الملك مر بفتح كنائس الكاثليكيين
التي انت اغلقتها . فترجع ظافراً . والافتموت * فسمع الملك صوته . ولكنه احسبه
مجنوناً ولم يلتفت اليه . بل ظل سائراً في طريقه مسرعاً * ولكن اسحق لم تصغر نفسه .
لكن رجع في الغد الى الملك وثنى عليه الصوت قائلاً : يا ايها الملك مر بفتح كنائس
الكاثليكيين التي انت اغلقتها فترجع منتصراً . والافتموت * فاضطرب واليس
المنافق عند استماعه مرتين هذا الصوت . وشرع يحس في نفسه محركين متقابلتين .
فمن اخدى الجهات استبان له ان التصديق بمثل هذه الاصوات يدل على ضعف

القلب والعقل. ومن الجهة الاخرى تبين له ان احتقارها وعدم امتثالها قحة قد
يمكن ان تجلب عليه ضرراً ما * فلكي يبين للجميع انه يريد ان يدبر ملكته بحكمة
وافراز. عقد مجلساً عاماً مع عظمائه ذاك النهار. ولكن لان المتقدمين في تلك
المواقف كانوا اربوسيين مثله فازاحوا بسهولة عظيمة كل وهم من باله. واقنعوه
ان لا يصغي الى كلام ذاك الراهب بل يعاقبه اذا تجاسر وحضر قدّامه مرة اخرى *
ثم قام الملك وارتحل مع جيشه من ذاك المكان. وفيما كان جائراً في اليوم الثالث.
اذا باسحق حضر مجرأة اعظم مما سبق وجاز في وسط العسكر المحقق بالملك
حتى وصل اليه * فقبض حينئذ بقلب غير خائف على لجام الفرس واوقنه. ورفع
صوته قائلاً: انني اكرر عليك يا ايها الملك الصوت ذك المرة الثالثة. واقول لك
ان تامر بفتح كنائس الكاثليكيين التي انت اغلقتها فترجع من الحرب منتصراً. والّا
فتموت * وكان قدّام تلك الطريق التي خاطب فيها الملك وقتئذ هاوية عميقة
مفعمة عليّفاً وغير ذلك من الشوك المؤذي. فغضب الملك على اسحق القدّيس. وأمر
ان يزجوه في الهاوية. وظنّ انه هكذا يموت ويقبر فيها * وهضى في مسيره مضطرباً
وقلقاً في نفسه من رعب قلبه * غير انه لما لم يتعد العسكر الا قليلاً من الزمن.
اذ نزل من السماء ثلاثة ملائكة متشّحون بياضاً. ثم انحدروا في الهاوية وحملوا
اسحق واصعدوه الى فوق حياً قوياً من غير ان تلتحق به مضرة ما * وعرف
حينئذ من غيابهم عنه بغتة انهم كانوا ملائكة اتوا الى اغائته بصورة بشر. ولذلك
خر على الارض ساجداً وشاكراً الله تعالى الذي نجاه من الموت * ثم نهض وجرى
كانه بأجنحة من قبل نار الغيرة والحجة تتجها نحو الملك ليدركه. وبعد زمن
ادركه وتقدّم امامه المرة الرابعة وقال له بوجه متقد مثل النار: لقد ظننت ايها
الملك اني اموت في الهاوية التي الفيتني فيها. ها انا امامك واتيت لكي اوصيك
ايضاً بان تتبه الى نفسك وتفتح كنائس الكاثليكيين التي انت اغلقتها ان اردت
ان ترجع من الحرب سالماً غانماً. والّا فتموت وتباد. افهمت هذا: انك تموت وتهلك *

فمن الذي لا يندمل يا معشر السامعين من قساوة قلب واليس المنافق . لأنه لم
 يجب ان يرضح له الخاطبة الرابعة . بل ازداد عي وقساوة . وامر ان يربط اسحق
 ويستودع محبوساً بيد اثنين من عظامه وهما سترنيس وبقطور ليحفظاه الى ان يعود
 راجعاً من ملهمة الحرب وبعاقبه عناباً موازياً لكذبه وجسارته * فضحك اسحق
 حينئذٍ واجابه بالفاظ منجا النبي التي قالها لآخاب ملك اسرائيل المنافق في وقت
 يشابه هذا . قال : اأنت ترجع وتعافيني . تباً لك ولرايك . فاذهب اذا وحارب .
 وان رجعت سالماً فحينئذٍ ينادك ان ليس الله خاطبك بفي بل روح الضلال *
 ولكن اعلم وتيقن أنك سوف تشرع في الملهمة مع اعدائك . الا أنك لن تستطيع ان
 تقوم مقابل قواتهم . ولذلك تنقاد خاضعاً لهم وتهرب الى ما وراءك متقهقراً . فيجرون
 في اثرك ويدركونك وتسقط في ايديهم وتموت محروقاً بالنار * هكذا قال وهكذا
 اتفق . لان الملك ذهب وحارب . ولكنه انكسر لوقته . وادبر منهزماً مع جيشه
 راکضاً مبدداً متبليلاً لشدة الخوف . فصادف في الطريق كوخاً صغيراً من قش
 كان ماوى للراحة . فدخله ليستخفي عن نظر عسكر العدو الطالب اثره * ولما علموا
 ان الملك مستخفي في الكوخ . اضرموا في قشه نارا فالتهب كله . واحرق واليس
 الملك فيه حياً . وتحقق كل احد حينئذٍ صدق نبوة اسحق * وعند ذلك اطلق من
 السجن باكرام وشرف جزيل . ونال من وزيرى الملك المذكورين ديرين بنياهما له .
 وصار رئيساً ومدبراً فيها على رهبان كثيرين * ها انكم قد سمعتم ايها الاخوة
 الاحباب هذا الخبر . فارتضوا الآن ان تقضوا منه على واليس وعلى نفوسكم . فاذا
 افترضنا ان هذا الملك قصد في يوم الحشر الاخير ان يقيم على الله تعالى دعوى
 ظاهرة وبشئت أنه سقط في نار جهنم لا من ذنب نفسه لكن من اهمال الله اياه .
 فكيف ترون ذلك * اما ترون ان اسحق المذكور وحده يكفى ليكذبه وبخزيه
 قائلاً : اسدد فاك ايها الشقي الاحق السخيف العقل . اما اتيتك انا اربع دفعات
 وقدمت لك طريقة سهلة كنت تستطيع ان تخلص بها نفسك وجسدك * وان كان

مع هذا قسيت قلبك على الله تعالى واحتيمت سخطاً عليّ . فكيف تجسر الآن
 أيها الاثيم ان تشكو وتندمر من هلاكك * فانطقوا بالحق أيها السامعون . وقولوا
 من من الاثنين تظنون أنه يغلب . أو ليس الملك ام اسحق . اما يتبرر عدل الله
 بالكفاية من تعنيف اسحق هذا فقط * وان كان ذلك كذلك . فابن انتم يا أيها
 الخطاة . ابن انتم . آه والسفاه عليكم . تقدموا هنا واسمعوا . فان هذا القضاء قد خرج
 عليكم ايضاً * ولكن لعلمكم تجسرون ان تنسبوا الى الله هلاككم هذا الذي انتم متجهون
 اليه بهذه السجية من العيشة . زاعمين ان الله تعالى يهلكم ويتخلى عنكم . غير اني اقول
 لكم انه سوف ينهض عليكم لا اسحق واحد بل كثيرون يكذبونكم ويخزونكم . وان
 كان لا يوجد من يكذبكم سوى الكهنة الذين يعظونكم . افما يكفي هؤلاء فقط
 ليسدوا افواهكم * ثم اسالكم ان تسامحوني بما انا عتيد ان اقول لكم : وهو انني انا مع
 كوني دودة حثيرة سوف اضطر ان اظهر في الميدان في ذاك اليوم العظيم من
 الحشر الاخير واجاهد عن عدل الله تعالى وانكم شاهدًا عليكم بانني اتيت نظير
 اسحق المقدم ذكره الى كنائسكم فطلعت على منابرهم . واعلمتكم مصرحًا من قبل الله
 نقده اسمهُ أنه ان اردتم ان لا يدرككم الهلاك الابدي في نار جهنم . فيجب على
 المفسدين منكم ان يكفوا تائبين عن شهواتهم الدنيوية . وعلى الشبان ان يفارقوا
 العشرات والصدقات الباطلة ويبندوها عنهم . وعلى التجار ان يكفوا عن الارباح
 المتزجة بالمكر . وعلى النمامين ان يردوا الصيت الذي هدموه بقذفهم . وعلى الحقودين
 ان يصطلحوا مع غرمائهم ويعدوا عن الانتقام * ولكن اذا ايتم ان تمتلوا هذه النصائح
 الخلاصية . فكيف يسوغ لكم ان تشكوا من الله عز اسمه . كيف تستطيعون ان
 تبرئوا نفوسكم * أما فعل معكم جلّت مراحمة ما وجب عليه ان يعمله بهذه المناداة
 فقط التي انا اكررها ايضاً على مسامعكم في هذا الصباح قائلاً : الاردياء بالردى
 يهلكهم * فيهلكهم في هذه الحيوة الدنيا . بل يهلكهم هلاكاً امراً من هذا في الحيوة
 الآخرة * ولا تقولوا اننا لو كنا نعلم اننا نهلك بمخالفتنا هذه النصائح لامثلناها . ولكننا

لا تصدق ما خاطبتنا به . فأنني اجيبكم وافول : ان واليس الملك ايضاً لو علم اكداً انه
سيموت حريقاً لعدم افتناحه كنائس الكاثوليكين . لكان أمر بافتناحها حالاً بلا ريب .
الا انه ابي ان يفتحها لانه احسب عاراً عليه ان يصدق كلام راهب فقير حاف
لم يكن يعرف من هو ومن اين اتى وكيف يعيش . ولكن عدم معرفته هذه به لا
تعذر امام الله تعالى * لانه اذا ما كان الشور مطابقاً لشريعة الله سبحانه والكتب
المقدسة ونص الانجيل الشريف . فهذا يكفي لئلا يسد كل باب للاعتذار والاحتجاج .
ولا يهم ان يكون الذي يقوله عالماً او امياً او قديساً او خاطئاً * نعم انا خاطي يا
ايها السامعون غبي واحقر من جميع الذين يفتحون افواههم ويبشرونكم من على المنابر
في كنائسكم . الا ان الانجيل المقدس يؤكد لدي هذا . وهو انه اذا اصلتم سيرتكم
الفاصة . فتخلصون من جهنم . وان لم تصلحوها . فلا خلاص لكم * هل فهمت هذا وان
كنتم لم تفهموه . فما الذي تطلبون مني اذا اكثر من ذلك * فاذا ينبغي لكم على هذه
الحالات ان تتابروا العمل بما سمعتم من الوعظ والتنبيهات . لانه يمكن ان تكون هذه
التنبيهة هي الاخيرة لبعض منكم . ولا يعود يبقى له وقت ان يستمع تنبيهة اخرى *
قد اتى اليكم انبياءكم المماثلون اسحق المذكور . ونبهوكم لا مرتين . ولا اربع مرات فقط .
بل عشر مرات واثنى عشرة مرة واكثر . فيمكن ان تكون النار قد دنت من قش حياتكم *
فهل واسرعوا نحو خوف الله تعالى وناره . واعجلوا بالتوبة * لانه من الممكن انكم لا
تسمعون فيما بعد عظة اخرى غير هذه * وان كان الله جلت قدرته بعد ان ارعد
عليكم في كل هذه الدفعات ينزل بكم اخيراً الصاعقة . فلا تلوموا احداً سوى نفوسكم *
والحمد لله دائماً *

الخطبة السادسة عشرة

تضمن ذم توبة من يقصد اجتناب الخطايا ولا يجنب اسبابها ايضا

«متى تسلح القوي . وحفظ منزله . فان امتعته تكون في السلامة» هكذا
كتب القديس لوقا في الاصحاح ١١ عدد ٢١ من بشارته *

القسم الاول

اعمرى ان الصنيع الذي صنعه اعز تلاميذ افلاطون المدعو ترويلوس قد استبان لي على الدوام انه من ادق افعال الحكمة البشرية والفطنة الانسانية * وذلك ان هذا الرجل كان لحسن حفظه قد نجا من نو عظيم حدث في البحر وفيه انكسرت دفعة المركب وانشق الصاري وتمزقت القلوع ونقطعت الجبال . واشرف من ذلك على الغرق * فلما نجا من هذا الخطر الجسيم ووصل الى داره مرتعدا ومرتعشا . فحالا قبل كل شي * امر ان تسد طاقتان كانتا في داره تطلان على البحر . وذلك لخوفه من ان يرى البحر منها في زمن آخر هادئا وساكنا فتسول له نفسه ان يدخله مسافرا مرة اخرى * اما انا فاقول الآن : انني عالم انه ليس امرا عظيما مستغربا ان ارى الاكثرين منكم ينجون رويدا رويدا من غرق الخطية المهلكة في هذه الايام من الصوم المبارك وذلك لاتصال الرعظ الذي يسمونه ولكثرة الامثال الصالحة التي يبصرونها في الآخرين * ولكن مع هذا اتظنون انني امنت عليكم امانا تاما : كلاء . بل اخاف من انكم اذا نظرتم بعد زمن يسير الى الخطية بعين اخرى غير التي بها تنظرون اليها الآن . تماثلون الملاحين الذين يكونون بالجهد قد نجوا من الغرق . فيجلسون حالا على شاطئ البحر ليجمعوا فضلات قلوبهم الممزقة . وبشرعون في ترقيعها ورنقها

لينزلوا ايضاً الى البحر ويستودعوا حياتهم بيد العنصر الذي اخبروا خيانتَهُ وعلم
امانتِهِ قبل زمنٍ وجيزٍ * فلاجل ذلك قد اتيتكم اليوم ايها السامعون لكي اخاطبكم
واعظاً اياكم ان تسدوا جميع الطاقات التي تشرف على البحر . اي ان تحفظوا نفوسكم
مبتعدة عن جميع الاسباب التي يمكنها بسهولة ان تغريكم وتجذبكم الى ذنوبكم القديمة *
لانه اذا استمر سبب واحد فقط للخطية ولم تقطعوه عنكم . فهذا وحده هو كافٍ
ليجعلكم ان تسقطوا في الخطأ مرةً اخرى وتهلكوا * واعل كلامي هذا يستبين لبعض
منكم حاداً مشدداً كثيراً . حيث انه يتبين لهم ان مقاومة النظر ايضاً وضبطه هو
امر صعب وعسر على الطبيعة * الا ان الانجيل الذي نؤمن به يشهد لنا بخلاف
ما تستصعبونه . وبعلمنا ان هذا هو الوجه الذي به نستطيع ان نعيش بالسلامة .
وهو ان نسد كل عزمٍ ونقطع كل سبب للتجربة التي تاتي من خارج . لانه قال :
« اذا تسلح القوي وحفظ منزله . فان امتعته تكون في السلامة » * افهمتم قوة معنى
كلامه الالهي : انه لم يقل اذا حفظ اجزاءه الداخلة او اجزاءه الباطنة . بل قال
« منزله » لاننا اذا ما اذنا للتجربة ان تدخل بنا قليلاً . تعسر علينا مقاومتها * فان
كنتم تحبون ان تتوبوا توبةً حقيقيةً ثابتةً وطيدةً وترجعوا الى الله ربكم من صميم
قلوبكم . فما انا اريكم الطريقة الوحيدة لذلك وهي ان تباينوا لا الخطية فقط . بل
كل شيء يستطيع بسهولة ان يجذبكم اليها . والا فتوبتكم كاذبة غير صحيحة * وما
انا مستعد بنعمة الله ان اثبت عدم صحة توبتكم هذه بالبراهين التي انا موردتها
على سماعكم * فاذا ما رصدتم عقولكم وفهمتموها جيداً . فنرون واضحاً ان الذي
يريد ان يحفظ نفسه طاهرةً بارةً في وسط اسباب الخطأ . فهو معترى بشائبة
العجرفة الباطلة المذمومة *

ان من الاكيد ان كل شيء حسن يلد الحواس فله هذه الخاصة وهي انه اذا
كان حاضراً بصعب على الانسان ان يقضي بالحق ماذا ينبغي له . ان يختاره ام ان
يرذله . لان ذلك الشيء بحضوره يمدح الحواس برقيةً لذينة . ويربط العقل . ويجذب

الارادة وتعلقها الى اربه * وهذا قد قاله ارسطوطاليس الفيلسوف في كتاب ادبياته
 المشهور * وقد اورد اثباتاً لذلك خبر عظماء مدينة ترويا حينما كانوا يجتمعون
 ليستشيروا بعضهم بعضاً في طرد هيلانة الزانية من المدينة فقال : كان هؤلاء اذا
 اجتمعوا في بيت المشورة ليعقدوا رأياً حميداً في امر المرأة المذكورة . حكموا في غيابها حكماً
 عادلاً بطردها من المدينة ليزيلوا السجس الذي كان يصدر بين الناس بسببها *
 ولكن اذا حضرت امامهم ونظروا اليها . بهروا بحمال وجهها وصيدوا بمواهب شفتيها
 وغيروا رأيهم وعزموا على ابقاءها في المدينة على رغم سائر القبائل اليونانيين الذين
 كانوا يطلبون نفيها * ومن تراه مناً لم يجرب في نفسه صدق هذه الحقيقة * وم
 يصعب على الجماع مثلاً ان يمسك نفسه عن الاكل حينما نتهياً امامه مائدة فاخرة .
 وم يعسر على العليل ان يصد نفسه عن شرب الماء اذا راي الكؤوس امامه مترعة
 ماءً زلالاً * اوليس اذا كانت موائد اللعب بعيدة . يسهل على المغمم به ان يلزم
 نفسه بان لا يلعب بالتمار او الزار الذين حصل له ضرر منها في ماله * ولكن متى
 ما ابصرها في يد من هو نظيره . فمن يستطيع ان يمنعه عن الرجوع حالاً الى رذيلة
 اللعب التي كان قد تاب عنها سابقاً * وعلى هذا النحو ايضاً يصعب على الانسان
 الذي اصابه ضرر من شخص ما ان يهدى حركة الغضب حينما يبصر تلقاه غريمه .
 ويعسر على المرابي والطماع ان يمسكا انفسهما عن الغدر اذا شاهدا بازاء اعينها
 الذهب وانفتح لها سبيل للربح . وعلى الرجل الارعن ان يمسك نفسه عن التكبر
 والتعجب حينما يرى الاكرام يقدم له . وعلى العاشق ان يضبط نفسه عن حركة العشق
 عند مشاهدته امامه معشوقته * فلنخبر الكلام قائلين : ان الشئ من اي صنفي
 كان اذا كان حاضراً . فله قوة عظيمة وتأثير قوي * وان اردتم ان تحققوا صدق
 ذلك تحقيقاً اوفر . فاذكروا التجربة الاخيرة التي بها افرغ ابليس وسعه ليغلب
 مخلصنا في البرية ويقوى عليه . لانه اخراه الله قد وعده ان يسلطه على الارض كلها
 ان خر له ساجداً * ولكن ماذا فعل هذا الخبيث قبلاً ليحصل على اربه : صعد به

الى اعلى الجبال. وهناك اراه اولاً جميع ممالك الارض ونواحيها وبلادها واحدة فواحدة. ثم طلب منه السجود ليعطيه هذا كنه * ولماذا اصعدته الى اعلى الجبال واره قدام عينيه كل ممالك الارض وعزها قبل ان يعده بها: اما كان يستطيع ان يعده بها ايضاً وهو كائن معه في وعر من الوعر او في غاب او في احدى المغاير: لا ريب في انه اخزاه الله لكونه اصنع مصوري الارض اجمع كان يستطيع هناك ايضاً ان يناجيه ويقول له: اعلم ان المسكونة تُقسم اليوم الى ثلاثة اقسام: احدها يقال له اوروبا. والقسم الثاني افريقيه. والثالث اسيا. واسيا هي القسم الاوسع وتحوي من الولايات والبلدان كذا وكذا. وافريقيه هي اعجب من قسميها وتشتمل على سلطنات كذا وكذا. واوروبا هي اجملهن وتحوي على مملكات كذا وكذا * وهذه الاقاليم باسرها تتضمن فلانة وفلانة من المدن المعظمة. وهذه تحوي على الحقول المخصبة الشبيهة. وهذه تشتمل على الانهر الفائضة العذبة مياهها. وهذه تحوي عدة من البحار المتسعة المغنية. ويوجد داخلها عالم آخر يحوي على معادن فضة وذهب لا تفرغ. وعلى شعوب وام لا يحصى عددها. وعلى منتزهات من ابداع الطبيعة غريبة حسنة لم ير الى الآن مثلها قط * نعم ان هذا العالم هو الى يومنا خفي ولم يدخله احد من سكان اقاليم الارض الثلاثة المقدم ذكرها. لكن مع ذلك اعلم انني اظهوره انا لك واعطيكه ايضاً اذا احتيت لي ركة واحدة فقط واكرمتني بالسجود. لان لي العالم كله. واقول بالاجمال انني «اعطيك هذا كله ان خرت لي ساجداً» (متى ١) * فلماذا لم يكتف ابليس ان يناجي المخلص ويقول له هكذا. بل اراد ان ينصب امام عينيه تعالى عياناً كل شيء ووعدته ان يعطيه آية كما اخبر الانجيل الشريف بقوله «واراه جميع ممالك الارض» ولما وجد ذلك صعد به في الجو الى اعلى قمة من جبال الارض كلها حسب راي الذهبي الفم: ليس لذلك على ظني سبب سوى هذا. وهو ان ابليس الذي هو اخبث من جميع الناس كان يعلم جيداً مقدار قوة الشيء الحاضر امام العيون في تأثيره. فمن ثم ظن في

عقله أنه متى اصطاد الحواس وغلبها. يسهل عليه امتلاك الارادة * فهذه هي الحال التي فيها تحصلون يا معشر السامعين المسيحيين حينما تعيشون وتستسيرون ما بين اسباب الخطايا. اذ أنه حينئذ يكون الشيء الحسن الجزيل الخطر بادياً قدام اعينكم بل في تملك ايديكم. وتسمعونه كأنه يدعوكم الى الخطا. وتعابنون محاسنه وأشراكه المجاذبة الى الخطا. ونحسون في دواخلكم بتلميقاته اذ يجذبكم الى الخطا ايضاً * فهل ترجون في هذه الحال ان تقاوموه. استطيعون ان تقاوموه وترذلوه: حقاً ان هذه لعجرفة وجسارة عظيمة مذمومة. لان القديس هيرونس قد حرر في كتابه الثاني في الرد على يوبنيانس هكذا: ان حسنا يفكر بما يشاهد ويسمعه ويستنشقه ويدوقه ويلبسه. والشهوة تنعطف الى ما اشتشعرت بلذته. انتهى * فاذا بعد ان نقرر ذلك نقول: من تراه ياذن لكم ان تطلقوا النظر في التبصر بمجال الطلعات المخطرة ومع ذلك لا تصادون في اشراكها. او ان تسمعوا الاغاني السفهية والاحاديث المهيجة الطبيعة ولا تغويكم. او ان تقرأوا الكتب الدنسة ولا تنحروا الى النجاسات. ناشدتكم الله ان تجيبوني قائلين الحق: من تراه يضمن لكم عدم السقوط مع وجودكم في هذه الحالات. او ما هو الشيء الذي ترجون منه النصر والمعونة والتأييد لتستمروا ثابتين بلا خطا حينما تطوحن بانفسكم في هذه الاسباب القريبة من الخطا * فعلى ما اظن انكم ترجون وثقون بفضيلتكم او بالنعمة الالهية. مفكرين ان فضيلتكم تصيركم اقوياء غير متزعزعين اذا صدمتكم رياح تجارب الخطية. وان النعمة الالهية نقلدكم ترساً قوياً لتدفعوا عنكم رشق نبال التجربة. ومن ذلك تظنون انكم قد كجتم شهواتكم. ولا تخافون فيما بعد من انها تعصي وتجاوز حدود الصواب * وهذا الوهم هو الذي يصيركم تدعون بانكم اقوياء غير خائفين من اشراك الخطية. ثم تتوهمون ايضاً ان الله تعالى يجرسكم دائماً حتى انه تقديس اسمه لا يمكن ان يتخلى عنكم * وهذا الظن في حراسته تعالى لكم يجعلكم تثقون بانفسكم بانكم مسلحون لدفع التجربة * اخبروني: ما هي هذه التأييدات التي انتم واثقون بها. فاننا لست اعلم انه يوجد

تأييدات آخر بكنكم ان تستندوا عليها غير المقدم ذكرها . فلنبحث هنا لنرى هل
 لكم حجة شرعية راهنة في الثقة بهذه التأييدات التي تجعلكم تظنون بنفوسكم انكم
 اقوياء ومتسلحون . حتى انه لم بعد يلزمكم ان « تحفظوا منزلكم » وتحرسوا جيداً داركم اعني
 حواسكم الخارجة * ولنفحص قولكم بانكم قد كجتم شهوراتكم . فاخبروني : كم كجتموها .
 العلمكم قد كجتموها وروضتموها اكثر من القديسين الذين قضوا حياتهم في الصلوة
 وذرف الدموع واصناف امانة الجسد والتشقات المتنوعة : لا اظن ذلك . ومع
 هذا فما اننا نرى ان اولئك القديسين كانوا يرتجفون جزعاً وخوفاً تجاه كل سبب
 يجذب الى الخطر فقط . ويقرون معترفين علي سبيل السكون انهم لا يرجون الظفر
 الا بمجارية الجبان اي بالهرب من وجه العدو * وليكننا عن الجميع شاهداً القديس
 هيرونيمس وذلك بجوابه الذي اوردته علي سوال ويجيلنتيوس . لان هذا الرجل
 سأل يوماً هيرونيمس قائلاً له : من اي شيء يا ابانا تخاف في الدنيا . وانت يمكنك ان
 تستوطن المدن . فلماذا انفردت ساكناً في القفار تحت الكهوف وفي المغاير نظير الوحوش
 البرية * فقال له القديس : ألا تعلم من اي شيء اخاف : اعلم انني اخاف من
 مشاهدتك . واخاف من استماعي حديثك . واخاف من انني لا استطيع ان احتمل
 عجزتك * وان قلت انه ليس لي سبب معقول في خوفي هذا منك . فاجيبك :
 انني اخاف ان اخطي في المخاطر الأخر الكثيرة التي انت عايش في وسطها .
 اخاف من خصومات الغضب . اخاف من الحديث الفارغ البطال . اخاف من
 الشخ او الانهك بحجة النضة . اخاف من طلب الرياسات من غير استحقاق . اخاف
 من النظر الدنس * فهكذا اجابه علي سواله المذكور . وكان القديس تبين له انه
 بجوابه هذا لم يورد كل ما يجب من التبريل فاردف كلامه الأول فقال هذا الكلام
 الذي لو لم يكن هو نفسه قد تفوه به لما تجاسرت ان انطق به . وهو هذا : يا ويجيلنتيوس
 انني اخنصر الكلام واقول لك : انا اخاف من ان يصيدني جمال الزانية وينضي
 بي الي الوصال المحرم * ولكن ويجيلنتيوس لم يقتنع بهذا . بل اعترض عليه ايضاً

وقال: ان هذا ليس هو ظفراً مجدي يستحق الثناء والحمد. لكن هو انهزام بمنزلة جبان ضعيف متهقر. فقال القديس: احنسب انت ذلك كيفاً شئت. وأما انا فاقرب بضعني أنه ليس لي جرأة على الحرب مع هؤلاء الأعداء الجزيلي القوة كما تفعل انت. لأنني لست أريد ان احارب برجاء الانتصار تحت خطر فقده احياناً. حيث أنه خير للانسان ان يهرب في الحرب الروحية لئلا يغلب من ان يغلب لأنه لم يرد ان يهرب. انتهى كلام القديس هيرونيمس. فلنتج من ذلك قائلين: أنه ان كان قديس جليل كهذا لم يثق بنفسه بل كان يخاف في وسط مثل هذه الاسباب اي الاسباب التي لا يوجد فيها خطر قريب للخطأ بل خطر بعيد فقط. وذلك كإلقاء امرأة دنيوية عاهرة في الطريق اتفاقاً. فكيف اذا تثقون انتم بنفسكم في سبب مخطر قريب لا بعيد. وهو كالذي اوردته القديس المقدم ذكره. اي تحديق النظر في وجه شخص عاهر والحديث معه واستماع كلامه والعشقة معه بحجة ودالة من دون احتراس. كيف لا تخافون انتم من مضاحكته مع ان القديس كان يخاف من مشاهدته فقط. كيف تأمنون انتم في زيارتكم له والجلوس معه. والحال ان هذا القديس المغبوط لم يكن يأمن على نفسه من الالتقاء به في الطريق فقط صدفةً واتفاقاً. العلى صدوركم قد أدمت من القرع بالحجارة اكثر من صدر هيرونيمس هذا القديس والمعلم. اظهروا لنا هل هزلت اجسادكم من الصوم والتقشف اكثر من جسده. ارونا هل تكلكت ركبكم من كثرة الركوع اكثر من ركبتيه. وهل تشوهت اعينكم من فرط البكاء اكثر منه. وهل جفت اعضاءكم اكثر منه لتفانم تعذيبها. العلى سهركم الليالي في الهذيد بالكتب المقدسة او تفسيرها قد كان اوفر من سهره. كم من الليالي صرفتم اكثر منه في الرقاد على الحضيض البارد المجلد. كم من المسوح ابلتكم على اجسامكم اكثر منه. كم من الاماكن المقدسة زرتكم اكثر منه. كم من المزامير تلوتكم اكثر منه. وبعد ذلك هل تؤثرون ان تقنعوني بانكم استعبدتم الجسد للروح وروضتم شهواتكم اكثر من قديس عظيم مثل هيرونيمس. لعبري اني

لستُ اصدقكم البتة * فمن هنا ينبغي ان تقرُّوا بضعفكم وتهربوا من اسباب الخطايا
مع القديس هيرونيمس ولو حسبتم انفسكم اقوياء * لان النبي حزقيال يقول « ينجو
الذين يهربون ويكونون في الجبال مثل حمام الاوطية كلهم خائفين » (حزقيال ١٦: ٢) *
ان الحمام اذا طارت وبلغت الجبال . يقل خوفها عما كان وهي سائرة في
الاطيئة * ولكن الابرار ليس امرهم هكذا . بل ينبغي لهم ان يخافوا ولو قلنا انهم بلغوا
قمة الكمال مثلما يخافون اذا كانوا بعد في اوطية الكمال * ولاجل ذلك قال النبي
المذكور « يكونون في الجبال مثل حمام الاوطية كلهم خائفين » * لانه وان قيل ان
الحبة اذا كملت تنفي الخوف حسب نص يوحنا الحبيب في رسالته الاولى بقوله
« ليس في المحبة خوف بل المحبة الكاملة تنفي الخوف الى خارج » (ايوحنا ٤: ١٨) .
الا انه يراد بهذا انها تنفي الخوف من القصاص لا الخوف من الخطية حسبما فسره
القديس توما امام العلماء اللاهوتيين . فتفعل افعالها اكراما لذات الله القدوسة
فقط لا خوفاً من العذاب الذي تستوجبها الخطية * ولكن الخوف من الخطية
تزيده المحبة في الانسان البار . ولا تنفيه منه اصلاً . لان الذي يحب الله اكثر حب
يحذر من ان يغيظه تعالى ويفقده ابلغ حذر * ولكن كيف كان ذلك . فلا تظنوا
ايها الاحبياء ان خوف القديس هيرونيمس الجزيل المشروح انفاً كان خوفاً وهمياً
صادراً من وساوس العقل لا خوفاً مؤسساً على قواعد راسخة قوية . ثم اعلموا متيقنين
انه يسوع لي ان احزرر لكم كتاباً كاملاً من اخبار الاشخاص الذين كانوا قد قاموا
بكمال القداسة . ثم لما طوخوا انفسهم في اسباب الاخطار نظير التي ذكرها القديس
هيرونيمس اعلاه . اقرؤا بضعفهم محتزين منه . بل اثبتوه ايضاً وسجلوه بسقطات
جسدية يرثي لها * وتحققاً لذلك اقول : من منكم لا يجزع قلبه اذا تذكر ذاك الساحح
يعقوب السرياني المشهور بين السياح بحسن السيرة : ان هذا بعد ان تجعدت
اسارير جبهته وصار شعره ابيض كالثلج من الشجوخة في الفياثي ما عرف ان يحفظ
طهارته تلقاء سبب محرك الى الخطا . بل لوقتته فقد بعار جسم عظيم جميع الاجر

والثواب الذي حازه بمدة خمسين سنة في توبة قشفيّة. وانتقل من خطبة اللذة بالقلب الى اقتضاض بكر. ومن اقتضاضها الى قتلها * ولو لم يتداركه الله برحمته الفائتة. لانتقل ايضاً من خطبة القتل الى اثم قطع الرجاء. وذلك انه تعالى اعانه وساعده بعينه الرفيعة ليقوم من سقطاته هذه المخوفة * ومثله سقط ايضاً وكتوريوس الساح كما يخبرنا عنه القديس غريغوريوس * وهكذا سقط ايضاً واحد آخر يقال له ثاوفيلوس. وآخر يقال بطوليموس. وآخر يدعى مكاروريوس الروماني. وآخرون ايضاً كانوا سابقاً نساكاً متسامين جداً في القداسة والسيرة القشفيّة حسبما يخبر عنهم بلاد يوس المؤرخ احد كتبة جنة الرهبان * فهو لآء كلهم اكادوا لنا بسقطاتهم الفظيعة صدق مثل اهل رومية القائل: ما من احدٍ يضحي كاملاً بسرعة. لان الطيران فوق السحاب يقتضي تعباً جزيلاً * ولكن لا تنتجوا من ذلك انه يصدق ايضاً المثل الآخر القائل: ما من احدٍ يصير شريراً الى الغاية بسرعة. فهذا المثل الذي يقال عند العامة يكذب احياناً كثيرة. لان التهور في اعمال الشر انما يقتضي شيئاً يسيراً * فاجيبوني اذا يا معشر المسيحيين: هل يتبين الآن لكم ان الخوف الذي كان يدرك القديس هيرونس على نفسه كان خوفاً وهمياً صادراً من وساوس العقل لا خوفاً راهناً مستنداً على امثال السقطات الجسمية العظيمة التي ارتكبتها غيره من الابرار * وان كان مستنداً هكذا. فكيف يسوغ لكم ان تفخروا بانكم انتم وحدكم خالون منه. انتم اللابسين انعم الملابس والمتعطرين باذكي الروائح العطرية والمترين بالراحات والمغتدين بالذم المااكل المسمنة * ايجل لكم ان ندعوا في وسط اسباب الخطأ بالقوة التي لم يجسر ان يدعي بها الابطال الذين اذابوا اعضاءهم بالتقشف والصوم على حب السيد المسيح في المغاير والبراري * لعمرى ان وقاحتكم هذه لشبهة تفوق شاعتها الوصف * بل اقول ايضاً انه ينبغي لكم ان تخافوا خوفاً اعظم من هذا نفسه اي من ثقتكم بغنى قوتكم. لان ثقتكم هذه تسقطكم باوفر سهولة. وذلك حسب شهادة روح القدس في سفر الامثال الالهية بقوله « الواثق بثروته

يسقط» (امثال ١١: ٢٨) *

ولنا تين الآن الى تفنيد المسند الآخر المقدم ذكره الذي به تثقون عند ما تطوِّحون بنفوسكم في اسباب الخطأ. اعني تايد النعمة الالهية * فنقول: انه ان كان الاشخاص الموردة اخبارهم انفا لم يكونوا يرجون ايضا من الله تعالى النعمة الفائضة التي يمكنها ان تلبسهم سلاحاً قوياً لدفع التجربة مع انهم حازوا ثواباً وافراً من شأنه ان يجعلهم اقوياء في الفضيلة والبر. فمن تراه منكم يرجو لنفسه هذه النعمة * ان من المحقق ان الله قدس اسمه يولي نعمته وحراسته كل احد بمقدار ما يكفي لخلاصه. ولكن سبيلكم ان تعلموا انه حينما يستطيع الانسان ان ينال مقصوداً من مقاصده بواسطة عامة مشاعة. فليس من شان الله تعالى ان يمنحه واسطة اخرى اخص واكمل * وافهموا قولي هذا لا نظراً الى ما يخص رتبة الطبيعة فقط بل نظراً الى ما يخص رتبة النعمة ايضا. ولجل ذلك لا ترون قط ان الله سبحانه يصنع آية معجزة حينما يستطيع الانسان ان ينال قصده بغير آية. ولكن متى ما تعجز قوته البشرية. فحينئذ تشرع قوة الله في ان تعضد وتعمل * وان رمت ان تسمعوا برهاناً من الاخبار الكثيرة التي يستطيع ان آتاكم بذكرها من الكتاب الالهي. فدونكم البرهان من حال الجوس القديسين الثلاثة * انكم تعلمون ان هؤلاء اعطاهم الله نجماً يقتادهم الى المسيح المولود في مغارة بيت لحم. الا انهم لم يعطوه ايضا حينما قصدوا الرجوع الى بلادهم مع انهم يمكن انهم احتاجوا اليه ايضا لانهم امروا «فرجعوا الى كورتهم في طريق اخرى» (متى ٢: ١٢) اصعب واقفر لا يعرفونها * ولاي سبب لم يعطوه: سبب ذلك ان المكان الذي ولد فيه المخلص وقد كانوا متجهين اليه لم يكن احد من الناس يعرفه. فلم يستطيع احد ان يهديهم اليه. ومن اجل ذلك اعطاهم الله ذلك القائد الالهي ليهديهم اليه * ولكن الوطن الذي كانوا راجعين اليه. كانوا يعرفونه. حتى وان كانوا جاهلين بالطريق الموصلة اليه كان يمكنهم ان يستهدوا اليه اما باستيبارهم اناسا يسرون معهم او بالاستخبار من كانوا يصادفونهم

في الطريق او برسالم امامهم هداة تدلهم عليه * وهكذا ايضا لما انحدر الملك
 الى شمعون الصفا في السجن . حلة من القيود ولكنه لم يعنه من التردى بشيابه . لان
 بطرس كان قادرا ان يلبسها بنفسه من دون عون (قصص ١٢) * وهكذا نجي ايضا
 الملك السفينة لبولس من هيجان البحر . وخلص له الملاحين والركاب الذين كانوا
 معه من الغرق . ولكن لم يساعده لينزل عنها الى البر . لان بولس كان في مكنته ان
 يبلغ البر بقوته واعنائه * وكذلك لما اقام المخلص من القبر لعازر حيا بعد ان
 اتن . اما كان تعالى يستطيع بسهولة اعظم ايضا ان يرفع الحجر عن القبر بكلمته فقط :
 نعم . ومع ذلك اراد ان يرفعها الحاضرون بتعب ايديهم . لان رفعها لم يكن يفوق
 طاقتهم (يوحنا ١١) * فانتجوا من هذه البراهين . انه ليس لنا ان نرجو من الله تعالى معونة
 فائضة غريبة حيث تكون تكفي معونته الاعيادية التي يعطيها لكل انسان * ولنعُد
 الآن الى مقصودنا فنقول : انه اذا تجنبتم السبب القريب للخطا الذي ترجون
 نفوسكم فيه باختيار ومعرفة . فمن تراه لا يعلم انكم تستطيعون بسهولة ان تحفظوا
 انفسكم مبتعدا عن الخطا بالمعونة الاعيادية العامة فقط التي تعطيها العناية
 الالهية ليس لكم فقط بل لكل انسان ايضا * ان الله تعالى قال « من يحذر الفخاخ
 تكون مطمئنا » . فكيف يحل لكم ان توملوا منه حراسة خصوصية ما عدا المعونة
 الاعيادية العامة المعطاة لكم ولكل انسان * وباملكم هذا تلقون انفسكم في الاسباب
 المخطرة كأنكم تريدون ان تلزموا الله ليصنع معكم آية معجزة باهظة : اليس
 هذه مجاسرة وقحة مذمومة * فان كان ولوجكم البيت الفلاني يحرك فيكم اشواقا
 وشهوات دنسة . فلا تدخلوه * وان كان اللعب الفلاني يحرضكم على الغضب
 والشتم والتجديف . فامتنعوا عنه * وان كانت العشرة الفلانية تسبب لكم افكارا غير
 لائقة او تعلمكم ما لا ينبغي ان تعرفوه . فاقطعوها * وعلى هذا النسق تخلصون من
 اشراك الخطا بتأييد العناية الالهية الاعيادية العام من غير تعب * اعساكم ان
 تطلبوا من الله تعالى ان يحفظكم سالمين من حريق النار حينما يكون لكم استطاعة

على ان لا تلقوا انفسكم فيها. ويكون الابتعاد عنها سهلاً لديكم: فهذا لا ترجوه منه عز وجل * انني عالم جيداً انه جلت قدرته حفظ الفتية الثلاثة من حريق النار في اتون بابل. وحفظ موسى وهو طفل وأبقاه حياً في وسط مياه نهر النيل في مصر. وصان دانيال من شراسة الأسود في الحب. وحفظ يونان حياً في جوف الحوت * والذي ليس هو باقل اعجوبة من هذه المذكورات هو انه سبحانه حفظ نوحاً وبنيه ونساءهم في السفينة من الضباع والنمور والدباب والسباع وغيرها من الوحوش الضارية من غير مضرة البتة * ولكن الا ترون انه ما من احد من هؤلاء الأشخاص طوح بنفسه في هذه الاخطار باختياره * فانجوا من هذه كلها هذه القاعدة الاكيدة وهي ان الانسان الذي يلقى نفسه في مخاطر الخطأ باختياره ومعرفته. ليس له ان يرجو من الله تعالى تأييداً خصوصياً. الا ان الذي يلقى نفسه فيها ملتزماً من قبل وظيفته او من قبل الطاعة لامر رؤسائه او من قبل سنة المحبة الاخوية. فيستحق «ان يوحي الله ملائكته فيه ليحفظوه في جميع طرقه» (مزمور ٩٠: ١١). كما وعد روح القدس * فهل سمعتم وفهمتم متى يحفظكم الله سبحانه وبؤيدكم: نعم في طرقكم اي في الطرق التي انتم ملتزمون ان تسيروا فيها التزاماً من قبل الاسباب المذكورة. ولذلك قال «ليحفظوك في جميع طرقك» ولم يقل: ليحفظوك في المسالك الوعرة والاشواك والوهجات * لان الذي يلقى نفسه في هذه الاشياء من غير سبب صالح داع يتهور ويسقط. ويصح فيه ما قاله تعالى في سفر ايوب «هذا باطل به الرجاء وبطرح ايضاً امام عيون الجميع» (ايوب ٤٠: ٢٨) * انني ارى انه يطابق هذا المعنى مطابقة حسنة اختلاف الحال الذي اعبرته في يهوديث مجد بيت فالو العظيمة وديننا ابنة يعقوب المغبوط * انكم لعارفون كيف دخلت يهوديث في معسكر الاثوريين لتنتصر على اليفانا المتعجرف. ومكثت هناك اياماً مع خلق كثير من جنود غير مهذبين نتحدث تارة مع الجواسيس وتارة مع الحراس. وتخالط اولى الدولة وتعاشر مع القائد. مزينة على الدوام بأجل الملابس النسائي. ومحللة بالاقراط في اذنيها.

وبالحواتم في اصابعها . وبالدمالج في معصمها . وبالقلائد في جيدها . وبالجواهر على صدرها . تفرح منها الروائح العطرية الذكية . وثملاً لكها بالحسن والبهاء * وأما دينا فانها ما لبست ولا تزينت بشيء من ذلك . بل وصلت مع اخوتها من القرية الى مدينة تُسمى سالم . ونصبوا حذاءها خيمهم في ارض اشتروها بفضتهم ليسكنوها . ولجل ان الفتاة المغفلة المذكورة كانت تفضرت من دوام سكنها تحت الخيم وحدها . تحرك فيها يوماً الشوق الى الخروج قليلاً من الخيم لتشرح صدرها قاصدةً فقط ان تنظر الى نساء تلك البلدة حسب نص الكتاب الالهي بقوله في سفر التكوين « وخرجت دينا ابنة ليا لتنظر الى بنات ذلك البلد » (تك ٢٤: ١) . ولعلها قصدت ان تترقب حسب مالوف عامة النساء الرعينات شكل ملابس نسوة ذلك البلد . وهيفة زينتهن . ولكن ما الذي حدث من ذلك : لما خرجت هذه الحماة الودبعة خارجاً عن عشها . انقضت عليها باشق خاطف وانشب فيها اظفاره . وكان هذا ابن والي تلك المدينة * فاعنبروا ان يهوديث استطاعت ان ترجع الى بيتها عفيفة نقيّة . ولكن دينا لم يمكن ان ترجع بكرّاً الى خيمتها * فليت شعري كيف امكن ان يحدث الامر هكذا اي ان احدهما سقطت سقوطاً فظيماً هكذا في خطر اقل . والآخرى حفظت سالمة عفيفة في خطر اثقل * ان يهوديث دخلت متورطة في العسكر . ودينا لم تبعد كثيراً من خيمتها . يهوديث ذهبت لكي تتردد مع رجال . ودينا خرجت لتنظر النساء والجواري اللاء من ربتها وجنسها * يهوديث قصدت ان يستبين جمالها . ودينا لم تفكر ان ترى . يهوديث تزينت بشباب فاخرة دنيوية . ودينا لم تكن متسرلة سوى كسوة اعنيادية * يهوديث استمرت ايّاماً في وسط الأخطار . ودينا اشرفت من بعد فقط * ومع ذلك كله فدينا سقطت في اشراك المنسدين . ويهوديث استمرت بمجدٍ عظيم ثابتة . ودينا خسرت شرف البكارة بعارٍ جسيم * فما هو هذا الاختلاف الغريب : انا اعلم ان السبب انما هو لكون يهوديث التي نفسها في الخطر بالهامر الهى ولاجل حاجة صالحة كما يثبت ذلك الكتاب الالهي

يقوله «ان تزيتها هذا لم يكن من هوى العشق بل من فضيلة النفس ولذلك زاد الرب على جمالها» (يهوديت ٢٠: ٤) * ولكن دينا طوحت بنفسها في الخطر باختيارها برعاية نسائية. كما يتلخص لنا ذلك واضحاً من نص الكتاب المقدس ايضاً بقوله «وخرجت دينا لتنظر الى بنات ذلك البلد» * فان عرفتم انتم في هذا سبباً آخر. فاوردوه لي * اقول انه لا ينتج من قصة هاتين المرأتين سوى هذه النتيجة . وهي انه من شان تدبير عناية الهنا ان تصون صيانة خصوصية الاشخاص الذين يلجون في مثل هذه المخاطر من باب الالتزام والاضطرار لا الاشخاص الذين يلجونها اختيارياً من باب الرعاية او خفة العقل * ألم يصن تعالى سارة وحفظ عنها سامة من بغي فرعون اذ اخطفها (تكوين ١٢) * انه قدس اسمه لم يصن رفقة طاهرة في دار ابيمالك الذي انشغف بها (تك ٢٦) * ونجى يوسف بين يدي امرأة فوطيفار مولاة التي تملقته الى الاضطجاع معها (تك ٢٩) وسوسنة من هوى شيوخ اسرائيل الذين بغتوها في الجنة (دانيال ١٢) * نعم انه تعالى صان هؤلاء جميعاً طاهرين مبررين سواء القوا انفسهم في هذه الاخطار بأمر الله مثل سارة ورفقة . او لم يلقوا انفسهم بها تعدياً واختيارياً مثل يوسف وسوسنة * ولكن داود الملك الذي لم يكن اقل فضيلة وقداسة من هؤلاء الاشخاص المقدم ذكرهم قد حدث له عكس ذلك . فانه خاطر بنفسه في ترقب جمال بتشباع من سطح قصره قاصداً التنزه والتفرج . فمن ثم تخلى الله تعالى عنه وسمح بان يعثر ويسقط بل تهوّر في عارٍ عظيم في لجة الفسق الدنس اولاً . ثم في اثم القتل الظلمي * فانجوا من هذه الاخبار والامثال ما يفيدكم في امر نفوسكم . واعلموا انه اذا حاقت بكم مثل هذه الاخطار المجاذبة الى الخطأ على رغبتكم او من باب الضرورة واستغتم بعون ربكم . فالاقرب الى المعقول انه جلت مراحمة لا يهلككم . بل يعضدكم ويحفظكم لئلا يؤذيك سبب الخطأ بسبه القاتل * ولكن اذا القيمتم انتم نفوسكم فيه وطفتم تلعبون وتهزأون حوله . فخافوا ايها المؤمنون وارعدوا . لان هذه قحة شديعة وجسارة لا تستحق من الله سبحانه تايداً

خصوصاً لئلا تستطوا بها وتهلكوا * وفي هذا الشأن قال روح القدس بقم ابن
 سيراخ «من الذي يرحم راقياً لدغته حية» (سيراخ ١٢ : ١٢) * وماذا عني بقوله هذا .
 اسمعوا وافهموا * اذا لدغت حية مرتصدة تحت عشها حارس البستان او راعي
 الغنم او واحداً آخر جائزاً في الطريق صدفةً واتفاقاً . يرحمه كل واحد ويسرعون
 فياتونه بالدرياق الشافي * ولكن اذا لدغت جاهلاً امسكها بيده ارعائه او طفق
 يلاعبها ويداعبها او لحسافة عقوله ادناها الى شفثيه ليقبلها . فكل من يراه يفعل ذلك
 يشتم به قائلاً : انه كاستحقاقه جوزي . ولا يوجد من يرحمه * هكذا نحن نقول : ان
 السبب القريب الى الخطأ هو كالحية . فلا ترجوا اذا الرحمة اذا اعريتوه انتم الى اللدغ .
 بل لكم ان ترجوها اذا اقتحم هو عليكم اولاً من غير تقصد او معرفة منكم * ان كل ما اوردته
 عليكم حتى الآن هو تعليم يقين لا ريب فيه البتة . ومع ذلك فما اقل الذين يفهمونه
 ويحفظونه * لاننا لا نرى في ايامنا هذه انه اذا تشدد معلم الاعتراف وامسك الحجة
 عنكم الى ان تبعدوا عن السبب القريب من الخطأ . فلوقتكم تلومونه قائلين : انه
 شديد صارم قاس قليل الافراز . وذلك لزعيمكم انه يسوغ له ان يثق بكم انكم لن
 تسقطوا في الخطا مرة اخرى ولو كان السبب اليه قريباً * ولكن كيف يمكنه ان
 يثق بكم في ذلك وهو يعلم علماً أكيداً ان الله العدل لا يريد ان يويدكم في مثل هذه
 الحال * ولكي تقتنعوا بذلك اعظم الافتناع ارضدوا عقولكم . واسمعوا هذا البرهان
 الاخير . لانه يمكن ان يكون اقوى من البراهين الموردة الى الآن *

ان من المعلوم ان الله عز اسمه اذ كان ينهي شعبه عن امر من الامور . كان
 غالباً ينهاه ايضاً عن كل شيء يمكن على نوع من الانواع ان يصير له سبباً لمباشرة
 الفعل المنهي عنه * وهكذا فعل منذ انشاء العالم في الفردوس الارضي مع ابونا
 آدم وحواء . فانه لما اوصاهما ان لا ياكلتا من شجرة المعرفة . امرهما ايضاً ان لا يقرباهما
 كما يبين من كلام حواء للحية اذ قال لها «قال الله : ولا تقرباه» (تكوين ٢ : ٢) *
 وكذلك فعل مع الاسرائيليين . لانه لما اوصاهم ان لا يسجدوا للمنحوتات البتة . اوصاهم

ايضاً ان لا يضعوا شيئاً منها في بيوتهم * واذ اوصاهم ان لا يستعملوا في أيام الفصح خبزاً من خمير . اوصاهم ان لا يحفظوا ايضاً لديهم شيئاً من الخمير * ولما اوصاهم ان لا يصعدوا جبل سينا . اوصاهم ايضاً ان لا يقربوه * ولما نهاهم عن الطبخ في يوم السبت . نهاهم ايضاً عن ايقاد النار في ذلك اليوم * وحينما حرم على التزيرين شرب الخمر . حرم عليهم اكل العنب ايضاً والزبيب . وذلك لئلا يشتهوا ذوق لذة الخمر منجذبين من حلاوة ثمرته * اوليس هذه الاشياء قد شددهما المخلص في السنة الجديدة اوفر تشديد : سلوا في هذا يوحنا الذهبي الفم . فتسمعه يقول لكم : ان السيد المسيح لم يقصد بوصاياه الانجيلية الا ان يقطع عنا جميع الاسباب التي يمكنها ان تجذبنا الى مخالفة وصايا سنة العهد العتيق * ولنوردن في ذلك مثالا من اقوى الامثلة * فنقول : ان الله اوصى في الشريعة العتيقة قائلاً « لا تقتل » وهذه الوصية حرم تعالى بها على البشر القتل . الا انه لم تكن هذه الوصية الالهية تحفظ قديماً حنظاً جيداً . لانه من حيث ان الناس كان يحرك احدهم صاحبه الى الغضب غالباً بكلام القذف المر . فكان يصعب عليهم ان لا ينتقلوا من الكلام الى الضرب . ثم يتورطوا من الضرب الى القتل * فا الذي فعله يسوع ربنا : انه جعل هذه الوصية سياجاً . فقال « سمعتم انه قيل للاولين لا تقتل . واما انا فاقول لكم : ان كل من قال لاخيه راقا وجبت عليه لائمة الجماعة » (متى ٥ : ٢١) * ها هوذا قد رفع القتل برفعه تعالى سبباً وهو كلام التعبير والشم * ومثله حرم الله قديماً الحنث باليمين . غير انه كان يمكن ايضاً مخالفة هذه الوصية بالسهولة . وذلك لان الناس كانوا غالباً يستعملون الكلام البطال والحديث الفارغ . فكان يسهل عليهم ان ينتقلوا من الكلام البطال الى الحلف ومن الحلف الى الحنث . فا الذي فعله مخلصنا : انه جعل سياجاً آخر لهذه الوصية . فقال عز اسمه « سمعتم انه قيل للاولين : لا تحنث في يمينك . واما انا فاقول لكم : لا تحلفوا البتة . بل ليكن كلامكم : نعم نعم ولا لا » (٢٣ و ٢٧) * وها هوذا قد منع الحنث برفع السبب الذي يدعوا اليه وهو الكلام الزائد والبطال * وايضاً قد حرم

الله قديماً الزنا بقوله في الرصية السادسة من الوصايا العشر «لا تزن». والحال ان السبيل كان مفتوحاً جداً لمخالفة هذه الرصية. وذلك لان الناس كانوا لا يعبأون باطلاق النظر والتفرس بالصور الجميلة الجسدية. فكان يعسر عليهم ان يضبطوا نفوسهم لئلا ينتقلوا من التفرس الى الشهوة ومنها الى الفعل * غير ان ربنا فعل هكذا اي انه تعالى دبر ايضاً هذه الرصية سوراً آخر فقال «سمعت انه قيل للاولين: لا تزن. واما انا فاقول لكم: ان كل من ينظر الى امرأة ليشتبهها فقد زنى بها في قلبه» (٢٧) * ها هوذا قد رام جلت حكمته ان يمنع الزنا برفعه عنا النظر الدنس المحوج الى اثم الزنا * ولتختصر الكلام ونقل: انه يتبين من هذه الوصايا وغيرها مما يشبهها ان السيد المسيح كانه لم يات الى الارض الا ليجرض الانسان على ان يمتنع عن كل شيء يمكن ان يلقيه في سبب قريب من مخالفة الشريعة الالهية والتعدي عليها. واطن ان هذا هو ما اوعز اليه بجداقة عقل دقيق اشعباء النبي العظيم اذ انبا عن المسيح انه سوف يسمي واضع السياجات بقوله عنه تعالى «وتدعى مسدد السياج» (اش ٥١: ١٣) * وما الذي ينتج من هذه الجملة كلها. ينتج ما قصدت انا بيانه في هذا الصدد. وهو ان الله لا يريد ان يؤيدنا تاييداً خصوصياً حينما نلقي انفسنا في اسباب الخطايا * ولا يوضح ذلك قولوا لي يا معشر الاحباء: اية حاجة في ان الله يوصي بكل هذه الصرامة ان نجنب بكل قوتنا اسباب الخطايا ان كان هو تعالى قد حتم ان يؤيدنا فيها تاييداً خصوصياً عظيماً لئلا نتعرقل بها ونسقط * لعمر ب لو انه حتم ذلك. لكان عبثاً قد نهانا عن الاقتراب الى الهوته. بل كان يدعنا لنباغ الى فيها ثم كان يسرع ويمسكنا عن التهور فيها. وتركنا ان نحدق النظر كيفما احببنا. ونحدث بحسب هوى نفوسنا. ونشتم ونهزأ كيفما لاح لسرنا. وبعد ذلك كان يقدر ان بعضدنا لئلا نتهور في الدنس والخنث والخصومة والقتل * ولكن لانه جل ذكره دبر لنا خلافاً لذلك. فقواوا لي ايها السامعون: على اي شيء يدل هذا: اما هو دليل واضح على انه لا يريد ان تطوح نفوسنا في اسباب الخطا تحت امل تاييده ونعمته *

فهذا هو قياس واضح جلي كأنه ملموس بالأيدي . ومحقق غير مرتاب به * وان كان ذلك كذلك . فما الذي نقولونه وما الذي ننتظرونه * ليت شعري متى تبتدون وتريدون ان تمتنعوا اقتناعاً تاماً بأنه اذا لم تهتموا بحفظ داركم . فانتم تهلكون * العلمكم تطلبون قياساتٍ اخر اكثر من الموردة الى الآن لتمتنعوا * ها قد رايتم انه لا يحل لكم ان تستندوا على فضائلكم التي تزعمون انها تجعلكم اقوياء لعدم السقوط في حين اسباب الخطأ . ولا على النعمة الالهية مترجين تأييدها لدفع التجربة . لكن ينبغي لكم ان تتعلموا وتحذروا معتبرين بخوف غيركم الذي كان يخاف من القاء نفسه في مثل هذه الاسباب كالقديس هيرونيمس . بل معتبرين بسقوط غيركم في هذه الاسباب وملاكيه كما سقط بها الاشخاص المقدم ذكرهم انفاً * فما الذي تطلبونه اكثر من هذا * قال القديس اوغسطينس في هذا المعنى . ان الذي يروم ان يجوز من حيث بصر غيره سقط هو غبي وجاهل . ومن هنا لا ريب في اننا نذم من يروم ان يقطع في الشتاء نهراً قوياً جارياً بعد ان ابصر الذين تقدموه غرقوا فيه . او من اراد ان يجوز في وعير كثيف في الليل بعدما سمع ان الذين جازوا فيه قبله وقعوا في ايدي اللصوص وقتلوهم * فاطوا تلك الكتب الدنسة التي تلتذون بقراءتها . اجنبوا تلك المسامرات الدنيوية الباطلة . امتنعوا عن تلك الملاعب المخرطة . اقطعوا تلك المودة التي تجذبكم الى العشق الردي . اطرذوا من منازلكم ذاك الشخص الذي هو لكم ولغيركم سبب العثرة . ان اردتم خلاص نفوسكم * ولا تقولوا انه لا يوجد في ذلك خطر . ولا تزعموا بانكم انقلبتم عما كنتم عليه سابقاً واضحيتم تحذرون على انفسكم حذراً اوفر جداً مما سبق ولا تخافون ايضاً . معتقدين انكم ولو ترددت مع ذاك الشخص الا ان نيتكم سليمة وليس لكم في ترددكم معه مقصد ردي * فلا تقولوا هذا اصلاً . فاني اكرر عليكم الوصية صارخاً : اقطعوا عنكم كل سبب الخطأ . لان هذا هو الذي يريدُه الله منكم * كل من يتوب عن السجود للاصنام . يجب عليه ان يطرح عنه الصنم . وهذا هو السبب القوي الذي يورده كثيرون من الآباء في

هلاك سليمان الحكيم المنكود. اي أنه لم يظهر توبته برفع الاصنام التي كان قد اقامها في ملكته * لقد سجدتم لتلك الصورة التي احببتموها وصيرتموها لكم صنماً فان اردتم اذا ان توبوا وتخلصوا. فاطرحوها عنكم وابعدوها. ولا تاتوا بذكرها فيما بعد اصلاً * واقول بمصر الكلام أنه ينبغي لكم ان تطرحوا عنكم كل اسباب الخطية. وافعلوا وقولوا نظير الفيلسوف الحكيم كراتس ان رأى امتعته تصدده عن الدرس والهذيد في العلم فحملها الى البحر والقاهها فيه قائلاً: انني اغرتك لئلا تغرقيني انت * فعلى هذا النسق هي الاسباب القريبة. فلانها تجذبكم الى الخطا وتصدكم عن خلاصكم الابدی وتطرحكم في جهنم. فالاليق بكم ان تطرحوها عنكم وتبعدوها قائلين: انني اطرحك ايها الاسباب عني. وابعدك قبل ان تطرحيني في عذابات جهنم. وتبعديني عن ربي * فان فعلتم كذا. فتكون توبتكم عن الخطية توبةً نصوحاً كاملة. والا فتكون توبةً كاذبة. لانه يدعى كاذباً من يزعم أنه ابعد عن قلبه الخطية ومع هذا يفتح لها ابواب داره *

القسم الثاني

انني قد جاهدت حتى الآن وتعبت بشرح مستطيل في ان اثبت للجميع ان الثبوت في البر تجاه الاسباب التي يوجد فيها خطر للنفس هو امر عسير وصعب على الانسان. ولكن مع ذلك يجب ان اتأسف على تعبي هذا واحزن. لانني ارى انني اضعت الزمن باطلاً في هذا الصباح كله * لانني لست ارجو من الجميع الفائدة الماثورة. ولو كان الذي قلته واثبته هو من اوضح الحقائق التي ينادى بها من على المنابر. وكل انسان يعرفه ويمتحنه في نفسه * وان سالتوني قائلين: فلماذا لا يتجنب غالب الناس اسباب الخطا. فها انا اجيبكم قائلاً: اعلوا ان السبب في علم تجنبهم اسباب الخطا هو أنهم يحبون ان يخطئوا * انه لا ريب في ان نار الشهوة

المحرمة هي متقدمة في اعتمق فئدة اكثر الناس. ولاجل ذلك هكذا يفعلون: يسبرون في طلب الملاهي التي تقدم لشهواتهم صنفاً مما يروي غليلهم ولو كان محتجباً. فيسرعون الى التعاليل. او الى المسامرات. او الى الزيارات الدنيوية. او الى احتفالات الاعياد. وذلك لكي يجدوا هناك مرعى لشهواتهم كما تقدمنا قفلنا * ولذلك فلا يخلون من الخطا في مثل هذه الاسباب. وان كانوا لا يخطئون بالفعل جهاراً. فيخطئون بالفكر او بالنظر او بالتبسم او بالاشواق المستكنة داخل قلوبهم * ليت شعري هل يوجد فيكم من تعجب مما خاطبتكم به في هذا الصباح بحسب هذا المنوال الغريب: اما منك يا ايها المدينة «الفلانية» لقد التزمت كرهاً مني ان اتكلم اليوم فيك هكذا. فكيف يمكن ان لا تخجلي من تملك نفسك انك رويداً رويداً من غير ان تفطني اتسعت في العشرة الرحبة والسلوك المذموم غير المهذب * لعمرى انك كنت سابقاً مدينة صالحة محمودة يستطيع الشعوب ان يتواردوا اليك ليقندوا بك في الرزانة والادب والحكمة والحياء. فكيف اذا اعطيت انت ايضاً مجالاً للتهتك. وانفتح فيك السبيل للملاهي واللعب والعشرات من غير تحفظ * فيجب علي الآن ان انوح باكياً على انقلابك. واقول مع اشعياء النبي «كيف صارت زانية المدينة» (اشعياء ١: ٢١) واية مدينة «المدينة المومنة الملوثة احكاماً التي سكن فيها العدل» لان هذه هي الخطوة الاولى دائماً التي منها يحدث الانتقال الى المباشرة الدنسة وهو السلوك من دون خشية وعدم الضبط في التردد * ان بلاد افريقية الداخلة تحنوي على امساخ من الوحوش اكثر مما يوجد في الارض باسرها. وعلى ظني انكم لا تعرفون ما هو سبب ذلك. فهانذا اقول لكم: وهو ان تلك البلاد جافة يابسة جداً بل عديمة المياه. لانه لا ينحدر عليها مطر البتة. ولذلك تعطش الوحوش فيها كثيراً وتلجئها الضرورة الى ان تجتمع معاً على شاطئ نهر واحد لتشرب * ومن جرى ذلك اذ تلتأم هناك جميعاً معاً من اناث وذكور من اجناس مختلفة. فينعطف احدها الى الآخر بالشهوة. وهكذا

يكون تناسل الامساخ الهائلة * اقول الآن ان المدينة وان كانت صالحة .
 فتستحيل اخيراً الى بلد الامساخ نظراً الى النفس . اذا أعطت مجالاً للاطلاق
 الذميم والعشرة غير المصونة التجارية على حسب الهوى * لعيري أنه لا ينقضي زمن
 كثير الا وترى الامساخ فيها . لان اشخاصاً كثيرين يخلف احدهم عن الآخر
 في الحال والمرتبة والجنس مجتمعون معاً في التنزهات والتعليلات والحديث
 والولائم . في البيوت والشوارع والبساتين * اللهم الا ان تكون الامساخ قد ظهرت
 الآن في هذه المدينة ايضاً . اذ لنا اسباب قوية تدعونا الى الظن والشك بذلك .
 لاننا نرى عياناً ان الخطايا الشهوانية قد اصبحت دارجة في هذه الايام عند اهل
 مدينتنا هذه . حتى انهم لا يستحون من ارتكابها . بل اضحوا يحسبونها انفراج الطبيعة
 ونزعتها . ومن قبل ذلك يستخفون جرمها كأنها ضعف طبيعي في الانسان كما ان
 الحى هي طبيعية في الاسد *

يا للعجب كم مرة قد سمعنا من كثيرين يقولون : أنه يجب ان نلاحظ
 ونرحم ضعف الطبيعة . ومن ذلك يستعظون جميع الخطايا كالشتم والحلف
 والغضب والسرقة . ولكنهم يعذرون خطايا الدنس قائلين انها تصدر من ضعف
 الطبيعة الفاسدة . ولاجل ذلك على قولهم ليس لنا ان نتعجب مستعظين جرمها وكثرتها *
 فيا ايها السماء اشهدي عني وقولي امام هذا الشعب المسيحي : أعظيمة ام خفيفة هذه
 الخطية التي لا يستثقلها كثيرون ولا يعتبرون شرها ولا يباليون بها في ايامنا هذه
 النجسة * اما هي التي من جرها انفجرت ميازيبك وانزلت على الارض طوفان المياه
 وغرقتيها . تكلي وقولي علانية لاجل اية خطية انفجرت ميازيبك : اليس لاجل هذه
 الخطية التي يحنقر جرمها الكثيرون * أنه من اليقين ايها السامعون أنه لما حدث
 الطوفان في الدنيا . كانت فيها جميع الخطايا . كالسرقة والغضب والحنث باليمين
 والتجديف وما ضاهاها ما خلا خطية عبادة الاوثان كما اثبت ذلك القديس توما
 امام العلماء اللاهوتيين . ومع ذلك فلاية خطية على الخصوص اتى الطوفان : لا

ريب في أنه لم يحدث إلا من جرى خطبة الدنس * هكذا يعلمنا الكتاب المقدس
 ولا سيما سفر التكوين الالهي بقوله «لأن كل ذي جسد كان قد افسد طريقه على
 الارض» (١٢: ٦) * ويشهد بذلك الآباء القدوسون . فكيف تستيجون لانفسكم ان
 تستخفوا هذه الخطية . وتعتذرون بأنها ضعف في الطبيعة الفاسدة بعد ان افاض
 الله تعالى هذا الطوفان العظيم من المياه ليغسل الارض ويرحضها من دنسها
 ووخمها * طوفوا بعقولكم . واجمعوا بالفكر جميع تلك الجثث البشرية التي غرقت
 في مياه ذاك الطوفان العرمم . وكردسوها بعضها على بعض . فتروا قد تكون منها
 جبال شامخة تبلغ الى الجوّ * وبعد هذا قولوا ما اخفت اللذة الجسدية التي صدر
 من قبلها هذا الفصاح الخيف المرعب * فاقول لكم اذا ايها المومنون انه يجب
 عليكم ان تخافوا من هذه الخطية ابلغ الخوف من هذا الوجه عينه . وهو انها صارت
 مشاعة واضحة عامة في الاكثرين حتى لا اقول في الجميع * فلو كانت منحصرة في القليلين .
 لما انحدر على العالم قصاص غريب كهذا اي الطوفان * ولكن ما بالي تورطت
 وتكلمت معكم هكذا ايها الاحباب الحاضرون هنا كأنكم مدتسون بها انتم ايضا . والحال
 انني لو ائق بكم انكم لعلمكم لم تشابوا بها اصلا . فاسألکم ان تسامحوني بما تكلمت معكم .
 لاني عالم جيدا ان المتوغلين بهذا الاثم الشنيع المحتاجين الى استماع الوعظ احنياجا
 اكثر من غيرهم . ليس من عادتهم ان ياتوا الى الكنائس كثيرا وقت الوعظ *
 فهل تعلمون كيف صنعت انا في آخر خطبتي هذه . قد فعلت شبه المحزون الذي
 لما لم يمكنه ان يستحضر امامه الذين صاروا سببا لحزنه . يظهر اثر حزنه وتمرره على
 مقدار ما يستطيع في من يصادفه ولو كان برياً وغير عارف ما هي علة مرارته *
 ولكن لنعد الى موضوعنا ونختم خطابنا قائلين : ان السبب الذي يجعل الناس
 يطوحن انفسهم في مخاطر الخطا واسبابه ليس هو غالبا ثقتهم بنفوسهم بانهم
 اقوياء وغير خائفين من السقوط . بل السبب انما هو حبهم للخطية او على القليل توهمهم
 بانها شر قليل ليس بعظيم * فيا لكثافة غرورهم وانخداعهم المهلك اذ يتوهمون ان

خطبة النفس في ضعف في الطبيعة وليست بشر عظيم * فليعلم مثل هؤلاء ويحققوا
 خلافاً لذلك اي ليعلموا ان هذه الخطبة هي الشر الذي يخفض شرف مرتبة
 الانسان السامية ويجعله حقيراً مردولاً اكثر من سائر الخطايا. الشر الذي يظلم
 ذهنه. الشر الذي يوذى عقله. الشر الذي يصيره شبيهاً بالبهائم بل اكثر تشبهاً
 بها. ويجعله في زمن يسير ان يفقد كل خير اي الزمن والمال والصيت والراحة
 والصحة والسلامة والحكمة والحريّة. وعلى الاطلاق نقول انه يجعله يخسر نفسه كلها.
 لان هذه هي الخطبة التي تجعلك بسهولة اعظم من جميع الخطايا ان يموت هالكاً *
 اسمعوا ما يتفوه به في هذا الصدد ابن سيراخ الحكيم. قال « لا تبذل نفسك للزواني
 لئلا تلتف نفسك » (سير ٩: ٦) قال « لئلا تلتف نفسك » ولم يقل لئلا تلتف امتعتك *
 ولذلك ينبغي لكل منكم ان يحذر من هذه الخطية كل الحذر. لان الراي الراجح ان
 القصاص الاعظم الذي يستطيع الله جلبه قدرته ان يقاص به الانسان اذا
 غضب عليه هو هذا وهو ان يدعه يسقط في حفرة الشهوة مع المرأة الاجنبية.
 كما يتضح ذلك من سفر الامثال حيث قيل « حفرة عميقة فم الاجنبية. من يغضب
 عليه الرب. يسقط فيها » (امث ٢٢: ١٤) * ومن هو منكم الذي يظهر على نفسه انه
 يؤثر بالحقيقة ان لا يسقط في هذه الحفرة. لعمرى هو من لا يحب ان يلعب على
 حافتها. فهو « القوي » الذي « اذا تسلح وحفظ منزله فان امتعته تكون في سلامة » *

الخطبة السابعة عشرة

ننصن التعجب من قباحة نفاق من لا يخشى ان يكافي
الله تعالى عن خيره شراً

«فقاموا واخرجوه خارج المدينة . وجاءوا به الى أعلى الجبل الذي كانت
مدينتهم مبنية عليه . ليطرحوه الى اسفل» (لوقا ٤ : ٢٩) *

القسم الأول

أنتي الآن ادعو البشر الناكرين احسانات الله تعالى لياتوا ويحضروا هنا
امامكم للحساب يا أيها السامعون . ويعطوا جواباً عن انفسهم ويبرئوها من شائبة
عدم الشكر لربهم ان استطاعوا ذلك * فهذه هي المرة الاولى التي فيها ظهر اناس قد
تجاسروا على ان يمدوا ايديهم على السيد المسيح ويهجموا عليه بوقاحة لم يسمع بمثليها .
ويمسكوه بغضب شنيع . ويوثقوه بمنزلة مجرم مرتكب افضح الآثام . ويصعدوا به الى قمة
جبل عال لينزجوه الى اسفل فيموت * لكن قفوا أيها الانام الاشرار . والبشوا قليلاً
لكي اسألکم مستفهاً وقائلاً : اما هذا الانسان هو ذاك المسيح المنتظر المشتاق اليه
منذ دهور كثيرة والمرغوب بتضرع غزير والمجدوب من السماء الى الارض بيكاه
ونوح عظيم : نعم انه هو نفسه * فلماذا اذا تعاملونهُ هكذا بعد ان حظيتم به
وحزقوه * لعمرى انك لقد اصببت ايها السماء في الابتداء بامساكك اياه تعالى في
عرشه الالهي وتاخيرك عن ارساله الى الدنيا . فلماذا عدت وارسلتيه مع كونك
تندمت فرايت المعاملة الرديئة التي كان جماعة البشر عنيدين ان يعاملوه بها *
ولكن هات ندع البري يموت . لان نفاق البشر هكذا يجب . ولكي يعجلوا في موته
فليستجروه جذباً الى رؤس الجبال ويهوروه منها * الا انه يجب علينا ان نعلم من

هم الذين يجسرون قبل الجميع علي ان يضعوا ايديهم عليه ويمسكوه . ولنصبر قليلاً
 لنعائين من آية طائفة خرج هؤلاء الكفرة المتوحشون . ومن آية مدينة ومن اي
 بيت حتى لا اقول من اي كهف او من اي وعير * انه لا ينبغي لنا ان نتعب يا
 معشر السامعين في الفحص عن ذلك : ها قد سمعنا وعلمنا جميعاً ان الناصريين
 اهل بلدتهم كانوا اول من تجاسر في مد الايدي عليه تعالى وطلب قتله * اني
 هنا اروم طالباً ان يجل اليوم جماعة البشر من انكارهم نعم ربهم * ليت شعري
 كيف استطاع الناصريون الذين انعم عليهم السيد المسيح اكثر من سائر اهل
 فلسطين ان يكونوا الاولين في اضطهاده والاقحام عليه بغضب . مع انه تعالى
 منهم قد اتخذ لقبه وفيهم قصد ان يجعل سكناه الالهية * لعمرى ان هذا منهم نفاق
 لا يوصف : لان هذه العداوة لو اظهرها له قبل الجميع اناس آخرون غرباء لم ينعم
 عليهم تعالى بل محكوم عليهم ان يكونوا رعاك الناس ورجالهم . لكنت اذن اعذرهم
 قليلاً ولا اذمهم كثيراً * ولكن بما ان الناصريين اهل بلدتهم المحبوبين لديه ابغضوه
 واضطهدوه وقصدوا قتله قبل جميع البشر . فهذا لعمرى اثم عظيم قد جاز حدود
 الآثام كافة * ولكن آه والسفاه : اني ان كنت اذم الناصريين على صنيعهم هذا .
 فقد كان ينبغي لي ان اذم معهم مسيحين كثيرين * ساحوني يا معشر السامعين
 الاحباء ان بينت لكم من هم هؤلاء * لعمرى اننا قد حصلنا اليوم في حال سيئ
 باهظ جداً حتى ان المسيحيين الذين انعم عليهم يسوع المسيح باوفر النعم هم اكبر
 اعدائه ويغيطونه ويهينونه اكثر من غيرهم * ولنتكلن مصرحاً من غير محاباة ونقول :
 ان القوم المتفضل عليهم بمراتب اشرف وصيت اعظم وغنى اغزر وحسب افخر . هم
 الذين يستهينون به غالباً بوقاحة ابلغ ويسئون اليه بسيئاتهم اكثر من غيرهم * فانجعلن
 اليوم موضوع خطابنا هؤلاء . ونجلهم مع الناصريين المنافقين . ولنشتن على صيغة
 الاطلاق والوجه العام لا على سبيل الافراد عظم اثمهم هذا في عدم شكر جميل
 ربهم حيث انهم يكافئونه عن خيراته بالشور *

أنني حينما عزمْتُ على بيان هذه القضية المذكورة شعرتُ بنفسي نادمةً على ما عزمْتُ عليه * وابن نحن موجودون وفي أي مكان نحن متكلمون يا أيها السامعون: آيين وحوش بريّة. ام بين آدميين عاقلين. ام بين قوم عجم. ام بين مسيحيين. لأن هذا الموضوع الذي قصدتُ بيانه أنما يناسب ان نخاطب به جماعة من الناس يكونون أما نمورة او اسودًا او تنانين وما ضاهاها من الوحوش الكاسرة * فاقول أنه لو كانت هذه الوحوش قابلة المعرفة والنطق. لكنتُ اجسر واشجع نفسي على ان افهمها بتليل من البرهان عظمة اثم من ينكر احسان المتفضل عليه وعضاً عن خيره يجازيه شراً * ولكن ما بالي قلتُ ان هذا الموضوع أنما يناسب جماعة من الناس يكونون وحوشاً. والحال أنه بحسب ظني هذه الوحوش نفسها لا ترضي بان تسمع مثل هذه التوبيخات المرّة. بل أنها لو نطقت لبيّنت لي من شواهد كثيرة واخبار متعدّدة ان هذا الاثم اي اثم عدم الشكر هو عندها ايضاً منكر ومحقوت. وانها تحب من ينعم عليها ولا تهينه ولا تؤذيه. ولكانت من جملة الشواهد تورد لي احتجاجاً عن نفسها شهادة سينكا الفيلسوف حيث قال: ان الوحوش نفسها تشكر الجميل. حتى أنه مها كانت البهيمة بريّة شرسة فانها مع ذلك تنقل شراستها الى استيناس مع من يحسن اليها * ولكانت ايضاً اثباتاً لذلك تذكرني بالتسلط الذي حازه حنون القرطاجني على السباع. لأنه كان تسلطاً باهراً عجباً حتى ان اهل بلده حكموا أنه لا يسوغ لانسان ان يعصيه بعد ان خضعت له الوحوش وامتلكها * ولكانت ايضاً ذكرتني بتودد سبع في بلاد فلسطين لرجل جندي يقال له منتوريس السيراكوسي وذلك لأنه انتاش من رجلاه شوكة * وكذلك لكانت خبرتي بخدمة سبع آخر في بلاد افريقية لرجل اسمه البيدس لأنه استخرج من فيه عظماً كان انغرز ما بين اضراسه ويوله الما لا يطاق * ولكانت ايضاً اعلمتني كيف ان ضبعاً من الضباع اضحت وهي في الغاب تود وتحرص احد الرجال وذلك لأنه حن على عجيبها واصعد من هاوية عميقة اجرنتها الصغار الذين كانوا قد زجوا فيها اتفاقاً *

وكانت خبرتني ايضاً بالتنين الذي انقذ من ايدي اللصوص في بلاد اركاديا رجلاً
يسمى تواتوس لانه كان يطعمه وبعوله. ولكانت اخبرتني عن الاسد الذي حامي في
رومية عن المحسن اليه وصانه من افتراس بقية الوحوش التي التي اليها عقاباً عن
جرائمه * ولو انغلبت انا بمثل هذه الاخبار. ما الذي كنتُ استطيع ان اجيبها به :
لعمرى اني كنتُ امتلى حياءً وخجلاً والتزم ان اعود راجعاً الى هذا المنبر واهتف
صارخاً بمنزلة من اعتراه الهول والذهول قائلاً : يا ايها القلوب قلوب بني البشر
وخاصة يا قلوب المسيحيين هلم وتعالوا نحوي. لكوني قاصداً ان اقتادكم الى الفغار والمغابر
وكهوف الجبال لتعلموها من الوحوش شكر المعروف لربكم. لان هذه اذا احسنتم
اليها فتخيل غالباً شرستها الى لطف معكم. وتسمع صوتكم وتطيع امركم وتمشي في
اثركم. ولا تحرق انيابها لتنهشكم حينما تبسطون ايديكم لتطعموها * واما انتم فتجازون
ربكم بعكس ذلك * وما الذي لم يفعله تعالى معكم من الاحسان يا ايها الخطاة
ليستاب منكم قلوبكم. قولوا لي ما الذي لم يفعله. فيها هو جلت مراحمة وهو مستقر
على عرشه لا يزال من هناك معتنياً بالاحسان اليكم كأنكم انتم بمفردكم اهتمامه وشغله *
ولم يكفيه ان يدبر لوازمكم واحنياجاتكم. لكن اراد ان يشاهدكم حاصلين على خيرات
وفائزين بملذات ايضاً * بكم من الخيرات افعم الارض على حبكم : اننا ان اخذنا نتكلم
عن الحيوانات. فنرى بعضها قد اعطاكموها لاجل تنعمكم. وبعضها لاجل خدمتكم.
والغروس بعضها لاجل فائدتكم. وبعضها لاجل انشراح صدوركم. والمعادن
بعضها لاجل غناكم. وبعضها لاجل علاجكم. وقد امر جميع العناصر ان تخدمكم
وتغيشكم في كل شيء يمكن ان تجننوا منه نفعاً * فلاجلكم ولخيركم اقام ملائكة لكل من
الافلاك ليعتنوا بها ويدبروا حركاتها. ولاجلكم وبامرهم تسير ليلاً ونهاراً عدة كثيرة
جزيلة المقدار من الكواكب والنجوم لانارتكم وحراستكم * ولم يعط ساعة واحدة من
الراحة للانهار والجمار. لكن اراد ان تكون هي ايضاً متحركة من غير سكون لاجل
خيركم. وذلك اما في تروية حقولكم وخصبها. واما في اخماد الحر عنكم او في نقل

بضاعات تجارتكم. او في اشباع طمعكم * وبالنتيجة اقول انه جلت مراحته مقيم كل
المخلوقات في الحركة والعمل لاجلكم * فكيف تجسرون انتم على ان تهينوه وتسخطوه
بخطاياكم في الوقت الذي فيه يحسن اليكم بهذا السخاء العظيم. وكان ذلك قليل
فتزدادون اثماً ونفاقاً حينما هو عز اسمه يزيدكم جوداً وسخاءً * لعمرى اني ارى هذا
اثماً عظيماً يفوق الادراك جداً. حتى انني لو ولجت العالم الآن جديداً وسمعت احداً
حتى من اشراف الدنيا يخبرني به. لما كنت اصدقه. بل لاجبته قائلاً: ان هذا
كذب محض او انه مبالغه من الواعظين. لانه لا يمكن ان يبلغ البشر الى هذا
الحد من الجهل والكفر * آه واسفاه. فانه لو اراد ان يقنعني بصدق كلامه من
اخبار جميع الاجيال السالفة حتى الآن لاضطرت ان اسلم له مغلوباً. واقر له
بانه يقول الحق *

ليس من المعلوم الاكيد دائماً ان الناس يزدادون شراً وكفراً عند حلول
الخيرات والسعادات عليهم: اسمعوا كيف يشكو الله سبحانه على لسان ارميا النبي
قائلاً « تعظّموا واستغفروا. سمعوا وتشبهوا » (ارميا ٥: ٢) * وبعد ذلك ماذا فعلوا
« تعدوا على كلامي تعدياً شريراً » * واثباتاً لذلك تذكروا الاسرائيليين. ان هؤلاء
اذ كانوا منغمسين في الطين ومضوكين بجل التراب والعمل في الابنية تحت
رق عبودية المصريين. داموا مع الله تعالى امينين صادقين. حتى انه على راي الآباء
والعلماء ما ارتكبوا شيئاً من السجود للمخونات اصلاً * لكن بعد ان نجوا من هذا
الاسر المرّ وابصروا الجمار تخضع لهم وتفتح لهم طريقاً في وسطها يجوزون به على اليبس.
ورأوا السماء تمطر لهم القوت من العلو في البرية. والليل يضيء لهم والنهار يظلل
عليهم من حر الشمس. والصخر تسيل لهم المياه ليشربوا. والقفار تخصب لهم. وحينما
ابتدأوا ان يكسروا جيوش الامم ويحكموا على الشعوب ويستولوا عليهم. فحينئذ
حادوا عن عبادة الله عز وجل بعصيان شنيع. واخذوا يقدمون بخوراً للالهة الكذبة
تحت كل شجرة. وينصبون لها المذابح فوق كل صخرة. حسبما اخبر عنهم هوشع النبي

ايضاً بقوله «ان اسرائيل جفنة مورقة كحسب كثرة ثمره . اكثر مذاجته . حسب
 خصب ارضه ازيد اصاماً» (هو ١ : ١) * وشاول لما كان رقيباً للحمير وحارسها
 كان متسامياً على الناس بالاحشام والورع . واذ ارتقى على سياسة الناس صار
 اقصى قلباً من جميع اليهود واوفر نفاقاً منهم * وداود قد كان باراً عفيفاً في ايام
 الاضطهاد والهرب من وجه اعدائه . ولما ثبت في ملكه مستريحاً . فسق وارتكب
 خطية القتل * وسليمان ابنه سجد للاوثان بعد ان افيضت عليه جميع الخيرات *
 وعوزيا تعدى على حقوق الهيكل والكهنة بعد ان نال الصلح والسلامة من اعدائه *
 ويواش اضحى متعجباً متكبراً بعد ان قدمت له الكرامات * وحزقياء عاد متكبراً ايضاً
 بعد شفائه من مرضه . وشمشون انهمك في اللذة الشهوانية بعد ظفراته بالفلسطينيين .
 وبالاجمال اقول انه بالصعوبة وجد من حفظ نفسه في اوقات السعادة بالبر الذي كان
 متشكراً به في ايام السوء * وما هذا كله سوى ما قلناه اي ان البشر يجازون الله تعالى المحسن
 اليهم ويكافئونه بالشر والخطأ واحتقار جلاله الالهي * ولعمري ان هؤلاء هم الذين قال
 عنهم ايوب البار انهم « يقولون لله : ابعده عنا » * ولكن اي وقت عاملوه هذه المعاملة
 الرديئة وابعدوه عنهم . العلمم فعلوا ذلك لما كان يجزئهم بالفقر . او حينما كان يضربهم
 بالامراض : كلاً . بل كما قال ايوب ايضاً « وهو قد ملأ بيوتهم خيراً » (ايوب ٢٢ : ١٧
 و ١٨) * والمراد بهذا ان البشر حينما كانوا بالضيق او حينما كان خيرهم من الله قليلاً .
 كانوا يؤذون له تعالى الواجب ويكرمونه ويهابونه . الا انهم لما امتلأوا خيراً وشبعوا .
 حادوا عن طرائقه وردلوا اكرامه قائلين له « ابعده عنا » لاننا لم نعد نحتاج اليك
 لان بيوتنا مملوءة خيراً * فاعتبروا كم قوي معنى كلام هذا البار وكم هو جميل اذ يخبر
 عنهم بقوله « قالوا لله ابعده عنا » وذلك لما امتلأت بيوتهم خيراً *

ولكن ما لنا قد سهونا ببيان عدم شكر غيرنا لله عن احساناته تعالى والهزؤ
 بها . والحال اننا يحق لنا ان ننجل نفوسنا بهذا الاثم ايضاً * وليت شعري ماذا
 نقول عن نفوسنا نحن المسيحيين اذ اننا اذا ادخلنا يدنا في عيبنا ثم اخرجناها كمثل

موسى « اذا هي برصاً » (خروج ٤: ٦) * والمعنى المقصود من ذلك هو هذا. اية
 اننا لا نكون ابراً واقدس من غيرنا حينما نظفر من الله تعالى بالنعمة والخيرات.
 مثلاً هل نعتبر انه قدس اسمه قد من علينا بنعمة فريدة اذا اخصبت غلاتنا
 وتوافرت زروع حقولنا * ان من المعلوم الاكيد اننا نحن نتوق ونطلب منه جل
 سخاؤه على مدى السنة ان تخصب حقولنا غلة جديدة. وتحمل كرومنا عنباً وتيناً.
 وتمتلئ اشجارنا الثمار الشهية. وحسنًا نفعل ذلك. غير ان القديس سليمان اسقف
 مرسيليا يسال هنا قائلاً: ترى ماذا نفعل اذا لنا ذلك من الله حسب مرامنا.
 العلنا نضحي في خدمته واكرامه مهتمين اهتماماً اوفر. اعسانا ان نسرع الى الكنائس
 لكي نقدم له تعالى الشكر الواجب. ام هل نغني هياكله المقدسة بالهدايا. العلنا
 نقسم منه جزءاً على الفقراء والبائسين. اعسانا ان نجدد اصلاح سيرتنا. ام هل
 نزداد ورعاً ونقوى لله المحسن الينا * لعمرى اننا لا نفعل من ذلك شيئاً. بل نفعل
 بخلافه حسبما قال القديس المقدم ذكره. اي نزداد حينئذ بطراً وتفسد سيرتنا
 اشنع فساد وننسى الله ونفوسنا * وعساكم ان تعرفوا في اي شيء نصرف همومنا
 وافكارنا بعد ان نكون اخذنا من الله سبحانه هذه الخيرات: اننا نصرفها في توسيع
 مخازننا فقط وتكثير الابقار لحفظ الغلة فيها. وننسى الحيوة الآتية. ونقول لانفسنا
 ما قاله الغني الجاهل المدون ذكره في الانجيل المقدس « يا نفس لك خيرات
 كثيرة موضوعة لسنين كثيرة » (لوقا ١٢: ١٩). فما الذي يجب ان تفعله: استرحي
 « كلي واشربي وافرحي » * فلنفرح ونجذل. ها قد آن اوان البذخ وازدياد النفقة
 واللعب واللهو. لانني جمعت في الصندوق مبلغاً من المال. والآن قد حصلت لي
 الفرصة الملائمة والمناسبة لاخذ الثار من عدوي فلان او ان اجتذب الى اربي
 فلانه واتم شهوتي المتقدة في منذ ايام كثيرة. او ان استميل الى رابي القاضي
 واعوانه بالرشوة. وعلى هذا النحو تبلغ من النفاق الى حد واسع حتى اننا نستعمل
 انعام الله سلاحاً لمحاربة تعالى ونقاومه * ومثل ذلك اذا ثارت علينا حرب مزعجة

ومخيفة . فبعد زوالها وحصولنا على السلامة ماذا نفعل : اما نطلق العنان لانفسنا في الجولان والتنزه مع اي شخص كان حتى في البساتين والبيوت والمجالس الدنيوية * وكذلك اذا نلنا الصحة بعد مرضٍ عضال . افما نعود راجعين الى عمل العشق والتدنس بالشهوات والاصرار على البغض القديم والعداوة * وكذلك حينما نكون قبلاً في حال متوسطة من المرتبة والكرامة . فنكون عند الجميع متواضعين وذليلين ونعطي كل ذي حق حقه واکرامه . لكن اذا تفضل الله علينا بمرتبة اشرف او وظيفة انوف واخذت الناس تحترمننا من قبلها وتلقبنا باسما اعظم واشرف . فللوقت ننتفخ ونرفع رؤوسنا ونسربل برداء التكبر ونحنقر مودة قرنائنا . وربما نستحي ايضاً ان نظهر في الكنائس بالتدلل والتواضع والاحشام الذي كنا سابقاً متصفين به * ثم اسالكم فاخبروني ايضاً : في اي شيء نصرف العلم الذي اعطاناؤه تعالى لنستعمله في ما يرضيه وينيد القريب : اليس اننا نصرفه في تاليف الاغاني او النصوص الدنيوية الباطلة . وفي اي شيء نشغل العقل المتزين بالحكمة الذي خصنا به الله لنعطي الآراء الحميدة والتدبير الصالح : اليس اننا نستعمل به الدرس الموذي والتدابير الناتج منها ضرر اخوتنا * وفي اي شيء نستعمل القدرة التي خولناها عز اقتداره لنفعل افعالاً جيدة لخير الجمهور الا في المظالم القاسية والاختلاسات النفاقية * وما بالناس اسهبنا الكلام في ذكر سوء استعمالنا نعم الله فرداً فرداً . والحال ان القديس هيرونيمس اخنصر القول وهتف شاكياً : اننا نطعم بالصحة لكي نقضي شهوتنا الدنسة . ونحيل الغنى الى العيش البدخ . ونشين صيتنا الصالح بالتصرف الذميم : انتهى * اما هذه مكافاة لله شراً بدل الخير : لعمرى اننا بهذا نصنع نظير ما صنع احد قواد الجيوش المسمى اربيانوس * هذا كان قد اصاب من كرسبوس الملك ذمياً وافراً هبةً ومجاناً . ولكن بعد ان حصل عليه ماذا فعل به : هكذا فعل : انه صرفه في استيجار جنود ليجمع منهم عسكرياً ويحارب كرسبوس ملكه المحسن اليه * نعم هكذا نفعل نحن . اي اننا نستعمل مواهب الله ونعمته لنحاربها تعالى بها . وبهذا

يُصَحُّ فِينَا مَا قَالَهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى لِسَانِ هُوشَعِ النَّبِيِّ « اَنَا قَوَّيْتُ اذْرَعَهُمْ » اَمَّا هُمْ فَمَاذَا صَنَعُوا « فَكُرُوا عَلَيَّ بِالسُّوءِ » (هُوشَعُ ٧: ١٥) * بِالْحَقِيقَةِ اِنَّ هَذَا الْاِثْمَ الشَّنِيعَ اِثْمَ عَدَمِ الشُّكْرِ هُوَ سَالِكٌ وَدَارِجٌ هُنَا كَثِيرًا . فَاِذَا لَا حَاجَةَ لَنَا اِنْ نَجَاهِدُ وَنَتَعَبُ فِي بَيَانِهِ . فَالْاُولَى بِنَا اِنْ نَجِدُ وَنَجْتَهِدُ عَلَى اسْتِصَالِهِ مِنْ بَيْنِنَا *

وَفِي تَحْقِيقِ الْاَمْرِ نَقُولُ : اِنْ كَانَ عَدَمُ الشُّكْرِ لِلَّهِ عَلَى اِحْسَانَاتِهِ الْبِنَا اَوْ اِنْكَارُهَا اَوْ اخْفَاؤُهَا اَوْ تَنَاسِيْهَا فَقَطُّ هُوَ خَطَاٌ يَسْتَحِقُّ الْعِقَابَ . فَلَيْتَ شِعْرِي اِذَا مَاذَا نَقُولُ فِي اسْتِعْمَالِنَا اَيُّهَا لِاِغَاظَتِهِ وَاِهَانَتِهِ * اِفْتَكُرُوا يَا مَعْشَرَ السَّامِعِيْنَ كَمْ يَكُونُ غَضَبُكُمْ عَظِيمًا عَلَى مَنْ يَلْطَمُكُمْ عَلَى خَدِّكُمْ لَطْمَةً وَجِيعَةً حِينَمَا تَقْدُمُونَ لَهُ هَدِيَّةً مَا . اَوْ يَطْعَنُكُمْ بِحَرْبَةٍ فِي الْحَيْنِ الَّذِي فِيهِ اَنْتَقِذْتَهُ مِنْ الْمَوْتِ . وَهَذَا الْغَضَبُ تَقْدُرُونَ بِهِ عَلَى مَنْ يَمَامِلُكُمْ اَنْتُمْ بِهَذِهِ الْمَعَامِلَةِ الرَّدِيَّةِ . بَلْ عَلَى مَنْ تَعَايِنُونَهُ يَمَامِلُ بِهَا غَيْرَكُمْ اَيْضًا . وَلَوْ كَانَ ذَاكَ غَرِيبًا مِنْكُمْ وَغَيْرَ مَعْرُوفٍ عِنْدَكُمْ * وَمَنْ هُنَا لَمْ يَسْتَطِعِ التَّقْدِيسَ زَيْنُونَ اِنْ لَا يَغْضِبُ عَلَى شَاوِلِ الْمَلِكِ اِذْ قَصَدَ اَنْ يَقْتُلَ دَاوُدَ حِينَمَا كَانَ دَاوُدُ يَجْتَهِدُ فِيهِ بِعَوْدِهِ اِنْ يَشْفِيهِ مِنْ رُوحِ الْاِنْتِصَاعِ * وَمِثْلُهُ غَضَبُ يُوْحَنَّا النَّدِيسِ الْذَهَبِيِّ الْفَمِّ عَلَى اخْوَةِ يُوْسُفَ لِاَنْهُمْ تَشَاوَرُوا عَلَى قَتْلِهِ حِينَمَا كَانَ حَامِلًا لِهَمِّ الطَّعَامِ * اَمَّا اَنَا فَانِّي اُورِدُ لَكُمْ خَبْرًا غَيْرَ مَعْرُوفٍ عِنْدَكُمْ جَمِيعًا . وَاُرِيدُ اِنْ تَكُونُوا فِي مَقَامِ الْقَضَاةِ وَتَاتُوا بِالْحُكْمِ بَعْدَ اَنْ تَسْمَعُوهُ . فَهِيَ اَنَا اُرِيدُ اِنْ اَنْقَلَدَ مَنَزَلَةَ الْمَشْتَكِيِّ . وَاَقْدَمُ اِمَامُكُمْ مَلِكًا مَذْنَبًا . وَاَعْرَضُ عَلَيْكُمْ اَمْرًا لَتَقْضُوا بِحَسَبِ قَوَاعِدِ الشَّرْعِ الصَّحِيحِ . فَاسْمَعُوا مَا اُورِدُهُ عَلَى سَمَاعِكُمْ * فَاَقُولُ : اِنَّ بَاسِيْلْيُوسَ مَلِكَ الْقِسْطَنْطِينِيَّةِ خَرَجَ يَوْمًا اِلَى صَيْدِ الْوَحُوشِ . فَدَخَلَ غَابَةً كَثِيفَةً . فَلَقِيَ اَيْلًا كَبِيرًا ضَخْمًا جَدًّا . فَهَجَمَ عَلَيْهِ . وَاَوْقَفَهُ وَرَفَعَ الْحَرْبَةَ لِيَطْعَنَهُ بِهَا * اَلَا اِنَّ الْاَيْلَ اسْتَدَارَ وَنَجَا مِنَ الطَّعْمَةِ وَالنَّتْلِ بِخَفِيَّةٍ عَظِيمَةٍ . ثُمَّ اَنْشَى رَاجِعًا وَهَجَمَ عَلَى الْمَلِكِ وَغَرَزَ قَرْنَهُ فِي مَنْطِقَتِهِ . وَرَفَعَهُ اِلَى فَوْقِ وَكَادَ يَفْزَرُهُ * فَاتَّفَقَ اَنْ وَاِحْدًا مِنْ اَعْيَانِ دَوْلَتِهِ كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ * فَلَمَّا ابْصَرَ الْخَطَرَ الَّذِي حَمَلَ فِيهِ الْمَلِكُ . رَكِضَ بِسُرْعَةٍ . وَاَسْتَلَّ السِّيفَ وَقَطَعَ بِشَجَاعَةٍ

عظيمة حمية منطنته . ونجاة من الموت * فلما عادوا عند المساء الى المدينة وشاع
الخبر بما فعله الرجل المذكور من الخير مع الملك . طفق الناس يتواردون اليه
ليهنوه بحسن ما اتفق له من صيانة حياة الملك ونجاته من الموت . وكان منهم
من يظن ان الملك يعتبر جميله ويرقيه الى مرتبة اعلى . او يوليّه على مدينة من
المدن . او على القليل يزيد مودته له ويفضله على الآخرين بالاكرام والتقريب .
وآخرون كانوا يبشرونه بهدايا وافرة تاتي من الملك . وغيرهم يتحدثون فيه بان
الملك سيشرفه بالزواج باحدى بنات عظماء دولته . وغيرهم يتنبأون بان الملك
يلقبه بالقاب شريفة جليلة فاخرة * ولكن الملك اذ لم يحتمل ان يرى نفسه ملزوماً
لمن كان ادنى منه مقاماً ونسباً وذلك نظير عادة ارباء كثيرين من المرتفعين في
الوظائف والمراتب الدنيوية ايضاً . فعل فعلاً غريباً وهو انه دعا حالاً الجلال
واخلاق حجة بان ذاك الرجل تجاسر وبسط يده على شخص الملك . وبهذه الحجة
اللعيبة الظلمية امره ان يمضي فيقطع راسه في احد شوارع المدينة . وهكذا جرى
الامر . حتى ان الجميع ادركهم الهول عندما رأوا ذاك الذي ظنوا به انه يستحق عند
الملك ان يشركه بالملك طريقاً مقطوع الراس * فاجيبوني الآن : ما هو رأيكم في
هذا الخبر الذي قصدت ان اوردّه لكم . اما شعرتم بافئدتكم انها قد انزعجت عند
استماعكم اياه . لان المؤرخين الذين دونوه في تواريخهم لم يزالوا حتى الآن يذمّون هذا
الاثم المستغرب متحيرين ومنذهلين * وماذا تترتاون انتم : لو كان هذا الملك الظالم
الجاهل المعروف حاضراً امامكم واعطيتم سلطاناً عليه . فباي عقاب كنتم تقضون عليه .
العلم كنتم تستطيعون ان تضبطوا انفسكم من الاقتحام عليه وتمزيقه باظفاركم وتمشيمه
بانيابكم ونقطعيه ارباً ارباً باسنانكم : لا اظن ذلك * فانا انطق بالحق قائلآ : اني
في حين قرأتني المرة الاولى هذا الخبر احترت دمي في جسدي واضطرب فؤادي .
لاني وان كنت عارفاً بما قاله ابن سيراج . وهو ان « الذي يكفر النعمة . يترك
مخلصه » (سير : ٢٩ : ٢٢) . الا اني لم اكن اصدق انه يبلغ الى هذا الحد من النفاق

حتى يقتل مخلصه ايضاً ويبيده . لان هذا اثمٌ وظلم لا يوجد اقبح منه في جميع اصناف
الاثام والمظالم * فان كان ذلك كذلك (يا ايها الاله الودود المظالم علمني كيف
انكلم في شانك) لماذا اذا ايها المسيحيون يخلف رايتكم فيما يخص الله تعالى عن
رايتكم فيما يخص البشر * اما صنع ربكم معكم مثل هذه الاحسانات . لكن مالي
قلت مثل هذه الاحسانات . فالأولى ان اقول اما صنع معكم اعظم منها بلا انتهاء *
لان الاحسان الذي صنع مع باسيليوس الملك لم يكن سوى انه نجي مرة واحدة
من خطر الموت الموافى عليه . ولكن الله تعالى كم من مرة انقذكم من خطر مثل هذا .
وكم من الاخطار جازت عليكم في مدة حياتكم الى الآن في البر او في البحر او في
النار . ومنها ما قد ورد عليكم من الوحوش او من الناس او من الابلسة او من
علل اخر كثيرة * اليس انكم كنتم الآن تحترقون في قعر جهنم لو اذن الله للحي
فقط ان تجفف عروقكم او للبلغم ان يسد عليكم الطريق للنفس . او للاكلة
ان تفني لحمكم . او للنقطة ان تنزل على قلوبكم * انه جلت رحمته لم يصنع معكم
شيئاً من ذلك . لكن رحمكم واحسن اليكم « واخذ سلاحاً وترساً » بمقام المحامي عنكم
ورد عنكم جميع الخلائق التي ضجت على الاساءة اليكم من كونها خادمة العدل
الاهلي « ونهض الى معونتكم » (مز : ٤ : ٢) * وانتم فما هو الذي جازتموه به : اسمعوا
مجازاتكم له تعالى من فم بولس الرسول الاهلي اذ قال انكم اخذتم بايديكم المطرقة
والمسامير . ورجعتم ثانية (يا له من اثم هائل) « وصلبت ابن الله » (عبرانيين ٦ : ٦)
وبعد هذا الاستوعبون خوفاً وخجلاً . أو ما تحتمون غيظاً وسخطاً على انفسكم مثلما
احتميتم قبل هنيهة يسيرة على باسيليوس الملك * ولكن لا تعتلوا قائلين : ان هذه اعني
عبارات الرسول هي صادقة بالغة غير انها لا تصدق بالعمل . لاننا ما صلبنا ولا
قتلنا ابن الله البتة في حياتنا كلها * فعن قولكم هذا اجيبكم بهذا السؤال قائلاً :
قولوا لي ما هو رايتكم في الناصريين الذين افتحنا عظمتنا بخبرهم . العلم لعدم نيلهم اليوم
ما عزموا عليه من قتل المسيح من حيث انه تعالى تواري عنهم بغية قد تبرأوا من

خطبة قتله . ام انهم صاروا مذنبين بهذه الخطية كأنهم قتلوه حقاً . حيث انهم فعلوا من ذواتهم ما استطاعوا ليقتلوه * وهكذا انتم . فحقاً انكم لا تقتلون ابن الله لكونه تعالى سعيداً في السماء غير مائت وغير قابل التآلم . لكن مع ذلك تعدون مذنبين مجرم قتله كل مرة تخطئون خطأ صميماً * ولاي سبب : السبب هو ما اورده القديس توما المعلم الملاكي . اي انكم بخطاياكم تعودون وتجددون السبب الذي كفى لصلب يسوع ابن الله وقتله . وهي الخطية بمجرد ذاتها . وهذا هو نص القديس المقدم ذكره في تفسيره الاصحاح السادس من الرسالة الى العبرانيين . قال : انه عند ما انت تخطي تقدم سبباً من نفسك ليصلب المسيح ثانية *

ولكن هات نسلم لكم ما ترعون . ومع ذلك اسالكم يا ايها الخطاة ان تظهروا لي ما هي المكافاة الصالحة التي تكافئون بها يسوع مخلصكم عن هذا المقدار من النعم التي يوليكموها * العلم لا يوجد عندهم سوى هذه المكافاة فقط . وهي انكم لا تتصلون الى صلبه وقتله حقاً * فان كان هذا الاثم لا يمكنكم ايضاً ان تبلغوا اليه لانه كما ذكرنا قد اضحى الآن المسيح غير مائت وغير قابل التآلم . الا انكم تفعلون به تعالى سائر الشرور التي تقدرن عليها . اي تجدفون على اسمه القدوس . وتدعون على عنايته الالهية . وتجنون على عبيده . وتهينون كهنته . وتدنسون كنائسه . وتوطؤون وصاياه * اليست هذه وغيرها هي ايضاً خصال الخطاة غالباً وخالاهم الرديّة . وبهذه يكافئون ربهم ومخلصهم المحسن اليهم * فيا لها من قساوة شنيعة بل كاملة الشناعة مع ربهم * ان اهل مدينة بيت فالو لما راوا يهوديث الشبيعة انقذتهم من الخراب الذي كان موافياً عليهم من عسكر الاثوريين . لم يكتفوا بهذا نظيركم وهو ان لا يقتلوهما شكراً لها . بل ان الكتاب الالهي يخبرنا في سفرها قائلاً « باركوها كلهم بصوت واحد قائلين : انت شرف اورشليم وعز اسرائيل وفخر شعبنا » (يهوديث 10 : 10) * ثم قدموا لها هدايا كثيرة واحترموا احتراماً جزيلاً . ولما توفيت فيما بعد . ناحوا عليها سبعة ايام مناحة عظيمة * وكذلك فرعون ملك مصر ما كفاه

ان لا يقتل يوسف الذي تقدم واعلمه بروح النبوة بالغلاء المستأنف . وهداه
بِحكمة عظيمة كيف يدبر نفسه وشعبه في الحين الملائم قبل حلول المجاعة . لكن
رقاه الى اعلى مراتب مصر واقامه وزيراً في الملك * ومثله ما اكتفى احشويرش
الملك ان لا يقتل مردخاي الذي اظهر له بامانه وافرق الكمين الخفي المدبر
عليه ليُنجي منه نفسه قبل ان يسقط فيه . لكن رفعه الى اشرف مناصب بلد
الفرس * وعلى الاطلاق اقول : انه ما من احدٍ من الناس غالباً اكتفى بان لا
يصنع معروفًا مع المتفضل عليه سوى ان لا يقتله . لان هذا المعروف هو نعمة
يصنعها اللصوص ايضاً مع الذين هم يتهبونهم ويعرونهم من جميع امتعتهم * افنتكتفون
انتم بهذا النوع من الشكر اربكم . اي ان لا تقتلوه . وكانكم بهذا تبرأتم من الدين
الكثير الذي له عليكم عن هذا المقدار العظيم من النعم التي ينعم بها عليكم .
فلا تستطيعون فيما بعد ان تخالفوه وتشتموه وتسخطوه وتجذفوا عليه . وتجعلوا سروركم
ومجدكم في احقاره والاستهانة به * ولماذا تجازون رباً صالحاً ودوداً بهذه المجازاة
الشريرة . وقد قال في هذا الصدد القديس الذهبي فمه في الخطبة السادسة هكذا :
انني لعالم جيداً انه لو صنع معكم انسان نصف الاحسانات التي يصنعها الله
معكم . لما كنتم تجاسرون ان تغيطوه ولو باصغر الهفوات . بل كنتم تبدلون مجهودكم
في ان تخدموه احسن الخدمة وادقها * كم كنتم تحبون الانسان لو كان يعطيكم
الأملاك الحسنة التي تفضل الله تعالى بها عليكم واغنى بها منازلكم * وكذلك لو
منحكم انسان هذه الصحة التي انتم متمتعون بها من جودة ربكم لو مد انسان
بجياتكم هذه التي حافظها لكم ربكم لوفور رحمة . كم كنتم تقرّون بنفوسكم انكم مديونون
له . وكم من الشكر كنتم تظهرون له * فلماذا لا تسلكون هكذا مع الله ربكم . بل
تعطونه كل يوم اسباباً ليشكو منكم على لسان اشعياء النبي قائلاً « اني ريت بنين
ورفعتهم » ربيتهم بمواهب طبيعية كثيرة ورفعتهم بنعم سارية متعددة « وهم استهانوا
بي » (اشعياء : ٢) * هل يسهل عليكم ان تشكروا جميل الناس اكثر من جميل ربكم *

فاذا كان ذلك اسهل عليكم. فالأولى بي اذا ان اصمت واعرض عن الحزن والشكوى من شرastكم الى ربكم * ولكن هذا هو الامر الارداً والاشنع أيها السامعون وهو اننا نشكر جميل الناس مع ان ذلك يقتضي منا تعباً ونفقةً وخسارةً غالب الاوقات. وننكر المعروف نظراً الى الله تعالى. والحال ان الشكر له عز وجل سهل جداً ولا يقتضي منا تعباً ونفقةً الا ويعوضنا عنها اضعافاً كثيرة لا تُحصى *

لقد نهى الله العبرانيين في السنة العتيقة عن ان يقدموا له تعالى سمكاً في الذبائح * فمن منكم يعرف سبب هذا النهي. اليس السمك ذا لحم فاخر لذيذ المذاق مغذي الاجسام: نعم انه كذا. ولكن صيده صعب ويقتضي تعباً جزيلاً. ولاجل ذلك افرزه الله عن الذبائح لانه جلت مراحته لا يريد منا سوى الاشياء السهل علينا ايجادها * ومن هنا تفهون ايضاً لاي سبب لم يطلب تعالى في العهد القديم ان يقدم له ذبائح من الحيوانات الأخر التي يقتضي صيدها تعباً في الغياض والغابات. ولكن اراد ان تقدم له الحيوانات الاهلية كالعجول والبقر والغنم والخراف. ومن الطيور لم يطلب سوى الحمام واليام الوديع * والسبب انما هو ليفهنا انه ليس هو مولى متغطرساً ومكلفاً عبيده. بل يكفي منهم بالاشياء السهل عليهم وجودها ونقدمتها من غير تعب. وانه تعالى يقبل كل شي يقدمونه له من الشكر له على جميله واحسانه. ويرتضي به ولو كان زهيداً * لانه ينظر خاصة الى حسن القلب كقول الرسول بولس «اذا كانت مشيئة الانسان مستعدة. فهي مقبولة بقدر ما له» (٢ قورنثيه ٨: ١٢) * فمن ذا لا يرى ان اظهار الشكر لله على احساناته تعالى ليس امراً عسراً شاقاً كما يتفق في صنيع الشكر مع الناس. اذ انهم من كونهم مستكبرين ومتغطرسين وهائمين وشرهين لا يشبعون من الاكرام الذي يقدم لهم. ولا من اظهار المودة والاعتبار. ولا من اسداء الشكر لهم. بل يمدقون الحماظهم نحو اليد المملوءة لا الى القلب * فتصوروا حال التلميذ وهو يخاطب معلمه. او صاحب الدعوى مخاطباً وكيلاً. او العليل طيبه. فيقول التلميذ لمعلمه: يا مولاي انني عارف افضالك ومقر

بها. ولاجل ذلك اشهد على نفسي أنني ساعنبرك واحترمك واكرمك في نفسي
سراً وتجاه الناس ظاهراً. ولست أخالف إرشادك في الدرس * وصاحب الدعوى
يقول لو كليله: أنني لا أتجاوز الحدود التي تفرضها علي في الدعوى الشرعية *
والعليل يخاطب طبيبه قائلاً: أنني لا أخالف أمرك في المداواة الطبية * فبعد
أن تصوروهم يقولون هكذا لأربابهم فافتكروا هل يكتفون بهذا أي المعلم من
تلميذه والوكيل من صاحب الدعوى والطبيب من عليه: حاشا. بل يطلبون
فضلاً عن ذلك اجرةً لأنفسهم ويرغبون هدايا وعطايا * ولكن الله تعالى يكفيه
ما ليس يكفي غيره. فإنه جلت جودته لا يطلب منا شيئاً سوى حفظ وصاياه
التي افترضها علينا لاجل خير أنفسنا. حسبما شهد هو تعالى بفيه العزيز قائلاً
«ان كنت تريد ان تدخل الحياة . فاحفظ الوصايا» (متى ١٩: ١٧) * بل الذي
هو ابلغ من ذلك هو أنه عز اسمه لا يرغب ان نفعل من افعال الصالح سوى
الافعال التي هي في مكنتنا واستطاعتنا بالسهولة: مثلاً ان كنت فقيراً وعاجزاً
عن ان نفي الله المحسن اليك بالصدقة. فيكتفي منك ان نفيه بالصوم. وان
كنت مريضاً وعاجزاً عن رضوانه بالصوم. فيقبل منك الصدقة. وان كنت
عاجزاً عن هاتين ايضاً اي الصدقة والصوم. فيرضى منك ان تعوض عن
عجزك هذا بالقناعة في معاشك وتهذيب خصالك والاحتمشام في مسيرك والتورع
في صلاتك * وعلى الاطلاق اقول. ان أهلكا يكتفي ويرتضي بالشيء الذي ليس
احد من الناس غالباً يرتضي به مكثفياً. وهو ما قاله القديس اوغسطينس في
خطابه الحادي عشر بعد المائتين في الزمن. اي ان لا نختقره تعالى ونستهين به.
والمفهوم من ذلك أنه يكتفي بالمحبة والاكرام * ومع ذلك من ذا الذي لا يتمزق
تحسراً واسفاً عندما يتأمل ان هذا القليل ايضاً لا نريد ان نقدمه لله تعالى
لنوذي له الشكر. بل يتفق احياناً ان نفضل عليه كرامة الناس كأن تلك
الاحسانات التي تاتينا منهم ليس مصدرها منه تعالى بما أنه العلة الاولى في جميع

الخلائق * فقد اصاب جل ثناؤه اذ شكنا من البشر على لسان هوشع النبي بقوله
«انا فديتهم» اي انا فديتهم من الفقر . وفديتهم من المرض . وفديتهم من الجهل .
وفديتهم من جميع اصناف البلاء التي كانوا محفوفين بها «وهم تكلموا علي
بالكذب» (هوشع ٢ : ١٢) . حيث انهم نسبوا لغيري النعم التي اخذوها مني . اي
الغني والصحة والعلم والمراتب وما شاكلها من سائر النعم والمواهب * فيا لسوء
حظنا ويا لعظم شقائنا نحن الذين نعامل الهنا بعدم الشكر . لعمرى ان هذه الاهانة
الصادرة منا له تعالى هي اهانة عظيمة لم يسمع بمثلاها *

ومع ذلك لنا ان نزيد على هذا ونقول : ان تفضيلنا الناس على الله عز
شانه في حمد الجميل يخف اثماً وجرمًا لو لم نفضل عليه الحيوانات ايضا في شكرنا
لها * لا تستغربوا الفاضي هذه يا معشر المومنين السامعين خطابي . لانها صادقة .
وانني مستشعر بقلبي يتمزق الما وتحسراً عندما اتأمل في اثنا هذا العظيم الباهر .
والتزم ان اوردته لكم . فاجيبوني ايها الابناء الاحباء : ما قولكم في الذئب التي
هي وحوش ضارية وممقونة كما تعلمون * ان هذه مع كونها هكذا فقد حظيت
باكرام بليغ عند المصريين . وذلك لانها اربعبت ذات زمين اللصوص المقبلين
من بلد الحبشة وهزمتهم صدفةً من حقول مصر التي كانوا دخلوها رغبةً في
النهب والسرقة * وكذلك السنابير والفيران المسماة بالفيران الهندية . والعقبان
وغيرها من الطيور الخاطفة المسماة باللغة المصرية بيديه . فهذه ايضا قد صار لها
اكرام على المذابح . ويقدم لها المصريون البخور والسجود كالاصنام * اما السنابير
فكرومها وسجدوا لها لانها كانت تعينهم لمداواة لدغ بعض حيات وحشرات مسمية
توذى الناس ومواسيهم * واما الفيران الهندية فلانها كانت ترصد التمساح وتهزمه
من حنولهم * واما العقبان فلانها كانت تجرب اوكار طيور مستولية على حقول
مصر * واما سائر الطيور الايبيدية فلانها كانت تمنع عن الوصول الى اراضي مصر
نوعاً من الافاعي الطائرة التي كانت عند دخول فصل الربيع تطير من برية بلاد

العرب الى نواحي مصر * فهذه الطيور والحيوانات قد صار لها اكرام. وكان
اهل مصر يقدّمون لها البخور اظهاراً للشكر على الخير القليل الذي كان ينتج منها
لهم. مع ان ذلك لم يكن خيراً يستحق الشكر. لان الحيوانات والطيور المذكورة من
كونها عادمة المعرفة والنطق لم تكن تفعل ما تفعله ايثاراً لمنفعة اهل مصر * ومع
ذلك فقد عرف المصريون جميلها وكرمها * والهناء المحسن الينا احسانات لا
تُحصى افا يستحق ان نعرف جميله وينال منا شكراً عن احساناته على الاقل بان لا
نغيظه ونهينه * ولكن ما حاجتنا الى ان نذهب الى مصر ونرى كيف ان اهلها
شكروا جميل البهائم ايضاً. ونحن يمكننا ان نجل انفسنا من اكرامنا البهائم ومودتنا
لها لاجل شكرنا الجميل المتصل الينا منها * اجيبوني قائلين: اما نحسن نحن حتى الى
الكلاب لانها تجرسنا وتحفظ معنا الامانة. اما نود الخيل لانها تحملنا. واذا تكلمنا
على صيغة الاطلاق نقول: اما ندم البغي والتعدي والقساوة على اية بهيمة كانت
اذا آذاها من لم ينل منها اذى * لقد ذكر ان مشايخ اثيناس انزلوا واحداً من
عظاء المدينة عن كرامته اذ بلغهم انه طرد عنه عصفوراً ارتى في حضنه بغته
ليحميه من اظفار باشق منقض عليه ليفترسه * فلماذا اذا نتناسى الله تعالى وحده
ولا نقدم له المودة والشكر والثناء. والحال انه جلت مراحته لا يوذينا بل يحسن
الينا احسانات فريدة لا تعد * وباليتنا كنا نكتفي بعدم الشكر: فاننا عدا ذلك
نجعل اهانتة تعالى والتعدي عليه لذة لنا * ولكن الويل لي اذ انه ينبغي لي ان
ابرقع وجهي بنقاب الخجل من حيث انني تنازلت الى ان انظم البرهان في عدم
شكرنا لله سبحانه على جميله من قياسات دنية حقيرة هكذا. مع ان القديس
هيرونيمس يقول: اننا عندما نشبه الكبائر بالصغائر فهذا التشبيه يشين قيمة الكبائر *
ولكن ماذا اقدر ان افعل: اليس كل ما قلته حق. فاذا نقولون ايها المسيحيون
الاعزاء. وماذا تجيبون * من اين تصدر مكافاتكم هذه السيئة لربكم. العلها تصدر
من هذا الباب اي من اجل انه تعالى هو هو الذي يحسن الينا ونحن لا نريد ان

نقرُّ بأنَّهُ هو المحسن اليَنا : نعم انَّ هذا هو السبب في عدم شكرنا لجميل الله عزَّ اسمه كما يتلخَّص من قوله تعالى نفسه على لسان ملاخيا النبيَّ « انِّي احببتكم قال الربُّ وقلتم في ايِّ شيء احببتنا » (ملاخيا ١ : ٢) * فالله هو احبنا . ومع هذا فهو تعالى وحده الذي لا نحبُّ ان نشكر احسانه « وقلتم في ايِّ شيء احببتنا » * ولكن يا للعجب كيف اننا نشكر احسانات الناس . بل نشكر حتى احسانات البهائم ايضاً . والهنأ وحده نكفر باحساناته . وليس هذا فقط بل قد نكون منافقين واردياً ومهينين عظمتُهُ الالهية بعد نوالنا احساناته * فان كان احسانه ليس كافياً ليكتسب تعالى بها محبة قلوبنا . فايِّ شيء عاده غير هذه ليرجها منا * تكلموا يا ايها الخطاة اقراني وقولوا لي : بايِّ شيء يستطيع الهكم ان يرجكم له غير طريقة الاحسان * انه جلت رحمة يسير في طلبكم دائماً ولا يتوق الى شيء دونكم . ولا يهجم في شيء سواكم ظاناً بانكم تعطفون اخيراً الى من يحبكم بهذا المقدار * لكن من اجل ان امله هذا خاب فيكم . فما الذي تبقى له ان يفعل معكم : اتريدون ان يغير معكم السلوك الذي سلكه الى الآن منعاً عليكم ومتفضلاً . اتريدون ان يكف عن حراسته لكم وعن احسانه اليكم ويهلكم ان تجھوا الى الخراب والهلاك : لا يكن ايها السامعون . لا يكن * آه واسفاه ليتكم كنتم تفهون كم تغيطون الله تعالى وتحزنونه اذا الزتموه ان يهلكم ويقطع احساناته عنكم * ليت شعري ما هو السبب الذي تظنون انه لاجله يحزن الله سبحانه ويغتاظ جداً من عدم شكرنا لجميله . فان قلتم انكم تجهلون ذلك . فاجيبكم قائلاً : ان السبب قد اظهره لنا القديس برنردوس في خطابه الخامس في سفر النشيد قائلاً : ان السبب هو ان عدم شكرنا لاحسان الله تعالى هو بمنزلة ربح السموم يجفف هذه الارض المخصبة جداً اي قلب الله الراوف المنعطف دائماً الى ان ينعم علينا ويحسن الينا * انكم ان تلوتم سفر الزبور الالهي تعابنون ان الله تبارك اسمه يشكو جداً في المزمور الرابع والثلاثين من الذين يجاوزنه بدل الخير شراً . وليس انه تعالى يشكو منهم من اجل انهم يخنسون منه خيراً . او لكونهم يستهينون به . او من اجل انهم يشتمونه

بل يشكو منهم لانهم يمتنون نفسه بعدم شكرهم لاحسانه . وهكذا يحففون عن انفسهم
 نبع نعمة قائلاً « جازوني بدل الخير شراً ايتاماً لنفسي » (مزامير ٢٤ : ١٣) * ناشدتم
 الله اذا ايها المسيحيون الاحباء ان تصغوا لمغالي . ولندع الهنا يحسن الينا بقدر ما
 يشاء ومحب . ولذلك فلنبتدئن من الآن فصاعداً ان نظهر له عز اسمه شكرنا .
 وذلك بالحمد له على الاحسانات والنعمة التي اسدى الينا فيما مضى *

القسم الثاني

انني لم استغرب في حياتي شيئاً بمقدار ما استغربت ما قد قرأته في توارخ
 هيرودس * فهذا المورخ القديم قد اخبرنا انه وجد في العالم شعوب يعادون
 الشمس جداً حتى انهم في حال بزوغها كانوا ينهضون تلقاءها بغيظ وغضب عظيم
 ويشتمونها ويتناولون حجارة ويرشقونها . وما عدا ذلك فكانوا يحاون سهاماً ايضاً
 ويرمونها بها كالمجانين المسخطين العادي الهدى لفورة الغضب * ولكن من هؤلاء
 الشعوب : هل هم الشماليون العادمون خير الشمس اكثر ايام السنة . حيث انها لا
 تشرق على اراضيهم الا نادراً . فلا يتصل اليهم نفع من تاثيراتها الا قليلاً . ويتمتعون
 بضياء اشعتها اقل من سائر شعوب الارض : كلاً . بل ان هؤلاء اعني الشماليين
 بعكس ذلك كانوا يكرمون الشمس اكراماً جزيلاً . لانه في حال شروقها عليهم
 كانوا يخرجون من بيوتهم ليكرموها بالآلات الطرب كالدفوف والطبول والابواق
 والاعواد وما ضاهاهما * واما الشعوب الذين كانوا يبغضونها كما مر القول . فهم
 الذين يكون مسيرها اقرب اليهم وتخصب معادنهم بالنضة والذهب اكثر ممن
 سواهم . وتلاً بجارهم مرجاناً ولؤلؤاً وافراً . اعني بهم شعوب بلاد اتلتيا المصافية
 الجنوب * فحقاً يا ايها المومنون الاحباء . انني حينما قرأت صنعهم هذا استغربته
 كثيراً . وحسبته صنع قوم مجانين عادي العقل وناكري جميل من يحسن اليهم *

غير انني اسالكم لتقولوا لي الحق ولا تنكروه: اما ترون ان عدم شكرنا لله تعالى على نعمه مرسوم في هؤلاء الاقوام الوحشيين * لعمرى اننا نحن ايضا نصنع صنيعهم مع الهنا الراؤف المتفضل علينا. وقد اثبت ذلك القديس غريغوريوس الكبير الحبر الاعظم قائلاً: «ان الذين يستغنون خلافاً لاستحقاقهم اكثر الغنى من كرم الله وسخائه العيم يقومون عليه تعالى اكثر من غيرهم» انتهى * ومعنى كلام القديس هو هذا: اي ان الذين يفتح الله يده السخية نحوهم ويخولهم خيراتٍ ونعماً اوفر. يسيئون اليه بخطاياهم وينكرون جميلة بشناعة اعظم من شناعة من لا يصيبه منه تعالى خيراتٍ بمقدارهم * ولكن ترى ما هو سبب عدم شكرهم هذا الشنيع لربهم المحسن اليهم * فاقول انه ما عدا ما ذكرته في القسم الاول من خطبتنا هنا فقد رايت له سبباً آخر خصوصياً. الا انه ينبغي لكم ان تصغوا لخطابي جيداً لتفهوه حسناً. وقد استنتجت هذا السبب من الناصريين الذين انكروا احسان السيد المسيح الذي اتاهم من الله لكي يخلصهم. واضطهدوه بل قصدوا قتله ايضا كما سمعتم الخبر من فصل الانجيل الذي تلي عليكم في هذا الصباح * فاقول: اذا اردنا ان ندقق بالفحص ونعرف ما هو السبب الخصوصي الذي بلغ بهؤلاء الناصريين الى هذا الاثم الجسيم اي انكار نعم مسيحيهم وبغضهم هذا العظيم له تعالى. فنرى ان السبب انما هو هذا. وهو انهم شكوا فيه واعقدوا بانه جل جوده لم ياتهم كالمحب لكن بمنزلة خصم وعدو * ويمكن ان كلاي هذا هو مبهم لديكم. فانا اورده لكم صريحاً من شهادة المعلم ملدوناس الجليل احد مفسري الانجيل المقدس * قال هذا المفسر النبيل: ان اهل الناصرة لما سمعوا يسوع المسيح المخلص يوتبهم على جرائمهم وسوء ايمانهم به تعالى مع كونه اتاهم من الله حسبما كان قد وعد به على افواه الانبياء. شكوا وخافوا من انه يهددهم بانتقال الديانة الحقيقية من امة اليهود الى الشعوب الوثنيين. ومن قبل ذلك تهبأوا على اذاه وقتله كانه كان عنيداً ان يرفع عنهم السعة التي كان قد اعطاهم اياها * فهذا هو السبب الذي يجعلنا مرات كثيرة ان

نضحي غير شاكرين لله تعالى على الآئهِ بل ناكرين جميلة. اذ يخطر في عقولنا انه يريد ان يخلص ما هو لنا. كأنه لم يكن في امكانه عز اقتداره على حد سوى ان لا يعطينا ما نخاف ان ياخذهُ منا * ولنوضح هذا المعنى بالامثال فنقول: اننا مثلاً نرى رجلاً قد رزقه الله جلت مكارمه ببني احسن ما في خاطره. ومع ذلك فهو عوضاً عن ان نشكر نعمته نقُدس اسمه ويربهم بحسن الديانة وخشيته تعالى. يطلق لهم العنان ويبعدهم عن الدرس والهدى في ما يوافق خلاص انفسهم. وإنما السبب في ذلك هو خوفه من ان يعطف ابنه الى التقوى والزهد في السفليات ويتردد في الدنيا ويترهب. فياخذه الله عن والده بعد ان اعطاهم آية ويفرزه لخدمته *
 وكم من رجل نيل حاز من جودة ربه رتبة او وظيفة يحصل له منها ثروة ودخل كثير فيأبى ان يؤدى الشكر لله سبحانه وينفق من ثرواته جزءاً في رضوانه تعالى. بل يقسي قلبه على المساكين والبائسين ويظلم غلامه. ويتناسى ان يفتقد الكنائس والاديرة المحتاجة ولو بقليل من الصدقة. وإنما يفعل ذلك خوفاً من ان يسقط فيما بعد في الفاقة ويفقره الله بما اغناه به * فهذا هو سبب قلة شكرنا لله تعالى على احساناته احياناً كثيرة. اي اننا نتخيلهُ جل صلاحه خصاً لنا من بعد ان يكون قد اعطانا كل ما يوجد عندنا من الخير * غير انني اورد لكم الحق قائلاً: انه متى دخل هذا التوهم في قلب الانسان وخشي من ان ياخذ الله منه ما كان قد وهبه له. يستاقه ذاك الهم الى سيئات كثيرة بل يستاقه الى وهدة اغرب الآثام * ولنا ان نرى حقيقة ذلك في يوربعام احد ملوك اسرائيل: هذا حقاً لو لم يذكر خبره الكتاب المقدس في الاصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الاول. لكان اغلب الناس يكذبونه * كان هذا اي يوربعام احد عبيد سليمان الملك. ولكونه عبداً فكان يمكن ان يرجو كل شيء ما خلا ان يكون خليفة للملك في اعظم قسم من مملكته * ومع ذلك فان الله تعالى ارسل له نبياً اسمه احيا يقول له من قبله انه بعد وفاة سليمان يعطيه الملك على عشرة اسباط من اسرائيل. لان

مسبيين منها كان قد ابقاها من اجل داود عبده لابن ابنه رجبام . وها سبط
 يهوذا وسبط بنيامين . وسبط يهوذا كان اشرف مقامًا من بقية الاسباط كافة .
 وسبط بنيامين كان الاصغر والادنى * ولاجل ان هذا الكلام كان من الله نفدس
 اسمه . صحّ حالًا في اوانه بعد وفاة سليمان * ليت شعري من منكم ايها السامعون
 الاحباء لا يحكم انه من الواجب على يوربعام الملك الجديد ان يزداد ثقة بالله
 ويشكره على احساناته تعالى ويتمسك به فيما سيأتي من الزمن تمسكًا اعظم مما كان
 من قبل . اذ راي انه جلّ جوده انجز وعده له ورفعته من مقام العبيد الى
 اعلى المراتب وثبت يده الصولجان الملكي . ووطده في الملك بتحريك قلوب آل
 اسرائيل باطنًا الى ان يلصقوا به ويقبلوه عليهم ملكًا * وزيدوا على ذلك اسبابًا
 اخر راهنة صارت له ليزداد ثقة بالله وتمسكًا : منها انه تعالى اوضح له موكدًا ان ملكه
 هذا يثبت له ولذريته دائمًا . وذلك بشرط ان يحفظ الامانة والصدقة معه تعالى .
 وانه سيؤيده في تدبير ملكته ويعضده ويجرسه في الخروب مع الامم الغريبة . وينقذه
 من الاخطار الهائلة . ويوعبه وينعمه بفيض زاخر مما استطاع ان يخطر على باله
 وبشتميه في قلبه . قائلًا له على لسان النبي المقدم ذكره « وتملك علي جميع ما تحب
 نفسك » (١ ملوك ١١ : ٢٧) * لعمرى ان كل انسان منكم يحكم ويقول انه من الواجب
 على يوربعام ان يثق بكل ما يلوح لسره ويخضعن الله تعالى بكل عزائه وقواه . وينبغي
 له ان يزداد براً وديانةً وغيره في مجده عزّ شأنه * ومع ذلك من يصدق انه بعد
 جلوسه على عرش الملكة بزمان قليل ابتداءً ان يغار ويحذر من الله عز وجل بالاكثر .
 ونزع عنه ثقته وتوكله عليه سبحانه * لانه شرع يهجم في نفسه قائلًا : اني اذا اذنت
 لاسباطي العشرة بان تمضي الى اورشليم الى الاعياد الشرعية والذبايح الاعتيادية
 بموجب فرائض السنة الالهية . يخشى عليها من قبل هذه الفرص ان تعود قليلاً
 فقليلاً الى طاعة رجبام ملكهم الطبيعي المتسلسل من داود اول ملوك يهوذا
 الشرعي . وذلك من قبل الميل المستكن في قلوب جميع الشعوب الى الخضوع لمن

وُلِدَ لَهُمْ مَلِكًا وَسَيِّدًا أَكْثَرَ مِنَ الْخُضُوعِ لِمَنْ صَارَ عَلَيْهِمْ مَلِكًا اغْتِصَابًا أَوْ بِالْعَرَضِ *
 فَعَزَمَ أَنْ يَقَاوِمَ اللَّهَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ . وَيَمْنَعُ شَعْبَهُ جَمِيعًا بِسُنَّةٍ ظَاهِرَةٍ عَنِ الذَّهَابِ إِلَى
 أُورُشَلِيمَ وَزِيَارَةِ الْهَيْكَلِ * وَلَكِنْ لِأَجْلِ أَنَّهُ زَعَمَ أَنَّهُ يَلْزِمُ أَنْ يَوْجِدَ عَلَى سَائِرِ الْوُجُوهِ
 فِي الشَّعْبِ صِنْفٌ لَهُ أَمَارَاتُ الْعِبَادَةِ وَالذِّيَانَةِ صَحِيحًا كَانَ أَوْ بَاطِلًا لِجَعْلِهِ دَاخِلَ
 حُدُودِ الْخَوْفِ . أَوْ يَشْغَلُهُ وَيُلْهِمُهُ عَنِ الْجَوْلَانِ إِلَى بَقِيَّةِ الْأُمَّةِ . فَعَمِلَ هَكَذَا . أَيَّ سَبْكَ
 عَجَلَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ . وَوَضَعَ أَحَدَهُمَا فِي بَيْتِ آيِلِ وَالْآخَرَ فِي دَانَ . وَوَضَعَ عِيدًا حَانِئًا .
 وَدَعَا الشَّعْبَ كُلَّهُ إِلَى الذَّبِيحَةِ وَقَالَ لَهُمْ : هَذِهِ آهْتُمْ الَّتِي أَخْرَجْتُمْ مِنْ مِصْرٍ وَعَالَتِكُمْ
 فِي الْبَرِّيَّةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً * اسْمَعُوا إِذَا وَافَقُوا جِدًّا . أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَقْدُمُوا مِنْ
 الْآنَ فَصَاعِدًا الْجُورَ وَالذَّبَائِحَ وَالْقَرَابِينَ لَهُنَّ . وَإِلَيْهَا تَسْتَغِيثُونَ . وَلَا حَاجَةَ لَكُمْ أَنْ
 تَصْغُوا لِقَوْلِ آخَرٍ وَتَمْضُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ * وَهَذَا كُلُّهُ تَرَاهُ مَدُونًا فِي سَفَرِ الْمُلُوكِ الْأَوَّلِ
 هَكَذَا « فَاسْتَشَارَ الْمَلِكُ (أَعْنَى يوربعم) مَشُورَةً . وَصَنَعَ عَجَلَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ . وَقَالَ لَهُمْ :
 (أَيُّ الشَّعْبِ) كَثِيرٌ عَلَيْكُمْ أَنْ تَصْعَدُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ . هَذِهِ آهْتُكَ يَا إِسْرَائِيلَ الَّتِي
 أَصْعَدْتُكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ » (أَمْلُوكُ ١٢ : ٣٨) * وَحَازَ أَرْبَعَةَ السِّيِّئِ . لِأَنَّهُ أَبْعَدَ الشَّعْبَ
 الْإِسْرَائِيلِيَّ عَنِ التَّعَبُّدِ لِلَّاهِ الْحَقِيقِيِّ . غَيْرَ مَكْتَرٍ بِالتَّوْبِيخَاتِ وَالتَّهْدِيدَاتِ النَّبَوِيَّةِ
 وَالتَّقْصِصَاتِ وَالآيَاتِ الْأَلَهِيَّةِ الَّتِي حَلَّتْ عَلَيْهِ لِيُنْتَهِيَ عَنْ جَهَالَتِهِ الْجَهَنَّمِيَّةِ وَيَعُودَ
 تَائِبًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَيَتَّقَى بِهِ * وَبَقِيَ مُتَحَذِّرًا مِنَ اللَّهِ عِزَّاسِيَّةً حَتَّى حَاتَتْهُ . كَأَنَّهُ تَعَالَى
 كَانَ أَكْبَرَ أَعْدَائِهِ وَمُبْغِضِيهِ لِأَكْبَرِ الْمُحْسِنِينَ إِلَيْهِ * فَيَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَخَوْتِي هَلْ
 كَانَ يُمْكِنُكُمْ أَنْ تَصَدَّقُوا أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَبْلُغَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ مِنَ النِّفَاقِ
 وَالْكَفْرِ عَلَى اللَّهِ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ حَتَّى أَنَّهُ يَعْذَمُ الثِّقَةَ بِهِ تَعَالَى هَكَذَا * نَعَمْ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ
 وَهُوَ مِنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ أَنَّ يوربعم بَلَغَ إِلَيْهِ * وَكَذَلِكَ أَهْلُ النَّاصِحَةِ كَمَا سَمِعْتُمْ
 الْيَوْمَ * وَلَكِنْ أَوَاهِ كَمْ أَنْاسٌ يَبْلُغُونَ إِلَيْهِ أَيْضًا كُلَّ يَوْمٍ نَظِيرَ مَوْلَاكَ الْمَقْدَمِ ذَكَرْتُمْ .
 وَإِنْ كَانُوا لَا يَبْلُغُونَ إِلَيْهِ بِكَلَامٍ صَرِيحٍ . فَيَبْلُغُونَ بِالْفِعْلِ أَوْ مُضْمَرًا *
 لَيْتَ شَعْرِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَخَافُونَ يَا أَيُّهَا الْخَطَاةُ الْجَاهِلُونَ أَنْعَامَاتِ اللَّهِ

ربكم: لعمرى الله تعالى لو لم يجب خيركم لما كان يجود عليكم بهذا المقدار من
السخاء والجودة والمحبة. ولما كان ابدعكم من حيز العدم حينما كنتم لا شيء. وفداكم
حينما كنتم اسرى للخطية والشيطان. والبسكم وقتما كنتم عراة. واحتملكم لما اغضتموه
واساتم اليه بخطاياكم الكثيرة * فكم هي عظيمة جهالتكم حينما تخشون من الله عز
اسمه ياخذ منكم ما هو لكم منه. وتجاوزونه من هذا القبيل شراً بدل الخير. كان
استهانتكم به تفيدكم التوطيد في امتلاك خيراتكم على رغبة * فيا لغباوتكم وسوء ظنكم:
لانه جل اقتداره لو اراد ان ينزع عنكم قناياكم وخيراتكم. هل يصعب عليه ذلك.
فما بالكم اذا تجلون بجزء منها على بائس خروفاً من ان تنقص او تقل عليكم * وان
شاء ان يعدمكم اولادكم او ينزع عنكم ارزاقكم. فما اسهل ذلك عليه. فما بالكم اذا
تبعدون اولادكم عن خدمته خاشين من الله تعالى يتخذهم له ويخسرهم اياهم * اما
يستطيع ان يسلب منكم كراماتكم واقاربكم ووظائفكم وجميع ثرواتكم لو شاء ذلك.
فماذا اذا تسعون مساعي باطلة نفاقية في ان تتوطلوا في التملك بها بتعديكم
على وصايا المقدسة وتعديكم على حقوق ديانته المستقيمة * فلنعرف جودة
المحسن الفريد الينا ونشكره. وان اعنقدنا مقرين بانه تجدد صلاحه مجبنا حبا
اوفر من غيره. فلنوفيه عز وجل حبا لا بغضاً. واكراماً لا احتقاراً. لكيلا يبقى من
الآن فصاعداً من يهين جلاله الالهي من على المنابر كما اهنته انا الآن من غير
قصد واردة سوى قصد مجده القدوس ورج انفسكم له تعالى. وذلك بايضاحي
لكم وجود من يكافئه بدل الخير شراً نظير يوربعام المنافق واهل الناصرة الذين
بدل خير احسانه اليهم «قاموا واخرجوه خارج المدينة وجاءوا به الى اعلى الجبل
الذي كانت مدينتهم مبنية عليه ليطرحوه الى اسفل» له المجد. آمين *

الخطبة الثامنة عشرة

ننضمّن أولاً دحض اعذار بعض الناس عن تاديب قربهم وهدايتهم في مسيح
الخلاص لزرعهم انهم غير ملتزمين بذلك . ثانياً ننضمّن تعليماً مفيداً
للسامعين ليجهدوا للمسيح ويعينوه في ربح الانفس للملكوت *

« إن اخطأ اليك اخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحكما . فان
سمع منك . فقد رجحت اخاك » * هكذا حررتني الانجيلي
في الاصحاح الثامن عشر من بشارته *

القسم الاول

لقد كنت اظن انه لا يوجد في الوصايا الانجيلية التي كررها علينا السيد
المسيح وصية يستحب الناس استماعها بلذة اعظم . ويرغبون امتثالها بنشاط اوفر
من هذه الوصية اي وصية التاديب الاخوي * ومن لا يعلم مقدار ما يعطف
الانسان طبعاً الى رصد ذنوب غيره وتوبيخه عليها . لان الشمس مع كونها بعيدة
عن الارض بعداً لا يقاس بسهولة ونيرة بنور ساطع يجهر البصر . قد اتصلت
اخيراً عين الانسان الارضي الى ان ترقب فيها بعض نكتات سود وتعددها
بالنديق وتشهرها بامتداح وتدمها بعجرفة وافتخار . وقد حققت ذلك تحقيقاً لا
يشوبه ارتياب * فكم يضل الانسان الذي يرجو ان يصاب من ثلب اللسان لأمه
بشرف مقامه الحاصل هو عليه . او يحسن الصيت المدوح هو من اجله * ومع ذلك
فما اقل عدد المومنين الذين يمثلون الوصية المقدسة المذكورة في التاديب الاخوي *
انه يوجد في عصرنا هذا في الملة المسيحية من يخطف نساء غيره شبه داود . ولكن

مَنْ تَرَاهُ يَنْهَضُ وَيَخَاطِبُهُ بِحِكْمَةٍ نَظِيرِ نَاثَانَ وَيُرَدُّهُ عَنِ ضَلَالِهِ الْمَهْلِكِ . (٢ سموئيل
 ١٢ : ١) * وَيُوجَدُ أَيْضًا مِنْ يَخْتَلِسُ أَمْلَاكَ غَيْرِهِ وَقَنَايَاهُ كَصَنِيعِ أَخَابِ مَعَ نَابُوتِ .
 وَمَنْ تَرَاهُ أَيْضًا يَتَّقِدُ بِنَارِ غَيْرَةِ أَيْلِيَا وَيُؤْتِبُهُ عَلَى سَوْءِ عَمَلِهِ هَذَا (١ ملوك ٢ : ١٨) *
 أَيْنَ هُوَ الْيَوْمَ يُوْحِنَّا الْمَعْدَانَ لِيُزَجِرَ الْهَيْرُودُسِينَ الْمُدْنَسِينَ بِأَتَمِّ اخْتِلَاطِ الدَّمِ (مَتَّى
 ٦) * أَيْنَ الذَّهَبِيُّ فِيهِ لِيَقَاوِمَ الْأَوْدَكِيَّاتِ الْمُسْتَكْبِرَاتِ * أَيْنَ ثَاوْفِيلُوسُ لِيضَادَّ مِمَّاثِي لَارُونِ
 الْإِسْوَرِيِّ فِي نِفَاقِ سَلْبِ الْأَهْلِيَّاتِ * أَيْنَ دُسْتَانُ لِيَتَهَيَّأَ لِمُضَادَّةِ الشَّهَوَانِيِّينَ نَظِيرِ
 أَدُوَيْنِ الْأَمِيرِ * أَيْنَ أَمْبَرُوسِيُوسُ لِيُخْرِجَ إِلَى تَعْنِيفِ السَّافِكِيِّ الدَّمَاءِ كَمِثْلِ
 ثَاوْدُوسِيُوسِ الْكَبِيرِ * أَيْهَ وَأَسْفَاهُ . إِنَّا أَنَا نَرَى الْأَنْعَاطَ الْعَظِيمَ الْمُنْعَطِفَ بِهِ
 الْإِنْسَانَ إِلَى ثَلَبِ ذُنُوبِ قَرِيبِهِ يَسْتَبِينُ كُلَّهُ فِي تَالِيفِ رِسَائِلِ سَرِيَّةٍ لَهْجُوهِ
 أَوْ فِي صَرْفِ الْمَسَامِرَاتِ وَالْمَجَالِسِ فِي الطَّعْنِ فِيهِ . أَوْ فِي تَصْنِيفِ كِتَابِ جَهِيرَةِ
 لِقَذْفِهِ وَتَعْيِيرِهِ . وَهَذَا مِنْ شَانِهِ أَنْ يَغِيظَ الْمَذْنُوبَ وَيَسْخِطُهُ أَعْظَمَ سَخِطٍ لِأَنَّ يَفِيدَهُ
 وَيُرَدُّهُ عَنِ ذُنُوبِهِ * وَهَكَذَا يَنْتَهِي أَنْعَاطُ كُلِّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ إِلَى ثَلَبِ ذُنُوبِ
 قَرِيبِهِ . وَلَيْسَ أَحَدٌ يُجَسِّرُ أَنْ يَكْفُؤَ مُوَاجِهَةً عَلَى انْفِرَادٍ . أَوْ يَبْكُتُهُ عَنْ زَلَّاتِهِ بِشَفَقَةٍ
 وَغَيْرَةٍ مُقَدَّسَةٍ لِيَسْتَفِيدَ مِنَ التَّبَكِيَّتِ وَيُرْتَدُّ عَنِ ذُنُوبِهِ * وَلَا رَيْبَ أَنَّ بَدَلَكَ نَشَبَهُ
 الْحُرَّاسِ الْقَلِيلِي الْأَمَانَةِ . وَنَصْرُخَ عَلَى اللَّصِّ . وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَدْبَرَ مِنْهَزْمًا *
 وَمَنْ ثُمَّ قَدْ جَزَمَتْ عَلَى نَفْسِ أَيُّهَا السَّامِعُونَ الْأَحْبَاءُ أَنْ أَخَاطِبَكُمْ بِجِرْقَةِ قَلْبِ
 وَأَعْظَمِكُمْ بِغَيْرَةِ عَظِيمَةٍ وَأَنْذِرَكُمْ لِتَصِيرُوا بِأَجْمَعِكُمْ مُتَّقِدِينَ بِغَيْرَةِ مُقَدَّسَةٍ فِي خِلَاصِ
 الْقَرِيبِ * غَيْرَ أَنِّي لِحَائِفٌ أَنْ يَمِضِي خَطَابِي لَكُمْ فَارِغًا مِنَ الْفَائِدَةِ الْمَقْصُودَةِ . لِأَنَّكُمْ
 تَعْتَرِضُونَ عَلَيَّ قَائِلِينَ أَنَّا نَادِرًا جَدًّا نَلْتَزِمُ بِتَادِيْبِ الْقَرِيبِ . وَإِثْبَاتًا لَذَلِكَ تَقُولُونَ
 لِي : أَنَّا وَقَفْنَا عَلَى كِتَابِ عُلَمَاءِ الذَّمَّةِ وَاسْتَشَرْنَا عُلَمَاءَ لَاهُوتِيِّينَ . وَجَمِيعَهُمْ أَثْبَتُوا لَنَا
 أَنَّا بَرِيءُونَ مِنْ هَذَا الْأَلْتِزَامِ * فَانْ كَانَ هَذَا هُوَ اعْتِدَارُكُمْ وَأَعْتِرَاضُكُمْ . فَأَيَّةُ عِظَةٍ
 يَكْنِي أَنْ أَعْظَمَكُمْ فِي هَذَا الْيَوْمِ سِوَى هَذِهِ وَهِيَ أَنْ أَوْبِكُمْ وَأَبْكُتَكُمْ قَلِيلًا عَلَى اعْتِدَارِكُمْ
 الْمَذْكُورِ عَيْنِهِ . أَيَّ عَلَيَّ أَنْكُمْ لَسْتُمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْعُوا بِرَدِّ النَّفُوسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّوْبَةِ

لأنكم بحسب زعمكم لستم ملتزمين بذلك * اليس هذا التبيكيت مادة حسنة لانتظام
 خطبة مستطيلة: لأنني أرى في هذا النهار أن سيدنا يسوع المسيح لكي يرشدنا إلى التأييد
 الأخوي لا يتهددنا ولا يصرخ علينا ولا يرعبنا ولا يحتم علينا حتماً شديداً قائلاً:
 عاتبوا اخوتكم وادبواهم. فإني أنا الزمكم بهذا تحت عقاب شديد إن خالفتم. لكن
 يعرض علينا عز وجل نجاح قريبنا فقط مشيراً لنا أننا إذا عاتبناه فيمكن أن
 يستفيد ويصدر من ذلك خلاصه وذلك بقوله «ان سمع منك. فقد رجحت أخاك» *
 ليتنا نفهم أيها المسيحيون الأعزاء وندرك عظم هذا الرجاء. أي خلاص النفس المدلول
 عليه بقول الرب «رجحت أخاك» * فإنا أوكد لكم أنكم لو فهمتم ذلك. لكنتم تخجلون من
 اعتذار من يقول: ليخلص هذه النفس من أحب خلاصها. أما أنا فليست ملتزماً
 بها * فلنرأى استطاعة اليوم إن ادحض اعتذاركم هذا المذكور. أم أنني أشبه
 كلباً ينبع * وسبيلكم أنتم أن تحسنوا الأصغاء إلى كلامي. لأنني إذا اضمرت اليوم في
 قلوبكم نار الغيرة المقدسة الملائمة رتبتم الدنيوية أيضاً في السعي بخلص القريب.
 فليست أربحكم أنتم السامعين لي فقط. لكن أرجوان أربح أيضاً بواسطة غيركم من
 الذين لم ياتوا إلى استماع وعظي. وعلى هذا المنوال اصيركم جميعاً رسل المسيح ربنا *
 أنه لما ظهرت يهودية الشجاعة في معسكر الأثوريين فتنت عقول الجميع حتى
 القساة قلباً والموحشين. وذلك بجهاها الفريد نظير من ينهر من مشاهدته نوراً
 غريباً غير مالوف قد اشرق عليه بغتة * ولما تأملوا في احشام نظرها وظرافة
 خطابها وحسن نظام الفاظها. ازدادوا تعجباً وهتفوا برأي واحد قائلين «من
 يستهين بشعب العبرانيين وهم لهم نسوان حسان مثل هذه. اليس ينبغي لنا أن
 نحاربهم لاجلهم» (يهوديت ١٠: ١٨) * أنه ولو كانت بيت فالو مبنية على رؤوس
 الجبال ومحصنة بامنع الأسوار ومحوطة باعق الخنادق. فالافتخام عليها سهل لدينا
 بالنظر إلى هذه الغنائم الجبيلة التي نرجوها منها. فلنستعد ولنسرع إلى النقل
 بالسيوف والرماح. ولا يجبن اليقائنا قائداً فإنه مباح له الآن أن يأمرنا بأية معركة

شاءَ مها كانت شاقّة. او بآية هجمة اراد مها كانت خطر و تقتضي سفك الدماء. لانه ليس احد منا يقول ان يهودي و نظراً لها لا يستحقن ذلك كله * هكذا كان اولئك الجنود الاثوريون المساكين يتكلمون فيما بينهم. لان الهول والهذيان كانا قد اعترياهم لفرط العشق والمحبة * ولعمري ان كلامهم هذا يحسب ادعاءً عظيماً وعجرفةً بالغة. لو لم يذكر في التواريخ انه حدثت ايضاً في العالم حروب اشد واصعب من الحرب المذكورة لاجل طلعة امرأة جميلة المنظر * ليت شعري من كان سبباً لحدوث الحرب العظيمة على ترويا مدينة اليونانيين الا المرأة هيلانا الوهق العظيم * ومن هو الذي سبب المقتلة في مدينة ثبي سوى ثيانه الحسنة المنظر * ومن هي التي من جراها صارت المعركة العظيمة في عهد قراً الا ماجستاه. هذا ما خلا الحروب المشهورة التي صارت ما بين اينياس وترونوس من اجل لاونيا حبيبتهما وما بين انطيفونوس وبطلميوس من اجل قلاوفطرا معشوقتهما * وانما غاية قصدي بايراد هذا الاخبار هذا الامر فقط وهو ان اجلي حدقات عقولكم ايها السامعون واجعلكم ان تبصروا عظم جمال النفس وحسنها * وما هو حسن قلاوفطرا وهيلانة ولاونيا وماجستا و ثيانه ويهوديث ومن ماثلهن : لعمري ان حسنهن البديع انما كان شبه زهر الحقل الذي يذبل ويكمد حال ظهوره. وقد كان جاهلن ايضاً انخداع العقل وغش النظر ورباط قلوب الجهلة. بل كان طعماً يتملق الناظرين لكي يطغيمهم. ونبلاً يتلألاً ليقتلهم * اما النفس الناطقة فوحدها وبمفردها لها الحسن الحقيقي. لانها هي التي صورت على شبه وجه الله الفائق الجمال والبهاء. وفي هذا قال القديس اوغسطينس في المقالة الثامنة تفسيراً لرسائل يوحنا الحبيب: في اي شيء خلق الانسان على صورة الله وتمثاله. افي الجسد: كلا. بل في العقل والفكر وفي روحه وفيه الحق. انتهى * فاذا لو امكنني ههنا ان اريكم النفس بصورتها الحقيقية على جليتها. لاضرمت بلا شك قلوبكم جميعاً بحبة شديدة لها حتى انكم كنتم حالاً تهتفون قائلين: فلنبذلن اعراقنا ونجاهد بل لنسفك دماءنا من

اجل هذه المصلحة البديعة الغريبة في الحسن * ولعمري ان هذا كان الثواب الذي كان الرسول بولس المعظم يتوق اليه حينما كان يقبل على نفسه ان يحرم وينفى من المسيح. اي نفع القريب ورجحة * وهذا كان الثواب الذي كانت يطلبه القديس مرتينس الاسقف اذ كان يتنى ان يستمر في الارض من اجل نفع رعيتيه ورجحها * وهذه كانت الاجرة التي كانت تشتهيها كاترينا البتول القديسة السرافية اعني ربح القريب وخالصه مع كونها امراة ضعيفة عاجزة. اذ كانت تقول عن نفسها انها تستحب ان تطرح في فم جهنم لتقف وتسده حتى لا يدخله فيما بعد احد * فاقولكم الان انتم الذين نثهاونون بخلاص غيركم لزعمكم انكم لستم بملزومين به * هل تظهرون على نفوسكم مع زعمكم هذا انكم فاهمون ما هي نفس الانسان. امذا هو اعتباركم لقيمتها * اة واسفاه : انكم انتم بعكس ذلك تظهرون على انفسكم انكم مستهينون بها ومحتقروها جدا. لانه ان كان قلوبكم ترق لنعمة اذا رايتم ذيبا قابضها وجالسا فوقها يفترسها . وعلى يمامة اذا شاهدتم باشقا منقضا عليها وقد ضمها ما بين مخالبه ليرزقها. فكيف يمكن ان تبصروا نفسا في فم التنين الجهنمي ولا تحنون عايبها * هل تزعمون انكم غير ملزومين باسعافها وخالصها : هات نسلم لكم ذلك. الا ان زعمكم هذا اذا برأكم من شائبة الظلم. فلا يعفيكم من تهمة القساوة عليها * ولكن ما بالي تنازلت فقلت اننا نسلم لكم ذلك. فان كنتم لستم تدعونون لكلامي في انكم ملتزمون بخلاص نفس حاصلة على خطر الهلاك. فدعوني التفت الى هذا السيد المصلوب والتمس منه ان ينزل عن الصليب الذي ارتضى ان يسمر عليه لكي يخلصنا * فما رايتكم فيه تعالى : هل كان ملزوما ان يخلصنا . بل ان يخلصنا باحتماله كل هذا المقدار من العذابات والجلد وتهشيم اعضائه وبسفل كل هذا المقدار من الدم : لانه لا . لان اشعيا النبي يهتف عنه قائلا « تقدم لانه اراد » (اش ٥٣ : ٧) * انه تعالى صار عنا ضحية وهذا حق . لكن لانه شاء واراد باختياره . وهذا هو معنى ذلك على ما فسره القديس الذهبي فمه في الخطبة السابعة

والثلاثين في تفسير رسالة الرسول الى اهل رومية : اي ان المسيح كان يستطيع ان
 لا يقاسي ما قد قاساه لو اراد ان يلاحظ حقه تعالى . الا انه ما اراد ان يلاحظ
 حقه . لكن بما ان به لكي يلاحظ ما يخص خيرنا وخلصنا : انتهى * اعتبروا اذن
 يا اخوتي : اذ كان هذا المصلوب الالهى مع عدم التزامه بخلصنا . سعى به . بل خالصنا
 متكبدًا عنا اتعابًا وعذابات لا تُقاس . فكيف يسوغ لنا ان نمسك عنه سعينا
 بخلص غيرنا * ما هي الحجة التي نوردها لنبرئ نفوسنا من ذلك . اليس هي زعمنا
 اننا ليس بلزومين * اها منك ايتها القلوب القاسية الناكرة معروف ربها .
 اعني قلوب المسيحيين * اهذا هو الذي ربحه منا الله قد تهشم وصلب ومات لاجلنا .
 اي التفكير بعلمنا فقط لا بعلمه * ان العمل الاعظم الذي يهتم به سيدنا يسوع المسيح
 اكثر من سائر الاشياء هو هذا . اي ان يخلص العالم . وهذا هو قول الذهبي فمه
 ايضا في الخطبة الاربعين في تفسير سفر الخليفة حيث يقول : لا شيء يطلبه الله
 تعالى ويعتني به بمقدار خلاص النفوس * هذا هو العمل الذي يفتش له جل ذكره
 من كل جهة على رفقاء وجنود واتباع ليقتضوه معه * ونحن فهل تطاوعنا قلوبنا
 رضائنا ان نقول له تعالى : لا نريد ان نتبعك ونعينك في هذا العمل * قد نقل عن
 سكيبيون الافريقي انه لما رام ان ينطلق من رومية الى محاربة نومنتيا مع ان
 محاربتها كانت تقتضي تعبًا وصعوبةً وخطرًا عظيمًا وجد له رجالًا يتبعونه للحرب
 مجانًا من غير اجرة مجتذبين اخنياريًا من محبتهم له فقط . وكانوا كثيرين جدًا حتى
 ان مشيخة رومية التزموا ان يشهروا امرًا حاتمًا ليصدوا الاقوام عن التجنّد له والذهاب
 معه الى الحرب خوفًا من ان تفرغ بلاد ايطاليا كلها من الرجال * وماذا اقول
 عن بميوس وقبصر * بل ماذا اقول عن الاسكندر الماقدوني التائق الى المكاسب
 من غير شع : ان هذا الملك المتكبر ما احتاج الى تعب ولو يسيرًا في تحريض
 الشعوب ليلتحقوا به الى محاربة بلدان شاسعة بعيدة لم يطأها احد من الملوك
 قبلة . لانه وان كانت لوبية اوفر حرارة من سائر اقطار الارض وسقوثيا اكثر

بردًا من جميع الاصقاع. فمع ذلك كان يستاق الى هناك جنودَهُ طائعين من
 تلقاء نفوسهم غير مباينين بالانهر والمياه الكثيرة التي كانت تغمرهم حتى العنق. ولا
 بالجبال العالية التي كانوا يضطرون ان يتسلقوها مستعينين بايديهم على الصعود
 كوحوش البر * وماذا اقول ايضا عن كانون القائد. وعن امارات المحبة الجزيلة
 التي اظهرها لجنوده لما قصد ان يدخل بلادًا غير مسلوكة يرعب البشر ذكرها
 لكثرة الوحوش الضارية الكائنة فيها، ولعدم وجود الماء فيها للشرب * قد ذكر
 عنه أنه قبل ان يدخل هذه البلاد جمع امامه جنوده كلهم وابان لهم بصدق وطلافة
 الأخطار الجزيلة والمشقات الفائقة التي كان ماضيًا بهم اليها. ثم اطلق لهم الاختيار
 وقال: من اراد ان يرجع الى وطنه فليرجع * ومع ذلك فمن صدق أنه ولا واحد
 منهم تقهر وطلب الرجوع الى ورائه. بل ان الجميع تنشطوا وتبعوه بشجاعة لا
 توصف. ودخلوا معه تلك البلاد والتزموا ان يتحاربوا في مسيرهم اليها مع الوحوش
 الكاسرة والحيات والآفات والتنانين وسائر اصناف دبابات الارض الضارة
 المسماة قبل شروعهم بالحرب مع الناس المتوحشين القاطنين هناك * فمن اين
 يصدر علم انقيادنا ارغبة قلب مسيحيننا. اذ أنه لا يجوز منا ما قد حازه آخرون
 من رعاياهم مع أنهم كانوا ادنى منه تعالى شرفًا وفضلًا بلا قياس * فهو عز اسمه
 يطلب ايضا ان يربح العالم. لكن بقصدٍ مختلف جدًا. اذ أنه تعالى يطلب ان
 يربح العالم لخلصه. لا ليهدمه كما كان يفعل الآخرون المقدم ذكرهم. ومع ذلك فما هو
 الذي يحدث له: هو هذا. اي « ليس من ينطلق الى القتال » (حزقيال ٧: ١٤)
 كما قال حزقيال النبي * فيتعب جل جوده كثيرًا ليجد من يتبعه من تلقاء نفسه
 كجندي باسلي. بل يفتقر ايضا الى ان يجرؤ تابعه ويحتم عليه ويلزمه الزامًا
 شديدًا * فما هو افتخارنا عند السيد المسيح قائدنا ايها السامعون الاحباء ان كنا لا
 نريد ان نفعل اكرامًا له وطاعة لاوامره شيئًا سوى ما نحن ملتزمون به لاغير: اهذا
 هو شكرنا لقيمتيه وجلالته الالهية * اهذا هو اعتبارنا لاحساناته الينا قدس اسمه *

اظن ان بعضاً من اهل اللئامة يتغاضون عن اتباع السيد المسيح في هذا
الجهاد المقدس عن خلاص الانفس التي هم غير ملتزمين به حيناً لا يرونه
يوتيمهم رباً . ولكن اذا عرفوا انهم يحنون منه رباً فيتبعون السيد المسيح القائد
الاهلي في الجهاد ولو لم يلتزموا به * فهاتِ نطاوعهم في رأيهم هذا . لانا نجد فيه
برهاناً اقوى في حثهم على اتباع السيد المسيح في الجهاد عن الانفس * الا يعلم
مثل هؤلاء ان رد خاطي واحد الى التوبة هو عمل به ينال الانسان رباً عظيماً لا
يقدر : انه من المعلوم اليقين ان خاطئاً واحداً فقط يكفي احياناً كثيرة ليحرك رجز
الله تعالى على الأمة كلها ولو كانت الأمة بريئة . وقد اثبت ذلك المعلم اوريجنيس
مستنداً على الاخبار المدونة في الكتاب الاهلي بقوله : انه من اجل خطية واحدة
ينزل الغضب على جميع الشعب * ومع اني انا ليس لي خبرة نظير هذا المعلم في
الاسفار المقدسة . فها انا مستعد لانكم منه ههنا ببعض من الاخبار المسطرة فيه
فاقول : كان الاسرائيليون قد هدموا بسهولة عظيمة اسوار مدينة ايريجا واستبشروا
من ذلك بانهم ينجمون ايضاً بافتتاح سائر المدن والقلاع الحصينة : ولهذا
مضوا متشجعين الى امتلاك غاي . وهذه كانت مدينة احقر من ايريجا اسماً وقوة
كثيراً * فشرعوا في القتال . الا ان جيشهم انكسر للوقت وولوا هارين من
اعدائهم الى الورا * فقام في الشعب حالاً ضجيج عظيم ونحيب وبكاء جسيم . واذ
لم يعرفوا السبب الذي من اجله تخلى الله تعالى حالاً عن حمايتهم مع انهم امة
دعاها هو نفسه الى اكتساب اكاليل النصر والظفر لا الى الكسر وذل العبودية .
اسرع يشوع بن نون وجثا ساجداً باحترام وافير امام التابوت واتضع متذلاً
وتضرع باكياً قدام الله تعالى . فأوحى اليه ان علة كسرهم قد كانت خطية صدرت
في الشعب * فيا معشر المسيحيين اي خطية تظنون كانت خطية الاسرائيليين :
هل ايتروا فيما بينهم ان يسكبوا عجاجاً جديداً من ذهب ويسجدوا له كما فعلوا في
القفرة . ام لعلمهم اكلوا من الاطعمة المحرمة عليهم في الشريعة . ام هل زنوا بنسوة

اجنبيات: لا البتة. بل ان دالة مصيبتهم هذه العظيمة قد كانت خطبة اخرى اصغر
جداً من الخطايا المذكورة. وقد صدرت لا من الشعب كله ولا من كثيرين
بل من شخص واحد فقط * ولكن اسمعوا ما جرى لانه امر غريب اهل ليذكر *
اعلموا انه لما كانت مدينة ايريجا المنهدمة تحترق بالنار وتصعد دخنتها الى الجوى.
اذا بواحد من ادنى الجنود يقال له عاخان ابصر اتفاقاً ثوباً ارجوانياً بين
الغنمية. فاعجبته واستلبه وخباه خلفاً لوصية رئيس الشعب الذي كان قد امر بحرق
كل شيء * ولجل هذه الخطية مع انها كانت مستترة حتى رجز الله تعالى على
الامة كلها حتى انه قرر لهم انه سينزلكهم الى الابد ان لم يجتمعوا كلهم على قتل ذلك
السارق وادماره. قائلاً « لا اكون معكم ايضاً » (يشوع ٧ : ١٢) * ما اربب هذا
الخطاب « لا اكون معكم ايضاً او تبيدوا الحرام من وسطكم » * اعتبروا كيف انه
تعالى لاجل خطية واحدة ضرب الامة كلها * ولكن هذا قليل بالنسبة الى ما
يذكره الكتاب المقدس انه من اجل يونان فقط اشرف على الغرق جميع الملاحين
والركاب الماضين معه الى ترشيش * ومثلهم قد اشرف على الغرق جميع تلاميذ الرب
يسوع اذ كانوا مسافرين في بحيرة طبرية بسبب يهوذا الاسخريوطي فقط *
ليس من الاكيد ايضاً انه لاجل خطية الكبرياء التي ارتكبها داود وحده في
احصاء الشعب ضرب الشعب كله بطاعون شديد جداً حتى كان الشعب كله
كان قد ارتكب تلك الخطية (٢ سموئيل ٢١ : ٤) * فقد اتضح اذا ما قلناه
مع المعلم اوريجينيس وغيره من الاباء القديسين. وهو انه من اجل خطية واحد
ينزل الغضب على الامة كلها * ومن ثم افهموا ايها المومنون الى اي شيء استدعيكم
اليوم بنصحي اياكم ان تسعوا بتوبة الخاطي: انني استدعيكم الى ان نتحذر من الضربات
التي يمكن ان تصيبنا بسبب ذاك الخاطي وحده * ان الانسان القاضي ليس
له اذن ان يعاقبنا بذنب غيرنا بل بذنوبنا فقط. ولكن الله جل شانه له ان يعاقبنا
بسبب ذنوب غيرنا. وقد قال القديس اوغسطينس انه تعالى يعاقبنا احياناً لهذا

السبب عينه . وهو أننا نتهاون بتأديب غيرنا وإصلاح ذنوبه * وما هو السبب لذلك (يقول القديس المقدم ذكره) : لماذا نرى أنه كما ان منجلاً واحداً يحدد أحياناً الزهر والهشيم في وقت واحد . وصاعقة واحدة تحرق في الكرم العنب والقرطم معاً . هكذا سخط الله بيده مراراً كثيرة الأبرياء مع المذنبين * فيجب القديس نفسه بنفسه ويورد السبب قائلاً : لكي يحترز كل انسان ليس على نفسه فقط . بل يعتني بإصلاح غيره وتأديبه . ونصير الجميع أعضاء لجسد واحد وانسان واحد وذلك باعناء كل واحد منهم بخير قريبه : انتهى * فكيف نقولون أيها المسيحيون أنه لا يعينكم رد النفوس الى التوبة لانكم لستم ملتزمين بذلك . والحال ان السعي بتوبتها وخلصها هو راجع الى خير الجمهور ورجحه بل خير نفوسكم ايضاً وخلصكم . أوبعد هذا تزعمون أنه ليس لكم سبب داع الى ذلك . انني اسألكم فاجيبوني : ان رأيتم ناراً عظيمة قد أُنقِدت في بيوت جيرانكم . افما تسرعون حالاً وتاتون بماء لتطفئوها ولو لم تكونوا ملتزمين باطفائها . اما تسعفون جيرانكم بكل ما يمكنكم من السعي والهمة * فعلى هذا النسق اروم منكم ان تصنعوا في ما نحن في صدده * ليكن عندكم محققاً أنه حينما يخطئ قريبكم . تكون النار قد أُنقِدت في جيرانكم . ولذلك سبيلكم ان تهتموا وتسرعوا وتتعبوا في اطفائها لئلا تتصل اليكم *

غير ان الريح الذي عنه تقدم القول هو ريح سلبية فقط . اي تخليص النفس من الشر او توقيها من المضرة * ولكن فضلاً عن هذا الريح السلبية الصادر من تأديب القريب يصدر ريح وضعي ايضاً . وهذا الريح عظيم جداً * لانني ان شئت ان اوضح لكم رأيي . فاقول : انني اظن ان فعلاً من الأفعال الصالحة يرضي الله تعالى ويكسبنا فضلاً أكثر من رد احد الخطاة الى التوبة * لكن ما لي قلت لكم ان هذا رأيي : اسمعوا ما يقوله القديس غريغوريوس الكبير في تفسير مزامير التوبة * قال : ان الذي أُنق له بنعمة الله ان ينخل من اغلال الخطايا واجتهد بهمة مقدسة ان يعط الخطاة الى رحاء الغفران ايضاً . فليس له ان يقدم لله نقمة مرضية

اكثر من هذه اي الهبة بخلاص الانفس : انتهى * ولتحقيق ذلك اخبروني : من اي
 فعل من الافعال الصالحة نرجو اجراً اكبر مما ترد الخطاة الى التوبة : هل من
 الصوم . ولكن اي صوم يمكن ان يكون اشد من صوم السيد المسيح الذي حسب
 شهادة الانجيل الطاهر قضى اربعين يوماً واربعين ليلة من غير ان يدوق شيئاً
 من الماكل والمشرب (متى ٤ : ٢) * ومع ذلك فلكي يخلص نفوساً كان يقهر طبعه
 ويجلس على ولائم العشارين (متى ٢١ : ١١) * مع انها مفضحة ومرفهة وياكل فرحاً معهم
 ومسروراً من غير ان يبالي باستهزاء الراصدين الذين كانوا يقذفونه بانته « اكل
 وشرب خمر » (متى ١١ : ١٩) * ام عساكم ان ترجوا اجراً اكثر من قبل الصلوة .
 ولكن من هو الذي يصلي صلوة اطول واكثر اسهاباً من صلاة السيد المسيح الذي
 كان يصرف الليالي ساعراً في الصلوة من غير رقاد . ومع ذلك فلكي يخلص
 نفوساً كان يقطع صلاته الليلية ويقبل زيارة نيقوديموس ونظيره الاتين اليه جلت
 مراحته ليلاً ويستمع صابراً مخاطباتهم مع انها كانت مخاطبات كثيفة غليظة خالية من
 كل التذاذذ * ام هل ترجون ذلك من الصدقات التي تحسن بها على المساكين :
 فهاهنا لست اتكلم انا بل استدعي القديس الذهبي فبه يوحنا . الذي لم يكن له
 نظير في الهبة على المساكين وحث المومنين ليتصدقوا عليهم نظيره . فليتكلم عني
 ويوضح لكم اي عمل افضل . الصدقة ام ردت النفوس الى التوبة * فاسمعوا ما حرره
 في خطبه الثالثة من تفسير رسالة الرسول الاولى الى القورنثيين . قال . انه ان
 وزعت يا هذا مالا كثيراً على الفقراء فتعمل عملاً افضل اذا رددت نفساً واحدة
 الى الله * ولا نتعجب من قوله هذا . لانه هو نفسه اورد السبب في موضع آخر من
 خطبه قائلاً : لان من يعطي الفقير يزيل جوعه . ومن يرد خاطئاً يزيل نفاقه .
 هذا يخلص الجسد من الضيق وهذا ينقذ النفس من جهنم . انتهى * ما اعظم هذا
 الاختلاف ايها الاخوة . اي الاختلاف الكائن بين انقاذ الاجساد من الضيق
 السريع الزوال وانقاذها من الحريق المؤبد * فنقول انه ان كان الاجر يقاس على

الخير الذي يفعلهُ للقريب . فمن ذا يشكُّ في ان اعانة الانفس المضنوكة بالخطايا
 يوجد فيها اجر اعظم مما في اعانة الاجساد الحاصلة في الضيق والشدة : ام لعلمكم
 تظنون ان لكم اجرا اوفر امام الله تعالى بابتناء الكنائس وتشيد المعابد واقامة
 البيمارستانات كما فعل الملوك والامراء الصالحون : لا لعمرى . بل انكم تقدمون هدايا
 مقبولة لله اكثر من كل شئ بخاطي واحد فقط تردونه اليه تعالى تائباً من صميم
 قلبه * وهل تعرفون ماذا يحدث لكم في هذا الصدد : انه يحدث لكم نظير ما فعل
 كيمون اعظم قواد جيش اليونانيين حسبما اخبر عنه بلوطرخس المورخ * كان
 هذا كيمون قد ظفر بالفرس واخذ منهم غنائم وافرة وعظيمة . ثم لما اراد ان يفارق
 سائر متقدمي الجيش ويرجع الى اثيناس . جمع كل السلب وجعله قسمين . فوضع
 من احدى الجهات جميع الغنائم التي حصلت من العسكر الفارسي المغلوب . اي
 الاتراس والنخوذات والدروع والسيوف والجباب الجزيلة الثمن وثياب الارجوان
 الثمينة والانية الفضية والاطواق الذهبية . ومن الجهة الاخرى وضع جمّاً غفيراً من
 الاسرى المستأسرين في تلك النصره واقفين عراة ومجرحين ومهشمين من الضرب
 في القتال . ووجوههم متغيرة لدى التعب والخوف اللذين قاسوهما في الحرب . حتى
 ان النظر اليهم كان يجرُّك الى الشفقة عليهم * ثم التفت الى رؤساء المعسكر اقرانه
 وقال لهم : انتخبوا ما تستحبونه من هذين القسمين . لانني انا اتزل لكم عن حقي في
 تقديمي عليكم بالانتخاب ولو كنت اكبر جميع قواد العسكر * فلم يتقاعد اولئك عن
 الاختيار . بل استحبوا للحال المال . لانهم اندهشوا من حسن الفضة ورونق كثرة
 الذهب الموضوع بازائهم . واستهزأوا بكيمون حيث جعل اولئك الاسرى العراة
 المجرحين قرعته * غير انه حدث بعد ذلك ان كيمون بعد ان اتخذهم حصته
 داوهم وابراهم من الجراحات والقروح حتى تعافوا جيداً . فوجد من اشتراهم بثمن
 غال جداً . حتى انه فهم الجميع ان قيمة المال والامتعة هي ادنى طبعاً من قيمة
 الانسان * فان شتم ايها الاخوة السامعون ان تمثلوا شوري الصالح . فاجتثوا عن

يكون من الخطاة المساكين أكثر انغاساً واستغراقاً في الخطايا. واسعوا مجتهدين في علاجهم ومداواتهم من اسقامهم المهلكة ليبرأوا * ثم قدموهم بعد ذلك قرباناً للسيد المسيح ولا تخشوا. فإنه تعالى يعطيكم عن ثمن كل واحد منهم أكثر جداً مما يعطيكم لو اتيتم اليه محملين بالجواهر المنتخبة والذهب الصافي الجزيل * وإن كان ذلك كذلك. فلنعد إلى مطلوبنا قائلين: إن كان السعي بخلاص قريتنا المفهوم بقول الرب «فقد رجحت اخاك» هو عملٌ ذو اجر يفوق على اجر الصوم والصلوة والصدقة ويحصر الكلام يسمو على الافعال الصالحة كافة. فكيف يمكن ان لا تؤثروا انتم ان تفعلوا ذلك بكل الاجتهاد لزعمكم انكم لستم ملتزمين بذلك * هل عندكم هذا شرعيٌّ راهن معتبر: حاشا وكلاً. بل هو اعذارٌ ضعيف واهٍ * وإن كان له عندكم شبه سندٍ يعفيكم من السعي المقدس المذكور بكل جهدكم. فيعفيكم ايضاً عن الالتزام بحرث اراضيكم باجتهدٍ عظيم. وعن الالتزام بالمجارة بفضتكم بتعبٍ جزيل. لأنه وإن كان الربح الذي يجذبكم الى ذلك عظيماً. فلستم ملتزمين بالمحارثة باجتهدٍ عظيم ولا بالمجارة بتعبٍ جزيل *

ولكن اخبروني: من ذا الذي قال لكم انكم لستم ملتزمين ان تترجوا نفوساً لله * فإن كنتم لم تصيروا سبب عثرةٍ لاحدٍ قط في الخطأ. او ان كنتم لم تحملوه عليه ابداً. فانا اسلم لكم ذلك * لكن ان كنتم قد حملتم احداً على الخطا (وهذا امرٌ سهلٌ حدوثه) اما بتعليمكم الشر لتقريبكم او بجنحكم اياه عليه او بمدحكم اياه له او بطريقةٍ اخرى كيفما كانت. فلست اسلم لكم انكم غير ملتزمين بربح النفوس * لقد اخنطفتكم من الله نفساً. فلتتزمون من قبل كل الشرائع والحقوق ان تسعوا في ان تردوا له عز اسمه نفساً اخرى * لقد امر تعالى شعبه في العهد القديم انه من قتل لقريبه حيواناً عوضه بحيوانٍ آخر يشبهه. اي الثور بالثور والخروف بالخروف والحمار بالحمار. اذ قال الله «من يضرب دابةً. فليرد جزاءً نفساً مكان نفس» (لاويين ٢٤: ١٨) * مع انه اذا اعتبرنا قيمة الحيوان. نرى ان المنازل كان يمكنه ان

يعوّض المضرور بطرائق اخر غير هذه السنة الصارمة اعني قوله « النفس مكان
 النفس » * ولذلك فاننا على سبيل المقايسة اهتف قائلاً : آية طريقة لكم ترجون
 بها ان تعوضوا لله تعالى عن النفس الانسانية التي خدعتوها واخنطفتوها منه *
 غوصوا في بحر القلزم واجمعوا كل ما يحويه من الآلئ . وقدموا لله معه جميع
 الحرير الفاخر الذي في بلاد افريجيا . وكل المرمر الموجود في اقليم نوميديا . وجميع
 العطور المتباهي بها الاثوريون . وكل الأرجوان المتفاخر به اهل صيدا . فهذا كله
 لعبري هو كلاشيء بالنسبة الى قيمة نفس واحدة مختلصة من الله تعالى . بل العالم
 كله ليس هو ثمناً موازياً للنفس كما قال القديس غريغوريوس الكبير * فلا شيء يساوي
 النفس المختلصة من الله سوى نفس اخرى ترتد اليه عز وجل . لان جميع الانفس
 اشتراها يسوع المخلص بثمن واحد * ولهذا اذا عرفتم انكم اخنلستم نفساً من النفوس
 وردتتموها عن طريق الخلاص . فكيف نتجاسرون ان تبرئوا انفسكم من الالتزام بان تردوا
 نفوساً على قدر ما اضلتم في الاقل * فتلتزمون ذمّة بالمكافأة اي « برد نفس
 مكان نفس » * اخصوا ضامركم جيداً . واعرفوا كم من المشورات الرديّة برزت احياناً من
 افواهكم توذي القريب . وكم من مرّة صرتم سبب شك وعثرة لغيركم . وذلك اما بكلامكم
 السفيه او بعشرتكم السنيّة . واما باللعب غير المرتب . او بالاغاني الدنسة وما ضاهاها *
 وبعد ذلك كيف لا تحزنون وتخافون من جرى اغوائكم للبار الذي كان تابعاً ليسوع :
 لعبري انه يلزمكم ان تعودوا خاضعين عند قدمي يسوع حالاً . وليقل كل منكم
 له تعالى : يا رب قد اخطأت واخنلست منك ذاك البار . وها اني اقدم لك
 عوضاً عنه هذا الخاطي * وبهذا كان داود الملك يعد الله تعالى عند توبته . اي
 تعليم الائمة ورد الخطاة هاتفاً « فاعلم الائمة طرقك والخطاة اليك يرجعون »
 (مزامير ٥٠ : ١٥) * ولكن لاي سبب كان يعد الله هذا الوعد . العلى من كان جندياً
 نظيره وقد اعناد منذ صغر سنه على الحرب والقتال يلتزم ان يقوم بوظيفة المعلم
 والواعظ على الخطاة . اليس ان خاصة وظيفته كانت تقتضي عكس ذلك . اي

ان يجمع جنوداً ويقوم حروباً ويحاصر المدن ويهجم على الحصون لا ان يعلم الجهولة ويرد الخطاة بمنزلة الراهب الرسول: نعم هذا حق. ولكن بما ان داود كان قد اظهر توبته. فكان يتذكر انه باشتهار بعض ذنوبه صار سبياً لكثيرين ليحذفوا على اسم الله القدوس حسبما قال له ناثان النبي «اشمت بك اعداء الرب» (٢ سموييل ١٢: ١٤) * ولاجل ذلك كان يرى حسبما فسر المترجمون المدققون انه لم يكن يسوغ له ان يظهر باسفار الوجه امام الله تعالى ويستريح منه الغفران ما لم يرد الى التوبة خطاةً بقدر ما كان اضل منهم عن طريق الله * وهذا هو ايضا السبب الذي الزم ارنوبيوس واوغسطينس وهيلاريوس وقبريانس ويسطينس الذين كانوا قبلاً قد قاوموا الايمان المسيحي واضطهدوا المومنين. ان يكتبوا اسفاراً فيما بعد للحمامة عن الايمان المقدس * ثم ان كان بولس الرسول ايضاً قد تعب ونصب عن كنيسة المسيح التي كانت نشأت حديثاً اكثر من سائر الرسل. فانه قد فعل ذلك لانه كان سابقاً قد اضطهدوا. كما شهد بذلك القديس غريغوريوس الكبير الحبر الاعظم في تفسيره المزمور الخمسين * فلا يظن احد منكم انه تاب الى الله وانتبه بالكفاية لنفسه ان كان فيما مضى اساء الى نفسه واحداً اما بالتعليم الردي او بالاجتذاب النفاقى او بفعل آخر مشكك ومع ذلك لم يجتهد الى الآن ان ينصحها ويتودها الى الخلاص بغيره مقدسه * فما الذي يجب ان تستتجوه ايها المومنون مما اوردناه على سماعكم سوى هذا. وهو ان ترجوا الاخوة * ويمكن انه يهجم في خواطركم انكم لا تستطيعون انتم ان تفيدوا قريبكم فائدة عظيمة اذا اردتم ان تفيدوه. فان كنتم توثقون ذلك. فانتم ضالون * اه ثم آه ما اعظم الفائدة التي تقدر ان تفيدوه بها انتم ايها الاعيان واتن ايها السيدات. وكذلك انتم ايها المومنون كافة من اية رتبة ودرجة كنتم * اني اعلم ان الاكثرين منكم لعلمهم الآن يذمون خطبتي هذه لكونها تبين غير مناسبة لدرجتكم الدنيوية. لكن تناسب الرهبان والكهنة المرشدين الذين لهم بحسب وظيفتهم ان يعطوا الناس ويردوهم الى

النوبة بهمة حارة. ولا يدعوا الرذيلة تستقر حتى في الفياقي المتفرة * ولكي اقول
 لكم الحق انكم لمدعون ان ذمتم خطبتي هكذا * ولا ثبات ذلك اسمعوا ما
 يوصي به روح القدس مخاطباً لكل واحد على لسان ابن سيراخ « أَنْقِدْ صَاحِبَكَ
 بِقَدْرِ قُوَّتِكَ » (سير ٢٩: ٢٧) قال « بقدر قوتك » ولم يقل بقدر القوة التي تراها في
 غيرك. لكن بقدر ما يمكنك انت وبقدر وزنك وبقدر علمك وبقدر الحال التي
 انت فيها. وفي هذا قال القديس غريغوريوس الحبر الاعظم في خطبته السادسة
 على الانجيل المقدس: لا يقل احد لست انا للفصاحة كفوفاً اولست للوعظ
 ملائماً او للتنبية موافقاً. فافعل يا صاح بقدر ما تستطيع: انتهى * نعم انه لا يخص
 العلماء ان يعظوا وعظاً مسهباً بضحج نظير الواعظ الانجيلي. ولكن كم من مرة
 يتفق لكم ان تحضروا مجلساً وفيه تصدر مشورة رديئة على عمل شيء يضاد الله
 تعالى. مثلاً على اقتناص طهارة احد او على تهمة احد او على اخذ الثار من
 غريم او على غرور احد وما شاكل ذلك * اما تستطيعون حينئذ ان تنقدوا
 صاحبكم من الخطأ الذي قصد بقدر قوتكم * قلت بقدر قوتكم. لانني لست اعني
 ان تهجموا على اولئك الائمة نظير فنجاس اي وانتم قابضون الرمح بايديكم (عدد
 ٢٥: ٧). لكن يمكنكم ان تنصحوهم بشفقة وتؤدبهم بحلم ان كنتم مساطين عليهم او
 اكبر مقاماً وسناً منهم * وان لم تكونوا هكذا. فيمكنكم ايضاً ان تفيدهم بطرائق
 اخر كثيرة. وذلك مثلاً بان تبطلوا نيتهم وعزمهم الرديين بتلاشي مشوراتهم
 بصناعة وظرافة او بدم العمل الذي عزموا عليه او ببيان الصعوبة العظيمة في
 تحصيل اربهم. او ببيان عدم الرج والنجاح في ذلك الشيء الذي يقصدونه *
 فهذا مماثلون يهوذا الواد للقريب الذي عندما رأى انه لا يستطيع ان يقنع
 اخوته ليعنوا عن اخيهم يوسف البار. اقنعهم بان يخناروا شراً آخر اخف وهو
 بيع يوسف للتجار الاسماعيليين « (تكوين ٢٧: ٢٦) * وهذا الذي قلته للجميع بوجه
 عام اقوله لكل فرد منكم بوجه خاص: اشبح انت في البلد وذو قدرة وسلطان.

اسمع وصية ربك القائل لك « انقد صاحبك بقدر قوتك ». لماذا لا تجتهد في ان تلقي السلامة ما بين ذينك الرجلين الشريفين المجدين على ادمار بعضها بعض لسبب الخصومة الكائنة بينها وتستعطفها بالفاظ لينة ليصبرا الصبر المقدس قبل ان يبدا احدها خصمه لاجل قليل من الجاه الديوي * اتاجر انت وليس لك صناعة اخرى سوى المتاجرة . « انقد صاحبك بقدر قوتك ». لماذا لا ترحم تلك الفتاة المسكينة المشرفة على فقد بكارتها ولا تجرد عليها بقليل من الفضة لتدخل الدير وتستر عرضها قبل ان تصير صيدا للجهلة * وهكذا انت ايها المرأة . اشريفة انت مخدرة ملتزمة بان تعيشي محتجة في البيت : ما احسن ذلك . ولكن انت ايضا يخلصك ان تمثلي وصية الله القائل « انقذي صاحبك بقدر قوتك » * فليتك تعلمين كم تفيدين غيرك خلاصا بتربيتك اولادك حسنا لينعطفوا الى العبادة ومحبة الفضيلة من حدائهم . لانك بهذا تبلغين الى ان ترجي بسهولة نفوسهم ومع نفوسهم نفوس آخرين ايضا . لانه من الممكن وليس بعجب ان يتحرك قلب واحد منهم فيما بعد ويقدم نفسه لخدمة الله بسبب التربية الحسنة ويضي آله عظيمة شريفة في اجذاب الانفس الى الملكوت * فمن منكم لم يسمع قصة حنة الصالحة امرأة ملقانا المشهور اسمها في الكتاب المقدس : ان هذه لم تلد ابنا سوى سموئيل . وكانت قد نالت من الله تعالى بتعب جزيل اي باصوام مديدة ودموع غزيرة وصلوات متصلة . ومع ذلك حالما ولدته فرحت به كأنها سمت على ليا بالخصب . وشرعت تسبح الله عزت قدرته وتقول عن نفسها « ان العاقر ولدت سبعة » (١ سموئيل ٢ : ٥) * وكيف يصح قولها هذا وهي لم تلد سوى سموئيل . العل سموئيل هذا بمفرده يحسب كثيرين * فجييب هنا التيميوس المعلم في تفسير هذه الآية قائلا : نعم . ان بارا واحدا نظير سموئيل كان بمثابة الكثيرين . ومن ذا يمكنه ان يعد الذين صيرهم هذا البار ابرارا مع كونه واحدا * فانجوا من هذا الوالدون باي نوع تستطيعون ان ترجوا لله

نفوساً كثيرة وذلك بتربيتكم اولادكم في خشية الله تعالى وتعليمهم الغيرة لمجد منذ
نعومة اظفارهم * الا ان هذا لتليل . فاعلموا ايضاً انه من شهادة يعقوب الرسول
القائل في رسالته الجامعة « ليصل بعضكم لبعض لكي تعافوا » (يعقوب ٥ : ١٦)
عرفنا ان الصلوة عن الخطاة هي واسطة قوية لردهم الى التوبة * وقد جرى ذلك
في بولس الرسول . لانه لما لم يستطع اول الشهداء القديس اسطفانس ان يرمجه
الى الايمان بوعظه . رجمه بصلاته عنه * ومثله القديس اوغسطينس : فانه اذ لم
يرتد الى الايمان بتعليم والدته مونيكاً ونصائحها . ارتد بصلاتها وبكائها عنه * فنقول :
من منكم ايها السامعون لا يستطيع ان اراد ان يشغل نفسه هكذا بتخليص النفوس .
فان كنتم تجلدون اجسادكم في معبد . فاعلموا هذا العمل المقدس لاجل رجوع
الخطاة الى الله تعالى . واذا صليتم المسجحة . فاتلوها عن الخطاة . واذا سمعتم القداس
الاهلي . فكذلك قدموه لاجل توبة الخطاة . واذا صتمت . فافعلوا كذلك * بل
اقول لكم انه يمكنكم ان تفيدوا الخطاة وتردوهم الى التوبة بطرائق اقوى من هذه
واسهل . وذلك مثلاً ان تملقوهم وتستاقوهم معكم الى جمعية روحية او شركية مقدسة .
او تدعوهم الى استماع الوعظ احياناً . او تحثوهم على قراءة كتاب روجي . او تفيدوهم
اكثر من كل شيء بالسيرة الصالحة . لان القديس برنردس في خطبته على نشيد
الانشاد يقول : ان صوت العمل هو اقوى من صوت الفم * آها لو كنتم تفهمون
قوة التكلم بالعمل : لعبري انها اشد اقناعاً من التكلم باللسان . هذا هو التكلم القوي
الشديد الذي كان الرسول بولس يطلبه من تلميذ طيطس قائلاً « تكلم بكل
سلطان » (طيطس ٢ : ١٥) * لانه وان كان التكلم باللسان يحرك النفس ويتلقها
ويجذبها . الا ان التكلم بالعمل يضبطها ويضطرها ويلزمها الزاماً * فلنسلن لكم
ايها المومنون ان حالكم ودعوتكم العامة لا تسمح لكم ان تصعدوا على المنابر
وتندروا باصواتكم * ولكن ما لنا وذلك . عطاوا واكرزوا بالسيرة الصالحة :
عودوا نفوسكم على الوقوف في الكنيسة بورع واحشام لكي يتأدب من ورعكم

واحتشامكم وصمتكم كل الذين يتحدثون في بيت الله . اعترفوا كثيراً وتناولوا الثمران المقدس مراراً جهراً امام الجميع بغير خجل * « لا تفض يناييك خارجاً » (امثال ١٦: ٥) كما قال الحكيم « وسواقي مياهك في الشوارع » . ان الخير الذي تصنعونه سرّاً ينفعكم وحدكم . والذي تفعلونه ظاهراً ينفع غيركم ايضاً * فان هؤلاء يتحركون ويتحششون من النظر حسبما اثبت ذلك موضحاً بطرس الرسول رئيس الحواربين حيث قال « يُرَجَّحون بغير كلام . اذ يبصرون قلوبكم بالطهارة والخفاة » (١ بطرس ٢: ١) * فان كان الامر هكذا . فلا ينبغي لكم ان تضعوا الزمان ايها الاحباء . بل ابتدئوا عاجلاً من كل القلب ان تفعلوا عنكم الدين العظيم الذي له تعالى عليكم لعلّ الانفس التي اخنلستموها منه * ابدلوا اعراقكم وكذبوا مهتئين بخلاصها . وتيقنوا انه يصعب عليكم ان ترجعوا الى نعمته بطريقة اخرى غير السعي في خلاص الانفس التي خدعتموها او صرتم سبباً لانخداعها * لانه ان كان القديس بوناونتورا قال عن القديس فرنسيس الكبير انه لم يكن يحسب نفسه محباً للمسيح ان لم يجد في خلاص النفوس التي دو تعالى انقاذها . فإذا يجب ان نقوله عن نفوسنا المسكينه نحن الذين نهذ كل يوم في مضرة يسوع المسيح . وبعد هذا لا نحسب انفسنا ملتزمين شرعاً ان نكافئه عن المضرة *

القسم الثاني

انه على ما يلوح لي قد اتضح بالكفاية انه لا يسوغ لأحد البتة ولو كان علمانياً او وظيفته لا تقتضي دعوة النفوس ان يعفي نفسه من هذا الالتزام المذكور اي مارسة ما يخص خلاص النفوس بنوع من الانواع * غير انني اقول ايضاً ان كان العلمانيون ملتزمين بذلك . فليت شعري ما الذي ينبغي ان نقوله عن التزامكم يا معشر السادة الاساقفة والفسوس ورؤساء الرهبان : هل يجوز لكم ان تبرئوا نفوسكم من هذا الالتزام العظيم * فائذنوا لي الآن ان انبهكم باحترام لكي تتيقظوا وتحذروا

جيداً. لأن التهاون منكم بخلاص انفس غيركم هو لعمرى تهاون بخلاص نفوسكم *
ان من اليقين أنه من ضمن شيئاً لغيره. يصير من قبل كفالتة ملتزماً به التزاماً
تاماً. حتى أنه اذا ظهر نقص في ما ضمنه. يلتزم بان يغرمه هو ويضطر ان يعطي عنه
حساباً شديداً دقيقاً * والحال ان الذي فعلتموه انتم ايها السادة والآباء المحترمون
حينما نقلتم تدبير الكنيسة والرعية. صغيرة كانت او كبيرة. هو هذا. اي انكم ضمنتم
انفس الذين نقلتم تدبيرهم. ومن جرى ذلك صرتم ملتزمين للسيد المسيح بالسعي
والاجتهاد ان يوذي له المومنون جزية الطاعة والاحترام كما هو واجب ولائق *
فاذا صار اختلاف ونقص في ذلك. فلا بد ان تساقوا انتم الى الدينونة والفحص
لكونكم الكافلين. وتغرمون بالعقاب. وتلتزمون بالمكافأة عن الضرر * فانتبهوا الى
ما يوصيكم به روح القدس قائلاً « يا ابني ان ضمنك صديقك. وان صفت
بكفئك الى غريب. وان اخذت بكلام. اذا فافعل ذلك يا ابني ونج نفسك »
(امثال ٦ : ١) * ان القديس غريغوريوس الكبير وبرناردوس وبيدا وتوما المعلم
الملاكي خصصوا هذا المقال الالهى لجميع الموكلين على الانفس. وقالوا ان هؤلاء
هم بالحقيقة الذين ضمنوا واسلموا ايديهم والسنتهم الى غيرهم * اما ايديهم فاسلموها
بالزام نفوسهم ان يفيدوا الذين ضمنوهم بالقدوة الصالحة والسلوك الحسن امامهم.
واما السنتهم فاسلموها ليفيدوهم بالوعظ والتعليم * غير انني اسالكم ايها الموكلون
على الانفس عن قضية واحدة واقول : اخبروني : من هو الذي ضمن له هؤلاء
الموكلون على النفوس واسلموا اليه ايديهم وربطوا معه السنتهم : اليس هو المسيح
رب الانفس : بلى. فلماذا قال الكتاب المقدس انهم اسلموا ايديهم « الى غريب »
العل ربنا يسوع المسيح هو غريب عنا * لعمرى ان هذا السؤال لغويص ودقيق
معاً. ولكن اسمعوا الجواب. فاقول : ربما اتفق لكم ان تذهبوا احياناً الى شخص
وتضمنوا واحداً من المديونين له بمبلغ جزيل من الدراهم. وقد رايتم كيف ان
المذكور عند استماعه بضمائمكم فرح مسروراً وقبلكم بوجهه باش. واكرمكم واعتبركم *

ولكن اذا ما حان اجل الوفاء . فكل شيء يتبدل . لانه يرسل حالاً ويفتش عليكم باحتراز . ويطالبكم بالضمان بلا رحمة . ولا يقبل وسيطاً او شفيعاً ما بينه وبينكم . ويغناظ من التماهل والتاخير كأنكم غرباء عنه وكأنه لم يعرفكم قطه . واذا تباطاتم بالوفاء . فيرفعكم الى المحكمة ويسجنكم . ويسلب مالكم لكي تفوه ما ضمنتموه له * فعلى هذا النسق يجري الامر بينكم وبين السيد المسيح . فهو جل ذكره يعاملكم كالصديق حينما تضمنون الانفس بتوليكم على رعايتها وتديرها . ولكن اذا حان الوقت لمطالبتم بالضمان . فيعاملكم كالغريب وكأنه تعالى لا يعرفكم اصلاً * هكذا فسر المعلمون القديسون المذكورون في نص الكتاب المورد انفاً ولاسيما القديس توما الملقب بقوله : ان المسيح يسمى هنا غريباً لانه صديق وقت الضمان وغريب وقت طلب الحساب : انتهى * فما اسد هذا التفسير وما احسنه : نعم . ان السيد المسيح سيكون وقت طلب الحساب بمنزلة غريب لا يعرفكم ايها السادة والاباء المتعادون سياسة الانفس . لكنه تعالى يطالبكم بما ضمنتموه . وبضايقتكم بشدة عظيمة وتدقق تام * فاسرعوا فرحين واكفوا غيركم . واطلبوا وظائف ودرجات . تسلموا تدير كنائس . وارغبوا خدمة رعايا . ولكن ستعاينون بانفسكم ما هي الفائدة الواصلة لكم من ذلك * نعم ان الله يظهر لكم الآن وجهاً باشاً ويقبل بسرور ضمانكم . فهو لكم صديق وقت الضمان كما قال العلامة * ولكن كيف هي ثقتكم . اتقون انه تعالى سيكون لكم صديقاً ايضاً يوم الحساب والحشر : لعمرى انكر لضالون ومغرورون ان رجوت ذلك . لانه جل عدله سيكون حينئذ اي وقت الحساب غريباً * فالويل لنا اذ انه عز جلاله في ذلك الحين يكون متشدداً وكأنه غريب لا يعرفنا . بل لا يلتفت الينا ولو بلحظة واحدة . لكن يطلب منا المكافاة ويطالبنا بالعدل . وياخذ منا حقه حتى آخر فلس . بما انه تعالى يكون غريباً وقت طلب الحساب * ولو لم يكن الامر هكذا . لما شاهدنا اناساً جليبين بالقداسة انقطعوا في البراري وقطنوا القفار لخوفهم من ان يلتموا برعاية الانفس .

وما عدا ذلك ما اكثر الذين استعملوا طرائق اخر اصعب من هذه . ومنهم
الانبا فيلامون الراهب * هذا قد ذكر في خبر سيرته الصالحة ان اهل مدينة
بعابك اجتمعوا يوماً وراموا ان يخنطوه من ديره ويجلسوه على كرسي اسقفية
مدينتهم عوضاً عن اسقفهم المتوفى * ولما لم يستطع ان يدفع اغتصاب
الناس وتوسل الكهنة واوامر الاساقفة الذين حضروا من الابرشيات الالائة
ليسيموه اسقفاً . استعمل يوماً واحداً ليستعد فيه هذه الدرجة الثقيلة . فاجابوا
الى طلبته * ثم اخلى في قلايته . وجثا على ركبتيه وشرع يصلي بخشوع متنهداً
ويسيل الدموع طالباً باضطرام قلب جزيل حتى انه نال من الله تعالى اخيراً ان
يمكث هناك في قلايته ميتاً قبل ان يبلغ مساءً النهار الذي اهلوه فيه . وهكذا
اعند القبر خيراً لنفسه من الاسقفية * وامون السائح قطع بيد اذنه الواحدة
ليضيح عجزاً عن اخذ اسقفية الاسكندرية التي اخناره لها الاقليس والشعب *
وافرام السرياني احنال وابان انه ساه ومجنون لئلا يلتزم باسقفية قيسرية *
والقدس امبروسوس تمنع ايضاً ليس باقل من هؤلاء المذكورين لئلا يرثي الى
درجة الاسقفية . فانه لما راي اهل مديولان قد اتفقوا على نقله من الولاية الدنيوية
الى الولاية البيعية . نصب كرسيّاً عالياً للحكومة في وسط ساحة المدينة وجلس عليه
بجل مرعب . واحضر الجلادين قدامه . وكان بعضهم ماسكين بايديهم سيوفاً .
وغيرهم ماسكين فؤوساً للقطع . وبعضهم حاملين عصياً وقضباناً للتاديب * ثم
اراد ان يذيع عنه الخبر بانه قاسي ظالم . فامر ان يستاقوا لديه من السجن المسجونين
ويعاقبوا كلاً حسب زلته * وقال : من يستحق قطع الراس . فلتقطع هامته قدامي .
ومن يستحق تقطيع الاعضاء فليقطع . ومن يستوجب الجلد . فليجلد * فلم يستفد
شيئاً من هذه الحيلة . فاحنال حيلة اخرى . وذلك انه بعد رجوعه الى قصره دعا
اليه تجاه الناس النساء الزواني وغيرهن من النساء الدنيويات القليلات الحياء
ليخيل للناس ان له معهن عشق وصدافة . قاصداً بذلك ان يحدث له احتمار

من العامة فيعدوا عن انتخابه اسقفا عليهم * الا انه لم يستفد شيئا من هذه الحيلة
ايضا . لانه لم يستطع ان يخدع الناس وينزجهم عن مقصدهم * فحينئذ اي بعد ان
ايس من كل حيلة فكر ان ليس له واسطة اخرى تبعدُه عن أخذ الاسقفية سوى
الهزيمة . ولهذا نزع عنه وشاحه ولبس اثواب فلاح . وخرج هكذا متنكرا من المدينة
ليلا . وركب متن الطريق ليهرب الى بلدة بعيدة ويستخفي فيها لئلا يعرف * فمشى
الليل كله وظن انه ابتعد عن المدينة جدا . ولكن لما لاح النهار . ابصر نفسه واقفا
عند باب المدينة . ومن جرى ذلك تيقن ان الله تعالى يريد ان يكون اسقفا *
فمن هذه الامثلة انتجوا الآن ايها الموكلون على سياسة النفوس انه لو لم تكن هذه
الوظيفة سامية مرهبة ثقيلة على مناكب الملائكة فضلا عن البشر المائتين . لما كان
هؤلاء القديسون المعظمون ارتاعوا منها واستعملوا كل هذه الطرائق والصنائع
ليعتقوا منها . مع انهم كانوا متصفين بعلم سام وقداسة كاملة وحكمة بليغة وغيره
نادرة وغير ذلك من المناقب الحميدة اللازمة لحسن سياسة النفوس * فمن ثم
اقول : اما يكون سخيف العقل من يشتهيها ويطلبها ويعتدُّها راحة واجرة لانعابه .
يا لها من وظيفة مرعبة مخيفة * ان من المعلوم ان الملائكة متصفون بجميع الصفات
السامية . كالفضيلة والحكمة وما ضاهاها . ومع ذلك فكل ملك منهم ليس له سوى
نفس واحدة موكل على حراستها * ولكن الاسقف والقسيس واي رئيس يعي
كان سواها لهم تحت حراستهم انفس كثيرة . وبعد ذلك العلم يرجون ان يعملوا
الواجب عليهم بسعيهم اليسير في خلاص الانفس الموكلين هم عليها * فلا تنهاونوا
ايها الرعاة المكرمون باداء ما تقتضيه وظيفتكم الثقيلة . بل ازدادوا همة واحتراسا
وحرارة في خير الانفس . واعلموا ما قاله الحكيم بعد النص المورد انفا . قال « اذا
فافعل ذلك يا ابني . ونج نفسك . لانك سقطت في يد صاحبك . فاذهب ترام
والح على صاحبك * لا تعط عينيك نومًا . ولا جفنيك نعاسًا * خلص نفسك كالغزال
من القبض . وكالعصفور من يد الصياد » (امثال ٦ : ٢) * ومعنى ذلك هو هذا :

اضمنت يا هذا للسيد المسيح المديونين له وكفلتهم « اذهب وترام » واجعل كل
 واحد منهم يفي ما عليه . وَتَسَلَّم . اطلب . عِظ . عاتب . توعَّد . عزَّر . عاقب . ولا
 تعطِ روحك وجسمك راحةً حتى يستوفي الله تعالى ما له على الذين كفلتهم من
 الاكرام والتعبُّد . وتبطل العوائد الرديَّة التي دخلت في رعيتك . وتضمحل
 الخصومات والعداوات . وتُستأصل الادناس . وتعلم الشبان على الخصوص التعليم
 المسيحي الخلاصي . ويردُّ بواسطتك للكنائس الوقار ولاهل الاقليس الهيبة .
 وللعلمانيين التهذيب المقدس * الا ترى كم يجد الغزال ويتعب ليخلص من الشرك
 المقتنص هو به . والطير ليفلت من شبكة الصياد * اتعب انت وجدَّ وجاهد هكذا
 لتسلم من شبكة الضمان التي حملت بها نفسك : « فاعمل اذا ما اقول لك يا ابني
 فتسلم . وتخلص كالغزال من اليد وكالطائر من يد الصياد » * لانك بهذا الضمان
 الزمت نفسك بشيء جليل القيمة وفائق الاعتبار . وهو انقاذ النفس التي وكَّلت
 عليها * ولهذا نبهنا روح القدس على لسان ابن سيراخ قائلاً « لا تضمن فوق
 طاقتك . وان انت ضمنت فوطن نفسك انك توفي » (سيراخ ١ : ١٦) * فليمنن
 علينا الله بنعمته لتتصف بغيره نقيَّة نرج بها له تعالى نفوس اخوتنا . كل بحسب
 دعوته . آمين *

الخطبة التاسعة عشرة

تضمن بيان اصناف الاضرار الثلاثة التي تصدر من لسان النّام في وقت واحد
لثلاثة اشخاص . فاولاً للذين ينمّ بهم . وثانياً للذين ينمّ قدامهم . وثالثاً لنفسه
خاصة * والقصد بهذا كله ان يعلم النّام متيقناً ان خيره
وخاصة قائمان في الصمت وحفظ اللسان

لا في الشتم والتلبس *

« لماذا تلاميذك يتعدون وصية المشيخة اذ لا يغسلون ايديهم عند اكلهم
الخبز ». هكذا حرر القديس متى في الاصحاح الخامس

عشر من بشارته *

القسم الاول

لقد قيل ان الزهر نفسه الذي يجني منه النخل الحلو لعل العسل يستخرج
منه العنكبوت سماً قاتلاً ايضاً * فان كان هذا القول صحيحاً فقد صح وانضحت حقيقته
جلياً اليوم في قصة الرسل القديسين : لان هؤلاء المساكين تبعوا يسوع مختصر
العالم . ولهذا اضطروا ان يعيشوا معه بالذل والمحقة ناسين انفسهم غير مهتمين
براحتهم ونظام احولهم وملاطفتها . ومع ذلك فمن ذا يصدق ان بعضاً من اليهود
وجدوا في هذا ايضاً ما يقرؤونهم به ويشلبونهم * ولكن ما الذي رقبوه فيهم : العل
ذاك كان مخالفة باهظة شنيعة تضاد ناموس موسى كالاكل من الحيوانات النجسة
المنهي عنها . او لمس الجثث المنتنة : كلاً . بل راوهم ياكلون احياناً من غير ان
يغسلوا ايديهم قبل الاكل ولو كان الماكل خبزاً فقط لا اللحم او الطبخ . حسبما
يتضح هذا من تدمير اليهود عليهم قائلين « اذ لم يغسلوا ايديهم » اعني التلاميذ
« عند اكلهم الخبز » * لانه على التحقيق كان الاوفق والاوجب على اليهود ان يجنّبوا

عدم غسل الرسل ايديهم فعلاً صادراً عن تجرد النية والسذاجة. لكونهم فقراء
 صيادين غير متفلسفين. لا ان يحنسبوا ذلك احتقاراً للسنة وتعدياً على الوصايا
 وتعليم الآباء * الا ان هذه هي شيم الناس الاشرار المنافقين ان يستقطروا مرات
 كثيرة من كل عشب جيد شاف سماً ناقعاً * وهذا الشر نراه جارياً ايضاً في زماننا
 هذا كل يوم. ومتملكاً في كل مكان. وكأنه طاعون مفسد داخل اماكن المدينة
 كلها. يدب في الشوارع. وفي البيوت. وفي القصور * ويا ليت له لم يكن ممتداً الى
 الاديرة المصونة والمحصنة بأحصن الاسوار الروحية * فاذا رأى اولئك الاشرار
 واحداً متواضعاً صبوراً على كل صنف من الاهانات. يقولون فيه انه ذليل جبان *
 وان كان قنوعاً محب الامساك. يثلبونه بانه بخيل * واذا كان متورعاً وعباداً. يستهينون
 به قائلين انه فريسي مرآء. وان كان عفيفاً طاهراً. يقدفون فيه بانه نفور وعاجز *
 وعلى هذا النسق يستخرجون من كل شيء مادة فائضة للمذمة والقذف كأن ذلك
 راجع الى مجدهم وفخرهم * ولا يرجون ارتفاع مقامهم وشانهم الا بخفض شان غيرهم.
 ولا يروقون مجداً وبهاءً الا بتسويد اسم غيرهم * ليت شعري ايها الساهون اما هذه
 لئامة ودناءة نفس عظيمة * انه يجب علينا ان نرقب انفسنا ونصير نحن كاملين.
 لا ان نجعل الآخرين ان يظهروا ناقصين * فقصدي اليوم ان اصرف هذا الزمن
 كلمة المعين لي للوعظ في ترويض هذه الالسن المطلقة للمذمة والنيهة. وبحث
 النمامين على محبة الصمت المدوح وعدم التكلم باعمال الناس اقتداءً بداود النبي
 الصالح حيث حتم على نفسه قائلاً « لا يتجاوز في. اما اعمال الناس الخ » (مز امير ١٦: ٤) *
 العلهما نتكلم عن فضائلهم: كلاً. بل عن نقائصهم ووزائلهم. لان الفضائل هي من الله
 القدوس. وهؤلاء اي الذين يحبون دائماً ان يتكلموا باعمال الناس يتكلمون بما هو
 للناس لا من الله. ويندمون ما هو لهم من نفوسهم. وبذلك من النيهة ينتقلون الى
 المساقلة * غير انني لخاش من ان هؤلاء عند استماعهم اياي اليوم طاعناً اياهم بسهام
 الكلام يسخطون ويجعلوني انا المسكين ان احمل العقاب بذمهم خطبتي هذه التي

يبغضونها * لكن مع هذا اريد ان اقضي الفريضة التي انا ملتزم بها . وقد ارتضيت ان
ينفث هؤلاء غيظهم كله في . لانني راضي بان اذم بشرط ان يعفوا غيري من الثلب
والقذف فيهم * وها انا ابتدئ الخطاب فاقول :

ما احسن مجدكم ايها النمامون . وما اعظم فخركم المتصل اليكم من محاربتكم
من هو غائب عن لواحقكم * لانه من حيث انه غائب ولا يسمع ما تطعنونه به
بالسنتكم المرهفة فلا يستطيع ان يبري نفسه مما نتهمونه به وان تبين كذبكم
وزوركم * ان الله تعالى اوصى قديما في سفر الاحبار وصية كانكم لا تعتبرونها جيدا .
ولكني انا اعتبرها كثيرا واحسبها من اخص الوصايا المقدسة لان لي بها اربا . وهي
تنتهي كل احد عن ان يسب الاخرس او يتكلم عليه كلاما رديا . وهذا هو قوله تعالى
« لا تشتمن الاخرس » (لاويين ١٩ : ١٤) * وبماذا اوصى الله عز اسمه هذه الوصية :
العل الخرسان منعم عليهم نعمة خصوصية دون سائر المذنوكين . حتى يجوز لنا ان
نشتم الخلعين والمقطوعي الاعضاء والعميان والطرش ولا نشتم الخرس والبكم : كلا .
ليس الامر هكذا . لانه من المعلوم انه يجب ان تكون المحبة عامة حسبا قال هامة
الرسول « ان المودة تغطي كثرة الخطايا » (١ بطرس ٤ : ٨) . بل المعنى حسب رأي
مفسري الكتاب المقدس هو ان الله تعالى اراد ان يظهر عناية اوفر بالخرسان .
لان شتم من لا يستطيع ان يتكلم ويرد عن نفسه ويبرئها هو صنف من التعدي
والفساوة غريب جدا * والحال ان هذا هو صنيعكم انتم ايها النمامون حينما تشتمون
وتتمون بمن هو غائب عنكم كما يعلمنا القديس غريغوريوس الحبر الاعظم بقوله : ان
شتم الغائب او غير السامع هو شتم الاخرس * فانتم اذا اخذتم في محضري في مذمة
اعمال من هو بعيد ولا يسمعكم . الاتفطنون ان مذمتكم هذه وقاحة عظيمة بل هي
قساوة تخالف العدل محضا * ليت شعري لو كان الذي تسنون اسنانكم عليه حاضرا
قد اممكم . هل كنتم تجاسرون على ان تتكلموا عليه بثلب ردي هكذا * ولكن اغفروا
لي اذا ابتدأت ان استعمل بخطابي عبارات شديدة قليلا لكي اوضح لكم الحق موردا

على سماعكم ومؤكدًا انكم تقومون بوظيفة الخائنين حينما تمنون بالناس عند غيابهم
 لانكم تتخمون عليهم في الغيبة * وفي هذا كان ايوب الصديق يقول متوجعًا « واذا
 قت يتكلمون علي » (ايوب ١٦: ١٨) * فاذا شعرتم بعيوب ونقائص في احد فامضوا
 اليه بشجاعة وخاطبوه مواجهة كما فعل ناثان مع داود واخيا مع يوربعام وميخا
 مع اخاب (٢ سموئيل ١٢ و١ ملوك ١٤: ١٨ و ٢٢: ١٧) * اكشفوا له مائة وانصروه
 وبكتوه مشافهة لانكم اذا فعلتم هكذا فترجعون عند الله اجرا وافرا * لكن اذا
 قرفتموه وهو غائب فانما تشيرون بذلك انكم نظير الكلاب الجبانه التي تصرخ
 على الذئب بعد ان حمل الخروف وابتعد ودخل الوعر وولج مريضه
 وما عاد يسمع ايضا * بل يا ليت النمامين يفعلون مثل الكلاب ايضا لانه اذا
 رصدتموهم ترونهم يصمتون لا محالة ولو كان الذئب قريبا وقد ساهم اشعياء النبي
 « كلابا صما لا يقدر ان ينجوا » (اش ١٠: ٥٦) * ولكن مع ذلك فلا تتفق الكلاب
 مع الذئب على الفريسة ولا يوالونه ولا يساعدونه على خطف الخروف * وانتم فكم
 من مرة تمنون بالشخص الفلاني وهو غائب عنكم قائلين فيه ان له عشرة ردية في
 الساجات او انه متولع في اللعب المحرم او يبدد ماله على معشوقاته او يتهاون
 باداء وظيفته وما اشبه ذلك من اقوال القذف * ولكن اذا حضر قدامكم
 تبدئون حالا ان تمدوه على هذه الخصال عينها التي لاجلها ثلبتموه سابقا اي
 تمدونه على رجساته كأنها فورة الطبيعة في الشبوية على اللعب كأنه تنزه وتفرج الغم
 والاسراف كأنه سخاء وجود وتعلمونه ان يلتهي احيانا عن اشغاله الضرورية التي
 كنتم سابقا تهتمونه انه متهاون بها * أما هذا هو ظلم شنيع على القريب * انا
 عارف انه يقتضي شجاعة قلب للانسان عظيمة لينصح قريبه مواجهة على زلاته
 ولا سيما اذا كان ذا مقام سام اي يلزمه ان يكون نظير ايليا محنقرا كل شيء
 ارضي وراضيا بلباس خشن على جلد مكنفيا برغيف الخبز اليابس الذي كان
 هذا النبي يغتدي به نائما على عين ماء في القفر * لكن ان كان ليس لكم هذه

الشجاعة العظيمة في النصح والتبكيك شبه ايليا الغيور. فما لكم تمزقون من بعد صيت
من لا تجسرون ان توبؤوه عن قرب توبؤاً خفيفاً فقط. لان الحق حسب قول
النديس هيرونس لا يجب ان يخفى في الزوايا * فمن لدغ قريبه هكذا اي سرا
وعن بعد. يشبه الخلد والجردان التي تلدغ سرا خفياً. بل ما هو شر من ذلك
انه يشبه بعض الافاعي التي تكمن مستخفية بجيب ما بين الرمل وترصد بغير صهير
او زحف كل من يجوز من هناك لتلدغه بدون ان ينتبه على عقبه. كقول الحكيم
«ان لدغت الحية بلا رقية. فلا عائدة للراقي» (جامعة ١٠: ١١) * وبعد ذلك اتظنون
انه سهل عليكم ان تردوا فيما بعد الصيت الصالح الذي اخنلستموه من قريبكم:
لعمرى انه وان افرغتم جهدكم كله. يعسر ارتداد صيته كما يجب * ان موسى النبي
اراد ان يظهر لفرعون انه هو نذير مرسل من لدن الله حقاً. واذ اراد ان يقنعه
بذلك. فعل هكذا. اي اتى التضييب الذي كان يده على الارض واحاله حية *
ثم ماذا اتفق بعد هذا: امسكها بيده ثانية. ومن ساعده رداً عصاً كما كانت *
فاتي حينئذ سحرة فرعون وراموا ان يصنعوا آية كمثل هذه. الا انهم ما استطاعوا.
لانهم وان قدروا على ان يجعلوا العصي حيات. لم يمكنهم ان يردوا تلك الحيات
الى عصي كما كانت * فهاهنا قال اوريجينس متفلسفاً حسناً: افهم المعنى يا
صاح وتامل الى اين بلغت قوة الشيطان. لانه اخزاه الله قد استطاع ان يصنع
من العصا حية ولكنه ما استطاع ان يصنع من الحية عصا. لانه يستطيع ان يصنع
من الخير شراً لا من الشر خيراً * فهكذا يجري الامر في صنعكم يا معشر الناميين.
لانكم يمكنكم بسهولة ان تجعلوا الانسان الصالح يستبين في اعين الناس شراً
سجاً نظير الحية. ولكن كيف تستطيعون ان تردوا له فيما بعد صورته الحسنه التي
شعتموها بظنكم ونيتكم * ويمكنكم ايضاً ان تجعلوا العفيف ان يستبين دنساً. ولكن
كيف تفكرون ان تجعلوا ثانية ان يظهر من دنس عفيفاً * ويمكنكم ان تصيروا
العابد التقى محكوماً عليه بانه مرآء. ولكن باية طريقة تستطيعون ان تردوا الظن

فيه أنه عابد متورع حقاً. بعد ان صيرتموه مرأياً * فالشر الذي يُقال في الناس يُصدق حالاً. ولكن مراجعة القول بالشر وتبرئته قليل جداً من يصدقها تصديقاً كاملاً * ولذلك نقول: من منكم لا يرى انكم لا تستطيعون ان تعوضوا قريبتكم عن الضرر كله الذي اوصلتموه له بقذف السننكم، لان رد الصيت واصلاحه تماماً صعب وعسير جداً * لعربي أنه هاهنا اي في مثل هذه الحوادث لا يستطيع المرء ان يقول نظير ما يمكنه ان يقول في ارتداد الدراهم المخلصة «من اكن قد غبنته شيئاً أعطيه عوض الواحد اربعة اضعاف» (لوقا ١٩: ٨) كما قال زكا العشار * فها هي الطريقة التي تبعدنا من السقوط بهذه الصعوبات العظيمة الكائنة في ارتداد الصيت بالكمال: هي ان نصمت ولا ننم ولا نشاب احداً. مقتدين بداود النبي القائل «لا يتجاوزني. اما اعمال الناس فمن اجل كلام شفيتك انا حذرت طرُق العسوف» *
 اني حتى الآن لم ابين لكم يا معشر المومنين سوى الضرر الاخف الكائن في النسيئة. وهو الضرر الذي توصلونه للشخص الذي تمنون به * وهذا الضرر مع أنه ثقيل ومعتبر لكونه ضرراً في الشأن والصيت الصالح فمع ذلك هو ضرر زمني زائل لا ضرر في النفس ابدى * فان الضرر الاعظم الذي تسببونه بالنسيئة هو الذي تسببونه للشخص الذي تمنون قدماً * لانكم تضعون له عثرة بين رجليه تستطيع بسهولة ان تزجه في الهلاك * واثباتاً لذلك اخبروني عن الاشخاص الذين تمنون قدماًهم. اأناس اتقياء صالحون هم. ام اشرار منافقون * ماذا تجيبوني. فان قلت انهم اناس اشرار منافقون. فاجيبكم قائلاً: ما اكثر ما يفرحون عند استماعهم منكم ان لهم شركاء ورفقاء في الاثم. لعربي انهم يتعززون حينئذ ويتشجعون على ارتكاب الخطا اعظم شجاعة. والذي هو اشر من ذلك هو انهم ربما عند استماعهم اياكم تذكرون سقطات غيرهم وجرائره يتهزأون به ضاحكين * خبرنا الكتاب المقدس ان داود الملك لما بلغه الخبر بان شاول الملك واولاده الثلاثة الابطال سقطوا اخيراً قتلى في جلبوع بنتك عسكر اعدائهم. طلب من الذين اخبروه بهذا الخبر السوء

ان لا يوصلوه الى سكان جات واهل عسقلان . وذلك لئلا يصير للغلف سبب اعظم في ان يشتموا بني اسرائيل ويهزأوا بهم متعظين . قائلآ « لا تخبروا بهذا في جات . ولا تبشروا في اسواق عسقلان . لئلا تفرح بنات الفلسطينيين . لئلا تشمت بنات الغلف » (٢ سموئيل ١ : ٢٠) * وانتم ايها النامون فإذا تفعلون حينما تنصبون ديوانا في ذلك المجلس الباطل وتشرعون بذكر عيوب ذاك الشخص البيعي . او زلل ذاك الاقليس . او نقص ذاك الراهب . سوى انكم تعطون الغلف سببا للطرب والشهامة بهم * لاشك في ان سكان جات واهل عسقلان او بلغهم خبر موت شاول واولاده . لفرحوا . الا ان فرحهم هذا لم يكن الا بمصيبة زمنية . حدثت اتفاقا على شاول واولاده * ولكن اولئك يسمعون قذف السنتم فيفرحون بالخطية . فكم من مرة يتفق انه بسبب خطية شخص واحد فقط ذكروها انتم يتسع الكلام ويلطخ عرض الرهينة كلها . فيكثر النامون حينئذ . فيقول بعضهم انه قد بطل روح القداسة من هذه الرهينة . وآخر يحكم بتصاص اولئك الرهبان . وآخر يثبت انه يجب استيصال رهبنتهم . وآخر يذم قانونها وفرائضها المقدسة * لعمرى ان مثل هؤلاء يماثلون الصرصر . لانه مثلما ان هذا الديب حينما يصبح على الاشجار في ايام الصيف يحرك بصياحه الصرصر الاخرى الى ان تماثله وتماثلا جميعا الوعر من صراخها . هكذا اذا نم منافق واحد . فينبه الآخرين الى ان يغيروه بالنسبة * فكيف يمكن ان لا تخافوا من ان تحمّلوا نفوسكم هذا الحمل الثقيل من الآثام التي تصيرون انتم سببا لها بقذف السنتم *

ولكن ان قلتم ان الاشخاص الذين تبنون قدامهم هم اتقياء صالحون ولهذا لا يفرحون ولا يطربون باستماعهم الساجات التي تذكرونها انتم بل يمتنونها ويشمرون منها . فاجيبكم قائلآ : العلمك تظنون انكم لا تجعلون لهم بسهولة ايضا خطرا عظيما ليزهقوا وينهبوا مثل الاشرار المنافقين * وان ظننتم ذلك . فقد ضللتكم واعاررتكم لانهم يتعلمون حينئذ شرورا كثيرة لم تخطر على بالهم الى ذلك الحين . بل ما عدا ذلك يتفق ايضا انهم

اذ يسمعون غيرهم بتلك الفظائع التي هم عنها ناثون . يعترهم روح العجب والافتخار بسهولة داخل قلوبهم . ويخشى عليهم ان يتشبهوا حينئذ بالفريسي المدون خبره في الانجيل المقدس بان يفضلوا انفسهم على غيرهم قائلين بعجرفة وفتخفة مذمومة . « اللهم اننا نشكر . لاننا لسنا كمثل سائر الناس » (لوقا ١٨ : ١١) * ومن جرأ ذلك يسهل عليهم ان يحنقوا الاشخاص الذين تدمونهم . ويفرون منهم هاربين بعد ان كانوا سابقا لهم اصدقاء صادقين واحبباء مخلصين . ويسبئون الظن فيهم بعد ان كانت لهم قبلاً دالة جزيلة معهم في كشف اسرار بعضهم لبعض * واذا سلمنا انهم لا يتورطون الى هذه النقائص كلها . فيمكن ان تنظم المحبة المسيحية والالفة الصالحة التي كانت فيما بينهم . لان الاقرب هو انهم يسرعون بتصديق التهمات قبل ان يسمعوا حجة الفريق المتهم * وهذا هو ما قد اوعز اليه داود النبي القديس لما قال « تجلس وتكلم على اخيك . ولان امك تضع عثرة » (مزمور ٤٩ : ٢٠) * قال « تجلس » ومعنى ذلك انك لا تكلم على اخيك بسرعة وبالاختصار او بقليل من الزمن والكلام . لكن تكلم عليه بتأن وهدوء مستطيلاً * « تجلس » في ديوان ذلك الامير الذي انت قائم في خدمته . « تجلس » على قارعة ذلك الشارع حيث تجتمع الجهلة والسفهاء الذين هم على شبهك . « تجلس » على باب ذاك الحانوت الذي فيه ينتظم محفل الهز والسج والضحك . « تجلس » في كراسي تلك الكنيسة حينما كان الناس ينتظرون الوعظ . « تجلس » على تلك المائة . « تجلس » في تلك المسامحة . « تجلس » حذاء تلك النار التي كنتم تصطلون عليها . وبالاجمال اقول « تجلس » كأنك كنت في عمل يوعبك لذة وافرة وطرباً عظيماً . « تجلس وتكلم على اخيك » * ولكن ماذا تظن : اتظن انه ههنا انتهى شرك واساءتك : لا تظن هذا يا ايها النمام الشقي . لانك في الحين الذي فيه تكلمت على اخيك « وضعت عثرة » ايضاً « لابن امك » اي وضعت عثرة للذين سمعوك . لكون اولئك بما انهم ضعفاء وناقصوا الراي فيراد بكل واحد منهم حسب تفسير القديس اوغسطينس ابن الام (اي ضعيف وناقص الراي) *

قلتُ الذين سمعوك زلوا وعثروا من كلامك المملوء قذفاً وسقطوا. لانهم نالوا منك سبباً ليخطئوا ايضاً كثيراً او قليلاً حسب ضعفهم ونقص رايهم. لكونهم سمعوا وتعلموا الشر الذي لم يكونوا يعرفونه ولا احكموه في احدٍ حسبما فسّر القديس اوغسطينس النص النبوي المار ذكره * وبعد هذا اما تخاف ايها النمام الظالم. اما ترتعد. وكيف تشرب الآثام كالماء. ليس آثامك فقط بل آثام الآخرين ايضاً * فطاوعني اذا واقصد القصد الذي قلته لك انفاً. واهتف مع داود النبي قائلاً « لا يتجاوز في الى اعمال الناس » *

ويحق لنا ان نقول اكثر من ذلك * لانه يجب عليكم ان تعلموا ان لسان النمام هو كلسان الافرعي اي لسان مثلث الرؤوس. فيجرح كقول القديس برنردس بلدغة واحدة ثلاث جرحات. لانه يجرح اولاً الانسان الذي ينم به. لكونه كما قلنا يوذبه اذية عظيمة وثانياً يجرح الاشخاص الذين ينم قدامهم. حيث انه كما ابنا ايضاً انفاً يضع لهم شكاً وعترة للخطا. وثالثاً يجرح نفسه لانه يضرها بهذه المضرات التي انا ميينها لكم الآن بخطاب ارفر اسهاباً ما مر في توضيح الضرر من البابين المشروحين * الا انني محتاج الى فصاحة اغزر ما مضى لا قدر ان اوضح جلياً هذه المضرات. لانها اعظم كثيراً من الاضرار المتقدم شرحها * ولكي تفهوا من ذلك ايها النمامون كم تسيئون الى نفوسكم بعدم ضبط السنتكم. فاقول اولاً: انه من الاكيد انكم حينما تظنون ان نبيبتكم ترضي السامعين وتجعلكم لديهم مقبولين معتبرين لاجل ان الثلب في الناس يُسمع غالباً بشوق ولذة. فبعكس ذلك تصيرون عندهم ممقوتين مردولين. لانه لا يمكن ان لا يجري بكم ايضاً ما نطق به روح القدس في سفر الامثال قائلاً: ان النمام مبعوض ممقوت عند الناس. وهذا هو نص كلامه « الثالب هو وجاسة الناس » (امث ٢٤ : ٩) * وتاكيداً لذلك اخبروني قليلاً: هل تحسبون الناس الذين تتكلمون معهم بلهاً ومغفلين كأنهم لا فهم لهم ليفكروا في نفوسهم انه كما انكم تدمون الآخرين قدامهم هكذا تاتون بذكرهم هم ايضاً وتدمونهم

امام غيرهم * لعبري أنهم يفهمون ذلك ويفكرون به ويحسبونكم خائنين لا يوثق بكم *
ومع أنهم يظهرون لكم بالتبسم وطلاقة الوجه أنكم لديهم في حيز القبول والرضى.
يحقرونكم باطنًا. قائلين في انفسهم: ما ارف لسان هذا الشخص. انظروا كيف
يجرح ويقطع. لا ريب في ان هذا هو من الذين دعاهم الحكيم «جيل اسنانه سيوف»
(امثال ٢٠: ١٤) * وان كانوا الآن يمزقون غيرنا قدامنا. فلا ريب في أنهم يمزقونا
نحن ايضا لدى الآخرين. ان هؤلاء الخائنون لا يسوغ لنا ان ندعن لهم * ولا تظنوا يا
ايها النمامون انه يفيدكم تانيف مذمتكم بحيلة مصنعة. اي مزجكم محقرتكم لغيركم بمدح.
لتجعلوا لكلامكم صدقًا وثباتًا. وذلك اذا احقرتوهم وذمتوهم في الكثير ومدحتوهم
في القليل. لان هذه صناعة وحيلة دارجة كثيرًا ومفهومة عند غالب الناس *
لانه يصعب جدًا ان يوجد احد غير عارف بان الريح يطعن ويجرح ولو كان
مستورًا بمنخرق او ورق اخضر * ان الجواسيس الذين ارسلهم بنو اسرائيل الى ارض
الميعاد ليخبروها ويعرفوا كيف هي. لما عادوا الى المعسكر وراذوا ان يذموها
ويزيغوا ضمائر الشعب. ابتدأوا ان يمدوها ويثنوا عليها كثيرًا. ولذلك اروهم عنقودًا
من العنب اتوهم به منها كبيرًا جدًا حتى انه لزم ان يحمله شابان منوطًا على خشبة.
ثم اروهم رمانات حسنة المنظر. وقدموا لهم ايضا تينًا سمينا ودمًا جدًا. وقالوا
لهم: افهموا من هذه الاشارات كم حسنة الارض التي يستاقنا الله اليها وكم خصبتها
«وهي حقًا تفيض لبنًا وعسلًا» (عدد ١٣: ٢٨): ما اشهى رؤية مروجها. ما اسهل
تلاها. ما اعذب مياهها * لا يوجد في العالم ارض ترى افضل منها * لكن كيف
ختموا خبرهم هذا: اسمعوا وافهموا * أنهم نضحوا بعد قليل على هذه القطرات العسلية
التي قدموها افستينًا جزيل المرارة جدًا بقولهم «ولكن القوم الذين يسكنون الارض
اشدء. ومدنها حصينة عظيمة» وبكلامهم هذا حرضوا الشعب كله على التمرر. فجزعوا
خائنين واضطربوا. واثاروا على موسى وهرون بل على الله سبحانه عظيمًا لم يصر مثله
الى ذلك الحين في مضارب العبرانيين * فأتجوا من هذه ايها النمامون ان تصنعكم

هذا في عظم ذمكم للقريب ومدحكم القليل له ليس هو اختراعاً حديثاً فيكم كما
تظنون. لكن هو قديم ومعروف عند غيركم قبلكم. افلا ترون عياناً أنه لا يفيدكم شيئاً
ولا يصيركم في حيز القبول والمحبة لدى الناس بل يجعلكم ان تكونوا محقوتين عند
الجميع كما قال الحكيم: «الثلب هو رجاسة الناس» * ان الجميع يفهمون جيداً ان علة
ثلبكم اعمال الناس ليس غيرةً صالحةً منكم. لكن هو غيظٌ او سخطٌ او حقدٌ ملتبسٌ
قليلاً بشكل الغيرة. ومن قبل ذلك يتخذ سبباً كل من يسمعكم في ان يتحذر منكم.
اذ انكم تشبهون كلاب النصاب البعطاء التي يلذها ان تعس شفاهها بدم كل
حيوان على حدٍ سوى. واذا تحذر منكم فيمقتكم لان «الثلب رجاسة الناس» *
ولكن هاتِ نفترض ما لا يمكن ان يكون البتة. وهو ان قول الحكيم المورّد
اي ان «الثلب هو رجاسة الناس» لا يصدق فيكم. ولنفرض ان تعبيركم الناس
لا يجعلكم محققين مرذولين بل يصيركم ذوي سمعةٍ وقبولٍ عند الذين يسمعونكم *
ولكن الا تعلمون جيداً أنه يصيركم مبغوضين عند الله تعالى. لكون الرسول الالهي
يقول «نهامون مبغوضون لله شتامون» (رومية ١: ٢٠) * ولا عجب في ذلك. لان هذه
الرديلة اي افساء عيوب الناس تضاد شيم الله عز وجل: وكيف لا والحال ان
شيمة القدسية هي ذات حلم ولطف. ولجل ذلك قال القديس توما الملقان:
ان الله تبارك وتعالى يستصعب جداً جداً ان يظهر جرائمنا ما دمنا احياء في
هذه الارض * ولتحقيق ذلك اعتبروا كيف أنه عامل ابنه الشاطر لما رآه ساجداً
قدماًه. لان هذا الابن الشاطر قد اتاه من الغربية مقروراً من البرد مهزولاً من
الجوع حتى أنه بالكاد استطاع ان ينطق قدماًه * وما هو الشيء الذي استعد له
قبل كل شيء: العلة اعني حالاً بان يدفعه او يطعمه او يسقيه: كلا. لكن اهتم
ان يكسوه. ولذلك امر قبل كل شيء للوقت قائلاً «قدموا الحلة الاولى والبسوه
(لوقا ١٥: ٢٢). واستمر حاضنه ومعنته الى ان اتوه بها * ولاي سبب فعل ذلك:
لعري ان السبب هو ما اورده القديس بطرس خرسولغوس بتوليه: ليستره ولا يدع

احداً من عبيده ان يراه عرباناً * وهكذا جلّت مراحمة ستر ايضاً فضيحة الزانية
 التي قدموها له في الهيكل . لانه تعالى ما اراد ان يكلها كلمة واحدة من التبيك
 قبل ان يخزي المشتكين عليها (يوحنا ٨) * ومثلها ستر ايضاً فضيحة السامرية التي
 اتت اليه عند البئر . اذ انه جلّت خيراؤه لم يشأ ان يوبنها على ساجدة افعلها الا
 على انفرادٍ وذلك بعد ان انصرف عنه جميع الرسل (يوحنا ٤) * وكذلك ستر
 مكر يهوذا الدافع نفسه . لانه مع ان الذي ساله فيه بلجاجة كان يوحنا تلهذه ذلك
 الحبيب والمنعم عليه وخازن جميع اسراره تعالى الغامضة العظيمة . لم يشأ ان يظهره
 ولا له الا بالرمز فقط (يوحنا ١٤) * فصح اذا ان الله جل ثناؤه يستصعب كثيراً
 ان يظهر جرائمنا الخفية ما دمنا في هذه الحيوة كما قال الملفان المقدم ذكره *
 فكيف اذا يمكن ان لا يبغضكم الله ايها النمامون حينما تفعلون ما يضاد شيمه
 الحليمه وتظهرون جرائم قريكم الخفية المستترة . وتزدادون قباحة على قباحة حام بن
 نوح . اذ انكم تفضحون من هو راقد استهزأ به . بل تدعون آخرين كثيرين
 ليتفرسوا عريه (تكوين ٩ : ٢٢) * نعم ان الله يبغضكم من اجل نفاقكم هذا لا محالة *
 ولكي ازيدكم اقناعاً بذلك . اسالكم فاخبروني : هل تظنون ان لكم انتم الفضل اذا كنتم
 اقل خطأ من اخيكم الذي تتكلمون عليه بالمدمة * انه لا شك في ان كل خير وكل
 فضيلة هي نعمة من الله . وانتم تتفخرون لذلك على اصحابكم بل تدمونهم وتلدغونهم *
 فاذا اذا تتوقعون من هذا الافتخار والكبرياء الا رفع يد الله تعالى عن اعانتكم *
 واذا عدل عز وجل عن ان يعضدكم . افما تسقطون في تلك الآثام عينها التي
 تدمون بها غيركم * اسمعوا ما نطق به روح القدس في سفر الامثال قائلاً « ان
 المنافق يخزي ويخجل » (١٢ : ٥) * نعم . ايها السامعون « ان المنافق » ولين ظن انه
 « يخزي » غيره بنبيته . لكنه « يخزي » هو نفسه * يا ليتني استطع الآن ان اسهب
 الخطاب معكم بحسبها في سرّي . فابرهن لكم ان قول الله المذكور قد صح في كل
 زين وفي كل الامم وفي كل عمل * فلنكتف الآن بخبر ايشالوم المنافق . فانه لو لم

تكن قصته ماردة في الكتاب المقدس وهي من عقائد الايمان . لما كان يصدقها كل احد فاقول كان هذا ايشالوم قد سمع ان امنون اخاه الكبير انشغف بحبة ثامر اختها حتى انه جن بها . ولذلك اقتضها يوماً بعار لم يسمع بمثله قط . فغضب ايشالوم من ذلك . بل احتى غيظاً وحنقاً . حتى انه حكم بعقله ان فضيحة اختها لا تحي الا بقتل امنون اخيه المغتصب * ولكن ماذا صنع ليلبغ اربة هذا : انه تناسى معرفته باثم اخيه الى مدة من الزمن . ثم اذ ابصر في احد الايام الوقت ملائماً لبلوغ قصده . صنع وليمة فاخرة . فارسل فدعا اليها امنون وسائر اخوته بعد ان دبر له فيها كميناً * ثم دخل ووثب عليه مع عبيده وقطعه ارباً ارباً باسلحتهم (٢ سموئيل ١٣) * فن منكم ايها الابناء الاحباء لا يستنج من هذا الصنيع ان ايشالوم اضحى بذلك ملتزماً ان يجذر مجتهداً من ان يوجد مدنساً بالعب الذي ابغضه في اخيه وقاصه بكل هذه الحدة . لان الحكيم قال « من استهان بامرٍ يخرب نفسه » (امثال ١٣ : ١٣) * افما تحكون انه قد وجب على هذا الذي غار هكذا للعبة ان يعيش فيما بعد عفيفاً كالحمل النقي بل مبتعداً عن كل دنس ورجاسة اذ قد اشتهر بانه قتل اخاه لمقتته كل دنس . ومع هذا اسمعوا ما فعل هذا الاحمق بعد ذلك : انه فعل امراً ترتجف منه الفرائص لا محالة . وارتكب نفاقاً اعظم جداً من النفاق الذي ذمه في امنون اخيه * وذلك انه لما هرب داود ابوه من قصره الملكي وتركه له مفتوحاً . نصب في سطح عالٍ مشتهر خيمة عظيمة . واحضر اليه امام الناس كلهم نساء اييه وفضحين بوقاحة لم يسمع بمثلهما عند الناس المتوحشين ولا عند الوحوش الهائمة نفسها . وكن في العدد ليس باقل من عشر * وهذا نص الكتاب الالهي « فضربوا لايشالوم خيمة على السطح . ودخل ايشالوم على سراري اييه تجاه جميع اسرائيل » (٢ سموئيل ١٦ : ٢٢) * اهذا هو ايشالوم الغيور الذي عمل سجساً عظيماً من اجل اثم واحد فقط سمعه في غيره . ما هذا الانقلاب الغريب . ما هذا الامر البديع * لا ريب ان امنون اخطأ لكن سراً خفياً وفي اخفى مخادع البيت حيث وهم الناس انه مريض لحرقه من

ان تشتهر خطبته الرجسة التي قصدتها * ولكن ايشالوم لم يستح من ان يخفي جهراً
وباصوات الابواق . وبمناداة المنادي . وفي الظهيرة . وتجاه امم وشعوب لا تحصى
عدها * نعم هكذا جرى الامر وهكذا حدث ايها المومنون * فهل اتصل ايشالوم
الغيور على اثم غيره الى هذا الحد من النفاق . نعم . ولكن لاي سبب اتصل الى هذا
النفاق : فليورد كل منكم السبب الذي يهواه . واما انا فموكّد عندي انه قد اتصل
الى هذا الحد من النفاق الذي لم يذكر بمثله في كل الازمان لاجل سبب واحد
وهو انه من جرى خطبة واحدة اقام سجساً وضجة عظيمة على اخيه * فهو لم يرحم
اخاه ولا عذره . بل اراد ان ينتقم منه ويخزيه ويفضحه امام الناس . فسبح الله جل
عدله لمعاقبته عن قلة رحمته لآخيه ان يتهور في اثم افضح من اثم اخيه جداً * وسبب
ذلك « ان المنافق مخزي ومخجل » * ولطابق الآن ذلك مع ما نحن في صدده
فنقول : انت يا اخي تمزق بلسانك المرهف صيت قريبك لاجل خطبة سقط فيها
اما من قبل الضعف البشري او من شدة التجربة او من حدة الخلق او من خفة
العقل . ولكن اما تخاف ان يهلك الله فتتهور في جرائم اثقل من ذنوب اخيك *
انت ادري بما في نفسك . غير انني اسالك باحترام جزيل ان لا تثق بنفسك ولا
تكل على قوتك * « وخبّ صديقك » كذا قال روح القدس على فم الحكيم ابن
سيراخ « وخبّ صاحبك » لان هذا فعل صالح به ثواب . لكن افعل ايضاً ما امر به
تعالى بعد ذلك قائلاً « واجعل موضعاً لشريعة العلي » (سير ١٩ : ١٧) * لانه وان
استبان لك أنك حاصل على الكمال في هذا الحين . لا تعلم ماذا يصيبك في حين
آخر * ليت شعري من كان يصدق ان ياهو ملك اسرائيل الذي بغيرة مقدسة
نقض مذبح البعل وقتل كهنته ياتيه فيما بعد زمان فيجتو بركبته قدام الاصنام
(٢ ملوك ١٠) * ومن كان يفكر ان يواش ملك يهوذا الورع الذي رم اسوار
هيكل الرب وملاً خزائنه من الفضة والذهب ياتيه وقت فيمده يديه الى اواني
الهيكل ونفضته فيخطفها ويقربها قرباناً لملك ارضي وثني * ومن كان يصدق ان

سليمان الحكيم الذي تكلم ببراعةٍ ألهيةٍ في سفر الامثال في ذمّ المحبة للنساء وكشف ضلالتها وظهر الاضرار الناتجة منها. جعل اخيراً عيباً في كرامته كقول ابن سيراخ وسقط بعار شنيع في الهوة المفقوتة العميقة التي كشفها لغيره بكل هذا النور * فلا تحسبوا اذا انفسكم ايها الاحبياء غير قابلة الخطأ. لانه على ظني ما تثبت بعد في النعمة نظير اهل الملكوت الممنوعين بمشاهدة الله تعالى. بل انكم بعد سريعو العطب وقابلوا الخطأ. وانا اخاف عليكم جداً من ان تكونوا انتم اعظم خطأ من الذين تحنقونهم وتعيروهم * لعلمي ان الذين يرقدون مدفونين بالطين نظير الضفادع هم الذين يصرخون صراخاً اعظم ويضجون ضجيجاً اشد. كأنهم قاصدون ان يوجئوا ويعيروا من يجوز على دنسه من غير ان يتلوّث به * قال روح القدس في سفر امثال « الغي يصدق كل كلام » (امث ١٤: ١٥). اي ان الذين لا خبث عندهم يظنون في الجميع خيراً وصدقون كل شيء كما صدق يشوع سكان جبعون. ويعقوب صدق لابان. ويوناتان صدق طرفيون * ولكن الاشرار المغرسين في الرجاسات لا يكتفون بالنقائص التي يرقبونها في غيرهم. لكن ينظرون احياناً النقائص التي لا وجود لها فيهم ايضاً. ويرصدون كل شيء. ويعيروا كل شيء. ويحنقون كل شيء. ولا يعرفون ان يحسنوا الظن في غيرهم. بل يفتكرون فيهم بما هو الاشر دائماً * وما احسن ما قاله سليمان الحكيم في سفر الجامعة « الغي اذا مضى في طريق يقل فهمه. ويظن الجميع جاهلين » (جامعة ١٠: ٢) * وهل يمكن ان يجتعل الله من كانت هذه السجية سجيته. لا شك في انه ينبغي ان يعاقبه تعالى عقاباً شافياً. لانه جل ذكره ان كان لم ياذن في سنته القديمة بان تحكم الاصحاء على احد بانه ابرص ان لم يخبره الكاهن قبلاً بفحص بليغ. فهل يجتعل تعالى الآن ان يحكم البرص على الاصحاء. ويدينوهم * « فلا تتكلمن » اقولنا باعمال الناس. واكرر القول لا تتكلمن. لان التكلم باعمال الناس يطوحنا في خطايا جسيمة ومخاطر عظيمة نفساً وجسداً * واعلمكم نظنون انني بالغت الآن في تخويف النمامين وقلت في امرهم كل ما يمكن ان

يقال من الردي. ولكن لنسرح قليلاً ثم ترون يقيناً ان كل شيء ذكرته في امرهم
أنا هو هزءٌ ولعبٌ *

القسم الثاني

انني لا ارتضي بان تسموني واعظ الفالات او المبشر بالاهوال المحزنة * وما
الذي ارجوه بوعظي اياكم كل يوم اذا كنت راجباً تخويفكم. وانذرتكم بامور هائلة
تجعلكم ان تكرهوا وعظي لكيلا تسمعوا هذه الانذارات المخيفة * ولكن مع هذا فحبي
لكم المخلص يضطرنني ان لا اغشكم ولا اتهاون بما يخص خيركم وخلصكم * فاحذروا
جيداً ايها النمامون. لان القصاص الذي سيوافيكم من نيهتمكم عظيم جداً. وهو
انه يدرككم الموت سريعاً وبغته ويكون موتاً مخوفاً * وان سالتهم: من اين لك هذه
المعرفة: العلى ملاكاً ساوياً انحدر من العلاء واسر اليك هذا السر العظيم. ام
هل اوحى به الله تعالى اليك. ام هل لك عليه دليل وبرهان واضح * فاجيبكم: ان
لي في ذلك معرفة اوضح واثبت مما ذكرتم بسوءكم هذا. لانه ليس ملاك اظهر لي
ذلك. بل رب الملائكة كلمني في سفر الامثال المقدس وابان لي ان العقاب المخلص
بالنمامين هو موت الفجأة وذلك بقوله « يا ابني اتق الرب ولا تخالطن الثالين.
لان هلاكهم ياتي بغته » (امث ٢٤: ٢١). اسمعتم قوله تعالى « هلاكهم ياتي بغته » *
فيا لسوء حالنا ويا لعظم شقائنا. وماذا نفعل ان كنا لا نخاف من هذا الخطر
الهائل المرعب. العلى الله تعالى يمكن ان يكذب. ام لعله يستطيع ان يباليغ في
شيء اكثر مما هو بالحق * العله يقدر ان يخيفنا خوفاً عتياً ليجعلنا ان نصدق ما لا
وجود له: حاشا وكلاً * ولكي يتحقق ذلك بالاخبار ايضاً تحقيقاً اكثر اخبروني: كيف
انتهت حياة القيموس المنافق الذي اطلق لسانه على يهوذا رئيس المقاييين الأبطال:
اما عدم النطق حالاً واخرس. وجفت اعضاءه ومات بغته من نقطة دم نزلت

عليه * وكيف انتهت حياة داثنان وايرام وقورح الذين دمدموا على موسى النبي
 وشموه: اليس ان الارض انفتحت وابتلعتهم بغتة * وارثك الذين تدمروا على
 موسى في برية ادوم اما تذكرون كيف قضوا اجالهم: اليس من المعلوم عند الجميع
 انهم وافاهم جيش من الحيات والافاعي. فوثبت عليهم وادغتهم. وكانوا يموتون
 سريعا باشقى الميتات * فانتجوا من هذه ان الله لم يقصد ان يخيفنا عبثا حينما توعد
 النمامين بالموت النجائي وذلك بقوله المتقدم ابراده «هلاك الثالين ياتي بغتة»
 لان ذلك معلوم ومحقق بالاخبار والعمل. بل هو مطابق لبرهان العقل ايضا *
 وذلك انه ان كان الثالين هم قوم يقتحمون على العدو كأنه من قناه. (حسبا تقدم
 القول في بدء خطابنا) ولا يصادمونه مواجهة بل مكيدة وسرا. فهم خائنون
 ماكرون. فليس اذا بعجب ان يدركهم الموت بغتة ومكرا. لان الموت وحده كاف
 في العالم ليخرس اللسان الغاش الخبيث *

ولكن ها انا اسلم لكم ان الوعيد الالهي المذكور لا يحل بكم بكل هذه الصرامة
 والتدقيق. بل انكم تحظون قبل ساعة وفاتكم بزمن مناسب لتنتهبوا لنفوسكم وتفهوا
 انتم وتستمحوا الغفران من الله تعالى * الا اني اسالكم فاخبروني: باي قلب وباي
 اسفار وجه تستطيعون ان تستجدوا يسوع ربكم وترجوا منه الغفران: اما قسوتكم
 انتم على قريبتكم ولم تؤثروا قط ان تغفروا له خطية. بل اهتموه بكبرياء وشكوتوه
 بعجرفة. وعضوا عن ان ترحموه وتستروا نقائصه جعلتموه معيرة بل سخرة ايضا في
 مجالسكم * فكيف ترجون عند ساعة وفاتكم الغفران من الله: فالويل لكم * لعمرى
 ان هذا اكبر الاخطار التي تدرككم في سياق الموت. اي القنوط وقطع الرجاء من
 رحمة الله نقديس اسمه. وليس ذلك من غير سبب. فانه تعالى يبغض النمامين
 اشد بغض ويظهر شدة وسخطا عظيما جدا عليهم. حتى انه يجد في اضطهادهم حسبا
 جاء في الزبور «الذي يقع في قريبه خنيا هذا اطرده» (مزامير ١٠٠: ٥) * اني لا
 اظن انه يوجد فيكم احد يجهل كم كان لموسى من السلطان ان يستغفر الله

ويستعطف رافته تعالى بالمدنبيين * لان شعبه كان قد سبك عجلًا من ذهب
 في البرية ونصبه على مذبح وقدم له بخورًا وسجد له . ومن جرى ذلك غضب الله
 عليه غضبًا شديدًا حتى انه تعالى حتم ان يهلك ذاك الشعب بالنار والسيف
 ويبيد ذكره من الارض . ولكن لما توسط هذا النبي بين الله والشعب متشفعًا
 عنهم وطالبًا منه تعالى الرحمة . نال لهم الغفران حالًا وجعل سخطه الالهي ان يهد
 اسرع مما تهد امواج البحر المضطرب بسكون الريح . كما يشهد بذلك نص الكتاب
 المقدس بقوله «فصرف الرب الشر الذي قال انه يفعله بشعبه» (خروج ٢٢ : ١٤) *
 فمن منكم لا يقول ان الذي نال الغفران بكل هذه السهولة والسرعة لشعب منافق
 اثم هكذا ليس له ان يخاف من عدم اجابة صلاته فيما سيأتي دائمًا . ومع ذلك
 ما الذي حدث ايضًا لهذا النبي نفسه اعني موسى بعد ذلك الحين بزمن يسير
 اذ شاء ان يشفع في اخيه مريم التي كانت قد ضربت بمرض كريبه في وجهها *
 انه ابتهل متضرعًا من اجلها . وصرخ الى الله جدًا فلم يستفد من ذلك شيئًا .
 لكن التزم ان يشاهدها بعينه معتزلة عن الجماعة ومنفية ومخفية وحدها لتفي
 باحتمالها البرص السمج عن القصاص المستوجب عليها * فليت شعري ما هو سبب
 ذلك : العله ارتكبت اثمًا اثقل من اثم السجود للاوثان . ماذا فعلت هذه المسكينة
 من الردي . وماذا قالت . وماذا اُثمرت حتى فاق اثمها على اثم الاسرائيليين الذي
 ارتكبه سجودهم للعجل الذهبي . وهان على موسى ان ينال لاولئك من الله تعالى
 الغفران لالها * فالجواب : انه من المفهوم ان مريم هذه طمعت في الفصاحة الطبيعية
 التي جاد بها الله سبحانه على جميع النساء ليسهل عليهن تعليم اولادهن اللغة
 والحديث . وثبتت موسى اخاها من اجل زواجه بامرأة كانت حبشية طليعة او
 نسبا . ولاجل ان خطيتها هذه كانت خطية النية اي قلة الرحمة على نقائص
 صادرة من الضعف البشري . لم يشأ الله جل عدله (كما اعبر القديس باسيليوس)
 ان يقبل عنها الاعذار والتضرع والشفاعة * وقد عفا بواسطة شفاعته موسى عن

الآثام الثقيلة التي بها اهنت عزته الالهية . ولم يُبشّر ان يصغ عن هذا الاثم
 الخفيف الذي صدر في حق موسى عليه « فاعتبروا يا معشر السامعين . اليس ان
 ما قلته لكم حق . وهو ان ارهب التأثيرات التي تصدرها النعمة في قلب الله الرحيم
 هي انها تصير قلبه تعالى قاسيا لا يرحم ولا يراف بسهولة * فمن يقدر الآن على ان
 يؤكد لكم انكم تستطيعون ان تلبسوا قلبه الاقدس نحوكم عند ما تستغيثون به في
 ساعة موتكم . الا تحسبون جسارة عظيمة طلب الغفران والرحمة عن الخطايا التي
 هي في حقيقتها عدم الرحمة * لعربي انه هكذا كان جواب احد الرهبان عند ساعة
 وفاته كما يخبر عنه مورخون كثيرون * وذلك ان هذا الراهب لما دنا من الموت
 وسمع القيام عنده يناشده برأفة جزيلة ان يثق برحمته الله تعالى . فاجابهم قائلا
 بصوت عال : ما هي الرحمة . ما هي الرحمة . ان الرحمة ليست هي لانني ما استعملتها
 مع غيري * وحينئذ مد لسانه خارجا عن فيه . و اشار باصبعه الى الحاضرين ليتفرسوا .
 ثم قال : هذا اللسان قد دانني . هذا الذي سمعته مرارا كثيرة ادين به غيري .
 هذا جعلني الآن ان اموت آيسا واهبط الى الهلاك * ولكي يتحقق ان ما نطق به
 حق وبحكم الله العادل . تورم لسانه للوقت وتشكل بصورة هائلة جدا . حتى انه ما
 استطاع احد ولا هو ايضا ان يردّه الى فمه بل شرع يضحّ ويضحّ يشبه الثور المربوط
 للذبح . وبعد سباق شاق ومعذب خرجت روحه الشقية * وانسان آخر نهام قطع
 لسانه كله باسنانه بغيظ شيطاني عند وفاته . وآخر يبس لسانه وآخرا تن لسانه ودود
 في الحين . وهؤلاء كلهم ما استطاعوا ان يحركوا السننهم في طلب الرحمة والغفران من
 الله تعالى في تلك الساعة الاخيرة . ولا ان يستنجوا من فضله الرافة والعفو عن
 جرائمهم النديمة * فما قولكم الآن ايها الاخوة : ايجس بكم ان تطوحوا بنفوسكم في
 مثل هذا الخطر العظيم لاجل فلتات اللسان او عدم ضبطه بخشية الله تعالى *
 « لا يتكلم في باعمال الناس » كذا . ترموا دائما مع النبي والملك لا مرة واحدة بل
 كرروا هذه الآية الالهية مرارا حتى قائلين « لا يتكلم في باعمال الناس » فلنعزما

الآن عزماً أكيداً ان نفتكر في نفوسنا ونهتمّ بها فقط . ويكفيها الحساب الذي سوف
نعطيه الله عن انفسنا * ما لنا وعمل الناس : لعمرى ان هذا جنون فينا عظيم . ابي
التفكر والاهتمام بضائر غيرنا . وذلك يزيد الوقر والحمل على ضائرنا * ماذا يفيد
النهر اذا خرج عن مقره مفعماً امواتاً وغسل الشوارع واستجر معه كل نجاسة
ودنس . وبعد ذلك عكر نفسه وصار هو دنساً ووسخاً بدنس غيره * ان حياتنا
قصيرة . واذا رمنا ان نصرفها بالحكمة في عمل خلاصنا . فهيهات ان تكفيها . فلماذا
نريد ان نصرف بعضها باطلاً في اعمال الناس * ان الحاجة الضرورية التي نحن
ملتزمون بها على قول المسيح هي واحدة . وهي ترتيب امر خلاصنا حسناً والاهتمام
به * ان هذا العمل لعمرى هو ثقيل وصعب وعسر جداً . ومع ذلك فنحن عائشون
في هذه الارض غير مكترثين به كأنه لاشيء بل نحمل نفوسنا هموماً باطلة . وليس
باطلة فقط بل موزية ايضاً لنا * فلندعن عيسو واقرانه يجولون حاملين الجعبة
على مناكبهم والقسي بايديهم دابهم فقط ان يصيدوا عيوب الآخرين كفرائس لذيذة
على مذاقهم . ولنرتضين نحن مع يعقوب بان نحنبس في مخادعنا . ونحسب بخلوص
مقدس في قلوبنا ان كل الناس هم افضل واكمل منا * من يفعل هكذا . فهذا هو
المسيحي الصالح الحكيم المهتم بخلاص نفسه . والذي يصنع خلافة هو الانسان الذي
لا يبالي بامر خلاصه * اجارنا الله تعالى من ذلك . آمين *

فهرست

وجه

- ٠٠٥ الخطبة الاولى في ساعة الموت وعدم معرفتها
٠٢٠ الخطبة الثانية في صداقة الله للبشر
٠٥٢ الخطبة الثالثة في الغفران للاعداء
٠٧٨ الخطبة الرابعة في قلة الراجين في الآخرة
٠٩٩ الخطبة الخامسة في الدينونة العامة
١٢٥ الخطبة السادسة في حماقة الخاطي
١٤٩ الخطبة السابعة في قلة من يهتم بالآخرة
١٧٢ الخطبة الثامنة في احقار اعتبار الناس
١٩٦ الخطبة التاسعة في اهل المطهر
٢٢١ الخطبة العاشرة في نعيم الملكوت
٢٤٥ الخطبة الحادية عشرة في تاخير التوبة الى ساعة الموت
٢٧٢ الخطبة الثانية عشرة في شناعة الذين يفتخرون بخطاياهم
٢٩٦ الخطبة الثالثة عشرة في ذم تعظيم الاهل بطرائق محرمة
٣١٩ الخطبة الرابعة عشرة في عذاب جهنم
٣٤٢ الخطبة الخامسة عشرة في عقاب الله للخطاة
٣٦٦ الخطبة السادسة عشرة في الاقلاع عن الخطايا لصحة التوبة
٣٨٩ الخطبة السابعة عشرة في خبث الذين يكافئون الله شراً
٤١٣ الخطبة الثامنة عشرة في توبخ القريب
٤٢٧ الخطبة التاسعة عشرة في النسيئة









Congregation de Notre Dame du

sacres coeurs du

Jesus

6

أخوية سيدتنا القديسة بروج الدقيس

ܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ

ܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ ܘܟܠܘܢܐ

Ex Libris

Beth Mardutho Library

The Malphono George Anton Kiraz Collection

ܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ
ܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ
ܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ
ܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ
ܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ ܕܘܟܠܘܢܐ

Anyone who asks for this volume, to read, collate, or copy from it, and who appropriates it to himself or herself, or cuts anything out of it, should realize that (s)he will have to give answer before God's awesome tribunal as if (s)he had robbed a sanctuary. Let such a person be held anathema and receive no forgiveness until the book is returned. So be it, Amen! And anyone who removes these anathemas, digitally or otherwise, shall himself receive them in double.

Ib1

كِتَابُ

الْخُطَبِ الْبَاهِرَةِ وَالْمُوعِظِ الزَّاجِرَةِ

وهو مجموع خُطَبٍ مرتبة على ايام الصوم الكبير

تأليف الخطيب المشهور

الباتري بولس سنيري اليسوعي

استخرجه من اللغة الايطالية

القس اسطفانس القبرصي سنة ١٧٦٣

وبعد المراجعة والتنقيح طبع ثاني مرّة

المجلد الاول



في الموصل

في دير الابهاء الدومنيكيين

سنة ١٨٨١

صحة صحاح صحاح

Religion: Sermons

Beth Mardutho Library

مكتبة الابهاء الدومنيكيين
الموئل - العراق
Bibliothèque des Dominicains
Moessouh

